سید قطب

في ظلال القرآن

Marfat.com

Marfat.com

في ظلال القرآن

بقلم

سيد قطب

الجزء الثالث عشر

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بقية سورة يوسف وسورة الرعد وسورة إبراهيم

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

يتألف هذا الجزء من بقية سورة يوسف المكية ، ومن سورتي الرعد وإبراهيم المكيتين أيضا . فهو جزء كامل من القرآن المكي ؛ بكل خصائص القرآن المكي (١) .

فأما سورتا الرعد وإبراهيم فسنعرّف بهما - إن شاء الله - في موضعهما . وأما بقية سورة يوسف ، فنرجو أن يراجع قبل قراءتها في هذا الجزء ماسبق من التعريف بالسورة في الجزء الماضي .

إننا نستقبل في هـذا الجزء بقية قصة يوسف ، والتعقيبات المباشرة عليها ؛ ثم التعقيبات الأخيرة في السورة . . وكذلك نستقبل فيـه مرحلة جديدة من مراحل حيـاة الشخصية الأساسية في القصة - شخصية يوسف عليه السلام - ومع امتداد هذه الشخصية واستقامتها على المقوّمات الأساسية لهـا - تلك التي مر ذكرها في التعريف بشخصيات القصة في التقـديم للسورة (٢) ، فإننا نجـد في هذه المرحلة الجديدة ملامح جديدة تبرز - هي امتـداد طبيعي واقعي لنشأة الشخصية وللمرحلة السابقة من حياتها ولـكنها مع ذلك ذات طابع مميز . .

نجد شخصية يوسف - عليه السلام - وقد استقامت مع نشأتها والأحداث التي مرت بها ، والابتلاءات التي اجتازتها ، في ظل التربية الربانية للعبـد الصالح ، الذي يعدّ ليمكن له في الأرض ، وليقوم بالدعوة إلى دين الله وهو ممـكن له في الأرض ، وهو قابض على مقاليد الأمور في مركز التموين في الشرق الأوسط !

وأول ملامح هذه المرحلة هذا الاعتزاز بالله ، والاطمئنان إليه ، والثقة به ، والتجرد له ، والتعري من كل قيم الأرض ، والتحرر من كل أوهافها ، واستصغار شأن القوى المتحكمة فيها ، وهوان تلك القيم وهذه القوى في النفس الموصولة الأسباب بالله - سبحانه وتعالى !

---

(١) تراجع مقدمة سورة الأنعام في الجزء السابع ، ومقدمة سورة يونس في الجزء الحادي عشر، ومقدمة سورة هود في الجزء الثاني عشر .

(٢) ص ١٧٥ - ص ٢٠٥ من الجزء الثاني عشر من الطبعة الثانية المنقحة .

Marfat.com

تبدو هذه الظاهرة الواضحة فى موقف يوسف ، ورسول الملك يجىء إليه فى سجنه يبلغه رغبة الملك فى أن يراه . . فلا يخف يوسف - عليه السلام - لطلب الملك ؛ ولا يتلهف على مغادرة سجنه الظالم المظلم إلى رحاب الملك الذى يرغب فى لقائه ؛ ولا تستخفه الفرحة بالخروج من هذا الضيق .

ولا تتجلى هـذه الظاهرة - وما وراءها من التغيرات العميقة فى الموازين والقيم والمشاعر فى نفس يوسف الصديق ، إلا حين نعود القهقرى بضع سنين ، لنجد يوسف يوصى ساقى الملك - وهو يظن أنه ناج - أن يذكره عند ربه . . إن الإيمان هو الإيمان ، ولكن هذه هى الطمأنينة . الطمأنينة التى تنسكب فى القلب وهو يلابس قدر الله فى جريانه . . وهو يرى كيف يتحقق هذا القدر أمام عينيه فعلا . . الطمأنينة التى كان يطلبها جده إبراهيم عليه السلام ، وهو يقول لربه : « رب أرنى كيف تحيي الموتى ، فيسأله ربه - وربه يعلم : - « أولم تؤمن ؟ » فيقول - وربه يعلم حقيقة ما يشعر وما يقول - : « بلى ! ولكن ليطمئن قلبى » . .

إنها هى الطمأنينة التى تسكبها التربية الربانية فى قلوب الصفوة المختارة ، بالابتلاء والمعاناة ، والرؤية والمشاهدة ، والمعرفة والتذوق . . ثم الثقة والسكينة . .

وهذه هى الظاهرة الواضحة فى كل مواقف يوسف من بعد ، حتى يكون للموقف الأخير فى نجائه مع ربه ، منخلعا من كل شىء تهفو له النفوس فى هذه الأرض : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث . فاطر السماوات والأرض ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » .

أما التعقيبات التى ترد فى نهاية القصة ، والتعقيبات العامة فى السورة ، فقد تحدثنا عنها إجمالا عند تقديم السورة فى الجزء الثانى عشر[1] . وسوف نواجهها بالتفصيل فى مواضعها من السياق . إن شاء الله . . إنما أردنا فقط أن نبرز تلك الظاهرة الجديدة فى الشخصية الرئيسية فى القصة . ذلك أنها الظاهرة الأساسية التى تتكامل بها صورة الشخصية ؛ كما أنها هى الظاهرة الأساسية التى يحتفل بها سياق القصة وسياق السورة من الناحية الحركية التربوية للمنهج القرآنى . .

والآن سنواجه النصوص تفصيلا :

---

(١) تراجع ص ١٧٥ - ص ٢٠٥ من الجزء الثانى عشر .

« وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ، إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَارَحِمَ رَبِّىٓ ، إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٥٣

« وَقَالَ ٱلْمَلِكُ : ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى. فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ: إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ : ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ، إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ .

« وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ .

« وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ، فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ ، فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ : ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ . أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ؟ * فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُوا۟ : سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ : ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ، لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

« فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ : يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ ؛ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ ؛ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ * قَالَ : هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ؟ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ .

« وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ، قَالُوا۟ : يَٰٓأَبَانَا مَانَبْغِى ، هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ، وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ، وَنَحْفَظُ أَخَانَا ، وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ، ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ : لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ - إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ - فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ : ٱللَّهُ عَلَىٰ مَانَقُولُ وَكِيلٌ .

« وَقَالَ : يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ ، وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ،

Marfat.com

وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ، إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ .

« وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ، وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

« وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ، قَالَ : إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ .

« فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ؛ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ : أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ * قَالُوا۟ : وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ؟ * قَالُوا۟ : نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ، وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ ، وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ * قَالُوا۟ : تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ * قَالُوا۟ : فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ؟ * قَالُوا۟ : جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ، ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ . كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ، مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ – إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ – نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ * قَالُوٓا۟ : إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ . فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ . قَالَ : أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ، وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ * قَالُوا۟ : يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ، إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ * قَالَ : مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ، إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ » ٧٩

Marfat.com

نمضى فى هـذا الدرس مع قصة يوسف ، فى حلقة جديدة من حلقاتها ـ الحلقة الرابعة ـ وقد وقفنا فى نهاية الجزء الثـانى عشر عند نهاية الحلقة الثالثـة . وقد أخرج من السجن ، واستدعاه الملك ليكون له شأن معه ، هو الذى سنعرفه فى هذه الحلقة الجديدة .

هذا الدرس يبدأ بآخر فقرة فى المشهد السابق . مشهد الملك يستجوب النسوة اللاتى قطعن أيديهن ـ كما رغب إليه يوسف أن يفعل ـ تمحيصا لتلك المكايد التى أدخلته السجن ، وإعلانا لبراءته على الملأ ، قبل أن يبدأ مرحلة جديدة فى حياته ؛ وهو يبدؤها واثقا مطمئنا ، فى نفسه سكينة وفى قلبه طمأنينة وقد أحس أنها ستكون مرحلة ظهور فى حياة الدولة ، وفى حياة الدعوة كذلك . فيحسن أن يبدأها وكل ماحوله واضح ، ولا شىء من غبار الماضى يلاحقه وهو برىء .

ومع أنه قد تجمل فلم يذكر عن امرأة العزيز شيئا ، ولم يشر إليها على وجه التخصيص ، إنما رغب إلى الملك أن يفحص عن أمر النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، فإن امرأة العزيز تقدمت لتعلن الحقيقة كاملة :

« الآن حصحص الحق . أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لايهدى كيد الخائنين . وما أبرىء نفسى؛ إن النفس لأمارة بالسوء ، إلا مارحم ربى ، إن ربى غفور رحيم » . .

وفى هذه الفقرة الأخيرة تبدو المرأة مؤمنة متحرجة ، تبرىء نفسها من خيانة يوسف فى غيبته ؛ ولكنها تتحفظ فلا تدعى البراءة المطلقة ، لأن النفس أمارة بالسوء ـ إلا مارحم ربى ـ ثم تعلن ما يدل على إيمانها بالله ـ ولعل ذلك كان اتباعا ليوسف ـ « إن ربى غفور رحيم » . .

وبذلك يسدل الستار على ماضى الآلام فى حياة يوسف الصديق . وتبدأ مرحلة الرخاء والعز والتمكين . .

* * *

« وقال الملك : ائتونى به أستخلصه لنفسى . فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين .

Marfat.com

قال : اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم . . وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » . .

لقد تبينت للملك براءة يوسف ، وتبين له معها علمه في تفسير الرؤيا ، وحكمته في طلب تمحيص أمر النسوة ، كذلك تبينت له كرامته وإباؤه ، وهو لا يتهافت على الخروج من السجن ، ولا يتهافت على لقاء الملك . وأي ملك ؟ ملك مصر ! ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المتهم في سمعته ، المسجون ظلما ، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه ؛ ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذي يمثله قبل أن يطلب الحظوة عند الملك . .

كل أولئك أوقع في نفس الملك احترام هذا الرجل وحبه فقال :

« ائتوني به أستخلصه لنفسي » . .

فهو لا يأتي به من السجن ليطلق سراحه ؛ ولا ليرى هذا الذي يفسر الرؤى ؛ ولا ليسمعه كلمة « الرضاء الملكي السامي ! » فيطير بها فرحا . . كلا ! إنما يطلبه ليستخلصه لنفسه ، ويجعله بمكان المستشار والنجيّ والصديق . .

فياليت رجالا يمرغون كرامتهم على أقدام الحكام ـ وهم أبرياء مطلقو السراح ـ فيضعوا النير في أعناقهم بأيديهم ؛ ويتهافتوا على نظرة رضى وكلمة ثناء ، وعلى حظوة الأتباع لا مكانة الأصفياء . . ياليت رجالا من هؤلاء يقرأون هذا القرآن ، ويقرأون قصة يوسف ، ليعرفوا أن الكرامة والإباء والاعتزاز تدر من الربح ـ حتى المادي ـ أضعاف مايدره التمرغ والتزلف والانحناء !

« وقال الملك : ائتوني به أستخلصه لنفسي » . .

ويحذف السياق جزئية تنفيذ الأمر لنجد يوسف مع الملك . .

« فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين » . .

Marfat.com

فلما كله تحقق له صدق ماتوسمه . فإذا هو يطمئنه على أنه عند الملك ذو مكانة وفى أمان . فليس هو الفتى العبرانى الموسوم بالعبودية . إنما هو مكين . وليس هو المتهم المهدد بالسجن إنما هو أمين . وتلك المكانة وهذا الأمان لدى الملك وفى حماه . فماذا قال يوسف ؟

إنه لم يسجد شكرا كما يسجد رجال الحاشية المتملقون للطواغيت . ولم يقل له : عشت يامولاى وأنا عبدك الخاضع أو خادمك الأمين ، كمايقول المتملقون للطواغيت ! كلا إنما طالب بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء فى الأزمة القادمة التى أول بها رؤيا الملك ، خيرا مما ينهض بها أحد فى البلاد ؛ وبما يعتقد أنه سيصون به أرواحا من الموت وبلادا من الخراب ، ومجتمعا من الفتنة ـ فتنة الجوع ـ فكان قويا فى إدراكه لحاجة الموقف إلى خبرته وكفايته وأمانته ، قوته فى الاحتفاظ بكرامته وإبائه :

« قال : اجعلنى على خزائن الأرض . إنى حفيظ عليم » . .

والأزمة القادمة وسنو الرخاء التى تسبقها فى حاجة إلى الحفظ والصيانة والقدرة على إدارة الأمور بالدقة وضبط الزراعة والمحاصيل وصيانتها . وفى حاجة إلى الخبرة وحسن التصرف والعلم بكافة فروعه الضرورية لتلك المهمة فى سنوات الخصب وفى سنى الجدب على السواء . ومن ثم ذكر يوسف من صفاته ماتحتاج إليه المهمة التى يرى أنه أقدر عليها ، وأن وراءها خيرا كبيرا لشعب مصر وللشعوب المجاورة :

« إنى حفيظ عليم » . .

ولم يكن يوسف يطلب لشخصه وهو يرى إقبال الملك عليه فيطلب أن يجعله على خزائن الأرض . . إنما كان حصيفا فى اختيار اللحظة التى يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذى التبعة الضخمة فى أشد أوقات الأزمة ؛ وليكون مسؤولا عن إطعام شعب كامل وشعوب كذلك تجاوره طوال سبع سنوات ، لازرع فيها ولا ضرع . فليس هذا غنما يطلبه يوسف لنفسه . فإن التكفل بإطعام شعب جائع سبع سنوات متوالية لايقول أحد إنه غنيمة . إنما هى تبعة يهرب منها الرجال ، لأنها قد تكلفهم رؤوسهم ، والجوع كافر ، وقد تمزق الجماهير الجائعة أجسادهم فى لحظات الكفر والجنون .

وهنا تعرض شبهة . . أليس فى قول يوسف - عليه السلام - : « اجعلنى على خزائن الأرض ، إنى حفيظ عليم » . . أمران محظوران فى النظام الإسلامى :

أولهما : طلب التولية ، وهو محظور بنص قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « إنا والله لا نولى هذا العمل أحدا سأله (أو حرص عليه) . . . (متفق عليه) .

وثانيهما : تزكية النفس ، وهى محظورة بقوله تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم » ؟

ولا نريد أن نجيب بأن هذه القواعد إنما تقررت فى النظام الإسلامى الذى تقرر على عهد محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنها لم تكن مقررة على أيام يوسف - عليه السلام - والمسائل التنظيمية فى هـذا الدين ليست موحدة كأصول العقيدة ، الثابتة فى كل رسالة وعلى يد كل رسول . .

لا نريد أن نجيب بهذا ، وإن كان له وجه ، لأننا نرى أن الأمر فى هذه المسألة أبعد أعماقا ، وأوسع آفاقا من أن يرتكن إلى هذا الوجه ؛ وأنه إنما يرتكن إلى اعتبارات أخرى لابد من إدراكها ، لإدراك منهج الاستدلال من الأصول والنصوص ، ولإعطاء أصول الفقه وأحكامه تلك الطبيعة الحركية الأصيلة فى كيانها ، والتى خمدت وجمدت فى عقول الفقهاء وفى عقلية الفقه كلها فى قرون الجمود والركود !

إن الفقه الإسلامى لم ينشأ فى فراغ ، كما أنه لا يعيش ولا يفهم فى فراغ ! . . لقد نشأ الفقه الإسلامى فى مجتمع مسلم ، ونشأ من خلال حركة هـذا المجتمع فى مواجهة حاجات الحياة الإسلامية الواقعية . كذلك لم يكن الفقه الإسلامى هو الذى أنشأ المجتمع المسلم ؛ إنما كان المجتمع المسلم بحركته الواقعية لمواجهة حاجات الحياة الإسلامية هو الذى أنشأ الفقه الإسلامى . .

وهاتان الحقيقتان التاريخيتان الواقعيتان عظيمتا الدلالة ؛ كما أنهما ضروريتان لفهم طبيعة الفقه الإسلامى ؛ وإدراك الطبيعة الحركية للأحكام الفقهية الإسلامية .

والذين يأخذون اليوم تلك النصوص والأحكام المدونة ، دون إدراك لهاتين الحقيقتين ؛ ودون مراجعة للظروف والملابسات التى نزلت فيها تلك النصوص ونشأت فيها تلك الأحكام ؛ ودون استحضار لطبيعة الجو والبيئة والحالة التى كانت تلك النصوص تلبيها وتوجهها ؛ وكانت تلك

Marfat.com

الأحكام تصاغ فيها وتحكمها وتعيش فيها . . الذين يعملون ذلك ؛ ويحاولون تطبيق هذه الأحكام كأنها نشأت فى فراغ ؛ وكأنها اليوم يمكن أن تعيش فى فراغ . . هؤلاء ليسوا « فقهاء » ! وليس لهم « فقه » بطبيعة الفقه ! وبطبيعة هذا الدين أصلا !

إن « فقه الحركة » يختلف اختلافا أساسيا عن « فقه الأوراق » مع استمداده أصلا وقيامه على النصوص التى يقوم عليها ويستمد منها « فقه الأوراق » !

إن فقه الحركة يأخذ فى اعتباره « الواقع » الذى نزلت فيه النصوص ، وصيغت فيه الأحكام . ويرى أن ذلك الواقع يؤلف مع النصوص والأحكام مركبا لاتنفصل عناصره . فإذا انفصلت عناصر هذا المركب فقد طبيعته ، واختل تركيبه !

ومن ثم فليس هنالك حكم فقهى واحد مستقل بذاته ، يعيش فى فراغ ، لا تتمثل فيه عناصر الموقف والجو والبيئة والملابسات التى نشأ نشأته الأولى فيها . . إنه لم ينشأ فى فراغ . ومن ثم لا يستطيع أن يعيش فى فراغ !

ولنأخذ مثالا لهذا التقرير العام هذا الحكم الفقهى الإسلامى بعدم تزكية النفس وعدم ترشيحها للمناصب ، وهو المأخوذ من قوله تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم » ومن قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إنا والله لا نولى هذا العمل أحدا سأله » . .

لقد نشأ هذا الحكم - كما نزلت تلك النصوص - فى مجتمع مسلم ؛ ليطبق فى هذا المجتمع ؛ وليعيش فى هذا الوسط ؛ وليلبى حاجة ذلك المجتمع . وفق نشأته التاريخية ، ووفق تركيبه العضوى ، ووفق واقعه الذاتى فهو من ثم حكم إسلامى جاء ليطبق فى مجتمع إسلامى وقد نشأ فى وسط واقعى ولم ينشأ فى فراغ مثالى . وهو من ثم لا يطبق ولا يصلح ولا ينشىء آثاره الصحيحة إلا إذا طبق فى مجتمع إسلامى . . إسلامى فى نشأته ، وفى تركيبه العضوى ، وفى التزامه بشريعة الإسلام كاملة . وكل مجتمع لا تتوافر فيه هذه المقومات كلها يعتبر « فراغا » بالقياس إلى ذلك الحكم ، لا يملك أن يعيش فيه ، ولا يصلح له ولا يصلحه كذلك !

. . ومثل هذا الحكم كل أحكام النظام الإسلامى . وإن كنا فى هذا المقام لا نفصل إلا هذا الحكم بمناسبة ذلك السياق القرآنى .

Marfat.com

ونريد أن نفهم لماذا لا يزكى الناس أنفسهم فى المجتمع المسلم ، ولا يرشحون أنفسهم للوظائف ، ولا يقومون لأشخاصهم بدعاية ما كى يختاروا لمجلس الشورى أو للإمامة أو للإمارة . . .

إن الناس فى المجتمع المسلم لا يحتاجون لشئ من هذا لإبراز أفضليتهم وأحقيتهم . كما أن المناصب والوظائف فى هذا المجتمع تكاليف ثقيل لا يغرى أحدا بالتزاحم عليه - اللهم إلا ابتغاء الأجر بالنهوض بالواجب وللخدمة الشاقة ابتغاء رضوان الله تعالى - ومن ثم لا يسأل المناصب والوظائف إلا المتهافتون عليها لحاجة فى نفوسهم . وهؤلاء يجب أن يمنعوها !

ولكن هذه الحقيقة لا تفهم إلا بمراجعة النشأة الطبيعية المجتمع المسلم ، وإدراك طبيعة تكوينه العضوى أيضا . .

إن الحركة هى العنصر المكون لذلك المجتمع . فالمجتمع المسلم وليد الحركة بالعقيدة الإسلامية . .

أولا : تجيء العقيدة من مصدرها الإلهى متمثلة فى تبليغ الرسول وعمله - على عهد النبوات - أو متمثلة فى دعوة الداعية بما جاء من عند الله وما بلغه رسوله - على مدار الزمان بعد ذلك - فيستجيب للدعوة ناس ؛ يتعرضون للأذى والفتنة من الجاهلية الحاكمة السائدة فى أرض الدعوة . فمنهم من يفتن ويرتد ، ومنهم من يصدق ما عاهد الله عليه فيقضى نحبه شهيداً ومنهم من ينتظر حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق ..

هؤلاء يفتح الله عليهم ، ويجعل منهم ستارا لقدره ، ويمكن لهم فى الأرض تحقيقا لوعده بنصر من ينصره ، والتمكين فى الأرض له ، ليقيم مملكة الله فى الأرض - أى لينفذ حكم الله فى الأرض - ليس له من هذا النصر والتمكين شيء ؛ إنما هو نصر لدين الله ، وتمكين لربوبية الله فى العباد .

وهؤلاء لا يقفون بهذا الدين عند حدود أرض معينة ؛ ولا عند حدود جنس معين ؛ ولا عند حدود قوم أو لون أو لغة أو مقوّم واحد من تلك المقوّمات البشرية الأرضية المهزيلة السخيفة ! إنما ينطلقون بهذه العقيدة الربانية ليحرروا « الإنسان » .. كل الإنسان : فى

Marfat.com

« الأرض » .. كل الأرض .. من العبودية لغير الله ؛ وليرفعوه عن العبودية للطواغيت أيا كانت هذه الطواغيت [1] .

وفى أثناء الحركة بهذا الدين - وقد لاحظنا أنها لا تتوقف عند إقامة الدولة المسلمة فى بقعة من الأرض ، ولا تقف عند حدود أرض أو جنس أو قوم - تتميز أقدار الناس ، وتتحدد مقاماتهم فى المجتمع ، ويقوم هذا التحديد وذلك التميز على موازين وقيم إيمانية ، الجميع يتعارفون عليها ، من البلاء فى الجهاد ، والتقوى والصلاح والعبادة والأخلاق والقدرة والكفاءة .. وكلها قيم يحكم عليها الواقع ، وتبرزها الحركة ، ويعرفها المجتمع ويعرف المتسمين بها .. ومن ثم لا يحتاج أصحابها أن يزكوا أنفسهم ، ولا أن يطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية ..

وفى المجتمع المسلم الذى نشأ هذه النشأة ، وقام تركيبه العضوى على أساس التميز فى أثناء الحركة بتلك القيم الإيمانية - كما حدث فى المجتمع المسلم من تميز السابقين من المهاجرين ثم الأنصار . وأهل بدر . وأهل بيعة الرضوان . ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل - ثم ظل يتميز الناس فيه بحسن البلاء فى الإسلام .. فى هذا المجتمع لا يبخس الناس بعضهم بعضا ، ولا ينكر الناس فضائل المتميزين - مهما غلب الضعف البشرى أصحابه أحيانا فغلبتهم الأطماع - وعندئذ تنتفى الحاجة - من جانب آخر - إلى أن يزكى المتميزون أنفسهم ويطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية ..

ولقد يخيل للناس الآن أن هذه خاصية متفردة للمجتمع المسلم الأول بسبب نشأته التاريخية! ولكنهم ينسون أن أى مجتمع مسلم لن يوجد إلا بمثل هذه النشأة .. لن يوجد اليوم أو غدا ، إلا أن تقوم دعوة لإدخال الناس فى هذا الدين من جديد ، وإخراجهم من الجاهلية التى صاروا إليها .. وهذه نقطة البدء .. ثم تعقبها الفتنة والابتلاء - كما حدث أول مرة - فأما ناس فيفتنون ويرتدون ! وأما ناس فيصدقون ما عاهدوا الله عليه فيقضون نحبهم ويموتون شهداء . وأما ناس فيصبرون ويصابرون ويصرون على الإسلام ، ويكرهون أن يعودوا إلى الجاهلية كما

---

(١) يراجع فصل « الجهاد فى سبيل الله » فى كتاب : « معالم فى الطريق » .

Marfat.com

يكره أحدهم أن يلقى فى النار ؛ حتى يحكم الله بينهم وبين قومهم بالحق ، ويمكن لهم فى الأرض - كما مكن للمسلمين أول مرة - فيقوم فى أرض من أرض الله نظام إسلامى . . ويومئذ تكون الحركة من نقطة البدء إلى قيام النظام الإسلامى قد ميزت المجاهدين المتحركين إلى طبقات إيمانية ، وفق الموازين والقيم الإيمانية . . ويومئذ لن يحتاج هؤلاء إلى ترشيح أنفسهم وتزكيتها ، لأن مجتمعهم الذى جاهد كله معهم يعرفهم ويزكيهم ويرشحهم !

ولقد يقال بعد هذا : ولكن هذا يكون فى المرحلة الأولى . فإذا استقر المجتمع بعد ذلك؟ وهذا سؤال من لايعرف طبيعة هذا الدين ! إن هذا الدين يتحرك دائماولا يكف عن الحركة . . يتحرك لتحرير « الإنسان » . . كل الإنسان . . فى « الأرض » . . كل الأرض . . من العبودية لغير الله ؛ وليرفعه عن العبودية للطواغيت ؛ بلا حدود من الأرض أو الجنس أو القوم أو أى مقوم من المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة !

وإذن فستظل الحركة - التى هى طبيعة هذا الدين الأصيلة - تميز أصحاب البلاء وأصحاب الكفايات والمواهب ؛ ولا تقف أبدا ليركد هذا المجتمع ويأسن - إلا أن ينحرف عن الإسلام - وسيظل الحكم الفقهى - الخاص بتحريم تزكية النفس وطلب العمل على أساس هذه التزكية - قائما وعاملا فى محيطه الملائم . . ذات المحيط الذى نشأ أول مرة وعمل فيه . .

ثم يقال : ولكن المجتمع حين يتسع لايعرف الناس بعضهم بعضا ؛ ويصبح الأكفاء الموهوبون فى حاجة إلى الإعلان عن أنفسهم وتزكيتها وطلب العمل على أساس هذه التزكية !

وهذا القول كذلك وهم ناشىء من التأثر بواقع المجتمعات الجاهلية الحاضرة . . إن المجتمع المسلم يكون أهل كل محلة فيه متعارفين متواصلين متكافلين - كما هى طبيعة التربية والتكوين والتوجيه ، والالتزام فى المجتمع المسلم - ومن ثم يكون أهل كل محلة عارفين بأصحاب الكفايات والمواهب فيهم؛ موزونة هذه الكفايات والمواهب بموازين وقيم إيمانية ؛ فلا يعز عليهم أن ينتدبوا هم من بينهم أهل البلاء والتقوى والكفاية . . سواء لمجلس الشورى أو الشؤون المحلية . أما الإمارات العامة فيختار لها الإمام - الذى اختارته الأمة بعد ترشيح أهل الحل

Marfat.com

والعقد - أو أهل الشورى - له . . يختار لها من بين مجموعة الرجال المختارين الذين ميزتهم الحركة . والحركة دائبة كما قلنا في المجتمع المسلم ، والجهاد ماض إلى يوم القيامة .

إن الذين يفكرون في النظام الإسلامي اليوم وتشكيلاته - أو يكتبون - يدخلون في متاهة ! ذلك أنهم يحاولون تطبيق قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية المدونة في فراغ ! يحاولون تطبيقها في هذا المجتمع الجاهلي القائم ، بتركيبه العضوي الحاضر ! وهذا المجتمع الجاهلي الحاضر يعتبر - بالقياس إلى طبيعة النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية - فراغا لا يمكن أن يقوم فيه هذا النظام ولا أن تطبق فيه هذه الأحكام . إن تركيبه العضوي مناقض تماما للتركيب العضوي للمجتمع المسلم . فالمجتمع المسلم - كما قلنا - يقوم تركيبه العضوي على أساس ترتيب الشخصيات والفئات كما ترتبها الحركة لإقرار هذا النظام في عالم الواقع ، والمجاهدة الجاهلية لإخراج الناس منها إلى الإسلام . مع تحمل ضغوط الجاهلية وما توجهه من فتنة وإيذاء وحرب على هذه الحركة ، والصبر على الابتلاء وحسن البلاء من نقطة البدء إلى نقطة الفصل في نهاية المطاف . أما المجتمع الجاهلي الحاضر فهو مجتمع راكد ، قائم على قيم لا علاقة لها بالإسلام ، ولا بالقيم الإيمانية . . وهو - من ثم - يعد بالقياس إلى النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية فراغا لا يعيش فيه هذا النظام ولا تقوم فيه هذه الأحكام !

هؤلاء الكاتبون الباحثون عن حل لتطبيق قواعد النظام وتشكيلاته وأحكامه الفقهية يحيرهم - أول ما يحيرهم - طريقة اختيار أهل الحل والعقد - أو أهل الشورى - من غير ترشيح من أنفسهم ولا تزكية ! كيف يمكن هذا في مثل هذه المجتمعات التي نعيش فيها والناس لا يعرف بعضهم بعضا ولا يزنون كذلك بموازين الكفاية والنزاهة والأمانة كذلك يحيرهم طريقة اختيار الإمام ؟ أيكون الاختيار من عامة الشعب أم يكون من ترشيح أهل الحل والعقد ؟ وإذا كان الإمام . سيختار أهل الحل والعقد - متابعة لعدم تزكيتهم لأنفسهم أو ترشيحها - فكيف يعودون هم فيختارون الإمام ؟ ! ألا يؤثر هذا في ميزانهم ؟ ثم إذا كانوا هم الذين سيعودون فيرشحون الإمام ؟ ألا تكون لهم ولاية عليه وهو الإمام الأعظم ؟ ثم ألا يجعله هذا يختار أشخاصا يضمن ولاءهم له ، ويكون هذا هو العنصر الأول في اعتباره ؟ . . .

وأسئلة أخرى كثيرة لا يجدون لها جوابا في هذه المتاهة !

Marfat.com

Marfat.com

أنا أعرف نقطة البدء فى هذه المتاهة . . إنها هى افتراض أن هـذا المجتمع الجاهلى الذى نعيش فيـه مجتمع مسلم ؛ وأن قواعد النظام الإسلامى وأحكامه الفقهية سيجاء بها لتطبق على هذا المجتمع الجاهلى بتركيبه العضوى الحاضر ، وبقيمه وأخلاقه الحاضرة !

هذه نقطة البدء فى المتاهة . . ومتى بدأ منها الباحث فإنه يبدأ فى فراغ ، ويوغل فى هـذا الفراغ ، حتى يبعد فى التيه ، وحتى يأخذه الدوار !

إن هـذا المجتمع الجاهلى الذى نعيش فيه ليس هو المجتمع المسلم ، ومن ثم لن يطبق فيـه النظام الإسلامى ولن تطبق فيه الأحـكام الفقهية الخاصة بهـذا النظام . . لن تطبق لاستحالة هذا التطبيق الناشئة من أن قواعد النظام الإسلامى وأحكامه الفقهية لا يمـكن أن تتحرك فى فراغ ؛ لأنها بطبيعتها لم تنشأ فى فراغ ، ولم تتحرك فى فراغ كذلك !

إن المجتمع الإسلامى ينشأ بتركيب عضوى آخر غير التركيب العضوى للمجتمع الجاهلى .. ينشأ من أشخاص ومجموعات وفئات جاهدت ـ فى وجه الجاهلية ـ لإنشائه ؛ وتحددت أقدارها وتميزت مقاماتها فى ثنايا تلك الحركة .

إنه مجتمع جديد .. ومجتمع وليد .. ومجتمع متحرك دائما فى طريقه لتحرير « الإنسان » ، . . كل الإنسان . . فى « الأرض » . . كل الأرض . . من العبودية لغير الله ، ولرفع هـذا الإنسان عن ذلة العبودية للطواغيت . . أيا كانت هذه الطواغيت . .

ومثل قضية التزكية وطلب الإمارة ، واختيار الإمام ، واختيار أهل الشورى . . . وما إليها . . . قضايا كثيرة تثار ، ويطرقها الباحثون فى الإسلام . . فى الفراغ . . فى هذا المجتمع الجاهلى الذى نعيش فيه . . بتركيبه العضوى المختلف تماما عن التركيب العضوى للمجتمع المسلم . . وبقيمه وموازينه واعتباراته وأخلاقه ومشاعره وتصوراته المختلفة تماما عن قيم المجتمع المسلم وموازينه واعتباراته وأخلاقه ومشاعره وتصوراته . .

أعمال البنوك وأساسها الربوى . . شركات التأمين وقاعدتها الربوية . . تحديد النسل وما أدرى ماذا ؟ ! إلى آخر هذه « المشكلات » التى يشغل « الباحثون » بها أنفسهم أو يجيبون فيها عن استفتاءات توجه إليهم . .

Marfat.com

إنهم جميعا – مع الأسف – يبدأون من نقطة البدء فى المتاهة ! يبدأون من افتراض أن قواعد النظام الإسلامى وأحكامه سيجاء بها لتطبق على هذه المجتمعات الجاهلية الحاضرة بتركيبها العضوى الحاضر ؛ فتنتقل هذه المجتمعات إذن – متى طبقت عليها أحكام الإسلام – إلى الإسلام !

وهى تصورات مضحكة لولا أنها محزنة !

إن الفقه الإسلامى بكل أحكامه ليس هو الذى أنشأ المجتمع المسلم . إنما المجتمع المسلم بحركته – فى مواجهة الجاهلية ابتداء – ثم بحركته فى مواجهة حاجة الحياة الحقيقية ثانيا ، هو الذى أنشأ الفقه الإسلامى مستمدا من أصول الشريعة الكلية . . والعكس لا يمكن أن يكون أصلا !

إن الفقه الإسلامى لا ينشأ فى فراغ ، ولا يعيش فى فراغ كذلك . . لا ينشأ فى الأدمغة والأوراق ؛ إنما ينشأ فى واقع الحياة . وليست أية حياة . إنما هى حياة المجتمع المسلم على وجه التحديد . . ومن ثم لا بد أن يوجد المجتمع المسلم أولا بتركيبه العضوى الطبيعى ؛ فيكون هو الوسط الذى ينشأ فيه الفقه الإسلامى ويطبق . . وعندئذ تختلف الأمور جدا . .

وساعتها قد يحتاج ذلك المجتمع الخاص – بعد نشأته فى مواجهة الجاهلية وتحركه فى مواجهة الحياة – إلى البنوك وشركات التأمين وتحديد النسل . . . الخ وقد لا يحتاج ! ذلك أننا لا نملك سلفا أن نقدر أصل حاجته ، ولا حجمها ، ولا شكلها ، حتى نشرّع لها سلفا ! كما أن ما لدينا من أحكام هذا الدين لا يطابق حاجات المجتمعات الجاهلية ولا يلبيها . . ذلك أن هذا الدين لا يعترف ابتداء بشرعية وجود هذه المجتمعات الجاهلية ولا يرضى بقائها . ومن ثم فهو لا يعنّى نفسه بالاعتراف بحاجاتها الناشئة من جاهليتها ولا بتلبيتها كذلك !

إن المحنة الحقيقية لهؤلاء الباحثين أنهم يتصورون أن هذا الواقع الجاهلى هو الأصل ، الذى يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه ! ولكن الأمر غير ذلك تماما . إن دين الله هو الأصل الذى يجب على البشرية أن تطابق نفسها عليه ؛ وأن تحور من واقعها الجاهلى وتغير حتى تتم هذه المطابقة . . ولكن هذا التحور وهذا التغير لا يتمان عادة إلا عن طريق

واحد . . هو التحرك - فى وجه الجاهلية - لتحقيق ألوهية الله فى الأرض وربوبيته وحده للعباد ، وتحرير الناس من العبودية للطاغوت ، بتحكيم شريعة الله وحدها فى حياتهم . . وهذه الحركة لابد أن تواجه الفتنة والأذى والابتلاء . فيفتن من يفتن ويرتد من يرتد ، ويصدق الله من يصدقه فيقضى نحبه ويستشهد ، ويصبر من يصبر ويمضى فى حركته حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق ، وحتى يمكن الله له فى الأرض ، وعندئذ فقط يقوم النظام الإسلامى ، وقد انطبع المتحركون لتحقيقه بطابعه ، وتميزوا بقيمه . . وعندئذ تكون لحياتهم مطالب وحاجات تختلف فى طبيعتها وفى طرق تلبيتها عن حاجات المجتمعات الجاهلية ومطالبها وطرق تلبيتها . . وعلى ضوء واقع المجتمع المسلم يومذاك تستنبط الأحكام ؛ وينشأ فقه إسلامى حى متحرك - لا فى فراغ - ولكن فى وسط واقعى محدد المطالب والحاجات والمشكلات . .

ومن ذا الذى يدرينا اليوم مثلا أن يكون الناس فى مجتمع مسلم تجبى فيه الزكاة وتنفق فى مصارفها ، ويقوم فيه التراحم والتكافل بين أهل كل محلة ، ثم بين كل أفراد الأمة ، وتقوم حياة الناس فيه على غير السرف والترف والمخيلة والتكاثر .. إلى آخر مقومات الحياة الإسلامية .. من يدرينا أن مجتمعا كهذا سيكون فى حاجة إلى شركات تأمين أصلا ؟ ! وعنده كل تلك التأمينات والضمانات مع تلك الملابسات والقيم والتصورات ؟ ! وإذا احتاج إلى نوع من التأمين فمن يدرينا أنه سيكون هو هذا النوع المعروف فى المجتمع الجاهلى ، المنبثق من حاجات هذا المجتمع الجاهلى وملابساته وقيمه وتصوراته ؟ !

وكذلك من يدرينا أن المجتمع المسلم المتحرك المجاهد سيكون فى حاجة إلى تحديد النسل مثلا ؟ . . وهكذا . .

وإذا كنا لا نملك افتراض أصل حاجات المجتمع حين يكون مسلما ولا حجم هذه الحاجات أو شكلها ، بسبب اختلاف تركيبه العضوى عن تركيب المجتمع الجاهلى ، واختلاف تصوراته ومشاعره وقيمه وموازينه . . فما هذا العنى فى محاولة تحوير وتطوير وتغيير الأحكام المدونة لكى تطابق حاجات هى فى ضمير الغيب ، شأنها شأن وجود المجتمع المسلم ذاته !

Marfat.com

Marfat.com

إن نقطة البدء فى المتاهة - كما قلنا - هى افتراض أن هذه المجتمعات القائمة هى المجتمعات الإسلامية ؛ وأنه سيجاء بأحكام الفقه الإسلامى من الأوراق لتطبق عليها ، وهى بهذا التركيب العضوى ذاته ، وبالتصورات والمشاعر والقيم والموازين ذاتها .

كما أن أصل المحنة هو الشعور بأن واقع هذه المجتمعات الجاهلية وتركيبها الحاضر هو الأصل الذى يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه . وأن يحور ويطور ويغير فى أحكامه ليلاحق حاجات هذه المجتمعات ومشكلاتها . . حاجاتها ومشكلاتها المنبثقة أصلا من مخالفتها للإسلام ومن خروج حياتها جملة من إطاره !

ونحسب أنه قد آن للإسلام أن يستعلى فى نفوس دعاته ، فلا يجعلوه مجرد خادم للأوضاع الجاهلية ، والمجتمعات الجاهلية ، والحاجات الجاهلية . وأن يقولوا للناس - وللذين يستفتونهم بوجه خاص - تعالوا أنتم أولا إلى الإسلام ، وأعلنوا خضوعكم سلفا لأحكامه . . أو بعبارة أخرى . . تعالوا أنتم أولا فادخلوا فى دين الله ، وأعلنوا عبوديتكم لله وحده ، واشهدوا أن لا إله إلا الله بمدلولها الذى لا يقوم الإيمان والإسلام إلا به . وهو إفراد الله بألوهيته فى الأرض كإفراده بالألوهية فى السماء ؛ وتقرير ربوبيته - أى حاكميته وسلطانه - وحده فى حياة الناس بجملتها . وتنحية ربوبية العباد للعباد ، بتنحية حاكمية العباد للعباد ، وتشريع العباد للعباد .

وحين يستجيب الناس - أو الجماعة منهم - لهذا القول ، فإن المجتمع المسلم يكون قد بدأ أولى خطواته فى الوجود . وهذا المجتمع يكون حينئذ هو الوسط الواقعى الحى الذى ينشأ فيه الفقه الإسلامى الحى وينمو ، لمواجهة حاجات ذلك المجتمع المستسلم لشريعة الله فعلا . .

فأما قبل قيام هذا المجتمع فالعمل فى حقل الفقه والأحكام التنظيمية هو مجرد خداع للنفس ، باستنبات البذور فى الهواء ، ولن ينبت الفقه الإسلامى فى الفراغ ، كما أنه لن تنبت البذور فى الهواء !

إن العمل فى الحقل « الفكرى » للفقه الإسلامى عمل مريح ! لأنه لا خطر فيه ! ولكنه ليس عملا للإسلام ؛ ولا هو من منهج هذا الدين ولا من طبيعته ! وخير للذين ينشدون الراحة والسلامة أن يشتغلوا بالأدب وبالفن أو بالتجارة ! أما الاشتغال بالفقه الآن على

ذلك النحو بوصفه عملا للإسلام فى هـذه الفترة فأحسب ـ والله أعلم ـ أنه مضيعة للعمر وللأجر أيضا !

إن دين الله يأبى أن يـكون مجرد مطية ذلول ، ومجرد خادم مطيع ، لتلبية هذا المجتمع الجاهلى الآبق منه ، المتنـكر له ، الشارد عنه . . الذى يسخر منه الحين بعد الحين باستفتائه فى مشكلاته وحاجاته ؛ وهو غير خاضع لشريعته وسلطانه . .

إن فقه هذا الدين وأحكامه لا تنشأ فى فراغ ، ولا تعمل فى فراغ . . وإن المجتمع المسلم الخاضع لسلطان الله ابتداء هو الذى صنع هذا الفقه وليس الفقه هو الذى صنع ذلك المجتمع . . ولن تنعكس الآية أبدا .

إن خطوات النشأة الإسلامية ومراحلها هى دائما واحدة ؛ والانتقال من الجاهلية إلى الإسلام لن يكون يوما ما سهلا ولا يسيرا . ولن يبدأ أبدا من صياغة الأحـكام الفقهية فى الفراغ ، لتـكون معدة جاهزة يوم يقوم المجتمع الإسلامى والنظام الإسلامى . ولن يـكون وجود هذه الأحكام المفصلة على « الجاهز » والناشئة فى الفراغ هى نقطة البدء فى التحول من الجاهلية إلى الإسلام . وليس الذى ينقص هذه المجتمعات الجاهلية لـكى تتحول إلى الإسلام هو الأحكام الفقهية « الجاهزة » ! وليست الصعوبة فى ذلك التحول ناشئة عن قصور أحكام الفقه الإسلامى الحاضرة عن ملاحقة حاجات المجتمعات المتطورة . . إلى آخر ما يخادع به بعضهم ، وينخدع به بعضهم الآخر !

كلا ! إن الذى يحول دون تحول هذه المجتمعات الجاهلية إلى النظام الإسلامى هو وجود الطواغيت التى تأبى أن تـكون الحاكمية لله ؛ فتأبى أن تـكون الربوبية فى حياة البشر والألوهية فى الأرض لله وحده . وتخرج بذلك من الإسلام خروجا كاملا . يعد الحـكم عليه من المعلوم من الدين بالضرورة . . ثم هو بعد ذلك وجود جماهير من البشر تعبد أولئك الطواغيت من دون الله ـ أى تدين لها وتخضع وتتبع ـ فتجعلها بذلك أربابا متفرقة معبودة مطاعة . وتخرج هذه الجماهير بهـذه العبادة من التوحيد إلى الشرك . . فهـذا هو أخص مدلولات الشرك فى نظر الإسلام . .

Marfat.com

وبهذا وذلك تقوم الجاهلية نظاما فى الأرض ؛ وتعتمد على ركائز من ضلال التصور بقدر ما تعتمد على ركائز من القوة المـادية .

وصياغة أحكام الفقه لا تواجه هذه الجاهلية - إذن - بوسائل مكافئة . إنما الذى يواجهها دعوة إلى الدخول فى الإسلام مرة أخرى ؛ وحركة تواجه الجاهلية بكل ركائزها ؛ ثم يكون ما يكون من شأن كل دعوة للإسلام فى وجه الجاهلية . ثم يحكم الله بين من يسلمون لله وبين قومهم بالحق . . وعندئذ فقط يجىء دور أحكام الفقه ، التى تنشأ نشأة طبيعية فى هذا الوسط الواقعى الحى ، وتواجه حاجات الحياة الواقعية المتجددة فى هذا المجتمع الوليد ، وفق حجم هذه الحاجات يومئذ وشكلها وملابساتها ، وهى أمور كلها فى ضمير الغيب - كما أسلفنا - ولا يمكن التكهن بها سلفا ، ولا يمكن الاشتغال بها من اليوم على سبيل الجد المناسب لطبيعة هذا الدين !

إن هذا لا يعنى - بحال - أن الأحكام الشرعية المنصوص عليها فى الكتاب والسنة ليست قائمة الآن فعلا من الوجهة الشرعية . ولكنه يعنى فقط أن المجتمع الذى شرعت هذه الأحكام له ، والذى لا تطبق هذه الأحكام إلا فيه - بل الذى لا تعيش هذه الأحكام إلا به - ليس قائما الآن فعلا . ومن ثم يصبح وجودها الفعلى معلقا بقيام ذلك المجتمع . . ويبقى الالتزام بها قائما فى عنق كل من يسلم من ذلك المجتمع الجاهلى ويتحرك فى وجه الجاهلية لإقامة النظام الإسلامى ؛ ويتعرض لما يتعرض له من يتحرك بهذا الدين فى وجه الجاهلية وطواغيتها المتألهة وجماهيرها الخاضعة للطواغيت الراضية بالشرك فى الربوبية . .

إن إدراك طبيعة النشأة الإسلامية على هذا النحو الذى لا يتغير ، كلما قامت الجاهلية وقامت فى وجهها محاولة إسلامية . . هو نقطة البدء فى العمل الحقيقى البناء لإعادة هذا الدين إلى الوجود الفعلى ، بعد أن انقطع هـذا الوجود منذ أن حلت شرائع البشر محل شريعة الله فى خلال القرنين الأخيرين ؛ وخلا وجه الأرض من الوجود الحقيقى للإسلام ؛ وإن بقيت المـآذن والمساجد ، والأدعية والشعائر ؛ تخدر مشاعر الباقين على الولاء العاطفى الغامض لهذا الدين ؛ وتوهمهم أنه لا يزال بخير ؛ وهو يمحى من الوجود محوا !

إن المجتمع المسلم وجد قبل أن توجد الشعائر ، وقبل أن توجد المساجد . . وجد من يوم

Marfat.com

أن قيل للناس : اعبدوا الله مالكم من إله غيره . فعبدوه . ولم تكن عبادتهم له ممثلة فى الشعائر ، فالشعائر لم تكن بعد قد فرضت . إنما كانت عبادتهم له ممثلة فى الدينونة له وحده - من ناحية المبدأ فلم تكن بعد قد نزلت شرائع ! - وحين أصبح لهؤلاء الذين قرروا الدينونة لله وحده سلطان مادى فى الأرض تنزلت الشرائع ؛ وحين واجهوا الحاجات الحقيقية لحياتهم هم استنبطوا بقية أحكام الفقه ، إلى جانب ماورد بنصه فى الكتاب والسنة . .

وهذا هو الطريق وحده ؛ وليس هنالك طريق آخر . .

وليت هنالك طريقا سهلا عن طريق تحول الجماهير بجملتها إلى الإسلام منذ أول وهلة فى الدعوة باللسان ، وببيان أحكام الإسلام ! ولكن هذه إنما هى « الأمانى » ! فالجماهير لا تتحول أبدا من الجاهلية وعبادة الطواغيت ، إلى الإسلام وعبادة الله وحده إلا عن ذلك الطريق الطويل البطىء الذى سارت فيه دعوة الإسلام فى كل مرة . . والذى يبدؤه فرد ، ثم تتبعه طليعة ، ثم تتحرك هذه الطليعة فى وجه الجاهلية لتعانى ماتعانى حتى يحكم الله بينها وبين قومها بالحق ويمكن لها فى الأرض . . ثم . . يدخل الناس فى دين الله أفواجا . ودين الله هو منهجه وشرعه ونظامه الذى لا يرضى من الناس دينا غيره : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » . .

ولعل هذا البيان أن يكشف لنا عن حقيقة الحكم فى موقف يوسف - عليه السلام - .

إنه لم يكن يعيش فى مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية . كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكما مطاعا لا خادما فى وضع جاهلى . وكان الأمر كما توقع فتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره فى مصر فى أيام حكمه . وقد توارى العزيز وتوارى الملك تماما . .

***

ثم نعود بعد هذا الاستطراد إلى صلب القصة وإلى صلب السياق . إن السياق لا يثبت أن الملك وافق . فكأنما يقول : إن الطلب تضمن الموافقة ! زيادة فى تكريم يوسف ، وإظهار

Marfat.com

مكانته عند الملك . فيكفى أن يقول ليجاب ، بل ليكون قوله هو الجواب . . ومن ثم يحذف رد الملك ، ويدع القارئ يفهم أنه أصبح في المكان الذى طلبه .

ويؤيد هذا الذى نقوله تعقيب السياق :

« وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء . ولا نضيع أجر المحسنين . . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » . .

فعلى هذا النحو من إظهار براءة يوسف ، ومن إعجاب الملك به ، ومن الاستجابة له فيما طلب . . على هذا النحو مكنا ليوسف في الأرض ، وثبتنا قدميه ، وجعلنا له فيها مكانا ملحوظا . والأرض هي مصر . أو هي هذه الأرض كلها باعتبار أن مصر يومذاك أعظم ممالكها .

« يتبوأ منها حيث يشاء » . .

يتخذ منها المنزل الذى يريد ، والمكان الذى يريد ، والمكانة التى يريد . في مقابل الجب وما فيه من مخاوف ، والسجن وما فيه من قيود .

« نصيب برحمتنا من نشاء » . .

فنبدله من العسر يسرا ، ومن الضيق فرجا ، ومن الخوف أمنا ، ومن القيد حرية ، ومن الهوان على الناس عزا ومقاما عليا .

« ولا نضيع أجر المحسنين » . .

الذين يحسنون الإيمان بالله ، والتوكل عليه ، والاتجاه إليه ، ويحسنون السلوك والعمل والتصرف مع الناس . . هذا في الدنيا . .

« ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » . .

فلا ينقص منه المتاع في الدنيا وإن كان خيرا من متاع الدنيا ، متى آمن الإنسان واتقى فاطمأن بإيمانه إلى ربه ، وراقبه بتقواه في سره وجهره .

وهكذا عوض الله يوسف عن المحنة ، تلك المكانة في الأرض ، وهذه البشرى في الآخرة جزاء وفاقا على الإيمان والصبر والإحسان .

* * *

Marfat.com

Marfat.com

ودارت عجلة الزمن . وطوى السياق دورانها بما كان فيها طوال سنوات الرخاء . فلم يذكر كيف كان الخصب ، وكيف زرع الناس . وكيف أدار يوسف جهاز الدولة . وكيف نظم ودبر وادخر . كأن هذه كلها أمور مقررة بقوله :

« إنى حفيظ عليم » . .

وكذلك لم يذكر مقدم سنى الجدب ، وكيف تلقاها الناس ، وكيف ضاقت الأرزاق .. لأن هذا كله ملحوظ فى رؤيا الملك وتأويلها :

« ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ماقدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون » . .

كذلك لم يبرز السياق الملك ولا أحدا من رجاله بعد ذلك فى السورة كلها . كأن الأمر كله قد صار ليوسف . الذى اضطلع بالعبء فى الأزمة الخانقة الرهيبة . وأبرز يوسف وحده على مسرح الحوادث ، وسلط عليه كل الأضواء . وهذه حقيقة واقعية استخدمها السياق استخداما فنيا كاملا فى الأداء .

أما فعل الجدب فقد أبرزه السياق فى مشهد إخوة يوسف ، يجيئون من البدو من أرض كنعان البعيدة يبحثون عن الطعام فى مصر . ومن ذلك ندرك اتساع دائرة المجاعة ، كما ندرك كيف وقفت مصر – بتدبير يوسف – منها ، وكيف صارت محط أنظار جيرانها ومخزن الطعام فى المنطقة كلها . وفى الوقت ذاته تمضى قصة يوسف فى مجراها الأكبر بين يوسف وإخوته وهى سمة فنية تحقق هدفا دينيا فى السياق :

« وجاء إخوة يوسف ، فدخلوا عليه ، فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال : ائتونى بأخ لكم من أبيكم . ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ؟ فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون . قالوا : سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتيانه : اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم ، لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » . .

لقد اجتاح الجدب والمجاعة أرض كنعان وما حولها . فاتجه إخوة يوسف – فيمن يتجهون – إلى مصر . وقد تسامع الناس بما فيها من فائض الغلة منذ السنوات السمان . وهاهم أولاء تشهدهم يدخلون على يوسف ، وهم لا يعلمون . إنه يعرفهم فهم لم يتغيروا كثيرا . أما يوسف فإن خيالهم لا يتصور قط أنه هو ذاك ! وأين الغلام العبرانى الصغير الذى

ألقوه فى الجب منذ عشرين عاما أو تزيد [١] من عزيز مصر شبه المتوج فى سنه وزيه وحرسه ومهابته وخدمه وحشمه وهيله وهيلمانه ؟

ولم يكشف لهم يوسف عن نفسه . فلا بد من دروس يتلقونها :

« فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون » ..

ولكنا ندرك من السياق أنه أنزلهم منزلا طيبا ، ثم أخذ فى إعداد الدرس الأول :

« ولما جهزهم بجهازهم قال : ائتونى بأخ لكم من أبيكم » ..

فنفهم من هذا أنه تركهم يأنسون إليه ، واستدرجهم حتى ذكروا له من هم على وجه التفصيل ، وأن لهم أخا أصغر من أبيهم لم يحضر معهم لأن أباه يحبه ولا يطيق فراقه . فلما جهزهم بحاجات الرحلة قال لهم : إنه يريد أن يرى أخاهم هذا .

« قال : ائتونى بأخ لكم من أبيكم » ..

وقد رأيتم أنى أوفى الكيل للمشترين . فسأوفيكم نصيبكم حين يجىء معكم ؛ ورأيتم أنى أكرم النزلاء فلا خوف عليه بل سيلقى منى الإكرام المعهود :

« ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ؟ » ..

ولما كانوا يعلمون كيف يضن أبوهم بأخيهم الأصغر ـ وبخاصة بعد ذهاب يوسف ـ فقد أظهروا أن الأمر ليس ميسورا ، وإنما فى طريقه عقبات من ممانعة أبيهم ، وأنهم سيحاولون إقناعه ، مع توكيد عزمهم ـ على الرغم من هذه العقبات ـ على إحضاره معهم حين يعودون :

« قالوا : سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون » . .

ولفظ « نراود » يصور الجهد الذى يعلمون أنهم باذلوه . .

أما يوسف فقد أمر غلمانه أن يدسوا البضاعة التى حضر بها إخوته ليستبدلوا بها القمح والعلف . وقد تكون خليطا من نقد ومن غلات صحراوية أخرى من غلات الشجر

(١) وهو المتوقع بعد سنوات الإقامة فى بيت العزيز وبضع سنين فى السجن وسبع سنوات رخاء وبعض سنى الجدب حتى جاءوا .

Marfat.com

الصحراوى ، ومن الجلود والشعر وسواها مما كان يستخدم فى التبادل فى الأسواق . . أمر غلمانه بدسها فى رحالهم - والرحل متاع المسافر - لعلهم يعرفون حين يرجعون أنها بضاعتهم التى جاءوا بها :

« وقال لفتيانه : اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » . .

***

وندع يوسف فى مصر . لنشهد يعقوب وبنيه فى أرض كنعان . دون كلمة واحدة عن الطريق ومافيه :

« فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا : ياأبانا منع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل ، وإناله لحافظون . قال : هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ؟ فالله خير حافظا وهوأرحم الراحمين . ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، قالوا : ياأبانا مانبغى . هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ونمير أهلنا ، ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير . ذلك كيل يسير . قال : لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله : لتأتننى به - إلا أن يحاط بكم - فلما آتوه موثقهم قال : الله على مانقول وكيل » . .

ويبدو أنهم فى دخلتهم على أبيهم ، وقبل أن يفكوا متاعهم ، عاجلوه بأن الكيل قد تقرر منعه عنهم مالم يأتوا عزيز مصر بأخيهم الصغير معهم . فهم يطلبون إليه أن يرسل معهم أخاهم الصغير ليكتالوا له ولهم . وهم يعدون بحفظه :

« فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا : ياأبانا منع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل ، وإناله لحافظون » . .

ولابد أن هذا الوعد قد أثار كوامن يعقوب . فهو ذاته وعدهم له فى يوسف ! فإذا هو يجهر بما أثاره الوعد من شجونه :

« قال : هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ! » . .

فخلونى من وعودكم وخلونى من حفظكم ، فإذا أنا طلبت الحفظ لولدى والرحمة بى . .

Marfat.com

« فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » !

وبعد الاستقرار من المشوار، والراحة من السفر فتحوا أوعيتهم ليخرجوا مافيها من غلال .

فإذا هم يجدون فيها بضاعتهم التى ذهبوا يشترون بها ، ولم يجدوا فى رحالهم غلالا !

إن يوسف لم يعطهم قمحا ، إنما وضع لهم بضاعتهم فى رحالهم . فلما عادوا قالوا : ياأبانا منع منا الكيل ، وفتحوا رحالهم فوجدوا بضاعتهم . وكان ذلك ليضطرهم إلى العودة بأخيهم ،وكان هذا بعض الدرس الذى عليهم أن يأخذوه .

على أية حال لقد اتخذوا من رد بضاعتهم إليهم دليلا على أنهم غير باغين فيما يطالبون من استصحاب أخيهم ولا ظالمين :

« قالوا : ياأبانا مانبغى . هذه بضاعتنا ردت إلينا » . .

ثم أخذوا يحرجونه بالتلويح له بمصلحة أهلهم الحيوية فى الحصول على الطعام :

« ونمير أهلنا » . .

والميرة الزاد ، ويؤكدون له عزمهم على حفظ أخيهم . .

« ونحفظ أخانا » . .

ويرغبونه بزيادة الكيل لأخيهم :

« ونزداد كيل بعير » . .

وهو ميسور لهم حين يرافقهم :

« ذلك كيل يسير » . .

ويبدو من قولهم : « ونزداد كيل بعير » أن يوسف ـ عليه السلام ـ كان يعطى كل واحد وسق بعير ـ وهو قدر معروف ـ ولم يكن يبيع كل مشتر مايريد . وكان ذلك من الحكمة فى سنوات الجدب ، كى يظل هناك قوت للجميع :

واستسلم الرجل على كره ؛ ولكنه جعل لتسليم ابنه الباقى شرطا :

« قال : لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله: لتأتننى به إلا أن يحاط بكم » . .

أى لتقسمن لى بالله قسما يربطكم ، أن تردوا علىّ ولدى ، إلا إذا غلبتم على أمركم غلبا لاحيلة لكم فيه ، ولاتجدى مدافعتكم عنه :

Marfat.com

« إلا أن يحاط بكم » ..

وهو كناية عن أخذ المسالك كلها عليهم . فأقسموا :

« فلما آتوه موثقهم قال : الله على ما نقول وكيل » ..

زيادة فى التوكيد والتذكير .

وبعد هـذا الموثق جعل الرجل يوصيهم بما خطر له فى رحلتهم القادمـة ومعهم الصغير العزيز :

« وقال : يا بنى لا تدخلوا من باب واحـد وادخلوا من أبواب متفرقة . وما أغنى عنـكم من الله من شىء . إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون » ..

ونقف هنا أمام قول يعقوب ـ عليه السلام ـ :

« إن الحكم إلا لله » ..

وواضح من سياق القول أنه يعنى هنا حكم الله القدرى القهرى الذى لا مفر منه ولا فكاك. وقضاءه الإلهى الذى يجرى به قدره فلا يملك الناس فيه لأنفسهم شيئا .

وهذا هو الإيمان بالقدر خيره وشره .

وحكم الله القدرى يمضى فى الناس على غير إرادة منهم ولا اختيار . وإلى جانبه حكم الله الذى ينفذه النـاس عن رضى منهم واختيار . وهو الحـكم الشرعى المتمثل فى الأوامر والنواهى .. وهذا كذلك لا يكون إلا لله . شأنه شأن حكمه القدرى ، باختلاف واحد : هو أن الناس ينفذونه مختارين أو لا ينفذونه . فيترتب على هذا أو ذاك نتائجه وعواقبه فى حياتهم فى الدنيا وفى جزائهم فى الآخرة . ولـكن الناس لا يكونون مسلمين حتى يختاروا حكم الله هذا وينفذوه فعلا راضين ..

وسار الركب ، ونفذوا وصية أبيهم :

« ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ، ما كان يغنى عنهم من الله من شىء ـ إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ـ وإنه لذو علم لما علمناه ، ولـكن أكثر الناس لا يعلمون » ..

فيم كانت هذه الوصية ؟ لم قال لهم أبوهم : لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ؟

Marfat.com

تضرب الروايات والتفاسير في هـذا وتبدئ وتعيد ، بلا ضرورة ، بل ضد مايقتضيه السياق القرآني الحكيم . فلو كان السياق يحب أن يكشف عن السبب لقال . ولكنه قال فقط - إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها - فينبغي أن يقف المفسرون عند ما أراده السياق ، احتفاظا بالجو الذي أراده . والجو يوحي بأنه كان يخشى شيئا عليهم ، ويرى في دخولهم من أبواب متفرقة اتقاء لهـذا الشيء مع تسليمه بأنه لايغني عنهم من الله من شيء . فالحكم كله إليه ، والاعتماد كله عليه . إنما هو خاطر شعر به ، وحاجة في نفسه قضاها بالوصية ، وهو على علم بأن إرادة الله نافذة . فقد علمه الله هذا فتعلم .

« ولكن أكثر الناس لايعلمون » . .

ثم ليكن هذا الشيء الذي كان يخشاه هو العين الحاسدة ، أو هي غيرة الملك من كثرتهم وفتوتهم . أو هو تتبع قطاع الطريق لهم . أي كائنا ما كان فهو لايزيد شيئا في الموضوع . سوى أن يجد الرواة والمفسرون بابا للخروج عن الجو القرآني للؤثر إلى قال وقيل ، مما يذهب بالجو القرآني كله في كثرة الأحاديث !

فلنطو نحن الوصية والرحلة كما طواها السياق ، لنلتقي بإخوة يوسف في المشهد التالي بعد الوصول :

* * *

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه . قال : إني أنا أخوك ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون » . .

ونجد السياق هنا يعجل بضم يوسف لأخيه في المأوى ، وإطلاعه أنه هو أخوه ؛ ودعوته لأن يترك من خاطره ذكرى مافعله إخوته به من قبل ، وهي ذكرى لابد كان يبتئس لها الصغير كلما علمها من البيت الذي كان يعيش فيه . فما كان يمكن أن تكون مكتومة عنه في وسطه في أرض كنعان .

يعجل السياق بهذا ، بينما الطبيعي والمفهوم أن هذا لم يحدث فور دخولهم على يوسف . ولكن بعد أن اختلى يوسف بأخيه . ولكن هذا ولا شك كان أول خاطر ساور يوسف عند دخولهم عليه ، وعند رؤيته لأخيه ، بعد الفراق الطويل

Marfat.com

ومن ثم جعله السياق أول عمل لأنه كان أول خاطر . وهـذه من دقائق التعبير فى هذا الـكتاب العجيب !

ويطوى السياق كذلك فترة الضيافة ، وما دار فيها بين يوسف وإخوته ، ليعرض مشهد الرحيل الأخير . فنطلع على تدبير يوسف ليحتفظ بأخيه ، ريثما يتلقى إخوته درسا أو دروسا ضرورية لهم ، وضرورية للناس فى كل زمان ومكان :

« فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ؛ ثم أذن مؤذن : أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا ـ وأقبلوا عليهم ـ ماذا تفقدون ؟ قالوا : نفقد صواع الملك ، ولمن جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم . قالوا : تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض ، وما كنا سارقين . قالوا : فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا : جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ـ كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك ، إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم ـ قالوا : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل . فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم . قال : أنتم شر مكانا . والله أعلم بما تصفون . قالوا : يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا ، فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين . قال : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده . إنا إذن لظالمون » . .

وهو مشهد مثير ، حافل بالحركات والانفعالات والمفاجآت ، كأشد ما تكون المشاهد حيوية وحركة وانفعالا ، غير أن هذا صورة من الواقع يعرضها التعبير القرآنى هذا العرض الحى الأخاذ .

فمن وراء الستار يدس يوسف كأس الملك ـ وهى عادة من الذهب ـ وقيل : إنها كانت تستخدم للشراب . ويستخدم قعرها الداخل الجوف من الناحيـة الأخرى فى كيل القمح ، لندرته وعزته فى تلك المجاعة . يدسها فى الرحل المخصص لأخيه ، تنفيذا لتدبير خاص ألهمه الله له وسنعلمه بعد قليل .

ثم ينادى مناد بصوت مرتفع ، فى صيغة إعلان عام ، وهم منصرفون :

Marfat.com

« أيتها العير إنكم لسارقون » .

ويرتاع إخوة يوسف لهذا النداء الذى يتهمهم بالسرقة ـ وهم أبناء يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم ـ فيعودون أدراجهم يتبينون الأمر المريب :

« قالوا ـ وأقبلوا عليهم ـ ماذا تفقدون ؟ » .

قال الغلمان الذين يتولون تجهيز الرحال . أو الحراس ومنهم هذا الذى أذاع بالإعلان :

« قالوا : نفقد صواع الملك » . .

وأعلن المؤذن أن هناك مكافأة لمن يحضره متطوعا . وهى مكافأة ثمينة فى هذه الظروف :

« ولمن جاء به حمل بعير » من القمح العزيز « وأنا به زعيم » . . أى كفيل .

ولكن القوم مستيقنون من براءتهم ، فهم لم يسرقوا ، وما جاءوا ليسرقوا وليجترحوا هذا الفساد الذى يخلخل الثقة والعلاقات فى المجتمعات ، فهم يقسمون واثقين :

« قالوا : تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض » . .

فقد علمتم من حالنا ومظهرنا ونسبنا أننا لا نجترح هذا . .

« وما كنا سارقين » . . أصلا فما يقع منا مثل هذا الفعل الشنيع .

قال الغلمان أو الحراس :

« فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ » . .

وهنا ينكشف طرف التدبير الذى ألهمه الله يوسف . فقد كان المتبع فى دين يعقوب : أن يؤخذ السارق رهينة أو أسيرا أو رقيقا فى مقابل مايسرق . ولما كان إخوة يوسف موقنين بالبراءة ، فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنه سارق . ذلك ليتم تدبير الله ليوسف وأخيه :

« قالوا : جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه . كذلك نجزى الظالمين » . .

وهذه هى شريعتنا نحكمها فى السارق . والسارق من الظالمين .

كل هذا الحوار كان على منظر ومسمع من يوسف . فأمر بالتفتيش . وأرشدته حصافته

Marfat.com

إلى أن يبدأ برحالهم قبل رحل أخيه، كي لا يثير شبهة في نتيجة التفتيش:

« فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه . ثم استخرجها من وعاء أخيه »!

ويدعنا السياق نتصور الدهشة بالمفاجأة العنيفة لأبناء يعقوب الموقنين ببراءتهم، الحالفين، المتحدين . . فلا يذكر شيئاً عن هذا، بل يتركه يتملاه الخيال على الصورة التي تكمل رسم المشهد بانفعالاته . بينما يأخذ في التعقيب ببعض مرامي القصة، ريثما يفيق النظارة وأبناء يعقوب مما هم فيه :

« كذلك كدنا ليوسف » . .

أي كذلك دبرنا له هذا التدبير الدقيق .

« ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك » . .

فلو حكم شريعة الملك ماتمكن من أخذ أخيه، إنما كان يعاقب السارق على سرقته، دون أن يستولى على أخيه كما استولى عليه بتحكيم إخوته لدينهم هم . وهذا هو تدبير الله الذي ألهم يوسف أسبابه . وهو كيد الله له . والكيد يطلق على التدبير في الخفاء للخير أو للشر سواء . وإن كان الشر قد غلب عليه . وظاهر الأمر هنا أنه شر يحل بأخيه وهو شر يحل بإخوته لإحراجهم أمام أبيه . وهو سوء - ولو مؤقتا - لأبيه . فلهذا اختار تسميته كيدا على إجمال اللفظ وبالإلماع إلى ظاهره . وهو من دقائق التعبير .

« ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك » . . « إلا أن يشاء الله » . .

فيدبر مثل هذا التدبير الذي رأيناه .

ويتضمن التعقيب الإشارة إلى ما ناله يوسف من رفعة :

« نرفع درجات من نشاء » . .

وإلى ما ناله من علم، مع التنبيه إلى أن علم الله هو الأعلى :

« وفوق كل ذي علم عليم » . .

وهو احتراس لطيف دقيق .

Marfat.com

Marfat.com

ولابد أن نقف أمام التعبير القرآني الدقيق العميق :

« كذلك كدنا ليوسف .. ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك .. » ..

إن هذا النص يحدد مدلول كلمة « الدين » ـ فى هذا الموضع ـ تحديدا دقيقا .. إنه يعنى: نظام الملك وشرعه .. فإن نظام الملك وشرعه ما كان يجعل عقوبة السارق هو أخذه فى جزاء سرقته . إنما هذا كان نظام يعقوب وشريعة دينه . وقد ارتضى إخوة يوسف تحكيم نظامهم هم وشريعتهم ؛ فطبقها يوسف عليهم عندما وجد صواع الملك فى رحل أخيه .. وعبر القرآن الكريم عن النظام والشريعة بأنها « الدين » ..

هذا المدلول القرآنى الواضح هو الذى يغيب فى جاهلية القرن العشرين عن الناس جميعا. سواء منهم من يدعون أنفسهم مسلمين وغيرهم من الجاهليين !

إنهم يقصرون مدلول « الدين » على الاعتقاد والشعائر .. ويعدون كل من يعتقد فى وحدانية الله وصدق رسوله ويؤمن بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ؛ ويؤدى الشعائر المكتوبة .. داخلا فى « دين الله » مهما تكن دينونته بالطاعة والخضوع وإقراره بالحاكمية لغير الله من الأرباب المتفرقة فى الأرض .. بينما النص القرآنى هنا يحدد مدلول « دين الملك » بأنه نظام الملك وشريعته . وكذلك « دين الله » فهو نظامه وشريعته ..

إن مدلول « دين الله » قد هزل وانكمش حتى صار لايعنى فى تصور الجماهير الجاهلية إلا الاعتقاد والشعائر .. ولكنه لم يكن كذلك يوم جاء هذا الدين منذ آدم ونوح إلى محمد عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين .

لقد كان يعنى دائما : الدينونة لله وحده ؛ بالتزام ماشرعه ، ورفض ماشرعه غيره . وإفراده ـ سبحانه ـ بالألوهية فى الأرض مثل إفراده بالألوهية فى السماء ؛ وتقرير ربوبيته وحده للناس : أى حاكميته وشرعه وسلطانه وأمره . وكان مفرق الطريق دائما بين من هم فى دين « الله » ومن هم فى « دين الملك » أن الأولين يدينون لنظام الله وشرعه وحده ، وأن

الآخرين يدينون لنظام الملك وشرعه .أو يشركون فيدينون لله فى الاعتقادوالشعائر ، ويدينون لغير الله فى النظام والشرائع !

وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة ، ومن بديهيات العقيدة الإسلامية تماما .

وبعض المترفقين بالناس اليوم يتلمسون لهم عذرا فى أنهم يجهلون مدلول كلمة « دين الله » وهم من ثم لايصرون ولا يحاولون تحكيم شريعة الله وحدها بوصفها هى « الدين » . وأن جهلهم هذا بمدلول الدين يعفيهم من أن يكونوا جاهليين مشركين !

وأنا لاأتصور كيف أن جهل الناس ابتداء بحقيقة هذا الدين يجعلهم فى دائرة هذا الدين !

إن الاعتقاد بحقيقة فرع عن معرفتها . فإذا جهل الناس حقيقة عقيدة فكيف يكونون معتنقين لها ؟ وكيف يحسبون من أهلها وهم لايعرفون ابتداء مدلولها ؟

إن هذا الجهل قد يعفيهم من حساب الآخرة ، أو يخفف عنهم العذاب فيها ؛ ويلقى بتبعاتهم وأوزارهم على كاهل من لايعلمونهم حقيقة هذا الدين وهم يعرفونها . . ولكن هذه مسألة غيبية متروك أمرها لله ، والجدل فى الجزاء الأخروى لأهل الجاهلية عامة ليس وراءه كبير طائل . وليس هو الذى يعنينا نحن البشر الذين ندعو إلى الإسلام فى الأرض !

إن الذى يعنينا هو تقرير حقيقة الدين الذى فيه الناس اليوم . . إنه ليس دين الله قطعا . فدين الله هو نظامه وشرعه وفق النصوص القرآنية الصريحة . فمن كان فى نظام الله وشرعه فهو فى « دين الله » . ومن كان فى نظام الملك وشرعه فهو فى « دين الملك » ولا جدال فى هذا .

والذين يجهلون مدلول الدين لايمكن أن يكونوا معتقدين بهذا الدين . لأن الجهل هنا وارد على أصل حقيقة الدين الأساسية . والجاهل بحقيقة هذا الدين الأساسية لايمكن عقلا وواقعا أن يكون معتقدا به . إذ الاعتقاد فرع عن الإدراك والمعرفة . . وهذه بديهية . .

Marfat.com

وخير لنا من أن ندافع عن الناس ـ وهم فى غير دين الله ـ ونتلمس لهم المعاذير ، ونحاول أن نكون أرحم بهم من الله الذى يقرر مدلول دينه وحدوده ! . .

خير لنا من هـذا كله أن نشرع فى تعريف الناس حقيقة مدلول « دين الله » ليدخـلوا فيه .. أو يرفضوه . .

هذا خير لنا وللناس أيضا . . خير لنا لأنه يعفينا من تبعة ضلال هؤلاء الجاهلين بهذا الدين، الذين ينشأ عن جهلهم به عـدم اعتناقه فى الحقيقة . . وخير للناس لأن مواجهتهم بحقيقة ماهم عليه ـ وأنهم فى دين الملك لافى دين الله ـ قد تهزهم هزة تخرجهم من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن دين الملك إلى دين الله !

كذلك فعل الرسل ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ وكذلك ينبغى أن يفعل الدعاة إلى الله فى مواجهة الجاهلية فى كل زمان ومكان . .

ثم نعود إلى إخوة يوسف بعد هـذا التعقيب القصير . نعود إليهم وقد حرك الحرج الذى يلاقونه كوامن حقدهم على أخى يوسف ، وعلى يوسف من قبله ، فإذا هم يتنصلون من نقيصة السرقة ، وينفونها عنهم ، ويلقونها على هذا الفرع من أبناء يعقوب :

« قالوا : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » !

إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل . . وتنطلق الروايات والتفاسير تبحث عن مصداق قولهم هذا فى تعلات وحكايات وأساطير . كأنهم لم يـكذبوا قبـل ذلك على أبيهم فى يوسف ؛ وكأنهم لا يمـكن أن يكذبوا على عزيز مصر دفعا للتهمة التى تحرجهم ، وتبرؤاً من يوسف وأخيه السارق ، وإرواء لحقدهم القديم على يوسف وأخيه ؟ !

لقد قذفوا بها يوسف وأخاه !

« فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم » . .

أسر هذه الفعلة وحفظها فى نفسه ، ولم يبد تأثره منها . وهو يعلم براءته وبراءة أخيـه . إنما قال لهم :

« أنتم شر مكانا » . .

Marfat.com

Marfat.com

يعنى أنكم بهذا القذف شر مكانا عند الله من المقذوف ـ وهى حقيقة لاشتمة.

« والله أعلم بما تصفون » . . وبحقيقة ماتقولون . وأراد بذلك قطع الجدل فى الاتهام الذى أطلقوه ، ولا دخل له بالموضوع ! . .

وعندئذ عادوا إلى الموقف المحرج الذى وقعوا فيه . عادوا إلى الموثق الذى أخذه عليهم أبوهم : « لتأتننى به إلا أن يحاط بكم » . . فراحوا يسترحمون يوسف باسم والد الفتى ، الشيخ الكبير ، ويعرضون أن يأخذ بدله واحدا منهم إن لم يكن مطلقه لخاطر أبيه ؛ ويستعينون فى رجائه بتذكيره بإحسانه وصلاحه وبره لعله يلين :

« قالوا : يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا ، فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين » . .

ولكن يوسف كان يريد أن يلقى عليهم درسا . وكان يريد أن يشوقهم إلى المفاجأة التى يعدها لهم ولوالده وللجميع ! ليكون وقعها أعمق وأشد أثرا فى النفوس :

« قال : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده . إنا إذن لظالمون » . .

ولم يقل . معاذ الله أن نأخذ بريئا بجريرة سارق . لأنه كان يعلم أن أخاه ليس بسارق فعبر أدق تعبير يحكيه السياق هنا باللغة العربية بدقة (1) :

« معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده » وهى الحقيقة الواقعة دون زيادة فى اللفظ تحقق الاتهام أو تنفيه . .

« إنا إذن لظالمون » . .

وما نريد أن نكون ظالمين . .

وكانت هى الكلمة الأخيرة فى الموقف . وعرفوا أن لا جدوى بعدها من الرجاء ، فانسحبوا يفكرون فى موقفهم المحرج ، أمام أبيهم حين يرجعون .

---

(1) كان يوسف يتكلم العربية لغة أهله ، واللغة المصرية القديمة لغة وسطه . والمفهوم أنه كان يخاطبهم بالمصرية فيعرفونها أو تترجم لهم .

Marfat.com

« فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا . قَالَ كَبِيرُهُمْ : أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ ؟ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ؟ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ، أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۝ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ ، فَقُولُوا : يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ، وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ، وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ، وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ .

« قَالَ : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

« وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ، وَقَالَ : يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ! وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا : تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ! * قَالَ : إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ، وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ .

« فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا : يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ، وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ، فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ، وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا . إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ * قَالَ : هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ؟ * قَالُوا : أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ؟ قَالَ : أَنَا يُوسُفُ ، وَهَٰذَا أَخِي ، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا : تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ، وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ : لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ، وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ .

« وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ : إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ، لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ * قَالُوا : تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّآ أَن جَآءَ الْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً ، قَالَ : أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ : إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَالَا تَعْلَمُونَ * قَالُوا : يَٰٓأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ ، إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ * قَالَ : سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

« فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ، وَقَالَ : ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ، وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ، وَقَالَ : يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ ، قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ، وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ـ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

« رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ، وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ، أَنتَ وَلِيِّۦ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِماً ، وَأَلْحِقْنِي بِالصَّٰلِحِينَ » (١٠١)

يئس إخوة يوسف من محاولة تخليص أخيهم الصغير ، فانصرفوا من عنده ، وعقدوا مجلسا يتشاورون فيه . وهم هنا في هذا المشهد يتناجون . والسياق لايذكر أقوالهم جميعا . إنما يثبت آخرها الذي يكشف عما انتهوا إليه :

« فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا . قال كبيرهم : الم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ، ومن قبل مافرطتم في يوسف ؟ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي ، أو يحكم الله لي،

Marfat.com

Marfat.com

وهو خير الحاكمين . اذهبوا إلى أبيكم فقولوا : ياأبانا إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها ، وإنا لصادقون » . .

إن كبيرهم ليذكرهم بالموثق المأخوذ عليهم ، كما يذكرهم بتفريطهم فى يوسف من قبل . ويقرن هذه إلى تلك ، ثم يرتب عليها قراره الجازم : ألا يبرح مصر ، وألا يواجه أباه ، إلا أن يأذن له أبوه ، أو يقضى الله له بحكم ، فيخضع له وينصاع .

أما هم فقد طلب إليهم أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه صراحة بأن ابنه سرق ، فأخذ بما سرق . ذلك ماعلموه شهدوا به . أما إن كان بريئا ، وكان هناك أمر وراء هذا الظاهر لا يعلمونه ، فهم غير موكلين بالغيب . كما أنهم لم يكونوا يتوقعون أن يحدث ماحدث ، فذلك كان غيبا بالنسبة إليهم ، وما هم بحافظين للغيب . وإن كان فى شك من قولهم فليسأل أهل القرية التى كانوا فيها ــ وهى عاصمة مصر ــ والقرية اسم للمدينة الكبيرة ــ وليسأل القافلة التى كانوا فيها ، فهم لم يكونوا وحدهم ، فالقوافل الكثيرة كانت ترد مصر لتمتار الغلة فى السنين العجاف . .

* * *

ويطوى السياق الطريق بهم ، حتى يقفهم فى مشهد أمام أبيهم للفجوع ، وقد أفضوا إليه بالنبأ الفظيع . فلا نسمع إلا رده قصيرا سريعا ، شجيا وجيعا . ولكن وراءه أملا لم ينقطع فى الله أن يرد عليه ولديه ، أو أولاده الثلاثة بما فيهم كبيرهم الذى أقسم ألا يبرح حتى يحكم الله له . وإنه لأمل عجيب فى ذلك القلب الوجيع :

« قال : بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، عسى الله أن يأتينى بهم جميعا . إنه هو العليم الحكيم » . .

« بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل » . . كلمته ذاتها يوم فقد يوسف . ولكنه فى هذه المرة يضيف إليها هذا الأمل أن يرد الله عليه يوسف وأخاه فيرد ابنه الآخر المتخلف هناك . . « إنه هو العليم الحكيم » . . الذى يعلم حاله ، ويعلم ما وراء هذه

Marfat.com

الأحداث والامتحانات ، ويأتى بكل أمر فى وقته المناسب ، عندما تتحقق حكمته فى ترتيب الأسباب والنتائج .

هذا الشعاع من أين جاء إلى قلب هذا الرجل الشيخ ؟ إنه الرجاء فى الله ، والاتصال الوثيق به ، والشعور بوجوده ورحمته . ذلك الشعور الذى يتجلى فى قلوب الصفوة المختارة ، فيصبح عندها أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذى تلمسه الأيدى وتراه الأبصار .

« وتولى عنهم وقال : ياأسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » . .

وهى صورة مؤثرة للوالد المفجوع . يحس أنه منفرد بهمه ، وحيد بمصابه ، لا تشاركه هذه القلوب التى حوله ولا تجاوبه ، فينفرد فى معزل ، يندب فجيعته فى ولده الحبيب . يوسف . الذى لم ينسه ، ولم تهوّن من مصيبته السنون ، والذى تذكره به نكبته الجديدة فى أخيه الأصغر فتغلبه على صبره الجميل :

« ياأسفا على يوسف ! » . .

ويكظم الرجل حزنه ويتجلد فيؤثر هذا الكظم فى أعصابه حتى تبيض عيناه حزنا وكمدا :

« وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » . .

ويبلغ الحقد بقلوب بنيه ألا يرحموا مابه ، وأن يلسع قلوبهم حنينه ليوسف وحزنه عليه ذلك الحزن الكامد الكظيم ، فلا يسرون عنه ، ولا يعزونه ، ولا يعللونه بالرجاء ، بل يريدون ليطمسوا فى قلبه الشعاع الأخير :

« قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ! » .

وهى كلمة حانقة مستنكرة . تالله تظل تذكر يوسف ، ويهدك الحزن عليه ، حتى تذوب حزنا أو تهلك أسى بلا جدوى . فيوسف ميئوس منه قد ذهب ولن يعود !

ويرد عليهم الرجل بأن يتركوه لربه ، فهو لايشكو لأحد من خلقه ، وهو على صلة بربه غير صلتهم ، ويعلم من حقيقته ما لا يعلمون :

Marfat.com

« قال : إنما أشكو بثى (١) وحزنى إلى الله ، وأعلم من الله مالا تعلمون » .

وفى هذه الكلمات يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية فى هذا القلب الموصول ؛ كما تتجلى هذه الحقيقة ذاتها بجلالها الغامر ، ولألائها الباهر .

إن هذا الواقع الظاهر لليئس من يوسف ، وهذا المدى الطويل الذى يقطع الرجاء من حياته فضلا على عودته إلى أبيه ، واستنكار بنيه لهذا التطلع بعد هذا الأمد الطويل فى وجه هذا الواقع الثقيل . . إن هذا كله لايؤثر شيئا فى شعور الرجل الصالح بربه . فهو يعلم من حقيقة ربه ومن شأنه مالا يعلم هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة بذلك الواقع الصغير المنظور !

وهذه قيمة الإيمان بالله ، ومعرفته سبحانه هذا اللون من المعرفة . معرفة التجلى والشهود . وملابسة قدرته وقدره ، وملامسة رحمته ورعايته ، وإدراك شأن الألوهية مع العبيد الصالحين .

إن هذه الكلمات : « وأعلم من الله مالا تعلمون » تجلو هذه الحقيقة بمالا تملك كلماتنا نحن أن تجلوها . وتعرض مذاقا يعرفه من ذاق مثله ، فيدرك ماذا تعنى هذه الكلمات فى نفس العبد الصالح يعقوب . .

والقلب الذى ذاق هذا المذاق لاتبلغ الشدائد منه - مهما بلغت - إلا أن يتعمق اللمس والمشاهدة والمذاق !

ولا نملك أن نزيد . ولكننا نحمد الله على فضله فى هذا ، وندع مابيننا وبينه له يعلمه سبحانه ويراه .

ثم يوجههم يعقوب إلى تلمس يوسف وأخيه ؛ وألا ييأسوا من رحمة الله ، فى العثور عليهما ، فإن رحمة الله واسعة وفرجه دائما منظور :

« يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

---

(١) همى ومصيبتى .

فيا للقلب الموصول ! ! !

« يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه » . .

تحسسوا بحواسكم ، فى لطف وبصر وصبر على البحث . ودون يأس من الله وفرجه ورحمته.
وكلمة « روح » أدق دلالة وأكثر شفافية . ففيها ظل الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسم على الأرواح من روح الله الندى :

« إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » . .

فأما المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله ، الندية أرواحهم بروحه ، الشاعرون بنفحاته المحيية الرخية ، فإنهم لا ييأسون من روح الله ولو أحاط بهم الكرب ، واشتد بهم الضيق . وإن المؤمن لفى روح من ظلال إيمانه ، وفى أنس من صلته بربه ، وفى طمأنينة من ثقته بمولاه ، وهو فى مضايق الشدة ومخانق الكروب . .

* * *

ويدخل إخوة يوسف مصر للمرة الثالثة ، وقد أضرت بهم المجاعة ، ونفدت منهم النقود ، وجاءوا ببضاعة رديئة هى الباقية لديهم يشترون بها الزاد . . يدخلون وفى حديثهم انكسار لم يعهد فى أحاديثهم من قبل ، وشكوى من المجاعة تدل على مافعلت بهم الأيام :

« فلما دخلوا عليه قالوا : ياأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مُزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزى المتصدقين » . .

وعندما يبلغ الأمر بهم إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار لاتبقى فى نفس يوسف قدرة على المضى فى تمثيل دور العزيز ، والتخفى عنهم بحقيقة شخصيته . فقد انتهت الدروس ، وحان وقت المفاجأة الكبرى التى لا تخطر لهم على بال ؛ فإذا هو يترفق فى الإفضاء بالحقيقة إليهم ، فيعود بهم إلى الماضى البعيد الذى يعرفونه وحدهم ، ولم يطلع عليه أحد إلا الله :

« قال : هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ » !!

ورن فى آذانهم صوت لعلهم يذكرون شيئا من نبراته . ولاحت لهم ملامح وجه لعلهم

Marfat.com

لم يلتفتوا إليها وهم يرونه فى سمت عزيز مصر وأبهته وشياته . والتمع فى نفوسهم خاطر من بعيد :

« قالوا : أئنك لأنت يوسف ؟ » ..

أئنك لأنت ؟! فالآن تدرك قلوبهم وجوارحهم وآذانهم ظلال يوسف الصغير فى ذلك الرجل الكبير ..

« قال : أنا يوسف . وهذا أخى . قد من الله علينا . إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين » ..

مفاجأة ! مفاجأة عجيبة . يعلنها لهم يوسف ويذكرهم فى إجمال بما فعلوه بيوسف وأخيه فى دفعة الجهالة . . ولا يزيد . . سوى أن يذكر منة الله عليه وعلى أخيه ، معللا هذه المنة بالتقوى والصبر وعدل الله فى الجزاء .

أما هم فتتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف ، ويجللهم الخزى والخجل وهم يواجهونه محسنا إليهم وقد أساءوا . حليما بهم وقد جهلوا . كريما معهم وقد وقفوا منه موقف غير كريم :

« قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين » ..

اعتراف بالخطيئة ، وإقرار بالذنب ، وتقرير لما يرونه من إيثار الله له عليهم بالمكانة والحلم والتقوى والإحسان . يقابله يوسف بالصفح والعفو وإنهاء الموقف المخجل . شيمة الرجل الكريم . وينجح يوسف فى الابتلاء بالنعمة كما نجح من قبل فى الابتلاء بالشدة . إنه كان من المحسنين .

« قال : لاتثريب عليكم اليوم . يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » . .

لامؤاخذة لكم ولا تأنيب اليوم . فقد انتهى الأمر من نفسى ولم تعد له جذور . والله يتولاكم بالمغفرة وهو أرحم الراحمين . . ثم يحول الحديث إلى شأن آخر . شأن أبيه الذى ابيضت عيناه من الحزن . فهو معجل إلى تبشيره . معجل إلى لقائه . معجل إلى كشف ماعلق بقلبه من حزن ، وماألم بجسمه من ضنى ، وما أصاب بصره من كلال :

« اذهبوا بقميصي هذا ، فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا ، وأتوني بأهلكم أجمعين » . .

كيف عرف يوسف أن رائحته سترد على أبيه بصره الكليل ؟ ذلك مما علمه الله . والمفاجأة تصنع في كثير من الحالات فعل الخارقة . . ومالها لاتكون خارقة ويوسف نبي رسول ويعقوب نبي رسول ؟

* * *

ومنذ اللحظة نحن أمام مفاجأة في القصة بعد مفاجأة ، حتى تنتهي مشاهدها المثيرة بتأويل رؤيا الصبي الصغير .

« ولما فصلت العير قال أبوهم : إني لأجد ريح يوسف . لولا أن تفندون ! » . .

ريح يوسف ! كل شيء إلا هذا . فما يخطر على بال أحد أن يوسف بعد في الأحياء بعد هذا الأمد الطويل . وأن له ريحا يشمها هذا الشيخ الكليل !

إني لأجد ريح يوسف . لولا أن تقولوا شيخ خرف : « لولا أن تفندون » . . لصدقتم معي ماأجده من ريح الغائب البعيد .

كيف وجد يعقوب ريح يوسف منذ أن فصلت العير . ومن أين فصلت ؟ يقول بعض المفسرين : إنها منذ فصلت من مصر ، وأنه شم رائحة القميص من هذا المدى البعيد . ولكن هذا لادلالة عليه . فربما كان المقصود لما فصلت العير عند مفارق الطرق في أرض كنعان ، واتجهت إلى محلة يعقوب على مدى محدود .

ونحن بهذا لاننكر أن خارقة من الخوارق يمكن أن تقع لنبي كيعقوب من ناحية نبي كيوسف . كل ماهنالك أننا نحب أن نقف عند حدود مدلول النص القرآني أو رواية ذات سند صحيح . وفي هذا لم ترد رواية ذات سند صحيح . ودلالة النص لاتعطي هذا المدى الذي يريده المفسرون !

ولكن المحيطين بيعقوب لم يكن لهم ماله عند ربه ، فلم يجدوا ماوجد من رائحة يوسف .

« قالوا : تالله . إنك لفي ضلالك القديم » .

في ضلالك بيوسف ، وضلالك بانتظاره وقد ذهب مذهب الذي لايعود .

Marfat.com

ولكن للفاجأة البعيدة تقع ، وتتبعها مفاجأة أخرى :

« فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه ، فارتد بصيرا » ..

مفاجأة القميص . وهو دليل على يوسف وقرب لقياه . ومفاجأة ارتداد البصر بعد ماابيضت عيناه . . وهنا يذكر يعقوب حقيقة مايعلمه من ربه . تلك التى حدثهم بها من قبل فلم يفهموه :

« قال : ألم أقل لكم : إنى أعلم من الله مالا تعلمون ؟ » ..

« قالوا : ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين » ..

ونلمح هنا أن فى قلب يعقوب شيئا من بنيه ، وأنه لم يصف لهم بعد ، وإن كان يعدهم باستغفار الله لهم بعد أن يصفو ويسكن ويستريح :

« قال : سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم » .

وحكاية عبارته بكلمة « سوف » لاتخلو من إشارة إلى قلب إنسانى مكلوم ..

* * *

ويمضى السياق فى مفاجآت القصة . فيطوى الزمان والمكان ، لنلتقى فى المشهد النهائى المؤثر المثير :

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه . وقال : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش ، وخروا له سجدا ، وقال : يا أبت ، هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا . وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو ، من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى . إن ربى لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم » ..

وياله من مشهد ! بعد كر الأعوام وانقضاء الأيام . وبعد اليأس والقنوط . وبعد الألم والضيق . وبعد الامتحان والابتلاء . وبعد الشوق المضنى والحزن الكامد واللهف الظامىء الشديد .

ياله من مشهد حافل بالانفعال والخفقات والفرح والدموع !

Marfat.com

وياله من مشهد ختامى موصول بمطلع القصة : ذلك فى ضمير الغيب وهذا فى واقع الحياة ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه :

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ، وقال : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » . .

ويذكر رؤياه ويرى تأويلها بين يديه فى سجود إخوته له ـ وقد رفع أبويه على السرير الذى يجلس عليه ـ كما رأى الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين :

« ورفع أبويه على العرش ، وخروا له سجدا ، وقال : ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا » . .

ثم يذكر نعمة الله عليه :

« وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى » . .

ويذكر لطف الله فى تدبيره لتحقيق مشيئته :

« إن ربى لطيف لما يشاء » . .

يحقق مشيئته بلطف ودقة خفية لايحسها الناس ولا يشعرون بها :

« إنه هو العليم الحكيم » . .

ذات التعبير الذى قاله يعقوب وهو يقص عليه رؤياه فى مطلع القصة :

« إن ربك عليم حكيم » . .

ليتوافق البدء والختام حتى فى العبارات .

* * *

وقبل أن يسدل الستار على المشهد الأخير المثير ، نشهد يوسف ينزع نفسه من اللقاء والعناق والفرحة والابتهاج والجاه والسلطان ، والرغد والأمان : . ليتجه إلى ربه فى تسبيح الشاكر الذاكر ! كل دعوته ـ وهو فى أبهة السلطان ، وفى فرحة تحقيق الأحلام ـ أن يتوفاه ربه مسلما وأن يلحقه بالصالحين :

Marfat.com

« رب قد آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث . فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة . توفني مسلما وألحقني بالصالحين » . .

« رب قد آتيتني من الملك » . .

آتيتني منه سلطانه ومكانه وجاهه وماله . فذلك من نعمة الدنيا .

« وعلمتني من تأويل الأحاديث » . .

بإدراك مآلاتها وتعبير رؤاها . فذلك من نعمة العلم .

نعمتك يا ربي أذكرها وأعددها . .

« فاطرَ السماوات والأرض » . .

بكلمتك خلقتها وبيدك أمرها ، ولك القدرة عليها وعلى أهلها . .

« أنت وليي في الدنيا والآخرة » . .

فأنت الناصر والمعين . .

رب تلك نعمتك . وهذه قدرتك .

رب إني لا أسألك سلطانا ولا صحة ولا مالا . رب إني أسألك ما هو أبقى وأغنى :

« توفني مسلما وألحقني بالصالحين » . .

وهكذا يتوارى الجاه والسلطان ، وتتوارى فرحة اللقاء واجتماع الأهل ولمة الإخوان . ويبدو المشهد الأخير مشهد عبد فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه ، وأن يلحقه بالصالحين بين يديه .

إنه النجاح المطلق في الامتحان الأخير . .

« ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ * وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

Marfat.com

Marfat.com

يمرُّون عليها ، وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون *
أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ، أو تأتيهم الساعة بغتة وهم
لا يشعرون ؟

« قل : هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله ،
وما أنا من المشركين .

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى . أفلم
يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ ولدار الآخرة
خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون ؟ * حتى إذا استيأس الرسل ، وظنوا
أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ، فنجي من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن
القوم المجرمين .

« لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثا يفترى ،
ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم
يؤمنون » (١١١)

انتهت قصة يوسف لتبدأ التعقيبات عليها . تلك التعقيبات التي أشرنا إليها في مقدمة الحديث عن السورة . وتبدأ معها اللفتات المتنوعة واللمسات المتعددة ، والجولات الموحية في صفحة الكون وفي أغوار النفس وفي آثار الغابرين ، وفي الغيب المجهول وراء الحاضر المعلوم .
فنأخذ في استعراضها حسب ترتيبها في السياق وهو ترتيب ذو هدف معلوم .

***

تلك القصة لم تكن متداولة بين القوم الذين نشأ فيهم محمد — صلى الله عليه وسلم — ثم

Marfat.com

بث إليهم . وفيها أسرار لم يعلمها إلا الذين لامسوها من أشخاص القصة ، وقد غبرت بهم القرون . وقد سبق في مطلع السورة قول الله تعالى لنبيه :

« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين » . .

فها هو ذا يعقب على القصة بعد تمامها ، ويعطف ختامها على مطلعها :

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » . .

ذلك القصص الذي مضى في السياق من الغيب الذي لا تعلمه ؛ ولكننا نوحيه إليك وآية وحيه أنه كان غيبا بالقياس إليك . وما كنت معهم إذ اجتمعوا واتفق رأيهم . وهم يمكرون ذلك المكر الذي تحدثت عنه القصة في مواضعه . وهم يمكرون بيوسف ، وهم يمكرون بأبيهم ، وهم يدبرون أمرهم بعد أخذ أخيه وقد خلصوا نجيا وهو من المكر بمعنى التدبير . وكذلك ما كان هناك من مكر بيوسف من ناحية النسوة ومن ناحية رجال الحاشية وهم يودعونه السجن . . كل أولئك مكر ما كنت حاضره لتحكي عنه إنما هو الوحي الذي سيقت السورة لتثبته من بين ماتثبت من قضايا هذه العقيدة وهذا الدين ، وهي متناثرة في مشاهد القصة الكثيرة .

* * *

ولقد كان من مقتضى ثبوت الوحي ، وإيحاء القصص ، واللفتات والمسات التي تحرك القلوب ، أن يؤمن الناس بهذا القرآن ، وهم يشهدون الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويعرفون أحواله ، ثم يسمعون منه مايسمعون . ولكن أكثر الناس لايؤمنون . وهم يمرون كذلك على الآيات المبثوثة في صفحة الوجود فلا ينتبهون إليها ، ولا يدركون مدلولها ، كالذي يلوي صفحة وجهه فلايرى مايواجهه . فما الذي ينتظرونه ؟ وعذاب الله قد يأخذهم بغتة وهم لايشعرون :

« وما أكثر الناس - ولو حرصت - بمؤمنين . وماتسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين . وكأي من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . ومايؤمن

أكثرهم بالله إلا وهم مشركون . أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لايشعرون ؟ » ..

ولقد كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حريصا على إيمان قومه ، رغبة فى إيصال الخير الذى جاء به إليهم ، ورحمة لهم مما ينتظر المشركين من نكد الدنيا وعذاب الآخرة . ولكن الله العليم بقلوب البشر ، الخبير بطبائعهم وأحوالهم ، ينهى إليه أن حرصه على إيمانهم لن يسوق الكثرة المشركة إلى الإيمان ، لأنهم ـ كما قال فى هذه الآيات ـ يمرون على الآيات الكثيرة معرضين . فهذا الإعراض لا يؤهلهم للإيمان ، ولا يجعلهم ينتفعون بدلائله المبثوثة فى الآفاق .

وإنك لغنى عن إيمانهم فما تطلب منهم أجرا على الهداية ؛ وإن شأنهم فى الإعراض عنها لعجيب ، وهى تبذل لهم بلا أجر ولا مقابل :

« وما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين » ..

تذكرهم بآيات الله ، وتوجه إليها أبصارهم وبصائرهم . وهى مبذولة للعالمين ، لااحتكار فيها لأمة ولا جنس ولا قبيلة ، ولا ثمن لها يعجز عنه أحد ، فيمتاز الأغنياء على الفقراء ، ولا شرط لها يعجز عنه أحد فيمتاز القادرون على العاجزين . إنما هى ذكرى للعالمين . ومائدة عامة شاملة معروضة لمن يريد . .

« وكأين من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » . .

والآيات الدالة على الله وحدانيته وقدرته كثيرة مبثوثة فى تضاعيف الكون ، معروضة للأبصار والبصائر . فى السماوات وفى الأرض . يمرون عليها صباح مساء ، آناء الليل وأطراف النهار . وهى ناطقة تكاد تدعو الناس إليها . بارزة تواجه العيون والمشاعر . موحية تخايل للقلوب والعقول . ولكنهم لايرونها ولا يسمعون دعاءها ولا يحسون إيقاعها العميق .

وإن لحظة تأمل فى مطلع الشمس ومغيبها . لحظة تأمل فى الظل الممدود ينقص بلطف أو يزيد . لحظة تأمل فى الخضم الزاخر ، والعين الفوارة ، والنبع الروى . لحظة تأمل فى النبتة النامية ، والبرعم الناعم ، والزهرة المتفتحة ، والحصيد الهشيم . لحظة تأمل فى الطائر السابح فى

Marfat.com

الفضاء ، والسمك السابح فى الماء ، والدود السارب والنمل الدائب ، وسائر الحشود والأمم من الحيوان والحشرات والهوام . لحظة تأمل فى صبح أو مساء ، فى هدأة الليل أو فى زحمة النهار .. لحظة واحدة يتسمع فيها القلب البشرى إلى إيقاعات هذا الوجود العجيب .. إن لحظة واحدة لكافية لارتعاش هذا القلب بقشعريرة الإدراك الرهيب ، والتأثر المستجيب . ولكنهم « يمرون عليها وهم عنها معرضون » .. لذلك لا يؤمن الأكثرون !

وحتى الذين يؤمنون ، كثير منهم يتدسس الشرك — فى صورة من صوره — إلى قلوبهم . فالإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة دائمة تنفى عن القلب أولا بأول كل خالجة شيطانية ، وكل اعتبار من اعتبارات هذه الأرض فى كل حركة وكل تصرف ، لتكون كلها لله ، خالصة له دون سواه . والإيمان الخالص يحتاج إلى حسم كامل فى قضية السلطان على القلب وعلى التصرف والسلوك فلا تبقى فى القلب دينونة إلا لله سبحانه ، ولا تبقى فى الحياة عبودية إلا للمولى الواحد الذى لا راد لما يريد :

« وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » ..

مشركون قيمة من قيم هذه الأرض فى تقريرهم للأحداث والأشياء والأشخاص . مشركون سببا من الأسباب مع قدرة الله فى النفع أو الضر سواء . مشركون فى الدينونة لقوة غير قوة الله من حاكم أو موجه لا يستمد من شرع الله دون سواه . مشركون فى رجاء يتعلق بغير الله من عباده على الإطلاق . مشركون فى تضحية يشوبها التطلع إلى تقدير الناس . مشركون فى جهاد لتحقيق نفع أو دفع ضر ولكن لغير الله . مشركون فى عبادة يلحظ فيها وجه مع وجه الله . لذلك يقول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل »(١) .

وفى الأحاديث نماذج من هذا الشرك الخفى :

روى الترمذى — وحسنه — من رواية ابن عمر : « من حلف بغير الله فقد أشرك » .

---

(١) رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى — بإسناده — عن معقل بن يسار . قال : شهدت النبى — صلى الله عليه وسلم — أو قال : حدثنى أبو بكر الصديق عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ..

Marfat.com

Marfat.com

وروى أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الرقى والتمائم شرك » .

وفى مسند الإمام أحمد من حديث عقبة ابن عامر قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من علق تميمة فقد أشرك » .

وعن أبى هريرة ـ بإسناده ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يقول الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشريكه » .

وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد ابن أبى فضالة قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لاريب فيه ينادى مناد : من كان أشرك فى عمل عمله لله ، فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » .

وروى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن محمود ابن لبيد أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ قال : « الرياء . يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء » ؟

فهذا هو الشرك الخفى الذى يحتاج إلى اليقظة الدائمة للتحرز منه ليخلص الإيمان .

وهناك الشرك الواضح الظاهر ، وهوالدينونة لغير الله فى شأن من شؤون الحياة . الدينونة فى شرع يتحاكم إليه ـ وهو نص فى الشرك لا يجادَل عليه ـ والدينونة فى تقليد من التقاليد كاتخاذ أعياد ومواسم يشرعها الناس ولم يشرعها الله . والدينونة فى زىّ من الأزياء يخالف ما أمر الله به من الستر ويكشف أو يحدد العورات التى نصت شريعة الله أن تستر . .

والأمر فى مثل هذه الشؤون يتجاوز منطقة الإثم والذنب بالمخالفة حين يكون طاعة وخضوعا ودينونة لعرف اجتماعى سائد من صنع العبيد ، وتركا للأمر الواضح الصادر من رب العبيد . . إنه عندئذ لايكون ذنبا ، ولكنه يكون شركا . لأنه يدل على الدينونة لغير الله فيما يخالف أمر الله . . وهو من هذه الناحية أمر خطير . .

ومن ثم يقول الله :

« وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » . .

فتنطبق على من كان يواجههم رسول الله فى الجزيرة ، وتشمل غيرهم على تتابع الزمان وتغير المكان .

وبعد فما الذى ينتظره أولئك المعرضون عن آيات الله المعروضة فى صفحات الوجود ، بعد إعراضهم عن آيات القرآن التى لا يسألون عليها أجرا ؟

ماذا ينتظرون ؟

« أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ، أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لايشعرون ؟ » . .

وهى لمسة قوية لمشاعرهم ، لإيقاظهم من غفلتهم ، وليحذروا عاقبة هذه الغفلة . فإن عذاب الله الذى لا يعلم موعده أحد ، قد يغشاهم اللحظة بغاشية تلفهم وتشملهم ، وربما تكون الساعة على الأبواب فيطرقهم اليوم الرهيب المخيف بغتة وهم لايشعرون . . إن الغيب موصد الأبواب ، لا تمتد إليه عين ولا أذن ، ولا يدرى أحد ماذا سيكون اللحظة ، فكيف يأمن الغافلون ؟

وإذا كانت آيات هذا القرآن الذى يحمل دليل الرسالة ، وكانت الآيات التى يحفل بها الكون معروضة للأنظار . . إذا كانت هذه وتلك يمرون عليها وهم عنها معرضون ، ويشركون بالله شركا ظاهرا أو خفيا وهم الأكثرون . فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماض فى طريقه ومن اهتدى بهديه ، لاينحرفون ولا يتأثرون بالمنحرفين :

« قل : هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله ! وما أنا من المشركين » .

« قل : هذه سبيلى » . .

واحدة مستقيمة ، لاعوج فيها ولا شك ولا شبهة .

« أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » . .

فنحن على هدى من الله ونور . نعرف طريقنا جيدا ، ونسير فيها على بصر وإدراك

Marfat.com

Marfat.com

ومعرفة ، لاتخبط ولا تحسس ، ولا تحدس . فهو اليقين البصير المستنير . نزه‌الله ـ سبحانه ـ عما لا يليق بألوهيته ، وننفصل وننعزل وتتميز عن الذين يشركون به :

« وما أنا من المشركين » . .

لا ظاهر الشرك ولا خافيه .

هذه طريقى فمن شاء فليتابع ، ومن لم يشأ فأنا سائر فى طريقى المستقيم .

وأصحاب الدعوة إلى الله لابد لهم من هذا التميز ، لابد لهم أن يعلنوا أنهم أمة وحدهم ، يفترقون عمن لايعتقد عقيدتهم ، ولا يسلك مسلكهم ، ولا يدين لقيادتهم ، ويتميزون ولا يختلطون ! ولا يكفى أن يدعو أصحاب هذا الدين إلى دينهم ، وهم متميعون فى المجتمع الجاهلى . فهذه الدعوة لاتؤدى شيئا ذا قيمة ! إنه لابد لهم منذ اليوم الأول أن يعلنوا أنهم شىء آخر غير الجاهلية ؛ وأن يتميزوا بتجمع خاص آصرته العقيدة المتميزة ، وعنوانه القيادة الإسلامية . . لابد أن يميزوا أنفسهم من المجتمع الجاهلى ؛ وأن يميزوا قيادتهم من قيادة المجتمع الجاهلى أيضا !

إن اندغامهم وتميعهم فى المجتمع الجاهلى ، وبقاءهم فى ظل القيادة الجاهلية ، يذهب بكل السلطان الذى تحمله عقيدتهم ، وبكل الأثر الذى يمكن أن تنشئه دعوتهم ، وبكل الجاذبية التى يمكن أن تكون للدعوة الجديدة .

وهذه الحقيقة لم يكن مجالها فقط هو الدعوة النبوية فى أوساط المشركين . . إن مجالها هو مجال هذه الدعوة كلما عادت الجاهلية فغلبت على حياة الناس . . وجاهلية القرن العشرين لاتختلف فى مقوماتها الأصيلة ، وفى ملامحها المميزة عن كل جاهلية أخرى واجهتها الدعوة الإسلامية على مدار التاريخ !

والذين يظنون أنهم يصلون إلى شىء عن طريق التميع فى المجتمع الجاهلى والأوضاع الجاهلية ، والتدسس الناعم من خلال تلك المجتمعات ومن خلال هذه الأوضاع بالدعوة إلى الإسلام . . هؤلاء لا يدركون طبيعة هذه العقيدة ولا كيف ينبغى أن تطرق القلوب ! . . إن أصحاب المذاهب الإلحادية أنفسهم يكشفون عن عنوانهم وواجهتهم ووجهتهم ! أفلا يعلن

Marfat.com

أصحاب الدعوة إلى الإسلام عن عنوانهم الخاص ؟ و طريقهم الخاص ؟ و سبيلهم التى تفترق تماما عن سبيل الجاهلية ؟

* * *

ثم لفتة إلى سنة الله فى رسالاته ، وإلى بعض آيات الله فى الأرض من مصائر السابقين . . إن محمدا ليس بدعا من الرسل ، ورسالته ليست بدعا من الرسالات . وهـذه عواقب الذين كذبوا من قبل ، آيات معروضة فى الأرض .

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى . أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون ؟ » .

إن النظر فى آثار الغابرين يهز القلوب . حتى قلوب المتجبرين .. ولحظات الاسترجاع الخيالى لحركاتهم وسكناتهم وخلجاتهم ؛ وتصورهم أحياء يروحون فى هذه الأمـكنة ويجيئون ، يخافون ويرجون ، يطمعون ويتطلعون . . ثم إذا هم ساكنون ، لاحس ولا حركة . آثارهم خاوية ، طواهم الفناء وانطوت معهم مشاعرهم وعوالمهم وأفـكارهم وحركاتهم وسكناتهم ، ودنياهم الماثلة للعيان والمستكنة فى الضمائر والمشاعر . . إن هذه التأملات لتهز القلب البشرى هزاً مهما يكن جاسيا غافلا قاسيا . ومن ثم يأخذ القرآن بيد القوم ليوقفهم على مصارع الغابرين بين الحين والحين :

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى » ..

لم يكونوا ملائكة ولا خلقا آخر . إنما كانوا بشرا مثلك من أهل الحاضرة ، لا من أهل البادية ، ليكونوا أرق حاشية وألين جانبا . . وأصبر على احتمال تكاليف الدعوة والهداية ، فرسالتك ماضية على سنة الله فى إرسال رجال من البشر نوحى إليهم . .

« أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ » . .

فيدركوا أن مصيرهم كمصيرهم ؛ وأن سنة الله الواضحة الآثار فى آثار الغابرين ستنالهم ؛ وأن عاقبتهم فى هذه الأرض إلى ذهاب :

« ولدار الآخرة خير للذين اتقوا » .

خير من هذه الدار التي ليس فيها قرار .

« أفلا تعقلون ؟ » ..

فتدبروا سنن الله فى الغابرين ؟ أفلا تعقلون فتؤثروا المتاع الباقى على المتاع القصير ؟

ثم يصور ساعات الحرج القاسية فى حياة الرسل ، قبيل اللحظة الحاسمة التى يتحقق فيها وعد الله ، وتمضى فيها سنته التى لا تتخلف ولا تحيد :

« حتى إذا استيأس الرسل . وظنوا أنهم قد كذبوا ، جاءهم نصرنا ، فنجى من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » .

إنها صورة رهيبة ، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق فى حياة الرسل ، وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود . وتمر الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا قليل ، وتكر الأعوام والباطل فى قوته ، وكثرة أهله ، والمؤمنون فى عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة .

إنها ساعات حرجة ، والباطل ينتفش ويطغى ويبطش ويغدر . والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم فى هذه الأرض . فتهجس فى خواطرهم الهواجس .. تراهم كُذِبوا ؟ ترى نفوسهم كذبتهم فى رجاء النصر فى هذه الحياة الدنيا ؟

وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يطيقه بشر . وما قرأت هذه الآية والآية الأخرى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ . . . » ما قرأت هذه الآية أو تلك إلا وشعرت بقشعريرة من تصور الهول الذى يبلغ بالرسول هذا المبلغ ، ومن تصور الهول الكامن فى هذه الهواجس ، والكرب المزلزل الذى يرج نفس الرسول هذه الرجة ، وحالته النفسية فى مثل هذه اللحظات ، وما يحس به من ألم لا يطاق .

فى هذه اللحظة التى يستحكم فيها الكرب . ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل ، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة .. فى هذه اللحظة يجىء النصر كاملا حاسما فاصلا :

« جاءهم نصرنا ، فنجى من نشاء ، ولا يُردُّ بأسنا عن القوم المجرمين » ..

Marfat.com

تلك سنة الله فى الدعوات . لابد من الشدائد ، ولابد من الكروب ، حتى لاتبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة . ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التى يتعلق بها الناس . يجيء النصر من عند الله ، فينجو الذين يستحقون النجاة ، ينجون من الهلاك الذى يأخذ المكذبين ، وينجون من البطش والعسف الذى يسلطه عليهم المتجبرون . ويحل بأس الله بالمجرمين ، مدمرا ماحقا لايقفون له ، ولا يصده عنهم ولى ولا نصير .

ذلك كى لايكون النصر رخيصا فتكون الدعوات هزلا . فلو كان النصر رخيصا لقام فى كل يوم دعىٌ بدعوة لاتكلفه شيئا . أو تكلفه القليل . ودعوات الحق لايجوز أن تكون عبثا ولا لعبا . فإنما هى قواعد للحياة البشرية ومناهج ، ينبغى صيانتها وحراستها من الأدعياء . والأدعياء لا يحتملون تكاليف الدعوة ، لذلك يشفقون أن يدّعوها ، فإذا ادّعوها عجزوا عن حملها وطرحوها ، وتبين الحق من الباطل على محك الشدائد التى لا يصمد لها إلا الواثقون الصادقون ؛ الذين لايتخلون عن دعوة الله ، ولو ظنوا أن النصر لا يجيئهم فى هذه الحياة !

إن الدعوة إلى الله ليست تجارة قصيرة الأجل ؛ إما أن تربح ربحا معينا محددا فى هذه الأرض ، وإما أن يتخلى عنها أصحابها إلى تجارة أخرى أقرب ربحا وأيسر حصيلة ! والذى ينهض بالدعوة إلى الله فى المجتمعات الجاهلية ـ والمجتمعات الجاهلية هى التى تدين لغير الله بالطاعة والاتباع فى أى زمان أو مكان ـ يجب أن يوطن نفسه على أنه لايقوم برحلة مريحة ، ولا يقوم بتجارة مادية قريبة الأجل ! إنما ينبغى له أن يستيقن أنه يواجه طواغيت يملكون القوة والمال ويملكون استخفاف الجماهير حتى ترى الأسود أبيض والأبيض أسود ! ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاتها على أصحاب الدعوة إلى الله ، باستثارة شهواتها وتهديدها بأن أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشهوات ! .. ويجب أن يستيقنوا أن الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف ، وأن الانضمام إليها فى وجه المقاومة الجاهلية كثير التكاليف أيضا . وأنه من ثم لاتنضم إليها ـ فى أول الأمر ـ الجماهير المستضعفة المستخفة ، إنما تنضم إليها الصفوة المختارة فى الجيل كله ، التى تؤثر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة ، وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا . وأن عدد هذه الصفوة يكون دائما قليلا جدا . ولكن الله يفتح بينهم وبين قومهم بالحق ، بعد جهاد يطول أو يقصر.. وعندئذ فقط تدخل الجماهير فى دين الله أفواجا .

Marfat.com

وفى قصة يوسف ألوان من الشدائد . فى الجب وفى بيت العزيز وفى السجن . وألوان من الاستيئاس من نصرة الناس . . ثم كانت العاقبة خيرا للذين اتقوا ـ كما هو وعد الله الصادق الذى لا يخيب ـ وقصة يوسف نموذج من قصص المرسلين . فيها عبرة لمن يعقل ، وفيها تصديق ماجاءت به الكتب المنزلة من قبل ، على غير صلة بين محمد وهذه الكتب . فما كان يمكن أن يكون ماجاء به حديثا مفترى . فالأكاذيب لا يصدق بعضها بعضا ولا تحقق هداية ، ولا يستروح فيها القلب المؤمن الروح والرحمة :

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » . .

* * *

وهكذا يتوافق المطلع والختام فى السورة ، كما توافق المطلع والختام فى القصة . وتجىء التعقيبات فى أول القصة وآخرها ، وبين ثناياها ، متناسقة مع موضوع القصة ، وطريقة أدائها، وعباراتها كذلك . فتحقق الهدف الدينى كاملا ، وتحقق السمات الفنية كاملة ، مع صدق الرواية، ومطابقة الواقع فى الموضوع .

وقد بدأت القصة وانتهت فى سورة واحدة ، لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء . فهى رؤيا تتحقق رويدا رويدا ، ويوما بعد يوم ، ومرحلة بعد مرحلة . فلا تتم العبرة بها ـ كما لا يتم التنسيق الفنى فيها ـ إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها . وإفراد حلقة واحدة منها فى موضع لا يحقق شيئا من هذا كله كما يحققه إفراد بعض الحلقات فى قصص الرسل الآخرين . كحلقة قصة سليمان مع بلقيس . أو حلقة قصة مولد مريم . أو حلقة قصة مولد عيسى . أو حلقة قصة نوح والطوفان . . . الخ فهذه الحلقات تفى بالغرض منها كاملا فى مواضعها . أما قصة يوسف فتقتضى أن تتلى كلها متوالية حلقاتها ومشاهدها ، من بدئها إلى نهايتها .

وصدق الله العظيم :

« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن . وإن كنت من قبله لمن الغافلين » . .

Marfat.com

سورة الرعد مكية

وآياتها ٤٣ أو ٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

كثيرا ماأقف أمام النصوص القرآنية وقفة المتهيب أن أمسها بأسلوبي البشري القاصر ؛ المتحرج أن أشوبها بتعبيري البشري الفاني !

وهذه السورة كلها - شأنها شان سورة الأنعام من قبلها - من بين هذه النصوص التي لا أكاد أجرؤ على مسها بتفسير أو إيضاح .

ولكن ماذا أصنع ونحن في جيل لابد أن يقدم له القرآن مع الكثير من الإيضاح لطبيعته ولمنهجه ولموضوعه كذلك ووجهته . بعد ما ابتعد الناس عن الجو الذي تنزل فيه القرآن . وعن الاهتمامات والأهداف التي تنزل لها ، وبعد ما انماعت وذبلت في حسهم وتصورهم مدلولاته وأبعادها الحقيقية ، وبعدما انحرفت في حسهم مصطلحاته عن معانيها . . وهم يعيشون في جاهلية كالتي تنزل القرآن ليواجهها ، بينما هم لايتحركون بهذا القرآن في مواجهة الجاهلية كما كان الذين تنزل عليهم القرآن أول مرة يتحركون . . وبدون هذه الحركة لم يعد الناس يدركون من أسرار هذا القرآن شيئا . فهذا القرآن لايدرك أسراره قاعد ، ولا يعلم مدلولاته إلا إنسان يؤمن به ويتحرك به في وجه الجاهلية لتحقيق مدلوله ووجهته .

ومع هذا كله يصيبني رهبة ورعشة كلما تصديت للترجمة عن هذا القرآن !

إن إيقاع هذا القرآن المباشر في حسي محال أن أترجمه في ألفاظي وتعبيراتي . ومن ثم أحس دائما بالفجوة الهائلة بين ماأستشعره منه وما أترجمه للناس في هذه « الظلال » !

Marfat.com

وإنى لأدرك الآن - بعمق - حقيقة الفارق بين جيلنا الذى نعيش فيه والجيل الذى تلقى مباشرة هذا القرآن . لقد كانوا يخاطبون بهـذا القرآن مباشرة ؛ ويتلقون إيقاعه فى حسهم ، وصوره وظلاله ، وإيحاءاته وإيماءاته ، وينفعلون بها انفعالا مباشرا ، ويستجيبون لها استجابة مباشرة . وهم يتحركون به فى وجه الجاهلية لتحقيق مدلولاته فى تصورهم . ومن ثم كانوا يحققون فى حيـاة البشر القصيرة تلك الخوارق التى حققوها ، بالانقلاب للطلق الذى تم فى قلوبهم ومشاعرهم وحياتهم ، ثم بالانقلاب الآخر الذى حققوه فى الحياة من حولهم ، وفى أقـدار العالم كله يومذاك ، وفى خط سير التاريخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد كانوا ينهلون مباشرة من معين هذا القرآن بلا وساطة . ويتأثرون بإيقاعه فى حسهم فماً لأذن . وينضجون بحرارته وإشعاعه وإيحائه ؛ ويتكيفون بعد ذلك وفق حقائقه وقيمه وتصوراته .

أما نحن اليوم فنتكيف وفق تصورات فلان وفلان عن الكون والحياة والقيم والأوضاع . وفلان وفلان من البشر القاصرين أبناء الفناء !

ثم ننظر نحن إلى ماحققوه فى حياتهم من خوارق فى ذات أنفسهم وفى الحياة من حولهم ، فنحاول تفسيرها وتعليلها بمنطقنا الذى يستمد معاييره من قيم وتصورات ومؤثرات غير قيمهم وتصوراتهم ومؤثراتهم . فنخطئ ولا شك فى تقـدير البواعث وتعليـل الدوافع وتفسير النتائج . لأنهم هم خلق آخر من صنع هذا القرآن . .

وإنى لأهيب بقراء هذه الظلال ، ألا تكون هى هدفهم من الكتاب . إنما يقرءونها ليدنوا من القرآن ذاته . ثم ليتناولوه عند ذلك فى حقيقته ، ويطرحوا عنهم هـذه الظلال . وهم لن يتناولوه فى حقيقته إلا إذا وقفوا حياتهم كلها على تحقيق مدلولاته وعلى خوض المعركة مع الجاهلية باسمه وتحت رايته

* * *

وبعد فهذا استطراد اندفعت إليه وأمامى هـذه السورة - سورة الرعد - وكأنما أقرؤها لأول مرة ، وقد قرأتها من قبل وسمعتها مالا أحصيه من المرات . ولـكن هذا القرآن يعطيك

Marfat.com

بمقدار ما تعطيه ؛ وينفتح عليك فى كل مرة بإشعاعات وإشراقات وإيحاءات وإيقاعات بقدر ما تفتح له نفسك ؛ ويبدو لك فى كل مرة جديدا كأنك تتلقاه اللحظة ، ولم تقرأه و تسمعه أو تعالجه من قبل !

وهذه السورة من أعاجيب السور القرآنية التى تأخذ فى نفس واحد ، وإيقاع واحد (١) ، وجو واحد ، وعطر واحد من بدئها إلى نهايتها ؛ والتى تفعم النفس ، وتزحم الحس بالصور والظلال والمشاهد والخوالج ، والتى تأخذ النفس من أقطارها جميعا ، فإذا هى فى مهرجان من الصور والمشاعر والإيقاعات والإشراقات ؛ والتى ترتاد بالقلب آفاقا وأكوانا وعوالم وأزمانا ، وهو مستيقظ ، مبصر ، مدرك ، شاعر بما يموج حوله من المشاهد والموحيات .

إنها ليست ألفاظا وعبارات ، إنما هى مطارق وإيقاعات : صورها . ظلالها . مشاهدها . موسيقاها . لمساتها الوجدانية التى تسكن وتتوزع هنا وهناك !

إن موضوعها الرئيسى كشكل موضوع السور المكية (٢) كلها على وجه التقريب ـ هو العقيدة وقضاياها . . هو توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، وتوحيد الدينونة لله وحده فى الدنيا والآخرة جميعا ؛ ومن ثم قضية الوحى وقضية البعث . . . وما إليها . . .

ولكن هذا الموضوع الواحد ذا القضايا الواحدة ، لم يتكرر عرضه قط بطريقة واحدة فى كل تلك السور المكية وفى غيرها من السور المدنية . فهو فى كل مرة يعرض بطريقة جديدة ؛ وفى ضوء جديد ؛ ويتناول عرضه مؤثرات وموحيات ذات إيقاع جديد وإيحاء جديد !

---

(١) الإيقاع الموسيقى فى القرآن يتألف من عناصر شتى : من مخارج الحروف فى الكلمة الواحدة ؛ ومن تناسق الإيقاعات بين كلمات الفقرة ؛ ومن اتجاهات المد فى الكلمات ، ثم من اتجاهات المد فى نهاية الفاصلة المطردة فى الآيات ومن حرف الفاصلة ذاته (وقد تكلمت عن هذا بتوسع فى كتاب التصوير الفنى) وجميع العناصر التى يتألف منها الإيقاع فى هذه السورة واحدة فيما عدا اتجاه المد وحرف الفاصلة فى القسم الأول منها حتى آية ٥ فمد الفاصلة وحرفها : « يؤمنون . توقنون . يتفكرون . يعقلون . خالدون » وبقية السورة : « العقاب . هاد . بمقدار . المتعال . بالنهار . . . الخ » .

(٢) السورة مكية بخلاف ماورد فى المصحف الأميرى وبعض المصاحف ـ اعتمادا على بعض الروايات ـ أنها مدنية . . ومكية السورة شديدة الوضوح : سواء فى طبيعة موضوعها ، أو طريقة أدائها ، أو فى جوها العام ، الذى لايخطئ تنسمه من يعيش فترة فى ظلال هذا القرآن !

Marfat.com

إن هـذه القضايا لا تعرض عرضا جدليا باردا يقال فى كلمات وينتهى كأية قضية ذهنية باردة. إنما تعرض وحولها إطار، هو هذا الـكون كله بكل مافيه من عجائب هى براهين هذه القضايا وآياتها فى الإدراك البشرى البصير المفتوح. وهذه العجائب لا تنفد؛ ولا تبلى جدتها. لأنها تنـكشف كل يوم عن جديد يصل إليه الإدراك، وما كشف منها من قبل يبدو جديدا فى ضوء الجديد الذى يكشف! ومن ثم تبقى تلك القضايا حية فى مهرجان العجائب الـكونية التى لاتنفد ولا تبلى جدتها!

وهذه السورة تطوف بالقلب البشرى فى مجالات وآفاق وآماد وأعماق؛ وتعرض عليه الـكون كله فى شتى مجالاته الأخاذة: فى السماوات المرفوعة بغير عمد. وفى الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى. وفى الليل يغشاه النهار. وفى الأرض الممدودة وما فيها من رواس ثابتة وأنهار جارية، وجنات وزرع ونخيل مختلف الأشـكال والطعوم والألوان، ينبت فى قطع من الأرض متجاورات ويسقى بماء واحد. وفى البرق يخيف ويطمع، والرعد يسبح ويحمد، والملائـكة تخاف وتخشع، والصواعق يصيب بها من يشاء، والسحاب الثقال والمطر فى الوديان، والزبد الذى يذهب جفاء، ليبقى فى الأرض ماينفع الناس.

وهى تلاحق ذلك القلب أينما توجه: تلاحقه بعـلم الله النافذ الـكاشف الشامل، يلم بالشارد والوارد، والمستخفى والسارب. يتعقب كل حى ويحصى عليه الخواطر والخوالج: والغيب المـكنون الذى لاتدركه الظنون، مكشوفا لعلم الله، وما تحمل كل أنثى، وما تغيض الأرحام وما تزداد.

إنها تقرب لمدارك البشر شيئا من حقيقة القوة الـكبرى المحيطة بالـكون ظاهره وخافيه، جليله ودقيقه، حاضره وغيبه. وهذا القدر الذى يمكن لمدارك البشر تصوره هائل مخيف، ترجف له القلوب.

وذلك إلى الأمثال المصورة تتمثل فى مشاهد حية حافلة بالحركة والانفعال. إلى مشاهد القيامة، وصور النعيم والعذاب، وخلجات الأنفس فى هـذا وذاك. إلى وقفات على مصارع الغابرين، وتأملات فى سير الراحلين، وفى سنة الله التى مضت عليهم فإذا هم داثرون..

* * *

Marfat.com

هـذا عن موضوعات السورة وقضاياها ، وعن آفاقها الكونية وآمادها . . ووراءها خصائص الأداء الفنية العجيبة . فالإطار العام الذى تعرض فيه قضاياها هو الكون كما أسلفنا ومشاهده وعجائبه فى النفس وفى الآفاق . وهذا الإطار ذو جو خاص :

إنه جو المشاهد الطبيعية المتقابلة : من سماء وأرض . وشمس وقمر . وليل ونهار . وشخوص وظلال . وجبال راسية وأنهار جارية . وزبد ذاهب وماء باق . وقطع من الأرض متجاورات مختلفات . ونخيل صنوان وغير صنوان . . ومن ثم تطرد هذه التقابلات فى كل المعانى وكل الحركات وكل المصائر فى السورة ، فيتناسق التقابل المعنوى فى السورة مع التقابلات الحسية ، وتتسق فى الجو العام . . ومن ثم يتقابل الاستعلاء فى الاستواء على العرش مع تسخير الشمس والقمر . ويتقابل ماتغيض الأرحام مع ما تزداد . ويتقابل من أسر القول مع من جهر به . ومن هو مستخف بالليل مع من هو سارب بالنهار . ويتقابل الخوف مع الطمع تجاه البرق . ويتقابل تسبيح الرعد حمداً مع تسبيح الملائكة خوفاً . وتتقابل دعوة الحق لله مع دعوة الباطل للشركاء . ويتقابل من يعلم مع من هو أعمى . ويتقابل الذين يفرحون من أهل الكتاب بالقرآن مع من ينكر بعضه . ويتقابل المحو مع الإثبات فى الكتاب . . وبالإجمال تتقابل المعانى ، وتتقابل الحركات ، وتتقابل الاتجاهات . . تنسيقاً للجو العام فى الأداء !

وظاهرة أخرى من ظواهر التناسق فى جو الأداء . . فلأنه جو الطبيعة من سماء وأرض ، وشمس وقمر ، ورعد وبرق ، وصواعق وأمطار . . وحياة وإنبات . . يجىء الحديث عما تكنه الأرحام من حيوان ؛ ويجىء منها : « وما تغيض الأرحام وما تزداد » . . ويتناسق غيض الأرحام وازديادها مع سيل الماء فى الأودية ومع الإنبات . . وذلك من بدائع التناسق فى هذا القرآن (١) .

ذلك طرف من الأسباب التى من أجلها أقف أمام هذه السورة ـ كما وقفت من قبل كثيرا أمام غيرها ـ متهيبا أن أمسها بأسلوبى البشرى القاصر ، متحرجا أن أشوبها بتعبيرى البشرى الفانى . . .

ولكنها ضرورة الجيل . . الجيل الذى لا يعيش فى جو هذا القرآن . . نستعين عليها بالله . والله المستعان .

---

(١) يراجع فصل : « التناسق الفنى » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » . .

Marfat.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« الٓمٓر ، تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ، وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ①

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ، يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ، وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ، يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ . إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ، وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ ، وَزَرْعٌ ، وَنَخِيلٌ ، صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ، يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ . إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

« وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ : أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ! أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ، وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ، وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ .

« وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ، وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ؛ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ : لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ! إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ .

« ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ، وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَىْءٍ

Marfat.com

Marfat.com

عِندَهُ بِمِقْدَارٍ * عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ * سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ * لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ ـ يَحْفَظُونَهُۥ ـ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ . إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ؛ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ، وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ .

« هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ ـ خَوْفًا وَطَمَعًا ـ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ، وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ؛ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ؛ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ * لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ، وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ ، وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ، وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، طَوْعًا وَكَرْهًا ، وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ .

« قُلْ : مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ؟ قُلِ : ٱللَّهُ . قُلْ : أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ؟ قُلْ : هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ؟ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ؛ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ؟ ! قُلِ : ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ * أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ، فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ، فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ؛ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ . كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ . فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ . كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ .

« لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ؛ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى

Marfat.com

ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

تبدأ السورة بقضية عامة من قضايا العقيدة : قضية الوحى بهذا الكتاب ، والحق الذى اشتمل عليه . وتلك هى قاعدة بقية القضايا من توحيد لله ، ومن إيمان بالبعث ، ومن عمل صالح فى الحياة . فكلها متفرعة عن الإيمان بأن الآمر بهذا هو الله ، وأن هذا القرآن وحى من عنده سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم .

« ألمر . تلك آيات الكتاب . والذى أنزل إليك من ربك الحق . ولكن أكثر الناس لايؤمنون » . .

ألف . لام . ميم . را . . « تلك آيات الكتاب » . . آيات هذا القرآن . أو تلك آيات على الكتاب تدل على الوحى به من عند الله . إذ كانت صياغته من مادة هذه الأحرف دلالة على أنه من وحى الله ، لا من عمل مخلوق كائنا من كان .

« والذى أنزل إليك من ربك الحق » . .

الحق وحده . الحق الخالص الذى لا يتلبس بالباطل . والذى لا يحتمل الشك والتردد . وتلك الأحرف آيات على أنه الحق . فهى آيات على أنه من عند الله . ولن يكون ماعند الله إلا حقا لاريب فيه .

« ولكن أكثر الناس لايؤمنون » . .

لا يؤمنون بأنه موحى به ، ولا بالقضايا المترتبة على الإيمان بهذا الوحى من توحيد لله ودينونة له وحده ومن بعث وعمل صالح فى الحياة .

* * *

هذا هو الافتتاح الذى يلخص موضوع السورة كله ، ويشير إلى جملة قضاياها . ومن ثم يبدأ فى استعراض آيات القدرة ، وعجائب الكون الدالة على قدرة الخالق وحكمته وتدبيره ،

الناطقة بأن من مقتضيات هذه الحكمة أن يكون هناك وحى لتبصير الناس ؛ وأن يكون هناك بعث لحساب الناس . وأن من مقتضيات تلك القدرة أن تكون مستطيعة بعث الناس ورجعهم إلى الخالق الذى بدأهم وبدأ الكون كله قبلهم . وسخره لهم ليبلوهم فيما آتاهم .

وتبدأ الريشة المعجزة فى رسم المشاهد الكونية الضخمة . لمسة فى السماوات ، ولمسة فى الأرضين . ولمسات فى مشاهد الأرض وكوامن الحياة . .

ثم التعجيب من قوم ينكرون البعث بعد هذه الآيات الضخام ؛ ويستعجلون عذاب الله ، ويطلبون آية غير هذه الآيات :

« الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون .

« وهو الذى مد الأرض ، وجعل فيها رواسىَ وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يُغشى الليل النهار . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون .

« وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .

« وإن تعجب فعجب قولهم : أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربهم . وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات ، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب . ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ، إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » .

والسماوات ــ أيا كان مدلولها وأيا كان ما يدركه الناس من لفظها فى شتى العصور ــ معروضة على الأنظار ، هائلة ــ ولا شك ــ حين يخلو الناس إلى تأملها لحظة . وهى هكذا لاتستند إلى شىء . مرفوعة « بغير عمد » مكشوفة « ترونها » . .

هذه هى اللمسة الأولى فى مجالى الكون الهائلة وهى بذاتها اللمسة الأولى للوجدان الإنسانى ، وهو يقف أمام هذا المشهد الهائل يتملاه ، ويدرك أنه ما من أحد يقدر على رفعها

Marfat.com

بلا عمد – أو حتى بعمد – إلا الله ؛ وقصارى مايرفعه الناس بعمد أو بغير عمد تلك البنيان الصغيرة الهزيلة القابعة فى ركن ضيق من الأرض لاتتعداه . ثم يتحدث الناس عما فى تلك البنيان من عظمة ومن قدرة ومن إتقان ، غافلين عما يشملهم ويعلوهم من سماوات مرفوعة بغير عمد ؛ وعما وراءها من القدرة الحقة والعظمة الحقة ، والإتقان الذى لايتطاول إليه خيال إنسان !

ومن هذا المنظور الهائل الذى يراه الناس ، إلى المغيب الهائل الذى تتقاصر دونه المدارك والأبصار : « ثم استوى على العرش » . .

فإن كان علو فهذا أعلى . وإن كانت عظمة فهذا أعظم . وهو الاستعلاء المطلق ، يرسمه فى صورة على طريقة القرآن فى تقريب الأمور المطلقة لمدارك البشر المحدودة .

وهى لمسة أخرى هائلة من لمسات الريشة المعجزة . لمسة فى العلو المطلق إلى جانب اللمسة الأولى فى العلو المنظور ، تتجاوران وتتسقان فى السياق . .

ومن الاستعلاء المطلق إلى التسخير . تسخير الشمس والقمر . تسخير العلو المنظور للناس على مافيه من عظمة أخاذة ، أخذت بألبابهم فى اللمسة الأولى ، ثم إذا هى مسخرة بعد ذلك لله الكبير المتعال .

ونقف لحظة أمام التقابلات المتداخلة فى المشهد قبل أن نمضى معه إلى غايته . فإذا نحن أمام ارتفاع فى الفضاء المنظور يقابله ارتفاع فى الغيب المجهول . وإذا نحن أمام استعلاء يقابله التسخير . وإذا نحن أمام الشمس والقمر يتقابلان فى الجنس : نجم وكوكب ، ويتقابلان فى الأوان ، بالليل والنهار . .

ثم نمضى مع السياق . . فمع الاستعلاء والتسخير الحكمة والتدبير :

« كل يجرى لأجل مسمى » . .

وإلى حدود مرسومة ، ووفق ناموس مقدر . سواء فى جريانهما فى فلكيهما دورة سنوية ودورة يومية . أو جريانهما فى مداريهما لايتعديانه ولا ينحرفان عنه . أو جريانهما إلى الأمد المقدر لهما قبل أن يحول هذا الكون المنظور .

Marfat.com

« يدبر الأمر » ..

الأمر كله ، على هذا النحو من التدبير الذى يسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى .. والذى يمسك بالأفلاك الهائلة والأجرام السابحة فى الفضاء فيجريها لأجل لا تتعداه ، لا شك عظيم التدبير جليل التقدير .

ومن تدبيره الأمر أنه « يفصل الآيات » وينظمها وينسقها ، ويعرض كلا منها فى حينه ، ولعلته ، ولغايته « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » حين ترون الآيات مفصلة منسقة ، ومن ورائها آيات الكون ، تلك التى أبدعتها يد الخالق أول مرة ، وصورت لكم آيات القرآن ماوراء إبداعها من تدبير وتقدير وإحكام .. ذلك كله يوحى بأن لا بد من عودة إلى الخالق بعد الحياة الدنيا ، لتقدير أعمال البشر ، ومجازاتهم عليها فذلك من كمال التقدير الذى توحى به حكمة الخلق الأول عن حكمة وتدبير .

وبعد ذلك يهبط الخط التصويرى الهائل من السماء إلى الأرض فيرسم لوحتها العريضة الأولى :

« وهو الذى مد الأرض ، وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . يغشى الليل النهار . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ..

والخطوط العريضة فى لوحة الأرض هى مد الأرض وبسطها أمام النظر وانفساحها على مداه . لا يهم مايكون شكلها الكلى فى حقيقته . إنما هى مع هذا ممدودة مبسوطة فسيحة . هذه هى اللمسة الأولى فى اللوحة . ثم يرسم خط الرواسى الثوابت من الجبال ، وخط الأنهار الجارية فى الأرض . فتتم الخطوط العريضة الأولى فى المشهد الأرضى ، متناسقة متقابلة .

ومما يناسب هذه الخطوط الكلية ما تحتويه الأرض من الكليات ، وما يلابس الحياة فيها من كليات كذلك . وتتمثل الأولى فيما تنبت الأرض : « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » . وتتمثل الثانية فى ظاهرتى الليل والنهار : « يغشى الليل النهار » .

والمشهد الأول يتضمن حقيقة لم تعرف للبشر من طريق علمهم وبحثهم إلا قريبا . هى أن كل الأحياء وأولها النبات تتألف من ذكر وأنثى ، حتى النباتات التى كان مظنونا أن ليس لها

Marfat.com

من جنسها ذكور ، تبين أنها تحمل فى ذاتها الزوج الآخر ، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة فى زهرة ، أو متفرقة فى العود . وهى حقيقة تتضامن مع المشهد فى إثارة الفكر إلى تدبر أسرار الخلق بعد تملى ظواهره .

والمشهد الثانى مشهد الليل والنهار متعاقبين ، هذا يغشى ذاك ، فى انتظام عجيب . هو ذاته مثار تأمل فى مشاهد الطبيعة ، فقدوم ليل وإدبار نهار أو إشراق فجر وانقشاع ليل ، حادث تهوّن الألفة من وقعه فى الحس ، ولكنه فى ذاته عجب من العجب ، لمن ينفض عنه موات الألفة وخمودها ، ويتلقاه بحس الشاعر المتجدد ، الذى لم يجمده التكرار . . والنظام الدقيق الذى لاتتخلف معه دورة الفلك هو بذاته كذلك مثار تأمل فى ناموس هذا الكون ، وتفكير فى القدرة المبدعة التى تدبره وترعاه : « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . .

ونقف كذلك هنا وقفة قصيرة أمام التقابلات الفنية فى المشهد قبل أن نجاوزه إلى ماوراءه . . التقابلات بين الرواسى الثابتة والأنهار الجارية . وبين الزوج والزوج فى كل الثمرات . وبين الليل والنهار . ثم بين مشهد الأرض كله ومشهد السماء السابق . وهما متكاملان فى المشهد الكونى الكبير الذى يضمهما ويتألف منهما جميعا .

ثم تمضى الريشة المبدعة فى تخطيط وجه الأرض بخطوط جزئية أدق من الخطوط العريضة الأولى :

« وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . .

وهذه المشاهد الأرضية ، فينا الكثيرون يمرون عليها فلا تثير فيهم حتى رغبة التطلع إليها ! إلا أن ترجع النفس إلى حيوية الفطرة والاتصال بالكون الذى هى قطعة منه ، انفصلت عنه لتتأمله ثم تندمج فيه . .

« وفى الأرض قطع متجاورات » . .

متعددة الشيات ، وإلا ماتبين أنها « قطع » فلو كانت متماثلة لكانت قطعة . . منها الطيب

Marfat.com

الخصب ، ومنها السبخ النكد . ومنها المقفر الجدب ، ومنها الصخر الصلد . وكل واحد من هذه وتلك أنواع وألوان ودرجات . ومنها العامر والغامر . ومنها المزروع الحى والمهمل الميت . ومنها الريان والعطشان . ومنها ومنها ومنها . . وهى كلها فى الأرض متجاورات .

هذه اللمسة العريضة الأولى فى التخطيط التفصيلى . ثم تتبعها تفصيلات : « وجنات من أعناب » . « وزرع » . « ونخيل » تمثل ثلاثة أنواع من النبات ، الكرم المتسلق . والنخل السامق . والزرع من بقول وأزهار وما أشبه . مما يحقق تلوين المنظر ، وملء فراغ اللوحة الطبيعية ، والتمثيل لمختلف أشكال النبات .

ذلك النخيل . صنوان وغير صنوان . منه ماهو عود واحد . ومنه ماهو عودان أو أكثر فى أصل واحد . . وكله « يسقى بماء واحد » والتربة واحدة ، ولكن الثمار مختلفات الطعوم :

« ونفضل بعضها على بعض فى الأكل » .

فمن غير الخالق المدبر المريد يفعل هذا وذاك ؟!

من منا لم يذق الطعوم مختلفات فى نبت البقعة الواحدة . فكم منا التفت هذه الالتفاتة التى وجه القرآن إليها العقول والقلوب ؟ إنه بمثل هذا يبقى القرآن جديدا أبدا ، لأنه يجدد أحاسيس البشر بالمناظر والمشاهد فى الكون والنفس ؛ وهى لاتنفد ولا يستقصيها إنسان فى عمره المحدود ، ولا تستقصيها البشرية فى أجلها الموعود . « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . .

ومرة ثالثة نقف أمام التقابلات الفنية فى اللوحة بين القطع المتجاورات المختلفات . والنخل صنوان وغير صنوان والطعوم مختلفات . والزرع والنخيل والأعناب . . .

تلك الجولة الهائلة فى آفاق الكون الفسيحة ، يعود منها السياق ليعجب من قوم ، هذه الآيات كلها فى الآفاق لاتوقظ قلوبهم ، ولا تنبه عقولهم ، ولا يلوح لهم من ورائها تدبير المدبر ، وقدرة الخالق ، كأن عقولهم مغلولة ، وكأن قلوبهم مقيدة ، فلا تنطلق للتأمل فى تلك الآيات :

Marfat.com

Marfat.com

« وإن تعجب فعجب قولهم : أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ..

وإنه لعجيب يستحق التعجيب ، أن يسأل قوم بعد هذا العرض الهائل :

« أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ؟ » ..

والذى خلق هذا الكون الضخم ودبره على هذا النحو ، قادر على إعادة الأناسى فى بعث جديد . إنما هو الكفر بربهم الذى خلقهم ودبر أمرهم . وإنما هى أغلال العقل والقلب. فالجزاء هو الأغلال فى الأعناق ، تنسيقا بين غل العقل وغل العنق ؛ والجزاء هو النار خالدين فيها . فقد عطلوا كل مقومات الإنسان التى من أجلها يكرمه الله ، وانتكسوا فى الدنيا فهم فى الآخرة يلاقون عاقبة الانتكاس حياة أدنى من حياتهم الدنيا ، التى عاشوها معطلى الفكر والشعور والإحساس .

هؤلاء القوم الذين يعجبون من أن يبعثهم الله خلقا جديدا . وعجبهم هذا هو العجب ا هؤلاء يستعجلونك أن تأتيهم بعذاب الله ، بدلا من أن يطلبوا هدايته، ويرجوا رحمته :

« ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة » . .

وكما أنهم لاينظرون فى آفاق الكون ، وآيات الله المبثوثة فى السماء والأرض ، فهم لاينظرون إلى مصارع الغابرين الذين استعجلوا عذاب الله فأصابهم ؛ وتركهم مثلة يعتبر بها من بعدهم :

« وقد خلت من قبلهم المثلات » . .

فهم فى غفلة حتى عن مصائر أسلافهم من بنى البشر ، وقد كان فيها مثل لمن يعتبر .

« وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » . .

فهو بعباده رحيم حتى وإن ظلموا فترة ، يفتح لهم باب المغفرة ليدخلوه عن طريق التوبة . ولكن يأخذ بعقابه الشديد من يصرون ويلجون ، ولا يلجون من الباب المفتوح .

« وإن ربك لشديد العقاب » . .

والسياق يقدم هنا مغفرة الله على عقابه ، فى مقابل تعجل هؤلاء الغافلين للعذاب قبل

الهداية . ليبدو الفارق الضخم الهائل بين الخير الذى يريده الله لهم ، والشر الذى يريدونه لأنفسهم . ومن ورائه يظهر انطماس البصيرة ، وعمى القلب ، والانتكاس الذى يستحق درك النـار .

ثم يمضى السيـاق فى التعجيب من أمر القوم ، الذين لا يدركون كل تلك الآيات الكونية ، فيطلبون آية واحـدة ينزلها الله على رسوله . آية واحدة والكون حولهم كله آيات :

« ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليـه آية من ربه ! إنما أنت منذر ، ولـكل قوم هاد » . .

إنهم يطلبون خارقة . والخوارق ليست من عمل الرسول ولا اختصاصه . إنمـا يبعث بها الله معه ، حين يرى بحكمته أنها لازمة . « إنما أنت منذر » محذر ومبصر . شأنك شأن كل رسول قبلك ، فقد بعث الله الرسل للأقوام للهداية « ولـكل قوم هاد » فأما الآيات الخارقة فأمرها إلى مدبر الكون والعباد .

* * *

وبذلك تنتهى الجولة الأولى فى الآفاق ، والتعقيبات عليها . ليبدأ السياق جولة جديدة فى واد آخر : فى الأنفس والمشاعر والأحياء :

« الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شىء عنـده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منـكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه ـ يحفظونه ـ من أمر الله . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » . .

ويقف الحس مشدوها يرتعش تحت وقع هذه اللمسات العميقة فى التصوير ، وتحت إيقاع هذه الوسيقى العجيبة فى التعبير . يقف مشدوها وهو يقفو مسارب علم الله ومواقعه ؛ وهو يتتبع الحمل المكنون فى الأرحام ، والسر المكنون فى الصدور ، والحركة الخفية فى جنح

Marfat.com

الليل ؛ وكل مستخف وكل سارب وكل هامس وكل جاهر . وكل أولئك مكشوف تحت المجهر الكاشف ، يتتبعه شعاع من علم الله ، وتتعقبه حفظة تحصى خواطره ونواياه . . ألا إنها الرهبة الخاشعة التى لا تملك النفس معها إلا أن تلجأ إلى الله ، تطمئن فى حماه . . وإن المؤمن بالله ليعلم أن علم الله يشمل كل شىء . ولكن وقع هذه القضية الكلية فى الحس ، لا يقاس إلى وقع مفرداتها كما يعرض السياق بعضها فى هذا التصوير العجيب .

وأين أية قضية تجريدية ، وأية حقيقة كلية فى هذا المجال من قوله :

« الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شىء عنده بمقداره » ؟

حين يذهب الخيال يتتبع كل أنثى فى هذا الكون .. المترامى الأطراف .. كل أنثى .. كل أنثى فى الوبر والمدر ، فى البدو والحضر ، فى البيوت والكهوف والمسارب والغابات . ويتصور علم الله مطلا على كل حمل فى أرحام هذه الإناث ، وعلى كل قطرة من دم تغيض أو تزداد فى تلك الأرحام !

وأين أية قضية تجريدية وأية حقيقة كلية فى هذا المجال من قوله :

« سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » ؟

حين يذهب الخيال يتتبع كل هامس وكل جاهر ، وكل مستخف وكل سارب فى هذا الكون الهائل . ويتصور علم الله يتعقب كل فرد من بين يديه ومن خلفه ، ويقيد عليه كل شاردة وكل واردة آناء الليل وأطراف النهار !

إن اللمسات الأولى فى آفاق الكون الهائل ليست بأضخم ولا أعمق من هذه اللمسات الأخيرة فى أغوار النفس والغيب ومجاهيل السرائر . وإن هذه لكفء لتلك فى مجال التقابل والتناظر . .

ونستعرض شيئا من بدائع التعبير والتصوير فى تلك الآيات :

« الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شىء عنده بمقدار » . .
فلما أن صور العلم بالغيض والزيادة فى مكنونات الأرحام ، عقب بأن كل شىء عنده بمقدار .

Marfat.com

والتناسق واضح بين كلمة مقدار وبين النقص والزيادة . والقضية كلها ذات علاقة بإعادة الخلق فيما سبق من ناحية للوضوع . كما أنها من ناحية الشكل والصورة ذات علاقة بما سيأتى بعدها من الماء الذى تسيل به الأودية « بقدرها » فى السيولة والتقدير . . كما أن فى الغيض والزيادة تلك للقابلة للعهودة فى جو السورة على الإطلاق . .

« عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » . .

ولفظة « الكبير » ولفظة « المتعال » كلتاهما تلقى ظلها فى الحس . ولكن يصعب تصوير ذلك الظل بألفاظ أخرى . إنه مامن خلق حادث إلا وفيه نقص يصغره . وما يقال عن خلق من خلق الله كبير ، أو أمر من الأمور كبير ، أو عمل من الأعمال كبير ، حتى يتضاءل بمجرد أن يذكر الله . . وكذلك « المتعال » . . ترانى قلت شيئا ؟ لا . ولا أى مفسر آخر للقرآن وقف أمام « الكبير المتعال » !

« سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » . .

والتقابل واضح فى العبارة . إنما تستوقفنا كلمة « سارب » وهى تكاد بظلها تعطى عكس معناها ، فظلها ظل خفاء أو قريب من الخفاء . والسارب : الذاهب . فالحركة فيها هى المقصودة فى مقابل الاستخفاء . هذه النعومة فى جرس اللفظ وظله مقصودة هنا كى لا تخدش الجو . جو العلم الخفى اللطيف الذاهب وراء الحمل المكنون والسر الخافى والمستخفى بالليل والمعقبات التى لا تراها الأنظار . فاختار اللفظ الذى يؤدى معنى التقابل مع المستخفى ولكن فى لين ولطف وشبه خفاء !

« له معقبات من بين يديه ومن خلفه ــ يحفظونه ــ من أمر الله » . .

والحفظة التى تتعقب كل إنسان ، وتحفظ كل شاردة وكل واردة وكل خاطرة وكل خالجة ، والتى هى من أمر الله ، لايتعرض لها السياق هنا بوصف ولا تعريف . أكثر من أنها . . « من أمر الله » . . فلا نتعرض نحن لها : ما هى ؟ وما صفاتها ؟ وكيف تتعقب ؟ وأين تكون ؟ ولا نذهب بجو الخفاء والرهبة والتعقب الذى يسبغه السياق . فذلك هو المقصود هنا ؛ وقد جاء التعبير بقدره ؛ ولم يجىء هكذا جزافا ؛ وكل من له ذوق بأجواء التعبير يشفق من أن يشوه هذا الجو الغامض بالكشف والتفصيل !

Marfat.com

« إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم » . .

فهو يتعقبهم بالحفظة من أمره لمراقبة مايحدثونه من تغيير بأنفسهم وأحوالهم فيرتب عليه الله تصرفه بهم . فإنه لا يغير نعمة أو بؤسى ، ولا يغير عزا أو ذلة ، ولا يغير مكانة أو مهانة . . . إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم ، فيغير الله مابهم وفق ماصارت إليه نفوسهم وأعمالهم . وإن كان الله يعلم ماسيكون منهم قبل أن يكون . ولكن مايقع عليهم يترتب على ما يكون منهم ، ويجيء لاحقا له فى الزمان بالقياس إليهم .

وإنها لحقيقة تلقى على البشر تبعة ثقيلة ؛ فقد قضت مشيئة الله وجرت بها سنته ، أن تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر ؛ وأن تنفذ فيهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم . والنص صريح فى هذا لايحتمل التأويل . وهو يحمل كذلك — إلى جانب التبعة — دليل التكريم لهذا المخلوق الذى اقتضت مشيئة الله ، أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله فيه .

وبعد تقرير المبدأ يبرز السياق حالة تغيير الله مابقوم إلى السوء ؛ لأنهم — حسب المفهوم من الآية — غيروا ما بأنفسهم إلى أسوء فأراد لهم الله السوء :

« وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » . .

يبرز السياق هذا الجانب هنا دون الجانب الآخر لأنه فى معرض الذين يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة . وقد قدم لهم هناك المغفرة على العذاب ليبرز غفلتهم ، وهو هنا يبرز العاقبة السوأى وحدها لإنذارهم حيث لايرد عذاب الله عنهم — إذا استحقوه بما فى أنفسهم — ولا يعصمهم منه وال يناصرهم . .

***

ثم يأخذ السياق فى جولة جديدة فى واد آخر ، موصول بذلك الوادى الذى كنا فيه . واد يجمع فيه مناظر الطبيعة ومشاعر النفس ، متداخلة متناسقة فى الصورة والظل والإيقاع . وتخيم عليه الرهبة والضراعة والجهد والإشفاق . وتظل النفس فيه فى ترقب وحذر ، وفى تأثر وانفعال :

Marfat.com

Marfat.com

« هو الذى يريكم البرق . خوفا وطمعا . وينشىء السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته . ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال . له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال . ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعا وكرها ، وظلالهم ، بالغدو والآصال . قل : من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله . قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟ قل : هل يستوى الأعمى والبصير . أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل : الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار » . .

والبرق والرعد والسحاب مشاهد معروفة ، وكذلك الصواعق التى تصاحبها فى بعض الأحيان . وهى بذاتها مشاهد ذات أثر فى النفس ـ سواء عند الذين يعرفون الكثير عن طبيعتها والذين لا يعرفون عن الله شيئا ! والسياق يحشدها هنا ؛ ويضيف إليها الملائكة والظلال والتسبيح والسجود والخوف والطمع ، والدعاء الحق والدعاء الذى لا يستجاب . ويضم إليها هيئة أخرى : هيئة ملهوف يتطلب الماء ، باسطا كفيه ليبلغه ، فاتحا فاه يتلقف منه قطرة . .

هذه كلها لا تتجمع فى النص اتفاقا أو جزافا . إنما تتجمع لتلقى كلها ظلالها على المشهد ، وتلفه فى جو من الرهبة والترقب ، والخوف والطمع ، والضراعة والارتجاف ، فى سياق تصوير سلطان الله المتفرد بالقهر والنفع والضر ، نفيا للشركاء للدعاة ، وإرهابا من عقبى الشرك بالله .

« هو الذى يريكم البرق . خوفا وطمعا . » . .

هو الله الذى يريكم هذه الظاهرة الكونية ، فهى ناشئة من طبيعة الكون التى خلقها هو على هذا النحو الخاص ، وجعل لها خصائصها وظواهرها . ومنها البرق الذى يريكم إياه وفق ناموسه ، فتخافونه لأنه بذاته يهز الأعصاب ، ولأنه قد يتحول إلى صاعقة ، ولأنه قد يكون نذيرا بسيل مدمر كما علمتكم تجاربكم . وتطمعون فى الخير من ورائه ، فقد يعقبه المطر المدرار المحيى للموات ، المجرى للأنهار .

Marfat.com

« وينشئ السحاب الثقال » . .

وهو كذلك الذى ينشئ السحاب - والسحاب اسم جنس واحدته سحابة - الثقال بالماء . فوفق ناموسه فى خلقة هذا الكون وتركيبه تتكون السحب ، وتهطل الأمطار . ولو لم يجعل خالقة الكون على هذا النحو ماتكونت سحب ولا هطلت أمطار . ومعرفة كيف تتكون السحب ، وكيفية هطول الأمطار لاتفقد هذه الظاهرة الكونية شيئا من روعتها ، ولا شيئا من دلالتها . فهى تتكون وفق تركيب كونى خاص لم يصنعه أحد إلا الله . ووفق ناموس معين يحكم هذا التركيب لم يشترك فى سنه أحد من عبيد الله ! كما أن هذا الكون لم يخلق نفسه ، ولا هو الذى ركب فى ذاته ناموسه !

والرعد . . الظاهرة الثالثة لجو المطر والبرق والرعد . . هذا الصوت القرقع المدوى . إنه أثر من آثار الناموس الكونى ، الذى صنعه الله - أيا كانت طبيعته وأسبابه - فهو رجع صنع الله فى هذا الكون ، فهو حمد وتسبيح بالقدرة التى صاغت هذا النظام . كما أن كل مصنوع جميل متقن يسبح ويعلن عن حمد الصانع والثناء عليه بما يحمله من آثار صنعته من جمال وإتقان . . وقد يكون المدلول المباشر للفظ يسبح هو المقصود فعلا ، ويكون الرعد « يسبح » فعلا بحمد الله . فهذا الغيب الذى زواه الله عن البشر لابد أن يتلقاه البشر بالتصديق والتسليم وهم لايعلمون من أمر هذا الكون ولا من أمر أنفسهم إلا القليل !

وقد اختار التعبير أن ينص على تسبيح الرعد بالحمد اتباعا لمنهج التصوير القرآنى فى مثل هذا السياق ، وخلع سمات الحياة وحركاتها على مشاهد الكون الصامتة لتشارك فى المشهد بحركة من جنس حركة المشهد كله - كما فصلت هذا فى كتاب التصوير الفنى فى القرآن - والمشهد هنا مشهد أحياء فى جو طبيعى . وفيه الملائكة تسبح من خيفته ، وفيه دعاء لله ، ودعاء للشركاء . وفيه باسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه . . فى وسط هذا المشهد الداعى العابد المتحرك اشترك الرعد ككائن حى بصوته فى التسبيح والدعاء . .

ثم يكمل جو الرهبة والابتهال والبرق والرعد والسحاب الثقال . . بالصواعق يرسلها فيصيب بها من يشاء . والصواعق ظاهرة طبيعية ناشئة من تركيب الكون على هذا المنوال ؛

Marfat.com

والله يصيب بها أحيانا من غيروا ما بأنفسهم واقتضت حكمته ألا يمهلهم ، لعلمه أن لا خير في إمهالهم ، فاستحقوا الهلاك . .

والعجيب أنه في هول البرق والرعد والصواعق ، وفي زحمة تسبيح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وزمجرة العواصف بغضبه . . في هذا الهول ترتفع أصوات بشرية بالجدل في الله صاحب كل هذه القوى وباعث كل هذه الأصوات التي ترتفع على كل جدال وكل محال :

« وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال » !

وهكذا تضيع أصواتهم الضعيفة في غمرة هذا الهول المتجاوب بالدعاء والابتهال والرعد والفرقعة والصواعق ، الناطقة كلها بوجود الله - الذي يجادلون فيه - وبوحدانيته واتجاه التسبيح والحمد إليه وحده من أضخم مجالي الكون الهائل ، ومن الملائكة الذين يسبحون من خيفته (وللخوف إيقاعه في هذا المجال) فأين من هذا كله أصوات الضعاف من البشر وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ؟ !

وهم يجادلون في الله وينسبون إليه شركاء يدعونهم معه . ودعوة الله هي وحدها الحق ؛ وما عداها باطل ذاهب ، لاينال صاحبه منه إلا العناء :

« له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشيء ، إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال »

والمشهد هنا ناطق متحرك جاهد لاهف . . فدعوة واحدة هي الحق . وهي التي تحق ، وهي التي تستجاب . إنها دعوة الله والتوجه إليه والاعتماد عليه وطلب عونه ورحمته وهداه . وما عداها باطل وما عداها ضائع وما عداها هباء . . ألا ترون حال الداعين لغيره من الشركاء ؟ انظروا هذا واحد منهم . ملهوف ظمآن يمد ذراعيه ويبسط كفيه . وفمه مفتوح يلهث بالدعاء . يطلب الماء ليبلغ فاه فلا يبلغه . وما هو ببالغه . بعد الجهد واللهفة والعناء . وكذلك دعاء الكافرين بالله الواحد حين يدعون الشركاء :

« وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » .

Marfat.com

وفي أى جو لايبلغ هـذا الداعى اللاهف اللاهث قطرة من ماء ؟ فى جو البرق والرعد والسحاب الثقال ، التى تجرى هناك بأمر الله الواحد القهار !

وفى الوقت الذى يتخذ هؤلاء الخائبون آلهة من دون الله ، ويتوجهون إليهم بالرجاء والدعاء ، إذا كل من فى الكون يعنو لله . وكلهم محكومون بإرادته ، خاضعون لسنته ، مسيرون وفق ناموسه . المؤمن منهم يخضع طاعة وإيمانا ، وغير المؤمن يخضع أخذا وإرغاما ، فما يملك أحد أن يخرج على إرادة الله ، ولا أن يعيش خارج ناموسه الذى سنه للحياة :

« ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعا وكرها ، وظلالهم ، بالغدو والآصال » ..

ولأن الجو جو عبادة ودعاء ، فإن السياق يعبر عن الخضوع لمشيئة الله بالسجود وهو أقصى رمز للعبودية ، ثم يضم إلى شخوص من فى السماوات والأرض ، ظلالهم كذلك . ظلالهم بالغدو فى الصباح ، وبالآصال عند انكسار الأشعة وامتداد الظلال . يضم هذه الظلال إلى الشخوص فى السجود والخضوع والامتثال . وهى فى ذاتها حقيقة ، فالظلال تبع للشخوص . ثم تلقى هـذه الحقيقة ظلها على المشهد ، فإذا هو عجب . وإذا السجود مزدوج : شخوص وظلال ! وإذا الكون كله بما فيه من شخوص وظلال جاثية خاضعة عن طريق الإيمان أو غير الإيمان سواء . كلها تسجد لله . . وأولئك الخائبون يدعون آلهة من دون الله !

وفى جو هذا المشهد العجيب يتوجه إليهم بالأسئلة التهكمية . فما يجدر بالمشرك بالله فى مثل هذا الجو إلا التهكم . وما يستحق إلا السخرية والاستهزاء :

« قل : من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله . قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟ قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل : الله خالق كل شىء ، وهو الواحد القهار » . .

سلهم ـ وكل من فى السماوات والأرض مأخوذ بقدرة الله وإرادته ـ رضى أم كره ـ : « من رب السماوات والأرض ؟ » . . وهو سؤال لا ليجيبوا عنه ، فقد أجاب السياق من قبل . إنما ليسمعوا الجواب ملفوظا وقد رأوه مشهودا : « قل : الله » . . ثم سلهم :

Marfat.com

« أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟ » . . سلهم للاستنكار فهم بالفعل قد اتخذوا أولئك الأولياء . سلهم والقضية واضحة ، والفرق بين الحق والباطل واضح: وضوح الفارق بين الأعمى والبصير ، وبين الظلمات والنور . وفى ذكر الأعمى والبصير إشارة إليهم وإلى المؤمنين ؛ فالعمى وحده هو الذى يصدهم عن رؤية الحق الواضح الجاهر الذى يحس بأثره كل من السماوات والأرض . وفى ذكر الظلمات والنور إشارة إلى حالهم وحال المؤمنين ، فالظلمات التى تحجب الرؤية هى التى تلفهم وتكفهم عن الإدراك للحق المبين .

أم ترى هؤلاء الشركاء الذين اتخذوهم من دون الله ، خلقوا مخلوقات كالتى خلقها الله . فتشابهت على القوم هذه المخلوقات وتلك ، فلم يدروا أيهما من خلق الله وأيها من خلق الشركاء ؟ فهم معذورون إذن إن كان الأمر كذلك ، فى اتخاذ الشركاء ، فلهم من صفات الله تلك القدرة على الخلق ، التى بها يستحق المعبود العبادة ؛ وبدونها لا تقوم شبهة فى عدم استحقاقه !

وهو التهكم المر على القوم يرون كل شىء من خلق الله ، ويرون هذه الآلهة المدعاة لم تخلق شيئا ، وما هى بخالقة شيئا ، إنما هى مخلوقة . وبعد هذا كله يعبدونها ويدينون لها فى غير شبهة . وذلك أسخف وأحط ماتصل العقول إلى دركه من التفكير . .

والتعقيب على هذا التهكم اللاذع ، حيث لاممارضة ولا جدال ، بعد هذا السؤال :

« قل : الله خالق كل شىء . وهو الواحد القهار » . .

فهى الوحدانية فى الخلق ، وهى الوحدانية فى القهر - أقصى درجات السلطان - وهكذا تحاط قضية الشركاء فى مطلعها بسجود من فى السماوات والأرض وظلالهم طوعا وكرها لله ؛ وفى ختامها بالقهر الذى يخضع له كل شىء فى الأرض أو فى السماء . . وقد سبقته من قبل بروق ورعود وصواعق وتسبيح وتحميد عن خوف أو طمع . . فأين القلب الذى يصمد لهذا الهول ، إلا أن يكون أعمى مطموسا يعيش فى الظلمات ، حتى يأخذه الهلاك ؟ !

وقبل أن نغادر هذا الوادى نشير إلى التقابلات الملحوظة فى طريقة الأداء . بين « خوفا وطمعا » وبين البرق الخاطف والسحاب الثقال - و « الثقال » هنا ، بعد إشارتها إلى الماء ،

Marfat.com

تشارك فى صفة التقابل مع البرق الخفيف الخاطف ـ وبين تسبيح الرعد بحمده وتسبيح الملائكة من خيفته . وبين دعوة الحق ودعوة الجهد الضائع . وبين السماوات والأرض ، وسجود من فيهن طوعا وكرها . وبين الشخوص والظلال . وبين الغدو والآصال . وبين الأعمى والبصير . وبين الظلمات والنور . وبين الخالق القاهر والشركاء الذين لا يخلقون شيئا ، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . . . وهكذا يمضى السياق على نهجه فى دقة ملحوظة ولألاء باهر وتنسيق عجيب .

* * *

ثم نمضى مع السياق . يضرب مثلا للحق والباطل . للدعوة الباقية والدعوة الذاهبة مع الريح . للخير الهادئ والشر المتنفج . والمثل المضروب هنا مظهر لقوة الله الواحد القهار . ولتدبير الخالق المدبر المقدر للأشياء . وهو من جنس المشاهد الطبيعية التى يمضى فى جوها السياق .

« أنزل من السماء ماء ، فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبدا رابيا . ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله . كذلك يضرب الله الحق والباطل . فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . كذلك يضرب الله الأمثال » . .

وإنزال الماء من السماء حتى تسيل به الوديان يتناسق مع جو البرق والرعد والسحاب الثقال فى المشهد السابق ؛ ويؤلف جانبا من المشهد الكونى العام ، الذى تجرى فى جوه قضايا السورة وموضوعاتها . وهو كذلك يشهد بقدرة الواحد القهار . . وأن تسيل هذه الأودية بقدرها ، كل بحسبه ، وكل بمقدار طاقته ومقدار حاجته يشهد بتدبير الخالق وتقديره لكل شىء . . وهى إحدى القضايا التى تعالجها السورة . . وليس هذا أو ذلك بعد إلا إطارا للمثل الذى يريد الله ليضربه للناس من مشهود حياتهم الذى يمرون عليه دون انتباه .

إن الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية ، وهو يلم فى طريقه غثاء ، فيطفو على وجهه فى صورة الزبد حتى ليحجب الزبد الماء فى بعض الأحيان . هذا الزبد نافش راب منتفخ . . ولكنه بعد غثاء . والماء من تحته سارب ساكن هادئ . . ولكنه هو الماء الذى يحمل الخير

Marfat.com

والحياة . . كذلك يقع فى المعادن التى تذاب لتصاغ منها حلية كالذهب والفضة ، أو آنية أو آلة نافعة للحياة كالحديد والرصاص ، فإن الخبث يطفو وقد يحجب المعدن الأصيل . ولكنه بعدُ خبثٌ يذهب ويبقى المعدن فى نقاء . .

ذلك مثل الحق والباطل فى هذه الحياة . فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابيا طافيا . ولكنه بعدُ زبد أو خبث ، مايلبث أن يذهب جفاء مطروحا لا حقيقة له ولا تماسك فيه . والحق يظل هادئا ساكنا . وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات . ولكنه هو الباقى فى الأرض كالماء المحيى والمعدن الصريح ، ينفع الناس . « كذلك يضرب الله الأمثال » وكذلك يقرر مصائر الدعوات ، ومصائر الاعتقادات . ومصائر الأعمال والأقوال . وهو الله الواحد القهار ، المدبر للكون والحياة ، العليم بالظاهر والباطن ، والحق والباطل والباقى والزائل .

فمن استجاب لله فله الحسنى . والذين لم يستجيبوا له يلاقون من الهول مايود أحدهم لو ملك مافى الأرض ومثله معه أن يفتدى به . وما هو بمفتد ، إنما هو الحساب الذى يسوء ، وإنما هى جهنم لهم مهاد . ويالسوء المهاد ! :

« للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به ، أولئك لهم سوء الحساب، ومأواهم جهنم . وبئس المهاد » . .

ويتقابل الذين يستجيبون مع الذين لايستجيبون . وتتقابل الحسنى مع سوء العذاب . . ومع جهنم وبئس المهاد . . على منهج السورة كلها وطريقتها المطردة فى الأداء . .

« أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ⑲ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ * وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ * وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ، وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

Marfat.com

وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ . . أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالْمَلَـٰئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ * وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ.. أُولَـٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ * اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ، وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ .

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ! قُلْ : إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ . أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ * كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ؛ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـٰنِ . قُلْ : هُوَ رَبِّي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْهِ مَتَابِ * وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ، أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ ، أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ . بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ؛ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ؛ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ، أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ . إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ * وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ . فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ؟

« أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ؟ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ . قُلْ : سَمُّوهُمْ . أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ ؟ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ؟ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ، وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * لَّهُمْ

Marfat.com

عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَقُّ ، وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ * مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ، تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ . أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا . تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ، وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ .

« وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ؛ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ . قُلْ : إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ، إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ * وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ؛ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ .

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ؛ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ، وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ * وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ .

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ؟ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ، وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ، يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ، وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ .

« وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا : لَسْتَ مُرْسَلًا . قُلْ : كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ » (٤٣)

بعد المشاهد الهائلة فى آفاق الكون وفى أعماق الغيب ، وفى أغوار النفس التى استعرضها شطر السورة الأول ، يأخذ الشطر الثانى فى لمسات وجدانية وعقلية ، وتصويرية دقيقة رفيقة ، حول قضية الوحى والرسالة ، وقضية التوحيد والشركاء ، ومسألة طلب الآيات واستعجال تأويل الوعيد .. وهى جولة جديدة حول تلك القضايا فى السورة .

Marfat.com

وتبدأ هـذه الجولة بلمسة فى طبيعة الإيمـان وطبيعة الـكفر ، فالأول علم والثـانى عمى . وفى طبيعة المؤمنين وطبيعة الـكافرين والصفات المميزة لهؤلاء وهؤلاء . يتلوها مشهد من مشاهد القيـامة ، وما فيها من نعيم للأولين ومن عـذاب للآخرين . فلمسة فى بسط الرزق وتقديره وردها إلى الله . فجولة مع القلوب المؤمنة المطمئنة بذكر الله . فوصف لهـذا القرآن الذى يكاد يسير الجبال وتقطع به الأرض ويكلم به الموتى . فلمـسة بما يصيب الـكفار من قوارع تنزل بهم أو تحل قريبـا من دارهم . فجدل تهـكمى حول الآلهة المدعاة . فلمسة من مصارع الغابرين ونقص أطراف الأرض منهم حينا بعد حين . يختم هـذا كله بتهديد الذين يـكذبون برسالة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتركهم للمصير المعلوم !

من ذلك نرى أن الإيقاعات والمطارق المتوالية فى شطر الـسورة الأول ، تحضّر المشاعر وتهيئها لمواجهة القضايا والمسائل فى شطرها الثـانى ، وهى على استعداد وتفتح لتلقيها ؛ وأن شطرى الـسورة متـكاملان ؛ وكل منهما يوقع على الحس طرقاته وإيحاءاته لهدف واحد وقضية واحدة .

* * *

والقضية الأولى هى قضية الوحى . وقد أثيرت فى صدر السورة . وهى تثار هنـا مرة أخرى على نسق جديد . .

« أفمن يعلم أنما أنزل إليـك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنمـا يتذكر أولو الألباب » . .

إن المقابل لمن يعـلم أنما أنزل إليك من ربك هو الحق ليس هو من لايعلم هـذا ، إنما المقابل هو الأعمى ! وهو أسلوب عجيب فى لمس القلوب وتجسيم الفروق . وهو الحق فى الوقت ذاته لامبالغة فيه ولا زيادة ولا تحريف . فالعمى وحـده هو الذى ينشىء الجهل بهذه الحقيقة الـكبرى الواضحة التى لا تخفى إلا على أعمى . والناس إزاء هـذه الحقيقة الـكبيرة صنفان : مبصرون فهم يعلمون ، وعمى فهم لا يعلمون ! والعمى عمى البصيرة ، وانطماس المدارك ، واستغلاق القلوب ، وانطفاء قبس المعرفة فى الأرواح ، وانفصالها عن مصـدر الإشعاع . .

« إنما يتذكر أولو الألباب » . .

الذين لهم عقول وقلوب مدركة تذكر بالحق فتتذكر ، وتنبه إلى دلائله فتتفكر .

وهذه صفات أولى الألباب هؤلاء :

« الذين يوفون بعهد الله ، ولا ينقضون الميثاق » . .

وعهد الله مطلق يشمل كل عهد ، وميثاق الله مطلق يشمل كل ميثاق . والعهد الأكبر الذى تقوم عليه العهود كلها هو عهد الإيمان ؛ والميثاق الأكبر الذى تتجمع عليه المواثيق كلها هو ميثاق الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان .

وعهد الإيمان قديم وجديد . قديم مع الفطرة البشرية المتصلة بناموس الوجود كله ؛ المدركة إدراكا مباشرا لوحدة الإرادة التى صدر عنها الوجود ، ووحدة الخالق صاحب الإرادة ، وأنه وحده المعبود . وهو الميثاق المأخوذ على الذرية فى ظهور بنى آدم فيما ارتضيناه لها من تفسير . . ثم هو جديد مع الرسل الذين بعثهم الله لا لينشئوا عهد الإيمان ولكن ليجددوه ويذكروا به ويفصلوه ، ويبينوا مقتضياته من الدينونة لله وحده والانخلاع من الدينونة لسواه ، مع العمل الصالح والسلوك القويم ، والتوجه به إلى الله وحده صاحب الميثاق القديم . .

ثم تترتب على العهد الإلهى والميثاق الربانى كل العهود والمواثيق مع البشر . سواء مع الرسول أو مع الناس . ذوى قرابة أو أجانب . أفرادا أم جماعات . فالذى يرعى العهد الأول يرعى سائر العهود ، لأن رعايتها فريضة ؛ والذى ينهض بتكاليف الميثاق الأول يؤدى كل ماهو مطلوب منه للناس ، لأن هذا داخل فى تكاليف الميثاق .

فهى القاعدة الضخمة الأولى التى يقوم عليها بنيان الحياة كله . يقررها فى كلمات .

« والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب

هكذا فى إجمال . فكل ما أمر الله به أن يوصل يصلونه . أى أنها الطاعة الكاملة والاستقامة الواصلة ، والسير على السنة ووفق الناموس بلا انحراف ولا التواء . لهذا ترك الأمر مجملا ، ولم يفصل مفردات ما أمر الله به أن يوصل ، لأن هذا التفصيل يطول ، وهو غير

Marfat.com

مقصود ، إنما المقصود هو تصوير الاستقامة المطلقة التي لا تلتوى ، والطاعة المطلقة التي لا تتفلت ، والصلة المطلقة التي لا تنقطع . . ويلمح عجز الآية إلى الشعور المصاحب فى نفوسهم لهذه الطاعة الكاملة :

« ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » . .

فهى خشية الله ومخافة العقاب الذي يسوء فى يوم لقائه الرهيب . وهم أولو الألباب الذين يتدبرون الحساب قبل يوم الحساب .

« والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم » . .

والصبر ألوان . وللصبر مقتضيات . صبر على تكاليف الميثاق . من عمل وجهاد ودعوة واجتهاد . . . الخ وصبر على النعماء والبأساء . وقل من يصبر على النعمة فلا يبطر ولا يكفر . وصبر على حماقات الناس وجهالاتهم وهى تضيق الصدور . . وصبر وصبر وصبر . . كله ابتغاء وجه ربهم ، لا تحرجا من أن يقول الناس : جزعوا . ولا تجملا ليقول الناس : صبروا . ولا رجاء فى نفع من وراء الصبر . ولا دفعا لضر يأتى به الجزع . ولا لهدف واحد غير ابتغاء وجه الله ، والصبر على نعمته وبلواه . صبر التسليم لقضائه والاستسلام لمشيئته والرضى والاقتناع . .

« وأقاموا الصلاة » . .

وهى داخلة فى الوفاء بعهد الله وميثاقه ، ولكنه يبرزها لأنها الركن الأول لهذا الوفاء ، ولأنها مظهر التوجه الخالص الكامل لله ، ولأنها الصلة الظاهرة بين العبد والرب ، الخالصة له ليس فيها من حركة ولا كلمة لسواه .

« وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية » . .

وهى داخلة فى وصل ما أمر الله به أن يوصل ، وفى الوفاء بتكاليف الميثاق . ولكنه يبرزها لأنها الصلة بين عباد الله ، التي تجمعهم فى الله وهم فى نطاق الحياة . والتي تزكى نفس معطيها من البخل ، وتزكى نفس آخذها من الغل ؛ وتجعل الحياة فى المجتمع المسلم لائقة بالبشر المتعاونين المتضامنين الكرام على الله . والإنفاق سرا وعلانية . السر حيث تصان الكرامة

Marfat.com

Marfat.com

وتطلب للروءة ، وتتحرج النفس من الإعلان . والعلانيـة حيث تطلب الأسوة ، وتنفذ الشريعة ، ويطاع القانون . ولـكل موضعه فى الحياة .

« ويدرأون بالحسنة السيئة » . .

والمقصود أنهم يقابلون السيئة بالحسنة فى التعاملات اليومية لافى دين الله . ولـكن التعبير يتجاوز المقدمة إلى النتيجة . فمقابلة السيئة بالحسنة تكسر شرة النفوس ، وتوجهها إلى الخير ؛ وتطفئ جـذوة الشر ، وترد نزغ الشيطان ، ومن ثم تدرأ السيئة وتدفعها فى النهاية . فجعل النص بهـذه النهاية وصـدر بها الآية ترغيبا فى مقـابلة السيئة بالحسنة وطلبا لنتيجتها المرتقبة . .

ثم هى إشارة خفية إلى مقابلة السيئة بالحسنة عندما يـكون فى هـذا درء السيئة ودفعها لا إطماعها واستعلاؤها ! فأما حين تحتاج السيئة إلى القمع ، ويحتاج الشر إلى الدفع ، فلا مكان لمقابلتها بالحسنة ، لئلا ينتفش الشر ويتجرأ ويستعلى .

ودرء السيئة بالحسنة يكون غالبا فى المعاملة الشخصية بين المتماثلين . فأما فى دين الله فلا . . إن المستعلى الغاشم لايجدى معه إلا الدفع الصارم . والمفسدون فى الأرض لايجـدى معهم إلا الأخذ الحاسم . والتوجيهات القرآنية متروكة لتدبر المواقف ، واستشارة الألباب ، والتصرف بما يرجح أنه الخير والصواب .

« أولئك لهم عقبى الدار : جنـات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ؛ والملائـكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليـكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار » . .

« أولئك » فى مقامهم العالى لهم عقبى الدار : جنات عدن للإقامة والقرار .

فى هـذه الجنات يأتلف شملهم مع الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . وهؤلاء يدخلون الجنة بصلاحهم واستحقاقهم . ولـكنهم يـكرمون بتجمع شتاتهم ، وتلاقى أحبابهم ، وهى لذة أخرى تضاعف لذة الشعور بالجنان .

وفى جو التجمع والتلاقى يشترك الملائـكة فى التأهيل والتـكريم ، فى حركة رائحة غادية :

Marfat.com

« يدخلون عليهم من كل باب » . .

ويدعنا السياق نرى المشهد حاضرا وكأنما نشهده ونسمع الملائكة أطوافا أطوافا :

« سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » . .

فهو مهرجان حافل باللقاء والسلام والحركة الدائبة والإكرام .

وعلى الضفة الأخرى أولئك الذين لا ألباب لهم فيتذكروا . ولا بصيرة لهم فيبصروا . وهم على النقيض فى كل شىء مع أولى الألباب :

« والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه . ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل . ويفسدون فى الأرض . أولئك لهم اللعنة ، ولهم سوء الدار » . .

إنهم ينقضون عهد الله المأخوذ على الفطرة فى صورة الناموس الأزلى ؛ وينقضون من بعده كل عهد ، فمتى نقض العهد الأول فكل عهد قائم عليه منقوض من الأساس . والذى لا يرعى الله لا يبقى على عهد ولا ميثاق . ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل على وجه العموم والإطلاق . ويفسدون فى الأرض فى مقابل صبر أولئك وإقامتهم للصلاة وإنفاقهم سرا وعلانية ودرء السيئة بالحسنة . فالإفساد فى الأرض يقابل هذا كله ، وترك شىء من هذا كله إنما هو إفساد أو دافع إلى الإفساد .

« أولئك » . . المبعدون المطرودون « لهم اللعنة » والطرد فى مقابل التكريم هناك « ولهم سوء الدار » ولا حاجة إلى ذكرها ، فقد عرفت بمقابلها هناك !

أولئك فرحوا بالحياة الدنيا ومتاعها الزائل فلم يتطلعوا إلى الآخرة ونعيمها المقيم . مع أن الله هو الذى يقدر الرزق فيوسع فيه أو يضيق فالأمر كله إليه فى الأولى والآخرة على السواء . ولو ابتغوا الآخرة ماحرمهم الله متاع الأرض ، وهو الذى أعطاهم إياه :

« الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع » . .

* * *

ولقد سبقت الإشارة إلى الفارق الضخم بين من يعلم أن ما أنزل إلى الرسول من ربه هو

Marfat.com

الحق ، ومن هو أعمى . فالآن يحكى السياق شيئاً عن العمى الذين لا يرون آيات الله فى الكون ، والذين لا يكفيهم هـذا القرآن ، فإذاهم يطلبون آية وقد حكى السياق شيئاً كهذا فى شطر السورة الأول ، وعقب عليه بأن الرسول ليس إلا منذراً والآيات عنـد الله . وهو الآن يحكيه ويعقب عليه ببيان أسباب الهدى وأسباب الضلال . ويضع إلى جواره صورة القلوب المطمئنة بذكر الله ، لا تقلق ولا تطلب خوارق لتؤمن وهذا القرآن بين أيديها . هذا القرآن العميق التأثير ، حتى لتكاد تسير به الجبال وتقطع به الأرض ، ويكلم به الموتى لما فيه من سلطان وقوة ودفعة وحيوية . وينهى الحديث عن هؤلاء الذين يتطلبون القوارع والخوارق بتيئيس المؤمنين منهم ، وبتوجيههم إلى المثلات من قبلهم ، وإلى ما يحل بالمكذبين من حولهم بين الحين والحين :

« ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليـه آية من ربه ! قل : إن الله يضل من يشاء ، ويهدى إليه من أناب : الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب .

« كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلهـا أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن . قل : هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت ، وإليه متاب .

« ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أوقطعت به الأرض أو كلم به الموتى . بل لله الأمر جميعاً . أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً . ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتى وعد الله . إن الله لا يخلف الميعاد . ولقد استهزئ برسل من قبلك ، فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم . فكيف كان عقاب ؟ » ..

إن الرد على طلبهم آية خارقة ، أن الآيات ليست هى التى تقود الناس إلى الإيمان ، فللإيمان دواعيه الأصيلة فى النفوس ، وأسبابه المؤدية إليه من فعل هذه النفوس :

« قل : إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب » ..

فالله يهدى من ينيبون إليه . فالإنابة إلى الله هى التى جعلتهم أهلا لهداه . والمفهوم إذن أن الذين لا ينيبون هم الذين يستأهلون الضـلال ، فيضلهم الله . فهو استعداد القلب للهدى وسعيه إليه وطلبه ، أما القلوب التى لا تتحرك إليه فهو عنها بعيد ..

ثم يرسم صورة شفيفة للقلوب المؤمنة . فى جو من الطمأنينة والأنس والبشاشة والسلام:

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله » ..

تطمئن بإحساسها بالصلة بالله ، والأنس بجواره ، والأمن فى جانبه وفى حماه . تطمئن من قلق الوحدة ، وحيرة الطريق . بإدراك الحكمة فى الخلق والمبدأ والمصير . وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضر ومن كل شر إلا بما يشاء ، مع الرضى بالابتلاء والصبر على البلاء . وتطمئن برحمته فى الهداية والرزق والستر فى الدنيا والآخرة :

« ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

ذلك الاطمئنان بذكر الله فى قلوب المؤمنين حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ، فاتصلت بالله . يعرفونها ، ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين الذين لم يعرفوها ، لأنها لا تنقل بالكلمات ، إنما تسرى فى القلب فيستروحها ويهش لها ويندى بها ويستريح إليها ويستشعر الطمأنينة والسلام، ويحس أنه فى هذا الوجود ليس مفردا بلا أنيس . فكل ماحوله صديق ، إذ كل ماحوله من صنع الله الذى هو فى حماه .

وليس أشقى على وجه هذه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس إلى الله . ليس أشقى ممن ينطلق فى هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله فى الكون ، لأنه انفصم من العروة الوثقى التى تربطه بما حوله فى الله خالق الكون . ليس أشقى ممن يعيش لا يدرى لم جاء ؟ ولم يذهب ؟ ولم يعانى مايعانى فى الحياة ؟ ليس أشقى ممن يسير فى الأرض يوجس من كل شىء خيفة لأنه لا يستشعر الصلة الخفية بينه وبين كل شىء فى هذا الوجود . ليس أشقى فى الحياة ممن يشق طريقه فريدا وحيدا شاردا فى فلاة ، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين .

وإن هناك للحظات فى الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكنا إلى الله ، مطمئنا إلى حماه مهما أوتى من القوة والثبات والصلابة والاعتداد . . فى الحياة لحظات تعصف بهذا كله ، ولا يصمد لها إلا المطمئنون بالله :

« الا بذكر الله تطمئن القلوب » ..

Marfat.com

هؤلاء المنيبون إلى الله ، المطمئنون بذكر الله ، يحسن الله مآبهم عنده ، كما أحسنوا الإنابة إليه وكما أحسنوا العمل فى الحياة :

« الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » ..

طوبى (على وزن كبرى من طاب يطيب) للتفخيم والتعظيم . وحسن مآب إلى الله الذى أنابوا إليه فى الحياة ..

أما أولئك الذين يطلبون آية فلم يستشعروا طمأنينة الإيمان فهم فى قلق يطلبون الخوارق والمعجزات . ولست أول رسول جاء لقومه بمثل ماجئت به حتى يكون الأمر عليهم غريبا ، فقد خلت من قبلهم الأمم وخلت من قبلهم الرسل . فإذا كفروا هم فلتمض على نهجك ولتتوكل على الله :

« كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم ، لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن . قل : هو ربى لا إله إلا هو ، عليه توكلت وإليه متاب » ..

والعجيب أنهم يكفرون بالرحمن ، العظيم الرحمة ، الذى تطمئن القلوب بذكره ، واستشعار رحمته الكبرى . وما عليك إلا أن تتلو عليهم الذى أوحينا إليك ، فلهذا أرسلناك . فإن يكفروا فأعلن لهم أن اعتمادك على الله وحده ، وأنك تائب إليه وراجع ، لا تتجه إلى أحد سواه .

وإنما أرسلناك لتتلو عليهم هذا القرآن . هذا القرآن العجيب ، الذى لو كان من شأن قرآن أن تسير به الجبال أو تقطع به الأرض ، أو يكلم به الموتى ، لكان فى هذا القرآن من الخصائص والمؤثرات ، ماتتم معه هذه الخوارق والمعجزات . ولكنه جاء لخطاب المكلفين الأحياء فإذا لم يستجيبوا فقد آن أن ييأس منهم المؤمنون ، وأن يدعوهم حتى يأتى وعد الله للمكذبين :

« ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى . بل لله الأمر جميعا . أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا . ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله . إن الله لا يخلف الميعاد » ..

Marfat.com

Marfat.com

ولقد صنع هذا القرآن فى النفوس التى تلقته وتكيفت به أكثر من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وإحياء الموتى . لقد صنع فى هذه النفوس وبهذه النفوس خوارق أضخم وأبعد آثارا فى أقدار الحياة ، بل أبعد أثرا فى شكل الأرض ذاته . فكم غير الإسلام والمسلمون من وجه الأرض ، إلى جانب ماغيروا من وجه التاريخ ؟ !

وإن طبيعة هذا القرآن ذاتها . طبيعته فى دعوته وفى تعبيره . طبيعته فى موضوعه وفى أدائه. طبيعته فى حقيقته وفى تأثيره . . إن طبيعة هذا القرآن لتحتوى على قوة خارقة نافذة ، يحسها كل من له ذوق وبصر وإدراك للكلام ، واستعداد لإدراك ما يوجه إليه ويوحى به . والذين تلقوه وتكيفوا به سيروا ماهو أضخم من الجبال ، وهو تاريخ الأمم والأجيال ؛ وقطعوا ماهو أصلب من الأرض ، وهو جمود الأفكار وجمود التقاليد . وأحيوا ماهو أخمد من الموتى . وهو الشعوب التى قتل روحها الطغيان والأوهام . والتحول الذى تم فى نفوس العرب وحياتهم فنقلهم تلك النقلة الضخمة دون أسباب ظاهرة إلا فعل هذا الكتاب ومنهجه فى النفوس والحياة ، أضخم بكثير من تحول الجبال عن رسوخها ، وتحول الأرض عن جمودها، وتحول الموتى عن الموات !

« بل لله الأمر جميعا » ..

وهو الذى يختار نوع الحركة وأداتها فى كل حال .

فإذا كان قوم بعد هذا القرآن لم تتحرك قلوبهم فما أجدر المؤمنين الذين يحاولون تحريكها أن ييأسوا من القوم ؛ وأن يدعوا الأمر لله ، فلو شاء لخلق الناس باستعداد واحد للهدى ، فلهدى الناس جميعا على نحو خلقة الملائكة لو كان يريد . أو لقهرهم على الهدى بأمر قدرى منه .. ولكن لم يرد هذا ولا ذاك لأنه خلق هذا الإنسان لمهمة خاصة يعلم سبحانه أنها تقتضى خلقته على هذا النحو الذى كان .

فليدعوهم إذن لأمر الله . وإذا كان الله قد قدر ألا يهلكهم هلاك استئصال فى جيل كبعض الأقوام قبلهم ، فإن قارعة من عنده بعد قارعة تنزل بهم فتصيبهم بالضر والكرب ، وتهلك من كتب عليه منهم الهلاك .

Marfat.com

« أو تحل قريبا من دارهم » ..

فتروعهم وتدعهم فى قلق وانتظار لمثلها ؛ وقد تلين بعض القلوب وتحركها وتحييها .

« حتى يأتى وعد الله » ..

الذى أعطاهم إياه ، وأمهلهم إلى انتهاء أجله :

« إن الله لا يخلف الميعاد » ..

فهو آت لا ريب فيه ، فلاقون فيه ما وعدوه .

والأمثلة حاضرة ، وفى مصارع الغابرين عبرة ، بعد الإنظار والإمهال :

« ولقد استهزئ برسل من قبلك ، فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم ، فكيف كان عقاب ؟ » .

وهو سؤال لا يحتاج إلى جواب . فلقد كان عقابا تتحدث به الأجيال !!!

* * *

والقضية الثانية هى قضية الشركاء . وقد أثيرت فى الشطر الأول من السورة كذلك . وهى تثار هنا فى سؤال تهكمى حين تقرن هذه الشركاء إلى الله القائم على كل نفس ، المجازى لها بما كسبت فى الحياة . وتنتهى هذه الجولة بتصوير العذاب الذى ينتظر المفترين لهذه الفرية فى الدنيا والعذاب الأشق فى الآخرة . وفى مقابلة ماينتظر المتقين من أمن وسلام !

« أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ وجعلوا لله شركاء . قل: سموهم . أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض ؟ أم بظاهر من القول ؟ بل زين للذين كفروا مكرهم ، وصدوا عن السبيل ، ومن يضلل الله فماله من هاد . لهم عذاب فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشق ، وما لهم من الله من واق ..

« مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها . تلك عقبى الذين اتقوا . وعقبى الكافرين النار » ..

والله سبحانه رقيب على كل نفس ، مسيطر عليها فى كل حال ، عالم بما كسبت فى السر والجهر . ولكن التعبير القرآنى المصور يشخص الرقابة والسيطرة والعلم فى صورة حسية ـ على طريقة القرآن ـ صورة ترتعد لها الفرائص :

Marfat.com

« أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » . .

فلتتصور كل نفس أن عليها حارسا قائما عليها مشرفا مراقبا يحاسبها بما كسبت . ومن ؟ إنه الله ! فأية نفس لا ترتعد لهذه الصورة وهي في ذاتها حق ، إنما يجسمها التعبير للإدراك البشرى الذى يتأثر بالحسيات أكثر مما يتأثر بالتجريديات .

أفذلك كذلك ؟ ثم يجعلون لله شركاء ؟ ! هنا يبدو تصرفهم مستنكرا مستغربا فى ظل هذا المشهد الشاخص المرهوب .

« وجعلوا لله شركاء » . .

الله القائم على كل نفس بما كسبت ، لا تفلت منه ولا تروغ .

« قل : سموهم » ! فإنهم نكرات مجهولة . وقد تكون لهم أسماء . ولكن التعبير هنا ينزلهم منزلة النكرات التى لا تعرف أسماؤها .

« أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض ؟ » . . ياللتهكم ! أم إنكم أنتم البشر تعلمون مالا يعلمه الله ؟ فتعلمون أن هناك آلهة فى الأرض ، وغاب هذا عن علم الله ؟! إنها دعوى لا يجرؤون على تصورها . ومع هذا فهم يقولونها بلسان الحال ، حين يقول الله أن ليست هناك آلهة ، فيدعون وجودها وقد نفاه الله !

« أم بظاهر من القول ؟ »

تدعون وجودها بكلام سطحى ليس وراءه مدلول . وهل قضية الألوهية من التفاهة والهزل بحيث يتناولها الناس بظاهر من القول ؟ !

وينتهى هذا التهكم بالتقرير الجاد الفاصل :

« بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل . ومن يضلل الله فما له من هاد » . .

فالمسألة إذن أن هؤلاء كفروا وستروا أدلة الإيمان عنهم وستروا نفوسهم عن دلائل الهدى ، فخفت عليهم سنة الله ، وصورت لهم نفوسهم أنهم على صواب ، وأن مكرهم وتدبيرهم ضد الدعوة حسن وجميل ، فصدهم هذا عن السبيل الواصل المستقيم . ومن تقتضى سنة الله

ضلاله لأنه سار فى طريق الضلال فلن يهديه أحد ، لأن سنة الله لا تتوقف إذا حقت بأسبابها على العباد .

والنهاية الطبيعية لهذه القلوب المنتكسة هى العذاب :

« لهم عذاب فى الحياة الدنيا » .

إن أصابتهم قارعة فيها ، وإن حلت قريبا من دارهم فهو الرعب والقلق والتوقع . وإلا فجفاف القلب من بشاشة الإيمان عذاب ، وحيرة القلب بلا طمأنينة الإيمان عذاب . ومواجهة كل حادث بلا إدراك للحكمة الكبرى وراء الأحداث عذاب ...

« ولعذاب الآخرة أشق » . .

ويتركه هنا بلا تحديد للتصور والتخيل بلا حدود .

« وما لهم من الله من واق » .

يحميهم من أخذه ، ومن نكاله . فهم معرضون بلا وقاية لما ينزله بهم من عذاب . .

وعلى الصفة الأخرى « المتقون » . . فى مقابل « وما لهم من الله من واق » . المتقون الذين وقوا أنفسهم بالإيمان والصلاح فهم فى مأمن من العذاب . بل لهم فوق الأمن الجنة التى وعدوها : « مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها » فهو المتاع والاسترواح ـ ومشهد الظل الدائم والثمر الدائم مشهد تطمئن له النفس وتستريح ـ فى مقابل المشقة هناك :

ذلك العذاب وهذه الجنة هما النهاية الطبيعية لهؤلاء وهؤلاء :

« تلك عقبى الذين اتقوا . وعقبى الكافرين النار » . .

***

ويمضى السياق مع قضية الوحى وقضية التوحيد مما يتحدث عن موقف أهل الكتاب من القرآن ومن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويبين للرسول أن ماأنزل عليه هو الحكم الفصل فيما جاءت به الكتب قبله ، وهو المرجع الأخير ، أثبت الله فيه ماشاء إثباته من أمور دينه الذى جاء به الرسل كافة ؛ ومحا ماشاء محوه مما كان فيها لانقضاء حكمته . فليقف عند ماأنزل

Marfat.com

Marfat.com

عليه ، لا يطيع فيه أهواء أهل الكتاب فى كبيرة ولا صغيرة . أما الذين يطلبون منه آية ، فالآيات بإذن الله وعلى الرسول البلاغ .

« والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ، ومن الأحزاب من ينكر بعضه . قل : إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو . وإليه مآب . وكذلك أنزلناه حكما عربيا ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ماجاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق . ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، وجعلنا لهم أزواجا وذرية ، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله . لكل أجل كتاب . يمحو الله مايشاء ، ويثبت ، وعنده أم الكتاب . وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب » . .

إن الفريق الصادق من أهل الكتاب فى الاستمساك بدينه ، يجد فى هذا القرآن مصداق القواعد الأساسية فى عقيدة التوحيد ؛ كما يجد الاعتراف بالديانات التى سبقته وكتبها ، ودرسها مع الإكبار والتقدير ، وتصور الآصرة الواحدة التى تربط المؤمنين بالله جميعا . فمن ثم يفرحون ويؤمنون . والتعبير بالفرح هنا حقيقة نفسية فى القلوب الصافية وهو فرح الالتقاء على الحق ، وزيادة اليقين بصحة مالديهم ومؤازرة الكتاب الجديد له . .

« ومن الأحزاب من ينكر بعضه » . .

الأحزاب من أهل الكتاب والمشركين . . ولم يذكر السياق هذا البعض الذى ينكرونه ، لأن الغرض هو ذكر هذا الإنكار للرد عليه :

« قل : إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به . إليه أدعو وإليه مآب » . .

فله وحده العبادة ، وإليه وحده الدعوة ، وله وحده المآب .

وقد أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يعلن منهجه فى مواجهة من ينكر بعض الكتاب ، وهو استمساكه الكامل بكامل الكتاب الذى أنزل إليه من ربه ، سواء فرح به أهل الكتاب كله ، أم أنكر فريق منهم بعضه . ذلك أن ما أنزل إليه هو الحكم الأخير ، نزل بلغته العربية وهو مفهوم له تماما ، وإليه يرجع مادام هو حكم الله الأخير فى العقيدة :

« وكذلك أنزلناه حكما عربيا » . .

« ولئن اتبعت أهواءهم بعد ماجاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق »

فالذى جاءك هو العلم اليقين ، وما يقوله الأحزاب أهواء لا تستند إلى علم أو يقين . وهذا التهديد الموجه إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبلغ فى تقرير هذه الحقيقة ، التى لاتسامح فى الانحراف عنها ، حتى ولو كان من الرسول ، وحاشاه عليه الصلاة والسلام .

وإذا كان هناك اعتراض على بشرية الرسول فقد كان الرسل كلهم بشرا :

« ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، وجعلنا لهم أزواجا وذرية » .

وإذا كان الاعتراض بأنه لم يأت بخارقة مادية ، فذلك ليس من شأنه إنما هو شأن الله :

« وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله » . .

وفق ماتقتضيه حكمته وعندما يشاء .

وإذا كان هناك خلاف جزئى بين ما أنزل على الرسول وما عليه أهل الكتاب ، فإن لكل فترة كتابا ، وهذا هو الكتاب الأخير :

« لكل أجل كتاب . يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . .

فما انقضت حكمته يمحوه ، وما هو نافع يثبته . وعنده أصل الكتاب ، المتضمن لكل ما يثبته وما يمحوه . فعنه صدر الكتاب كله ، وهو المتصرف فيه ، حسبما تقتضى حكمته ، ولا راد لمشيئته ولا اعتراض .

وسواء أخذهم الله فى حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشىء مما أوعدهم ، أو توفاه إليه قبل ذلك ، فإن هذا لايغير من الأمر شيئا ، ولا يبدل من طبيعة الرسالة وطبيعة الألوهية :

« وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » . .

وفى هذا التوجيه الحاسم مافيه من بيان طبيعة الدعوة وطبيعة الدعاة . . إن الدعاة إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا تكاليف الدعوة فى كل مراحلها ؛ وليس عليهم أن يبلغوا بها إلا ماشاءه الله . كما أنه ليس لهم أن يستعجلوا خطوات الحركة ، ولا أن يشعروا بالفشل والخيبة ، إذا رأوا قدر الله يبطىء بهم عن الغلب الظاهر والتمكين فى الأرض ، إنهم دعاة وليسوا إلا دعاة .

* * *

Marfat.com

وإن يد الله القوية لبادية الآثار فيما حولهم ، فهي تأتي الأمم القوية الغنية ـ حين تبطر وتكفر وتفسد ـ فتنقص من قوتها وتنقص من ثرائها وتنقص من قدرها ؛ وتحصرها في رقعة من الأرض ضيقة بعد أن كانت ذات سلطان وذات امتداد، وإذا حكم الله عليها بالانحسار فلا معقب لحكمه ، ولا بد له من النفاذ (١) :

« أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ! والله يحكم لا معقب لحكمه . وهو سريع الحساب » . .

وليسوا هم بأشد مكرا ولا تدبيرا ولا كيدا ممن كان قبلهم . فأخذهم الله وهو أحكم تدبيرا وأعظم كيدا :

« وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا . يعلم ما تكسب كل نفس ، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار » . .

ويختم السورة بحكاية إنكار الكفار للرسالة . وقد بدأها بإثبات الرسالة . فيلتقي البدء والختام . ويشهد الله مكتفيا بشهادته . وهو الذي عنده العلم المطلق بهذا الكتاب وبكل كتاب :

« ويقول الذين كفروا : لست مرسلا . قل : كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب » (٢) .

***

---

(١) هذا هو المعنى المتعين لهذا النص ، لا ما يخبط فيه دعاة « التفسير العلمي للقرآن » من دلالة هذه الآية على نقص أطراف الأرض عند القطبين وانبعاجها عند خط الاستواء ! إلى آخر هذا الهراء ! إن السياق القرآني يحدد مدلول العبارات فيه . فليتق الله من يخبطون في هذا المجال دون فقه وبصيرة بطبيعة هذا القرآن !

(٢) تذكر بعض الروايات في التفسير المأثور أن المقصود بقوله تعالى : « ومن عنده علم الكتاب » شهادة من آمن من أهل الكتاب بأن هذا القرآن حق استنادا إلى ما سبق في السورة من قوله تعالى : « والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك من ربك » . . وهذا ما قد وقع فعلا في مكة . . ثم في المدينة . ونحن لا ننفي وجهة هذه الرواية . فقد تكون هي المقصودة .

Marfat.com

وتنتهي السورة وقد طوفت بالقلب البشرى فى أرجاء الكون ، وأرجاء النفس ، ووقعت عليه إيقاعات مطردة مؤثرة عميقة . وتركته بعد ذلك إلى شهادة الله التى جاء بها المطلع وجاء بها الختام ، والتى يحسم بها كل جدل ، وينتهى بعدها كل كلام . .

* * *

وبعد . . ففى السورة معالم العقيدة الإسلامية ، وللمنهج القرآنى فى عرض هذه العقيدة .. وكان من حق هذه المعالم أن نقف عندها فى مواضعها ؛ لولا أننا آثرنا ألا نقطع تدفق السياق القرآنى فى هذه السورة بتلك الوقفات ؛ وأن نبقها إلى النهاية لنقف أمامها متمهلين !

وقد أشرنا فى أثناء استعراض السورة فى سياقها إلى تلك المعالم إشارات سريعة ؛ فنرجو أن نقف عندها الآن وقفات أطول بقدر المستطاع .

. . والله المستعان . .

* * *

إن افتتاح السورة ، وطبيعة الموضوعات التى تعالجها ، وكثيرا من التوجيهات فيها . . كل أولئك يدل دلالة واضحة على أن السورة مكية ــ وليست مدنية كما جاء فى بعض الروايات والمصاحف ــ وأنها نزلت فى فترة اشتد فيها الإعراض والتكذيب والتحدى من المشركين ؛ كما كثر فيها طلب الخوارق من الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ واستعجال العذاب الذى ينذرهم به ؛ مما اقتضى حملة ضخمة تستهدف تثبيت الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومن معه على الحق الذى أنزل إليه من ربه ، فى وجه المعارضة والإعراض ، والتكذيب والتحدى ؛ والاستعلاء بهذا الحق ، والالتجاء إلى الله وحده ؛ وإعلان وحدانيته إلها وربا ؛ والثبات على هذه الحقيقة ؛ والاعتقاد بأنها هى وحدها الحق ، مهما كذب بها المشركون . كما تستهدف مواجهة المشركين بدلائل هذا الحق فى الكون كله ، وفى أنفسهم ، وفى التاريخ البشرى وأحداثه كذلك ؛ مع حشد جميع هذه المؤثرات ومخاطبة الكينونة البشرية بها خطابا مؤثرا موحيا عميق الإيقاع قوى الدلالة .

وهذه نماذج من التوكيدات على أن هذا الكتاب هو وحده الحق ؛ وأن الإعراض عنه

Marfat.com

والتكذيب به ، والتحدى ، وبطء الاستجابة ، ووعورة الطريق . . كلها لا تغير شيئا من تلك الحقيقة الكبيرة :

◆ « تلك آيات الكتاب ، والذى أنزل إليك من ربك الحق ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » .

◆ « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات ، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب . ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! إنما أنت منذر ، ولكل قوم هاد » .

◆ « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء ، إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه ، ومادعاء الكافرين إلا فى ضلال » .

◆ « . . . كذلك يضرب الله الحق والباطل . فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض . كذلك يضرب الله الأمثال » . .

◆ « أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب » . .

◆ « ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! قل : إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . .

◆ « كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن . قل : هو ربى ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وإليه متاب » . .

◆ « والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ، ومن الأحزاب من ينكر بعضه . قل : إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو ، وإليه مآب . وكذلك أنزلناه حكما عربيا . ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق » . .

◆ « وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » . .

Marfat.com

• « ويقول الذين كفروا : لست مرسلا . قل : كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » . .

وهكذا نلمس في هذه الطائفة من الآيات التي أوردناها طبيعة للمواجهة التي كان المشركون يتحدون بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويتحدون بها هذا القرآن ؛ ثم دلالة هذا التحدي ودلالة التوجيه الرباني إزاءه على طبيعة الفترة التي نزلت فيها السورة من العهد المكي .

ومن اللمحات البارزة في التوجيه الرباني لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يجهر - في مواجهة الإعراض والتكذيب والتحدي وبطء الاستجابة ووعورة الطريق - بالحق الذي معه كاملا ؛ وهو أنه لا إله إلا الله ، ولا رب إلا الله ، ولا معبود إلا الله ، وأن الله هو الواحد القهار ، وأن الناس مردودون إليه فإما إلى جنة وإما إلى نار . . وهي مجموعة الحقائق التي كان ينكرها المشركون ويتحدونه فيها . . وألا يتبع أهواءهم فيصانعها ويترضاها بكتمان شيء من هذا الحق أو تأجيل إعلانه ! مع تهديده بما ينتظره من الله لو اتبع أهواءهم في شيء من هذا من بعد ما جاءه من العلم ! . .

وهذه اللمحة البارزة تكشف لأصحاب الدعوة إلى الله عن طبيعة منهج هذه الدعوة التي لا يجوز لهم الاجتهاد فيها ! وهي أن عليهم أن يجهروا بالحقائق الأساسية في هذا الدين ، وألا يخفوا منها شيئا ، وألا يؤجلوا منها شيئا . . وفي مقدمة هذه الحقائق : أنه لا ألوهية ولا ربوبية إلا لله . ومن ثم فلا دينونة ولا طاعة ولا خضوع ولا اتباع إلا لله . . فهذه الحقيقة الأساسية يجب أن تعلن أيا كانت المعارضة والتحدي؛ وأيا كان الإعراض من المكذبين والتولي؛ وأيا كانت وعورة الطريق وأخطارها كذلك . . وليس من « الحكمة والموعظة الحسنة » إخفاء جانب من هذه الحقيقة أو تأجيله ، لأن الطواغيت في الأرض يكرهونه أو يؤذون الذين يعلنونه ! أو يعرضون بسببه عن هذا الدين ، أو يكيدون له وللدعاة إليه ! فهذا كله لا يجوز أن يجعل الدعاة إلى هذا الدين يكتمون شيئا من حقائقه الأساسية أو يؤجلونه ؛ ولا أن يبدأوا مثلا من الشعائر والأخلاق والسلوك والتهذيب الروحي ، متجنبين غضب

Marfat.com

Marfat.com

طواغيت الأرض لو بدأوا من إعلان وحدانية الألوهية والربوبية ، ومن ثم توحيد الدينونة والطاعة والخضوع والاتباع لله وحده !

إن هذا لهو منهج الحركة بهذه العقيدة كما أراده الله سبحانه ؛ ومنهج الدعوة إلى الله كما سار بها سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - بتوجيه من ربه . . فليس لداع إلى الله أن يتنكب هذا الطريق ؛ وليس له أن ينهج غير ذلك المنهج . . والله - بعد ذلك - متكفل بدينه ، وهو حسب الدعاة إلى هذا الدين وكافيهم شر الطواغيت !

* * *

والمنهج القرآني في الدعوة يجمع بين الحديث عن كتاب الله المتلو - وهو هذا القرآن - وبين كتاب الكون المفتوح ؛ ويجعل الكون بجملته مصدر إيحاء للكينونة البشرية ؛ بما فيه من دلائل شاهدة بسلطان الله وتقديره وتدبيره . كما يضم إلى هذين الكتابين سجل التاريخ البشرى ، وما يحفظه من دلائل ناطقة بالسلطان والتقدير والتدبير أيضا . ويواجه الكينونة البشرية بهذا كله ويأخذ عليها أقطارها جميعا ؛ وهو يخاطب حسها وقلبها وعقلها جميعا !

وهذه السورة تحوى الكثير من النماذج الباهرة في عرض صفحات الكتاب الكوني - عقب الكتاب القرآني - في مواجهة الكينونة البشرية بجملتها . . وهذه بعض هذه النماذج :

« المر . تلك آيات الكتاب . والذى أنزل إليك من ربك الحق ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون .

« الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ؛ ثم استوى على العرش ؛ وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض ، وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل - صنوان وغير صنوان - يسقى بماء واحد ، ونفضل

بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » ..

يحشد السياق هذه المشاهد الكونية ، ليحيل الكون كله شاهدا ناطقا بسلطان الله - سبحانه - فى الخلق والإنشاء ، والتقدير والتدبير . ثم يعجّب من أمر قوم يرون هذه الشواهد كلها ، ثم يستكثرون قضية البعث والنشأة الأخرى ، ويكذبون بالوحى من أجل أنه يقرر هذه الحقيقة القريبة .. القريبة فى ظل تلك المشاهد العجيبة ..

« وإن تعجب فعجب قولهم : أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ..

• « هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا ، وينشئ السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ... » ..

يعرض هذه الصفحة من الوجود الكونى ليعجّب من أمر قوم يجادلون فى الله ويشركون به ، وهم يشاهدون آثار ربوبيته وقدرته وسلطانه ، ودينونة الكون له ، وتصريفه وتدبيره لأمر العباد فيه ؛ وعجز كل من عداه - سبحانه - عن الخلق والتدبير والتقدير :

« وهم يجادلون فى الله ، وهو شديد المحال . له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه - وماهو ببالغه - ومادعاء الكافرين إلا فى ضلال . ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعا وكرها . وظلالهم بالغدو والآصال .. قل : من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله . قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟ قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل : الله خالق كل شىء ، وهو الواحد القهار » .

وهكذا يستحيل الكون معرضا باهرا لدلائل القدرة وموحيات الإيمان ، يخاطب الفطرة بالمنطق الشامل العميق ؛ ويخاطب الكينونة البشرية جملة ، بكل مافيها من قوى الإدراك الباطنة والظاهرة ، فى تناسق عجيب .

Marfat.com

ثم يضيف إلى صفحات الكتاب الكونى ، صفحات التاريخ الإنسانى؛ ويعرض آثار القدرة والسلطان والهيمنة والقهر والتقدير والتدبير فى حياة الإنسان :

◆ « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات ! » . .

◆ « الله يعلم ماتحمل كل أنثى ، وماتغيض الأرحام وماتزداد ، وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار له معقبات من بين يديه ومن خلفه - يحفظونه - من أمر الله ، إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، ومالهم من دونه من وال » . .

◆ « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وفرحوا بالحياة الدنيا ، وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع » . .

◆ « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله ، إن الله لايخلف الميعاد . ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فأمليت للذين كفروا ، ثم أخذتهم ، فكيف كان عقاب ؟ » .

◆ « أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟ والله يحكم لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب » .

◆ « وقد مكر الذين من قبلهم ، فلله المكر جميعا ، يعلم ماتكسب كل نفس ، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ! » .

وهكذا يحشد المنهج القرآنى هذه الشواهد والدلائل فى التاريخ البشرى ؛ ويحيلها إلى مؤثرات وموحيات ، تخاطب الكينونة البشرية بجملتها فى تناسق واتساق .

ونقف من هـذا الحشد على معلم من معالم هـذا المنهج فى الدعوة إلى الله - على بصيرة - دعوة تخاطب الكينونة البشرية بجملتها ، ولا تخاطب فيها جانبا واحدا من قواها المدركة . . جانب الفكر والذهن ، أو جانب الإلهام والبصيرة ، أو جانب الحس والشعور . .

وهذا القرآن ينبغى أن يكون هو كتاب هذه الدعوة ، الذى يعتمد عليه الدعاة إلى الله ،

Marfat.com

قبل الاتجاه إلى أى مصدر سواه . والذى ينبغى لهم بعد ذلك أن يتعلموا منه كيف يدعون الناس ، وكيف يوقظون القلوب الغافية ، وكيف يحيون الأرواح الخامدة .

إن الذى أوحى بهذا القرآن هو الله ، خالق هذا الإنسان ، العليم بطبيعة تكوينه ، الخبير بدروب نفسه ومنحنياتها . . وكما أن الدعاة إلى الله يجب أن يتبعوا منهج الله فى البدء بتقرير ألوهية الله - سبحانه - وربوبيته وحاكميته وسلطانه ؛ فإنهم كذلك يجب أن يسلكوا إلى القلوب طريق هذا القرآن فى تعريف الناس بربهم الحق - على ذلك النحو - كيما تنتهى هذه القلوب إلى الدينونة لله وحده ، والاعتراف بربوبيته المتفردة وسلطانه . .

* * *

ولتعريف الناس بربهم الحق ، ونفى كل شبهة شرك ، يعنى المنهج القرآنى ببيان طبيعة الرسالة ، وطبيعة الرسول . . ذلك أن انحرافات كثيرة فى التصور الاعتقادى جاءت لأهل الكتاب من قبل ، من جراء الخلط بين طبيعة الألوهية وطبيعة النبوة - وبخاصة فى العقائد النصرانية - حيث خلعت على عيسى - عليه السلام - خصائص الألوهية وخصائص الربوبية ؛ ودخل أتباع شتى الكنائس فى متاهة من الخلافات العقيدية المذهبية بسبب ذلك الخلط المنافى للحقيقة .

ولم تكن عقائد النصارى وحدهم هى التى دخلت فى تلك المتاهة ؛ فقد خبطت شتى الوثنيات فى ذلك التيه ؛ وتصورت للنبوة صفات غامضة ؛ بعضها يصل بين النبوة والسحر ! وبعضها يصل بين النبوة والتنبؤات الكشفية ! وبعضها يصل بين النبوة والجن والأرواح الخفية !

وكثير من هذه التصورات كان يخالج الوثنية العربية . . من أجل هذا كان بعضهم يطلب من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن ينبئهم بالغيب ! وبعضهم كان يقترح أن يصنع لهم خوارق مادية معينة ! كما أنهم كانوا يرمونه - صلى الله عليه وسلم - بأنه ساحر ، وبأنه « مجنون » - أى على صلة بالجن ! - وبعضهم كان يطلب أن يكون معه ملك . . . إلى آخر هذه المقترحات والتحديات والاتهامات التى كانت متلبسة بالتصورات الوثنية عن طبيعة النبى وطبيعة النبوة !

Marfat.com

ولقد جاء هذا القرآن ليجلي الحقيقة كاملة عن طبيعة النبوة وطبيعة النبي ؛ وعن طبيعة الرسالة وطبيعة الرسول ؛ وعن حقيقة الألوهيـة المتمثلة في الله وحده ـ سبحانه ـ وحقيقة العبودية التي تشمل كل ماخلق الله وكل من خلق ؛ ومنهم أنبياء الله ورسله ؛ فهم عباد صالحون؛ وليسوا خلقا آخر غير البشر ؛ وليس لهم من خصائص الألوهية شيء ؛ وليسوا على اتصال بعوالم الجن والخفاء المسحور ! إنما هو الوحي من الله ـ سبحانه ـ وليس لهم وراءه شيء من القدرة على الخوارق ـ إلا بإذن الله حين يشاء ـ فهم بشر من البشر ، وقع عليهم الاختيار ، وبقيت لهم بشريتهم وعبوديتهم لله ـ سبحانه ـ كبقية خلق الله .

وفي هـذه السورة نماذج من تجلية طبيعة النبوة والرسالة ؛ وحـدود النبي والرسول ؛ وتخليص العقول والأفـكار من رواسب الوثنيات كلها ؛ وتحريرها من تلك الأساطير التي أفسدت عقائد أهل الـكتاب من قبل ؛ وردتها إلى الوثنية بأوهامها وأساطيرها !

وقد كانت تلك التجلية تواجه تحديات المشركين الواقعية ؛ ولم تـكن جدلا ذهنيا ، ولا بحثا فلسفيا « ميتا فيزيقيا » ! . . كانت « حركة » تواجه « الواقع » وتجاهده مجـاهدة واقعيـة :

◆ « ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليـه آية من ربه ! إنما أنت منذر ، ولـكل قوم هاد » . .

◆ « ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! قل : إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب » . .

◆ « كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن ، قل : هو ربي ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وإليه متاب » . .

◆ « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، وجعلنا لهم أزواجا وذرية ، وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ، لـكل أجل كتاب » . .

◆ « وإما نرينك بعض الذي نعـدهم أو نتوفينك ، فإنما عليـك البلاغ وعلينا الحساب » . .

Marfat.com

وهكذا تتجلى طبيعة الرسالة وحدود الرسول . . إنما هو منذر ، ليس عليه إلا البلاغ ، وليس له إلا أن يتلو ماأوحى إليه ، وما كان له أن يأتى بخارقة إلا بإذن الله . ثم هو عبد لله ، الله ربه ، وإليه متابه ومآبه ؛ وهو بشر من البشر يتزوج وينسل ؛ ويزاول بشريته كاملة بكل مقتضيات البشرية ؛ كما يزاول عبوديته لله كاملة بكل مقتضيات العبودية . .

وبهذه النصاعة الكاملة فى العقيدة الإسلامية تنتهى تلك الأوهام والأساطير المهومة فى الفضاء والظلام ، حول طبيعة النبوة وطبيعة النبى ، وتخلص العقيدة من تلك التصورات المحيرة التى حفلت بها العقائد الكنسية كما حفلت بها شتى العقائد الوثنية ؛ والتى قضت على « المسيحية » منذ القرن الأول لها أن تكون إحدى العقائد الوثنية فى طبيعتها وحقيقتها ، بعد ما كانت عقيدة سماوية على يد المسيح عليه السلام ؛ تجعل المسيح عبداً لله ؛ لايأتى بآية إلا بإذن الله .

ولا ننتهى من هذه الوقفة قبل أن نلم بتلك اللفتة البارزة فى قوله تعالى :

« وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » . .

إن هذا القول إنما يقال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرسول الذى أوحى إليه من ربه . وكلف مخاطبة الناس بهذه العقيدة . . وخلاصة هذا القول : أن أمر هذا الدين ليس إليه هو ، ومآل هذه الدعوة ليس من اختصاصه ! إنما عليه البلاغ وليس عليه هداية الناس . فالله وحده هو الذى يملك الهداية . وسواء حقق الله بعض وعده له من مصير القوم أو أدركه الأجل قبل تحقيق وعد الله ، فهذا أو ذاك لايغير من طبيعة مهمته . . البلاغ . . وحسابهم بعد ذلك على الله . . وليس بعد هذا تجريد لطبيعة الداعية وتحديد لمهمته . فواجبه محدد ، والأمر كله فى هذه الدعوة وفى كل شىء آخر لله .

بذلك يتعلم الدعاة إلى الله أن يتادبوا فى حق الله ! إنه ليس لهم أن يستعجلوا النتائج والمصائر . . ليس لهم أن يستعجلوا هداية الناس ، ولا أن يستعجلوا وعد الله ووعيده للمهتدين وللمكذبين . . ليس لهم أن يقولوا : لقد دعونا كثيرا فلم يستجب لنا إلا القليل ؛ أو لقد صبرنا طويلا فلم يأخذ الله الظالمين بظلمهم ونحن أحياء ! . . إنْ عليهم إلا البلاغ . .

Marfat.com

أما حساب الناس فى الدنيا أو فى الآخرة فهذا ليس من شأن العبيد . إنما هو من شأن الله ! فينبغى – تأدبا فى حق الله واعترافا بالعبودية له – أن يترك له سبحانه ، يفعل فيه مايشاء ويختار . .

والسورة مكية . . من أجل ذلك تحدد فيها وظيفة الرسول – صلى الله عليه وسلم – « بالبلاغ » . . ذلك أن « الجهاد » لم يكن بعد قد كتب . فأما بعد ذلك فقد أمر بالجهاد – بعد البلاغ – وهذا ماتنبغى ملاحظته فى الطبيعة الحركية لهذا الدين . فالنصوص فيه نصوص حركية؛ مواكبة لحركة الدعوة وواقعها ؛ وموجهة كذلك لحركة الدعوة وواقعها . . وهذا ماتغفل عنه كثرة « الباحثين » فى هذا الدين فى هذا الزمان . وهم يزاولون « البحث » ولا يزاولون « الحركة » فلا يدركون – من ثم – مواقع النصوص القرآنية ، وارتباطها بالواقع الحركى لهذا الدين !

وكثيرون يقرأون مثل هذا النص : « إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » ثم يأخذون منه أن مهمة الدعاة إلى الله تنتهى عند البلاغ . فإذا قاموا « بالتبليغ » فقد أدوا ماعليهم ! . . أما « الجهاد » ! فلا أدرى – والله – أين مكانه فى تصور هؤلاء !

كما أن كثيرين يقرأون مثل هذا النص ، فلا يلغون به الجهاد ، ولكن يقيدونه ! . . دون أن يفطنوا إلى أن هذا نص مكى نزل قبل فرض الجهاد . ودون أن يدركوا طبيعة ارتباط النصوص القرآنية بحركة الدعوة الإسلامية . ذلك أنهم هم لايزاولون الحركة بهذا الدين ؛ إنما هم يقرأونه فى الأوراق وهم قاعدون ! وهذا الدين لايفقهه القاعدون . فما هو بدين القاعدين !

على أن « البلاغ » يظل هو قاعدة عمل الرسول ، وقاعدة عمل الدعاة بعده إلى هذا الدين . وهذا البلاغ هو أول مراتب الجهاد . فإنه متى صح ، واتجه إلى تبليغ الحقائق الأساسية فى هذا الدين قبل الحقائق الفرعية . . أى متى اتجه إلى تقرير الألوهية والربوبية والحاكمية لله وحده منذ الخطوة الأولى ؛ واتجه إلى تعبيد الناس لله وحده ، وقصر دينونتهم عليه وخلع الدينونة لغيره . . فإن الجاهلية لابد أن تواجه الدعاة إلى الله ، للبلغين التبليغ الصحيح ،

Marfat.com

بالإعراض والتحدى ، ثم بالإيذاء والمكافحة . . . ومن ثم تجىء مرحلة الجهاد فى حينها ، نتاجا طبيعيا للتبليغ الصحيح لا محالة : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين ، وكفى بربك هادياً ونصيرا » . .

هذا هو الطريق . . . وليس هنالك غيره من طريق !

* * *

ثم نقف من السورة أمام معلم آخر ، وهى تقرر كلمة الفصل فى العلاقة بين اتجاه الإنسان » وحركته وبين تحديد مآله ومصيره ؛ وتقرير أن مشيئة الله به إنما تتحقق من خلال حركته بنفسه ؛ وذلك مع تقرير أن كل حدث إنما يقع ويتحقق بقدر من الله خاص . . ومجموعة النصوص الخاصة بهذا الموضوع فى السورة كافية بذاتها لجلاء النظرة الإسلامية فى هذه القضية الخطيرة . . وهذه نماذج منها كافية :

◆ « إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » . .

◆ « للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به ، أولئك لهم سوء الحساب ، ومأواهم جهنم وبئس المهاد » . .

◆ « قل : إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . .

◆ « أفلم ييئس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ؟ ! » . .

◆ « بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ، ومن يضلل الله فما له من هاد » . .

وواضح من النص الأول من هذه النصوص أن مشيئة الله فى تغيير حال قوم إنما تجرى وتنفذ من خلال حركة هؤلاء القوم بأنفسهم ، وتغيير اتجاهها وسلوكها تغييرا شعوريا وعمليا . فإذا غير القوم ما بأنفسهم اتجاها وعملا غير الله حالهم وفق ما غيروا هم من أنفسهم . فإذا

Marfat.com

اقتضى حالهم أن يريد الله بهم السوء مضت إرادته ولم يقف لها أحـد ، ولم يعصمهم من الله شيء ، ولم يجدوا لهم من دونه وليا ولا نصيرا .

وأما إذا هم استجابوا لربهم ، وغيروا ما بأنفسهم بهـذه الاستجابة ، فإن الله يريد بهم الحسنى ، ويحقق لهم هذه الحسنى فى الدنيـا أو فى الآخرة ، أو فيهما جميعا ، فإذا لم يستجيبوا أراد بهم السوء ، وكان لهم سوء الحساب ، ولم تغن عنهم فدية إذا جاءوه ـ غير مستجيبين ـ يوم الحساب !

وواضح من النص الثانى أن الاستجابة أو عدم الاستجابة راجعة إلى اتجاههم وحركتهم ؛ وأن مشيئة الله بهم إنما تتحقق من خلال هذه الحركة وذلك الاتجاه .

أما النص الثالث فإن مطلعه يتحدث عن طلاقة مشيئة الله فى إضـلال من يشاء . ولـكن عقب النص : « ويهدى إليه من أناب . . . الخ » يقرر أن الله ـ سبحانه ـ يقضى بالهدى لمن ينيب إليه ؛ فيدل هـذا على أنه إنما يضل من لاينيب ومن لا يستجيب ، ولا يضل منيبـا ولا مستجيبا . وذلك وفق وعده سبحانه فى قوله : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » . فهذه الهداية وذلك الإضلال هما مقتضى مشيئته سبحانه بالعباد . هذه المشيئة التى تجرى وتتحقق من خلال تغيير العباد ما بأنفسهم ، والاتجاه إلى الاستجابة أو الإعراض .

والنص الرابع يقرر أن الله لوشاء لهـدى الناس جميعا . . وفى ظـل مجموع النصوص يتضـح أن المقصود هو أنه لوشاء سبحانه لخلق الناس باستعداد واحـد للهدى ، أو لقهرهم على الهدى . ولـكنه ـ سبحانه ـ شاء أن يخلقهم كما خلقهم مستعدين للهدى أو للضلال ؛ ولم يشأ بعـد ذلك أن يقهرهم على الهدى ولا أن يقهرهم على الضـلال ـ حاشاه ! ـ إنما جعـل مشيئته بهم تجرى من خلال استجابتهم أو عـدم استجابتهم لدلائل الهدى وموحيات الإيمـان .

أما النص الخامس فيقرر أن الذين كفروا زُين لهم مكرهم وصُدوا عن السبيل . . وأخذ أمثال هذا النص بمفرده هو الذى ساق إلى الجدل المعروف فى تاريخ الفكر الإسلامى حول الجبر والاختيار . أما أخذه مع مجموعة النصوص ـ كما رأينا ـ فإنه يعطى التصور الشامل :

Marfat.com

Marfat.com

وهو أن هذا التزيين وهذا الصد عن السبيل ، إنما كان من جراء الكفر وعدم الاستجابة لله. أى من جراء تغيير الكفار مابأنفسهم إلى مايقتضى أن تجرى مشيئة الله فيهم بالتزيين والصد والإضلال .

وتبقى تكملة لابد منها لجلاء هذا الموضوع الذى كثر فيه الجدل فى جميع الملل . . ذلك أن اتجاه الناس بأنفسهم لايوقع بذاته مصائرهم . فهذه المصائر أحداث لاينشئها إلا قدر الله ؛ وكل حادث فى هذا الكون إنما ينشأ ويقع ويتحقق بقدر من الله خاص ؛ تتحقق به إرادته وتتم به مشيئته : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » . . وليست هنالك آلية فى نظام الكون كله ، ولا حتمية أسباب تنشئ بذاتها آثارا . فالسبب كالأثر كلاهما مخلوق بقدر . . وكل مايصنعه اتجاه الناس بأنفسهم هو أن تجرى مشيئة الله بهم من خلال هذا الاتجاه ، أما جريان هذه المشيئة وآثاره الواقعية فإنما يتحقق بقدر من الله خاص بكل حادث : « وكل شىء عنده بمقدار » .

وهذا التصور - كما أسلفنا عند مواجهة النص فى سياق السورة - يزيد من ضخامة التبعة الملقاة على هذا الكائن الإنسانى ؛ بقدر ما يجلو من كرامته فى نظام الكون كله . فهو وحده المخلوق الذى تجرى مشيئة الله به من خلال اتجاهه وحركته . . وما أثقلها من تبعة ! وما أعظمها كذلك من كرامة ! (1)

* * *

وفى السورة كلة الفصل كذلك فى دلالة الكفر وعدم الاستجابة لهذا الحق الذى جاء به هذا الدين ، على فساد الكينونة البشرية ، وتعطل أجهزة الاستقبال الفطرية فيها ، واختلال طبيعتها وخروجها عن سوائها . فما يمكن أن تكون هناك بنية إنسانية سوية ، غير مطموسة ولا معطلة ولا مشوهة ؛ ثم يعرض عليها هذا الحق ، ويبين لها بالصورة التى بينها بها المنهج القرآنى ؛ ثم لاتستجيب لهذا الحق بالإيمان والإسلام . والفطرة الإنسانية بطبيعتها مصطلحة

(1) يراجع بتوسع فصل : « حقيقة الإنسان » فى القسم الثانى من كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » .

على هذا الحق فى أعماقها ؛ فإذا صُدت عنه فإنما يصدها صاحبها لآفة فيه تجعله يختار لنفسه غير هذا الهدى ؛ وتجعله بذلك مستحقا للضلال ، ومستحقا للعذاب ، كما قال الله سبحانه فى السورة الأخرى : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » . .

وفى هذه السورة ترد أمثال هذه الآيات الدالة على طبيعة الكفر فتقرر أنه عمًى وانطماس بصيرة ، وأن الهدى دلالة على سلامة الكينونة البشرية من هذا العمى ، ودلالة على سلامة القوى المدركة فيها ؛ وأن فى صفحة هذا الكون من الدلائل ما يبين عن الحق لمن يتفكرون ولمن يعقلون :

◆ « أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدرأون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار . . . » . .

◆ « ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! قل : إن الله يضل من يشاء ، ويهدى إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » . .

◆ « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . .

وهكذا يتقرر أن الذين لا يستجيبون لهذا الحق هم – بشهادة الله سبحانه – عُمْى . وأنهم لايتفكرون ولا يعقلون . وأن الذين يستجيبون له هم أولو الألباب ، وهؤلاء تطمئن قلوبهم بذكر الله ، وتتصل بما هى عارفة له ومصطلحة عليه بفطرتها العميقة ، فتسكن وتستريح .

Marfat.com

Marfat.com

وإن الإنسان ليجد مصداق قول الله هذا فى كل من يلقاه من الناس معرضا عن هذا الحق الذى تضمنه دين الله ، والذى جاء به فى صورته الكاملة محمد رسول الله . . فإن هى إلا جبلات مؤوفة مطموسة . وإن هى إلا كينونات معطلة فى أهم جوانبها بحيث لاتتلقى إيقاعات هـذا الوجود كله من حولها ، وهو يسبح بحمد ربه ؛ وينطق بوحدانيته وقدرته وتدبيره وتقديره .

وإذا كان الذين لايؤمنون بهذا الحق عُمياً – بشهادة الله سبحانه – فإنه لاينبغى لمسلم يزعم أنه يؤمن برسول الله ، ويؤمن بأن هذا القرآن وحى من عند الله . . لاينبغى لمسلم يزعم هذا الزعم أن يتلقى فى شأن من شؤون الحياة عن أعمى ! وبخاصة إذا كان هـذا الشأن متعلقا بالنظام الذى يحكم حياة الإنسان ؛ أو بالقيم والموازين التى تقوم عليها حياته ؛ أو بالعادات والسلوك والتقاليد والآداب التى تسود مجتمعه . .

وهذا هو موقفنا من نتاج الفكر – غير الإسلامى – بجملته – فيما عدا العلوم المادية البحتة وتطبيقاتها العملية مما قصده رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بقوله : « أنتم أعلم بشؤون دنياكم » . فإنه مايبنغى قط لمسلم يعرف هدى الله ويعرف هذا الحق الذى جاء به رسول الله ، أن يقعد مقعد التلميذ الذى يتلقى من أى إنسان لم يستجب لهذا الهدى ولم يعلم أنه الحق . . فهو أعمى بشهادة الله سبحانه . . ولن يرد شهادة الله مسلم . . ثم يزعم بعد ذلك أنه مسلم ! ! !

إنه لابد لنا أن نأخذ هذا الدين مأخذ الجد ؛ وأن نأخذ تقريراته هذه مأخذ الجزم . . وكل تميع فى مثل هـذه القضية هو تميع فى العقيدة ذاتها ؛ إن لم يكن هو رد شهادة الله – سبحانه – وهو الكفر البواح فى هذه الصورة !

وأعجب العجب أن ناسا من الناس اليوم يزعمون أنهم مسلمون ؛ ثم يأخذون فى منهج الحياة البشرية عن فلان وفلان من الذين يقول عنهم الله سبحانه : إنهم عُمى . ثم يظلون يزعمون بعد ذلك أنهم مسلمون !

إن هذا الدين جد لايحتمل الهزل ، وجزم لايحتمل التميع ، وحق فى كل نص فيه وفى

كل كلمة . . فمن لم يجد فى نفسه هذا الجد وهذا الجزم وهذه الثقة فما أغنى هذا الدين عنه . والله غنى عن العالمين (١) !

وما يجوز أن ينقل الواقع الجاهلى على حس مسلم ، حتى يتلقى من الجاهلية فى منهج حياته ؛ وهو يعلم أن ماجاءه به محمد - صلى الله عليه وسلم - هو الحق ؛ وأن الذى لايعلم أن هـذا هو الحق « أعمى » . ثم يتبع هذا الأعمى ، ويتلقى عنه ، بعد شهادة الله سبحانه وتعالى . .

* * *

وأخيرا نقف أمام المعلم الأخير من المعالم التى تقيمها هذه السورة لهذا الدين . .

إن هناك علاقة وثيقة بين الفساد الذى يصيب حياة البشر فى هذه الأرض وبين ذلك العمى عن الحق الذى جاء من عند الله لهداية البشر إلى الحق والصلاح والخير . فالذين لا يستجيبون لعهد الله على الفطرة ، ولا يستجيبون للحق الذى جاء من عنده ويعلمون أنه وحده الحق . . هم الذين يفسدون فى الأرض ؛ كما أن الذين يعلمون أنه الحق ويستجيبون له هم الذين يصلحون فى الأرض ، وتزكو بهم الحياة :

◆ « أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب. الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ماأمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدرأون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار . . . » . .

◆ « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض ، أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » . .

إن حياة الناس لاتصلح إلا بأن يتولى قيادتها المبصرون أولو الألباب الذين يعلمون أن ماأنزل إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - هو الحق . ومن ثم يوفون بعهد الله على الفطرة ، وبعهد الله على آدم وذريته ، أن يعبدوه وحده ، فيدينوا له وحده ، ولا يتلقوا عن غيره ، ولا

---

(١) يراجع فصل : « التصور الإسلامى والثقافة » فى كتاب : « معالم فى الطريق » .

Marfat.com

Marfat.com

يتبعوا إلا أمره ونهيه . ومن ثم يصلون ماأمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم فيخافون أن يقع منهم مانهى عنه ومايغضبه ؛ ويخافون سوء الحساب ، فيجعلون الآخرة فى حسابهم فى كل خالجة وكل حركة ؛ ويصبرون على الاستقامة على عهد الله ذلك بكل تكاليف الاستقامة ؛ ويقيمون الصلاة ؛ وينفقون مما رزقهم الله سرا وعلانية ؛ ويدفعون السوء والفساد فى الأرض بالصلاح والإحسان . .

إن حياة الناس فى الأرض لاتصلح إلا بمثل هذه القيادة المبصرة ؛ التى تسير على هدى الله وحده ؛ والتى تصوغ الحياة كلها وفق منهجه وهديه . . إنها لاتصلح بالقيادات الضالة العمياء ، التى لاتعلم أن ماأنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - هو الحق وحده ؛ والتى تتبع - من ثم - مناهج أخرى غير منهج الله الذى ارتضاه للصالحين من عباده . . إنها لاتصلح بالإقطاع والرأسمالية ، كما أنها لاتصلح بالشيوعية والاشتراكية العلمية ! . . إنها كلها من مناهج العُمْى الذين لايعلمون أن ماأنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - هو وحده الحق ، الذى لايجوز العدول عنه ،ولا التعديل فيه . . إنها لاتصلح بالثيوقراطية كما أنها لاتصلح بالديكتاتورية أو الديمقراطية ! فكلها سواء فى كونها من مناهج العُمى ، الذين يقيمون من أنفسهم أربابا من دون الله ،تضع هى مناهج الحكم ومناهج الحياة ، وتشرع للناس مالم يأذن به الله ؛ وتعبدهم لماتشرع ، فتجعل دينونتهم لغير الله . .

وآية هذا الذى نقوله - استمدادا من النص القرآنى - هو هذا الفساد الطامى الذى يعم وجه الأرض اليوم فى جاهلية القرن العشرين . وهو هذه الشقوة النكدة التى تعانيها البشرية فى مشارق الأرض ومغاربها . . سواء فى ذلك أوضاع الإقطاع والرأسمالية ، وأوضاع الشيوعية والاشتراكية العلمية ! . . وسواء فى ذلك أشكال الديكتاتورية فى الحكم أو الديمقراطية ! . . إنها كلها سواء فيما تلقاه البشرية من خلالها من فساد ومن تحلل ومن شقاء ومن قلق . . لأنها كلها سواء من صنع العُمى الذين لايعلمون أن ماأنزل على محمد من ربه هو الحق وحده ؛ ولا تلتزم - من ثم - بعهد الله وشرعه ؛ ولا تستقيم فى حياتها على منهجه وهديه .

Marfat.com

إن المسلم يرفض - بحكم إيمانه بالله وعلمه بأن ماأنزل على محمد هو الحق - كل منهج للحياة غير منهج الله ؛ وكل مذهب اجتماعي أو اقتصادي ؛ وكل وضع كذلك سياسي ، غير المنهج الوحيد ، والمذهب الوحيد ، والشرع الوحيد الذي سنه الله وارتضاه للصالحين من عباده .

ومجرد الاعتراف بشرعية منهج أو وضع أو حكم من صنع غير الله ، هو بذاته خروج من دائرة الإسلام لله ؛ فالإسلام لله هو توحيد الدينونة له دون سواه .

إن هذا الاعتراف فوق أنه يخالف بالضرورة مفهوم الإسلام الأساسي ، فهو في الوقت ذاته يسلم الخلافة في هذه الأرض للعمي الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض . . فهذا الفساد في الأرض مرتبط كل الارتباط بقيادة العمي ! . .

ولقد شقيت البشرية في تاريخها كله ؛ وهي تتخبط بين شتى المناهج وشتى الأوضاع وشتى الشرائع بقيادة أولئك العمي ،الذين يلبسون أردية الفلاسفة والمفكرين والمشرعين والسياسيين على مدار القرون . فلم تسعد قط ؛ ولم ترتفع « إنسانيتها » قط ، ولم تكن في مستوى الخلافة عن الله في الأرض قط ، إلا في ظلال المنهج الرباني في الفترات التي فاءت فيها إلى ذلك المنهج القويم(١) .

***

هذه بعض المعالم البارزة في هذه السورة ، وقفنا عندها هذه الوقفات التي لاتبلغ مداها ، ولكنها تشير إليها .

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . .

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « تخبط واضطراب » في كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » .

سورة ابراهيم مكية
وآياتها ٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السورة ـ سورة إبراهيم ـ مكية ، موضوعها الأساسى هو موضوع السور المكية الغالب : العقيدة فى أصولها الكبيرة : الوحى والرسالة والتوحيد والبعث والحساب والجزاء .

ولكن السياق فى السورة يسلك نهجا خاصا بها فى عرض هذا الموضوع وحقائقه الأصيلة . نهجا منفردا يميزها ـ كالشأن فى كل سورة قرآنية ـ عن السور غيرها . يميزها بجوها وطريقة أدائها ، والأضواء والظلال الخاصة التى تعرض فيها حقائقها الكبرى . ولون هذه الحقائق التى قد لا تفترق موضوعيا عن مثيلاتها فى السور الأخرى ؛ ولكنها تعرض من زاوية خاصة ، فى أضواء خاصة فتوحى إيحاءات خاصة . كما تختلف مساحتها فى رقعة السورة وجوها ، فتزيد أطرافا وتنقص أطرافا ، فيحسها القارئ جديدة بما وقع فيها من تجديد فى « اللقطات الفنية » . ونحن نستعمل هذا التعبير « اللقطات الفنية » لأنه يلاحظ فى صورته المعجزة فى طريقة الأداء القرآنية !

ويبدو أنه كان لجو السورة من اسمها نصيب . . إبراهيم . . أبو الأنبياء . . المبارك ، الشاكر الأواه المنيب . وكل الظلال التى تخلعها هذه الصفات ملحوظة فى جو السورة ، وفى الحقائق التى تبرزها ، وفى طريقة الأداء ، وفى التعبير والإيقاع .

ولقد تضمنت السورة عدة حقائق رئيسية فى العقيدة . ولكن حقيقتين كبيرتين تظللان جو السورة كلها . وهما الحقيقتان اللتان تتناسقان مع ظل إبراهيم فى جو السورة : حقيقة وحدة الرسالة والرسل ، ووحدة دعوتهم ، ووقفتهم أمة واحدة فى مواجهة الجاهلية المكذبة بدين الله

Marfat.com

Marfat.com

على اختلاف الأمكنة والأزمان . وحقيقة نعمة الله على البشر وزيادتها بالشكر ؛ ومقابلة أكثر الناس لها الجحود والكفران . .

وبروز هاتين الحقيقتين ، أو هذين الظلين . لا ينفى أن هناك حقائق أخرى فى سياق السورة . ولكن هاتين الحقيقتين تظللان جو السورة . وهذا ما أردنا الإشارة إليه :

تبدأ السورة ببيان وظيفة الرسول وما أوتيه من كتاب . . فهى إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله :

« كتاب أنزل إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » .

وتختم بهذا المعنى وبالحقيقة الكبرى التى تتضمنها الرسالة . حقيقة التوحيد :

« هذا بلاغ للناس ولينذروا به ، وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولو الألباب » .

وفى أثنائها يذكر أن موسى قد أرسل بمثل ما أرسل به محمد - صلى الله عليه وسلم - ولمثل ما أرسل به ، حتى فى ألفاظ التعبير :

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور » . .

ويذكر كذلك أن وظيفة الرسل عامة كانت هى البيان :

« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » . .

وتتضمن إلى جانب وظيفة الرسول بيان حقيقته البشرية ، وهى التى تحدد وظيفته . فهو مبلّغ ومنذر وناصح ومبين . ولكنه لا يملك أن يأتى بخارقة إلا بإذن الله ، وحين يشاء الله ، لا حين يشاء هو أو قومه ؛ ولا يملك كذلك أن يهدى قومه أو يضلهم ، فالهدى والضلال متعلقان بسنة الله التى اقتضتها مشيئته المطلقة .

ولقد كانت بشرية الرسل هى موضع الاعتراض من جميع الأقوام فى جاهليتهم ، والسورة هنا تحكى قولهم مجتمعين :

« قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين » .

Marfat.com

ويحكي رد رسلهم كذلك مجتمعين :

« قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده . وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله . وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

ويتضمن السياق كذلك أن إخراج الناس من الظلمات إلى النور إنما يتم « بإذن ربهم » . . وكل رسول يبين لقومه « فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ، وهو العزيز الحكيم » .

وبهذا وذلك تتحدد حقيقة الرسول ، فتتحدد وظيفته فى حدود هذه الحقيقة ، ولا تشتبه حقيقة الرسل البشرية وصفاتهم ، بشيء من حقيقة الذات الإلهية وصفاتها . وكذلك يتجرد توحيد الله بلا ظل من مماثلة أو مشابهة .

كذلك تتضمن السورة تحقق وعد الله للرسل والمؤمنين بهم إيمانا حقا . تحقق ذلك الوعد فى الدنيا بالنصر والاستخلاف ، وفى الآخرة بعذاب المكذبين ونعيم المؤمنين .

يصور السياق هذه الحقيقة الكبيرة فى نهاية للمعركة بين الرسل مجتمعين وقومهم مجتمعين فى الدنيا :

« وقال الذين كفروا لرسلهم : لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد . . واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . . » .

ويصورها فى مشاهد القيامة فى الآخرة :

« وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام » . .

« وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد ، سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار » .

ويصورها فى الأمثال التى يضربها لهؤلاء وهؤلاء :

« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى

أكلها كل حين بإذن ربها ؛ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار . يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله مايشاء » . .

« مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، لا يقدرون مما كسبوا على شىء . ذلك هو الضلال البعيد » . .

* * *

فأما الحقيقتان اللتان تظللان جو السورة ، وتتسقان مع ظلل إبراهيم : أبى الأنبياء الشكور الأواه المنيب ، وهما حقيقة وحدة الرسالة والرسل ، ووحدة دعوتهم ، ووقفتهم أمة واحدة فى مواجهة الجاهلية المكذبة . وحقيقة نعمة الله على البشر كافة وعلى المختارين منهم بصفة خاصة . فنفردهما هنا بالحديث .

فأما الحقيقة الأولى فيبرزها السياق فى معرض فريد فى طريقة الأداء . لقد أبرزها سياق بعض السور الماضية فى صورة توحيد الدعوة التى يجىء بها كل رسول ، فيقول كلمته لقومه ويمضى ، ثم يجىء رسول ورسول . كلهم يقولون الكلمة ذاتها ، ويلقون الرد ذاته ، ويصيب المكذبين مايصيبهم فى الدنيا ، ويُنظر بعضهم ويمهل إلى أجل فى الأرض أو إلى أجل فى يوم الحساب . ولكن السياق هناك كان يعرض كل رسول فى مشهد ، كالشريط المتحرك منذ الرسالات الأولى . وأقرب مثل لهذا النسق سورة الأعراف وسورة هود .

فأما سورة إبراهيم ـ أبى الأنبياء ـ فتجمع الأنبياء كلهم فى صف وتجمع الجاهليين كلهم فى صف . وتجرى المعركة بينهم فى الأرض ، ثم لاتنتهى هنا ، بل تتابع خطواتها كذلك فى يوم الحساب !

ونبصر فنشهد أمة الرسل ، وأمة الجاهلية ، فى صعيد واحد ، على تباعد الزمان والمكان . فالزمان والمكان عرضان زائلان ، أما الحقيقة الكبرى فى هذا الكون ـ حقيقة الإيمان والكفر ـ فهى أضخم وأبرز من عرضى الزمان والمكان :

Marfat.com

Marfat.com

« ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود . والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله. جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم ، وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم : أفى الله شك فاطر السماوات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم . ويؤخركم إلى أجل مسمى ؟ قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله. وعلى الله فليتوكل المؤمنون . ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا . وعلى الله فليتوكل المتوكلون . وقال الذين كفروا لرسلهم : لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا . فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد .

« واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ، يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان ، وما هو بميت ، ومن ورائه عذاب غليظ » . .

فها هنا تتجمع الأجيال من لدن نوح وتتجمع الرسل ؛ ويتلاشى الزمان والمكان ؛ وتبرز الحقيقة الكبرى : حقيقة الرسالة وهى واحدة . واعتراضات الجاهليين عليها وهى واحدة . وحقيقة نصر الله للمؤمنين وهى واحدة . وحقيقة استخلاف الله للصالحين وهى واحدة وحقيقة الخيبة والخذلان للمتجبرين وهى واحدة . وحقيقة العذاب الذى ينتظرهم هناك وهى واحدة.. وذلك إلى التماثل بين قول الله لمحمد – صلى الله عليه وسلم – :

« كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » . .

وحكاية قوله لموسى – عليه السلام – :

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور »

ولا تنتهى المعركة بين الكفر والإيمان هنا بل يتابع السياق خطواته بها إلى ساحة

الآخرة . فتبرز معالمها فى مشاهد القيامة المتنوعة التى تتضمنها السورة . وهذه نماذج منها :

« وبرزوا لله جميعا ، فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعا ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء ؟ قالوا : لوهدانا الله لهديناكم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص . وقال الشيطان لما قضى الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان ، إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخىّ ، إنى كفرت بما أشركتمون من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم . وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم ، تحيتهم فيها سلام » ..

« ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مهطعين مقنعى رؤوسهم لايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء » ..

« وقد مكروا مكرهم، وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله . إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، وبرزوا لله الواحد القهار ، وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد . سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار » ...

وهى كلها تشير إلى أنها معركة واحدة تبدأ فى الدنيا وتنتهى فى الآخرة ، وتكمل إحداها الأخرى بلا انقطاع ولا انفصال .

وتكمل الأمثال التى تبدأ فى الدنيا وتنتهى فى الآخرة كذلك إبراز معالم للمعركة بين الفريقين ، ونتائجها الأخيرة : مثل الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة : شجرة النبوة ، وشجرة الإيمان ، وشجرة الخير . والكلمة الخبيثة : كالشجرة الخبيثة : شجرة الجاهلية والباطل والتكذيب والشر والطغيان .

* * *

وأما الحقيقة الثانية المتعلقة بالنعمة والشكر والبطر فتطبع جو السورة كله ، وتتناثر فى سياقها .

Marfat.com

Marfat.com

يعدد الله نعمه على البشر كافة ، مؤمنهم وكافرهم ، صالحهم وطالحهم ، برهم وفاجرهم ، طائعهم وعاصيهم . وإنها لرحمة من الله وسماحة وفضل أن يتيح للكافر والفاجر و لعاصى نعمه فى هذه الأرض ، كالمؤمن والبار والطائع : لعلهم يشكرون . ويعرض هذه النعمة فى أضخم مجالى الكون وأبرزها ، ويضعها داخل إطار من مشاهد الوجود العظيمة :

« الله الذى خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ؛ وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ماسألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها . إن الإنسان لظلوم كفار » .

وفى إرسال الرسل للناس نعمة تعدل تلك أو تربو عليها :

« كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » . .

والنور أجل نعم الله فى الوجود . والنور هنا هو النور الأكبر . النور الذى يشرق به كيان الإنسان ، ويشرق به الوجود فى قلبه وحسه . . وكذلك كانت وظيفة موسى فى قومه . ووظيفة الرسل كما بينها السورة .

وفى قول الرسل مجتمعين :

« يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم » . .

والدعوة لأجل الغفران نعمة تعدل نعمة النور ، وهى منه قريب . .

وفى جو الحديث عن النعمة يذكّر موسى قومه بأنعم الله عليهم :

« وإذ قال موسى لقومه : اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ؛ فى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » .

وفى هذا الجو يذكر وعد الله للرسل :

« فأوحينا إليهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد » . .

وهى نعمة من نعم الله الكثار الكبار .

Marfat.com

ويبرز السياق حقيقة زيادة النعمة بالشكر :

« وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » . .

مع بيان أن الله غني عن الشكر وعن الشاكرين :

« إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد » .

ويقرر السياق أن الإنسان في عمومه لا يشكر النعمة حق الشكر :

« وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » . .

ولكن الذين يتدبرون آيات الله ، وتتفتح لها بصائرهم يصبرون على البأساء ويشكرون على النعماء :

« إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

ويمثل الصبر والشكر في شخص إبراهيم في موقف خاشع ، وفي دعاء واجف ، عند بيت الله الحرام ، كله حمد وشكر وصبر ودعاء .

« وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيرا من الناس ، فمن تبعني فإنه مني ، ومن عصاني فإنك غفور رحيم . ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن ، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء . الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء . رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ، ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » . .

ولأن النعمة والشكر عليها والكفر بها تطبع جو السورة تجيء التعبيرات والتعليقات فيها متناسقة مع هذا الجو :

« وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » . .

« إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » . .

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار » . .

Marfat.com

« واذكروا نعمة الله عليكم » . .

« الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق » . .

وفى رد الأنبياء على اعتراض المكذبين بأنهم بشر يجىء :

« ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » . .

فيبرز منة الله تنسيقا للرد مع جو السورة كله . جو النعمة والمنة والشكر والكفران . .

وهكذا يتساوق التعبير اللفظى مع ظلال الجو العام فى السورة كلها على طريقة التناسق الفنى فى القرآن . .

* * *

وتنقسم السورة إلى مقطعين متماسكى الحلقات :

المقطع الأول يتضمن بيان حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول . ويصور المعركة بين أمة الرسل وفرقة المكذبين فى الدنيا وفى الآخرة ، ويعقب عليها بمثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة .

والمقطع الثانى يتحدث عن نعم الله على البشر ، والذين كفروا بهذه النعمة وبطروا . والذين آمنوا بها وشكروا . ونموذجهم الأول هو إبراهيم . ويصور مصير الظالمين الكافرين بنعمة الله فى سلسلة من أعنف مشاهد القيامة وأجملها ، وأحفلها بالحركة والحياة . . ليختم السورة ختاما يتسق مع مطلعها :

« هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولو الألباب » . .

فلنأخذ فى السير مع المقطع الأول فى السياق :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الر . كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ - بِإِذْنِ رَبِّهِمْ - إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ① ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ؛ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ ، وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ، وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا . أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ * وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ، فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ : أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ، وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ : ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ، وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ؛ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَىٰٓ : إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ .

« أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ؟ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ، فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ ، وَقَالُوٓا۟ : إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ، وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ : أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ؟ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن

Marfat.com

ذُنُوبِكُمْ ؛ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى . قَالُوٓا : إِنْ أَنتُمْ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ، تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ، فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ : إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ، وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ؟ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ؛ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ : لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا . فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ . ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ .

« وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ ، وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ؛ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ، وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ، وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ .

« مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ، لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ . ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ .

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ؟ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ .

« وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا ، فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ، فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ؟ قَالُوا۟ : لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ، سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا ، مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ * وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ : إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ ، وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ، فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم ، مَّآ أَنَا

Marfat.com

بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ، إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ، إِنَّ
ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

« وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ،
خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ، تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ .

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ
وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ، ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ
ٱلْأَرْضِ ، مَا لَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ، وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ، وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ » ٢٧

« الر . كتاب أنزل إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد . الله الذى له مافى السماوات ومافى الأرض ، وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، أولئك فى ضلال بعيد . وماأرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ، ويهدى من يشاء ، وهو العزيز الحكيم » . .

ألف . لام . را . . « كتاب أنزلناه إليك » . .

هذا الكتاب المؤلف من جنس هذه الأحرف كتاب أنزلناه إليك . لم تنشئه أنت . أنزلناه إليك لغاية :

« لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » . .

لتخرج هذه البشرية من الظلمات . ظلمات الوهم والخرافة . وظلمات الأوضاع والتقاليد. وظلمات الحيرة فى تيه الأرباب المتفرقة ، وفى اضطراب التصورات والقيم والموازين . . لتخرج

Marfat.com

البشرية من هذه الظلمات كلها إلى النور . النور الذى يكشف هذه الظلمات . يكشفها فى عالم الضمير وفى دنيا التفكير . ثم يكشفها فى واقع الحياة والقيم والأوضاع والتقاليد .

والإيمان بالله نور يشرق فى القلب ، فيشرق به هذا الكيان البشرى ، المركب من الطينة الغليظة ومن نفخة روح الله . فإذا ماخلا من إشراق هذه النفخة ، وإذا ماطمست فيه هذه الإشراقة استحال طينة معتمة . طينة من لحم ودم كالبهيمة ، فاللحم والدم وحدهما من جنس طينة الأرض ومادتها . لولا تلك الإشراقة التى تنتفض فيه من روح الله ، يرقرقها الإيمان ويجلوها ، ويطلقها تشف فى هذا الكيان المعتم . ويشف بها هذا الكيان المعتم .

والإيمان بالله نور تشرق به النفس ، فترى الطريق . ترى الطريق واضحة إلى الله ، لايشوبها غبش ولا يحجبها ضباب . غبش الأوهام وضباب الخرافات . أو غبش الشهوات وضباب الأطماع . ومتى رأت الطريق سارت على هدى لاتتعثر ولا تضطرب ولا تتردد ولا تحتار .

والإيمان بالله نور تشرق به الحياة . فإذا الناس كلهم عباد متساوون . تربط بينهم آصرتهم فى الله وتتمحض دينونتهم له دون سواه ، فلا ينقسمون إلى عبيد وطغاة . وتربطهم بالكون كله رابطة المعرفة . معرفة الناموس المسير لهذا الكون ومافيه ومن فيه . فإذا هم فى سلام مع الكون ومافيه ومن فيه .

والإيمان بالله نور . نور العدل . ونور الحرية . ونور المعرفة . ونور الأنس بجوار الله ، والاطمئنان إلى عدله ورحمته وحكمته فى السراء والضراء . ذلك الاطمئنان الذى يستتبع الصبر فى الضراء والشكر فى السراء على نور من إدراك الحكمة فى البلاء .

والإيمان بالله وحده إلها وربا ، منهج حياة كامل لامجرد عقيدة تعمر الضمير وتسكب فيه النور . . منهج حياة يقوم على قاعدة العبودية لله وحده ، والدينونة لربوبيته وحده ، والتخلص من ربوبيات العبيد ، والاستعلاء على حاكمية العبيد . .

وفى هذا المنهج من المواءمة مع الفطرة البشرية ، ومع الحاجات الحقيقية لهذه الفطرة ،

Marfat.com

مايملأ الحياة سعادة ونورا وطمأنينة وراحة . كما أن فيه من الاستقرار والثبات عاصما من التقلبات والتخبطات التى تتعرض لها المجتمعات التى تخضع لربوبية العبيد ، وحاكمية العبيد ، ومناهج العبيد فى السياسة والحكم وفى الاقتصاد والاجتماع ، وفى الخلق والسلوك ، وفى العادات والتقاليد .. وذلك فوق صيانة هذا المنهج للطاقة البشرية أن تبذل فى تأليه العبيد ، والطبل والزمر للطواغيت !!!

وإن وراء هذا التعبير القصير : « لتخرج الناس من الظلمات إلى النور .. » لآفاقا بعيدة لحقائق ضخمة عميقة فى عالم العقل والقلب . وفى عالم الحياة والواقع ، لايبلغها التعبير البشرى ولكنه يشير !

« لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » .. « بإذن ربهم » ..

فليس فى قدرة الرسول إلا البلاغ ، وليس من وظيفته إلا البيان . أما إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، فإنما يتحقق بإذن الله ، وفق سنته التى ارتضنها مشيئته ، وما الرسول إلا رسول !

« لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم » .. « إلى صراط العزيز الحميد » ..

فالصراط بدل من النور . وصراط الله : طريقه ، وسنته ، وناموسه الذى يحكم الوجود وشريعته التى تحكم الحياة . والنور يهدى إلى هذا الصراط ، أو النور هو الصراط . وهو أقوى فى المعنى . فالنور المشرق فى ذات النفس هو المشرق فى ذات الكون . هو السنة . هو الناموس . هو الشريعة . والنفس التى تعيش فى هذا النور لاتخطىء الإدراك ولا تخطىء التصور ولا تخطىء السلوك . فهى على صراط مستقيم .. « صراط العزيز الحميد » .. مالك القوة القاهر المسيطر المحمود المشكور .

والقوة تبرز هنا لتهديد من يكفرون . والحمد يبرز لتذكير من يشكرون .. ثم يعقبها التعريف بالله سبحانه . إنه مالك مافى السماوات ومافى الأرض ، الغنى عن الناس ، المسيطر على الكون وما فيه ومن فيه :

« الله الذى له مافى السماوات ومافى الأرض » ..

Marfat.com

Marfat.com

فمن خرج واهتدى فذاك. ولا يذكر عنه شيئا هنا ، إنما يمضى السياق إلى تهديد الكافرين ينذرهم بالويل من عذاب شديد . جزاء كفرهم هذه النعمة . نعمة إرسال الرسول بالكتاب ليخرجهم من الظلمات إلى النور . وهى النعمة الكبرى التى لا يقوم لها شكر إنسان . فكيف بالكفران :

« وويل للكافرين من عذاب شديد » . .

ثم يكشف عن صفة تحمل معنى العلة لكفر الكافرين بنعمة الله التى يحملها رسوله الكريم :

« الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة . أولئك فى ضلال بعيد » . .

فاستحباب الحياة الدنيا على الآخرة يصطدم بتكاليف الإيمان ؛ ويتعارض مع الاستقامة على الصراط . وليس الأمر كذلك حين تستحب الآخرة ، لأنه عندئذ تصلح الدنيا ، ويصبح المتاع بها معتدلا ، ويراعى فيه وجه الله . فلا يقع التعارض بين استحباب الآخرة ومتاع هذه الحياة .

إن الذين يوجهون قلوبهم للآخرة ، لا يخسرون متاع الحياة الدنيا - كما يقوم فى الأخيلة المنحرفة - فصلاح الآخرة فى الإسلام يقتضى صلاح هذه الدنيا . والإيمان بالله يقتضى حسن الخلافة فى الأرض . وحسن الخلافة فى الأرض هو استعمارها والتمتع بطيباتها . إنه لا تعطيل للحياة فى الإسلام انتظارا للآخرة ، ولكن تعمير للحياة بالحق والعدل والاستقامة ابتغاء رضوان الله ، وتمهيدا للآخرة . . هذا هو الإسلام .

فأما الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، فلا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم من الاستئثار بخيرات الأرض ، ومن الكسب الحرام ، ومن استغلال الناس وغشهم واستعبادهم . . لا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم هذه فى نور الإيمان بالله ، وفى ظل الاستقامة على هداه . ومن ثم يصدون عن سبيل الله . يصدون أنفسهم ويصدون الناس ، ويبغونها عوجا لا استقامة فيها ولا عدالة . وحين يفلحون فى صد أنفسهم وصد غيرهم عن سبيل الله ، وحين يتخلصون من استقامة سبيله وعدالتها ، فعندئذ فقط يملكون أن يظلموا وأن يطغوا وأن يغشوا وأن يخدعوا

وأن يغروا الناس بالفساد ، فيتم لهم الحصول على مايبغونه من الاستئثار بخيرات الأرض ، والكسب الحرام ، والمتاع المرذول ، والكبرياء فى الأرض ، وتعبيد الناس بلا مقاومة ولا استنكار .

إن منهج الإيمان ضمانة للحياة وضمانة للأحياء من أثرة الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، واستئثارهم بخيرات هذه الحياة .

« وماأرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » ..

وهذه نعمة شاملة للبشر فى كل رسالة . فلكى يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، لم يكن بد من أن يرسل بلغتهم ، ليبين لهم وليفهموا عنه ، فتتم الغاية من الرسالة .

وقد أرسل النبى – صلى الله عليه وسلم – بلسان قومه – وإن كان رسولا إلى الناس كافة – لأن قومه هم الذين سيحملون رسالته إلى كافة البشر . وعمره – صلى الله عليه وسلم – محدود . وقد أمر ليدعو قومه أولا حتى تخلص الجزيرة العربية للإسلام . ومن ثم تكون مهدا يخرج منه حملة رسالة محمد إلى سائر بقاع الأرض . والذى حدث بالفعل – وهو من تقدير الله العليم الخبير – أن اختير الرسول إلى جوار ربه عند انتهاء الإسلام إلى آخر حدود الجزيرة ، وبعث جيش أسامة إلى أطراف الجزيرة ، الذى توفى الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولم يتحرك بعد . وحقيقة إن الرسول قد بعث برسائله إلى خارج الجزيرة يدعو إلى الإسلام ، تصديقا لرسالته إلى الناس كافة . ولكن الذى قدره الله له ، والذى يتفق مع طبيعة العمر البشرى المحدود ، أن يبلغ الرسول – صلى الله عليه وسلم – قومه بلسانهم ، وأن تتم رسالته إلى البشر كافة عن طريق حملة هذه الرسالة إلى الأصقاع . وقد كان . فلا تعارض بين رسالته للناس كافة ، ورسالته بلسان قومه ، فى تقدير الله ، وفى واقع الحياة .

« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » . . « فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء » . .

إذ تنتهى مهمة الرسول – كل رسول – عند البيان . أما مايترتب عليه من هدى ومن

Marfat.com

Marfat.com

ضلال ، فلا قدرة له عليه ، وليس خاضعا لرغبته ، إنما هو من شأن الله . وضع له سنة ارتضتها مشيئته المطلقة . فمن سار على درب الضلال ضل ، ومن سار على درب الهدى وصل . . هـذا وذلك يتبع مشيئة الله ، التي شرعت سنته في الحياة .

« وهو العزيز الحكيم » . .

القادر على تصريف الناس والحياة ، يصرفهم بحكمة وتقدير فليست الأمور متروكة جزافا بلا توجيه ولا تدبير .

* * *

وكذلك كانت رسالة موسى . بلسان قومه .

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا : أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ، وذكرهم بأيام الله . إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . وإذ قال موسى لقومه : اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون ، يسومونكم سوء العذاب ، ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم . وإذ تأذن ربكم : لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد . وقال موسى : إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد » . .

والتعبير يوحد بين صيغة الأمر الصادر لموسى والصادر لمحمد - عليهما صلاة الله وسلامه - تمشيا مع نسق الأداء في السورة - وقد تحدثنا عنه آنفا - فإذا الأمر هناك :

« لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » . .

والأمر هنا :

« أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور » . .

الأولى للناس كافة والثانية لقوم موسى خاصة ، ولكن الغاية واحدة :

« أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور » . . « وذكرهم بأيام الله » . .

وكل الأيام أيام الله . ولكن المقصود هنا أن يذكرهم بالأيام التي يبدو فيها للبشر أو

لجماعة منهم أمر بارز أو خارق بالنعمة أو بالنقمة ؛ كما سيجيء فى حكاية تذكير موسى لقومه. وقد ذكرهم بأيام لهم، وأيام لأقوام نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم. فهذه هى الأيام.

« إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . .

ففى هذه الأيام ماهو بؤسى فهو آية للصبر، وفيها ماهو نعمى فهو آية للشكر. والصبار الشكور هو الذى يدرك هذه الآيات، ويدرك ماوراءها، ويجد فيها عبرة له وعظة؛ كما يجد فيها تسرية وتذكيرا.

وراح موسى يؤدى رسالته، ويذكر قومه :

« وإذ قال موسى لقومه : اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » . .

إنه يذكرهم بنعمة الله عليهم. نعمة النجاة من سوء العذاب الذى كانوا يلقونه من آل فرعون، يسامونه سوما، أى يوالون به ويتابعون، فلا يفتر عنهم ولا ينقطع. ومن ألوانه البارزة تذبيح الذكور من الأولاد واستحياء الإناث، منعا لتكاثر القوة المانعة فيهم واستبقاء لضعفهم وذلهم. فإنجاء الله لهم من هذه الحال نعمة تذكر. وتذكر لتشكر.

« وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم »

بلاء بالعذاب أولا، لامتحان الصبر والتماسك والمقاومة والعزم على الخلاص والعمل له. فليس الصبر هو احتمال الذل والعذاب وكفى. ولكن الصبر هو احتمال العذاب بلا تضعضع ولا هزيمة روحية، واستمرار العزم على الخلاص، والاستعداد للوقوف فى وجه الظلم والطغيان. وإلا فما هو صبر مشكور ذلك الاستسلام للذل والهوان. وبلاء بالنجاة ثانيا لامتحان الشكر، والاعتراف بنعمة الله، والاستقامة على الهدى فى مقابل النجاة

ويمضى موسى فى البيان لقومه. بعد ماذكرهم بأيامه. ووجههم إلى الغاية من العذاب والنجاة. وهى الصبر للعذاب والشكر للنجاة. يمضى ليبين لهم مارتبه الله جزاء على الشكر والكفران :

« وإذ تأذن ربكم : لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » . .

Marfat.com

Marfat.com

الجزء الثالث عشر

ونقف نحن أمام هـذه الحقيقة الكبيرة : حقيقة زيادة النعمة بالشكر ، والعذاب الشديد على الكفر .

نقف نحن أمام هـذه الحقيقة تطمئن إليها قلوبنا أول وهلة لأنها وعـد من الله صادق . فلا بد أن يتحقق على أية حال . . فإذا أردنا أن نرى مصداقها في الحياة ، ونبحث عن أسبابه المدركة لنا ، فإننا لا نبعد كثيرا في تلمس الأسباب .

إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية . فالخير يشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة .

هذه واحدة . . والأخرى أن النفس التي تشكر الله على نعمته ، تراقبه في التصرف بهـذه النعمة . بلا بطر ، وبلا استعلاء على الخلق ، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر والدنس والفساد .

وهـذه وتلك مما يزكي النفس ، ويدفعها للعمل الصالح ، وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها ويبارك فيها ؛ ويرضى الناس عنها وعن صاحبها ، فيكونون له عونا ؛ ويصلح روابط المجتمع فتنمو فيه الثروات في أمان . إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة . وإن كان وعد الله بذاته يكفي لاطمئنان المؤمن ، أدرك الأسباب أو لم يدركها ، فهو حق واقع لأنه وعد الله .

والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها . أو بإنكار أن الله واهبها ، ونسبتها إلى العلم والخبرة والكد الشخصي والسعي ! كأن هـذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله ! وقد يكون بسوء استخدامها بالبطر والكبر على الناس واستغلالها للشهوات والفساد . . وكله كفر بنعمة الله .

والعذاب الشديد قد يتضمن محق النعمة . عينا بذهابها . أو سحق آثارها في الشعور . فكم من نعمة تكون بذاتها نقمة يشقى بها صاحبها ويحسد الخالين ! وقد يكون عذابا مؤجلا إلى أجله في الدنيا أو في الآخرة كما يشاء الله . ولكنه واقع لأن الكفر بنعمة الله لا يمضي بلا جزاء .

ذلك الشكر لا تعود على الله عائدته . وهذا الكفر لا يرجع على الله أثره . فالله غني بذاته محمود بذاته ، لا بحمد الناس وشكرهم على عطاياه .

« وقال موسى : إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد » . .

إنما هو صلاح الحياة يتحقق بالشكر ، ونفوس الناس تزكو بالاتجاه إلى الله ، وتستقيم بشكر الخير ، وتطمئن إلى الاتصال بالمنعم ، فلا تخشى نفاد النعمة وذهابها ، ولا تذهب حسرات وراء ماينفق أو يضيع منها . فالمنعم موجود ، والنعمة بشكره تزكو وتزيد .

***

ويستمر موسى فى بيانه وتذكيره لقومه . ولكنه يتوارى عن المشهد لتبرز المعركة الكبرى بين أمة الأنبياء والجاهليات المكذبة بالرسل والرسالات . وذلك من بدائع الأداء فى القرآن ، لإحياء المشاهد ، ونقلها من حكاية تروى إلى مشهد ينظر ويسمع ، وتتحرك فيه الشخوص ، وتتجلى فيه السمات والانفعالات . .

والآن إلى الساحة الكبرى التى يتلاشى فيها الزمان والمكان :

« ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ، قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ؟ جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردوا أيديهم فى أفواههم ، وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب » . .

هذا التذكير من قول موسى . ولكن السياق منذ الآن يجمل موسى يتوارى ليستمر فى عرض قصة الرسل والرسالات فى جميع أزمانها قصة الرسل والرسالات وحقيقتها فى مواجهة الجاهلية ، وعاقبة المكذبين بها على اختلاف الزمان والمكان . . وكأن موسى « راوية » يبدأ بالإشارة إلى أحداث الرواية الكبرى . ثم يدع أبطالها يتحدثون بعد ذلك ويتصرفون . . وهى طريقة من طرق العرض للقصة فى القرآن ، تحول القصة المحكية إلى رواية حية كما أسلفنا . وهنا نشهد الرسل الكرام فى موكب الإيمان ، يواجهون البشرية متجمعة فى جاهليتها . حيث تتوارى الفواصل بين أجيالها وأقوامها . وتبرز الحقائق الكبرى مجردة عن الزمان والمكان ، كما هى فى حقيقة الوجود خلف حواجز الزمان والمكان :

Marfat.com

« ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم : قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ؟ » . .

فهم كثير إذن ، وهناك غير من جاء ذكرهم فى القرآن . مابين ثمود وقوم موسى والسياق هنا لا يعنى بتفصيل أمرهم ، فهناك وحدة فى دعوة الرسل ووحدة فيما قوبلت به :

« جاءتهم رسلهم بالبينات » . .

الواضحات التى لا يلتبس أمرها على الإدراك السليم .

« فردوا أيديهم فى أفواههم ، وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به ؛ وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب » . .

ردوا أيديهم فى أفواههم كما يفعل من يريد تمويج الصوت ليسمع عن بعد ، بتحريك كفه أمام فمه وهو يرفع صوته ذهابا وإيابا فيتموج الصوت ويسمع . يرسم السياق هذه الحركة التى تدل على جهرهم بالتكذيب والشك ، وإفحاشهم فى هذا الجهر ، وإتيانهم بهذه الحركة الغليظة التى لا أدب فيها ولا ذوق ، إمعانا منهم فى الجهر بالكفر .

ولما كان الذى يدعوهم إليه رسلهم هو الاعتقاد بألوهية الله وحده ، وربوبيته للبشر لا شريك من عباده . . فإن الشك فى هذه الحقيقة الناطقة التى تدركها الفطرة ، وتدل عليها آيات الله المبثوثة فى ظاهر الكون المتجلية فى صفحاته ، يبدو مستنكرا قبيحا . وقد استنكر الرسل هذا الشك . والسماوات والأرض شاهدان .

« قالت رسلهم : أفى الله شك فاطر السماوات والأرض ؟ » . .

أفى الله شك والسماوات والأرض تنطقان للفطرة بأن الله أبدعهما إبداعا وأنشأهما إنشاء ؟ قالت رسلهم هذا القول ، لأن السماوات والأرض آيتان هائلتان بارزتان ، فمجرد الإشارة إليهما يكفى ، ويرد الشارد إلى الرشد سريعا ، ولم يزيدوا على الإشارة شيئا لأنها وحدها تكفى ؛ ثم أخذوا يعددون نعم الله على البشر فى دعوتهم إلى الإيمان ، وفى إمهالهم إلى أجل يتدبرون فيه ويتقون العذاب :

« أفى الله شك فاطر السماوات والأرض . يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم » .

Marfat.com

والدعوة أصلا دعوة إلى الإيمان ، المؤدى إلى المغفرة . ولكن السياق يجعل الدعوة مباشرة للمغفرة ، لتتجلى نعمة الله ومنته . وعندئذ يبدو عجيبا أن يدعى قوم إلى المغفرة فيكون هذا تلقيهم للدعوة !

« يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم » . . « ويؤخركم إلى أجل مسمى » . .

فهو - سبحانه - مع الدعوة للمغفرة لايعجلكم بالإيمان فور الدعوة ، ولا يأخذكم بالعذاب فور التكذيب . إنما يمن عليكم منة أخرى فيؤخركم إلى أجل مسمى . إما فى هذه الدنيا وإما إلى يوم الحساب ، ترجعون فيه إلى نفوسكم ، وتتدبرون آيات الله وبيان رسلكم . وهى رحمة وسماحة تحسبان فى باب النعم . . فهل هذا هو جواب دعوة الله الرحيم المنان ؟ !

هنا يرجع القوم فى جهالتهم إلى ذلك الاعتراض الجهول :

« قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا » . .

وبدلا من أن يعتز البشر باختيار الله لواحد منهم ليحمل رسالته ، فإنهم لجهالتهم ينكرون هذا الاختيار ، ويجعلونه مثار ريبة فى الرسل المختارين ؛ ويعللون دعوة رسلهم لهم بأنها رغبة فى تحويلهم عما كان يعبد آباؤهم . ولا يسألون أنفسهم : لماذا يرغب الرسل فى تحويلهم ؟! وبطبيعة الجمود العقلى الذى تطبعه الوثنيات فى العقول لايفكرون فيما كان يعبد آباؤهم : ماقيمته ؟ ماحقيقته ؟ ماذا يساوى فى معرض النقد والتفكير ؟ ! وبطبيعة الجمود العقلى كذلك لايفكرون فى الدعوة الجديدة ، إنما يطلبون خارقة ترغمهم على التصديق :

« فأتونا بسلطان مبين » . .

ويرد الرسل . . لاينكرون بشريتهم بل يقررونها ، ولكنهم يوجهون الأنظار إلى منة الله فى اختيار رسل من البشر ، وفى منحهم مايؤهلهم لحمل الأمانة الكبرى :

« قالوا : إن نحن إلا بشر مثلكم . ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » . .

ويذكر السياق لفظ « يمن » تنسيقا للحوار مع جو السورة . جو الحديث عن نعم الله . ومنها هذه المنة على من يشاء من عباده . وهى منة ضخمة لاعلى أشخاص الرسل وحدهم . ولكن كذلك على البشرية التى تشرف بانتخاب أفراد منها لهذه المهمة العظمى . مهمة الاتصال والتلقى

Marfat.com

Marfat.com

من الملأ الأعلى . وهى منة على البشرية يذكر الفطر التى ران عليها الركام لتخرج من الظلمات إلى النور ؛ ولتتحرك فيها أجهزة الاستقبال والتلقى فتخرج من الموت الراكد إلى الحياة المتفتحة ..

ثم هى المنة الكبرى على البشرية بإخراج الناس من الدينونة للعباد إلى الدينونة لله وحده بلا شريك ؛ واستنقاذ كرامتهم وطاقتهم من الذل والتبدد فى الدينونة للعبيد .. الذل الذى يحنى هامة إنسان لعبد مثله ! والتبدد الذى يسخر طاقة إنسان لتأليه عبد مثله !

وأما حكاية الإتيان بسلطان مبين ، وقوة خارقة ، فالرسل يبينون لقومهم أنها من شأن الله . ليعرفوا فى مدار كهم الهوة الفاصلة بين ذات الله الإلهية ، وذواتهم هم البشرية ، وليحصوا صورة التوحيد المطلق الذى لا يلتبس بمشابهة فى ذات ولا صفة . وهى المتاهة التى تاهت فيها الوثنيات كما تاهت فيها التصورات الكنسية فى المسيحية عندما تلبست بالوثنيات الإغريقية والرومانية والمصرية والهندية . وكانت نقطة البدء فى المتاهة هى نسبة الخوارق إلى عيسى - عليه السلام - بذاته والتبس بين ألوهية الله وعبودية عيسى عليه السلام !

« وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله » ..

ومالهم على قوة غير قوته :

« وعلى الله فليتوكل المؤمنون »

يطلقها الرسل حقيقة دائمة . فعلى الله وحده يتوكل المؤمن ، لا يلتفت قلبه إلى سواه ، ولا يرجو عونا إلا منه ، ولا يرتكن إلا إلى حماه .

ثم يواجهون الطغيان بالإيمان ، ويواجهون الأذى بالثبات ؛ ويسألون للتقرير والتوكيد :

« ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ؟ ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ..

« ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا » ..

إنها كلمة المطمئن إلى موقفه وطريقه . الممالئ يديه من وليه وناصره . المؤمن بأن الله الذى

Marfat.com

يهدى السبيل لابد أن ينصر وأن يعين . وماذا يهم حتى ولو لم يتم فى الحياة الدنيا نصر إذا كان العبد قد ضمن هداية السبيل ؟

والقلب الذى يحس أن يد الله - سبحانه - تقود خطاه، وتهديه السبيل، هو قلب موصول بالله لا يخطئ الشعور بوجوده - سبحانه - وألوهيته القاهرة المسيطرة؛ وهو شعور لا مجال معه للتردد فى المضى فى الطريق، أيا كانت العقبات فى الطريق، وأيا كانت قوى الطاغوت التى تتربص فى هذا الطريق . ومن ثم هذا الربط فى رد الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - بين شعورهم بهداية الله لهم وبين توكلهم عليه فى مواجهة التهديد السافر من الطواغيت؛ ثم إصرارهم على المضى فى طريقهم فى وجه هذا التهديد .

وهذه الحقيقة - حقيقة الارتباط فى قلب المؤمن بين شعوره بهداية الله وبين بديهية التوكل عليه - لا تستشعرها إلا القلوب التى تزاول الحركة فعلا فى مواجهة طاغوت الجاهلية؛ والتى تستشعر فى أعماقها يد الله - سبحانه - وهى تفتح لها كوى النور فتبصر الآفاق المشرقة وتستروح أنسام الإيمان والمعرفة، وتحس الأنس والقربى . . وحينئذ لا تحفل بما يتوعدها به طواغيت الأرض؛ ولا تملك أن تستجيب للإغراء ولا للتهديد؛ وهى تحتقر طواغيت الأرض وما فى أيديهم من وسائل البطش والتنكيل . وماذا يخاف القلب الموصول بالله على هذا النحو؟ وماذا يخيفه من أولئك العبيد ؟!

« ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا » . .

« ولنصبرن على ما آذيتمونا » . .

لنصبرن؛ لا نتزحزح ولا نضعف ولا نتراجع ولا نهن، ولا نتزعزع ولا نشك ولا نفرط ولا نحيد . .

« وعلى الله فليتوكل المتوكلون » . .

وهنا يسفر الطغيان عن وجهه . لا يجادل ولا يناقش ولا يفكر ولا يتعقل، لأنه يحس بهزيمته أمام انتصار العقيدة، فيسفر بالقوة المادية الغليظة التى لا يملك غيرها المتجبرون :

« وقال الذين كفروا لرسلهم : لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا » !

Marfat.com

هنا تتجلى حقيقة المعركة وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية . . إن الجاهلية لاترضى من الإسلام أن يكون له كيان مستقل عنها . ولا تطيق أن يكون له وجود خارج عن وجودها . وهي لاتسالم الإسلام حتى لو سالمها . فالإسلام لابد أن يبدو في صورة تجمع حركي مستقل بقيادة مستقلة وولاء مستقل ، وهذا مالاتطيقه الجاهلية . لذلك لايطلب الذين كفروا من رسلهم مجرد أن يكفوا عن دعوتهم ؛ ولكن يطلبون منهم أن يعودوا في ملتهم ، وأن يندمجوا في تجمعهم الجاهلي ، وأن يذوبوا في مجتمعهم فلا يبقى لهم كيان مستقل . وهذا ماتأباه طبيعة هذا الدين لأهله ، وما يرفضه الرسل من ثم ويأبونه ، فما ينبغي لمسلم أن يندمج في التجمع الجاهلي مرة أخرى . .

وعندما تسفر القوة الغاشمة عن وجهها الصلد لا يبقى مجال لدعوة ، ولا يبقى مجال لحجة ؛ ولا يسلم الله الرسل إلى الجاهلية .

إن التجمع الجاهلي - بطبيعة تركيبه العضوي - لايسمح لعنصر مسلم أن يعمل من داخله ، إلا أن يكون عمل المسلم وجهده وطاقته لحساب التجمع الجاهلي ، ولتوطيد جاهليته ! والذين يخيل إليهم أنهم قادرون على العمل لدينهم من خلال التسرب في المجتمع الجاهلي ، والتميع في تشكيلاته وأجهزته هم ناس لايدركون الطبيعة العضوية للمجتمع . هذه الطبيعة التي ترغم كل فرد داخل المجتمع أن يعمل لحساب هذا المجتمع ولحساب منهجه وتصوره . لذلك يرفض الرسل الكرام أن يعودوا في ملة قومهم بعد إذ نجاهم الله منها .

وهنا تتدخل القوة الكبرى فتضرب ضربتها المدمرة القاضية التي لاتقف لها قوة البشر الهزيلة ، وإن كانوا طغاة متجبرين :

« فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد » .

ولابد أن ندرك أن تدخل القوة الكبرى للفصل بين الرسل وقومهم إنما يكون دائما بعد مفاصلة الرسل لقومهم . . بعد أن يرفض المسلمون أن يعودوا إلى ملة قومهم بعد إذ نجاهم الله منها . . وبعد أن يصروا على تميزهم بدينهم وبتجمعهم الإسلامي الخاص بقيادته الخاصة . وبعد أن يفاصلوا قومهم على أساس العقيدة فينقسم القوم الواحد إلى أمتين مختلفتين عقيدة ومنهجا

Marfat.com

وقيادة وتجمعا.. عندئذ تتدخل القوة الكبرى لتضرب ضربتها الفاصلة، ولتدمر على الطواغيت الذين يتهددون المؤمنين، ولتمكن للمؤمنين فى الأرض، ولتحقق وعد الله لرسله بالنصر والتمكين .. ولايكون هذا التدخل أبدا والمسلمون متميعون فى المجتمع الجاهلى، عاملون من خلال أوضاعه وتشكيلاته، غير منفصلين عنه ولا متميزين بتجمع حركى مستقل وقيادة إسلامية مستقلة ..

« فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين » ..

نون العظمة ونون التوكيد .. كلتاهما ذات ظل وإيقاع فى هذا الموقف الشديد . لنهلكن المتجبرين المهددين، المشركين الظالمين لأنفسهم وللحق وللرسل وللناس بهذا التهديد ..

« ولنسكننكم الأرض من بعدهم » ..

لامحاباة ولا جزافا، إنما هى السنة الجارية العادلة :

« ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد » ..

ذلك الإسكان والاستخلاف لمن خاف مقامى، فلم يتطاول ولم يتعال ولم يستكبر ولم يتجبر وخاف وعيد، فحسب حسابه، واتقى أسبابه، فلم يفسد فى الأرض، ولم يظلم فى الناس. فهو من ثم يستحق الاستخلاف، وينا له باستحقاق.

وهكذا تلتقى القوة الصغيرة الهزيلة ـ قوة الطغاة الظالمين ـ بالقوة الجبارة الطامة ـ قوة الجبار المهيمن المتكبر ـ فقد انتهت مهمة الرسل عند البلاغ المبين والمفاصلة التى تميز المؤمنين من المكذبين.

ووقف الطغاة المتجبرون بقوتهم الهزيلة الضئيلة فى صف، ووقف الرسل الداعون المتواضعون ومعهم قوة الله ـ سبحانه ـ فى صف. ودعا كلاهما بالنصر والفتح .. وكانت العاقبة كما يجب أن تكون :

« واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت، ومن ورائه عذاب غليظ » ..

Marfat.com

والمشهد هنا عجيب . إنه مشهد الخيبة لكل جبار عنيد . مشهد الخيبة فى هذه الأرض . ولكنه يقف هذا الموقف ، ومن ورائه تخايل جهنم وصورته فيها ، وهو يسقى من الصديد السائل من الجسوم . يُسقاه بعنف فيتجرعه غصبا وكرها . ولا يكاد يسيغه ، لقذارته ومرارته ، والتقزز والتكره باديان نكاد نلمحهما من خلال الكلمات ! ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان ، ولكنه لا يموت ، ليستكمل عذابه . ومن ورائه عذاب غليظ . .

إنه مشهد عجيب ، يرسم الجبار الخائب المهزوم ووراءه مصيره يخايل له على هذا النحو المروع الفظيع . وتشترك كلمة « غليظ » فى تفظيع المشهد ، تنسيقا له مع القوة الغاشمة التى كانوا يهددون بها دعاة الحق والخير والصلاح واليقين .

* * *

وفى ظل هذا المصير يجىء التعقيب مثلا مصورا فى مشهد يضرب الذين كفروا ؛ ولفتة إلى قدرة الله على أن يُذهب المكذبين ويأتى بخلق جديد . ذلك قبل أن يتابع مشاهد الرواية فى الساحة الأخرى ، وقد أسدل الستار على فصلها الأخير فى هذه الأرض ، مخايلا بالساحة الأخرى :

« مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف . لا يقدرون مما كسبوا على شىء . ذلك هو الضلال البعيد » . .

ومشهد الرماد تشتد به الريح فى يوم عاصف مشهود معهود ، يجسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدى ، لايقدر أصحابها على الإمساك بشىء منها ، ولا الانتفاع به أصلا . يجسمه فى هذا المشهد العاصف المتحرك ، فيبلغ فى تحريك المشاعر له مالا يبلغه التعبير الذهنى المجرد عن ضياع الأعمال وذهابها بددا .

هذا المشهد ينطوى على حقيقة ذاتية فى أعمال الكفار . فالأعمال التى لا تقوم على قاعدة من الإيمان ، ولا يمسكها العروة الوثقى التى تصل العمل بالباعث ، وتصل الباعث بالله . . مفككة كالهباء والرماد ، لا قوام لها ولا نظام . فليس المعول عليه هو العمل ، ولكن

Marfat.com

باعث العمل . فالعمل حركة آلية لا يفترق فيها الإنسان عن الآلة إلا بالباعث والقصد والغاية .

وهكذا يلتقى المشهد المصور مع الحقيقة العميقة ، وهو يؤدى المعنى فى أسلوب مشوق موح مؤثر . ويلتقى معهما التعقيب :

« ذلك هو الضلال البعيد » . .

فهو تعقيب يتفق ظله مع ظل الرماد المتطاير فى يوم عاصف . . إلى بعيد ! !

ثم يلتقى مع مشهد الرماد المتطاير ظل آخر فى الآية التالية ، التى يلتفت فيها السياق من مصائر المكذبين السابقين إلى المكذبين من قريش ، يهددهم بإذهابهم والإتيان بخلق جديد :

« ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز » . .

والانتقال من حديث الإيمان والكفر ، ومن قضية الرسل والجاهلية إلى مشهد السماوات والأرض . . هو انتقال طبيعى فى المنهج القرآنى كما أنه انتقال طبيعى فى مشاعر الفطرة البشرية يدل على ربانية هذا المنهج القرآنى . .

إن بين فطرة الكائن الإنسانى وبين هذا الكون لغة سرية مفهومة ! . . إن فطرته تتلاقى مباشرة مع السر الكامن وراء هذا الكون بمجرد الاتجاه إليه والتقاط إيقاعاته ودلالاته ! والذين يرون هذا الكون ثم لا تسمع فطرتهم هذه الإيقاعات وهذه الإيحاءات هم أفراد معطلو الفطرة . فى كيانهم خلل تعطلت به أجهزة الاستقبال الفطرية . كما تصاب الحواس بالتعطل نتيجة لآفة تصيبها . . كما تصاب العين بالعمى ، والأذن بالصمم ، واللسان بالبكم ! . . إنهم أجهزة تالفة لا تصلح للتلقى ؛ ومن باب أولى لا تصلح للقيادة والزعامة ! . . ومن هؤلاء كل أصحاب التفكير المادى — الذى يسمونه « المذاهب العلمية » كذبا وافتراء . . إن العلم لا يتفق مع تعطل أجهزة الاستقبال الفطرية وفساد أجهزة الاتصال الإنسانية بالكون كله ! إنهم الذين يسميهم القرآن بالعمى . . وما يمكن أن تقام الحياة الإنسانية على مذهب أو رأى أو نظام يراه أعمى ! ! !

Marfat.com

إن خلق السماوات والأرض بالحق يوحي بالقدرة كما يوحي بالثبات . فالحق ثابت مستقر حق في جرسه اللفظي . . ذلك في مقابل الرماد المتطاير إلى بعيد . وفي مقابل الضلال البعيد .

وفي ضوء مصير المعاندين الجبارين في معركة الحق والباطل يجيء التهديد :

« إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد » . .

والقادر على خلق السماوات والأرض ، قادر على استخلاف جنس غير هذا الجنس في الأرض . واستخلاف قوم مكان قوم من أقوام هذا الجنس . وظل الذهاب بالقوم يتسق من بعيد مع ظل الرماد المتطاير الذاهب إلى الفناء .

« وما ذلك على الله بعزيز » . .

وخلق السماوات والأرض شاهد . ومصارع المكذبين من قبل شاهدة . والرماد المتطاير شاهد من بعيد !

ألا إنه الإعجاز في تنسيق المشاهد والصور والظلال في هذا القرآن !

* * *

ثم نرق إلى أفق آخر من آفاق الإعجاز في التصوير والأداء والتنسيق . فلقد كنا منذ لحظة مع الجبارين المعاندين . ولقد خاب كل جبار عنيد . وكانت صورته في جهنم تخايل له من ورائه وهو بعد في الدنيا . فالآن نجدهم هناك ، حيث يتابع السياق خطواته بالرواية الكبرى - رواية البشرية ورسلها - في المشهد الأخير . وهو مشهد من أعجب مشاهد القيامة وأحفلها بالحركة والانفعال والحوار بين الضعفاء والمستكبرين . وبين الشيطان والجميع :

« وبرزوا لله جميعا - فقال الضعفاء الذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعا . فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم . سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا محيص . وقال الشيطان لما قضي الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ؛ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي . فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بِمُصْرِخِكم وما أنتم بِمُصْرِخِيّ . إني كفرت بما أشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم .

Marfat.com

سورة إبراهيم

« وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها بإذن ربهم ، تحيتهم فيها سلام » .

لقد انتقلت الرواية . رواية الدعوة والدعاة ، والمكذبين والطغاة .. انتقلت من مسرح الدنيا إلى مسرح الآخرة :

« وبرزوا لله جميعا » . .

الطغاة المكذبون وأتباعهم من الضعفاء المستذلين ، ومعهم الشيطان . . ثم الذين آمنوا بالرسل وعملوا الصالحات .. برزوا « جميعا » مكشوفين . وهم مكشوفون لله دائما . ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مكشوفون لايحجبهم حجاب ، ولا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واق . . برزوا وامتلأت الساحة ورفع الستار ، وبدأ الحوار :

« فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعا . فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ » . .

والضعفاء هم الضعفاء . هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية فى التفكير والاعتقاد والاتجاه ؛ وجعلوا أنفسهم تبعا للمستكبرين والطغاة . ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله . والضعف ليس عذرا ، بل هو الجريمة ؛ فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفا ، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله . وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعا عن نصيبه فى الحرية - التى هى ميزته ومناط تكريمه - أو أن ينزل كارها . والقوة المادية - كائنة ما كانت - لا تملك أن تستعبد إنسانا يريد الحرية . ويستمسك بكرامته الآدمية . فقصارى ماتملكه تلك القوة أن تملك الجسد ، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه . أما الضمير . أما الروح أما العقل . فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها ، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال !

من ذا الذى يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعا للمستكبرين فى العقيدة ، وفى التفكير وفى السلوك ؟ من ذا الذى يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله ، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه ؟ لا أحد . لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة . فهم ضعفاء لا لأنهم أقل

قوة مادية من الطغاة ، ولا لأنهم أقل جاها أو مالا أو منصبا أو مقاما . . كلا ، إن هذه كلها أعراض خارجية لاتعلق بذاتها ضعفا يلحق صفة الضعف بالضعفاء . إنما هم ضعفاء لأن الضعف فى أرواحهم وفى قلوبهم وفى نخوتهم وفى اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان !

إن المستضعفين كثرة ، والطواغيت قلة ، فمن ذا الذى يخضع الكثرة للقلة ؟ وماذا الذى يخضعها ؟ إنما يخضعها ضعف الروح ، وسقوط الهمة ، وقلة النخوة ، والتنازل الداخلى عن الكرامة التى وهبها الله لبنى الإنسان !

إن الطغاة لايملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير . فهى دائما قادرة على الوقوف لهم لو أرادت . فالإرادة هى التى تنقص هذه القطعان !

إن الذل لاينشأ إلا عن قابلية للذل فى نفوس الأذلاء . . وهذه القابلية هى وحدها التى يعتمد عليها الطغاة ! !

والأذلاء هنا على مسرح الآخرة فى ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم :

« إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء » ؟ . .

وقد اتبعناكم فانتهينا إلى هذا المصير الأليم ؟ !

أم لعلهم وقد رأوا العذاب يهمون بتأنيب المستكبرين على قيادتهم لهم هذه القيادة ، وتعريضهم إياهم للعذاب ؟ إن السياق يحكى قولهم وعليه طابع الذلة على كل حال !

ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال :

« قالوا : لو هدانا الله لهديناكم ! سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص ! » . .

وهو رد يبدو فيه البرم والضيق :

« لو هدانا الله لهديناكم » . .

فعلام تلوموننا ونحن وإياكم فى طريق واحد إلى مصير واحد ؟ إننا لم نهتد ونضللكم . ولو هدانا الله لقدناكم إلى الهدى معنا ، كما قدناكم حين ضللنا إلى الضلال ! وهم ينسبون هداهم وضلالهم إلى الله . فيعترفون الساعة بقدرته وكانوا من قبل ينكرونه وينكرونها ، ويستطيلون على الضعفاء استطالة من لايحسب حسابا لقدرة القاهر الجبار . وهم إنما يتهربون

Marfat.com

Marfat.com

من تبعة الضلال والإضلال يرجع الأمر لله . . والله لا يأمر بالضلال كما قال سبحانه « إن الله لا يأمر بالفحشاء » . . ثم هم يؤنبون الضعفاء من طرف خفي ، فيعلنونهم بأن لا جدوى من الجزع كما أنه لا فائدة من الصبر . فقد حق العـذاب ، ولا راد له من صبر أو جزع ، وفات الأوان الذي كان الجزع فيه من العذاب يجدي فيرد الضالين إلى الهدى ؛ وكان الصبر فيه على الشدة يجدي فتدركهم رحمة الله . لقد انتهى كل شيء ، ولم يعد هنالك مفر ولا محيص :

« سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص » !

لقد قضي الأمر ، وانتهى الجدل ، وسكت الحوار . . وهنا نرى على المسرح عجبـا . نرى الشيطان . . هاتف الغواية ، وحادي الغواة . . نراه الساعة يلبس مسوح الكهان ، أو مسوح الشيطان ! ويتشيطن على الضعفاء والمستكبرين سواء ، بكلام ربما كان أقسى عليهم من العذاب :

« وقال الشيطان - لما قضي الأمر - إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتـكم فأخلفتكم . وما كان لي عليـكم من سلطان إلا أن دعوتـكم فاستجبتم لي . فلا تلوموني ولوموا أنفسكم . ما أنا بمُصْرِخِكم وما أنتم بمصرخيّ . إني كفرت بما أشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم » .

الله ! الله ! أما إن الشيطان حقا لشيطان ! وإن شخصيته لتبدو هنا على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء وشخصية المستكبرين في هذا الحوار . .

إنه الشيطان الذي وسوس في الصدور ، وأغرى بالعصيان ، وزين الكفر ، وصدهم عن استماع الدعوة . . هو الذي يقول لهم وهو يطعنهم طعنة أليمـة نافذة ، حيث لا يملكون أن يردوها عليه - وقد قضي الأمر - هو الذي يقول الآن ، وبعد فوات الأوان :

« إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتـكم فأخلفتكم » !

ثم يخزهم وخزة أخرى بتعييرهم بالاستجابة له ، وليس له عليهم من سلطان ، سوى أنهم تخلوا عن شخصياتهم ، ونسوا ما بينهم وبين الشيطان من عداء قديم ، فاستجابوا لدعوته الباطلة وتركوا دعوة الحق من الله :

« وما كان لي عليـكم من سلطان إلا أن دعوتـكم فاستجبتم لي » !

ثم يؤنبهم ، ويدعوهم لتأنيب أنفسهم . يؤنبهم على أن أطاعوه ! :

« فلا تلوموني ولوموا أنفسكم » !

ثم يخلي بهم ، وينفض يده منهم ، وهو الذي وعدهم من قبل ومناهم ، ووسوس لهم أن لاغالب لهم ؛ فأما الساعة فما هو بمغيثهم إذا صرخوا ، كما أنهم لن ينجدوه إذا صرخ :

« ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ » . .

وما بيننا من صلة ولا ولاء !

ثم يبرأ من إشراكهم به ويكفر بهذا الإشراك :

« إني كفرت بما أشركتمون من قبل » !

ثم ينهي خطبته الشيطانية بالقاصمة يصبها على أوليائه :

« إن الظالمين لهم عذاب أليم » !

فيا للشيطان ! ويالهم من وليهم الذي هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه ؛ ودعاهم الرسل إلى الله فكذبوهم وجحدوه !

وقبل أن يسدل الستار نبصر على الضفة الأخرى بتلك الأمة المؤمنة ، الأمة الفائزة ، الأمة الناجية :

« وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها بإذن ربهم ، تحيتهم فيها سلام » . .

ويسدل الستار . .

فياله من مشهد ! ويالها من خاتمة لقصة الدعوة والدعاة مع المكذبين والطغاة !

* * *

وفي ظل هذه القصة بفصولها جميعا . في الدنيا حيث وقفت أمة الرسل في مواجهة الجاهلية الظالمة :

« واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ » . .

وفي الآخرة حيث شاهدنا ذلك المشهد الفريد : مشهد الذين استكبروا والضعفاء والشيطان ، مع ذلك الحوار العجيب . .

Marfat.com

في ظل تلك القصة ومصائر الأمة الطيبة ، والفرقة الخبيثة ، يضرب الله مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة ، لتصوير سنته الجارية في الطيب والخبيث في هذه الحياة ؛ فتكون خاتمة كتعليق الراوية على الرواية بعد إسدال الستار :

« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار . .

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ؛ ويضل الله الظالمين ؛ ويفعل الله ما يشاء » . .

إن مشهد الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . . . والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة ، اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار . . هو مشهد مأخوذ من جو السياق ، ومن قصة النبيين والمكذبين ، ومصير هؤلاء وهؤلاء بوجه خاص . وشجرة النبوة هنا وظل إبراهيم أبي الأنبياء عليها واضح ، وهي تؤتي أكلها كل فترة ، أكلا جنيا طيبا . . نبيا من الأنبياء . . يثمر إيمانا وخيرا وحيوية . .

ولكن المثل — بعد تناسقه مع جو السورة وجو القصة — أبعد من هذا آفاقا ، وأعرض مساحة ، وأعمق حقيقة .

إن الكلمة الطيبة — كلمة الحق — لكالشجرة الطيبة . ثابتة سامقة مثمرة . . ثابتة لاتزعزعها الأعاصير ، ولا تعصف بها رياح الباطل ؛ ولا تقوى عليها معاول الطغيان — وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان — سامقة متعالية ، تطل على الشر والظلم والطغيان من عل — وإن خيل إلى البعض أحيانا أن الشر يزحمها في الفضاء — مثمرة لاينقطع ثمرها ، لأن بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آنا بعد آن . .

وإن الكلمة الخبيثة — كلمة الباطل — لكالشجرة الخبيثة ؛ قد تهيج وتتعالى وتتشابك ؛ ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى . ولكنها تظل نافشة هشة ، وتظل جذورها في التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض . . وما هي إلا فترة ثم تجتث من فوق الأرض ، فلا قرار لها ولا بقاء .

Marfat.com

ليس هذا وذلك مجرد مثل يضرب ، ولا مجرد عزاء للطيبين وتشجيع . إنما هو الواقع في الحياة ، ولو أبطأ تحققه في بعض الأحيان .

والخير الأصيل لا يموت ولا يذوى . مهما زحمه الشر وأخذ عليه الطريق . . والشر كذلك لا يعيش إلا ريثما يستهلك بعض الخير المتلبس به ـ فقلما يوجد الشر الخالص ـ وعندما يستهلك مايلابسه من الخير فلا تبقى فيه منه بقية ، فإنه يتهالك ويتهشم مهما تضخم واستطال .

إن الخير بخير ! وإن الشر بشر !

« ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » . .

فهى أمثال مصداقها واقع في الأرض ، ولكن الناس كثيرا ماينسونه في زحمة الحياة .

وفي ظل الشجرة الثابتة ، التي يشارك التعبير في تصوير معنى الثبات وجوه ، فيرسمها : أصلها ثابت مستقر في الأرض ، وفرعها سامق ذاهب في الفضاء على مد البصر ، قائم أمام العين يوحى بالقوة والثبات .

في ظل الشجرة الثابتة مثلا للكلمة الطيبة : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » . . وفي ظل الشجرة الخبيثة المجتثة من فوق الأرض مالها من قرار ولا ثبات : « ويضل الله الظالمين » . . فتتناسق ظلال التعبير وظلال المعانى كلها في السياق !

يثبت الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة بكلمة الإيمان المستقرة في الضمائر ، الثابتة في الفطر ، المثمرة بالعمل الصالح المتجدد الباقي في الحياة . ويثبتهم بكلمات القرآن وكلمات الرسول ؛ وبوعده للحق بالنصر في الدنيا ، والفوز في الآخرة . . وكلها كلمات ثابتة صادقة حقة ، لا تتخلف ولا تتفرق بها السبل ، ولا يمس أصحابها قلق ولا حيرة ولا اضطراب .

ويضل الله الظالمين . بظلمهم وشركهم (والظلم يكثر استعماله في السياق القرآني بمعنى الشرك والكفر) وبعدهم عن النور الهادى ، واضطرابهم في تيه الظلمات والأوهام والخرافات واتباعهم مناهج وشرائع من الهوى لا من اختيار الله . . يضلهم وفق سنته التي تنتهى بمن يظلم ويعمى عن النور ويخضع للهوى إلى الضلال والتيه والشرود .

Marfat.com

Marfat.com

« ويفعل الله ما يشاء » ..

بإرادته المطلقة ، التي تختار الناموس ، فلا تتقيد به ولكنها ترضاه . حتى تقتضي الحكمة تبديله فيتبدل في نطاق المشيئة التي لاتقف لها قوة ، ولا يقوم في طريقها عائق ؛ والتي يتم كل أمر في الوجود وفق ماتشاء .

وبهذه الخاتمة يتم التعقيب على القصة الكبرى للرسالات والدعوات . وقد استغرقت الشطر الأول والأكبر من السورة المسماة باسم إبراهيم أبي الأنبياء ، والشجرة الظليلة الوارفة المثمرة خير الثمرات ، والكلمة الطيبة المتجددة في الأجيال المتعاقبة ، تحتوي دائماً على الحقيقة الكبرى .. حقيقة الرسالة الواحدة التي لاتتبدل ، وحقيقة الدعوة الواحدة التي لا تتغير ، وحقيقة التوحيد لله الواحد القهار .

* * *

والآن نقف وقفات قصيرة أمام الحقائق البارزة التي تعرضها قصة الرسل مع الجاهلية . وهي الحقائق التي أشرنا إليها إشارات سريعة في أثناء استعراض السياق القرآني ، ونرى أنها تحتاج إلى وقفات أخرى أمامها مستقلة :

* إننا نقف من هذه القصة على حقيقة أولية بارزة يقصها علينا الحكيم الخبير . . إن موكب الإيمان منذ فجر التاريخ الإنساني موكب واحد موصول ، يقوده رسل الله الكرام ، داعين بحقيقة واحدة ، جاهرين بدعوة واحدة ، سائرين على منهج واحد . . كلهم يدعو إلى ألوهية واحدة ، وربوبية واحدة ؛ وكلهم لا يدعو مع الله أحداً ، ولا يتوكل على أحد غيره ، ولا يلجأ إلى ملجأ سواه ، ولا يعرف له سنداً إلا إياه .

وأمر الاعتقاد في الله الواحد - إذن - ليس كما يزعم « علماء الدين المقارن » أنه تطور وترقى من التعديد إلى التثنية إلى التوحيد ؛ ومن عبادة الطواطم والأرواح والنجوم والكواكب إلى عبادة الله الواحد ؛ وأنه تطور وترقى كذلك بتطور وترقي التجربة البشرية والعلم البشري ، وبتطور وترقي الأنظمة السياسية وانتهائها إلى الأوضاع الموحدة تحت سلطان واحد . . .

إن الاعتقاد فى الله الواحد جاءت به الرسالات منذ فجر التاريخ ؛ ولم تتغير هـذه الحقيقة ولم تتبدل فى رسالة واحدة من الرسالات ؛ ولا فى دين واحد من الأديان السماوية . كما يقص علينا الحكيم الخبير .

ولو قال أولئك « العلماء » : إن قابلية البشرية لعقيدة التوحيد التى جاء بها الرسل كانت تترقى من عهد رسول إلى عهد رسول ؛ وإن الوثنيات الجاهلية كانت تتأثر بعقائد التوحيد المتوالية التى كان موكب الرسل الكرام يواجه بها هذه الوثنيات حينا بعـد حين . حتى جاء زمان كانت عقيدة التوحيد أكثر قبولا لدى جماهير الناس مما كانت ، بفعل توالى رسالات التوحيد ؛ وبفعل العوامل الأخرى التى يفردونها بالتأثير . . . لو قال أولئك « العلماء » قولا كهذا لساغ . . ولكنهم إنما يتأثرون بمنهج فى البحث يقوم ابتداء على قاعدة من العداء الدفين القديم للكنيسة فى أوربا – حتى ولو لم يلحظه العلماء المعاصرون ! – ومن الرغبة الخفية – الواعية أو غير الواعية – فى تحطيم المنهج الدينى فى التفكير ؛ وإثبات أن الدين لم يكن قط وحيا من عند الله ؛ إنما كان اجتهادا من البشر ، ينطبق عليه ما ينطبق على تطورهم فى التفكير والتجربة والمعرفة العلمية سواء بسواء . . ومن ذلك العداء القديم ومن هذه الرغبة الخفية ينبثق منهج علم الأديان المقارن ؛ ويسمى مع ذلك « علما » ينخدع به الكثيرون !

وإذا جاز أن يخدع أحد بمثل هذا « العلم » فإنه لا ينبغى لمسلم يؤمن بدينه ، ويحترم منهج هـذا الدين فى تقرير مثل هذه الحقيقة أن يخدع لحظة واحـدة ؛ وأن يدلى بقول يصطدم اصطداما مباشرا مع مقررات دينه ، ومع منهجه الواضح فى هذا الشأن الخطير [1] . .

• هذا الموكب الكريم من الرسل واجه البشرية الضالة – إذن – بدعوة واحدة ، وعقيدة واحدة . وكذلك واجهت الجاهلية ذلك الموكب الكريم ، وهذه الدعوة الواحـدة بالعقيدة الواحدة ، مواجهة واحدة – كما يعرضها السياق القرآنى مغضيا عن الزمان والمكان ، مبرزا للحقيقة الواحـدة الموصولة من وراء الزمان والمكان – وكما أن دعوة الرسـل لم تتبدل ، فكذلك مواجهة الجاهلية لم تتبدل !

(١) يراجع ما كتب عن هذه القضية فى الجزء الثانى ص ٧٠ – ص ٧٦ من الطبعة الثانية المنقحة .

Marfat.com

إنها حقيقة تستوقف النظر حقا ! . . إن الجاهلية هى الجاهلية على مدار الزمان . . إن الجاهلية ليست فترة تاريخية ؛ ولكنها وضع واعتقاد وتصور وتجمع عضوى على أساس هذه المقومات . .

والجاهلية تقوم ابتداء على أساس من دينونة العباد للعباد ؛ ومن تأليه غير الله . أو من ربوبية غير الله — وكلاهما سواء فى إنشاء الجاهلية — فسواء كان الاعتقاد قائما على تعدد الآلهة ؛ أو كان قائما على توحيد الإله مع تعدد الأرباب — أى السلاطين — فهو ينشئ الجاهلية بكل خصائصها الثانوية الأخرى !

ودعوة الرسل إنما تقوم على توحيد الله وتنحية الأرباب الزائفة ، وإخلاص الدين لله — أى إخلاص الدينونة لله وإفراده سبحانه بالربوبية ، أى الحاكمية والسلطان — ومن ثم تصطدم اصطداما مباشرا بالقاعدة التى تقوم عليها الجاهلية ؛ وتصبح بذاتها خطرا على وجود الجاهلية . وبخاصة حين تتمثل دعوة الإسلام فى تجمع خاص ، يأخذ أفراده من التجمع الجاهلى ؛ وينفصل بهم عن الجاهلية من ناحية الاعتقاد . ومن ناحية القيادة ، ومن ناحية الولاء . . الأمر الذى لابد منه للدعوة الإسلامية فى كل مكان وفى كل زمان . .

وعندما يشعر التجمع الجاهلى — بوصفه كيانا عضويا واحدا متساندا — بالخطر الذى يتهدد قاعدة وجوده من الناحية الاعتقادية ؛ كما يتهدد وجوده ذاته بتمثل الاعتقاد الإسلامى فى تجمع آخر منفصل عنه ومواجه له . . فعندئذ يسفر التجمع الجاهلى عن حقيقة موقفه تجاه دعوة الإسلام !

إنها المعركة بين وجودين لا يمكن أن يكون بينهما تعايش أو سلام ! المعركة بين تجمعين عضويين كل منهما يقوم على قاعدة مناقضة تماما للقاعدة التى يقوم عليها التجمع الآخر . فالتجمع الجاهلى يقوم على قاعدة تعدد الآلهة ، أو تعدد الأرباب ، ومن ثم يدين فيه العباد للعباد . والتجمع الإسلامى يقوم على قاعدة وحدانية الألوهية ووحدانية الربوبية ؛ ومن ثم لا يمكن فيه دينونة العباد للعباد . .

ولما كان التجمع الإسلامى إنما يأكل فى كل يوم من جسم التجمع الجاهلى ، فى أول الأمر

Marfat.com

Marfat.com

وهو فى دور التكوين ، ثم بعد ذلك لابد له من مواجهة التجمع الجاهلى لتسلم القيادة منه ، وإخراج الناس كافة من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده . لما كانت هذه كلها حتميات لابد منها متى سارت الدعوة الإسلامية فى طريقها الصحيح ، فإن الجاهلية لا تطيق منذ البدء دعوة الإسلام . . ومن هنا ندرك لماذا كانت مواجهة الجاهلية واحدة لدعوة الرسل الكرام ! . . . إنها مواجهة الدفاع عن النفس فى وجه الاجتياح ؛ ومواجهة الدفاع عن الحاكمية المغتصبة وهى من خصائص الألوهية التى يغتصبها فى الجاهلية العباد !

◆ وإذ كان هذا هو شعور الجاهلية بخطر الدعوة الإسلامية عليها ، فقد واجهت هذه الدعوة فى معركة حياة أو موت ، لا هوادة فيها ولا هدنة ولا تعايش ولا سلام ! . إن الجاهلية لم تخدع نفسها فى حقيقة المعركة ؛ وكذلك لم يخدع الرسل الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم - أنفسهم ولا المؤمنين بهم فى حقيقة المعركة . .

« وقال الذين كفروا لرسلهم : لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا » . .

فهم لا يقبلون من الرسل والذين آمنوا معهم ، أن يتميزوا وينفصلوا بعقيدتهم وبقيادتهم وبتجمعهم الخاص . إنما يطلبون إليهم أن يعودوا فى ملتهم ، ويندمجوا فى تجمعهم ، ويذوبوا فى هذا التجمع . أو أن يطردوهم بعيدا وينفوهم من أرضهم . .

ولم يقبل الرسل الكرام أن يندمجوا فى التجمع الجاهلى ، ولا أن يذوبوا فيه ، ولا أن يفقدوا شخصية تجمعهم الخاص . . هذا التجمع الذى يقوم على قاعدة أخرى غير القاعدة التى يقوم عليها التجمع الجاهلى . . ولم يقولوا - كما يقول ناس ممن لا يدركون حقيقة الإسلام . . ولا حقيقة التركيب العضوى للمجتمعات - : حسنا ! فلنندمج فى ملتهم كى نزاول دعوتنا ونخدم عقيدتنا من خلالهم ! ! !

إن تميز المسلم بعقيدته فى المجتمع الجاهلى ، لابد أن يتبعه حتما تميزه بتجمعه الإسلامى وقيادته وولائه . . وليس فى ذلك اختيار . . إنما هى حتمية من حتميات التركيب العضوى للمجتمعات . . هذا التركيب الذى يجعل التجمع الجاهلى حساسا بالنسبة لدعوة الإسلام القائمة على قاعدة عبودية الناس لله وحده ؛ وتنحية الأرباب الزائفة عن مراكز القيادة والسلطان .

Marfat.com

كما يجعل كل عضو مسلم يتميع فى المجتمع الجاهلى خادما للتجمع الجاهلى لاخادما لإسلامه كما يظن بعض الأغرار (١) !

ثم تبقى الحقيقة القدرية التى ينبغى ألا يغفل عنها الدعاة إلى الله فى جميع الأحوال . وهى أن تحقيق وعـد الله لأوليائه بالنصر والتمكين ؛ والفصل بينهم وبين قومهم بالحق ، لايقع ولايكون ، إلا بعد تميز أصحاب الدعوة وتحيزهم ؛ وإلا بعد مفاصلتهم لقومهم على الحق الذى معهم . فذلك الفصل من الله لايقع وأصحاب الدعوة متميعون فى المجتمع الجاهلى ، ذائبون فى أوضاعه ، عاملون فى تشكيلاته . . وكل فترة تميع على هذا النحو هى فترة تأخير وتأجيل لوعد الله بالنصر والتمكين . . وهى تبعة ضخمة هائلة يجب أن يتدبرها أصحاب الدعوة إلى الله ،وهم واعون مقدرون . .

◆ وأخيرا . . نقف أمام الجمال الباهر الذى يعرض فيه القرآن الكريم موكب الإيمان ، وهو يواجه الجاهلية الضالة على مدار الزمان . . جمال الحق الفطرى البسيط الواضح العميق ، الواثق المطمئن ، الرصين المكين :

« قالت رسلهم : أفى الله شك فاطر السماوات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ؟ » . .

. . . « قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون . ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون » . .

وهذا الجمال الباهر إنما ينشأ من هذا العرض الذى يجعل الرسل موكبا موحدا فى مواجهة الجاهلية الموحدة ؛ ويصور الحقيقة الباقية من وراء الملابسات المتغيرة ؛ ويبرز للعالم المميزة للدعوة التى يحملها الرسل وللجاهلية التى تواجههم ، من وراء الزمان والمكان ، ومن وراء الأجناس والأقوام !

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « نشأة المجتمع المسلم وخصائصه » فى كتاب « معالم فى الطريق » .

ثم يتجلى هذا الجمال فى كشف الصلة بين الحق الذى تحمله دعوة الرسل الكرام ، والحق الكامن فى كيان هذا الوجود :

« قالت رسلهم : أفى الله شك فاطر السماوات والأرض ؟ » . .

« ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ؟ » . .

« ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز » . .

وهكذا تتجلى العلاقة العميقة بين الحق فى هذه الدعوة ، والحق الكامن فى الوجود كله . ويبدو أنه حق واحد موصول بالله الحق ، ثابت وطيد عميق الجذور : « كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء » . . وأن ماعداه هو الباطل الزائل « كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار » . .

كذلك يتمثل ذلك الجمال فى شعور الرسل بحقيقة الله ربهم ؛ وفى حقيقة الألوهية كما تتجلى فى قلوب تلك العصبة المختارة من عباده :

« ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون » . .

وكلها لمحات من ذلك الجمال الباهر لايملك التعبير البشرى إلا أن يشير إليها كما يشار إلى النجم البعيد ، لاتبلغ الإشارة مداه ، ولكنها فقط تلفت العين إلى سناه . . .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ * وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ ؟ قُلْ : تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ .

« قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ : يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ .

Marfat.com

« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ ، وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً ، فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ الثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ؛ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ . إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ .

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ : رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا ، وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ، فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ . رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ . فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ، وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ، إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ .

« وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّٰلِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَٰرُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ، لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ، وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ .

« وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ : رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ . أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم

Marfat.com

مِّن زَوَالٍ ؟ * وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ، وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ، وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ؟

« وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ ، وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ ، وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ * فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ، وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ * وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ، وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ * لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ، إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ .

« هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ، وَلِيُنذَرُواْ بِهِ ، وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ، وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ » ﴿٥٢﴾

يبدأ هذا الشوط الثاني من نهاية الشوط الأول ، قائما عليه ، متناسقا معه ، مستمدا منه .

لقد تضمن الشوط الأول رسالة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم . ورسالة موسى ـ عليه السلام ـ لقومه ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويذكرهم بأيام الله . فبين لهم وذكرهم بنعمة الله عليهم ، وأعلن لهم ما تأذن الله به : لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد .. ثم عرض عليهم قصة النبوات والمكذبين . بدأها ثم توارى عن السياق ؛ وتابعت القصة أدوارها ومشاهدها حتى انتهت بالكافرين إلى ذلك الموقف ، الذي يستمعون فيه من الشيطان عظته البليغة ! حيث لا تنفع العظات !

فالآن يعود السياق إلى المكذبين من قوم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ما عرض عليهم ذلك الشريط الطويل ـ أولئك الذين أنعم الله عليهم ـ فيما أنعم ـ برسول يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويدعوهم ليغفر الله لهم ، فإذا هم يكفرون النعمة ، ويردونها ، ويستبدلون بها الكفر ، يؤثرونه على الرسول وعلى دعوة الإيمان . .

Marfat.com

Marfat.com

ومن ثم يبدأ الشوط الثانى بالتعجيب من أمر هؤلاء الذين يبدلون نعمة الله كفرا ، ويقودون قومهم إلى دار البوار ، كما قاد من قبلهم أتباعهم إلى النار . فى قصة الرسل والكفار .

ثم يستطرد إلى بيان نعم الله على البشر فى أضخم المشاهد الكونية البارزة . ويقدم نموذجا لشكر النعمة : إبراهيم الخليل - بعد أن يأمر الذين آمنوا بلون من ألوان الشكر هو الصلاة والبر بعباد الله - قبل أن يأتى يوم لا تربو فيه الأموال . يوم لا بيع فيه ولا خلال .

فأما الذين كفروا فليسوا بمتروكين عن غفلة ولا إهمال ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . . وأما وعد الله لرسله فهو واقع مهما يمكر الذين كفروا وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . .

وهكذا يتماسك الشوط الثانى مع الشوط الأول ويتناسق .

* * *

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ، جهنم يصلونها ، وبئس القرار ؟!

» وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله . قل : تمتعوا فإن مصيركم إلى النار » . .

ألم تر إلى هذا الحال العجيب . حال الذين وهبوا نعمة الله ، ممثلة فى رسول وفى دعوة إلى الإيمان ، وفى قيادة إلى المغفرة ، وإلى مصير فى الجنة . . فإذا هم يتركون هذا كله ويأخذون بدله « كفرا » ! أولئك هم السادة القادة من كبراء قومك - مثلهم مثل السادة القادة من كل قوم - وبهذا الاستبدال العجيب قادوا قومهم إلى جهنم ، وأنزلوهم بها - كما شاهدنا منذ قليل فى الأقوام من قبل ! - وبئس ما أحلوهم من مستقر ، وبئس القرار فيها من قرار !

ألم تر إلى تصرف القوم العجيب ، بعد ما رأوا ما حل بمن قبلهم - وقد عرضه القرآن عليهم عرض رؤية فى مشاهد تلك القصة التى مضى بها الشوط الأول من السورة . عرضه كأنه

وقع فعلا . وإنه لواقع . وما يزيد النسق القرآني على أن يعرض ما تقرر وقوعه في صورة الواقع المشهود .

لقد استبدلوا بنعمة الرسول ودعوته كفرا . وكانت دعوته إلى التوحيد ، فتركوها :

« وجعلوا لله أنداداً لِيُضِلُّوا عن سبيله » ..

جعلوا لله أقرانا مماثلين يعبدونهم كعبادته ، ويدينون لسلطانهم كما يدينون لسلطانه ، ويعترفون لهم بمـا هو من خصائص ألوهيته سبحانه !

جعلوا لله هـذه الأنداد لِيُضِلُّوا الناس عن سبيل الله الواحـد الذى لا يتعدد ولا تتفرق به السبل .

والنص يشير إلى أن كبراء القوم عمدوا عمـدا إلى تضليل قومهم عن سبيل الله ، باتخـاذ هذه الأنداد من دون الله . فعقيدة التوحيـد خطر على سلطان الطواغيت ومصالحهم في كل زمان . لا في زمن الجاهلية الأولى ، ولكن في زمن كل جاهلية ينحرف الناس فيها عن التوحيد المطلق، في أية صورة من صور الانحراف ، فيسلمون قيادهم إلى كبرائهم ، وينزلون لهم عن حرياتهم وشخصياتهم ، ويخضعون لأهوائهم ونزواتهم ، ويتلقون شريعتهم من أهواء هؤلاء الكبراء لا من وحى الله . . عندئذ تصبح الدعوة إلى توحيد الله خطرا على الكبراء يتقونه بكل وسيلة . ومنها كان اتخاذ الآلهة أندادا لله في زمن الجاهليـة الأولى . ومنها اليوم اتخاذ شرائع من عمل البشر ، تأمر بما لم يأمر الله به ، وتنهى عما لم ينه عنه الله . فإذا واضعوها في مكان الند لله في النفوس للضلالة عن سبيل الله ، وفي واقع الحياة !

فيا أيها الرسول « قل » للقوم : « تمتعوا » . . تمتعوا قليلا في هـذه الحياة إلى الأجل الذى قدره الله . والعاقبة معروفة : « فإن مصيركم إلى النار » . .

ودعهم . وانصرف عنهم إلى « عبادى الذين آمنوا » . انصرف عنهم إلى موعظة الذين تجدى فيهم الموعظة . الذين يتقبلون نعمة الله ولا يردونها ، ولا يستبدلون بها الكفر . انصرف إليهم تعلمهم كيف يشكرون النعمة بالعبادة والطاعة والبر بعباد الله :

« قل لعبادى الذين آمنوا : يقيموا الصلاة ، وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، من قبـل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال » . .

Marfat.com

قل لعبادى الذين آمنوا : يشكروا ربهم بإقامة الصلاة . فالصلاة أخص مظاهر الشكر لله . وينفقوا مما أنعمنا عليهم به من الرزق سرا وعلانية . سرا حيث تصان كرامة الآخذين ومروءة المعطين ، فلا يكون الإنفاق تفاخرا وتظاهرا ومباهاة . وعلانية حيث تعلن الطاعة بالإنفاق وتؤدى الفريضة ، وتكون القدوة الطيبة فى المجتمع . وهذا وذلك متروك لحساسية الضمير المؤمن وتقديره للأحوال .

قل لهم : ينفقوا ليربو رصيدهم المدخر من قبل أن يأتى يوم لاتنمو فيه الأموال بتجارة ، ولا تنفع كذلك فيه صداقة ، إنما ينفع المدخر من الأعمال :

« من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال » . .

* * *

وهنا يفتح كتاب الكون على مصراعيه فتنطق سطوره الهائلة بنعم الله التى لا تحصى . وتتوالى صفحاته الضخمة الفسيحة بألوان هذه النعم على مد البصر : السماوات والأرض . الشمس والقمر . الليل والنهار . الماء النازل من السماء والثمار النابتة من الأرض . البحر تجرى فيه الفلك ، والأنهار تجرى بالأرزاق . . هذه الصفحات الكونية المعروضة على الأنظار ، ولكن البشر فى جاهليتهم لاينظرون ولا يقرأون، ولا يتدبرون ولا يشكرون : إن الإنسان لظلوم كفار . يبدل نعمة الله كفرا ، ويجعل لله أندادا ، وهو الخالق الرازق المسخر الكون كله لهذا الإنسان :

« الله الذى خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار » . .

إنها حملة . إنها سياط تلذع الوجدان . . حملة أدواتها الهائلة السماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والبحار والأنهار والأمطار والثمار . . وسياط ذات إيقاع ، وذات رنين ، وذات لذع لهذا الإنسان الظلوم الكفار !

Marfat.com

Marfat.com

إن من معجزات هذا الكتاب أنه يربط كل مشاهد الكون وكل خلجات النفس إلى عقيدة التوحيد . ويحول كل ومضة في صفحة الكون أو في ضمير الإنسان إلى دليل أو إيحاء . . وهكذا يستحيل الكون بكل مافيه وبكل من فيه معرضا لآيات الله . تبدع فيه يد القدرة ، وتتجلى آثارها في كل مشهد فيه ومنظر ، وفي كل صورة فيه وظل . . إنه لا يعرض قضية الألوهية والعبودية في جدل ذهني ولا في لاهوت تجريدي ولا في فلسفة « ميتافيزيقية » ذلك العرض الميت الجاف الذي لايمس القلب البشري ولا يؤثر فيه ولا يوحي إليه . . إنما هو يعرض هذه القضية في مجال المؤثرات والموحيات الواقعية من مشاهد الكون ، ومجالي الخلق ، ولمسات الفطرة ، وبديهيات الإدراك . في جمال وروعة واتساق .

والمشهد الهائل الحافل المعروض هنا لأيادي الله وآلائه تسير فيه خطوط الريشة المبدعة وفق اتجاه الآلاء بالقياس إلى الإنسان : خط السماوات والأرض . يتبعه خط الماء النازل من السماء والثمرات النابتة من الأرض بهذا الماء . فخط البحر تجري فيه الفلك والأنهار تجري بالأرزاق . . ثم تعود الريشة إلى لوحة السماء بخط جديد . خط الشمس والقمر . فخط آخر في لوحة الأرض متصل بالشمس والقمر : خط الليل والنهار . . ثم الخط الشامل الأخير الذي يلون الصفحة كلها ويظللها :

« وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها » . .

إنه الإعجاز الذي تتناسق فيه كل لمسة وكل خط وكل لون وكل ظل . في مشهد الكون ومعرض الآلاء .

أفكل هذا مسخر للإنسان ؟ أفكل هذا الكون الهائل مسخر لذلك المخلوق الصغير ؟ السماوات ينزل منها الماء ، والأرض تتلقاه ، والثمرات تخرج من بينهما . والبحر تجري فيه الفلك بأمر الله مسخرة . والأنهار تجري بالحياة والأرزاق في مصلحة الإنسان . والشمس والقمر مسخران دائبان لايفتران . والليل والنهار يتعاقبان . . أفكل أولئك للإنسان ؟ ثم لايشكر ولا يذكر ؟

« إن الإنسان لظلوم كفار » !

« الله الذى خلق السماوات والأرض » . .

وبعد ذلك يجعلون لله أندادا ، فكيف يكون الظلم فى التقدير ، والظلم فى عبادة خلق من خلقه فى السماوات أو فى الأرض ؟

« وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » . .

والزرع مورد الرزق الأول ، ومصدر النعمة الظاهر . وللمطر والإنبات كلاهما يتبع السنة التى فطر الله عليها هذا الكون ، ويتبع الناموس الذى يسمح بنزول المطر وإنبات الزرع وخروج الثمر ، وموافقة هـذا كله للإنسان . وإنبات حبة واحدة يحتاج إلى القوة المهيمنة على هذا الكون كله لتسخر أجرامه وظواهره فى إنبات هذه الحبة وإمدادها بعوامل الحياة من تربة وماء وأشعة وهواء . . والناس يسمعون كلمة « الرزق » فلا يتبادر إلى أذهانهم إلا صورة الكسب المال . ولكن مدلول « الرزق » أوسع من ذلك كثيرا ، وأعمق من ذلك كثيرا . . إن أقل « رزق » يرزقه الكائن الإنسانى فى هذا الكون يقتضى تحريك أجرام هذا الكون وفق ناموس يوفر مئات الآلاف من الموافقات المتواكبة المتناسقة التى لولاها لم يكن لهذا الكائن ابتداء وجود ؛ ولم تكن له بعد وجوده حياة وامتداد . ويكفى ماذكر فى هذه الآيات من تسخير الأجرام والظواهر ليدرك الإنسان كيف هو مكفول محمول بيد الله . .

« وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره » . .

بما أودع فى العناصر من خصائص تُجرى الفلك على سطح الماء ؛ وبما أودع فى الإنسان من خصائص يدرك بها ناموس الأشياء ؛ وكلها مسخرة بأمر الله للإنسان .

« وسخر لكم الأنهار » . .

تجرى فتجرى الحياة ، وتفيض فيفيض الخير ، وتحمل ماتحمل فى جوفها من أسماك وأعشاب وخيرات . . كلها للإنسان ولما يستخدمه الإنسان من طير وحيوان . .

« وسخر لكم الشمس والقمر دائبين » . .

لا يستخدمهما الإنسان مباشرة كما يستخدم الماء والثمار والبحار والفلك والأنهار . . ولكنه ينتفع بآثارهما ، ويستمد منهما مواد الحياة وطاقاتها . فهما مسخران بالناموس

Marfat.com

الكونى ليصدر عنهما ما يستخدمه هذا الإنسان فى حياته ومعاشه بل فى تركيب خلاياه وتجديدها .

« وسخر لكم الليل والنهار » . . .

سخرهما كذلك وفق حاجة الإنسان وتركيبه ، وما يناسب نشاطه وراحته . ولو كان نهار دائم أو ليل دائم لفسد جهاز هذا الإنسان ؛ فضلا على فساد ماحوله كله ، وتعذر حياته ونشاطه وإنتاجه .

وليست هذه سوى الخطوط العريضة فى صفحة الآلاء المديدة . ففى كل خط من النقط مالا يحصى . ومن ثم يضم إليها على وجه الإجمال للتناسب للوحة المعروضة والجو الشامل :

« وآتاكم من كل ماسألتموه » . .

من مال وذرية وصحة وزينة ومتاع . . .

« وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها » . .

فهى أكبر وأكثر من أن يحصيها فريق من البشر ، أو كل البشر . وكلهم محدودون بين حدين من الزمان : بدء ونهاية . وبين حدود من العلم تابعة لحدود الزمان والمكان . ونعم الله مطلقة ـ فوق كثرتها ـ فلا يحيط بها إدراك إنسان . .

وبعد ذلك كله تجعلون لله أندادا ، وبعد ذلك كله لاتشكرون نعمة الله بل تبدلونها كفرا . .

« إن الإنسان لظلوم كفار » ! ! !

* * *

وحين يستيقظ ضمير الإنسان ، ويتطلع إلى الكون من حوله ، فإذا هو مسخر له ، إما مباشرة ، وإما بموافقة ناموسه لحياة البشر وحوائجهم ؛ ويتأمل فيما حوله فإذا هو صديق له برحمة الله ، معين بقدرة الله ، ذلول له بتسخير الله . . حين يستيقظ ضمير الإنسان فيتطلع ويتأمل ويتدبر . لابد يرجف ويخشع ويسجد ويشكر ، ويتطلع دائما إلى ربه المنعم : حين يكون فى الشدة ليبدله منها يسرا ، وحين يكون فى الرخاء ليحفظ عليه النعماء .

Marfat.com

Marfat.com

والنموذج الكامل للإنسان الذاكر الشاكر هو أبو الأنبياء . إبراهيم . الذى يظلل سمته هذه السورة ، كما تظللها النعمة وما يتعلق بها من شكران أو كفران . . ومن ثم يأتى به السياق فى مشهد خاشع . يظلله الشكر ، وتشيع فيه الضراعة ، ويتجاوب فيه الدعاء ، فى نغمة رخية متموجة ، ذاهبة فى السماء .

« وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا البلد آمنا ، واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام . ربّ إنهن أضللن كثيرا من الناس ، فمن تبعنى فإنه منى ؛ ومن عصانى فإنك غفور رحيم . ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء . الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربى لسميع الدعاء . رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ، ربنا وتقبل دعاء . ربنا اغفر لى ولوالدىّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » . .

إن السياق يصور إبراهيم — عليه السلام — إلى جوار بيت الله الذى بناه فى البلد الذى آل إلى قريش ، فإذا بها تكفر فيه بالله ، مرتكنة إلى البيت الذى بناه بانيه لعبادة الله ! فيصوره فى هذا المشهد الضارع الخاشع الذاكر الشاكر ، لرد الجاحدين إلى الاعتراف ، ورد الكافرين إلى الشكر ، ورد الغافلين إلى الذكر ، ورد الشاردين من أبنائه إلى سيرة أبيهم لعلهم يقتدون بها ويهتدون .

ويبدأ إبراهيم دعاءه :

« رب اجعل هذا البلد آمنا » . .

فنعمة الأمن نعمة ماسة بالإنسان ، عظيمة الوقع فى حسه ، متعلقة بحرصه على نفسه . والسياق يذكرها هنا ليذكر بها سكان ذلك البلد ، الذين يستطيلون بالنعمة ولا يشكرونها . وقد استجاب الله دعاء أبيهم إبراهيم فجعل البلد آمنا ، ولكنهم هم سلكوا غير طريق إبراهيم ، فكفروا النعمة ، وجعلوا لله أندادا ، وصدوا عن سبيل الله . ولقد كانت دعوة أبيهم التالية لدعوة الأمن :

Marfat.com

« واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام » . .

ويبدو فى دعوة إبراهيم الثانية تسليم إبراهيم المطلق إلى ربه ، والتجاؤه إليه فى أخص مشاعر قلبه . فهو يدعوه أن يجنبه عبادة الأصنام هو وبنيه ، يستعينه بهذا الدعاء ويستهديه . ثم ليبرز أن هذه نعمة أخرى من نعم الله . وإنها لنعمة أن يخرج القلب من ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده . فيخرج من التيه والحيرة والضلال والشرود ، إلى المعرفة والطمأنينة والاستقرار والهدوء . ويخرج من الدينونة المذلة لشتى الأرباب . إلى الدينونة الكريمة العزيزة لرب العباد . . إنها لنعمة يدعو إبراهيم ربه ليحفظها عليه ، فيجنبه هو وبنيه أن يعبد الأصنام .

يدعو إبراهيم دعوته هذه لما شهده وعلمه من كثرة من ضلوا بهذه الأصنام من الناس فى جيله وفى الأجيال التى قبله ؛ ومن فتنهم بها ومن افتتنوا وهم خلق كثير :

« رب إنهن أضللن كثيرا من الناس » . .

ثم يتابع الدعاء . . فأما من تبع طريقى فلم يفتتن بهـا فهو منى ، ينتسب إلى ويلتقى معى فى الآصرة الكبرى ، آصرة العقيدة :

« فمن تبعنى فإنه منى » . .

وأما من عصانى منهم فأفوض أمره إليك :

« ومن عصانى فإنك غفور رحيم » . .

وفى هذا تبدو سمة إبراهيم العطوف الرحيم الأواه الحليم ؛ فهو لا يطلب الهلاك لمن يعصيه من نسله ويحيد عن طريقه ، ولا يستعجل لهم العذاب ؛ بل لا يذكر العذاب ، إنما يكلهم إلى غفران الله ورحمته . ويلقى على الجو ظلال المغفرة والرحمة ؛ وتحت هـذا الظل يتوارى ظل المعصية ؛ فلا يكشف عنه إبراهيم الرحيم الحليم !

ويمضى إبراهيم فى دعائه يذكر إسكانه لبعض أبنائه بهـذا الوادى الجدب المقفر المجاور للبيت المحرم ، ويذكر الوظيفة التى أسكنهم فى هذا القفر الجدب ليقوموا بها :

« ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » . .

لمـاذا ؟

« ربنا ليقيموا الصلاة » . .

فهذا هو الذى من أجـله أسكنهم هناك ، وهذا هو الذى من أجله يحتملون الجـدب والحرمان .

« فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم » . .

وفى التعبير رقة ورفرفة ، تصور القلوب رفافة مجنحة ، وهى تهوى إلى ذلك البيت وأهله فى ذلك الوادى الجديب . إنه تعبير ندىّ يندّى الجدب برقة القلوب . .

« وارزقهم من الثمرات » . .

عن طريق تلك القلوب التى ترف عليهم من كل فج . . لمـاذا ؟ أليأكلوا ويطعموا ويستمتعوا ؟ نعم ! ولـكن لينشأ عن ذلك مايرجوه إبراهيم الشكور :

« لعلهم يشـكرون » . .

وهـكذا يبرز السياق هدف السكنى بجوار البيت الحرام . . إنه إقامة الصلاة على أصولها كاملة لله . ويبرز هـدف الدعاء برفرفة القلوب وهويّها إلى أهل البيت ورزقهم من ثمرات الأرض . . إنه شكر الله المنعم الوهاب .

وفى ظل هـذا الدعاء تبدو المفارقة واضحة فى موقف قريش جـيرة البيت المحرم . . فلا صلاة قائمة لله ، ولا شكر بعد استجابة الدعاء ، وهوىّ القلوب والثمرات !

ويعقب إبراهيم على دعاء الله لذريته السا كنة بجوار بيته المحرم لتقيم الصلاة وتشـكر الله . . يعقب على الدعاء بتسجيله لعلم الله الذى يطلع على مافى قلوبهم من توجه وشكر ودعاء . فليس القصد هو المظاهرات والأدعيـة والتصدية والمـكاء . إنما هو توجه القلب إلى الله الذى يعلم السر والجهر ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء :

« ربنـا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن : وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء » . .

Marfat.com

ويذكر إبراهيم نعمة الله عليه من قبل ؛ فيلهج لسانه بالحمد والشكر شأن لعبد الصالح يذكر فيشكر :

« الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربى لسميع الدعاء » . .

وهبة الذرية على الكبر أوقع فى النفس . فالذرية امتداد . وما أجل الإنعام به عند شعور الفرد بقرب النهاية ، وحاجته النفسية الفطرية إلى الامتداد . وإن إبراهيم ليحمد الله ، ويطمع فى رحمته :

« إن ربى لسميع الدعاء » .

ويعقب على الشكر بدعاء الله أن يجعله مديما للشكر . الشكر بالعبادة والطاعة فيعلن بهذا تصميمه على العبادة وخوفه أن يعوقه عنها عائق ، أو يصرفه عنها صارف ، ويستعين الله على إنفاذ عزيمته وقبول دعائه :

« رب اجعلنى مقيم الصلاة . ومن ذريتى . ربنا وتقبل دعاء » . .

وفى ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة مرة أخرى فى موقف جيرة البيت من قريش . وهذا إبراهيم يجعل عون الله له على إقامة الصلاة رجاء يرجوه ، ويدعو الله ليوفقه إليه . وهم ينأون عنها ويعرضون ، ويكذبون الرسول الذى يذكرهم بما كان إبراهيم يدعو الله أن يعينه عليه هو وبنيه من بعده !

ويختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين جميعا ، يوم يقوم الحساب ، فلا ينفع إنسانا إلا عمله ؛ ثم مغفرة الله فى تقصيره :

« ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » . .

وينتهى المشهد الطويل : مشهد الدعاء الخاشع الضارع . ومشهد تعداد النعم والشكر عليها . . فى إيقاع موسيقى متموج رخى . . ينتهى بعد أن يخلع على الموقف كله ظلا وديعا لطيفا ، تهفو القلوب معه إلى جوار الله ، وتذكر القلوب فيه نعم الله . ويرتسم إبراهيم أبو الأنبياء نموذجا للعبد الصالح الذاكر الشاكر ، كما ينبغى أن يكون عباد الله ، الذين وجه الحديث إليهم قبيل هذا الدعاء . .

Marfat.com

ولا يفوتنا أن نلمح تكرار إبراهيم- عليه السلام - في كل فقرة من فقرات دعائه الخاشع المنيب لكلمة: « ربنا » أو « ربِّ » . فإن لهجان لسانه بذكر ربوبية الله له ولبنيه من بعده ذات مغزى .. إنه لايذكر الله - سبحانه - بصفة الألوهية ، إنما يذكره بصفة الربوبية . فالألوهية قلما كانت موضع جدال فى معظم الجاهليات - وبخاصة فى الجاهلية العربية - إنما الذى كان دائما موضع جدل هو قضية الربوبية . قضية الدينونة فىواقع الحياة الأرضية . وهى القضية العملية الواقعية المؤثرة فى حياة الإنسان . والتى هى مفرق الطريق بين الإسلام والجاهلية وبين التوحيد والشرك فى عالم الواقع .. فإما أن يدين الناس لله فيكون ربهم وإما أن يدينوا لغير الله فيكون غيره ربهم .. وهذا هو مفرق الطريق بين التوحيد والشرك وبين الإسلام والجاهلية فى واقع الحياة . والقرآن وهو يعرض على مشركى العرب دعاء أبيهم إبراهيم والتركيز فيه على قضية الربوبية كان يلفتهم إلى ما هم فيه من مخالفة واضحة لمدلول هذا الدعاء !

* * *

ثم يكمل السياق الشوط مع « الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار » .. وهم مايزالون بعد فى ظلمهم لم يأخذهم العذاب . والذين أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لهم : « تمتعوا فإن مصيركم إلى النار » .. وأن ينصرف إلى عباد الله المؤمنين يأمرهم بالصلاة والإنفاق سرا وعلانية « من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولا خلال » ..

يكمل السياق الشوط ليكشف عما أعد للكافرين بنعمة الله ؛ ومتى يلقون مصيرهم المحتوم ؛ وذلك فى مشاهد متعاقبة من مشاهد القيامة ، تزلزل الأقدام والقلوب :

« ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رؤوسهم لايرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء » ..

والرسول - صلى الله عليه وسلم - لايحسب الله غافلا عما يعمل الظالمون . ولكن ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتعون ، ويسمع بوعيد الله ، ثم لايراه واقعا بهم فى هذه الحياة الدنيا . بهذه الصيغة تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة ،

Marfat.com

التي لا إمهال بعدها ، ولا فكاك منها . أخذهم في اليوم العصيب الذي تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع ، فتظل مفتوحة مبهوتة مذهولة ، مأخوذة بالهول لاتطرف ولا تتحرك . ثم يرسم مشهدا للقوم في زحمة الهول . . مشهدهم مسرعين لايلوون على شيء ، ولا يلتفتون إلى شيء . رافعين رؤوسهم لاعن إرادة ولكنها مشدودة لايملكون لها حراكا . يمتد بصرهم إلى مايشاهدون من الرعب فلا يطرف ولا يرتد إليهم . وقلوبهم من الفزع خاوية خالية لاتضم شيئا يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه ، فهي هواء خواء . .

هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه . حيث يقفون هذا الموقف ، ويعانون هذا الرعب . الذي يرتسم من خلال المقاطع الأربعة مذهلا آخذا بهم كالطائر الصغير في مخالب الباشق الرعيب :

« إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء » . .

فالسرعة المهرولة المدفوعة ، في الهيئة الشاخصة المكرهة المشدودة ، مع القلب المفزع الطائر الخاوي من كل وعي ومن كل إدراك . . كلها تشي بالهول الذي تشخص فيه الأبصار . .

هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه ، والذي ينتظرهم بعد الإمهال هناك . فأنذر الناس أنه إذا جاء فلا اعتذار يومئذ ولا فكاك . . وهنا يرسم مشهدا آخر لليوم الرعيب المنظور :

« وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ، فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال ؟! وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبين لكم كيف فعلنا بهم ، وضربنا لكم الأمثال ؟ » . .

أنذرهم يوم يأتيهم ذلك العذاب المرسوم آنفا ، فيتوجه الذين ظلموا يومئذ إلى الله بالرجاء ، يقولون :

« ربنا » . .

Marfat.com

Marfat.com

الآن وقد كانوا يكفرون به من قبل ويجعلون له أندادا !

« أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل » . .

وهنا ينقلب السياق من الحكاية إلى الخطاب . كأنهم ماثلون شاخصون يطلبون . وكأننا فى الآخرة وقد انطوت الدنيا وما كان فيها . فها هو ذا الخطاب يوجه إليهم من الملأ الأعلى بالتبكيت والتأنيب ، والتذكير بما فرط منهم فى تلك الحياة :

«أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال ؟ ! » . .

فكيف ترون الآن ؟ ! زلتم ياترى أم لم تزولوا ؟ ! ولقد قلتم قولتكم هذه وآثار الغابرين شاخصة أمامكم مثلا بارزا للظالمين ومصيرهم المحتوم :

« وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » . .

فكان عجيبا أن تروا مساكن الظالمين أمامكم ، خالية منهم ، وأنتم فيها خلفاء ، ثم تقسمون مع ذلك :

« مالكم من زوال » !

وعند هذا التبكيت ينتهى المشهد . وندرك أين صاروا ، وماذا كان بعد الدعاء وخيبة الرجاء .

وإن هذا المثل ليتجدد فى الحياة ويقع كل حين . فكم من طغاة يسكنون مساكن الطغاة الذين هلكوا من قبلهم . وربما يكونون قد هلكوا على أيديهم . ثم هم يطغون بعد ذلك ويتجبرون ؛ ويسيرون حذوك النعل بالنعل سيرة الهالكين ؛ فلا تهز وجدانهم تلك الآثار الباقية التى يسكنونها ، والتى تتحدث عن تاريخ الهالكين ، وتصور مصائرهم للناظرين . ثم يؤخذون إخذة الغابرين ، ويلحقون بهم وتخلو منهم الديار بعد حين !

* * *

ثم يلتفت السياق بعد أن يسدل عليهم الستار هناك ، إلى واقعهم الحاضر ، وشدة مكرهم

بالرسول وللمؤمنين ، وتدبيرهم الشر فى كل نواحى الحياة . فيلقى فى الروع أنهم مأخوذون إلى ذلك المصير ، مهما يكن مكرهم من العنف والتدبير :

« وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم . . وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » . .

إن الله محيط بهم وبمكرهم ، وإن كان مكرهم من القوة والتأثير حتى ليؤدى إلى زوال الجبال ، أثقل شيء وأصلب شيء ، وأبعد شيء عن تصور التحرك والزوال . فإن مكرهم هذا ليس مجهولا وليس خافيا وليس بعيدا عن متناول القدرة . بل إنه لحاضر « عند الله » يفعل به كيفما يشاء .

« فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله . إن الله عزيز ذو انتقام » . .

فما لهذا المكر من أثر ، وما يعوق تحقيق وعد الله لرسله بالنصر وأخذ الماكرين أخذ عزيز مقتدر :

« إن الله عزيز ذو انتقام » . .

لايدع الظالم يفلت ، ولا يدع الماكر ينجو . . وكلمة الانتقامَ هنا تلقى الظل المناسب للظلم وللمكر ، فالظالم الماكر يستحق الانتقام ، وهو بالقياس إلى الله تعالى يعنى تعذيبهم جزاء ظلمهم وجزاء مكرهم ، تحقيقا لعدل الله فى الجزاء .

وسيكون ذلك لامحالة :

« يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات » . .

ولا ندرى نحن كيف يتم هـذا ، ولا طبيعة الأرض الجـديدة وطبيعة السماوات ، ولا مكانها ؛ ولكن النص يلقى ظلال القدرة القادرة التى تبـدل الأرض وتبدل السماوات ؛ فى مقابل ذلك المكر الذى مهما اشتد فهو ضئيل عاجز حسير .

وفجأة نرى ذلك قد تحقق :

« وبرزوا لله الواحد القهار » . .

وأحسوا أنهم مكشوفون لايسترهم ساتر ، ولا يخفيهم واق . ليسوا فى دورهم وليسوا فى

Marfat.com

قبورهم . إنما هم فى العراء أمام الواحد القهار .. ولفظة « القهار » هنا تشترك فى ظل التهديد بالقوة القاهرة التى لا يقف لها كيد الجبابرة . وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال .

ثم ها نحن أولاء أمام مشهد من مشاهد العذاب العنيف القاسى المذل ، يناسب ذلك المكر وذلك الجبروت :

« وترى المجرمين يومئذ مقرّنين فى الأصفاد سرابيلهم من قَطران وتغشى وجوههم النار » ..

فشهد المجرمين : اثنين اثنين مقرونين فى الوثاق ، يمرون صفا وراء صف .. مشهد مذل دال كذلك على قدرة القهار . ويضاف إلى قرنهم فى الوثاق أن سرابيلهم وثيابهم من مادة شديدة القابلية للالتهاب ، وهى فى ذات الوقت قذرة سوداء ... « من قطران » .. ففيها الذل والتحقير ، وفيها الإيحاء بشدة الاشتعال بمجرد قربهم من النار !

« وتغشى وجوههم النار » ..

فهو مشهد العذاب المذل المتلظى المشتعل جزاء المكر والاستكبار ..

« ليجزى الله كل نفس ما كسبت . إن الله سريع الحساب » ..

ولقد كسبوا المكر والظلم فجزاؤهم القهر والذل . إن الله سريع الحساب . فالسرعة فى الحساب هنا تناسب المكر والتدبير الذى كانوا يحسبونه يحميهم ويخفيهم ، ويعوق انتصار أحد عليهم . فهاهم أولاء يجزون ما كسبوا ذلا وألما وسرعة حساب !

* * *

وفى النهاية تختم السورة بمثل مابدأت ، ولكن فى إعلان عام جهير الصوت ، عالى الصدى ، لتبليغ البشرية كلها فى كل مكان :

« هذا بلاغ للناس ، ولينذروا به ، وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولو الألباب » .

إن الغاية الأساسية من ذلك البلاغ وهذا الإنذار ، هى أن يعلم الناس « أنما هو إله واحد » .. فهذه هى قاعدة دين الله التى يقوم عليها منهجه فى الحياة .

وليس المقصود بطبيعة الحال مجرد العلم ، إنما المقصود هو إقامة حياتهم على قاعدة هذا

Marfat.com

العلم . . المقصود هو الدينونة لله وحده ، ما دام أنه لا إله غيره . فالإله هو الذى يستحق أن يكون ربا - أى حاكما وسيدا ومتصرفا ومشرعا وموجها - وقيام الحياة البشرية على هذه القاعدة يجعلها تختلف اختلافا جوهريا عن كل حياة تقوم على قاعدة ربوبية العباد للعباد - أى حاكمية العباد للعباد ودينونة العباد للعباد - وهو اختلاف يتناول الاعتقاد والتصور ، ويتناول الشعائر والمناسك ؛ كما يتناول الأخلاق والسلوك ، والقيم والموازين ؛ وكما يتناول الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وكل جانب من جوانب الحياة الفردية والجماعية على السواء .

إن الاعتقاد بالألوهية الواحدة قاعدة لمنهج حياة متكامل ؛ وليس مجرد عقيدة مستكنة فى الضمائر . وحدود العقيدة أبعد كثيرا من مجرد الاعتقاد الساكن . . إن حدود العقيدة تتسع وتترامى حتى تتناول كل جانب من جوانب الحياة . . وقضية الحاكمية بكل فروعها فى الإسلام هى قضية عقيدة . كما أن قضية الأخلاق بجملتها هى قضية عقيدة . فمن العقيدة ينبثق منهج الحياة الذى يشتمل الأخلاق والقيم ؛ كما يشتمل الأوضاع والشرائع سواء بسواء . .

ونحن لا ندرك مرامى هذا القرآن قبل أن ندرك حدود العقيدة فى هذا الدين ، وقبل أن ندرك مدلولات : « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » على هذا المستوى الواسع البعيد الآماد . وقبل أن نفهم مدلول : العبادة لله وحده ؛ ونحدده بانه الدينونة لله وحده ؛ لا فى لحظات الصلاة ، ولكن فى كل شأن من شؤون الحياة !

إن عبادة الأصنام التى دعا إبراهيم - عليه السلام - ربه أن يجنبه هو وبنيه إياها ، لا تتمثل فقط فى تلك الصورة الساذجة التى كان يزاولها العرب فى جاهليتهم ، أو التى كانت تزاولها شتى الوثنيات فى صور شتى ، مجسمة فى أحجار أو أشجار ، أو حيوان أو طير ، أو نجم أو نار ، أو أرواح أو أشباح ...

إن هذه الصور الساذجة كلها لا تستغرق كل صور الشرك بالله ، ولا تستغرق كل صور العبادة للأصنام من دون الله . والوقوف بمدلول الشرك عند هذه الصور الساذجة يمنعنا من رؤية صور الشرك الأخرى التى لا نهاية لها ؛ ويمنعنا من الرؤية الصحيحة لحقيقة ما يعتور البشرية من صور الشرك والجاهلية الجديدة !

Marfat.com

ولا بد من التعمق فى إدراك طبيعة الشرك وعلاقة الأصنام بها ؛ كما أنه لا بد من التعمق فى معنى الأصنام ، وتمثل صورها المتجددة مع الجاهليات المستحدثة !

إن الشرك بالله - المخالف لشهادة أن لا إله إلا الله - يتمثل فى كل وضع وفى كل حالة لا تكون فيها الدينونة فى كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحده . ويكفى أن يدين العبد لله فى جوانب من حياته ، بينما هو يدين فى جوانب أخرى لغير الله ، حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته . . وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الدينونة الكثيرة . . والأمثلة الحاضرة فى حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعى للشرك فى أعماق طبيعته . . إن العبد الذى يتوجه لله بالاعتقاد فى ألوهيته وحده ؛ ثم يدين لله فى الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر . بينما هو فى الوقت ذاته يدين فى حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله . ويدين فى قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صنع غير الله . ويدين فى أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء - مخالفة لشرع الله وأمره - إن هذا العبد يزاول الشرك فى أخص حقيقته ؛ ويخالف عن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فى أخص حقيقتها . . وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه فى ترخص وتميع ، وهم لا يحسبونه الشرك الذى كان يزاوله المشركون فى كل زمان ومكان !

والأصنام . . ليس من الضرورى أن تتمثل فى تلك الصور الأولية الساذجة . . فالأصنام ليست سوى شعارات للطاغوت ، يتخفى وراءها لتعبيد الناس باسمها ، وضمان دينونتهم له من خلالها . .

إن الصنم لم يكن ينطق أو يسمع أو يبصر . . إنما كان السادن أو الكاهن أو الحاكم يقوم من ورائها ؛ يتمتم حولها بالتعاويذ والرقى . . ثم ينطق باسمها بما يريد هو أن ينطق لتعبيد الجماهير وتذليلها !

فإذا رفعت فى أى أرض وفى أى وقت شعارات ينطق باسمها الحكام والكهان ، ويقررون باسمها ما لم يأذن به الله من الشرائع والقوانين والقيم والموازين والتصرفات والأعمال . . . فهذه هى الأصنام فى طبيعتها وحقيقتها ووظيفتها !

Marfat.com

إذا رفعت « القومية » شعارا ، أو رفع « الوطن » شعارا ، أو رفع « الشعب » شعارا ، أو رفعت « الطبقة » شعارا . . . ثم أريد الناس على عبادة هـذه الشعارات من دون الله ؛ وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأخـلاق والأعراض . بحيث كلما تعارضت شريعـة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعليماته مع مطالب تلك الشعارات ومقتضياتها ، نحيت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعـاليمه ، ونفذت إرادة تلك الشعارات ـ أو بالتعبير الصحيح الدقيق : إرادة الطواغيت الواقفة وراء هـذه الشعارات ـ كانت هـذه هي عبادة الأصنام من دون الله . . فالصنم ليس من الضروري أن يتمثـل في حجر أو خشبة ؛ ولقد يـكون الصنم مذهبـا أو شعارا !

إن الإسلام لم يجيء لمجرد تحطيم الأصنام الحجرية والخشبية ! ولم تبذل فيـه تلك الجهود الموصولة ، من موكب الرسـل الموصول ؛ ولم تقدم من أجـله تلك التضحيات الجسام وتلك العذابات والآلام ، لمجرد تحطيم الأصنام من الأحجار والأخشاب !

إنما جاء الإسـلام ليقيم مفرق الطريق بين الدينونة لله وحـده في كل أمر وفي كل شـأن ؛ وبين الدينونة لغيره في كل هيئـة وفي كل صورة . . ولابد من تتبع الهيئات والصور في كل وضع وفي كل وقت لإدراك طبيعـة الأنظمة والمناهج القـائمة ، وتقرير ماإذا كانت توحيدا أم شركا ؟ دينونة لله وحده أم دينونة لشتى الطواغيت والأرباب والأصنام !

والذين يظنون أنفسهم في « دين الله » لأنهم يقولون بأفواههم « نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » ، ويدينون لله فعلا في شؤون الطهارة والشعائر والزواج والطـلاق والميراث .. بينما هم يدينون فيما وراء هذا الركن الضيق لغير الله ؛ ويخضعون لشرائع لم يأذن بها الله ـ وكثرتها مما يخالف مخالفة صريحـة شريعة الله ـ ثم هم يبذلون أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وأخلاقهم ـ أرادوا أم لم يريدوا ـ ليحققوا ماتتطلبه منهم الأصنام الجديدة . فإذا تعارض دين أو خلق أو عرض مع مطالب هذه الأصنام ، نبذت أوامر الله فيها ونفذت مطالب هذه الأصنام ...

الذين يظنون أنفسهم « مسلمين » وفي « دين الله » وهذا حالهم . . عليهم أن يستفيقوا لما هم فيه من الشرك العظيم !!!

إن دين الله ليس بهذا الهزال الذى يتصوره من يزعمون أنفسهم « مسلمين » فى مشارق الأرض ومغاربها ! إن دين الله منهج شامل لجزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها . والدينونة لله وحده فى كل تفصيل وكل جزئية من جزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها ـ فضلا على أصولها وكلياتها ـ هى دين الله ، وهى الإسلام الذى لايقبل الله من أحد دينا سواه .

وإن الشرك بالله لايتمثل فحسب فى الاعتقاد بألوهية غيره معه ؛ ولكنه يتمثل ابتداء فى تحكيم أرباب غيره معه ..

وإن عبادة الأصنام لاتتمثل فى إقامة أحجار وأخشاب ؛ بقدر ماتتمثل فى إقامة شارات لها كل مالتلك الأصنام من نفوذ ومقتضيات !

ولينظر الناس فى كل بلد لمن المقام الأعلى فى حياتهم ؟ ولمن الدينونة الكاملة ؟ ولمن الطاعة والاتباع والامتثال ؟ .. فإن كان هذا كله لله فهم فى دين الله . وإن كان لغير الله ـ معه أو من دونه ـ فهم فى دين الطواغيت والأصنام .. والعياذ بالله . . !

« هـذا بلاغ للناس ، ولينذروا به ، وليعلموا أنما هو إله واحـد ، وليذكر أولو الألباب » . .

أنتهى الجزء الثالث عشر
ويليه الجزء الرابع عشر
مبدوءا بسورة الحجر

Marfat.com

في ظلال القرآن

الجزء الرابع عشر

بقلم

سيد قطب

Marfat.com

من سورة الحجر

بسم الله الرحمن الرحيم

Marfat.com

Marfat.com

سُورَةُ الحِجْرِ مَكِّيَّة
الآيَة ٨٧ فَمَدَنِيَّة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

« ألر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ۞ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ * ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ * وَقَالُوا : يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ! مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ * وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا : إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ .

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً ، وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ، وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ

لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ، فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ، وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ * وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ : يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ؟ قَالَ : لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ : فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ : رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ : فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ : رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ : هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ .

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ، وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » ﴿٤٨﴾

Marfat.com

محور هذه السورة الأول هو إبراز المصير المخوف الذى ينتظر الكافرين المكذبين .. وحول هذا المحور يدور السياق فى عدة جولات ، متنوعة الموضوع والمجال ، ترجع كلها إلى ذلك المحور الأصيل . سواء فى ذلك القصة ، ومشاهد الكون ،ومشاهد القيامة ، والتوجيهات والتعقيبات التى تسبق القصص وتتخلله وتعقب عليه .

وإذا كان جو سورة الرعد يذكر بجو سورة الأنعام . فإن جو هذه السورة ـ الحجر ـ يذكر بجو سورة الأعراف . ـ وابتداؤها كان بالإنذار ، وسياقها كله جاء مصداقا للإنذار ـ فهنا كذلك فى سورة الحجر يتشابه البدء والسياق ، مع اختلاف فى الطعم والمذاق !

إن الإنذار فى مطلع سورة الأعراف صريح : « كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ، لتنذر به وذكرى للمؤمنين » والآية الرابعة فيها تقول : « وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون » .. ثم ترد فيها قصة آدم وإبليس ويتابعها السياق حتى تنتهى الحياة الدنيا . ويعود الجميع إلى ربهم ، فيجدوا مصداق النذير .. ويلى القصة عرض لبعض مشاهد الكون : السماوات والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، والرياح والسحاب والماء والثمرات .. ويلى ذلك قصص قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى : وكلها تصدق النذير ..

وهنا فى سورة الحجر يجىء الإنذار كذلك فى مطلعها ، ولكن ملفعا بظل من التهويل والغموض : « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون . وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » .. ثم يعرض السياق بعض مشاهد الكون : السماء وما فيها من بروج ، والأرض الممدودة والرواسى الراسخة ، والنبت الموزون ، والرياح اللواقح والماء والسقيا والحياة والموت والحشر للجميع .. يلى ذلك قصة آدم وإبليس ، منتهية بمصير أتباعه ومصير المؤمنين .. ومن ثم لمحات من قصص إبراهيم ولوط وشعيب وصالح منظور فيها إلى مصائر المكذبين .

فالمحور فى السورتين واحد ، ولكن شخصية كل منهما متميزة ؛ وإيقاعهما يتشابه ولا

Marfat.com

يتماثل ، على عادة القرآن الكريم فى تناوله لموضوعاته الموحدة ، بطرق شتى ، تختلف وتتشابه ، ولكنها لا تتكرر أبدا ولا تتماثل !

ويمكن تقسيم سياق السورة هنا إلى خمس جولات ، أو خمسة مقاطع ، يتضمن كل منها موضوعا أو مجالا :

تتضمن الجولة الأولى بيان سنة الله التى لا تتخلف فى الرسالة والإيمان بها والتكذيب . مبدوءة بذلك الإنذار الضمنى الملفع بالتهويل : « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » ومنتهية بأن المكذبين إنما يكذبون عن عناد لا عن نقص فى دلائل الإيمان : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا : إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » .. وأنهم جميعا من طراز واحد : « لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين » ..

وتعرض الجولة الثانية بعض آيات الله فى الكون : فى السماء وفى الأرض وما بينهما . وقد قدرت بحكمة ، وأنزلت بقدر : « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ومانتزله إلا بقدر معلوم » . وإلى الله مرجع كل شىء وكل أحد فى الوقت المقدر المعلوم : « وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون . ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين . وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم » ..

أما الجولة الثالثة فتعرض قصةالبشرية وأصل الهدى والغواية فى تركيبها وأسبابها الأصيلة ، ومصير الغاوين فى النهاية والمهتدين . وذلك فى خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون والنفخ من روح الله فى هذا الطين . ثم فى غرور إبليس واستكباره وتوليه الغاوين دون المخلصين .

والجولة الرابعة فى مصارع الغابرين من قوم لوط وشعيب وصالح ، مبدوءة بقول الله : « نبىء عبادىأنى أنا الغفور الرحيم. وأن عذابى هو العذاب الأليم » ثم يتتابع القصص ، يجلو رحمة الله مع إبراهيم ولوط ، وعذابه لأقوام لوط وشعيب وصالح .

أما الجولة الخامسة والأخيرة فتكشف عن الحق الكامن فى خلق السماوات والأرض ، المتلبس بالساعة وما بعدها من ثواب وعقاب ، المتصل بدعوة الرسول – صلى الله عليه وسلم –

Marfat.com

فهو الحق الأكبر الشامل للكون كله وللبدء والمصير .

وهذا الدرس الأول يشمل الجولات الثلاثة الأولى . فلنمض مع السياق بالتفصيل .

***

« ألر . تلك آيات الكتاب وقرآن مبين . ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون . وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ، ماتسبق من أمة أجلها ومايستأخرون .

« وقالوا : يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين . ما ننزل الملائكة إلا بالحق ، وما كانوا إذن منظرين . إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون .

« ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون. كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين ، لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين . ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » ..

ألف . لام . را . . « تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » هذه الأحرف ونظائرها هى الكتاب وهى القرآن . هذه الأحرف التى فى متناول الجميع ، هى « تلك » الآيات العالية الأفق البعيدة التناول ، المعجزة التنسيق . هذه الأحرف التى لامدلول لها فى ذاتها هى القرآن الواضح الكاشف المبين .

فإذا كان قوم يكفرون بآيات الكتاب المعجز ويكذبون بهذا القرآن المبين فسيأتى يوم يودون فيه لو كانوا غير ما كانوا ؛ ويتمنون فيه لو آمنوا واستقاموا : « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين » ..

ربما . ولكن حيث لا ينفع التمنى ولا تجدى الودادة .. ربما . وفيها التهديد الخفى ، والاستهزاء الملفوف ؛ وفيها كذلك الحث على انتهاز الفرصة المعروضة للإسلام قبل أن تضيع ،

Marfat.com

ويأتي اليوم الذى يودون فيه لو كانوا مسلمين ؛ فما ينفعهم يومئذ أنهم يودون !

وتهديد آخر ملفوف : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » ..

ذرهم فيما هم فيه من حياة حيوانية محضة للأكل والمتاع . لا تأمل فيها ولا تدبر ولا استطلاع . ذرهم فى تلك الدوامة : الأمل يلهى والمطامع تغر ، والعمر يمضى والفرصة تضيع . ذرهم فلا تشغل نفسك بهؤلاء الهالكين ، الذين ضلوا فى متاهة الأمل الغرور ، يلوح لهم ويشغلهم بالأطماع ، ويملى لهم فيحسبون أن أجلهم ممدود ، وأنهم محصلون ما يطمعون لا يردهم عنه راد ، ولا يمنعهم منه مانع . وأن ليس وراءهم حسيب ؛ وأنهم ناجون فى النهاية بما ينالون مما يطمعون .

وصورة الأمل الملهى صورة إنسانية حية فالأمل البراق ما يزال يخايل لهذا الإنسان ، وهو يجرى وراءه ، وينشغل به ، ويستغرق فيه ، حتى يجاوز المنطقة المأمونة ؛ وحتى يغفل عن الله ، وعن القدر ، وعن الأجل ؛ وحتى ينسى أن هنالك واجبا ، وأن هنالك محظورا ؛ بل حتى لينسى أن هنالك إلها ، وأن هنالك موتا ، وأن هنالك نشورا .

وهذا هو الأمل القاتل الذى يؤمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدعهم له « فسوف يعلمون » حيث لا ينفع العلم بعد فوات الأوان .. وهو أمر فيه تهديد لهم ، وفيه كذلك لمسة عنيفة لعلهم يصحون من الأمل الخادع الذى يلهيهم عن المصير المحتوم .

وإن سنة الله لماضية لا تتخلف ؛ وهلاك الأمم مرهون بأجلها الذى قدره الله لها ، معلق بسلوكها الذى تنفذ به سنة الله ومشيئته :

« وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ، ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » ..

فلا يغرنهم تخلف العذاب عنهم فترة من الوقت ، فإنما هى سنة الله تمضى فى طريقها المعلوم. ولسوف يعلمون .

وذلك الكتاب المعلوم والأجل المقسوم ، يمنحه الله للقرى والأمم ، لتعمل ، وعلى حسب العمل يكون الأجل . فإذا هى آمنت وأحسنت وأصلحت وعدلت مد الله فى أجلها حتى تنحرف

Marfat.com

Marfat.com

عن هـذه الأسس كلها ، ولا تبق فيهـا بقية من خير يرجى ، عندئذ تبلغ أجلها وينتهى وجودها ، إما إطلاقا بالهلاك والدثور ، وإما وقتيا بالضعف والانزواء .

ولقد يقال : إن أمما لا تؤمن ولا تحسن ولا تصلح ولا تعدل . وهى مع ذلك قوية ثرية باقية . وهـذا وهم . فلا بد من بقية من خير فى هـذه الأمم . ولو كان هو خير الخلافة فى الأرض بعمارتها . وخير العدل فى حدوده الضيقة بين أبنائها ، وخير الإصلاح المادى والإحسان المحدود بحدودها . فعلى هـذه البقية من الخير تعيش حتى تستنفدها فلا تبقى فيها من الخير بقية . ثم تنتهى حتما .

إن سنة الله لا تتخلف . ولـكل أمة أجل مرتب على عملها « ماتسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » .

ويحكى السياق سوء أدبهم مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد جاءهم بالـكتاب والقرآن المبين ، يوقظهم من الأمل الملهى ، ويذكرهم بسنة الله ، فإذا هم يسخرون منه ويتوقحون :

« وقالوا : ياأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون. لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ! » ..

وتبدو السخرية فى ندائهم : « ياأيها الذى نزل عليه الذكر » فهم ينكرون الوحى والرسالة ؛ ولـكنهم يتهكمون على الرسول الـكريم بهذا الذى يقولون .

ويبدو سوء الأدب فى وصفهم للرسول الأمين : « إنك لمجنون » جزاء على دعوته لهم بالقرآن المبين . وهم يتمحكون فيطلبون الملائكة مصدقين : « لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين » .

وطلب نزول الملائكة يتكرر فى هـذه السورة وفى غيرها ، مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومع غيره من الرسل قبله : وهو كما قلنا ظاهرة من ظواهر الجهل بقيمة هـذا الـكائن الإنسانى الذى كرمه الله ، فجعل النبوة فى جنسه ، ممثلة فى أفراده المختارين .

والرد على ذلك التهكم وتلك الوقاحة وهذا الجهل هو ذكر القاعدة التى تشهد بها مصارع السالفين : أن الملائكة لا تنزل على الرسول إلا لهلاك المكذبين من قومه حين ينتهى الأجل المعلوم ؛ وعندئذ فلا إمهال ولا تأجيل :

« ماننزل الملائكة إلا بالحق ، وما كانوا إذن منظرين » ..

فهل هو ما يريدون وما يتطلبون ؟ !

ثم يردهم السياق إلى الهدى والتدبر . . إن الله لا ينزل الملائكة إلا بالحق ، ليحقوه وينفذوه . والحق عند التكذيب هو الهلاك . فهم يستحقونه فيحق عليهم فهو حق تنزل به الملائكة لتنفذه بلا تأخير . وقد أراد الله لهم خيرا مما يريدون بأنفسهم ، فنزل لهم الذكر يتدبرونه ويهتدون به ، وهو خير لهم من تنزيل الملائكة بالحق الأخير :

« إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » . .

فخيرلهم أن يقبلوا عليه . فهو باق محفوظ لا يندثر ولا يتبدل . ولا يلتبس بالباطل ولا يمسه التحريف وهو يقودهم إلى الحق برعاية الله وحفظه ، إن كانوا يريدون الحق ، وإن كانوا يطلبون الملائكة للتثبت .. إن الله لا يريد أن ينزل عليهم الملائكة ، لأنه أراد بهم الخير فنزل لهم الذكر المحفوظ ، لا ملائكة الهلاك والتدمير .

ويعزى الله سبحانه نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيخبره أنه ليس بدعا من الرسل الذين لقوا الاستهزاء والتكذيب فهكذا المكذبون دائما فى عنادهم الذميم :

« ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون »

وعلى هذا النحو الذى تلقى به المكذبون اتباع الرسل ماجاءهم به رسلهم ، يتلقى المكذبون المجرمون من أتباعك ماجئتهم به . وعلى هذا النحو نجريه فى قلوبهم التى لا تتدبر ولا تحسن الاستقبال :

« كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين » ..

نسلكه فى قلوبهم مكذبا بما فيه مستهزأ به ؛ لأن هذه القلوب لا تحسن أن تتلقاه إلا على هذا النحو . سواء فى هذا الجيل أم فى الأجيال الخالية ؛ فالمكذبون أمةواحدة، من طينة واحدة « وقد خلت سنة الأولين » ..

وليس الذى ينقصهم هو توافر دلائل الإيمان ، فهم معاندون مكابرون ، مهما تأتهم من آية بينة فهم فى عنادهم ومكابرتهم سادرون .

Marfat.com

وهنا يرسم السياق نموذجا للمكابرة المرذولة والعناد البغيض :

« ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » ..

ويكفى تصورهم يصعدون فى السماء من باب فتح لهم فيها . يصعدون بأجسامهم ، ويرون الباب المفتوح أمامهم ، ويحسون حركة الصعود ويرون دلائلها . . ثم هم بعد ذلك يكابرون فيقولون : لا . لا . ليست هذه حقيقة . إنما أحد سكر أبصارنا وخدرها فهى لا ترى إنما تتخيل . « بل نحن قوم مسحورون » سحرنا ساحر فكل ما نراه وما نحسه وما نتحركه تهيؤات مسحور ! .

يكفى تصورهم على هذا النحو لتبدو المكابرة السمجة ويتجلى العناد المزرى . ويتأكد أن لا جدوى من الجدل مع هؤلاء . ويثبت أن ليس الذى ينقصهم هو دلائل الإيمان . وليس الذى يمنعهم أن الملائكة لا تنزل . فصعودهم هم أشد دلالة وألصق بهم من نزول الملائكة . إنما هم قوم مكابرون . مكابرون بلا حياء وبلا تحرج وبلا مبالاة بالحق الواضح المكشوف !.

إنه نموذج بشرى للمكابرة يرسمه التعبير ، مثيرا لشعور الاشمئزاز والتحقير . .

* * *

ومن مشهد المكابرة . وكان ميدانه السماء . إلى معرض الآيات الكونية مبدوءا بمشهد السماء . فمشهد الأرض . فمشهد الرياح اللواقح بالماء . فمشهد الحياة والموت . فمشهد البعث والحشر . . كل أولئك آيات يكابر فيها من لو فتح عليهم باب من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون . فلنعرضها مشهدا مشهدا كما هى فى السياق :

« ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم ، إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » .

إنه الخط الأول فى اللوحة العريضة . لوحة الكون العجيب الذى ينطق بآثار اليد المبدعة ؛

Marfat.com

ويشهد بالإعجاز أكثر مما يشهد نزول الملائكة ؛ ويكشف عن دقة التنظيم والتقدير ، كما يكشف عن عظمة القدرة على هذا الخلق الكبير .

والبروج قد تكون هى النجوم والكواكب بضخامتها . وقد تكون هى منازل النجوم والكواكب التى تتنقل فيها فى مدارها . وهى فى كلتا الحالتين شاهدة بالقدرة ، وشاهدة بالدقة ، وشاهدة بالإبداع الجميل : « وزيناها للناظرين » . .

وهى لفتة هنا إلى جمال الكون — وبخاصة تلك السماء — تشى بأن الجمال غاية مقصودة فى خلق هذا الكون . فليست الضخامة وحدها ، وليست الدقة وحدها إنما هو الجمال الذى ينتظم المظاهر جميعا ، وينشأ من تناسقها جميعا .

وإن نظرة مبصرة إلى السماء فى الليلة الحالكة ، وقد انتثرت فيها الكواكب والنجوم ، توصوص بنورها ثم يبدو كأنما تخبو ، ريثما تنتقل العين لتلبى دعوة من نجم بعيد . . ونظرة مثلها فى الليله القمرية والبدر حالم ، والكون من حوله مهوم ، كأنما يمسك أنفاسه لا يوقظ الحالم السعيد ! .

إن نظرة واحدة شاعرة لكفيلة بإدراك حقيقة الجمال الكونى ، وعمق هذا الجمال فى تكوينه ؛ ولإدراك معنى هذه اللفتة العجيبة : « وزيناها للناظرين » . .

ومع الزينة الحفظ والطهارة : « وحفظناها من كل شيطان رجيم » لا ينالها ولا يدنسها ؛ ولا ينفث فيها من شره ورجسه وغوايته . فالشيطان موكل بهذه الأرض وحدها ، وبالغاوين من أبناء آدم فيها . أما السماء — وهى رمز للسمو والارتفاع — فهو مطرود عنها مطارد لا ينالها ولا يدنسها . إلا محاولة منه ترد كلما حاولها : « إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » . .

وما الشيطان ؟ وكيف يحاول استراق السمع ؟ وأى شىء يسترق ؟ . . كل هذا غيب من غيب الله ، لا سبيل لنا إليه إلا من خلال النصوص . ولا جدوى فى الخوض فيه ، لأنه لا يزيد شيئا فى العقيدة ؛ ولا يثمر إلا انشغال العقل البشرى بما ليس من اختصاصه ، وبما يعطله عن عمله الحقيقى فى هذه الحياة . ثم لا يضيف إليه إدراكا جديدا لحقيقة جديدة .

فلنعلم أن لا سبيل فى السماء لشيطان ، وأن هذا الجمال الباهر فيها محفوظ ، وأن ما ترمز

Marfat.com

إليه من سمو وعُلّى مصون لا يناله دنس ولا رجس ، ولا يخطر فيه شيطان ، وإلا طورد فطرد وحيل بينه وبين ما يريد .

ولا ننسى جمال الحركة فى المشهد فى رسم البرج الثابت ، والشيطان الصاعد ، والشهاب المنقض فهى من جمال التصوير فى هذا الكتاب الجميل .

والخط الثانى فى اللوحة العريضة الهائلة هو خط الأرض الممدودة أمام النظر ، المبسوطة للخطو والسير ؛ وما فيها من رواسى وما فيها من نبت وأرزاق للناس ولغيرهم من الأحياء :

« والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل شىء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » . .

إن ظل الضخامة واضح فى السياق . فالإشارة فى السماء إلى البروج الضخمة ـ تبدو ضخامتها حتى فى جرس كلمة « بروج » وحتى الشهاب المتحرك وصف بأنه « مبين » . . والإشارة فى الأرض إلى الرواسى ـ ويتجسم ثقلها فى التعبير بقوله : « وألقينا فيها رواسى » . وإلى النبات موصوفا بأنه « موزون » وهى كلمة ذات ثقل ، وإن كان معناها أن كل نبت فى هذه الأرض فى خلقه دقة وإحكام وتقدير . . ويشترك فى ظل التضخيم جمع « معايش » وتنكيرها ، وكذلك « ومن لستم له برازقين » من كل ما فى الأرض من أحياء على وجه الإجمال والإبهام . فكلها تخلع ظل الضخامة الذى يجلل المشهد المرسوم .

والآية الكونية هنا تتجاوز الآفاق إلى الأنفس . فهذه الأرض الممدودة للنظر والخطو ؛ وهذه الرواسى الملقاة على الأرض ، تصاحبها الإشارة إلى النبت الموزون ؛ ومنه إلى المعايش التى جعلها الله للناس فى هذه الأرض . وهى الأرزاق المؤهلة للعيش والحياة فيها . وهى كثيرة شتى، يجملها السياق هنا ويبهمها لتلقى ظل الضخامة كما أسلفنا . جعلنا لكم فيها معايش ، وجعلنا لكم كذلك « من لستم له برازقين» . فهم يعيشون على أرزاق الله التى جعلها لهم فى الأرض. وما أنتم إلا أمة من هذه الأمم التى لا تحصى . أمة لا ترزق سواها إنما الله يرزقها ويرزق سواها ثم يتفضل عليها فيجعل لمنفعتها ومتاعها وخدمتها أمما أخرى تعيش من رزق الله ، ولا تكلفها شيئا .

هذه الأرزاق ـ ككل شى ـ مقدرة فى علم الله ، تابعة لأمره ومشيئته ، يصرفها حيث يشاء وكما يريد ، فى الوقت الذى يريده حسب سنته التى ارتضاها ، وأجراها فى الناس والأرزاق :

Marfat.com

Marfat.com

« وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم » : .

فما من مخلوق يقدر على شيء أو يملك شيئا ، إنما خزائن كل شيء ـ مصادره وموارده ـ عند الله . فى علاه . ينزله على الخلق فى عوالمهم « بقدر معلوم » فليس من شيء ينزل جزافا ، وليس من شيء يتم اعتباطا .

ومما يرسله الله بقدر معلوم الرياح والماء :

« وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه . وما أنتم له بخازنين » . .

أرسلنا الرياح لواقح بالماء[1] ، كما تلقح الناقة بالنتاج ؛ فأنزلنا من السماء ماء مما حملت الرياح ، فأسقيناكموه فعشتم به « وما أنتم له بخازنين » فما من خزائنكم جاء ، إنما جاء من خزائن الله ونزل منها بقدر معلوم .

والرياح تنطلق وفق عوامل فلكية وجوية ، وتحمل الماء وفقاً لهذه العوامل ؛ وتسقط الماء كذلك بحسبها . ولكن من الذى قدر هذا كله من الأساس ؟ لقد قدره الخالق ، ووضع الناموس الكلى الذى تنشأ عنه هذه العوامل والظواهر : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

ونلحظ فى التعبير أنه يرد كل حركة إلى الله حتى شرب الماء « فأسقيناكموه » والمقصود أننا جعلنا خلقتكم تطلب الماء ، وجعلنا الماء صالحا لحاجتكم ، وقدرنا هذا وذاك . ولكن التعبير يجيء على هذا النحو لتنسيق الجو كله ، ورجع الأمر كله إلى الله حتى فى حركة تناول الماء للشراب . لأن الجو جو تعليق كل شيء فى هذا الكون بإرادة الله المباشرة ، سنة الله هنا فى حركات الأفلاك كسنته هناك فى حركات الأنفس . تضمن المقطع الأول سنته فى المكذبين ، وتضمن المقطع الثانى سنته فى السماوات والأرضين ، وفى الرياح والماء والاستقاء . وكله من سنة الله التى لا تحيد . وهذه وتلك موصولتان بالحق الكبير الذى خلق الله به السماوات والأرض والناس والأشياء سواء .

---

(١) أراد بعضهم أن يفسر لواقح هنا بالمعنى العلمى الذى كشف وهو أن الرياح تحمل اللقاح من شجرة إلى شجرة . ولكن السياق هنا يشير إلى أنها لواقح بالماء دون سواه « فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه » وليس هناك ذكر ولو من بعيد للإنبات حتى يكون هناك ظل فى المشهد للنبات . والتعبير القرآنى دقيق فى رسم ظلال المشاهد من قريب ومن بعيد . .

Marfat.com

ثم يتم السياق رجع كل شيء إلى الله ، فيرد إليه الحياة والموت ، والأحياء والأموات ، والبعث والنشور .

« وإنا لنحن نحي ونميت ونحن الوارثون . ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين . وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم » . .

وهنا يلتقي المقطع الثاني بالمقطع الأول . فهناك قال : « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ، ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » . . وهنا يقرر أن الحياة والموت بيد الله ، وأن الله هو الوارث بعد الحياة . وأنه هو يعلم من كتب عليهم أن يستقدموا فيتوفوا ، ومن كتب عليهم أن يؤجلوا فيستأخروا فى الوفاة . وأنه هو الذى يحشرهم فى النهاية ، وإليه المصير . « إنه حكيم عليم » يقدر لكل أمة أجلها بحكمته ، ويعلم متى تموت ، ومتى تحشر ، ومابين ذلك من أمور . .

ونلاحظ فى هذا المقطع وفى الذى قبله تناسقا فى حركة المشهد . فى تنزيل الذكر . وتنزيل الملائكة . وتنزيل الرجوم للشياطين . وتنزيل الماء من السماء . . ثم فى المجال الذى يحيط بالأحداث والمعانى ، وهو مجال الكون الكبير : السماء والبروج والشهب ، والأرض والرواسى والنبات ؛ والرياح والمطر . . فلما ضرب مثلا للمكابرة جعل موضوعه العروج من الأرض إلى السماء خلال باب منها مفتوح فى ذات المجال المعروض .. وذلك من بدائع التصوير فى هذا الكتاب العجيب .

* * *

ثم نجيء إلى قصة البشرية الكبرى : قصة الفطرة الأولى . قصة الهدى والضلال وعواملها الأصيلة . قصة آدم . مم خلق ؟ وماذا صاحب خلقه وتلاه ؟

ولقد صادفنا هذه القصة معروضة مرتين من قبل . فى سورة البقرة ، وفى سورة الأعراف. ولكن مساقها فى كل مرة كان لأداء غرض خاص ، فى معرض خاص ، فى جو خاص. ومن ثم اختلفت الحلقات التى تعرض منها فى كل موضع ، واختلفت طريقة الأداء ، واختلفت الظلال ، واختلف

الإيقاع . مع المشاركة فى بعض المقدمات و التعقيبات بقدر الاشتراك فى الأهداف .

تشابهت مقدمات القصة فى السور الثلاثة :

ففى سورة البقرة سبقها فى السياق : « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ، ثم استوى إلى السماء . فسواهن سبع سماوات وهو بكل شىء عليم » ..

وفى سورة الأعراف سبقها : « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ماتشكرون » ..

وهنا سبقها : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » ..

ولكن السياق الذى وردت فيه القصة فى كل سورة كان مختلف الوجهة والغرض ..

فى البقرة كانت نقطة التركيز فى السياق هى استخلاف آدم فى الأرض التى خلق الله للناس ما فيها جميعا : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » .. ومن ثم عرض من القصة أسرار هذا الاستخلاف الذى عجبت له الملائكة لما خفى عليهم سره : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال: أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال : ياآدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم : إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون ؟ » .. ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس واستكباره . وسكنى آدم وزوجه الجنة . وإزلال الشيطان لهما عنها وإخراجها منها . ثم الهبوط إلى الأرض للخلافة فيها ، بعد تزويده بهذه التجربة القاسية ، واستغفاره وتوبة الله عليه .. وعقب على القصة بدعوة بنى إسرائيل لذكر نعمة الله عليهم والوفاء بعهده معهم ، فكان هذا متصلا باستخلاف أبيهم الأكبر فى الأرض ، وعهده معه ، والتجربة القاسية لأبى البشر ..

وفى الأعراف كانت نقطة التركيز فى السياق هى الرحلة الطويلة من الجنة وإليها ؛ وإبراز عداوة إبليس للإنسان منذ بدء الرحلة إلى نهايتها . حتى يعود الناس مرة أخرى إلى ساحة العرض الأولى . ففريق منهم يعودون إلى الجنة التى أخرج الشيطان أبويهم منها لأنهم عادوه وخالفوه . وفريق ينتكس إلى النار لأنه اتبع خطوات الشيطان العدو اللدود .. ومن ثم عرض

Marfat.com

السياق حكاية سجود الملائكة و إباء ابليس واستكباره . وطلبه من الله أن ينظره إلى يوم البعث ، ليغوى أبناء آدم الذى من أجله طرد . ثم إسكان آدم وزوجه الجنة يأكلان من ثمرها كله إلا شجرة واحدة ، هى رمز المحظور الذى تبتلى به الإرادة والطاعة . ثم وسوسة الشيطان لهما بتوسع وتفصيل وأكلهما من الشجرة وظهور سوآتهما لهما ، وعتاب الله لآدم وزوجه ، وإهباطهم إلى الأرض جميعا للعمل فى أرض المعركة الكبرى : « قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، قال : فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » .. ثم تابع السياق الرحلة كلها حتى يعود الجميع كرة أخرى . وعرضهم فى الساحة الكبرى مع التفصيل والحوار . ثم انتهى فريق إلى الجنة وفريق إلى النار : « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين » وأسدل الستار ..

فأما هنا فى هذه السورة فإن نقطة التركيز فى السياق هى سر التكوين فى آدم ، وسر الهدى والضلال ، وعواملها الأصيلة فى كيان الإنسان .. ومن ثم نص ابتداء على خلق الله آدم من صلصال من حمأ مسنون ونفخه فيه من روحه المشرق الكريم ، وخلق الشيطان من قبل من نار السموم . ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس استنكافا من السجود لبشر من صلصال من حمأ مسنون . وطرده ولعنته . وطلبه الإنظار إلى يوم البعث وإجابته . وزاد أن إبليس قرر على نفسه أن ليس له سلطان على عباد الله المخلصين . إنما سلطانه على من يدينون له ولا يدينون لله . وانتهى بمصير هؤلاء وهؤلاء فى غير حوار ولا عرض ولا تفصيل . تبعا لنقطة التركيز فى السياق ، وقد استوفت ببيان عنصرى الإنسان ، وبيان مجال سلطة الشيطان ..

فلنمض إلى مشاهد القصة فى هذا المجال :

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم » ..

وفى هذا الافتتاح يقرر اختلاف الطبيعتين بين الصلصال ـ وهو الطين اليابس الذى يصلصل عند نقره ، المتخذ من الطين الرطب الآسن ـ والنار الموسومة بأنها شعواء سامة : نار السموم وفيما بعد سنعلم أن طبيعة الإنسان قد دخل فيها عنصر جديد هو النفخة من روح الله ، أما طبيعة الشيطان فبقيت من نار السموم .

Marfat.com

« وإذ قال ربك للملائكة : إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال : ياإبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون . قال : فاخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين » . .

وإذ قال ربك للملائكة . . متى قال ؟ ، وأين قال ؟ وكيف قال ؟ كل أولئك قد أجبنا عنه فى سورة البقرة فى الجزء الأول من هذه الظلال . إنه لا سبيل إلى الإجابة ، لأنه ليس لدينا نص يجيب . وليس لنا من سبيل إلى ذلك الغيب إلا بنص ، وكل ماعدا ذلك ضرب فى التيه بلا دليل .

فأما خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والنفخ فيه من روح الله فكيف كان ؟ فهو كذلك مالا ندرى كيفته ، ولا سبيل إلى تحديد هذه الكيفية بحال من الأحوال .

وقد يقال بالإحالة إلى نصوص القرآن الأخرى فى هذه القضية ، وبخاصة قوله : ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . وقوله: ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من ماء مهين . أن أصل الإنسان وأصل الحياة كلها من طين هذه الأرض ؛ ومن عناصره الرئيسية التى تتمثل بذاتها فى تركيب الإنسان الجسدى وتركيب الأحياء أجمعين . وأن هنالك أطوارا تشير إليها كلمة « سلالة » . وإلى هنا وتنتهى دلالة النصوص ، فكل زيادة تحمل عليها ضرب من التمحل ليس القرآن فى حاجة إليه . وللبحث العلمى أن يمضى فى طريقه بوسائله الميسرة له ، فيصل إلى مايصل إليه من فروض ونظريات ، يحقق منها مايجد إلى تحقيقه سبيلا مضمونة ، ويبدل منها مالا يثبت على البحث والتمحيص . غير متعارض فى أية نتيجة يحققها مع الحقيقة الأولية التى تضمنها القرآن ؛ وهى ابتداء خلق هذه السلالة من عناصر الطين ودخول الماء فى تركيبها على وجه اليقين . فالجزء المستيقن عن طريق القرآن باق لا تعارضه النظريات جميعا حتى الآن وبعد الآن .

فأما كيف ارتقى هذا الطين من طبيعته العنصرية المعروفة إلى أفق الحياة العضوية أولا ، وإلى أفق الحياة الإنسانية أخيرا ؟ فهنا السر الذى يعجز عن تعليله البشر أجمعون . وما يزال

Marfat.com

Marfat.com

سر الحياة فى الخلية الأولى - على حسب نظرية النشوء والارتقاء - خافيا لا يزعم أحد أنه اهتدى إليه . فأما سر الحياة الإنسانية العليا بما فيها من مدارك وإشراقات وطاقات متميزة على الخلائق الحيوانية جميعا ، تفوقا حاسما فاصلا . فأما هذا السر فما تزال النظريات تخبط حوله . على حين يفسره لنا القرآن الكريم التفسير المجمل الواضح البسيط : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى . . . » فهى روح الله تنقل هذا التكوين العضوى الوضيع إلى ذلك الأفق الإنسانى الكريم .

كيف ؟ .. ومتى كان فى طاقة هذا المخلوق الإنسانى أن يدرك كيف يفعل الخالق العظيم؟ .

وهنا نصل إلى الأرض الصلبة التى نستوى عليها مطمئنين . .

لقد كان خلق الشيطان -من قبل- من نار السموم . فهو سابق إذن للإنسان فى الخلق. هذا ما نعلمه . أما كيف هو وكيف كان خلقه . فذلك شأن آخر . ليس لنا أن نخوض فيه . إنما ندرك من صفاته بعض صفات نار السموم . ندرك من صفاته التأثير فى عناصر الطين بحكم أنه من النار . والأذى والمسارعة فيه بحكم أنها نار السموم . ثم تتكشف لنا من ثنايا القصة صفة الغرور والاستكبار . وهى ليست بعيدة فى التصور عن طبيعة النار .

ولقد كان خلق الإنسان من عناصر هذا الطين اللزج المتحول إلى صلصال ؛ ثم من النفخة العلوية التى فرقت بينه وبين سائر الأحياء ؛ ومنحته خصائصه الإنسانية ؛ وأولها القدرة على الارتقاء فى سلم المدارك العليا الخاصة بعالم الإنسان .

هذه النفخة التى تصله بالملأ الأعلى ؛ وتجعله أهلا للاتصال بالله ، وللتلقى عنه ؛ ولتجاوز النطاق المادى الذى تتعامل فيه العضلات والحواس ، إلى النطاق التجريدى الذى تتعامل فيه القلوب والعقول . والتى تمنحه ذلك السر الخفى الذى يسرب به وراء الزمان والمكان ، ووراء طاقة العضلات والحواس ، إلى ألوان من المدركات وألوان من التصورات غير محدودة فى بعض الأحيان .

ذلك كله مع ثقلة الطين فى طبعه ، ومع خضوعه لضرورات الطين وحاجاته : من طعام وشراب ولباس وشهوات ونزوات . ومن ضعف وقصور وما ينشئه الضعف والقصور من تصورات ونزعات وحركات .

والتوازن بين خصائص العناصر الطينية فيه والعناصر العلوية نحو الأفق الأعلى الذى يطلب إليه أن يبلغه ، وهو الكمال البشرى المقدر له . فليس مطلوبا منه أن يتخلى عن طبيعة أحد عنصريه ومطالبه ليكون ملكا أو ليكون حيوانا . وليس واحد منهما هو الكمال المنشود للإنسان . والارتفاع الذى يخل بالتوازن المطلق نقص بالقياس إلى هذا المخلوق وخصائصه الأصيلة ، والحكمة التى من أجلها خلق على هذا النحو الخاص .

والذى يحاول أن يعطل طاقاته الجسدية الحيوية هو كالذى يحاول أن يعطل طاقاته الروحية الطليقة . . كلاهما يخرج على سواء فطرته ؛ ويريد من نفسه ما لم يرده الخالق له . وكلاهما يدمر نفسه بتدمير جزء من كيانها الأصيل . وهو محاسب أمام الله على هذا التدمير .

من أجل هذا أنكر الرسول – صلى الله عليه وسلم – على من أراد أن يترهبن فلا يقرب النساء ، ومن أراد أن يصوم الدهر فلا يفطر ، ومن أراد أن يقوم الليل فلا ينام . أنكر عليهم كما ورد فى حديث عائشة – رضى الله عنها – وقال : « فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وقد أقام الإسلام شريعته للإنسان على أساس تكوينه ذاك ؛ وأقام له عليها نظاما بشريا لا تدمر فيه طاقة واحدة من طاقات البشر . إنما قصارى هذا النظام أن يحقق التوازن بين هذه الطاقات ، لتعمل جميعها فى غير طغيان ولا ضعف ؛ ولا اعتداء من إحداها على الأخرى . فكل اعتداء يقابله تعطيل . وكل طغيان يقابله تدمير . والإنسان حفيظ على خصائص فطرته ومسؤول عنها أمام الله . والنظام الذى يقيمه الإسلام للناس حفيظ على هذه الخصائص التى لم يهبها الله جزافا للإنسان .

هذه بعض الخواطر التى تطلقها فى النفس حقيقة تكوين الإنسان ، كما يقررها القرآن . . فلنمض إلى مشاهد القصة فى السياق . .

لقد قال الله للملائكة : «إنى خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون. فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » . .

وقد كان ما قاله الله . فقوله – تعالى – إرادة . وتوجه الإرادة ينشىء الخلق المراد . ولا نملك أن نسأل كيف تلبست نفخة الله الأزلى الباقى بالصلصال المخلوق الفانى . فالجدل على هذا النحو عبث عقلى . بل عبث بالعقل ذاته ، وخروج به عن الدائرة التى يملك فيها أسباب التصور

Marfat.com

Marfat.com

والإدراك والحكم . وكل ماثار من الجدل حول هذا الموضوع وكل مايثور إن هو إلا جهل بطبيعة العقل البشرى وخصائصه وحدوده ، وإقحام له فى غير ميدانه ، ليقيس عمل الخالق إلى مدركات الإنسان ، وهو سفه فى إنفاق الطاقة العقلية ، وخطأ فى المنهج من الأساس . إنه يقول كيف يتلبس الخالد بالفانى ، وكيف يتلبس الأزلى بالحادث ؟ ثم ينكر أو يثبت ويعلل ! بينما العقل الإنسانى ليس مدعوا أصلا للفصل فى الموضوع . لأن الله يقول : إن هذا قد كان . ولا يقول : كيف كان . فالأمر إذن ثابت ولا يملك العقل البشرى أن ينفيه . وكذلك هو لا يملك أن يثبته بتفسير من عنده - غير التسليم بالنص - لأنه لا يملك وسائل الحكم . فهو حادث . والحادث لايملك وسائل الحكم على الأزلى فى ذاته ، ولا على الأزلى فى تلبسه بالحادث . وتسليم العقل ابتداء بهذه البديهية أو القضية - وهى أن الحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلى فى أى صورة من صوره . يكفى ليكف العقل عن إنفاق طاقته سفهاً فى غير مجاله المأمون .

ولقد توسعت فى مناقشة هذه القضية على غير عادة فى هذه الظلال ، لوضع قاعدة عامة لمواجهة مثل هذه القضية من أمور الغيب ، يستريح إليها العقل فوق استراحة القلب بالإيمان .

فلننظر بعد ذلك ماذا كان :

« فسجد الملائكة كلهم أجمعون » . . كما هى طبيعة هذا الخلق - الملائكة - الطاعة المطلقة بلا جدل أو تعويق .

« إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين » . . وإبليس خلق آخر غير الملائكة . فهو من نار وهم من نور . وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وهو أبى وعصى . فليس هو من الملائكة يقيناً . أما الاستثناء هنا فليس على وجهه . إنما هو كما تقول : حضر بنو فلان إلا أحمد . وليس منهم . إنما هو معهم فى مكان أو ملابسة . وأما أن الأمر المذكور للملائكة : « إذ قال ربك للملائكة » فكيف شمل إبليس ؟ فإن صدور الأمر إلى إبليس يدل عليه ما بعده ، وقد ذكر صريحا فى سورة الأعراف : « قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ » وأسلوب القرآن يكتفى بالدلالة اللاحقة فى كثير من المواضع . فقول الله تعالى له : « مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك » قاطع فى أن الأمر قد صدر له . وليس من الضرورى أن يكون

هذا الأمر هو أمره الملائكة . فقد يصدر إليه معهم لاجتماعه بهم فى ملابسة ما . وقد يصدر إليه منفردا ولا يذكر تهوينا لشأنه وإظهارا للملائكة فى الموقف . ولكن المقطوع به من النصوص ومن دلالة تصرفه أنه ليس من الملائكة . وهذا ما نختاره .

وعلى أية حال فنحن نتعامل هنا مع مسلمات غيبية لا نملك تصور ما هياتها ولا كيفياتها فى غير حدود النصوص . لأن العقل كما أسلفنا لا سبيل له فى هذا المجال بحال من الأحوال.

وسواء كانت هذه المسميات أعيانا أو صفات أو رموزا لقوى من مخلوقات الله . فالأمر سواء بالقياس إلى العقل البشرى المحدود .

« قال : يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون » . .

وصرحت طبيعة الغرور والاستكبار والعصيان فى ذلك المخلوق من نار السموم . وذكر إبليس الصلصال والحمأ ، ولم يذكر النفخة العلوية التى تلابس هذا الطين . وتشامخ برأسه المغرور يقول : إنه ليس من شأنه فى عظمته أن يسجد لبشر خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون ! .

وكان ما ينبغى أن يكون : « قال : فاخرج منها فإنك رجيم » طريد « وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين » جزاء العصيان والشرور .

عندئذ تتبدى خليقة الحقد وخليقة الشر :

« قال : رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال : فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم » . .

لقد طلب النظرة إلى يوم البعث ، لا ليندم على خطيئته فى حضرة الخالق العظيم ، ولا ليتوب إلى الله ويرجع ويكفر عن إثمه الجسيم . ولكن لينتقم من آدم وذريته جزاء مالعنه الله وطرده من هداه . يربط لعنة الله له بآدم ، ولا يربطها بعصيانه لله فى تبجح نكير ! .

« قال : رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين » . .

وبذلك حدد إبليس ساحة المعركة . إنها الأرض . « لأزينن لهم فى الأرض » وحدد عدته فيها إنه التزيين . تزيين القبيح وتجميله ، والإغراء بزينته المصطنعة على ارتكابه . وهكذا لا يجترح الإنسان

Marfat.com

الشر إلا وعليه من الشيطان مسحة تزينه وتجمله ، وتظهره فى غير حقيقته وردائه . فليفطن الناس إلى عدة الشيطان ؛ وليحذروا كلما وجدوا فى أمر تزيينا وكلما وجدوا من نفوسهم إليه اشتهاء . ليحذروا فقد يكون الشيطان هناك . إلا أن يتصلوا بالله ويعبدوه حق عبادته ، فليس للشيطان بشرطه هو على عباد الله المخلصين من سبيل « ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين » . والله يستخلص لنفسه من عباده من يخلصوا نفسه لله ، ويجردها له وحده ويعبده كأنه يراه. وهؤلاء ليس للشيطان عليهم من سلطان .

هـذا الشرط الذى قرره إبليس ـ اللعين ـ قرره وهو يدرك أن لا سبيل إلى سواه ، لأنه سنة الله ، أن يستخلص لنفسه من يخلص له نفسه ، وأن يحميه ويرعاه . ومن ثم كان الجواب :

« هـذا صراط على مستقيم . إن عبـادى ليس لك عليهم سلطان . إلا من اتبعك من الغاوين » ..

هذا صراط . هذا ناموس . هذه سنة . وهى السنة التى ارتضتها الإرادة قانونا وحكما فى الهدى والضلال . « إن عبادى » المخلصين لى ليس لك عليهم سلطان ، ولا لك فيهم تأثير ، ولا تملك أن تزين لهم لأنك عنهم محصور ، ولأنهم منك فى حمى ، ولأن مداخلك إلى نفوسهم مغلقة وهم يعلقون أبصارهم بالله ، ويدركون ناموسه بفطرتهم الواصلة إلى الله . إنما سلطانك على من اتبعك من الغاوين الضالين . فهو استثناء مقطوع لأن الغاوين ليسوا جزء من عباد الله المخلصين . إن الشيطان لا يتلقف إلا الشاردين كما يتلقف الذئب الشاردة من القطيع . فأما من يخلصون أنفسهم لله ، فالله لا يتركهم للضياع . ورحمة الله أوسع ولو تخلفوا فإنهم يثوبون من قريب !

فأما العاقبة . عاقبة الغاوين . فهى معلنة فى الساحة منذ البدء :

« وإن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لـكل باب منهم جزء مقسوم » .

هذه الأبواب السبعة قد تكون لمجرد العدد . وقد تكون للتقرير الواقعى . لا يغير هذا أو ذلك من الأمر شيئا . فهؤلاء الغاوون صنوف ودرجات . والغواية ألوان وأشكال . ولـكل باب منهم جزء مقسوم بحسب ما يكونون وما يعملون .

Marfat.com

Marfat.com

وينتهى المشهد وقد وصل السياق بالقصة إلى نقطة التركيز وموضع العبرة . ووضح كيف يسلك الشيطان طريقه إلى النفوس . كيف يغلب عنصر الطين فى الإنسان على عنصر النفخة . فأما من يتصل بالله ويحتفظ بنفخة روحه فلا سلطان عليه للشيطان ..

وبمناسبة ذكر مصير الغاوين يذكر مصير المخلصين :

« إن المتقين فى جنات وعيون . ادخلوها بسلام آمنين . ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وماهم منها بمخرجين » .

والمتقون هم الذين يرقبون الله ويقون أنفسهم عذابه وأسبابه . ولعل العيون فى الجنات تقابل فى المشهد تلك الأبواب فى جهنم . وهم يدخلون الجنات بسلام آمنين فى مقابل الخوف والفزع هناك . ونزعنا ما فى صدورهم من غل ، فى مقابل الحقد الذى يغلى به صدر إبليس فيما سلف من السياق . لا يمسهم فيها نصب ولا يخافون منها خروجا . جزاء ماخافوا فى الأرض واتقوا فاستحقوا المقام المطمئن الآمن فى جوار الله الكريم ...

« نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ * وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا : سَلَامًا . قَالَ : إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا : لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ : أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ؟ قَالُوا : بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ : وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ؟ قَالَ : فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ؟ * قَالُوا : إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ .

« فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * قَالُوا : بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ

مِنَ اللَّيْلِ ، وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ، وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ، وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ : أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ .

« وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ : إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوا : أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ : هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ * لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ .

« فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ .

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ .

« وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ، وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ .

« وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (٨٤)

يتضمن هذا الدرس نماذج من رحمة الله وعذابه ، ممثلة فى قصص إبراهيم وبشارته على الكبر بغلام عليم ، ولوط ونجاته وأهله إلا امرأته من القوم الظالمين ، وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر وما حل بهم من عذاب أليم .

هذا القصص يساق بعد مقدمة : « نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم » فيجيء بعضه مصداقا لنبأ الرحمة ، ويجيء بعضه مصدقا لنبأ العذاب .. كذلك هو يرجع إلى مطالع السورة فيصدق ما جاء فيها من نذير : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم

Marfat.com

Marfat.com

الأمل فسوف يعلمون . وما أهلكنا من قرية إلا ولها منذرون . ماتسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » . . فهذه نماذج من القرى المهلكة بعد النذر ، حل بها جزاؤها بعد انقضاء الأجل . . وكذلك يصدق هذا القصص ماجاء فى مطالع السورة فى شأن الملائكة حين يرسلون : « وقالوا : ياأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين . ماننزل الملائكة إلا بالحق ، وما كانوا إذن منظرين » ..

فتبدو السورة وحدة متناسقة ، يظاهر بعضها بعضا . . وذلك مع ماهو معلوم من أن السور لم تكن تنزل جملة إلا نادرا ، وأن الآيات الواردة فيها لم تكن تنزل متتالية توالها فى المصحف . ولكن ترتيب هذه الآيات فى السور ترتيب توقيفى ، فلا بد من حكمة فى ترتيبها على هذا النسق . وقد كشفت لنا جوانب من هذه الحكمة حتى الآن فى السور التى عرضناها فى تماسك بنيان السور ، واتحاد الجو والظلال فى كل سورة .. والعلم بعد ذلك لله إنما هو اجتهاد والله الموفق إلى الصواب .

* * *

« نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم » ..

يجىء هذا الأمر للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذكر جزاء الغاوين وجزاء المتقين فى سياق السورة ، والمناسبة بينها ظاهرة فى السياق . ويقدم الله نبأ الغفران والرحمة على نبأ العذاب . جريا على الأصل الذى ارتضة مشيئته . فقد كتب على نفسه الرحمة . وإنما يذكر العذاب وحده أحيانا أو يقدم فى النص لحكمة خاصة فى السياق تقتضى إفراده بالذكر أو تقديمه .

ثم تجىء قصة إبراهيم مع الملائكة المرسلين إلى قوم لوط . . وقد وردت هذه الحلقة من قصة إبراهيم وقصة لوط فى مواضع متعددة بأشكال متنوعة ، تناسب السياق الذى وردت فيه . ووردت قصة لوط وحده فى مواضع أخرى .

وقد مرت بنا حلقة من قصة لوط فى الأعراف وحلقة من قصة إبراهيم ولوط فى هود . . فأما فى الأولى فقد تضمنت استنكار لوط لما يأتيه قومه من الفاحشة ، وجواب قومه : «أخرجوهم

من قريتكم إنهم أناس يتطهرون» وإنجاءه هو وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وذلك دون ذكر لمجيء الملائكة إليه وائتمار قومه بهم .. وأما فى الثانية فقد جاءت قصة الملائكة مع إبراهيم ولوط مع اختلاف فى طريقة العرض . فهناك تفصيل فى الجزء الخاص بإبراهيم وتبشيره وامرأته قائمة ،وجدالهمع الملائكة عن لوط وقومه . وهومالم يذكر هنا . وكذلك يختلف ترتيب الحوادث فى القسم الخاص بلوط فى السورتين . . ففى سورة هود لم يكشف عن طبيعة الملائكة إلا بعد أن جاءه قومه يهرعون إليه وهو يرجوهم فى ضيفه فلا يقبلون رجاءه ، حتى ضاق بهم ذرعا وقال قولته الأسيفة : « لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد » . وأما هنا فيقدم الكشف عن طبيعة الملائكة منذ اللحظة الأولى ، وأخر حكاية القوم وائتمارهم بضيف لوط . لأن المقصود هنا ليس هو القصة بترتيبها الذى وقعت به ، ولكن تصديق النذير وأن الملائكة حين ينزلون فإن القوم لا ينظرون ولا يمهلون ..

« ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا : سلاما . قال : إنا منكم وجلون . قالوا : لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم . قال : أبشرتمونى على أن مسنى الكبر ؟ فبم تبشرون ؟ قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال : ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ؟ » .

قالوا : سلاما . قال : إنا منكم وجلون .. ولم يذكر هنا سبب قوله ، ولم يذكر أنه جاءهم بعجل حينئذا « فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة » كما جاء فى سورة هود . ذلك أن المجال هنا هو مجال تصديق الرحمة التى ينبىء الله بها عباده على لسان رسوله ، لا مجال تفصيلات قصة إبراهيم .. « قالوا : لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم » وهكذا عجلوا له البشرى ، وعجل بها السياق دون تفصيل .

كذلك يثبت هنا رد إبراهيم ولا يدخل امرأته وحوارها فى هذه الحلقة : « قال : أبشرتمونى على أن مسنى الكبر ؟ فبم تبشرون ؟ » فقد استبعد إبراهيم فى أول الأمر أن يرزق بولد وقد مسه الكبر (وزوجته كذلك عجوز عقيم كما جاء فى مجال آخر) فرده الملائكة إلى اليقين « قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين » اليائسين فآب إبراهيم سريعا ، ونفى عن نفسه القنوط من رحمة الله : « قال : ومن يقنط من رحمة ربه

Marfat.com

Marfat.com

إلا الضالون ؟ » وبرزت كلمة « الرحمة » فى حكاية قول إبراهيم تنسيقا مع القدمة فى هذا السياق ؛ وبرزت معها الحقيقة الكلية : أنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون. الضالون عن طريق الله ، الذين لا يستروحون روحه ، ولا يحسون رحمته ، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته. فأما القلب الندى بالإيمان ، المتصل بالرحمان ، فلا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد ، ومهما ادلهمت حوله الخطوب ، ومهما غام الجو وتلبد ، وغاب وجه الأمل فى ظلام الحاضر . . فإن رحمة الله قريب من قلوب المؤمنين المهتدين .

وهنا ـ وقد اطمأن إبراهيم إلى الملائكة ، وثابت نفسه واطمأنت للبشرى ـ راح يستطلع سبب مجيئهم وغايته :

« قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين ، إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين[1] » . .

ولا يعرض السياق لجدال إبراهيم عن لوط وقومه هنا كما عرض له فى سورة هود . بل يصل إخبار الملائكة له بالنبأ كله . ذلك أنه يصدق رحمة الله بلوط وأهله ، وعذابه لامرأته وقومه . وينتهى بذلك دورهم مع إبراهيم ، ويمضون لعملهم مع قوم لوط . .

« فلما جاء آل لوط المرسلون ، قال : إنكم قوم منكرون . قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترون . وأتيناك بالحق وإنا لصادقون . فأسر بأهلك بقطع من الليل ، واتبع أدبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد ، وامضوا حيث تؤمرون . وقضينا إليه ذلك الأمر : أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » . .

وهكذا يعجل السياق إخبارهم للوط بأنهم الملائكة ، جاءوه بما كان قومه يمترون فيه من أخذهم بذنوبهم وإهلاكهم جزاء ما يرتكبون ، تصديقا لعذاب الله ، وتوكيدا لوقوع العذاب حين ينزل الملائكة بلا إبطاء .

« قال : إنكم قوم منكرون » . . قالها ضيق النفس بهم ، وهو يعرف قومه ، ويعرف ماذا سيحاولون بأضيافه هؤلاء ، وهو بين قومه غريب ، وهم جرة فاحشون . . إنكم قوم

---

(١) أى إنها باقية مع القوم تلقى مصيرهم . وأصله من الغبرة وهى بقية اللبن فى الضرع .

منكرون أن تجيئوا إلى هذه القريـة وأهلها مشهورون بما يفعلون مع أمثالكم حين يجيئون ! .

« قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ، وأتيناك بالحق وإنا لصادقون » . . وهذه التوكيدات كلها تصور لنا جزع لوط وكربه . وهو فى حيرة بين واجبه لضيفه وضعفه عن حمايتهم فى وجه قومه . فجاءه التوكيد بعد التوكيد ، لإدخال الطمأنينة عليه قبل إلقاء التعليمات إليه :

« فأسر بأهلك بقطع من الليل . واتبع أدبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد ، وامضوا حيث تؤمرون » . . والسرى سير الليل ، والقطع من الليل جزؤه . وقد كان الأمر للوط أن يسير بقومه فى الليل قبل الصبح ، وأن يكون هو فى مؤخرتهم يتفقدهم ولا يدع أحدا منهم يتخلف أو يتلكأ أو يتلفت إلى الديار على عادة المهاجرين الذين يتنازعهم الشوق إلى ما خلفوا من ديارهم فيتلفتون إليها ويتلكأون . وكان الموعد هو الصبح والصبح قريب :

« وأوحينا إليه ذلك الأمر : أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » . . وأطلعناه على ذلك الأمر الخطير : أن آخر هؤلاء القوم مقطوع فى الصباح . وإذا انقطع آخرهم فقد انقطع أولهم؛ والتعبير على هذا النحو يصور النهاية الشاملة التى لا تبقى أحدا . فلا بد من الحرص واليقظة كى لا يتخلف أحد ولا يتلفت ، فيصيبه ما يصيب أهل المدينة المتخلفين .

قدم السياق هذه الواقعة فى القصة لأنها الأنسب لموضوع السورة كله . ثم أكمل ما حدث من قوم لوط قبلها .

لقد تسامعوا بأن فى بيت لوط شبانا صباح الوجوه ــ قيل دلتهم امرأته عليهم ــ ففرحوا بأن هناك صيدا :

« وجاء أهل المدينة يستبشرون » . . والتعبير على هذا النحو يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة الذى وصل إليه القوم فى الدنس والفجور فى الفاحشة الشاذة المريضة . يكشف عن هذا المدى فى مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة ، يستبشرون بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية . هذه العلانية الفاضحة فى طاب هذا المنكر ــ فوق المنكر ذاته ــ شىء بشع لا يكاد الخيال يتصور وقوعه لولا أنه وقع . فقد يشذ فرد مريض فيتوارى بشذوذه ، ويتخفى

Marfat.com

بعرضه ، ويحاول الحصول على لذته المستقذرة فى الخفاء وهو يخجل أن يطلع عليه الناس . وإن الفطرة السليمة لتتخفى بهذه اللذة حين تكون طبيعية . بل حين تكون شرعية . وبعض أنواع الحيوان يتخفى بها كذلك . . بينما أولئك القوم المنحوسون يجاهرون بها ، ويتجمهرون لتحصيلها ، ويستبشرون جماعات وهم يتلمظون عليها ! إنها حالة من الارتكاس معدومة النظير .

فأما لوط فوقف مكروباً يحاول أن يدفع عن ضيفه وعن شرفه . وقف يستثير النخوة الآدمية فيهم ويستجيش وجدان التقوى لله . وإنه ليعلم أنهم لا يتقون الله ، ويعلم أن هذه النفوس المرتكسة المطموسة لم تعد فيها نخوة ولا شعور إنسانى يستجاش . ولكنه فى كربه وشدته يحاول ما يستطيع :

« قال : إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون ، واتقوا الله ولا تخزون » . .

وبدلا من أن يثير هذا فى نفوسهم رواسب المروءة والحياة ، إذا هم يتبجحون فيؤنبون لوطا على استضافة أحد من الرجال . كأنما هو الجانى الذى هيأ لهم أسباب الجريمة ودفعهم إليها وهم لا يملكون له دفاعا ! .

« قالوا : أو لم ننهك عن العالمين ؟ » .

ويمضى لوط فى محاولته يلوح لهم باتجاه الفطرة السليم إلى الجنس الآخر . إلى الإناث اللواتى جعلهن الله لتلبية هذا الدافع العميق فى نظام الحياة ؛ ليكون النسل الذى تمتد به الحياة وجعل تلبية هذا الدافع معهن موضع اللذة السليمة المريحة للجنسين معا ــ فى الحالات الطبيعية ــ ليكون هذا ضمانا لامتداد الحياة ، بدافع من الرغبة الشخصية العميقة .. يمضى لوط فى محاولته هذه :

« قال : هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين » . .

ولوط النبى لا يعرض بناته على هؤلاء الفجار ليأخذوهن سفاحا . إنما هو يلوح لهم بالطريق الطبيعى الذى ترضاه الفطرة السليمة ، لينبه فيهم هذه الفطرة . وهو يعلم أنهم إن ثابوا إليها فلن يطلبوا النساء سفاحا . فهو مجرد هتاف للفطرة السليمة فى نفوسهم لعلها تستيقظ على هذا العرض الذى هم عنه معرضون .

Marfat.com

Marfat.com

وبينما هذا المشهد معروض . القوم فى سعارهم المريض يستبشرون ويتلمظون . ولوط يدافعهم ويستثير نخوتهم ، ويستجيش وجدانهم ، ويحرك دواعى الفطرة السليمة فيهم ، وهم فى سعارهم مندفعون . .

بينما المشهد البشع معروض على هذا النحو المثير يلتفت السياق خطابا لمن يشهد ذلك المشهد ، على طريقة العرب فى كلامهم بالقسم : « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » . . لتصوير حالتهم الأصيلة الدائمة التى لا يرجى معها أن يفيقوا ولا أن يسمعوا هواتف النخوة والتقوى والفطرة السليمة . .

ثم تكون الخاتمة . وتحق عليهم كلمة الله : « مانزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذن منظرين » وإذا نحن أمام مشهد الدمار والخراب والخسف والهلاك المناسب لتلك الطبائع المقلوبة :

« فأخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » . .

وقد خسف بقرى لوط بظاهرة تشبه ظاهرة الزلازل أو البراكين وتصاحبها أحيانا ظاهرة الخسف وتناثر أحجار ملوثة بالطين وهبوط مدن بكاملها تسيح فى الأرض . ويقال : إن بحيرة لوط الحالية وجدت بعد هذا الحادث ، بعد انقلاب عمورة وسدوم فى باطن الأرض ، وهبوط مكانها وامتلائه بالماء .

وقرى لوط تقع فى طريق مطروق بين الحجاز والشام يمر عليها الناس . وفيها عظات لمن يتفرس ويتأمل ، ويجد العبرة فى مصارع الغابرين . وإن كانت الآيات لا تنفع إلا القلوب المؤمنة المتفتحة المستعدة للتلقى والتدبر واليقين :

« إن فى ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لبسبيل مقيم[1] . إن فى ذلك لآية للمؤمنين » . .

وهكذا صديق النذير ، وكان نزول الملائكة إيذانا بعذاب الله الذى لا يرد ولا يمهل ولا يتأخر .

* * *

(١) طريق باق لم يندثر .

Marfat.com

كذلك كان الحال مع قوم شعيب ـ أصحاب الأيكة[1] ـ ومع قوم صالح ـ أصحاب الحجر :

« وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ، فانتقمنا منهم ، وإنهما لبإمام مبين . ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ؛ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ؛ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ؛ فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » ..

وقد فصل القرآن قصة شعيب مع قومه : أهل مدين وأصحاب الأيكة فى مواضع أخرى . فأما هنا فيشير إشارة إلى ظلمهم وإلى مصرعهم تصديقا لنبأ العذاب ، فى هذا الشوط ، ولإهلاك القرى بعد انقضاء الأجل المعلوم الوارد فى مطالع السورة . ومدين والأيكة كانتا بالقرب من قرى لوط . والإشارة الواردة هنا « وإنهما لبإمام مبين» قد تعنى مدين والأيكة ، فهما فى طريق واضح غير مندثر ، وقد تعنى قرية لوط السالفة الذكر وقرية شعيب ، جمعهما لأنهما فى طريق واحد بين الحجاز والشام . ووقوع القرى الدائرة على الطريق المطروق أدعى إلى العبرة ، فهى شاهد حاضر يراه الرائح والغادى . والحياة تجرى من حولها وهى دائرة كأن لم تكن يوما عامرة . والحياة لا تغفلها وهى ماضية فى الطريق !

أما أصحاب الحجر فهم قوم صالح ، والحجر تقع بين الحجاز والشام إلى وادى القرى ، وهى ظاهرة إلى اليوم . فقد نحتوها فى الصخر فى ذلك الزمان البعيد ، مما يدل على القوة والأيد والحضارة .

« ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين » .. وهم لم يكذبوا سوى رسولهم صالح . ولكن صالحا ليس إلا ممثلا للرسل أجمعين ؛ فلما كذبه قومه قيل : إنهم كذبوا المرسلين . توحيدا للرسالة وللرسل وللمكذبين . فى كل أعصار التاريخ ، وفى كل جوانب الأرض ، على اختلاف الزمان والمكان والأشخاص والأقوام .

« وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين» .. وآية صالح كانت الناقة . ولكن الآيات فى هذا الكون كثير . والآيات فى هذه الأنفس كثير . وكلها معروضة للأنظار والأفكار . وليست الخارقة التى جاءهم بها صالح هى وحدها الآية التى آتاهم الله . وقد أعرضوا عن آيات الله كلها ، ولم يفتحوا لها عينا ولا قلبا ، ولم يستشعرها فيهم عقل ولا ضمير .

---

(١) الشجر الملتف الكثيف . وقد أرسل شعيب إلى أصحاب الأيكة وإلى أهل مدين .

Marfat.com

« وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ، فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » .

وهـذه اللمحة الخاطفة من الأمن فى البيوت الحصينة فى صلب الجبال ، إلى الصيحة التى تأخذهم فلا تبقى لهم مما جمعوا ومما كسبوا ومما بنوا ومما نحتوا .. شيئا يغنى عنهم ويدفع الهلاك الخاطف .. هـذه اللمحة تلمس القلب البشرى لمسة عنيفة . فما يأمن قوم على أنفسهم أكثر مما يأمن قوم بيوتهم منحوته فى صلب الصخور . وما يبلغ الاطمئنان بالناس فى وقت أشد من اطمئنانهم فى وقت الصباح المشرق الوديع .. وهاهم أولاء قوم صالح تأخذهم الصيحة مصبحين وهم فى ديارهم الحصينة آمنون . فإذا كل شىء ذاهب ، وإذا كل وقاية ضائعة ، وإذا كل حصين موهون . . فما شىء من هذا كله بواقيهم من الصيحة . وهى فرقعة ريح أو صاعقة ، تلحقهم فتهلكهم فى جوف الصخر المتين .

وهكذا تنتهى تلك الحلقات الخاطفة من القصص فى السورة ، محققة سنة الله فى أخذ المكذبين عند انقضاء الأجل المعلوم . فتتناسق نهاية هذا الشوط مع نهايات الأشواط الثلاثة السابقة فى تحقيق سنة الله التى لا تتخلف ولا تحيد .

« وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ ؛ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ * وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْآنَ ٱلْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ : إِنِّي أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ * كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ * ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ، وَكُنْ مِنَ ٱلسَّاجِدِينَ * وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ » ﴿٩٩﴾

تلك السنن العامة التى لا تتخلف ، والتى تحكم الكون والحياة ، وتحكم الجماعات والرسالات، وتحكم الهدى والضلال ، وتحكم المصائر والحساب والجزاء . والتى انتهى كل مقطع من مقاطع السورة بتصديق سنة منها ، أو عرض نماذج منه فى شتى هذه المجالات . . تلك السنن شاهد على الحكمة المكنونة فى كل خلق من خلق الله ، وعلى الحق الأصيل الذى تقوم عليه طبيعة هذا الخلق .

ومن ثم يعقب السياق فى ختام السورة ببيان هذا الحق الأكبر ، الذى يتجلى فى طبيعة خلق السماوات والأرض وما بينهما . وطبيعة الساعة الآتية لا ريب فيها . وطبيعة الدعوة التى يحملها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد حملها الرسل قبله . ويجمع بينها كلها فى نطاق الحق الأكبر الذى يربطها ويتجلى فيها ؛ ويشير إلى أن ذلك الحق متلبس بالخلق ، صادر عن أن الله هو الخالق لهذا الوجود : « إن ربك هو الخلاق العليم » . .

فليمض الحق الأكبر فى طريقه ، ولتمض الدعوة المستندة إلى الحق الأكبر فى طريقها ، ولتمض الداعية إلى الحق لا يبالى المشركين المستهزئين « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » وسنة الله ماضية فى طريقها ، لا تتخلف . والحق الأكبر من ورائها متلبسا بالدعوة وبالساعة وبخلق السماوات والأرض ، ولكل ما فى الوجود الصادر عن الخلاق العليم . . إنها لفتة ضخمة تختم بها السورة . لفتة إلى الحق الأكبر الذى يقوم به هذا الوجود . .

***

« وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وإن الساعة لآتية . فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم » . .

إن هذا التعقيب بتقرير الحق الذى تقوم به السماوات والأرض ، والذى كان به خلقهما وما بينهما ، لتعقيب عظيم الدلالة عميق المعنى ؛ عجيب التعبير . فماذا يشير إليه هذا القول : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق » ؟ إنه يوحى بأن الحق عميق فى تصميم هذا الوجود : عميق فى تكوينه . عميق فى تدبيره . عميق فى مصير هذا الوجود وما فيه ومن فيه . .

عميق فى تصميم هذا الوجود . فهو لم يخلق عبثا ، ولم يكن جزافا ، ولم يتلبس بتصميمه الأصيل خداع ولا زيف ولا باطل . والباطل طارىء عليه ليس عنصرا من عناصر تصميمه .

Marfat.com

عميق فى تكوينه . فقوامه من العناصر التى يتألف منها حق لا وهم ولا خداع . والنواميس التى تحكم هذه العناصر وتؤلف بينها حق لا يتزعزع ولا يضطرب ولا يتبدل . ولا يتلبس به هوى أو خلل أو اختلاف .

عميق فى تدبيره . فبالحق يدبر ويصرف ، وفق تلك النواميس الصحيحة العادلة التى لا تتبع هوى ولا نزوة ، إنما تتبع الحق والعدل .

عميق فى مصيره . فكل نتيجة تتم وفق تلك النواميس الثابتة العادلة ؛ وكل تغيير يقع فى السماوات والأرض وما بينهما يتم بالحق وللحق . وكل جزاء يترتب يتبع سنة الله التى لا تحابى .

ومن هنا يتصل الحق الذى خلق الله به السماوات والأرض وما بينهما ، بالساعة الآتية لاريب فيها . فهى آتية لا تتخلف . وهى جزء من الحق الذى قام به الوجود . فهى فى ذاتها حقيقة ، وقد جاءت لتحق الحق . « فاصفح الصفح الجميل » ، ولا تشغل قلبك بالحنق والحقد ، فالحق لا بد أن يحق : « إن ربك هو الخلاق العليم » الذى خلق ويعلم ما خلق ومن خلق . والخلق كله من إبداعه فلا بد أن يكون الحق أصيلا فيه ، ولا بد أن ينتهى كل شىء فيه إلى الحق الذى بدأ منه وقام عليه . فهو فيه أصيل وما عداه باطل وزيف طارىء يذهب ، فلا يبقى إلا ذلك الحق الكبير الشامل المستقر فى ضمير الوجود .

يتصل بهذا الحق الكبير تلك الرسالة التى جاء بها الرسول . وذلك القرآن الذى أوتيه :

« ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم » .

والمثانى الأرجح أن المقصود بها آيات سورة الفاتحة السبعة ــ كما ورد فى الأثر ــ فهى تثنى وتكرر فى الصلاة ؛ أو يثنى فيها على الله[1] .

والقرآن العظيم سائر القرآن .

والمهم أن وصل هذا النص بآيات خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق والساعة الآتية لا ريب فيها، يشى بالاتصال بين هذا القرآن والحق الأصيل الذى يقوم به الوجود وتقوم عليه الساعة . فهذا القرآن من عناصر ذلك الحق ، وهو يكشف سنن الخالق ويوجه القلوب إليها ويكشف آياته فى الأنفس والآفاق ويستجيش القلوب لإدراكها ويكشف أسباب الهدى والضلال ،

---

(1) بعض التفاسير المأثورة تقول : إن المقصود بها السبع الطوال : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة بوصفهما سورة واحدة .

Marfat.com

ومصير الحق والباطل ، والخير والشر والصلاح والطلاح . فهو من مادة ذلك الحق ومن وسائل كشفه وتبيانه . وهو أصيل أصالة ذلك الحق الذى خلقت به السماوات والأرض . ثابت ثبوت نواميس الوجود ، مرتبط بتلك النواميس . وليس أمرا عارضا ولا ذاهبا . إنما يبقى مؤثرا فى توجيه الحياة وتصريفها وتحويلها ، مهما يكذب المكذبون ، ويستهزىء المستهزئون ، ويحاول المبطلون ، الذين يعتمدون على الباطل وهو عنصر طارىء زائل فى هذا الوجود .

ومن ثم فإن من أوتى هذه المثانى وهذا القرآن العظيم ، المستمد من الحق الأكبر ، المتصل بالحق الأكبر . . لا يمد بصره ولا تتحرك نفسه لشىء زائل فى هذه الأرض من أعراضها الزوائل . ولا يحفل مصير أهل الضلال ، ولا يهمه شأنهم فى كثير ولا قليل . إنما يمضى فى طريقه مع الحق الأصيل :

« لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ، ولا تحزن عليهم ، واخفض جناحك للمؤمنين . وقل : إنى أنا النذير المبين » . .

« لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم » . . والعين لا تمتد . إنما يمتد البصر أى يتوجه . ولكن التعبير التصويرى يرسم صورة العين ذاتها ممدودة إلى المتاع . وهى صورة طريفة حين يتصورها المتخيل . والمعنى وراء ذلك ألا يحفل الرسول – صلى الله عليه وسلم – ذلك المتاع الذى آتاه الله لبعض الناس رجالا ونساء – امتحانا وابتلاء – ولا يلقى إليه نظرة اهتمام ، أو نظرة استجمال . أو نظرة تمن . فهو شىء زائل ، وشىء باطل ؛ ومعه هو الحق الباقى من المثانى والقرآن العظيم .

وليس المقصود هو أن يقنع المحرومون بحرمانهم ويدعوا المتمتعين لمتاعهم ، حين تختل الموازين الاجتماعية وينقسم المجتمع إلى محرومين ظلما ومتمتعين بغيا ؛ فالإسلام الذى يقوم على الحق ، ويقرر أن الحق هو قوام هذا الوجود لا يرضى الظلم أصلا .

إنما هو معنى خاص فى هذا السياق . للموازنة بين الحق الكبير والعطاء العظيم الذى مع الرسول ، والمتاع الصغير الذى يتألق بالبريق وهو ضئيل . فى طريقه إلى توجيه الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى إهمال القوم المتمتعين ، والعناية بالمؤمنين فهؤلاء هم أتباع الحق الذى جاء به والذى تقوم عليه السماوات والأرض وما بينهما ؛ وأولئك هم أتباع الباطل الزائل ، الطارىء على صميم الوجود . .

Marfat.com

«ولا تحزن عليهم » .. ولا تهتم لمصيرهم السيء الذى تعلم أن عدل الله يقتضيه ، وأن الحق فى الساعة يقتضيه . ودعهم لمصيرهم الحق « واخفض جناحك للمؤمنين » والتعبير عن اللين والمودة والعطف بخفض الجناح تعبير تصويرى ، يمثل لطف الدعاية وحسن المعاملة ورقة الجانب فى صورة محسوسة على طريقة القرآن الفنية فى التعبير .

« وقل : إنى أنا النذير المبين » .. فذلك هو طريق الدعوة الأصيل . وبفرد الإنذار هنا دون التبشير لأنه الأليق بقوم يكذبون ويستهزئون ، ويتمتعون ذلك المتاع البراق ، ولا يستيقظون منه لتدبر الحق الذى تقوم عليه الدعوة ، وتقوم عليه الساعة ، ويقوم عليه الكون الكبير .

وبمناسبة ذكر ماأوتيه الرسول – صلى الله عليه وسلم – من المثانى والقرآن العظيم ، يذكر السياق ماأوتيه بعض الرسل قبله ممن يمارى أتباعهم فى القرآن الكريم إذ يقسمونه أجزاء ، يقبلون بعضه ويردون بعضه ، فما وافق مافى كتبهم قبلوه ، ومازاد عليها أو خالفها ردوه ، وهو الكتاب الأخير الكامل المكمل لجميع الديانات قبله بحكم أنه الكتاب الأخير :

« كما أنزلنا على المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عضين . فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » ..

لقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم . . كما أنزلنا على المقتسمين . . فلست بدعا من الرسل الذين آتيناهم الكتاب ، فأصل الكتاب واحد ، ومُنزله واحد ، وكل الكتب نزلناها نحن ، فما يجوز أن ينكر بعضها من أنزلنا عليهم من قبل . فالذى ينزل الكتب هو أعلم بحاجة الناس فى كل عصر . وهؤلاء الذين فرقوا القرآن وجعلوه عضين (جمع عضة وهو الجزء ، من عضى الشاة أى فصل بين أعضائها) واقتسموه : قسما مقبولا وقسما مردودا . . هؤلاء خالفوا عن مقتضى إعطائهم الكتاب . « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » .. وماوراء السؤال معروف !

وحين يصل السياق إلى هذا الحد ، يتجه بالخطاب إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يمضى فى طريقه . يجهر بما أمره الله أن يبلغه . ويسمى هذا الجهر صدعا – أى شقا – دلالة على القوة والنفاذ . لا يقعده عن الجهر والمضى شرك مشرك فسوف يعلم المشركون عاقبة

Marfat.com

Marfat.com

أمرهم. ولا استهزاء مستهزىء فقد كفاه الله شر المستهزئين ، فلم يعد لاستهزائهم من أثر فى سير الدعـوة :

« فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ؛ إنا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون » . .

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشر لا يملك نفسه أن يضيق صدره وهو يسمع الشرك بالله ، ويسمع الاستهزاء بدعوة الحق . فيغار على الدعوة ويغار على الحق ، ويضيق بالضلال والشرك . لهذا يؤمر أن يسبح بحمد ربه ويعبده ، ويلوذ بالتسبيح والحمد والعبادة من سوء ما يسمع من القوم . ولا يفتر عن التسبيح بحمد ربه طوال الحياة ، حتى يأتيه اليقين الذى ما بعده يقين . . الأجل . . فيمضى إلى جوار ربه الكريم : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين. واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

ويكون هذا ختام السورة .. الإعراض عن الكافرين واللواذ بجوار الله الكريم . أولئك الكافرين الذين سيأتى يوم يودون فيه لو كانوا مسلمين . .

سورة النحل مكية

إلا الآيات الثلاث الأخيرة فمدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

« أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ① يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ : أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ .

« خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ ، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

« وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ، وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ .

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ ، وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ .

Marfat.com

Marfat.com

« وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ، وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ؛ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِى ٱلْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ، وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ .

« أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

« وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » (٢١)

هذه السورة هادئة الإيقاع ، عادية الجرس ؛ ولكنها مليئة حافلة . موضوعاتها الرئيسية كثيرة متنوعة ؛ والإطار الذى تعرض فيه واسع شامل ؛ والأوتار التى توقع عليها متعددة مؤثرة ، والظلال التى تلونها عميقة الخطوط .

وهى كسائر السور المكية تعالج موضوعات العقيدة الكبرى : الألوهية . والوحى . والبعث . ولكنها تلم بموضوعات جانبية أخرى تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسية . تلم بحقيقة الوحدانية الكبرى التى تصل بين دين ابراهيم ـ عليه السلام ـ ودين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتلم بحقيقة الإرادة الإلهية والإرادة البشرية فيما يختص بالإيمان والكفر والهدى والضلال . وتلم بوظيفة الرسل ، وسنة الله فى المكذبين لهم . وتلم بموضوع التحليل والتحريم وأوهام الوثنية حول هذا الموضوع . وتلم بالهجرة فى سبيل الله ، وفتنة المسلمين فى دينهم ، والكفر بعد الإيمان وجزاء هذا كله عند الله . . ثم تضيف إلى موضوعات العقيدة موضوعات المعاملة : العدل والإحسان والإنفاق والوفاء بالعهد ، وغيرها من موضوعات السلوك القائم على العقيدة . . وهكذا هى مليئة حافلة من ناحية الموضوعات التى تعالجها .

فأما الإطار الذى تعرض فيه هذه الموضوعات ، والمجال الذى تجرى فيه الأحداث ، فهو

فسيح شامل . . هو السماوات والأرض . والماء الهاطل والشجر النامى . والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم . والبحار والجبال والمعالم والسبل والأنهار . وهو الدنيا بأحداثها ومصائرها ، والأخرى بأقدارها ومشاهدها . وهو الغيب بألوانه وأعماقه فى الأنفس والآفاق .

فى هذا المجال الفسيح يبدو سياق السورة وكأنه حملة ضخمة للتوجيه والتأثير واستجاشة العقل والضمير . حملة هادئة الإيقاع ، ولكنها متعددة الأوتار . ليست فى جلجلة الأنغام والرعد ، ولكنها فى هدوئها تخاطب كل حاسة وكل جارحة فى الكيان البشرى ، وتتجه إلى العقل الواعى كما تتجه إلى الوجدان الحساس . إنها تخاطب العين لترى ، والأذن لتسمع ، واللمس ليستشعر ، والوجدان ليتأثر ، والعقل ليتدبر . وتحشد الكون كله : سماءه وأرضه ، وشمسه وقمره ، وليله ونهاره ، وجباله وبحاره وفجاجه وأنهاره وظلاله وأكنانه نبته وثماره ، وحيوانه وطيوره . كما تحشد دنياه وآخرته ، وأسراره وغيوبه .. كلها أدوات توقع بها على أوتار الحواس والجوارح والعقول والقلوب ، مختلف الإيقاعات التى لا يصمد لها فلا يتأثر بها إلا العقل المغلق والقلب الميت ، والحس المطموس .

هذه الإيقاعات تتناول التوجيه إلى آيات الله فى الكون ، وآلائه على الناس كما تتناول مشاهد القيامة ، وصور الاحتضار ، ومصارع الغابرين ؛ تصاحبها اللمسات الوجدانية التى تندس إلى أسرار الأنفس ، وإلى أحوال البشر وهم أجنة فى البطون ، وهم فى الشباب والهرم والشيخوخة ، وهم فى حالات الضعف والقوة ، وهم فى أحوال النعمة والنقمة . كذلك يتخذ الأمثال والمشاهد والحوار والقصص الخفيف أدوات للعرض والإيضاح .

فأما الظلال العميقة التى تلون جو السورة كله فهى الآيات الكونية تتجلى فيها عظمة الخلق ، وعظمة النعمة ، وعظمة العلم والتدبير . . كلها متداخلة . . فهذا الخلق الهائل العظيم المدبر عن علم وتقدير ، ملحوظ فيه أن يكون نعمة على البشر ، لا تلبي ضروراتهم وحدها ، ولكن تلبي أشواقهم كذلك ، فتسد الضرورة . وتتخذ للزينة ، وترتاح بها أبدانهم وتستروح لها نفوسهم ، لعلهم يشكرون ..

ومن ثم تتراءى فى السورة ظلال النعمة وظلال الشكر ، والتوجيهات إليها ، والتعقيب بها فى مقاطع السورة ، وتضرب عليها الأمثال ، وتعرض لها النماذج ، وأظهرها نموذج إبراهيم « شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم » .

Marfat.com

كل أولئك فى تناسق ملحوظ بين الصور والظلال والعبارات والإيقاعات ، والقضايا والموضوعات نرجو أن نقف على نماذج منه فى أثناء استعراضنا للسياق .

ونبدأ الشوط الأول ، وموضوعه هو التوحيد ؛ وأدواته هى آيات الله فى الخلق ، وأياديه فى النعمة ، وعلمه الشامل فى السر والعلانية ، والدنيا والآخرة .فلنأخذ فى التفصيل :

* * *

« أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون . ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده : أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون » . .

لقد كان مشركو مكة يستعجلون الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يأتيهم بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة . وكلما امتد بهم الأجل ولم ينزل بهم العذاب زادوا استعجالا ، وزادوا استهزاء ، وزادوا استهتارا ؛ وحسبوا أن محمدا يخوفهم ما لا وجود له ولا حقيقة ، ليؤمنوا له ويستسلموا . ولم يدركوا حكمة الله فى إمهالهم ورحمته فى إنظارهم ؛ ولم يحاولوا تدبر آياته فى الكون ، وآياته فى القرآن . هذه الآيات التى تخاطب العقول والقلوب ، خيرا من خطابها بالعذاب ! والتى تليق بالإنسان الذى أكرمه الله بالعقل والشعور ، وحرية الإدارة والتفكير .

وجاء مطلع السورة حاسما جازما : « أتى أمر الله » . . يوحى بصدور الأمر وتوجه الإرادة ؛ وهذا يكفى لتحققه فى الموعد الذى قدره الله لوقوعه « فلا تستعجلوه » فإن سنة الله تمضى وفق مشيئته ، لا يقدمها استعجال . ولا يؤخرها رجاء . فأمر الله بالعذاب أو بالساعة قد قضى وانتهى ، أما وقوعه ونفاذه فسيكون فى حينه المقدر ، لايستقدم ساعة ولا يتأخر .

وهذه الصيغة الحاسمة الجازمة ذات وقع فى النفس مهما تماسك أو تكابر ، وذلك فوق مطابقتها لحقيقة الواقع ؛ فأمر الله لا بد واقع ، ومجرد قضائه يعد فى حكم نفاذه ، ويتحقق به وجوده ، فلا مبالغة فى الصيغة ولا مجانبة للحقيقة ، فى الوقت الذى تؤدى غايتها من التأثر العميق فى الشعور .

فأما ما هم عليه من شرك بالله الواحد ، وتصورات مستمدة من هذا الشرك فقد تنزه الله

Marfat.com

عنه وتعالى : « سبحانه وتعالى عما يشركون » بكل صوره وأشكاله ، الناشئة عن هبوط فى التصور والتفكير .

أتى أمر الله المنزه عن الشرك المتعالى عما يشركون . الله الذى لا يدع الناس إلى ضلالهم وأوهامهم إنما هو ينزل عليهم من السماء ما يحييهم وينجيهم : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده » . . وهذا أولى نعمه وكبراها . فهو لا ينزل من السماء ماء يحيى الأرض والأجسام وحدها ـ كما سيجيء ـ إنما ينزل الملائكة بالروح من أمره . وللتعبير بالروح ظله ومعناه . فهو حياة ومبعث حياة : حياة فى النفوس والضمائر والعقول والمشاعر . وحياة فى المجتمع تحفظه من الفساد والتحلل والانهيار . وهو أول ما ينزله الله من السماء للناس ، وأول النعم التى يمن الله بها على العباد . تنزل به الملائكة أطهر خلق الله على المختارين من عباده ـ الأنبياء ـ خلاصته وفحواه : « أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون » .

إنها الوحدانية فى الألوهية . روح العقيدة . وحياة النفس . ومفرق الطريق بين الاتجاه المحيي والاتجاه المدمر . فالنفس التى لا توحد المعبود نفس حائرة هالكة تتجاذبها السبل وتخايل لها الأوهام وتمزقها التصورات المتناقضة ، وتناوشها الوساوس ، فلا تنطلق مجتمعة لهدف من الأهداف !

والتعبير بالروح يشمل هذه المعانى كلها ويشير إليها فى مطلع السورة المشتملة على شتى النعم ، فيصدر بها نعمه جميعا ؛ وهى النعمة الكبرى التى لا قيمة لغيرها بدونها ؛ ولا تحسن النفس البشرية الانتفاع بنعم الأرض كلها إن لم توهب نعمة العقيدة التى تحييها .

ويفرد الإنذار ، فيجعله فحوى الوحى والرسالة ، لأن معظم سياق السورة يدور حول المكذبين والشركين والجاحدين لنعمة الله ، والمحرمين ما أحله الله ، والناقضين لعهد الله ، والمرتدين عن الإيمان ومن ثم يكون إظهار الإنذار أليق فى هذا السياق . وتكون الدعوة إلى التقوى والحذر والخوف أولى فى هذا المقام .

* * *

ثم يأخذ فى عرض الآيات . آيات الخلق الدالة على وحدانية الخالق ؛ وآيات النعمة الدالة

Marfat.com

على وحدانية المنعم ؛ يعرضها فوجا فوجا ، ومجموعة مجموعة . بادئاً بخلق السماوات والأرض ، وخلق الإنسان .

« خلق السماوات والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصم مبين » .

« خلق السماوات والأرض بالحق » .. الحق قوام خلقهما ، والحق قوام تدبيرهما ، والحق عنصر أصيل فى تصريفهما وتصريف من فيهما ومافيهما . فما شىء من ذلك كله عبث ولاجزاف. إنما كل شىء قائم على الحق ومتلبس به ومفض له وصائر فى النهاية إليه .. « تعالى عما يشركون » تعالى عن شركهم ، وتعالى عما يشركون به من خلق الله الذى خلق السماوات والأرض ، وخلق من فيهما وما فيهما ، فليس أحد وليس شىء شريكا له وهو الخالق الواحد بلا شريك .

« خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين » ويا لها من نقلة ضخمة بين المبدأ والمصير . بين النطفة الساذجة والإنسان المخاصم المجادل الذى يخاصم خالقه فيكفر به ويجادل فى وجوده أو فى وحدانيته . وليس بين مبدئه من نطفة وصيرورته إلى الجدل والخصومة فارق ولا مهلة . فهكذا يصوره التعبير ، ويختصر المسافة بين المبدأ والمصير ، لتبدو المفارقة كاملة ، والنقلة بعيدة ، ويقف الإنسان بين مشهدين وعهدين متواجهين : مشهد النطفة المهينة الساذجة ، ومشهد الإنسان الخصيم المبين . وهو إيجاز مقصود فى التصوير .

وفى هذا المجال الواسع ـ مجال الكون : السماوات والأرض ـ الذى يقف فيه الإنسان ، يأخذ السياق فى استعراض خلق الله الذى سخره للإنسان ، ويبدأ بالأنعام :

« والأنعام خلقها ، لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون » . .

وفى بيئة كالبيئة التى نزل فيها القرآن أول مرة ، وأشباهها كثير ؛ وفى كل بيئة زراعية والبيئات الزراعية هى الغالبة حتى اليوم فى العالم . . فى هذه البيئة تبرز نعمة الأنعام ، التى لاحياة بدونها لبنى الإنسان . والأنعام المتعارف عليها فى الجزيرة كانت هى الإبل والبقر والضأن

Marfat.com

Marfat.com

والمعز . أما الخيل والبغال والحمير فللركوب والزينة ولا تؤكل[1] والقرآن إذ يعرض هذه النعمة هنا ينبه إلى ما فيها من تلبية لضرورات البشر وتلبية لأشواقهم كذلك : ففي الأنعام دفء من الجلود والأصواف والأوبار والأشعار ، ومنافع في هذه وفي اللبن واللحم وما إليها . ومنها تأكلون لحماً ولبناً وسمنا ، وفي حمل الأثقال إلى البلد البعيد لا يبلغونه إلا بشق الأنفس . وفيها كذلك جمال عند الإراحة في المساء وعند السرح في الصباح . جمال الاستمتاع بمنظرها فارهة رائعة صحيحة سمينة . وأهل الريف يدركون هذا المعنى بأعماق نفوسهم ومشاعرهم أكثر مما يدركه أهل المدينة .

وفي الخيل والبغال والحمير تلبية للضرورة في الركوب . وتلبية لحاسة الجمال في الزينة : « لتركبوها وزينة » .

وهذه اللفتة لها قيمتها في بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة . فالجمال عنصر أصيل في هذه النظرة . وليست النعمة هي مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب ؛ بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات . تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنساني المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان .

« إن ربكم لرؤوف رحيم » يعقب بها على حمل الأثقال إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس توجيها إلى ما في خلق الأنعام من نعمة ، وما في هذه النعمة من رحمة .

« ويخلق ما لا تعلمون » .. يعقب بها على خلق الأنعام للأكل والحمل والجمال ، وخلق الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة .. ليظل المجال مفتوحاً في التصور البشري لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والنقل والركوب والزينة ، فلا يغلق تصورهم خارج حدود البيئة ، وخارج حدود الزمان الذي يظلهم. فوراء الموجود في كل مكان وزمان صور أخرى ، يريد الله للناس أن يتوقعوها فيتسع تصورهم وإدراكهم ، ويريد لهم أن يأنسوا بها حين توجد أو حين تكشف فلا يعادوها ولا يجمدوا دون استخدامها والانتفاع بها . ولا يقولوا : إنما استخدم آباؤنا الأنعام والخيل والبغال والحمير فلا نستخدم سواها . وإنما نص القرآن على هذه الأصناف فلا نستخدم ما عداها ! .

---

(١) هناك خلاف فقهي في الخيل فأبو حنيفة يحرم لحومها استنادا إلى هذا النص الذي يخصصها للركوب والزينة وإلى بعض الأحاديث . والجمهور يحلها استنادا إلى أحاديث صحيحة وإلى السنة العملية .

إن الإسلام عقيدة مفتوحة مرنة قابلة لاستقبال طاقات الحياة كلها ، ومقدرات الحياة كلها ومن ثم يهيء القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال كل ما تتمخض عنه القدرة ، ويتمخض عنه العلم ، ويتمخض عنه المستقبل . استقباله بالوجدان الديني المتفتح المستعد لتلقي كل جديد في عجائب الخلق والعلم والحياة .

ولقد جدت وسائل للحمل والنقل والركوب والزينة لم يكن يعلمها أهل ذلك الزمان . وستجد وسائل أخرى لا يعلمها أهل هذا الزمان . والقرآن يهيء لها القلوب والأذهان ، بلا جمود ولا تحجر « ويخلق مالا تعلمون » ..

وفي معرض النقل والحمل والركوب والسير لبلوغ غايات محسوسة في عالم الأرض ، يدخل السياق غايات معنوية وسيرا معنويا وطرقا معنوية . فثمة الطريق إلى الله . وهو طريق قاصد مستقيم لا يلتوي ولا يتجاوز الغاية . وثمة طرق أخرى لا توصل ولا تهدي . فأما الطريق إلى الله فقد كتب على نفسه كشفها وبيانها : بآياته في الكون وبرسله إلى الناس :

« وعلى الله قصد السبيل . ومنها جائر . ولو شاء لهداكم أجمعين » ..

والسبيل القاصد هو الطريق المستقيم الذي لا يلتوي كأنه يقصد قصدا إلى غايته فلا يحيد عنها . والسبيل الجائر هو السبيل المنحرف المجاوز للغاية لا يوصل إليها ، أو لا يقف عندها !

« ولو شاء لهداكم أجمعين » .. ولكنه شاء أن يخلق الإنسان مستعدا للهدى والضلال ، وأن يدع لإرادته اختيار طريق الهدى أو طريق الضلال . فكان منهم من يسلك السبيل القاصد ، ومنهم من يسلك السبيل الجائر . وكلاهما لا يخرج على مشيئة الله ، التي قضت بأن تدع للإنسان حرية الاختيار .

والفوج الثاني من آيات الخلق والنعمة :

« هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن كل الثمرات . إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » ..

والماء ينزل من السماء وفق النواميس التي خلقها الله في هذا الكون ، والتي تدبر حركاته وتنشىء نتائجها وفق إرادة الخالق وتدبيره . هذا الماء يذكر هنا نعمة من نعم الله « لكم منه

Marfat.com

شراب » فهى خصوصية الشراب التى تبرز فى هذا المجال ثم خصوصية المرعى « ومنه شجر فيه تسيمون » وهى المراعى التى تربون فيها السوائم . ذلك بمناسبة ذكر الأنعام قبلها وتنسيقا للجو العام بين المراعى والأنعام . ثم الزروع التى يأكل منها الإنسان مع الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من أشجار الثمار . .

« إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » . . فى تدبير الله لهذا الكون ، ونواميسه المواتية لحياة البشر ، وما كان الإنسان ليستطيع الحياة على هذا الكوكب لو لم تكن نواميس الكون مواتية لحياته ، موافقة لفطرته ، ملبية لحاجاته . وما هى بالمصادفة العابرة أن يخلق الإنسان فى هذا الكوكب الأرضى ، وأن تكون النسب بين هذا الكوكب وغيره من النجوم والكواكب هى هذه النسب ، وأن تكون الظواهر الجوية والفلكية على ماهى عليه ، ممكنة للإنسان من الحياة ، ملبية هكذا لحاجاته على النحو الذى نراه .

والذين يتفكرون هم الذين يدركون حكمة التدبير ، وهم الذين يربطون بين ظاهرة كظاهرة المطر وما ينشئه على الأرض من حياة وشجر وزروع وثمار ، وبين النواميس العليا للوجود ، ودلالتها على الخالق وعلى وحدانية ذاته ووحدانية إرادته ووحدانية تدبيره . أما الغافلون فيمرون على مثل هذه الآية فى الصباح والمساء ، فى الصيف والشتاء ، فلا توقظ تطلعهم ، ولا تثير استطلاعهم ولا تستجيش ضمائرهم إلى البحث عن صاحب هذا النظام الفريد .

والفوج الثالث من أفوج الآيات :

« وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . .

ومن مظاهر التدبير فى الخلق ، وظواهر النعمة على البشر فى آن : الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم . فكلها مما يلبى حاجة الإنسان فى الأرض . وهى لم تخلق له ولكنها مسخرة لمنفعته . فظاهرة الليل والنهار ذات أثر حاسم فى حياة هذا المخلوق البشرى . ومن شاء فليتصور نهارا بلا ليل أو ليلا بلا نهار ، ثم يتصور مع هذا حياة الإنسان والحيوان والنبات فى هذه الأرض كيف تكون .

Marfat.com

Marfat.com

كذلك الشمس والقمر. وعلاقتهما بالحياة على الكوكب الأرضى، وعلاقة الحياة بهما فى أصلها وفى نموها، « والنجوم مسخرات بأمره » للانسان ولغير الإنسان مما يعلم الله..

وكل أولئك طرف من حكمة التدبير، وتناسق النواميس فى الكون كله، يدركه أصحاب العقول التى تتدبر وتعقل وتدرك ماوراء الظواهر من سنن وقوانين: « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » ..

والفوج الرابع من أفواج النعمة فيما خلق الله للإنسان:

« وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه. إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون » ..

وما خلق الله فى الأرض وما أودع فيها للبشر من مختلف المعادن التى تقوم بها حياتهم فى بعض الجهات وفى بعض الأزمان. ونظره إلى هذه الذخائر المخبوءة فى الأرض، المودعة للناس حتى يبلغوا رشدهم يوما بعد يوم، ويستخرجوا كنوزهم فى حينها ووقت الحاجة إليها. وكلما قيل: إن كنزا منها قد نفد أعقبه كنز آخر غنى، من رزق الله المدخر للعباد .. « إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون » ولا ينسون أن يد القدرة هى التى خبأت لهم هذه الكنوز.

والفوج الخامس من أفواج الخلق والأنعام فى البحر الملح الذى لا يشرب ولا يسقى، ولكنه يشتمل على صنوف من آلاء الله على الإنسان:

« وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه، ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون » ..

ونعمة البحر وأحيائه تلبى كذلك ضرورات الإنسان وأشواقه. فمنه اللحم الطرى من السمك وغيره للطعام. وإلى جواره الحلية من اللؤلؤ ومن المرجان، وغيرهما من الأصداف والقواقع التى يتحلى بها أقوام مايزالون حتى الآن. والتعبير كذلك عن الفلك يشى بتلبية حاسة الجمال لا بمجرد الركوب والانتقال: « وترى الفلك مواخر فيه » فهى لفتة إلى متاع الرؤية وروعتها: رؤية الفلك « مواخر » تشق الماء وتفرق العباب .. ومرة أخرى نجد أنفسنا أمام التوجيه القرآنى العالى إلى الجمال فى مظاهر الكون بجانب الضرورة والحاجة، لنتملى هذا الجمال ونستمتع به، ولا نحبس أنفسنا داخل حدود الضرورات والحاجات.

Marfat.com

كذلك يوجهنا السياق ـ أمام مشهد البحر والفلك تشق عبابه ـ إلى ابتغاء فضل الله ، وإلى شكره على ما سخر من الطعام والزينة والجمال فى ذلك الملح الأجاج : « ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

والفوج الأخير فى هذا المقطع من السورة :

« وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون » . فأما الجبال الرواسى فالعلم الحديث يعلل وجودها ولكنه لا يذكر وظيفتها التى يذكرها القرآن هنا . يعلل وجودها بنظريات كثيرة متعارضة أهمها أن جوف الأرض الملتهب يبرد فينكمش ، فتتقلص القشرة الأرضية من فوقه وتتجعد فتكون الجبال والمرتفعات والمنخفضات . ولكن القرآن يذكر أنها تحفظ توازن الأرض . وهذه الوظيفة لم يتعرض لها العلم الحديث .

وفى مقابل الجبال الرواسى يوجه النظر إلى الأنهار الجوارى ، والسبل السوالك . والأنهار ذات علاقة طبيعية فى المشهد بالجبال ، ففى الجبال فى الغالب تكون منابع الأنهار ؛ حيث مساقط الأمطار . والسبل ذات علاقة بالجبال والأنهار . وذات علاقة كذلك بجو الأنعام والأحمال والانتقال . وإلى جوار ذلك معالم الطرق التى يهتدى بها السالكون فى الأرض من جبال ومرتفعات ومنفرجات ، وفى السماء من النجم الذى يهدى السالكين فى البر والبحر سواء .

* * *

وعندما ينتهى استعراض آيات الخلق ، وآيات النعمة ، وآيات التدبير فى هذا المقطع من السورة يعقب السياق عليه بما سيق هذا الاستعراض من أجله . فقد ساقه فى صدد قضية التوحيد وتنزيه الله سبحانه وتعالى عما يشركون :

« أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ، والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون » . .

وهو تعقيب يجيء في أوانه ، والنفس متهيئة للإقرار بمضمونه : « أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ » . . فهل هنالك إلا جواب واحد : لا . وكلا : أفيجوز أن يسوى إنسان فى حسه وتقديره .. بين من يخلق ذلك الخلق كله ، ومن لا يخلق لا كبيرا ولا صغيرا ؟ « أفلا تذكرون » فما يحتاج الأمر إلى أكثر من التذكر ، فيتضح الأمر ويتجلى اليقين .

ولقد استعرض ألوانا من النعمة . فهو يعقب عليها : «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها».. فضلا على أن تشكروها . وأكثر النعم لا يدريها الإنسان ، لأنه يألفها فلا يشعر بها إلا حين يفتقدها . . وهذا تركيب جسده ووظائفه متى يشعر بما فيه من إنعام إلا حين يدركه المرض فيحس بالاختلال ؟ إنما يسعه غفران الله للتقصير ورحمته بالإنسان الضعيف « إن الله لغفور رحيم » ..

والخالق يعلم ماخلق . يعلم الخافى والظاهر : «والله يعلم ماتسرون وما تعلنون » فكيف يسوونه فى حسهم وتقديرهم بتلك الآلهة المدعاة وهم لا يخلقون شيئا ولا يعلمون شيئا ، بل إنهم لأموات غير قابلين للحياة على الإطلاق . ومن ثم فهم لا يشعرون :

« والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون » ..

والإشارة هنا إلى البعث وموعده فيها تقرير أن الخالق لابد أن يعلم موعد البعث . لأن البعث تكملة للخلق . وعنده يستوفى الأحياء جزاءهم على ماقدموا . فالآلهة التى لا تعلم متى يبعث عبادها هى آلهة لا تستحق التأليه ، بل هى سخرية الساخرين . فالخالق يبعث مخاليقه ويعلم متى يبعثهم على التحقيق !

« إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ، فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا : أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ * قَدْ مَكَرَ

Marfat.com

Marfat.com

ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ، فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ، وَأَتَاهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ ، وَيَقُولُ : أَيْنَ شُرَكَائِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ؟ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ : إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوءَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ * ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ، بَلَى ! إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ .

« وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا : مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : خَيْرًا : لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ ، وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ، لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ، كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ، يَقُولُونَ : سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ، ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

« هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ؟ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا : لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا ، وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ . كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ ؟ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا : أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ ، فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ * إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ، وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ .

Marfat.com

« وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ . بَلَى ! وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ،
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ * إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ .

« وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَلَأَجْرُ
الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ،
وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

« أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ، أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ
مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ
تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

« أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا
لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ؟ .

« وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ، وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » ۝٥٠

وقفنا فى الدرس السابق عند استعراض آيات الخالق فى خلقه ، وفى نعمته على عباده ، وفى علمه بالسر والعلن . . بينما الآلهة المدعاة ، لا تخلق شيئا ، بل هى مخلوقة . ولا تعلم شيئا ، بل هى ميتة لا تنتظر لها حياة . وهى لا تعلم متى يبعث عبادها للجزاء ! وهذا وذلك قاطع فى بطلان عبادتها ، وفى بطلان عقيدة الشرك كافة . . وكان هذا هو الشوط الأول فى قضية التوحيد فى السورة مع إشارة إلى قضية البعث أيضا .

وها نحن أولاء نبدأ فى الدرس الجديد من حيث انتهينا فى الدرس السابق . نبدأ شوطا جديدا ، يفتتح بتقرير وحدة الألوهية ، ويعلل عدم إيمان الذين لا يؤمنون بالآخرة بأن قلوبهم منكرة ، فالجحود صفة كامنة فيها تصدهم عن الإقرار بالآيات البينات ، وهم مستكبرون ، فالاستكبار يصدهم عن الإذعان والتسليم .. ويختم بمشهد مؤثر : مشهد الظلال فى الأرض كلها ساجدة لله ، ومعها ما فى السماوات وما فى الأرض من دابة ، والملائكة ، قد برئت نفوسهم من الاستكبار ، وامتلأت بالخوف من الله ، والطاعة لأمره بلا جدال . . هذا المشهد الخاشع الطائع يقابل صورة المستكبرين المنكرة قلوبهم فى مفتتح هذا الشوط الجديد .

وبين المطلع والختام يستعرض السياق مقولات أولئك المستكبرين المنكرين عن الوحى والقرآن إذ يزعمون أنه أساطير الأولين . ومقولاتهم عن أسباب شركهم بالله وتحريمهم ما لم يحرمه الله ، إذ يدعون أن الله أراد منهم الشرك وارتضاه . ومقولاتهم عن البعث والقيامة إذ يقسمون جهدهم لا يبعث الله من يموت . ويتولى الرد على مقولاتهم جميعا . ويعرض فى ذلك مشاهد احتضارهم ومشاهد بعثهم وفيها يتبرأون من تلك المقولات الباطلة ، كما يعرض بعض مصارع الغابرين من المكذبين أمثالهم ، ويخوفهم أخذ الله فى ساعة من ليل أو نهار وهم لا يشعرون ، وهم فى تقلبهم فى البلاد ، أو وهم على تخوف وتوقع وانتظار للعذاب . . وإلى جوار هذا يعرض صورا من مقولات المتقين المؤمنين وما ينتظرهم عند الاحتضار ويوم البعث من طيب الجزاء . وينتهى بذلك المشهد الخاشع الطائع للظلال والدواب والملائكة فى الأرض والسماء . .

* * *

« إلهكم إله واحد . فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون . لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه لا يحب المستكبرين » . .

ويجمع السياق بين الإيمان بوحدة الله والإيمان بالآخرة . بل يجعل إحداهما دالة على الأخرى لارتباط عبادة الله الواحد بعقيدة البعث والجزاء . فبالآخرة تتم حكمة الخالق الواحد ويتجلى عدله فى الجزاء . .

« إلهكم إله واحد » وكل ما سبق فى السورة من آيات الخلق وآيات النعمة وآيات العلم

Marfat.com

Marfat.com

يؤدى إلى هذه الحقيقة الكبيرة البارزة ، الواضحة الآثار فى نواميس الكون وتناسقها وتعاونها كما سلف الحديث .

فالذين لا يسلمون بهذه الحقيقة ، ولا يؤمنون بالآخرة ـ وهى فرع عن الاعتقاد بوحدانية الخالق وحكمته وعدله ـ هؤلاء لا تنقصهم الآيات ولا تنقصهم البراهين ، إنما تكمن العلة فى كيانهم وفى طباعهم . إن قلوبهم منكرة جاحدة لا تقر بما ترى من الآيات ، وهم مستكبرون لا يريدون التسليم بالبراهين والاستسلام لله والرسول . فالعلة أصيلة والداء كامن فى الطباع والقلوب ! .

والله الذى خلقهم يعلم ذلك منهم . فهو يعلم ما يسرون وما يعلنون . يعلمه دون شك ولا ريب ويكرهه فيهم . « إنه لا يحب المستكبرين » فالقلب المستكبر لا يرجى له أن يقتنع أو يسلم . ومن ثم فهم مكروهون من الله لاستكبارهم الذى يعلمه من يعلم حقيقة أمرهم ويعلم ما يسرون وما يعلنون .

« وإذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين . ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون » .

هؤلاء المستكبرون ذوو القلوب المنكرة التى لا تقتنع ولا تستجيب إذا سئلوا : « ماذا أنزل لكم ؟ » لم يجيبوا الجواب الطبيعى المباشر ، فيتلوا شيئا من القرآن أو يلخصوا فحواه ، فيكونوا أمناء فى النقل ، ولو لم يعتقدوه . إنما هم يعدلون عن الجواب الأمين فيقولون : « أساطير الأولين » والأساطير هى الحكايات الوهمية الحافلة بالخرافة . . وهكذا يصفون هذا القرآن الذى يعالج النفوس والعقول ، ويعالج أوضاع الحياة وسلوك الناس وعلاقات المجتمع وأحوال البشر فى الماضى والحاضر والمستقبل . هكذا يصفونه لما يحويه من قصص الأولين . وهكذا يؤدى بهم ذلك الإنكار والاستهتار إلى حمل ذنوبهم وشطرا من ذنوب الذين يضلونهم بهذا القول ، ويصدونهم عن القرآن والإيمان ، وهم جاهلون به لا يعلمون حقيقته . . ويصور التعبير هذه الذنوب أحمالا ذات ثقل ـ وساءت أحمالا وأثقالا ! ـ فهى توقر النفوس كما توقر الأحمال الظهور ، وهى تثقل القلوب ، كما تثقل الأحمال العواتق ، وهى تتعب وتشق كما تتعب الأثقال حامليها بل هى أدهى وأنكى !

روى ابن أبى حاتم عن السدى قال : « اجتمعت قريش ، فقالوا : إن محمدا رجل

حلو اللسان ، إذا كلمه الرجل ذهب بعقله ، فانظروا ناسا من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم ، فابعثوهم فى كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين ، فمن جاء يريده فردوه عنه . فخرج ناس فى كل طريق فكان إذا أقبل الرجل وافدا لقومه ينظر ما يقول محمد ، ووصل إليهم ، قال أحدهم : أنا فلان ابن فلان . فيعرفه نسبه ، ويقول له : أنا أخبرك عن محمد . إنه رجل كذاب لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيهم ، وأما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له . فيرجع الوافد . فذلك قوله تعالى : « وإذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين » . فإن كان الوافد ممن عزم الله له الرشاد ، فقالوا له مثل ذلك قال : بئس الوافد لقومى إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل ، وأنظر ما يقول وآتى قومى ببيان أمره . فيدخل مكة ، فيلقى المؤمنين فيسألهم ماذا يقول محمد ؟ فيقولون : خيرا . . . » .

فقد كانت حرب دعاية منظمة يديرها قريش على الدعوة ، ويديرها أمثال قريش فى كل زمان ومكان من المستكبرين الذين لا يريدون الخضوع للحق والبرهان ، لأن استكبارهم يمنعهم من الخضوع للحق والبرهان . فهؤلاء المستكبرون من قريش ليسوا أول من يمكر ، وليسوا أول من يمكر . والسياق يعرض عليهم نهاية الماكرين من قبلهم ، ومصيرهم يوم القيامة ، بل مصيرهم منذ مفارقة أرواحهم لأجسادهم حتى يلقوا فى الآخرة جزاءهم . يعرض عليهم هذا كله فى مشاهد مصورة على طريقة القرآن المأثورة :

« قد مكر الذين من قبلهم . فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . ثم يوم القيامة يخزيهم ، ويقول : أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم ؟ قال الذين أوتوا العلم : إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين ، الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء . بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون. فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فلبئس مثوى المتكبرين » .

« قد مكر الذين من قبلهم » والتعبير يصور هذا المكر فى صورة بناء ذى قواعد وأركان وسقف إشارة إلى دقته وإحكامه ومتانته وضخامته . ولكن هذا كله لم يقف أمام قوة الله وتدبيره : « فأتى الله بنيانهم من القواعد ، وخر عليهم السقف من فوقهم » وهو مشهد للتدمير الكامل الشامل ، يطبق عليهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فالقواعد التى تحمل

Marfat.com

البناء تحطم وتهدم من أساسها ، والسقف يخر عليهم من فوقهم فيطبق عليهم ويدفنهم « وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » فإذا البناء الذى بنوه وأحكموه واعتمدوا على الاحتماء فيه . إذا هو مقبرتهم التى تحتويهم ، ومهلكتهم التى تأخذهم من فوقهم ومن أسفل منهم . وهو الذى اتخذوه للحماية ولم يفكروا أن يأتيهم الخطر من جهته ! .

إنه مشهد كامل للدمار والهلاك ، وللسخرية من مكر الماكرين وتدبير المدبرين ، الذين يقفون لدعوة الله ، ويحسبون مكرهم لا يرد ، وتدبيرهم لا يخيب ، والله من ورائهم محيط ! .

وهو مشهد مكرر فى الزمان قبل قريش وبعدها . ودعوة الله ماضية فى طريقها مهما يمكر الماكرون ، ومهما يدبر المدبرون . وبين الحين والحين يتلفت الناس فيذكرون ذلك المشهد المؤثر الذى رسمه القرآن الكريم : « فأتى الله بنيانهم من القواعد وخر عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » .

هذا فى الدنيا ، وفى واقع الأرض : « ثم يوم القيامة يخزيهم ، ويقول : أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم ؟ » .

ويرتسم مشهد من مشاهد القيامة يقف فيه هؤلاء المستكبرون الماكرون موقف الخزى ؛ وقد انتهى عهد الاستكبار والمكر . وجاءوا إلى صاحب الخلق والأمر ، يسألهم سؤال التبكيت والتأنيب : « أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم ؟ » أين شركائى الذين كنتم تخاصمون من أجلهم الرسول والمؤمنين ، وتجادلون فيهم المقرين الموحدين ؟ .

ويسكت القوم من خزى ، لتنطلق ألسنة الذين أوتوا العلم من الملائكة والرسل والمؤمنين وقد أذن الله لهم أن يكونوا فى هذا اليوم متكلمين ظاهرين : « قال الذين أوتوا العلم : إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين » . .

« إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين » .. « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم » فيعود السياق بهم خطوة قبل خطوة القيامة . يعود بهم إلى ساعة الاحتضار ، والملائكة تتوفاهم ظالمين لأنفسهم بما حرموها من الإيمان واليقين ، وبما أوردوها موارد الهلاك ، وبما قادوها فى النهاية إلى النار والعذاب .

Marfat.com

ويرسم مشهدهم فى ساعة الاحتضار ، وهم قريبو عهد بالأرض ، ومالهم فيها من كذب ومكر وكيد : « فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء ! » ألقوا السلم . هؤلاء المستكبرون . فإذا هم مستسلمون لا يهمون بنزاع أو خصام ، إنما يلقون السلم ويعرضون الاستسلام ! ثم يكذبون ـ ولعله طرف من مكرهم فى الدنيا ـ فيقولون مستسلمين : « ما كنا نعمل من سوء » ! وهو مشهد مخز وموقف مهين لأولئك المستكبرين !

ويجيئهم الجواب : « بلى » من العليم بما كان منهم « إن الله عليم بما كنتم تعملون » فلا سبيل إلى الكذب والمغالطة والتمويه .

ويجيئهم الجزاء جزاء المتكبرين : « فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فلبئس مثوى المتكبرين » !

* * *

وعلى الجانب الآخر .. الذين اتقوا .. يقابلون المنكرين المستكبرين فى المبدأ والمصير :

« وقيل للذين اتقوا : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : خيرا . للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين . جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار ، لهم فيها مايشاءون ، كذلك يجزى الله المتقين . الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ، يقولون : سلام عليكم ، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » ..

إن المتقين يدركون أن الخير هو قوام هذه الدعوة ، وقوام ماأنزل ربهم من أمر ونهى وتوجيه وتشريع . فيلخصون الأمر كله فى كلمة : « قالوا : خيرا » ثم يفصلون هذا الخير حسبما علموا مما أنزل الله : « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة » حياة حسنة ومتعة حسنة ، ومكانة حسنة . « ولدار الآخرة خير » من هذه الدار الدنيا « ولنعم دار المتقين » .. ثم يفصل ماأجمل . عن هذه الدار . فإذا هى « جنات عدن » للإقامة « تجرى من تحتها الأنهار » رخاء . « لهم فيها مايشاءون » فلا حرمان ولا كد ، ولا حدود للرزق كما هى الحياة الدنيا .. « كذلك يجزى الله المتقين » .

ثم يعود السياق خطوة بالمتقين كما عاد من قبلهم خطوة بالمستكبرين . فإذا هم فى مشهد

Marfat.com

Marfat.com

الاحتضار وهو مشهد هين لين كريم : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين » طيبة نفوسهم بلقاء الله ، معافين من الكرب وعذاب الموت . « يقولون : سلام عليكم » طمأنة لقلوبهم وترحيبا بقدومهم « ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » تعجيلالهم بالبشرى ، وهم على عتاب الآخرة ، جزاء وفاقا على ما كانو يعملون .

* * *

وفى ظل هذا المشهد بشقيه . مشهد الاحتضار ومشهد البعث . يعقب السياق بسؤال عن المشركين من قريش : ماذا ينتظرون ؟ أينتظرون الملائكة فتتوفاهم ؟ أم ينتظرون أمر الله فيبعثهم . وهذ ماينتظرهم عند الوفاة ، وماينتظرهم يوم يبعثهم الله ! أو ليس فى مصير المكذبين قبلهم وقد شهدوه ممثلا فى ذينك الشهدين عبرة وغناء :

« هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك ؟ كذلك فعل الذين من قبلهم ، وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . فأصابهم سيئات ماعملوا ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » ..

وعجيب أمر الناس . فإنهم يرون ماحل بمن قبلهم ممن يسلكون طريقهم ، ثم يظلون سادرين فى الطريق غير متصورين أن ماأصاب غيرهم يمكن أن يصيبهم ، وغير مدركين أن سنة الله تمضى وفق ناموس مرسوم ، وأن المقدمات تعطى دائما نتائجها ، وأن الأعمال تلق دائما جزاءها ، وأن سنة الله لن تحابيهم ولن تتوقف إزاءهم ، ولن تحيد عن طريقهم .

« وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » فقد أتاهم الله حرية التدبر والتفكر والاختيار ، وعرض عليهم آياته فى الآفاق وفى أنفسهم ، وحذرهم العاقبة ، ووكلهم إلى عملهم وإلى سنته الجارية . فما ظلمهم فى مصيرهم المحتوم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

وما قسا عليهم فى عقوبة ، إنما قست عليهم سيئات أعمالهم ، لأنهم أصيبوا بها أى بنتائجها الطبيعية وجرائرها : « فأصابهم سيئات ماعملوا ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون »... ولهذا التعبير وأمثاله دلالة فإنهم لا يعاقبون . بشىء خارج عن ثمرة أعمالهم الذاتية . وإنهم ليصابون بجرائر سلوكهم التلقائية . وهم ينتكسون إلى أدنى من رتبة البشرية بما يعملون ، فيجازون بما هو أدنى من رتبة البشرية فى دركات المقام المهين ، والعذاب الأليم .

* * *

Marfat.com

ومقولة جديدة من مقولات المشركين عن علة شركهم وملابساته :

« وقال الذين أشركوا : لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من دونه من شيء . كذلك فعل الذين من قبلهم . فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ؟ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ؛ فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة . فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » . .

إنهم يحيلون شركهم وعبادتهم آلهة من دون الله هم وآباؤهم ، وأوهام الوثنية التى يزاولونها من تحريمهم لبعض الذبائح وبعض الأطعمه على أنفسهم بغير شريعة من الله .. إنهم يحيلون هذا كله على إرادة الله ومشيئته . فلو شاء الله ـ فى زعمهم ـ ألا يفعلوا شيئا من هـذا لمنعهم من فعـله .

وهـذا وهم وخطأ فى فهم معنى المشيئة الإلهية . وتجريد للإنسان من أهم خصائصه التى وهبها له الله لاستخدامها فى الحياة .

فالله سبحانه لا يريد لعباده الشرك ، ولا يرضى لهم أن يحرموا ماأحله لهم من الطيبات . وإرادته هذه ظاهرة منصوص عليها فى شرائعه ، على ألسنة الرسل الذين كلفوا التبليغ وحده فقاموا به وأدوه : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » فهذا أمره وهذه إرادته لعباده . والله ـ تعالى ـ لا يأمر الناس بأمر يعلم أنه منعهم خلقة من القدرة عليه ، أو دفعهم قسرا إلى مخالفته . وآية عدم رضاه عن مخالفة أمره هذا ماأخذ به المكذبين : « فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

إنما شاءت إرادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى وللضلال ، وأن يدع مشيئتهم حرة فى اختيار أى الطريقين ؛ ومنحهم بعد ذلك العقل يرجحون به أحد الاتجاهين ، بعد مابث فى الكون من آيات الهدى مايلمس العين والأذن والحس والقلب والعقل حيثما اتجهت آناء الليل وأطراف النهار . . ثم شاءت رحمة الله بعباده بعد هذا كله ألا يدعهم لهذا العقل وحده ، فوضع لهذا العقل ميزانا ثابتا فى شرائعه التى جاءت بها رسله ، يثوب إليه العقل كلما غم عليه الأمر ، ليتأكد من صواب تقديره أو خطئه عن طريق الميزان الثابت الذى لا تعصف به الأهواء . ولم يجعل الرسل جبارين يلوون أعناق الناس إلى الإيمان ، ولكن

مبلغين ليس عليهم إلا البلاغ ، يأمرون بعبادة الله وحده واجتناب كل ماعداه من وثنية وهوى وشهوة وسلطان :

« ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » ..

ففريق استجاب : « فمنهم من هدى الله » وفريق شرد فى طريق الضلال « ومنهم من حقت عليه الضلالة » .. وهذا الفريق وذلك كلاهما لم يخرج على مشيئة الله ، وكلاهما لم يقسره الله قسرا على هدى أو ضلال ، إنما سلك طريقه الذى شاءت إرادة الله أن تجعل إرادته حرة فى سلوكه ، بعد ما زودته بمعالم الطريق فى نفسه وفى الآفاق .

كذلك ينفى القرآن الكريم بهذا النص وهم الإجبار الذى لوح به المشركون ، والذى يستند إليه كثير من العصاة والمنحرفين . والعقيدة الإسلامية عقيدة ناصعة واضحة فى هذه النقطة . فالله يأمر عباده بالخير وينهاهم عن الشر ، ويعاقب المذنبين أحيانا فى الدنيا عقوبات ظاهرة يتضح فيها غضبه عليهم . فلا مجال بعد هذا لأن يقال : إن إرادة الله تدخل لترغمهم على الانحراف ثم يعاقبهم عليه الله ! إنما هم متروكون لاختيار طريقهم وهذه هى إرادة الله . وكل مايصدر عنهم من خير أو شر . من هدى ومن ضلال . يتم وفق مشيئة الله على هذا المعنى الذى فصلناه .

ومن ثم يعقب على هذا بخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقرر سنة الله فى الهدى والضلال :

« إن تحرص على هداهم ، فإن الله لا يهدى من يضل ومالهم من ناصرين » .

فليس الهدى أو الضلال بحرص الرسول على هدى القوم أو عدم حرصه ، فوظيفته البلاغ . أما الهدى أو الضلال فيمضى وفق سنة الله وهذه السنة لا تتخلف ولا تتغير عواقبها ، فمن أضله الله لأنه استحق الضلال وفق سنة الله ، فإن الله لا يهديه ، لأن لله سننا تعطى نتائجها . وهكذا شاء . والله فعال لما يشاء . « وما لهم من ناصرين » ينصرونهم من دون الله .

* * *

ومقولة ثالثة من مقولات المنكرين المستكبرين :

Marfat.com

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت . بلى . وعدا عليه حقا ، ولكن أكثر الناس لايعلمون . ليبين لهم الذى يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له : كن . فيكون » . .

ولقد كانت قضية البعث دائما هى مشكلة العقيدة عند كثير من الأقوام منذ أن أرسل الله رسله للناس ، يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، ويخوفونهم حساب الله يوم البعث والحساب .

وهؤلاء المشركون من قريش أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ! فهم يقرون بوجود الله ولكنهم ينفون عنه بعث الموتى من القبور . يرون هذا البعث أمرا عسيرا بعد الموت والبلى وتفرق الأشلاء والذرات ! .

وغفلوا عن معجزة الحياة الأولى . . وغفلوا عن طبيعة القدرة الإلهية ، وأنها لا تقاس إلى تصورات البشر وطاقتهم . وأن إيجاد شىء لا يكلف تلك القدرة شيئا ؛ فيكفى أن تتوجه الإرادة إلى كون الشىء ليكون .

وغفلوا كذلك عن حكمة الله فى البعث . وهذه الدنيا لا يبلغ أمر فيها تمامه . فالناس يختلفون حول الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والخير والشر . وقد لا يفصل بينهم فيما يختلفون فيه فى هذه الأرض لأن إرادة الله شاءت أن يمتد ببعضهم الأجل ، وألا يحل بهم عذابه الفاصل فى هذه الديار . حتى يتم الجزاء فى الآخرة ويبلغ كل أمر تمامه هناك .

والسياق يرد على تلك المقولة الكافرة ، ويكشف ما يحيط بها فى نفوس القوم من شبهات فيبدأ بالتقرير : « بلى . وعدا عليه حقا » ومتى وعد الله فقد كان ما وعد به لا يتخلف بحال من الأحوال « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » حقيقة وعد الله .

وللأمر حكمته : « ليبين لهم الذى يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين » فيما ادعوا أنهم على الهدى ؛ وفيما زعموا من كذب الرسل ، ومن نفى الآخرة ؛ وفيما كانوا فيه من اعتقاد ومن فساد .

والأمر بعد ذلك هين : « إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له : كن . فيكون » . .

Marfat.com

Marfat.com

والبعث شيء من هذه الأشياء يتم حالما تتوجه إليه الإرادة دون إبطاء .

* * *

وهنا يعرض فى الجانب المقابل للمنكرين الجاحدين ، لمحة عن المؤمنين المصدقين ، الذين حملهم يقينهم فى الله والآخرة على هجر الديار والأموال ، فى الله ، وفى سبيل الله :

« والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » . .

فهؤلاء الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم ، وتعروا عما يملكون وعما يحبون ، وضحوا بدارهم وقرب عشيرتهم والحبيب من ذكرياتهم . . هؤلاء يرجون فى الآخرة عوضا عن كل ما خلفوا وكل ما تركوا . وقد عانوا الظلم وفارقوه . فإذا كانوا قد خسروا الديار « فلنبوئنهم فى الدنيا حسنة » ولنسكننهم خيرا مما فقدوا « ولأجر الآخرة أكبر » لو كان الناس يعلمون . هؤلاء « الذين صبروا » واحتملوا ما احتملوا « وعلى ربهم يتوكلون » لا يشركون به أحدا فى الاعتماد والتوجه والتكلان .

* * *

ثم يعود السياق إلى بيان وظيفة الرسل التى أشار إليها عند الرد على مقولة المشركين عن إرادة الله الشرك لهم ولآبائهم . يعود إليها لبيان وظيفة الرسول الأخير ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وما معه من الذكر الأخير . وذلك تمهيدا لإنذار المكذبين به ما يتهددهم من هذا التكذيب :

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . بالبينات والزبر ، وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولعلهم يتفكرون » . .

وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا . . لم نرسل ملائكة ، ولم نرسل خلقا آخر . رجالا مختارين « نوحى إليهم » كما أوحينا إليك ، ونكل إليهم التبليغ كما وكلنا إليك . « فاسألوا أهل الذكر » أهل الكتاب الذين جاءتهم الرسل من قبل ، أكانوا رجالا أم كانوا ملائكة أم خلقا آخر . اسألوهم « إن كنتم لا تعلمون » . أرسلناهم بالبينات وبالكتب (والزبر الكتب المتفرقة)

« وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » سواء منهم السابقون أهل الكتاب الذين اختلفوا فى كتابهم ، فجاء القرآن ليفصل فى هذا الخلاف ، وليبين لهم وجه الحق فيه . أو المعاصرون الذين جاءهم القرآن والرسول - صلى الله عليه وسلم - يبينه لهم ويشرحه بفعله وقوله « ولعلهم يتفكرون » فى آيات الله وآيات القرآن فإنه يدعو دائما إلى التفكر والتدبر، وإلى يقظة الفكر والشعور .

* * *

ويختم هذا الدرس الذى بدأه بالإشارة إلى الذين يستكبرون ويمكرون . . ينتهى بلمسة وجدانية بعد لمسة : أولاهما للتخويف من مكر الله الذى لا يأمنه أحد فى ساعة من ليل أو نهار. والثانية لمشاركة هذا الوجود فى عبادة الله وتسبيحه . فليس إلا الإنسان هو الذى يستكبر ويمكر . وكل ما حوله يحمد ويسبح .

« أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض ، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ؟ أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين ؟ أو يأخذهم على تخوف ؟ فإن ربكم لرؤوف رحيم .

« أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ؟

« ولله يسجد ما فى السماء وما فى الأرض من دابة ، والملائكة ، وهم لا يستكبرون ، يخافون ربهم من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون » . .

وأعجب العجب فى البشر أن يد الله تعمل من حولهم ، وتأخذ بعضهم أخذ عزيز مقتدر ، فلا يغنى عنهم مكرهم وتدبيرهم ، ولا تدفع عنهم قوتهم وعلمهم ومالهم . . وبعد ذلك يظل الذين يمكرون يمكرون ، ويظل الناجون آمنين لا يتوقعون أن يؤخذوا كما أخذ من قبلهم ومن حولهم ، ولا يخشون أن تمتد إليهم يد الله فى صحوهم أو فى منامهم ، فى غفلتهم أو فى استيقاظهم

Marfat.com

والقرآن الكريم يلمس وجدانهم من هذا الجانب ليثير حساسيتهم للخطر المتوقع ، الذى لا يغفل عنه إلا الخاسرون :

« أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون » ؟ .

أو يأخذهم وهم يتقلبون فى البلاد ، من بلد إلى بلد للتجارة والسياحة ، « فما هم بمعجزين » لله ، ولا يبعد عليه مكانهم فى حل أو ترحال . « أو يأخذهم على تخوف » فإن يقظتهم وتوقعهم لا يرد يد الله عنهم فهو قادر على أخذهم وهم متأهبون قدرته على أخذهم وهم لا يشعرون ؟ ولكن الله رؤوف رحيم .

أفأمن الذين مكروا السيئات أن يأخذهم الله ؟ فهم لاجون فى مكرهم سادرون فى غيهم لا يثوبون ولا يتقون .

ذلك والكون من حولهم بنواميسه وظواهره يوحى بالإيمان ، ويوحى بالخشوع : « أو لم يروا إلى ماخلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون »

ومشهد الظلال تمتد وتتراجع ، تثبت وتمايل ، مشهد موح لمن يفتح قلبه ، ويوقظ حسه، ويتجاوب مع الكون حوله

والسياق القرآنى يعبر عن خضوع الأشياء لنواميس الله بالسجود ـ وهو أقصى مظاهر الخضوع ـ ويوجه إلى حركة الظلال المتفيئة ـ أى الراجعة بعد امتداد ـ وهى حركة لطيفة خفية ذات دبيب فى المشاعر وئيد عميق . ويرسم المخلوقات داخرة أى خاضعة خاشعة طائعة . ويضم إليها مافى السماوات ومافى الأرض من دابة . ويضيف إلى الحشد الكونى .. الملائكة .. فإذا مشهد عجيب من الأشياء والظلال والدواب . ومعهم الملائكة . فى مقام خشوع وخضوع وعبادة وسجود . لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يخالفون عن أمره . والمنكرون المستكبرون من بنى الإنسان وحدهم شواذ فى هذا المقام العجيب .

وبهذا المشهد يختم الدرس الذى بدأ بالإشارة إلى المنكرين المستكبرين ، ليفردهم فى النهاية بالإنكار والاستكبار فى مشهد الوجود . . .

Marfat.com

« وَقَالَ اللهُ : لَا تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١)
وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ، أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ ؟ * وَمَا بِكُمْ مِنْ
نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ
إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ، فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ .

« وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ، تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَاتِ ـ سُبْحَانَهُ ! ـ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ، أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ؟ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

« لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ، وَلِلهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ، وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

« وَيَجْعَلُونَ لِلهِ مَا يَكْرَهُونَ ، وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ . لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ .

« تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

« وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ * وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ

Marfat.com

سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

« وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا . إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ .

« وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ . أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ؟

« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ . أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ؟

« وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ * فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

« ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ، وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُونَ ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ . بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ . هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟ » (٧٦)

Marfat.com

هذا الشوط الثالث فى قضيـة الألوهية الواحدة التى لا تتعدد ، يبدأ فيقرر وحدة الإله ، ووحدة المالك ، ووحدة النعم فى الآيات الثلاثة الأولى متواليات ، ويختم بمثلين يضربهما للسيد المالك الرازق ، والعبد المملوك لا يقدر على شىء ، ولا يملك شيئا . هل يستوون ؟ فكيف يسوى الله المالك الرازق بمن لا يقدر ولا يملك ولا يرزق ؟ فيقال : هذا إله وهذا إله ؟ ! .

وفى خلال الدرس يعرض نموذجا بشريا للناس حين يصيبهم الضر فيجأرون إلى الله وحده ، حتى إذا كشف عنهم الضر راحوا يشركون به غيره ! .

ويعرض كذلك صورا من أوهام الوثنية وخرافاتها . فى تخصيص بعض ما رزقهم الله لآلهتهم المدعاة ، فى حين أنهم لا يردون شيئا مما يملكونه على عبيدهم ولا يقاسمونهم إياه ! وفى نسبة البنات إلى الله على حين يكرهون ولادة البنات لهم : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم » ! وفى الوقت الذى يجعلون لله ما يكرهون تروح ألسنتهم تتشدق بأن لهم الحسنى ، وأنهم سينالون على مافعلوا خيرا ! وهذه الأوهام التى ورثوها من المشركين قبلهم هى التى جاءهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليبين لهم الحقيقة فيها هدى ورحمة للمؤمنين .

ثم يأخذ فى عرض نماذج من صنع الألوهيـة الحقة فى تأملها عظة وعبرة فالله وحده هو القادر عليها الموجد لها ، وهى هى دلائل الألوهية لا سواها : فالله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها . والله يسقى الناس ـ غير المـاء ـ لبنا سائغا يخرج من بطون الأنعام من بين فرث ودم . والله يطلع للناس ثمرات النخيل والأعناب يتخذون منها سكرا ورزقا حسنا . والله أوحى إلى النحل لتتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم تخرج عسلا فيه شفاء للناس .. ثم الله يخلق الناس ويتوفاهم ويؤجل بعضهم حتى يشيخ فينسى ما تعلمه ويرتد ساذجا لا يعلم شيئا . والله فضل بعضهم على بعض فى الرزق . والله جعل لهم من أنفسهم أزواجا وجعل لهم من أزواجهم بنين وحفدة . . . وهم بعد هذا كله يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا فى السماوات والأرض ولا يقدرون على شىء . ويجعلون لله الأشباه والأمثال ! .

هذه اللمسات كلها فى أنفسهم وفيما حولهم ، يوجههم إليها لعلهم يستشعرون القدرة وهى تعمل فى ذواتهم وفى أرزاقهم وفى طعامهم وفى شرابهم ، وفى كل شىء حولهم . . ثم يختمها

Marfat.com

Marfat.com

بالمثلين الواضحين الموضحين اللذين أشرنا إليهما آنفا . فهى حملة على الوجدان البشرى والعقل البشرى ، ذات إيقاعات عميقة ، تضرب على أوتار حساسة فى النفس البشرية يصعب ألا تهتز لها وتتأثر وتستجيب .

* * *

« وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين ، إنما هو إله واحد فإياى فارهبون . وله ما فى السماوات والأرض وله الدين واصبا . أفغير الله تتقون . وما بكم من نعمة فمن الله ؛ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم ، فتمتعوا فسوف تعلمون » . .

لقد أمر الله ألا يتخذ الناس إلهين اثنين . إنما هو إله واحد لا ثانى له . ويأخذ التعبير أسلوب التقرير والتكرير فيتبع كلمة إلهين بكلمة اثنين ،ويتبع النهى بالقصر إنما هو إله واحد . ويعقب على النهى والقصر بقصر آخر « فإياى فارهبون » دون سواى بلا شبيه أو نظير . ويذكر الرهبة زيادة فى التحذير .. ذلك أنها القضية الأساسية فى العقيدة كلها ، لا تقوم إلا بها ، ولا توجد إلا بوجودها فى النفس واضحة كاملة دقيقة لا لبس فيها ولا غموض .

إنما هو إله واحد . . وإنما هو كذلك مالك واحد : « وله فى السماوات والأرض » . . ودائن واحد « وله الدين واصبا » (أى واصلا منذ ما وجد الدين ، فلا دين إلا دينه) ومنعم واحد : « وما بكم من نعمة فمن الله » . وفطرتكم تلجأ إليه وحده ساعة العسرة والضيق ، وتنتفى عنها أوهام الشرك والوثنية فلا تتوجه إلا إليه دون شريك : « ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون » وتصرخون لينجيكم مما أنتم فيه .

وهكذا يتفرد سبحانه وتعالى بالألوهية والملك والدين والنعمة والتوجه ؛ وتشهد فطرة البشر بهذا كله حين يصهرها الضر وينفض عنها أوشاب الشرك . . ومع هذا فإن فريقا من البشر يشركون بالله بعد توحيده حالما ينجيهم من الضر المحيق ! فينتهوا إلى الكفر بنعمة الله عليهم ، وبالهدى الذى آتاهم . . فلينظروا إذن ما يصيبهم بعد المتاع القصير : « فتمتعوا فسوف تعلمون » . . .

هذا النموذج الذى يرسمه التعبير هنا « ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ، ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون » . . نموذج متكرر فى البشرية . ففى الضيق تتوجه القلوب إلى الله ، لأنها تشعر بالفطرة ألا عاصم لها سواه . وفى الفرج تتلهى بالنعمة والمتاع ، فتضعف صلتها بالله ، وتزيغ عنه ألوانا من الزيغ تبدو فى الشرك به وتبدو كذلك فى صور شتى من تأليه قيم وأوضاع ولو لم تدع باسم الإله ! .

ولقد يشتد انحراف الفطرة وفسادها ، فإذا بعضهم فى ساعة العسرة لا يلجأ إلى الله ؛ ولكن يلجأ إلى بعض مخاليقه يدعوها للنصرة والإنقاذ والنجاة ، بحجة أنها ذات جاه أو منزلة عند الله ، أو بغير هذه الحجة فى بعض الأحيان ، كالذين يدعون الأولياء لإنقاذهم من مرض أو شدة أو كرب . . فهؤلاء أشد انحرافا من مشركى الجاهليـة الذين يرسم لهم القرآن ذلك النموذج الذى رأيناه ! .

* * *

« ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم » . فإذا هم يحرمون على أنفسهم بعض الأنعام . لا يركبونها أو لا يذوقون لحومها . أو يبيحونها للذكور دون الإناث ـ كما أسلفنا فى سورة الأنعام ـ باسم الآلهة المدعاة ؛ التى لا يعلمون عنها شيئا ، إنما هى أوهام موروثة من الجاهلية الأولى . والله هو الذى رزقهم هذه النعمة التى يجعلون لما لا يعلمون نصيبا منها ، فليست هى من رزق الآلهة المدعاة لهم ليردوها عليها ، إنما هى من رزق الله ، الذى يدعوهم إلى توحيده فيشركون به سواه ! .

وهكذا تبدو المفارقة فى تصورهم وفى تصرفهم على السواء . . الرزق كله من الله . والله يأمر ألا يعبد سواه فهم يخالفون عن أمره فيتخذون الآلهة . وهم يأخذون من رزقه فيجعلونه لما نهاهم عنه ! وبهذا تتبدى المفارقة واضحة جاهرة عجيبة مستنكرة ! .

وما يزال أناس بعد أن جاءت عقيدة التوحيد وتقررت ، يجعلون نصيبا من رزق الله لهم موقوفا على ما يشبه آلهة الجاهلية . ما يزال بعضهم يطلق عجلا يسميه « عجل السيد البدوى » يأكل من حيث يشاء لا يمنعه أحد ، ولا ينتفع به أحد ، حتى يذبح على اسم السيد البدوى

Marfat.com

لا على اسم الله ! وما يزال بعضهم ينذرون للأولياء ذبائح يخرجونها من ذمتهم لا لله ، ولا باسم الله ، ولكن باسم ذلك الولى ، على ما كان أهل الجاهلية يجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقهم الله . وهو حرام نذره على هذا الوجه . حرام لحمه . ولو سمى اسم الله عليه . لأنه أهل لغير الله به ! .

« تالله لتسألن عما كنتم تفترون » بالقسم والتوكيد الشديد . فهو افتراء يحطم العقيدة من أساسها لأنه يحطم فكرة التوحيد .

* * *

« ويجعلون لله البنات ـ سبحانه ـ ولهم ما يشتهون . وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون ! » . .

إن الانحراف فى العقيدة لا تقف آثاره عند حدود العقيدة ، بل يتمشى فى أوضاع الحياة الاجتماعية وتقاليدها . فالعقيدة هى المحرك الأول للحياة ، سواء ظهرت أو كمنت . وهؤلاء عرب الجاهلية كانوا يزعمون أن لله بنات ـ هن الملائكة ـ على حين أنهم كانوا يكرهون لأنفسهم ولادة البنات ! فالبنات لله أما هم فيجعلون لأنفسهم ما يشتهون من الذكور ! .

وانحرافهم عن العقيدة الصحيحة سول لهم وأد البنات أو الإبقاء عليهن فى الذل والهوان من المعاملة السيئة والنظرة الوضيعة . ذلك أنهم كانوا يخشون العار والفقر مع ولادة البنات . إذ البنات لا يقاتلن ولا يكسبن ؛ وقد يقعن فى السبى عند الغارات فيجلبن العار ، أو يعشن كلاً على أهلهن فيجلبن الفقر .

والعقيدة الصحيحة عصمة من هذا كله . إذ الرزق بيد الله يرزق الجميع ؛ ولا يصيب أحدا إلا ما كتب له ؛ ثم إن الإنسان بجنسيه كريم على الله ، والأنثى ـ من حيث إنسانيتها ـ صنو الرجل وشطر نفسه كما يقرر الإسلام .

ويرسم السياق صورة منكرة لعادات الجاهلية : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم » مسودا من الهم والحزن والضيق ، وهو كظيم ، يكظم غيظه وغمه ، كأنها

Marfat.com

بلية ، والأنثى هبة الله له كالذكر ، وما يملك أن يصور فى الرحم أنثى ولا ذكرا ، وما يملك أن ينفخ فيه حياة ، وما يملك أن يجعل من النطفة الساذجة إنسانا سويا . وإن مجرد تصور الحياة نامية متطورة من نطفة إلى بشر - بإذن الله - ليكفى لاستقبال المولود - أيا كان جنسه - بالفرح والترحيب وحسن الاستقبال ، لمعجزة الله التى تتكرر ، فلا يبلى جدتها التكرار ! فكيف يغتم من يبشر بالأنثى ويتوارى من القوم من سوء ما بشر به وهو لم يخلق ولم يصور . إنما كان أداة القدرة فى حدوث المعجزة الباهرة ؟ .

وحكمة الله ، وقاعدة الحياة ، اقتضت أن تنشأ الحياة من زوجين ذكر وأنثى . فالأنثى أصيلة فى نظام الحياة أصالة الذكر ؛ بل ربما كانت أشد أصالة لأنها المستقر . فكيف يغتم من يبشر بالأنثى ، وكيف يتوارى من القوم من سوء مابشر به ونظام الحياة لا يقوم إلا على وجود الزوجين دائما ؟ .

إنه انحراف العقيدة ينشىء آثاره فى انحراف المجتمع وتصوراته وتقاليده . . « ألا ساء ما يحكمون » وما أسوأه من حكم وتقدير .

وهكذا تبدو قيمة العقيدة الإسلامية فى تصحيح التصورات والأوضاع الاجتماعية . وتتجلى النظرة الكريمة القويمة التى بثها فى النفوس والمجتمعات تجاه المرأة ، بل تجاه الإنسان . فما كانت المرأة هى المغبونة وحدها فى المجتمع الجاهلى الوثنى إنما كانت « الإنسانية » فى أخص معانيها . فالأنثى نفس إنسانية ، إهانتها إهانة للعنصر الإنسانى الكريم ، ووأدها قتل للنفس البشرية ، وإهدار لشطر الحياة ؛ ومصادمة لحكمة الخلق الأصيلة ، التى اقتضت أن يكون الأحياء جميعا - لا الإنسان وحده - من ذكر وأنثى .

وكلما انحرفت المجتمعات عن العقيدة الصحيحة عادت تصورات الجاهلية تطل بقرونها . . وفى كثير من المجتمعات اليوم تعود تلك التصورات إلى الظهور . فالأنثى لا يرحب بمولدها كثير من الأوساط وكثير من الناس ، ولا تعامل معاملة الذكر من العناية والاحترام . وهذه وثنية جاهلية فى إحدى صورها ، نشأت من الانحراف الذى أصاب العقيدة الإسلامية .

ومن عجب أن ينعق الناعقون بلمز العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية - فى مسألة المرأة - ، نتيجة لما يرونه فى هذه المجتمعات المنحرفة ولا يكلف هؤلاء الناعقون اللامزون

Marfat.com

Marfat.com

أنفسهم أن يراجعوا نظرة الإسلام ، وما أحدثته من ثورة فى التطورات والأوضاع . وفى المشاعر والضمائر . وهى بعد نظرة علوية لم تنشئها ضرورة واقعية ولا دعوة أرضية ولا مقتضيات اجتماعية أو اقتصادية . إنما أنشأتها العقيدة الإلهية الصادرة عن الله الذى كرم الإنسان ، فاستتبع تكريمه للجنس البشرى تكريمه للأنثى ، ووصفها بأنها شطر النفس البشرية ، فلا تفاضل بين الشطرين الكريمين على الله .

والفارق بين طبيعة النظرة الجاهلية والنظرة الإسلامية ، هو الفارق بين صفة الذين لا يؤمنون بالآخرة وصفة الله سبحانه ـ ولله المثل الأعلى ـ :

« للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء . ولله المثل الأعلى ، وهو العزيز الحكيم » . .

وهنا تقترن قضية الشرك بقضية إنكار الآخرة ، لأنهما ينبعان من معين واحد وانحراف واحد. ويختلطان فى الضمير البشرى ، وينشئان آثارهما فى النفس والحياة والمجتمع والأوضاع . فإذا ضرب مثل للذين لا يؤمنون بالآخرة فهو مثل السوء . السوء المطلق فى كل شىء: فى الشعور والسلوك ، فى الاعتقاد والعمل . فى التصور والتعامل ، فى الأرض والسماء . . «ولله المثل الأعلى» الذى لا يقارن ولا يوازن بينه وبين أحد ، بله الذين لا يؤمنون بالآخرة هؤلاء . . « وهو العزيز الحكيم » ذو المنعة وذو الحكمة الذى يتحكم ليضع كل شىء موضعه ، ويحكم ليقر كل شىء فى مكانه بالحق والحكمة والصواب .

وإنه لقادر أن يأخذ الناس بظلمهم الذى يقع منهم ولو فعل لدمرها عليهم تدميرا ؛ ولكن حكمته اقتضت أن يؤخرهم إلى أجل . وهو العزيز الحكيم :

« ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » . .

والله خلق هذا الخلق ـ البشرى ـ وأنعم عليه بآلائه . وهو وحده الذى يفسد فى الأرض ويظلم ، وينحرف عن الله ويشرك ؛ ويطغى بعضه على بعض ، ويؤذى سواه من الخلق . . والله بعد هذا كله يحلم عليه ويرأف به ، ويمهله وإن كان لا يهمله . فهى الحكمة تصاحب القوة ، وهى الرحمة تصاحب العدل . ولكن الناس يغترون بالإمهال ، فلا تستشعر قلوبهم رحمة الله وحكمته ، حتى يأخذهم عدله وقوته . عند الأجل المسمى الذى ضربه الله لحكمة ، وأمهلهم

Marfat.com

إليه لرحمة . « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

وأعجب ما فى الأمر أن المشركين ، يجعلون لله ما يكرهون من البنات وغير البنات ، ثم يزعمون كاذبين أن سينالهم الخير والإحسان جزاء على ما يجعلون ويزعمون ! والقرآن يقرر ما ينتظرهم وهو غير ما يزعمون :

« ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى . لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون » :

والتعبير يجعل ألسنتهم ذاتها كأنها الكذب ذاته ، أو كأنها صورة له ، تحكيه وتصفه بذاتها. كما تقول قوامه يصف الرشاقة وعينه تصف الحور . لأن ذلك القوام بذاته تعبير عن الرشاقة مفصح عنها ، ولأن هذه العين بذاتها تعبير عن الحور مفصح عنه . كذلك قال : تصف ألسنتهم الكذب، فهى بذاتها تعبير عن الكذب مفصح عنه مصور له ، لطول ما قالت الكذب وعبرت عنه حتى صارت رمزا عليه ودلالة له ! .

وقولهم : أن لهم الحسنى ، وهم يجعلون لله ما يكرهون هو ذلك الكذب الذى تصفه ألسنتهم أما الحقيقة التى يجبههم بها النص قبل أن تكمل الآية ، فهى أن لهم النار دون شك ولا ريب ، وعن استحقاق وجدارة : « لا جرم أن لهم النار » وأنهم معجلون إليها غير مؤخرين عنها : « وأنهم مفرطون » والفرط هو ما يسبق ، والمفرط ما يقدم ليسبق فلا يؤجل .

* * *

وبعد فإن القوم ليسوا أول من انحرف ، وليسوا أول من جدف ، فقد كان قبلهم منحرفون ومجدفون ، أغواهم الشيطان ، وزين لهم ما انحرفوا إليه من تصورات وأعمال ، فصار وليهم الذى يشرف عليهم ويصرفهم ؛ وإنما أرسل الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليستنقذهم ، وليبين لهم الحق من الباطل ، ويفصل فيما وقع بينهم من خلاف فى عقائدهم وكتبهم ؛ وليكون هدى ورحمة لمن يؤمنون .

« تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فزين لهم الشيطان أعمالهم ، فهو وليهم اليوم ؛

ولهم عذاب أليم . وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » . .

فوظيفة الكتاب الأخير والرسالة الأخيرة هى الفصل فيما شجر من خلاف بين أصحاب الكتب السابقة وطوائفهم . إذ الأصل هو التوحيد ، وكل ما طرأ على التوحيد من شبهات وكل ما شابه من شرك فى صورة من الصور ، ومن تشبيه وتمثيل . . كله باطل جاء القرآن الكريم ليجلوه وينفيه . وليكون هدى ورحمة لمن استعدت قلوبهم للإيمان وتفتحت لتلقيه .

* * *

وعند هذا الحد يأخذ السياق فى استعراض آيات الألوهية الواحدة فيما خلق الله فى الكون ، وفيما أودع الإنسان من صفات واستعدادات ، وفيما وهبه من نعم وآلاء ، مما لا يقدر عليه أحد إلا الله .

وقد ذكر فى الآية السابقة إنزال الكتاب ـ وهو خير ما أنزل الله للناس وفيه حياة الروح ـ فهو يتبعه بإنزال الماء من السماء ، وفيه حياة الأجسام :

« والله أنزل من السماء ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها . إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون » . .

والماء حياة كل حى . والنص يجعله حياة للأرض كلها على وجه الشمول لكل ما عليها ومن عليها . والذى يحول الموت إلى حياة هو الذى يستحق أن يكون إلها : « إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون » فيتدبرون ما يسمعون . فهذه القضية . قضية آيات الألوهية ودلائلها من الحياة بعد الموت ذكرها القرآن كثيرا ووجه الأنظار إليها كثيرا ، ففيها آية لمن يسمع ويعقل ويتدبر ما يقال .

وعبرة أخرى فى الأنعام تشير إلى عجيب صنع الخالق ، وتدل على الألوهية بهذا الصنع العجيب

Marfat.com

Marfat.com

« وإن لكم فى الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما فى بطونه ـ من بين فرث ودم ـ لبنا خالصا سائغا للشاربين » فهذا اللبن الذى تدره ضروع الأنعام مم هو ؟ إنه مستخلص من بين فرث ودم . والفرث ما يتبقى فى الكرش بعد الهضم ، وامتصاص الأمعاء للعصارة التى تتحول إلى دم . هذا الدم الذى ينهب إلى كل خلية فى الجسم ، فإذا صار إلى غدد اللبن فى الضرع تحول إلى لبن بيديع صنع الله العجيب ، الذى لا يدرى أحد كيف يكون .

وعملية تحول الخلاصات الغذائية فى الجسم إلى دم ، وتغذية كل خلية بالمواد التى تحتاج إليها من مواد هذا الدم ، عملية عجيبة فائقة العجب ، وهى تتم فى الجسم فى كل ثانية ، كما تتم عمليات الاحتراق . وفى كل لحظة تتم فى هذا الجهاز الغريب عمليات هدم وبناء مستمرة لا تكف حتى تفارق الروح الجسد . . ولا يملك إنسان سوى الشعور أن يقف أمام هذه العمليات العجيبة لا تهتف كل ذرة فيه بتسبيح الخالق المبدع لهذا الجهاز الإنسانى ، الذى لا يقاس إليه أعقد جهاز من صنع البشر ، ولا إلى خلية واحدة من خلاياه التى لا تحصى .

ووراء الوصف العام لعمليات الامتصاص والتحول والاحتراق تفصيلات تدير العقل ، وعمل الخلية الواحدة فى الجسم فى هذه العملية عجب لا ينقضى التأمل فيه .

وقد بقى هذا كله سرا إلى عهد قريب . وهذه الحقيقة العلمية التى يذكرها القرآن هنا عن خروج اللبن من بين فرث ودم لم تكن معروفة لبشر ، وما كان بشر فى ذلك العهد ليتصورها فضلا على أن يقررها بهذه الدقة العلمية الكاملة . وما يملك إنسان يحترم عقله أن يمارى فى هذا أو يجادل . ووجود حقيقة واحدة من نوع هذه الحقيقة يكفى وحده لإثبات الوحى من الله بهذا القرآن . فالبشرية كلها كانت تجهل يومذاك هذه الحقيقة .

والقرآن ـ يعبر هذه الحقائق العلمية البحتة ـ يحمل أدلة الوحى من الله فى خصائصه الأخرى لمن يدرك هذه الخصائص ويقدرها ؛ ولكن ورود حقيقة واحدة على هذا النحو الدقيق يفحم المجادلين المتعنتين .

« ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا . إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون » .

هذه الثمرات المنبثقة عن الحياة التى بثها الماء النازل من السماء . تتخذون منه سكرا (والسكر الخمر ولم تكن حرمت بعد) ورزقا حسنا . والنص يلمح إلى أن الرزق الحسن غير الخمر وأن الخمر ليست رزقا حسنا ، وفى هذا توطئة لما جاء بعد من تحريمها ، وإنما كان يصف الواقع فى ذلك الوقت من اتخاذهم الخمر من ثمرات النخيل والأعناب ، وليس فيه نص بحلها ، بل فيه توطئة لتحريمها « إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون » .. فيدركون أن من يصنع هذا الرزق هو الذى يستحق العبودية له وهو الله ..

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ، ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » ..

والنحل تعمل بإلهام من الفطرة التى أودعها إياها الخالق ، فهو لون من الوحى تعمل بمقتضاه . وهى تعمل بدقة عجيبة يعجز عن مثلها العقل المفكر سواء فى بناء خلاياها ، أو فى تقسيم العمل بينها ، أو فى طريقة إفرازها للعسل المصفى .

وهى تتخذ بيوتها ـ حسب فطرتها ـ فى الجبال والشجر ومايعرشون أى مايرفعون من الكروم وغيرها ـ وقد ذلل الله لها سبل الحياة بما أودع فى فطرتها وفى طبيعة الكون حولها من توافق . والنص على أن العسل فيه شفاء للناس قد شرحه بعض المختصين فى الطب . شرحا فنيا(١) . وهو ثابت بمجرد نص القرآن عليه . وهكذا يجب أن يعتقد المسلم استناداً إلى الحق الكلى الثابت فى كتاب الله ؛ كما أثر عن رسول الله .

روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رجلا جاء إلى رسول الله ـ صلى الله وسلم ـ فقال : إن أخى استطلق بطنه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: « اسقه عسلا » فسقاه عسلا . ثم جاء فقال : يارسول الله سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا . قال : « اذهب فاسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال : يارسول مازاده ذلك إلا استطلاقا . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « صدق الله وكذب بطن أخيك اذهب فاسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا فبرىء .

---

(١) الدكتور عبد العزيز اسماعيل فى كتابه : « الإسلام والطب الحديث » .

Marfat.com

ويروعنا فى هذا الأثر يقين الرسول - صلى الله عليه وسلم - أمام ما بدا واقعا عمليا من استطلاق بطن الرجل كلما سقاه أخوه. وقد انتهى هذا اليقين بتصديق الواقع له فى النهاية. وهكذا يجب أن يكون يقين المسلم بكل قضية وبكل حقيقة وردت فى كتاب الله. مهما بدا فى ظاهر الأمر أن ما يسمى الواقع يخالفها. فهى أصدق من ذلك الواقع الظاهرى، الذى ينتهى فى النهاية ليصدقها..

ونقف هنا أمام ظاهرة التناسق فى عرض هذه النعم: إنزال الماء من السماء. وإخراج اللبن من بين فرث ودم. واستخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب. والعسل من بطون النحل.. إنها كلها أشربة تخرج من أجسام مخالفة لها فى شكلها. ولما كان الجو جو أشربة فقد عرض من الأنعام لبنها وحده فى هذ المجال تنسيقا لمفردات المشهد كله. وسنرى فى الدرس التالى أنه عرض من الأنعام جلودها وأصوافها وأوبارها لأن الجو هناك كان جو أكنان وبيوت وسرابيل فناسب أن يعرض من الأنعام جانبها الذى يتناسق مع مفردات المشهد.. وذلك أفق من آفاق التناسق الفنى فى القرآن[1]

* * *

ومن الأنعام والأشجار والثمار والنحل والعسل إلى لمسة أقرب إلى أعماق النفس البشرية، لأنها فى صميم ذواتهم: فى أعمارهم وأرزاقهم وأزواجهم وبنيهم وأحفادهم. فهم أشد حساسية بها، وأعمق تأثرا واستجابة لها:

« والله خلقكم ثم يتوفاكم، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئا، إن الله عليم قدير.

« والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء. أفبنعمة الله يجحدون؟

« والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة، ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون؟ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون؟ » ..

(١) التناسق الفنى فى كتاب: التصوير الفنى.

Marfat.com

Marfat.com

واللمسة الأولى فى الحياة والوفاة ، وهى متصلة بكل فرد وبكل نفس ؛ والحياة حبيبة ، والتفكر فى أمرها قد يرد القلب الصلد إلى شىء من اللين ، وإلى شىء من الحساسية بيد الله ونعمته وقدرته . والخوف عليها قد يستجيش وجدان التقوى والحذر والالتجاء إلى واهب الحياة . وصورة الشيخوخة حين يرد الإنسان إلى أرذل العمر ، فينسى ما كان قد تعلم ، ويرتد إلى مثل الطفولة من العجز والنسيان والسذاجة . هذه الصورة قد ترد النفس إلى شىء من التأمل فى أطوار الحياة ، وقد تغض من كبرياء المرء واعتزازه بقوته وعلمه ومقدرته . ويجىء التعقيب : « إن الله عليم قدير » ليرد النفس إلى هذه الحقيقة الكبيرة . أن العلم الشامل الأزلى الدائم لله ، وأن القدرة الكاملة التى لا تتأثر بالزمن هى قدرة الله . وأن علم الإنسان إلى حين ، وقدرته إلى أجل ، وهما بعد جزئيان ناقصان محدودان .

واللمسة الثانية فى الرزق . والتفاوت فيه ملحوظ . والنص يرد هذا التفاوت إلى تفضيل الله لبعضهم على بعض فى الرزق . ولهذا التفضيل فى الرزق أسبابه الخاضعة لسنة الله . فليس شىء من ذلك جزافا ولا عبثا . وقد يكون الإنسان مفكرا عالما عاقلا ، ولكن موهبته فى الحصول على الرزق وتنميته محدودة ، لأن له مواهب فى ميادين أخرى . وقد يبدو غبيا جاهلا ساذجا ، ولكن له موهبة فى الحصول على المال وتنميته . والناس مواهب وطاقات . فيحسب من لا يدقق أن لا علاقة للرزق بالمقدرة ، وإنما هى مقدرة خاصة فى جانب من جوانب الحياة . وقد تكون بسطة الرزق ابتلاء من الله ، كما يكون التضييق فيه لحكمة يريدها ويحققها بالابتلاء . . وعلى أية حال فإن التفاوت فى الرزق ظاهرة ملحوظة تابعة لاختلاف فى المواهب ــ وذلك حين تمتنع الأسباب المصطنعة الظالمة التى توجد فى المجتمعات المختلة ــ والنص يشير إلى هذه الظاهرة التى كانت واقعة فى المجتمع العربى ؛ ويستخدمها فى تصحيح بعض أوهام الجاهلية الوثنية التى يزاولونها ، والتى سبقت الإشارة إليها . ذلك حين كانوا يعزلون جزءا من رزق الله الذى أعطاهم ويجعلونه لآلهتهم المدعاة . فهو يقول عنهم هنا : إنهم لا يردون جزءا من أموالهم على ما ملكت أيمانهم من الرقيق . (وكان هذا أمرا واقعا قبل الاسلام) ليصبحوا سواء فى الرزق . فما بالهم يردون جزءا من مال الله الذى رزقهم إياه على آلهتهم المدعاة ؟ « أفبنعمة الله يجحدون ؟ » فيجازون النعمة بالشرك ، بدل الشكر للمنعم المتفضل الوهاب ؟ .

واللمسة الثالثة فى الأنفس والأزواج والأبناء والأحفاد وتبدأ بتقرير الصلة الحية بين

الجنسين : « جعل لكم من أنفسكم أزواجا » فهن من أنفسكم ، شطر منكم ، لا جنس أحط يتوارى من يبشر به ويحزن ! « وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » والإنسان الفانى يحس الامتداد فى الأبناء والحفدة ، ولمس هذا الجانب فى النفس يثير أشد الحساسية .. ويضم إلى هبة الأبناء والأحفاد هبة الطيبات من الرزق للمشاكلة بين الرزقين ليعقب عليها بسؤال استنكارى : « أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ؟ » فيشركون به ويخالفون عن أمره . وهذه النعم كلها من عطائه . وهى آيات على ألوهيته وهى واقعة فى حياتهم ، تلابسهم فى كل آن ..

أفبالباطل يؤمنون ؟ وما عدا الله باطل ، وهذه الآلهة المدعاة ، والأوهام المدعاة كلها باطل لا وجود له ، ولا حق فيه . وبنعمة الله هم يكفرون ، وهى حق يلمسونه ويحسونه ويتمتعون به ثم يجحدونه .

« ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون » ..

وإنه لعجيب أن تنحرف الفطرة إلى هذا الحد ، فيتجه الناس بالعبادة إلى ما لا يملك لهم رزقا وما هو بقادر فى يوم من الأيام ، ولا فى حال من الأحوال . ويدعون الله الخالق الرازق ، وآلاؤه بين أيديهم لا يملكون إنكارها ، ثم يجعلون لله الأشباه والأمثال !

« فلا تضربوا لله الأمثال . إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون » ..

إنه ليس لله مثال ، حتى تضربوا له الأمثال .

ثم يضرب لهم مثلين للسيد المالك الرازق وللمملوك العاجز الذى لا يملك ولا يكسب . لتقريب الحقيقة الكبرى التى غفلوا عنها . حقيقة أن ليس لله مثال ، وما يجوز أن يسووا فى العبادة بين الله وأحد من خلقه وكلهم لهم عبيد :

« ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ، ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا . هل يستوون ؟ الحمد لله . بل أكثرهم لا يعلمون .

« وضرب الله مثلا رجلين : أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير . هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ؟ »

Marfat.com

والمثل الأول مأخوذ من واقعهم ، فقد كان لهم عبيد مملوكون ، لا يملكون شيئا ولا يقدرون على شيء . وهم لا يسوون بين العبد المملوك العاجز والسيد المالك المتصرف . فكيف يسوون بين سيد العباد ومالكهم وبين أحد أو شيء مما خلق . وكل مخلوقاته له عبيد ؟

والمثل الثاني يصور الرجل الأبكم الضعيف البليد الذي لا يدري شيئا ولا يعود بخير. والرجل القوي المتكلم الآمر بالعدل ، العامل المستقيم على طريق الخير .. ولا يسوي عاقل بين هذا وذاك . فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر ، وبين الله سبحانه وهو القادر العليم الآمر بالمعروف ، الهادي إلى الصراط المستقيم ؟

وبهذين المثلين يختم الشوط الذي بدأ بأمر الله للناس ألا يتخذوا إلهين اثنين ، وختم بالتعجيب من أمر قوم يتخذون إلهين اثنين !

« وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ ، أَوْ هُوَ أَقْرَبُ . إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا، وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ؟ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ، وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ، وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ .

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ، وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَانًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ . كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ .

« فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ، وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَافِرُونَ .

Marfat.com

Marfat.com

«وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ، ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا : رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ . فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ : إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ * وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ، وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ .

« وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ » ٨٩

يستمر السياق فى هذا الدرس فى استعراض دلائل الألوهية الواحدة التى يتكىء عليها فى هذه السورة : عظمة الخلق ، وفيض النعمة وإحاطة العلم . غير أنه يركز فى هذا الشوط على قضية البعث . والساعة إحدى أسرار الغيب الذى يختص الله بعلمه فلا يطلع عليه أحدا .

وموضوعات هذا الدرس تشمل ألوانا من أسرار غيب الله فى السماوات والأرض ، وفى الأنفس والآفاق . غيب الساعة . التى لا يعلمها إلا الله وهو عليها قادر وهى عليه هينة : « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » . . وغيب الأرحام والله وحده هو الذى يخرج الأجنة من هذا الغيب . لا تعلم شيئا ، ثم ينعم على الناس بالسمع والأبصار والأفئدة لعلهم يشكرون نعمته . . وغيب أسرار الخلق ويعرض منها تسخير الطير فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله .

يلى هذا فى الدرس استعراض لبعض نعم الله المادية على الناس وهى بجانب تلك الأسرار وفى جوها ، نعم السكن والهدوء والاستظلال . فى البيوت المبنية والبيوت المتخذة من جلود الأنعام للظعن والإقامة ، والأثاث والمتاع من الأصواف والأوبار والأشعار . وهى كذلك الظلال

والأكنان والسرابيل تقى الحر وتقى البأس فى الحرب : « كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » .

ثم تفصيل لأمر البعث فى مشاهد يعرض فيها المشركين وشركاءهم ، والرسل شهداء عليهم . والرسول - صلى الله عليه وسلم - شهيدا على قومه . وبذلك تتم هذه الجولة فى جو البعث والقيامة .

* **

« ولله غيب السماوات والأرض . وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . إن الله على كل شىء قدير » ..

وقضية البعث إحدى قضايا العقيدة التى لقيت جدلا شديدا فى كل عصر ، ومع كل رسول . وهى غيب من غيب الله الذى يختص بعلمه . « ولله غيب السماوات والأرض » وإن البشر ليقفون أمام أستار الغيب عاجزين قاصرين ، مهما يبلغ علمهم الأرضى ، ومهما تتفتح لهم كنوز الأرض وقواها المذخورة . وإن أعلم العلماء من بنى البشر ليقف مكانه لا يدرى ماذا سيكون اللحظة التالية فى ذات نفسه . أيرتد نفسه الذى خرج أم يذهب فلا يعود ! وتذهب الآمال بالإنسان كل مذهب ، وقدره كامن خلف ستار الغيب لا يدرى متى يفجؤه ، وقد يفجؤه اللحظة . وإنه لمن رحمة الله بالناس أن يجهلوا ماوراء اللحظة الحاضرة ليؤملوا ويعملوا وينتجوا وينشئوا ، ويخلفوا وراءهم مابدأوه يتمه الخلف حتى يأتيهم ماخبىء لهم خلف الستار الرهيب .

الساعة من هـذا الغيب المستور . ولو علم الناس موعدها لتوقفت عجلة الحياة ، أو اختلت ، ولما سارت الحياة وفق الخط الذى رسمته لها القدرة ، والناس يعدون السنين والأيام والشهور والساعات واللحظات لليوم الموعود !

« وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » .. فهى قريب . ولكن فى حساب غير حساب البشر المعلوم . وتدبير أمرها لا يحتاج إلى وقت . طرفة عين . فإذا هى حاضرة مهيأة بكل أسبابها « إن الله على كل شىء قدير » وبعث هذه الحشود التى يخطئها الحصر والعد من الخلق ، وانتفاضها ، وجمعها ، وحسابها ، وجزاؤها .. كله هين على تلك القدرة التى تقول

Marfat.com

للشيء : كن . فيكون . إنما يستهول الأمر ويستصعبه من يحسبون بحساب البشر ، وينظرون بعين البشر ، ويقيسون بمقاييس البشر .. ومن هنا يخطئون التصور والتقدير !

ويقرب القرآن الأمر بعرض مثال صغير من حياة البشر ، تعجز عنه قواهم ويعجز عنه تصورهم ، وهو يقع في كل لحظة من ليل أو نهار :

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » ..

وهو غيب قريب ، ولكنه موغل بعيد . وأطوار الجنين قد يراها الناس ، ولكنهم لا يعلمون كيف تتم ، لأن سرها هو سر الحياة المكنون . والعلم الذي يدعيه الإنسان ويتطاول به ويريد أن يختبر به أمر الساعة وأمر الغيب ، علم حادث مكسوب : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا » ومولد كل عالم وكل باحث ، ومخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئا قريب قريب ! وما كسبه بعد ذلك من علم هبة من الله بالقدر الذي أراده للبشر ، وجعل فيه كفاية حياتهم على هذا الكوكب ، في المحيط المكشوف لهم من هذا الوجود : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » والقرآن يعبر بالقلب ويعبر بالفؤاد عن مجموع مدارك الإنسان الواعية ؛ وهي تشمل ما اصطلح على أنه العقل ، وتشمل كذلك قوى الإلهام الكامنة المجهولة الكنه والعمل . جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة « لعلكم تشكرون » حين تدركون قيمة النعمة في هذه وفي سواها من آلاء الله عليكم . وأول الشكر : الإيمان بالله الواحد المعبود .

وعجيبة أخرى من آثار القدرة الإلهية يرونها فلا يتدبرونها وهي مشهد عجيب معروض للعيون :

« أو لم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ، ما يمسكهن إلا الله . إن في ذلك لآية لقوم يؤمنون » ..

ومشهد الطير مسخرات في جو السماء مشهد مكرور ، قد ذهبت الألفة بما فيه من عجب ، وما يتلفت القلب البشري عليه إلا حين يستيقظ ، ويلحظ الكون بعين الشاعر الموهوب . وإن تحليقة طائر في جو السماء لتستجيش الحس الشاعر إلى القصيدة حين تلمسه . فينتفض

Marfat.com

للمشهد القديم الجديد .. « ما يمسكهن إلا الله » بنواميسه التي أودعها فطرة الطير وفطرة الكون من حولها ، وجعل الطير قادرة على الطيران ، وجعل الجو من حولها مناسبا لهذا الطيران ؛ وأمسك بها الطير لا تسقط وهي في جو السماء : « إن في ذلك لآية لقوم يؤمنون » .. فالقلب المؤمن هو القلب الشاعر ببدائع الخلق والتكوين ، المدرك لما فيها من روعة باهرة تهز المشاعر وتستجيش الضمائر . وهو يعبر عن إحساسه بروعة الخلق ، بالإيمان والعبادة والتسبيح ؛ والموهوبون من المؤمنين هبة التعبير ، قادرون على إبداع ألوان من رائع القول في بدائع الخلق والتكوين ، لا يبلغ إليها شاعر لم تمس قلبه شرارة الإيمان المشرق الوضيء .

* * *

ويخطو السياق خطوة أخرى في أسرار الخلق وآثار القدرة ومظاهر النعمة ، يدخل بها إلى بيوت القوم وما يسر لهم فيها وحولها من سكن ومتاع وأكنان وظلال !

« والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالا ؛ وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم . كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » ..

والسكن والطمأنينة في البيوت نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا المشردون الذين لا بيوت لهم ولا سكن ولا طمأنينة . وذكرها في السياق يجيء بعد الحديث عن الغيب ، وظل السكن ليس غريبا عن ظل الغيب ، فكلاهما فيه خفاء وستر . والتذكير بالسكن يمس المشاعر الغافلة عن قيمة هذه النعمة .

ونستطرد هنا إلى شيء عن نظرة الإسلام إلى البيت ، بمناسبة هذا التعبير الموحي : « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا » . . فهكذا يريد الاسلام البيت مكانا للسكينة النفسية والاطمئنان الشعوري . هكذا يريده مريحا تطمئن إليه النفس وتسكن وتأمن سواء بكفايته المادية للسكنى والراحة ، أو باطمئنان من فيه بعضهم لبعض ، وبسكن من فيه كل إلى الآخر .

Marfat.com

فليس البيت مكانا للنزاع والشقاق والخصام ، إنما هو مبيت وسكن وأمن واطمئنان وسلام .

ومن ثم يضمن الإسلام للبيت حرمته ، ليضمن له أمنه وسلامه واطمئنانه . فلا يدخله داخل إلا بعد الاستئذان ، ولا يقتحمه أحد - بغير حق - باسم السلطان ، ولا يتطلع أحد على من فيه لسبب من الأسباب ، ولا يتجسس أحد على أهله فى غفلة منهم أو غيبة ، فيروع أمنهم ، ويخل بالسكن الذى يريده الإسلام للبيوت ، ويعبر عنه ذلك التعبير الجميل العميق !

ولأن المشهد مشهد بيوت وأكنان وسرابيل ، فإن السياق يعرض من الأنعام جانبها الذى يتناسق مع مفردات المشهد : « وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين » . وهو هنا كذلك يستعرض من نعمة الأنعام ما يلبي الضرورات وما يلبي الأشواق ، فيذكر المتاع ، إلى جانب الأثاث . والمتاع ولو أنه يطلق على مافى الأرحال من فرش وأغطية وأدوات ، إلا أنه يشى بالتمتع والارتياح .

ويرق التعبير فى جو السكن والطمأنينة ، وهو يشير إلى الظلال والأكنان فى الجبال ، وإلى السرابيل تقى فى الحر وتقى فى الحرب : « والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكنانا ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ، وسرابيل تقيكم بأسكم » وللنفس فى الظلال استرواح وسكن ، ولها فى الأكنان طمأنينة ووسن ، ولها فى السرابيل التى تقى الحر من الأردية والأغطية راحة وفى السرابيل التى تقى البأس من الدروع وغيرها وقاية . . وكلها بسبيل من طمأنينة البيوت وأمنها وراحتها وظلها .. ومن ثم يجيء التعقيب : « كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » والإسلام استسلام وسكن وركون ..

وهكذا تتناسق ظلال المشهد كله على طريقة القرآن فى التصوير .

فإن أسلموا فبها . وإن تولوا وشردوا فما على الرسول إلا البلاغ . وليكونن إذا جاحدين منكرين ، بعد ما عرفوا نعمة الله التى لا تقبل النكران !

Marfat.com

« فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين . يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، وأكثرهم الكافرون » ..

* * *

ثم يعرض ماينتظر الكافرين عندما تأتى الساعة التى ذكرت فى مطلع الحديث :

« ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا ، ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون . وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون . وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا : ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك . فألقوا إليهم القول : إنكم لكاذبون. وألقوا إلى الله يومئذ السلم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون » ..

والمشهد يبدأ بموقف الشهداء من الأنبياء يدلون بما يعلمون مما وقع لهم فى الدنيا مع أقوامهم من تبليغ وتكذيب والذين كفروا واقفون لا يؤذن لهم فى حجة ولا استشفاع ولا يطلب منهم أن يسترضوا ربهم بعمل أو قول ، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء ، وجاء وقت الحساب والعقاب . « وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون » .. ثم يقطع هذا الصمت رؤية الذين أشركوا لشركائهم فى ساحة الحشر ممن كانوا يزعمون أنهم شركاء لله ، وأنهم آلهة يعبدونهم مع الله أو من دون الله . فإذا هم يشيرون إليهم ويقولون ! « ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك » فاليوم يقرون : « ربنا » واليوم لا يقولون عن هؤلاء إنهم شركاء لله . إنما يقولون : « هؤلاء شركاؤنا » .. ويفزع الشركاء ويرتجفون من هذا الاتهام الثقيل ، فإذا هم يجبهون عبادهم بالكذب فى تقرير وتوكيد : « فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون » ويتجهون إلى الله مستسلمين خاضعين « وألقوا إلى الله يومئذ السلم » .. وإذا المشركون لا يجدون من مفترياتهم شيئا يعتمدون عليه فى موقفهم العصيب : « وضل عنهم ما كانوا يفترون » .. وينتهى الموقف بتقرير مضاعفة العذاب للذين كفروا وحملوا غيرهم على الكفر وصدوهم عن سبيل الله : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون » فالكفر فساد ، والتكفير فساد ، وقد ارتكبوا جريمة كفرهم ،

Marfat.com

Marfat.com

وجريمة صد غيرهم عن الهدى ، فضوعف لهم العذاب جزاء وفاقاً .

ذلك شأن عام مع جميع الأقوام . ثم يخصص السياق موقفا خاصا للرسول - صلى الله عليه وسلم - مع قومه :

« ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا ، وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ، ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » ..

وفى ظل المشهد المعروض للمشركين ، والموقف العصيب الذى يكذب الشركاء فيه شركاءهم ، ويستسلمون لله متبرئين من دعوى عبادهم الضالين ، يبرز السياق شأن الرسول مع مشركى قريش يوم يبعث من كل أمة شهيد . فتجىء هذه اللمسة فى وقتها وقوتها : « وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » .. ثم يذكر أن فى الكتاب الذى نزل على الرسول « تبيانا لكل شىء » فلا حجة بعده لمحتج ، ولا عذر معه لمعتذر . « وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » .. فمن شاء الهدى والرحمة فليسلم قبل أن يأتى اليوم المرهوب ، فلا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون ..

وهكذا تجىء مشاهد القيامة فى القرآن لأداء غرض فى السياق ، تتناسق مع جوه وتؤديه .

« إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ؛ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ . يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ، وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا . إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ، أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ، إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ، وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ

Marfat.com

لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ؛ وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ؛ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

« وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ، فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ، وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، إِنَّ مَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ ؛ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ـ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ـ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

« فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ * وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ . بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ .

« مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ ـ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ـ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ، وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَئِكَ

ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ ، لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ .

« ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ، ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ، وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » (١١١)

ختم الدرس الماضى بقوله تعالى: « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » . . وفى هذا الدرس بيان لبعض مافى الكتاب من التبيان والهدى والرحمة والبشرى . فيه الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . وفيه الأمر بالوفاء بالعهد والنهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها . . وكلها من مبادىء السلوك الأساسية التى جاء بها هذا الكتاب .

وفيه بيان الجزاء المقرر لنقض العهد واتخاذ الأيمان للخداع والتضليل ، وهو العذاب العظيم . والبشرى للذين صبروا وتوفيتهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون .

ثم يذكر بعض آداب قراءة هذا الكتاب . وهو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، لطرد شبحه من مجلس القرآن الكريم . كما يذكر بعض تقولات المشركين عن هذا الكتاب . فمنهم من يرمى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بافترائه على الله . ومنهم من يقول : إن غلاما أعجميا هو الذى يعلمه هذا القرآن !

وفى نهاية الدرس يبين جزاء من يكفر بعد إيمانه ، ومن يكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان ، ومن فتنوا عن دينهم ثم هاجروا وجاهدوا وصبروا . . وكل أولئك تبيان ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين .

* * *

Marfat.com

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى. يعظكم لعلكم تذكرون . وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ماتفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ، إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون .ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء ، ولتسألن عما كنتم تعملون » ..

لقد جاء هذا الكتاب لينشىء أمة وينظم مجتمعا . ثم لينشىء عالما ويقيم نظاما . جاء دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس ؛ إنما العقيدة وحدها هى الآصرة والرابطة والقومية والعصبية .

ومن ثم جاء بالمبادىء التى تكفل تماسك الجماعة والجماعات ، واطمئنان الأفراد والأمم والشعوب ، والثقة بالمعاملات والوعود والعهود :

جاء « بالعدل » الذى يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل ، لاتميل مع الهوى ، ولا تتأثر بالود والبغض ، ولا تتبدل مجاراة للصهر والنسب ، والغنى والفقر ، والقوة والضعف. إنما تمضى فى طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع ، وتزن بميزان واحد للجميع .

وإلى جوار العدل .. « الإحسان » .. يلطف من حدة العدل الصارم الجازم ، ويدع الباب مفتوحا لمن يريد أن يتسامح فى بعض حقه إيثارا لود القلوب ، وشفاء لغل الصدور . ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه ليداوى جرحا أو يكسب فضلا .

والإحسان أوسع مدلولا ، فكل عمل طيب إحسان ، والأمر بالإحسان يشمل كل عمل وكل تعامل ، فيشمل محيط الحياة كلها فى علاقات العبد بربه ، وعلاقاته بأسرته ، وعلاقاته بالجماعة ، وعلاقاته بالبشرية جميعا[1]

(١) بعض التفاسير تقول: إن العدل هو الواجب والإحسان هو الندب فى العبادات خاصة . استنادا إلى أن هذه الآية مكية ، ولم يكن التشريع قد نزل بعد . ولكن عموم اللفظ يطلق مفهوم العدل ومفهوم الإحسان . فضلا على أن العدل والإحسان مبدآن عامان من الناحية الأخلاقية البحتة ، وليسا مجرد تشريع قانونى .

Marfat.com

ومن الإحسان « إيتاء ذى القربى » إنما يبرز الأمر به تعظيما لشأنه ، وتوكيدا عليه . وما يبنى هـذا على عصبية الأسرة ، إنما يبنيه على مبدأ التـكافل الذى يتدرج به الإسلام من المحيط المحلى إلى المحيط العام . وفق نظريته التنظيمية لهذا التـكافل[1] .

« وينهى عن الفحشاء والمنـكر والبغى » . . والفحشاء كل أمر يفحش أى يتجاوز الحد . ومنه ماخصص به غالبا وهو فاحشة الاعتداء على العرض ، لأنه فعل فاحش فيه اعتداء وفيه تجاوز للحد حتى ليدل على الفحشاء ويختص بها . والمنكر كل فعل تنكره الفطرة ومن ثم تنكره الشريعة فهى شريعة الفطرة . وقد تنحرف الفطرة أحيانا فتبقى الشريعة ثابتة تشير إلى أصل الفطرة قبل انحرافها . والبغى الظلم وتجاوز الحق والعدل .

وما من مجتمع يمكن أن يقوم على الفحشاء والمنـكر والبغى . ما من مجتمع تشيع فيه الفاحشة بكل مدلولاتها ، والمنـكر بكل مغرراته ، والبغى بكل معقباته ، ثم يقوم . .

والفطرة البشرية تنتفض بعد فترة معينة ضد هذه العوامل الهدامة ، مهما تبلغ قوتها ، ومهما يستخدم الطغاة من الوسائل لحمايتها . وتاريخ البشرية كله انتفاضات وانتقاضات ضد الفحشاء والمنـكر والبغى . فلا يهم أن تقوم عهود وأن تقوم دول عليها حينا من الدهر ، فالانتقاض عليها دليل على أنها عناصر غريبة على جسم الحياة ، فهى تنتفض لطردها ، كما ينتفض الحى ضد أى جسم غريب يدخل إليه . وأمر الله بالعدل والإحسان ونهيه عن الفحشاء والمنكر والبغى يوافق الفطرة السليمة الصحيحة ، ويقويها ويدفعها للمقاومة باسم الله . لذلك يجىء التعقيب : « يعظكم لعلكم تذكرون » فهى عظة للتـذكر تذكر وحى الفطرة الأصيـل القويم . .

« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ماتفعلون » . .

والوفاء بعهد الله يشمل بيعة المسلمين للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويشمل كل عهد على معروف يأمر به الله . والوفاء بالعهود هو الضمان لبقاء عنصر الثقة فى التعامل بين الناس ، وبدون هذه الثقة لا يقوم مجتمع ، ولا تقوم إنسانية . والنص يخجل المتعاهدين أن ينقضوا

---

(١) فصل التـكافل الاجتماعى فى كتاب « دراسات إسلامية » .

Marfat.com

Marfat.com

الأيمان بعد توكيدها وقد جعلوا الله كفيلا عليهم ، وأشهدوه عهدهم ، وجعلوه كافلا للوفاء بها . ثم يهددهم تهديدا خفيا « إن الله يعلم ماتفعلون » .

وقد تشدد الإسلام فى مسألة الوفاء بالعهود فلم يتسامح فيها أبدا ، لأنها قاعدة الثقة التى ينفرط بدونها عقد الجماعة ويتهدم ، والنصوص القرآنية هنا لا تقف عن حد الأمر بالوفاء والنهى عن النقض إنما تستطرد لضرب الأمثال ، وتقبيح نكث العهد ، ونفى الأسباب التى قد يتخذها بعضهم مبررات :

« ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، أن تكون أمة هى أربى من أمة . إنما يبلوكم الله به . وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » .

فمثل من ينقض العهد مثل امرأة حمقاء ملتاثة ضعيفة العزم والرأى ، تفتل غزلها ثم تنقضه وتتركه مرة أخرى قطعا منكوثة ومحلولة ! وكل جزئية من جزئيات التشبيه تشى بالتحقير والترذيل والتعجيب . وتشوه الأمر فى النفوس وتقبحه فى القلوب . وهو المقصود . وما يرضى إنسان كريم لنفسه أن يكون مثله كمثل هذه المرأة الضعيفة الإرادة الملتاثة العقل ، التى تقضى حياتها فيما لا غناء فيه !

وكان بعضهم يبرر لنفسه نقض عهده مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن محمدا ومن معه قلة ضعيفة ، بينما قريش كثرة قوية . فنبههم إلى أن هذا ليس مبررا لأن يتخذوا أقسامهم غشا وخديعة فيتخلوا عنها : « ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة » أى بسبب كون أمة أكثر عددا وقوة من أمة . وطلبا للمصلحة مع الأمة الأربى .

ويدخل فى مدلول النص أن يكون نقض العهد تحقيقا لما يسمى الآن « مصلحة الدولة » فتعقد دولة معاهدة مع دولة أو مجموعة دول ، ثم تنقضها بسبب أن هناك دولة أربى أو مجموعة دول أربى فى الصف الآخر ، تحقيقا « لمصلحة الدولة » ! فالإسلام لا يقر مثل هذا المبرر ، ويجزم بالوفاء بالعهد ، وعدم اتخاذ الأيمان ذريعة للغش والدخل . ذلك فى مقابل أنه لا يقر تعاهدا ولا تعاونا على غير البر والتقوى . ولا يسمح بقيام تعاهد أو تعاون على الإثم والفسوق والعصيان ، وأكل حقوق الناس ، واستغلال الدول والشعوب .. وعلى هذا الأساس قام بناء

Marfat.com

الجماعة الإسلامية وبناء الدولة الإسلامية فنعم العالم بالطمأنينة والثقة والنظافة فى المعاملات الفردية والدولية يوم كانت قيادة البشرية إلى الإسلام .

والنص هنا يحذر من مثل ذلك المبرر ، وينبه إلى أن قيام مثل هذه الحالة : «أن تكون أمة هى أربى من أمة» هو ابتلاء من الله لهم ليمتحن إرادتهم ووفاءهم وكرامتهم على أنفسهم وتحرجهم من نقض العهد الذى أشهدوا الله عليه : « إنما يبلوكم الله به » ..

ثم يكل أمر الخلافات التى تنشب بين الجماعات والأقوام إلى الله فى يوم القيامة للفصل فيه : « وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » يمهد بهذا لترضية النفوس بالوفاء بالعهد حتى لمخالفيهم فى الرأى والعقيدة : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون » . . ولو شاء الله لخلق الناس باستعداد واحد ، ولكنه خلقهم باستعدادات متفاوتة ، نسخا غير مكررة ولا معادة ، وجعل نواميس للهدى والضلال ، تمضى بها مشيئته فى الناس . وكل مسؤول عما يعمل . فلا يكون الاختلاف فى العقيدة سببا فى نقض العهود . فالاختلاف له أسبابه المتعلقة بمشيئة الله . والعهد مكفول مهما اختلفت المعتقدات . وهذه قمة فى نظافة التعامل ، والسماحة الدينية ، لم يحققها فى واقع الحياة إلا الإسلام فى ظل هذا القرآن .

* * *

ويمضى السياق فى توكيده للوفاء بالعهود ، ونهيه عن اتخاذ الأيمان للغش والخديعة ، وبث الطمأنينة الكاذبة للحصول على منافع قريبة من منافع هذه الدنيا الفانية . ويحذر عاقبة ذلك فى زعزعة قوائم الحياة النفسية والاجتماعية ، وزلزلة العقائد والارتباطات والمعاملات . وينذر بالعذاب العظيم فى الآخرة ، ويلوح بما عند الله من عوض عما يفوتهم بالوفاء من منافع هزيلة ، وينوه بفناء ما بأيديهم وبقاء ما عند الله الذى لا تنفد خزائنه ، ولا ينقطع رزقه :

« ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم ، فتزل قدم بعد ثبوتها ، وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم . ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا . إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون . ما عندكم ينفد وما عند الله باق . ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

واتخاذ الأيمان غشا وخداعا يزعزع العقيدة فى الضمير ، ويشوه صورتها فى ضمائر الآخرين. فالذى يقسم وهو يعلم أنه خادع فى قسمه ، لا يمكن أن تثبت له عقيدة ، ولا أن تثبت له قدم على صراطها . وهو فى الوقت ذاته يشوه صورة العقيدة عند من يقسم لهم ثم ينكث ، ويعلمون أن أقسامه كانت للغش والدخل ؛ ومن ثم يصدهم عن سبيل الله بهذا المثل السيىء الذى يضربه المؤمنين بالله .

ولقد دخلت فى الإسلام جماعات وشعوب بسبب ما رأوا من وفاء المسلمين بعهدهم ، ومن صدقهم فى وعدهم ، ومن إخلاصهم فى أيمانهم ، ومن نظافتهم فى معاملاتهم . فكان الكسب أضخم بكثير من الخسارة الوقتية الظاهرية التى نشأت عن تمسكهم بعهودهم .

ولقد ترك القرآن وسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى نفوس المسلمين أثرا قويا وطابعا عاما فى هذه الناحية ظل هو طابع التعامل الإسلامى الفردى والدولى المتميز . . روى أنه كان بين معاوية بن أبى سفيان وملك الروم أمد ، فسار إليهم فى آخر الأجل . (حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون) فقال له عمر بن عتبة : الله أكبر يا معاوية . وفاء لا غدر . سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقده حتى ينقضى أمدها » فرجع معاوية بالجيش . والروايات عن حفظ العهود - مهما تكن المصلحة القريبة فى نقضها - متواترة مشهورة .

وقد ترك هذا القرآن فى النفوس ذلك الطابع الإسلامى البارز . وهو يرغب ويرهب ، وينذر ويحذر ويجعل العهد عهد الله ، ويصور النفع الذى يجره نقضه ضئيلا هزيلا ، وماعند الله على الوفاء عظيما جزيلا : « ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا . إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون » . . ويذكر بأن ما عند البشر ولو ملكه فرد فانه زائل ، وما عند الله باق دائم : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » ، ويقوى العزائم على الوفاء ، والصبر لتكاليف الوفاء ، ويعد الصابرين أجرا حسنا « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » والتجاوز عما وقع منهم من عمل سيىء ، ليكون الجزاء على أحسن العمل دون سواه .

* * *

وبمناسبة العمل والجزاء ، يعقب بالقاعدة العامة فيهما :

Marfat.com

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . . فيقرر بذلك القواعد التالية :

أن الجنسين : الذكر والأنثى . متساويان فى قاعدة العمل والجزاء ، وفى صلتهما بالله ، وفى جزائهما عند الله . ومع أن لفظ « من » حين يطلق يشمل الذكر والأنثى إلا أن النص يفصل : « من ذكر أو أنثى » لزيادة تقرير هذه الحقيقة . وذلك فى السورة التى عرض فيها سوء رأى الجاهلية فى الأنثى ، وضيق المجتمع بها ، واستياء من يبشر بمولدها ، وتواريه من القوم حزنا وغما وخجلا وعارا !

وأن العمل الصالح لا بد له من القاعدة الأصيلة يرتكز عليها . قاعدة الإيمان بالله « وهو مؤمن » فبغير هذه القاعدة لا يقوم بناء ، وبغير هذه الرابطة لا يتجمع شتاته ، إنما هو هباء كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف . والعقيدة هى المحور الذى تشد إليه الخيوط جميعا ، وإلا فهى أنكاث . فالعقيدة هى التى تجعل للعمل الصالح باعثا وغاية . فتجعل الخير أصيلا ثابتا يستند إلى أصل كبير . لا عارضا مزعزعا يميل مع الشهوات والأهواء حيث تميل .

وأن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة فى هذه الأرض . لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال . فقد تكون به ، وقد لا يكون معها . وفى الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة فى حدود الكفاية : فيها الاتصال بالله والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه . وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة ، وسكن البيوت ومودات القلوب . وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره فى الضمير وآثاره فى الحياة . . وليس المال إلا عنصرا واحدا يكفى منه القليل ، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله .

وأن الحياة الطيبة فى الدنيا لا تنقص من الأجر الحسن فى الآخرة .

وأن هذا الأجر يكون على أحسن ما عمل المؤمنون العاملون فى الدنيا ، ويتضمن هذا تجاوز الله لهم عن السيئات . فما أكرمه من جزاء ! .

***

Marfat.com

Marfat.com

ثم يأخذ السياق فى شىء عن خاصة الكتاب . عن آداب قراءته . وعن تقولات المشركين عليه :

« فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون »

والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم تمهيد للجو الذى يتلى فيه كتاب الله ، وتطهير له من الوسوسة واتجاه بالمشاعر إلى الله خالصة لا يشغلها شاغل من عالم الرجس والشر الذى يمثله الشيطان .

فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . . « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » فالذين يتوجهون إلى الله وحده ، ويخلصون قلوبهم لله ، لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم ، مهما وسوس لهم فإن صلتهم بالله تعصمهم أن ينساقوا معه ، وينقادوا إليه . وقد يخطئون ، ولكنهم لايستسلمون ، فيطردون الشيطان عنهم ويثوبون إلى ربهم من قريب.. «إنما سلطانه على الذين يتولونه » أولئك الذين يجعلونه وليهم ويستسلمون له بشهواتهم ونزواتهم، ومنهم من يشرك به . فقد عرفت عبادة الشيطان وعبادة إله الشر عند بعض الأقوام . على أن اتباعهم للشيطان نوع من الشرك بالولاء والاتباع .

وعند ذكر المشركين يذكر تقولاتهم عن القرآن الكريم :

« وإذا بدلنا آية مكان آية ، والله أعلم بما ينزل قالوا : إنما أنت مفتر . بل أكثرهم لا يعلمون . قل : نزله روح القدس من ربك بالحق ، ليثبت الذين آمنوا ، وهدى وبشرى للمسلمين . ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر . لسان الذين يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين . إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم . إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ، وأولئك هم الكاذبون » . .

إن المشركين لا يدركون وظيفة هذا الكتاب . لايدركون أنه جاء لإنشاء مجتمع عالمى إنسانى ، وبناء أمة تقود هذا المجتمع العالمى . وأنه الرسالة الأخيرة التى ليست بعدها من السماء رسالة ؛ وأن الله الذى خلق البشر عليم بما يصلح لهم من المبادىء والشرائع . فإذا بدل آية انتهى أجلها واستنفدت أغراضها ، ليأتى بآية أخرى أصلح للحالة الجديدة التى صارت إليها

الأمة ، وأصلح للبقاء بعد ذلك الدهر الطويل الذى لا يعلمه إلا هو ، فالشأن له . ومثل آيات هذا الكتاب كمثل الدواء تعطى للمريض منه جرعات حتى يشفى ، ثم ينصح بأطعمة أخرى تصلح للبنية العادية فى الظروف العادية .

إن المشركين لا يدركون شيئا من هذا كله ، ومن ثم لم يدركوا حكمة تبديل آية مكان آية فى حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فحسبوها افتراء منه وهو الصادق الأمين الذى لم يعهدوا عليه كذبا قط . « بل أكثرهم لا يعلمون » ..

« قل : نزله روح القدس من ربك بالحق » .. فما يمكن أن يكون افتراء . وقد نزله « روح القدس » - جبريل عليه السلام - « من ربك » لا من عندك « بالحق » لا يتلبس به الباطل « ليثبت الذين آمنوا » الموصولة قلوبهم بالله ، فهى تدرك أنه من عند الله ، فتثبت على الحق وتطمئن إلى الصدق « وهدى وبشرى للمسلمين » بما يهديهم إلى الطريق المستقيم ، وبما يبشرهم بالنصر والتمكين .

« ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر . لسان الذى يلحدون إليه أعجمى . وهذا لسان عربى مبين » ..

والفرية الأخرى بزعمهم أن الذى يعلم الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذا القرآن إنما هو بشر . سموه باسمه ، واختلفت الروايات فى تعيينه .. قيل : كانوا يشيرون إلى رجل أعجمى كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش ، وكان بياعا يبيع عند الصفا ، وربما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء ، وذلك كان أعجمى اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر مايرد جواب الخطاب فيما لا بد منه .

وقال محمد بن اسحاق فى السيرة : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنى كثيرا مايجلس عند المروة إلى سبيعة . غلام نصرانى يقال له : جبر . عبد لبعض بنى الحضرمى ، فأنزل الله : « ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر . لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » .

وقال عبدالله بن كثير وعن عكرمة وقتادة كان اسمه « يعيش » .

وروى ابن جرير - بإسناده - عن ابن عباس قال : كان رسول الله - صلى الله عليه

Marfat.com

Marfat.com

وسلم - يعلم قنا بمكة وكان اسمه بلعام . وكان أعجمى اللسان ، وكان المشركون يرون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا : إنما يعلمه بلعام . فأنزل الله هذه الآية . . .

وأما ماكان فقد رد عليهم الرد البسيط الواضح الذى لايحتاج إلى جدل : « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى . وهذا لسان عربى مبين » فكيف يمكن لمن لسانه أعجمى أن يعلم محمدا هذا الكتاب العربى المبين ؟

وهذه المقالة منهم يصعب حملها على الجد ، وأغلب الظن أنها كيد من كيدهم الذى كانوا يدبرونه وهم يعلمون كذبه وافتراءه . وإلا فكيف يقولون - وهم أخبر بقيمة هذا الكتاب وإعجازه - إن أعجميا يملك أن يعلم محمدا هذا الكتاب . ولئن كان قادرا على مثله ليظهرن به لنفسه !

واليوم ، بعد ماتقدمت البشرية كثيرا ، وتفتقت مواهب البشر عن كتب ومؤلفات ، وعن نظم وتشريعات ؛ يملك كل من يتذوق القول ، وكل من يفقه أصول النظم الاجتماعية ، والتشريعات القانونية أن يدرك أن مثل هذا الكتاب لا يمكن أن يكون من عمل البشر .

وحتى الماديون الملحدون فى روسيا الشيوعية ، عندما أرادوا أن يطعنوا فى هذا الدين فى مؤتمر المستشرقين عام ١٩٥٤ كانت دعواهم أن هذا القرآن لايمكن أن يكون من عمل فرد واحد - هو محمد - بل من عمل جماعة كبيرة . وأنه لا يمكن أن يكون قد كتب فى الجزيرة العربية بل إن بعض أجزائه كتب خارجها !!!

دعاهم إلى هذا استكثار هذا الكتاب على موهبة رجل واحد . وعلى علم أمة واحدة . ولم يقولوا مايوحى به المنطق الطبيعى المستقيم : إنه من وحى رب العالمين . لأنهم ينكرون أن يكون لهذا الوجود إله ، وأن يكون هناك وحى ورسل ونبوات !

فكيف كان يمكن - وهذا رأى جماعة من العلماء فى القرن العشرين - أن يعلمه بشر لسانه أعجمى عبد لبنى فلان فى الجزيرة العربية ؟!

ويعلل القرآن هذه المقولة الضالة فيقول :

« إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم » ..

Marfat.com

فهؤلاء الذين لم يؤمنوا بآيات الله لم يهدهم الله إلى الحقيقة فى أمر هذا الكتاب ، ولايهديهم إلى الحقيقة فى شىء ما . بكفرهم وإعراضهم عن الآيات المؤدية إلى الهدى « ولهم عذاب أليم » بعد ذلك الضلال المقيم .

ثم يثنى بأن الافتراء على الله لا يصدر إلا من مثل هؤلاء الذين لا يؤمنون . ولا يمكن أن يصدر من الرسول الأمين :

« إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله . وأولئك هم الكاذبون » ..

فالكذب جريمة فاحشة لا يقدم عليها مؤمن . وقد نفى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حديث له صدورها عن المسلم ، وإن كان يصدر عنه غيرها من الذنوب .

* * *

ثم ينتقل السياق إلى بيان أحكام من يكفر بعد الإيمان :

« من كفر بالله من بعد إيمانه ـ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ـ ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ، ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأن الله لا يهدى القوم الكافرين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، وأولئك هم الغافلون . لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون » ..

ولقد لقى المسلمون الأوائل فى مكة من الأذى ما لا يطيقه إلا من نوى الشهادة ، وآثر الحياة الأخرى ، ورضى بعذاب الدنيا عن العودة إلى ملة الكفر والضلال .

والنص هنا يغلظ جريمة من كفر بالله من بعد إيمانه . لأنه عرف الإيمان وذاقه ، ثم ارتد عنه إيثارا للحياة الدنيا على الآخرة . فرماهم بغضب من الله ، وبالعذاب العظيم ، والحرمان من الهداية ؛ ووصمهم بالغفلة وانطماس القلوب والسمع والأبصار ؛ وحكم عليهم بأنهم فى الآخرة هم الخاسرون . . ذلك أن العقيدة لا يجوز أن تكون موضع مساومة ، وحساب للربح والخسارة . ومتى آمن القلب بالله فلا يجوز أن يدخل عليه مؤثر من مؤثرات هذه الأرض ؛ فللأرض حساب ، وللعقيدة حساب ولا يتداخلان . وليست العقيدة هزلا ، وليست صفقة قابلة للأخذ والرد فهى أعلى من هذا وأعز . ومن ثم كل هذا التغليظ فى العقوبة ، والتفظيع للجريمة .

واستثنى من ذلك الحكم الدامغ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان . أى من أظهر الكفر بلسانه نجاة لروحه من الهلاك ، وقلبه ثابت على الإيمان مرتكن إليه مطمئن به . وقد روى أن هذه الآية نزلت فى عمار بن ياسر .

روى ابن جرير ـ بإسناده ـ عن أبى عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم فى بعض ما أرادوا . فشكا ذلك إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئنا بالإيمان . قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن عادوا فعد » . فكانت رخصة فى مثل هذه الحال .

وقد أبى بعض المسلمين أن يظهروا الكفر بلسانهم مؤثرين الموت على لفظة باللسان . كذلك صنعت سمية أم ياسر ، وهى تطعن بالحربة فى موضع العفة حتى تموت وكذلك صنع أبوه ياسر

وقد كان بلال ـ رضوان الله عليه ـ يفعل المشركون به الأفاعيل حتى ليضعون الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحر ، ويأمرونه بالشرك بالله ، فيأبى عليهم وهو يقول : أحد. أحد. ويقول : والله لو أعلم كلمة هى أغيظ لكم منها لقلتها .

وكذلك حبيب بن زيد الأنصارى لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمدا رسول الله . فيقول : نعم . فيقول : أتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع ! فلم يزل يقطعه إربا إربا ، وهو ثابت على ذلك .

وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الله بن حذيفة السهمى ـ أحد الصحابة رضوان الله عليهم ـ أنه أسرته الروم ، فجاءوا به إلى ملكهم ، فقال له : تنصر وأنا أشركك فى ملكى وأزوجك ابنتى . فقال له : لو أعطيتنى جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب أن أرجع عن دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ طرفة عين ما فعلت . فقال : إذن أقتلك ، فقال : أنت وذاك. قال : فأمر به فصلب ، وأمر الرماة فرموه قريبا من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى . ثم أمر به فأنزل . ثم أمر بقدر . وفى رواية : ببقرة من نحاس فأحميت ، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر فإذا هو عظام تلوح . وعرض عليه فأبى ، فأمر به أن يلقى فيها . فرفع فى البكرة ليلقى فيها فبكى . فطمع فيه ودعاه . فقال : إنى إنما بكيت لأن

Marfat.com

نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله ، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله .

وفي رواية أنه سجنه ، ومنع عنه الطعام والشراب أياما ، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير ، فلم يقربه ، ثم استدعاه فقال : مامنعك أن تأكل ؟ فقال : أما إنه قد حل لي ، ولكن لم أكن لأشمتك في . فقال له الملك : فقبل رأسي وأنا أطلقك. فقال : تطلق معي جميع أسارى المسلمين. فقال : نعم . فقبل رأسه ، فأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده . فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة ، وأنا أبدأ . فقام فقبل رأسه رضي الله عنهما[1] .

ذلك أن العقيدة أمر عظيم ، لا هوادة فيها ولا ترخص ، وثمن الاحتفاظ بها فادح ، ولكنها ترجحه في نفس المؤمن ، وعند الله . وهي أمانة لا يؤتمن عليها إلا من يفديها بحياته وهانت الحياة وهان كل ما فيها من نعيم .

« ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ، ثم جاهدوا وصبروا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم . يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها . وتوفى كل نفس ما عملت ، وهم لا يظلمون » .

وقد كانوا من ضعاف العرب ، الذين فتنهم المشركون الطغاة عن دينهم بالعذاب وغيره . ولكنهم هاجروا بعد ذلك عند ما أمكنتهم الفرصة ، وحسن إسلامهم ، وجاهدوا في سبيل الله ، صابرين على تكاليف الدعوة . فالله يبشرهم بأنه سيغفر لهم ويرحمهم « إن ربك من بعدها لغفور رحيم » .

ذلك يوم تشغل كل نفس بأمرها ، لا تلتفت إلى سواها ؛ « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها » وهو تعبير يلقي ظل الهول الذي يشغل كل امرىء بنفسه ، يجادل عنها لعلها تنجو من العذاب . ولا غناء في انشغال ولا جدال . إنما هو الجزاء . كل نفس وما كسبت . « وهم لا يظلمون » . .

---

(١) ابن كثير في التفسير .

Marfat.com

«وَضَرَبَ ٱللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللهِ، فَأَذَاقَهَا ٱللهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ، فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ.

« فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللهُ حَلَالًا طَيِّبًا، وَٱشْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللهِ بِهِ؛ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ: هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ، إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

« وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ؛ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ، ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ.

« إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلهِ حَنِيفًا، وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

« ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ، وَجَادِلْهُمْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَٱصْبِرْ، وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَٱلَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » ﴿١٢٨﴾

Marfat.com

سبق أن ضرب الله فى هـذه السورة مثلين لتقريب حقيقة من حقائق العقيدة . وهو يضرب هنا مثلا لتصوير حال مكة ، وقومها المشركين ، الذين جحدوا نعمة الله عليهم . لينظروا المصير الذى يتهددهم من خلال المثل الذى يضربه لهم .

ومن ذكر النعمة فى المثل ، وهى نعمة الرزق الرغد مع الأمن والطمأنينة ينتقل السياق بهم إلى الطيبات التى يحرمونها عليهم اتباعا لأوهام الوثنية ، وقد أحلها الله لهم ، وحدد المحرمات وبينها وليست هذه منها . وذلك لون من الكفر بنعمة الله ، وعدم القيام بشكرها . يتهددهم بالعذاب الأليم من أجله ، وهو افتراء على الله لم ينزل به شريعة .

وبمناسبة ماحرم على المسلمين من الخبائث ، يشير إلى ماحرم على اليهود من الطيبات . بسبب ظلمهم . جعل هـذا التحريم عقوبة لهم على عصيانهم ولم يكن محرما على آبائهم فى عهد إبراهيم الذى كان أمة قانتا لله حنيفا ، ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ، فكانت حلالا له الطيبات ولبنيه من بعده ، حتى حرم الله بعضها على اليهود فى صورة عقوبة لهم خاصة . ومن تاب بعد جهالته فالله غفور رحيم .

ثم جاء دين محمد امتدادا واتباعا لدين إبراهيم ، فعادت الطيبات حلالا كلها . وكذلك السبت الذى منع فيه اليهود من الصيد . فإنما السبت على أهله الذين اختلفوا فيه ففريق كف عن الصيد وفريق نقض عهده فمسخه الله وانتكس عن مستوى الإنسانية الكريم .

وتختم السورة عند هذه المناسبة بالأمر إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . وأن يجادلهم بالتى هى أحسن . وأن يلتزم قاعدة العدل فى رد الاعتداء بمثله دون تجاوز . . والصبر والعفو خير . والعاقبة بعد ذلك للمتقين المحسنين لأن الله معهم ، ينصرهم ويرعاهم ويهديهم طريق الخير والفلاح .

***

«وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت

Marfat.com

بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه ، فأخذهم العذاب وهم ظالمون » ..

وهي حال أشبه شيء بحال مكة . جعل الله فيها البيت ، وجعلها بلدا حراما من دخله فهو آمن مطمئن ، لا تمتد إليه يد ولو كان قاتلا ، ولا يجرؤ أحد على إيذائه وهو في جوار بيت الله الكريم . وكان الناس يتخطفون من حول البيت وأهل مكة في حراسته وحمايته آمنون مطمئنون . كذلك كان رزقهم يأتيهم هينا هنيئا من كل مكان مع الحجيج ومع القوافل الآمنة ، مع أنهم في واد قفر جدب غير ذي زرع ، فكانت تجبى إليهم ثمرات كل شيء فيتذوقون طعم الأمن وطعم الرغد منذ دعوة إبراهيم الخليل .

ثم إذا رسول منهم ، يعرفونه صادقا أمينا ، ولا يعرفون عنه ما يشين ، يبعثه الله فيهم رحمة لهم وللعالمين ، دينه دين إبراهيم باني البيت الذي ينعمون في جواره بالأمن والطمأنينة والعيش الرغيد ؛ فإذا هم يكذبونه ، ويفترون عليه الافتراءات ، وينزلون به وبمن اتبعوه الأذى . وهم ظالمون .

والمثل الذي يضربه الله لهم منطبق على حالهم ، وعاقبة المثل أمامهم . مثل القرية التي كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، وكذبت رسوله « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » وأخذ قومها العذاب وهم ظالمون .

ويجسم التعبير الجوع والخوف فيجعله لباسا ؛ ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقا ، لأن الذوق أعمق أثرا في الحس من مساس اللباس للجلد . وتتداخل في التعبير استجابات الحواس فتضاعف مس الجوع والخوف لهم ولذعه وتأثيره وتغلغله في النفوس . لعلهم يشفقون من تلك العاقبة التي تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون .

وفي ظل هذا المثل الذي تخايل فيه النعمة والرزق ، كما يخايل فيه المنع والحرمان ، يأمرهم بالأكل مما أحل لهم من الطيبات وشكر الله على نعمته إن كانوا يريدون أن يستقيموا على الإيمان الحق بالله ، وأن يخلصوا له العبودية خالصة من الشرك ، الذي يوحي إليهم بتحريم بعض الطيبات على أنفسهم باسم الآلهة المدعاة :

« فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون » .

Marfat.com

Marfat.com

ويحدد لهم المحرمات على سبيل الحصر . وليس منها مايحرمونه على أنفسهم من رزق الله من بحيرة أو سائبة أو وصيلة أو حام :

« إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به » .. وهى محرمة إما لأن فيها أذى للجسم والحس كالميتة والدم ولحم الخنزير ، أو أذى للنفس والعقيدة كالذى توجه به ذابحه لغير الله . « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم » فهذا الدين يسر لا عسر . ومن خاف على نفسه الموت أو المرض من الجوع والظمأ فلا عليه أن يتناول من هذه المحرمات قدر مايدفع الضرر (على خلاف فقهى ذكرناه من قبل) غير باغ على مبدأ التحريم ولامتجاوز قدر الضرورة التى أباحت المحظور .

ذلك حد الحلال والحرام الذى شرعه الله فى المطعومات ، فلا تخالفوه اتباعا لأوهام الوثنية ، ولا تكذبوا فتدعوا تحريم ماأحله الله . فالتحريم والتحليل لا يكونان إلا بأمر من الله . فهما تشريع . والتشريع لله وحده لا لأحد من البشر . وما يدعى أحد لنفسه حق التشريع بدون أمر من الله إلا مفتر ، والمفترون على الله لا يفلحون :

« ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب : هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب أليم » ..

لا تقولوا للكذب الذى تصفه ألسنتكم وتحكيه : هذا حلال وهذا حرام . فهذا حلال وهذا حرام حين تقولونها بلا نص هى الكذب عينه ، الذى تفترونه على الله . والذين يفترون على الله الكذب ليس لهم إلا المتاع القليل فى الدنيا ومن ورائه العذاب الأليم ، والخيبة والخسران . .

ثم يجرؤ ناس بعد ذلك على التشريع بغير إذن من الله ، وبغير نص فى شريعته يقوم عليه ما يشرعونه من القوانين ، وينتظرون أن يكون لهم فلاح فى هذه الأرض أو عند الله !

* * *

فأما ماحرمه الله على اليهود فى قوله من قبل فى سورة الأنعام . « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما ، أو الحوايا أو مااختلط بعظم » فقد كان عقوبة خاصة بهم لا تسرى على المسلمين :

« وعلى الذين هادوا حرمنا ماقصصنا عليك من قبل ، وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ، ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا . إن ربك من بعدها لغفور رحيم » . .

ولقد استحق اليهود تحريم هذه الطيبات عليهم بسبب تجاوزهم الحد ومعصيتهم لله . فكانوا ظالمين لأنفسهم لم يظلمهم الله . فمن تاب ممن عمل السوء بجهالة ولم يصر على المعصية ، ولم يلج فيها حتى يوافيه الأجل ؛ ثم أتبع التوبة القلبية بالعمل الصالح فإن غفران الله يسعه ورحمته تشمله . والنص عام يشمل التائبين العاملين من اليهود المذنبين وغيرهم إلى يوم الدين .

* * *

وبمناسبة ماحرم على اليهود خاصة ، ومناسبة ادعاء مشركى قريش أنهم على ملة إبراهيم فيما يحرمونه على أنفسهم ويجعلونه للآلهة ، يعرج السياق على إبراهيم - عليه السلام - يجلو حقيقة ديانته ، ويربط بينها وبين الدين الذى جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - ويبين ماختص به اليهود من المحظورات التى لم تكن على عهد ابراهيم .

« إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ؛ وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ، وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

والقرآن الكريم يرسم إبراهيم - عليه السلام - نموذجا للهداية والطاعة والشكر والإنابة لله . ويقول عنه هنا : إنه كان أمة . واللفظ يحتمل أنه يعدل أمة كاملة بما فيها من خير وطاعة وبركة . ويحتمل أنه كان إماما يقتدى به فى الخير . وورد فى التفسير المأثور هذا المعنى وذاك . وهما قريبان فالإمام الذى يهدى إلى الخير هوقائد أمة وله أجره وأجر من عمل بهدايته فكأنه أمة من الناس فى خيره وثوابه لا فرد واحد . « قانتا لله » طائعا خاشعا عابدا «حنيفا» متجها إلى الحق مائلا إليه « ولم يك من المشركين » فلا يتعلق به ولا يتمسح فيه المشركون ! « شاكرا لأنعمه » بالقول والعمل . لا كهؤلاء المشركين الذين يجحدون نعمة الله قولا ،

Marfat.com

ويكفرونها عملا ، ويشركون فى رزقه لهم مايدعون من الشركاء ، ويحرمون نعمة الله عليهم اتباعا للأوهام والأهواء . « اجتباه » اختاره « وهداه إلى صراط مستقيم » هو صراط التوحيد الخالص القويم .

ذلك شأن إبراهيم الذى يتعلق به اليهود ويتمسح به المشركون . « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » فكان ذلك وصل ماانقطع من عقيدة التوحيد ، ويؤكدها النص من جديد على أن إبراهيم « ما كان من المشركين » فالصلة الحقيقية هى صلة الدين الجديد . فأما تحريم السبت فهو خاص باليهود الذين اختلفوا فيه ، وليس من ديانة إبراهيم ، وليس كذلك من دين محمد السائر على نهج إبراهيم : « إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه » وأمرهم موكول إلى الله « وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

* * *

ذلك بيان المشتبهات فى العلاقة بين عقيدة التوحيد التى جاء بها إبراهيم من قبل ، وكملت فى الدين الأخير ، والعقائد المنحرفة التى يتمسك بها المشركون واليهود . وهو بعض ماجاء هذا الكتاب لتبيانه . فليأخذ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى طريقه يدعو إلى سبيل ربه دعوة التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل المخالفين فى العقيدة بالتى هى أحسن . فإذا اعتدوا عليه وعلى المسلمين عاقبهم بمثل مااعتدوا . إلا أن يعفو ويصبر مع المقدرة على العقاب بالمثل ؛ مطمئنا إلى أن العاقبة للمتقين المحسنين . فلا يحزن على من لا يهتدون ، ولا يضيق صدره بمكرهم به وبالمؤمنين :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين . وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله . ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون » ..

على هذه الأسس يرسى القرآن الكريم قواعد الدعوة ومبادئها ، ويعين وسائلها

Marfat.com

وطرائقها ، ويرسم المنهج للرسول الكريم ، وللدعاة من بعده بدينه القويم فلننظر فى دستور الدعوة الذى شرعه الله فى هذا القرآن .

إن الدعوة دعوة إلى سبيل الله . لا لشخص الداعى ولا لقومه . فليس للداعى من دعوته إلا أنه يؤدى واجبه لله ، لا فضل له يتحدث به ، لا على الدعوة ولا على من يهتدون به ، وأجره بعد ذلك على الله .

والدعوة بالحكمة ، والنظر فى أحوال المخاطبين وظروفهم ، والقدر الذى يبينه لهم فى كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها ، والطريقة التى يخاطبهم بها ، والتنويع فى هذه الطريقة حسب مقتضياتها . فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة فى هذا كله وفى سواه .

وبالموعظة الحسنة التى تدخل إلى القلوب برفق ، وتتعمق المشاعر بلطف ، لا بالزجر والتأنيب فى غير موجب ، ولا بفضح الأخطاء التى قد تقع عن جهل أو حسن نية . فإن الرفق فى الموعظة كثيرا مايهدى القلوب الشاردة ، ويؤلف القلوب النافرة ، ويأتى بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ .

وبالجدل بالتى هى أحسن . بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح . حتى يطمئن إلى الداعى ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة فى الجدل ، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق . فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها ، وهى لا تنزل عن الرأى الذى تدافع عنه إلا بالرفق ، حتى لا تشعر بالهزيمة . وسرعان مايختلط على النفس قيمة الرأى وقيمتها هى عند الناس ، فتعتبر التنازل عن الرأى تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها . والجدل بالحسنى هو الذى يطامن من هذه الكبرياء الحساسة ، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة ، وقيمته كريمة ، وأن الداعى لا يقصد إلا كشف الحقيقة فى ذاتها ، والاهتداء إليها . فى سبيل الله ، لا فى سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأى الآخر !

ولكى يطامن الداعية من حماسته واندفاعه يشير النص القرآنى إلى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو الأعلم بالمهتدين . فلا ضرورة للجاجة فى الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله .

Marfat.com

هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر فى دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة. فأما إذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فإن الموقف يتغير، فالاعتداء عمل مادى يدفع بمثله إعزازا لكرامة الحق، ودفعا لغلبة الباطل، على ألا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده إلى التمثيل والتفظيع، فالإسلام دين العدل والاعتدال، ودين السلم والمسالمة، إنما يدفع عن نفسه وأهله البغى ولا يبغى: « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ». وليس ذلك بعيدا عن دستور الدعوة فهو جزء منه. فالدفع عن الدعوة فى حدود القصد والعدل يحفظ لها كرامتها وعزتها، فلا تهون فى نفوس الناس. والدعوة المهينة لا يعتنقها أحد، ولا يثق أنها دعوة الله. فالله لا يترك دعوته مهينة لا تدفع عن نفسها، والمؤمنون بالله لا يقبلون الضيم وهم دعاة لله والعزة لله جميعا. ثم إنهم أمناء على إقامة الحق فى هذه الأرض وتحقيق العدل بين الناس، وقيادة البشرية إلى الطريق القويم، فكيف ينهضون بهذا كله وهم يعاقبون فلا يعاقبون، ويعتدى عليهم فلا يردون ؟!.

ومع تقرير قاعدة القصاص بالمثل، فإن القرآن الكريم يدعو إلى العفو والصبر، حين يكون المسلمون قادرين على دفع الشر ووقف العدوان، فى الحالات التى قد يكون العفو فيها والصبر أعمق أثرا. وأكثر فائدة للدعوة. فأشخاصهم لا وزن لها إذا كانت مصلحة الدعوة تؤثر العفو والصبر. فأما إذا كان العفو والصبر يهينان دعوة الله ويرخصانها، فالقاعدة الأولى هى الأولى.

ولأن الصبر يحتاج إلى مقاومة للانفعال، وضبط للعواطف، وكبت للفطرة، فإن القرآن يصله بالله ويزين عقباه: « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله »... فهو الذى يعين على الصبر وضبط النفس، والاتجاه إليه هو الذى يطامن من الرغبة الفطرية فى رد الاعتداء بمثله والقصاص له بقدره.

ويوصى القرآن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهى وصية لكل داعية من بعده، ألا يأخذه الحزن إذا رأى الناس لا يهتدون، فإنما عليه واجبه يؤديه، والهدى والضلال بيد الله، وفق سنته فى فطرة النفوس واستعداداتها واتجاهاتها ومجاهدتها للهدى أو للضلال. وألا يضيق صدره بمكرهم فإنما هو داعية لله، فالله حافظه من المكر والكيد، لا يدعه للماكرين الكائدين وهو مخلص فى دعوته لا يبتغى من ورائها شيئا لنفسه..

Marfat.com

ولقد يقع به الأذى لامتحان صبره ، ويبطىء عليه النصر لابتلاء ثقته بربه ، ولكن العاقبة مظنونة ومعروفة « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » ومن كان الله معه فلا عليه ممن يكيدون وممن يمكرون .

هذا هو دستور الدعوة إلى الله كما رسمه الله . والنصر مرهون باتباعه كما وعد الله . ومن أصدق من الله ؟ .

انتهى الجزء الرابع عشر ، ويليه الجزء الخامس عشر مبدوءا بسورة الإسراء .

في ظلال القرآن

الجزء الخامس عشر

بقلم

سيد قطب

Marfat.com

Marfat.com

من سورة الإسراء

بسم الله الرحمن الرحيم

Marfat.com

سورة الإسراء مكية

إلا الآيات ٢٦ و٣٢ و٣٣ و٥٧ ومن آية ٧٣ إلى غاية آية ٨٠ فمدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

« سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَى ٱلَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ، لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ① »

« وَآتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ ، وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِى إِسْرَائِيلَ : أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِى وَكِيلًا * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا * وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى ٱلْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ، فَجَاسُوا خِلَالَ ٱلدِّيَارِ ، وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ، وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ، وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ؛ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ، وَلِيَدْخُلُوا ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ، وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ، وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا .

« إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ، وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيرًا * وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً .

« وَيَدْعُو الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا .

« وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ، وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا * وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً .

« مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا * وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ، وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيرًا .

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً * كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا » (٢١)

هذه السورة ــ سورة الإسراء ــ مكية ، وهى تبدأ بتسبيح الله وتنتهى بحمده ؛ وتضم موضوعات شتى معظمها عن العقيدة ؛ وبعضها عن قواعد السلوك الفردى والجماعى وآدابه القائمة على العقيدة ؛ إلى شىء من القصص عن بنى إسرائيل يتعلق بالمسجد الأقصى الذى كان إليه الإسراء . وطرف من قصة آدم وإبليس وتكريم الله للإنسان .

Marfat.com

ولكن العنصر البارز فى كيان السورة ومحور موضوعاتها الأصيل هو شخص الرسول - صلى الله عليه وسلم - وموقف القوم منه فى مكة . وهو القرآن الذى جاء به ، وطبيعة هذا القرآن ، وما يهدى إليه ، واستقبال القوم له . واستطراد بهذه المناسبة إلى طبيعة الرسالة والرسل ، وإلى امتياز الرسالة المحمدية بطابع غير طابع الخوارق الحسية وما يتبعها من هلاك المكذبين بها . وإلى تقرير التبعة الفردية فى الهدى والضلال الاعتقادى ، والتبعة الجماعية فى السلوك العملى فى محيط المجتمع . . كل ذلك بعد أن يعذر الله - سبحانه - إلى الناس ، فيرسل إليهم الرسل بالتبشير والتحذير والبيان والتفصيل « وكل شىء فصلناه تفصيلا » .

ويتكرر فى سياق السورة تنزيه الله وتسبيحه وحمده وشكر آلائه . فنى مطلعها : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ... » وفى أمر بنى إسرائيل بتوحيد الله يذكرهم بأنهم من ذرية المؤمنين مع نوح « إنه كان عبدا شكورا » .. وعند ذكر دعاوى المشركين عن الآلهة يعقب بقوله : « سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . . وفى حكاية قول بعض أهل الكتاب حين يتلى عليهم القرآن : « ويقولون : سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا » . . وتختم السورة بالآية « وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل ، وكبره تكبيرا » .

فى تلك الموضوعات المنوعة حول ذلك المحور الواحد الذى بينا ، يمضى سياق السورة فى أشواط متتابعة .

يبدأ الشوط الأول بالإشارة إلى الإسراء : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » مع الكشف عن حكمة الإسراء « لنريه من آياتنا » .. وبمناسبة المسجد الأقصى يذكر كتاب موسى وماقضى فيه لبنى إسرائيل ، من نكبة وهلاك وتشريد مرتين ، بسبب طغيانهم وإفسادهم مع إنذارهم بثالثة ورابعة « وإن عدتم عدنا » .. ثم يقرر أن الكتاب الأخير - القرآن - يهدى للتى هى أقوم ، بينما الإنسان عجول مندفع لا يملك زمام انفعالاته . ويقرر قاعدة التبعة الفردية فى الهدى والضلال ، وقاعدة التبعة الجماعية فى التصرفات والسلوك .

ويبدأ الشوط الثانى بقاعدة التوحيد ، ليقيم عليها البناء الاجتماعى كله وآداب العمل والسلوك فيه ، ويشدها إلى هذا المحور الذى لا يقوم بناء الحياة إلا مستندا إليه .

Marfat.com

Marfat.com

ويتحدث فى الشوط الثالث عن أوهام الوثنية الجاهلية حول نسبة البنات والشركاء إلى الله ، وعن البعث واستبعادهم لوقوعه ، وعن استقبالهم للقرآن وتقولاتهم على الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويأمر المؤمنين أن يقولوا قولا آخر ، ويتكلموا بالتى هى أحسن .

وفى الشوط الرابع يبين لماذا لم يرسل الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - بالخوارق فقد كذب بها الأولون ، فحق عليهم الهلاك اتباعا لسنة الله ؛ كما يتناول موقف المشركين من إنذار الله لهم فى رؤيا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتكذيبهم وطغيانهم . ويجىء فى هذا السياق طرف من قصة إبليس ، وإعلانه أنه سيكون حربا على ذرية آدم . يجىء هذا الطرف من القصة كأنه كشف لعوامل الضلال الذى يبدو من المشركين . ويعقب عليه بتخويف البشر من عذاب الله ، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم فى تكريم الإنسان ، وما ينتظر الطائعين والعصاة يوم ندعو كل أناس بإمامهم : « فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا . ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

ويستعرض الشوط الأخير كيد المشركين للرسول - صلى الله عليه وسلم - ومحاولة فتنته عن بعض ما أنزل إليه ومحاولة إخراجه من مكة . ولو أخرجوه قسرا - ولم يخرج هو مهاجرا بأمر الله - لحل بهم الهلاك الذى حل بالقرى من قبلهم حين أخرجت رسلها أو قتلتهم . ويأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يمضى فى طريقه يقرأ قرآنه ويصلى صلاته ، ويدعو الله أن يحسن مدخله ومخرجه ويعلن مجىء الحق وزهوق الباطل ، ويعقب بأن هذا القرآن الذى أرادوا فتنته عن بعضه فيه شفاء وهدى للمؤمنين ، بينما الإنسان قليل العلم « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

ويستمر فى الحديث عن القرآن وإعجازه . بينما هم يطلبون خوارق مادية ، ويطلبون نزول الملائكة ، ويقترحون أن يكون للرسول بيت من زخرف أو جنة من نخيل وعنب يفجر الأنهار خلالها تفجيرا ! أو أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا . أو أن يرقى هو فى السماء ثم يأتيهم بكتاب مادى معه يقرأونه ... إلى آخر هذه المقترحات التى يمليها العنت والمكابرة ، لا طلب الهدى والاقتناع . ويرد على هذا كله بأنه خارج عن وظيفة الرسول وطبيعة الرسالة ، ويكل الأمر إلى الله . ويتهكم على أولئك الذين يقترحون هذه الاقتراحات كلها بأنهم لو كانوا يملكون خزائن رحمة الله - على سعتها وعدم نفادها - لأمسكوا خوفا من الإنفاق ! وقد كان حسبهم أن يستشعروا أن الكون وما فيه يسبح لله ، وأن الآيات

Marfat.com

الخارقة قد جاء بها موسى من قبل فلم تؤد إلى إيمان المتعنتين الذين استفزوه من الأرض ، فأخذهم الله بالعذاب والنكال .

وتنتهى السورة بالحديث عن القرآن والحق الأصيل فيه . القرآن الذى نزل مفرقا ليقرأه الرسول على القوم زمنا طويلا بمناسباته ومقتضياته ، وليتأثروا به ويستجيبوا له استجابة حية واقعية عملية . والذى يتلقاه الذين أوتوا العلم من قبله بالخشوع والتأثر إلى حد البكاء والسجود . ويختم السورة بحمد الله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل . كما بدأها بتسبيحه وتنزيهه .

* * *

وقصة الإسراء — ومعها قصة المعراج — إذ كانتا فى ليلة واحـدة — الإسراء من المسجد الحرام فى مكة إلى المسجد الأقصى فى بيت المقدس . والمعراج من بيت المقدس إلى السماوات العلى وسدرة المنتهى ، وذلك العالم الغيبى المجهول لنا . . هذه القصة جاءت فيها روايات شتى ؛ وثار حولها جدل كثير . ولا يزال إلى اليوم يثور .

وقد اختلف فى المكان الذى أسرى منه ، فقيل هو المسجد الحرام بعينه — وهو الظاهر — وروى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — « بينا أنا فى المسجد فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتانى جبريل عليه السلام بالبراق » . وقيل : أسرى به من دار أم هانىء بنت أبى طالب . والمراد بالمسجد الحرام الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به . وعن ابن عباس : الحرم كله مسجد .

وروى أنه كان نائما فى بيت أم هانىء بعد صلاة العشاء فأسرى به ورجع من ليلته ، وقص القصة على أم هانىء وقال : « مثل لى النبيون فصليت بهم » ثم قام ليخرج إلى المسجد ، فتشبثت أم هانىء بثوبه ، فقال : « مالك ؟ » قالت : أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم . قال : « وإن كذبونى » . فخرج فجلس إليه أبو جهل ، فأخبره رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بحديث الإسراء . فقال أبو جهل : يامعشر بنى كعب ابن لؤى هلم . فحدثهم ، فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وإنكارا ؛ وارتد ناس ممن كان آمن به ؛ وسعى رجال إلى أبى بكر — رضى الله عنه — فقال : أوقال ذلك ؟ قالوا نعم . قال : فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : فتصدقه فى أن يأتى فى الشام فى ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح

قال : نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك . أصدقه بخبر السماء ! فسمى الصديق . وكان منهم من سافر إلى بيت المقدس فطلبوا إليه وصف المسجد ، فجلى له ، فطفق ينظر إليه وينعته لهم ، فقالوا : أما النعت فقد أصاب . فقالوا : أخبرنا عن عيرنا . فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها ؛ وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق . فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية — لمراقبة مقدم العير — فقال قائل منهم : هذه والله الشمس قد شرقت . فقال آخر : وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق ، كما قال محمد . . ثم لم يؤمنوا ! . . وفى الليلة ذاتها كان العروج به إلى السماء من بيت المقدس .

واختلف فى أن الإسراء كان فى اليقظة أم فى المنام . فعن عائشة — رضى الله عنها — أنها قالت : والله ما فقد جسد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولكن عرج بروحه . وعن الحسن كان فى المنام رؤيا رآها . وفى أخبار أخرى أنه كان بروحه وجسمه ، وأن فراشه — عليه الصلاة والسلام — لم يبرد حتى عاد إليه .

والراجح من مجموع الروايات أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ترك فراشه فى بيت أم هانىء إلى المسجد فلما كان فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان أسرى به وعرج . ثم عاد إلى فراشه قبل أن يبرد .

على أننا لا نرى محلا لذلك الجدل الطويل الذى ثار قديما والذى يثور حديثا حول طبيعة هذه الواقعة المؤكدة فى حياة الرسول — صلى الله عليه وسلم — والمسافة بين الإسراء والمعراج بالروح أو بالجسم ، وبين أن تكون رؤيا فى المنام أو رؤية فى اليقظة .. المسافة بين هذه الحالات كلها ليست بعيدة ؛ ولا تغير من طبيعة هذه الواقعة شيئا وكونها كشفا وتجلية للرسول — صلى الله عليه وسلم — عن أمكنة بعيدة وعوالم بعيدة فى لحظة خاطفة قصيرة .. والذين يدركون شيئا من طبيعة القدرة الإلهية ومن طبيعة النبوة لا يستغربون فى الواقعة شيئا . فأمام القدرة الإلهية تتساوى جميع الأعمال التى تبدو فى نظر الإنسان وبالقياس إلى قدرته وإلى تصوره متفاوتة السهولة والصعوبة ، حسب ما اعتاده ومارآه . والمعتاد المرئى فى عالم البشر ليس هو الحكم فى تقدير الأمور بالقياس إلى قدرة الله . أما طبيعة النبوة فهى اتصال بالملأ الأعلى — على غير قياس أو عادة لبقية البشر — وهذه التجلية لمكان بعيد ، أو عالم بعيد ؛ والوصول إليه بوسيلة معلومة أو مجهولة ليست أغرب من الاتصال بالملأ الأعلى والتلقى عنه . وقد صدق أبو بكر — رضى الله عنه — وهو يرد المسألة المستغربة المستهولة عند القوم إلى بساطتها وطبيعتها فيقول : إنى لأصدقه بأبعد من ذلك . أصدقه بخبر السماء !

Marfat.com

ومما يلاحظ ـ بمناسبة هذه الواقعة وتبين صدقها للقوم بالدليل المادى الذى طلبوه يومئذ فى قصة العير وصفتها ـ أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يسمع لتخوف أم هانىء ـ رضى الله عنها ـ من تكذيب القوم له بسبب غرابة الواقعة . فإن ثقة الرسول بالحق الذى جاء به ، والحق الذى وقع له ، جعلته يصارح القوم بما رأى كائنا ما كان رأيهم فيه . وقد ارتد بعضهم فعلا ، واتخذها بعضهم مادة للسخرية والتشكيك . ولكن هذا كله لم يكن ليقعد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الجهر بالحق الذى آمن به . . وفى هذا مثل لأصحاب الدعوة أن يجهروا بالحق لا يخشون وقعه فى نفوس الناس ، ولا يتملقون به القوم ، ولا يتحسسون مواضع الرضى والاستحسان ، إذا تعارضت مع كلمة الحق تقال .

كذلك يلاحظ أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يتخذ من الواقعة معجزة لتصديق رسالته ، مع إلحاح القوم فى طلب الخوارق ـ وقد قامت البينة عندهم على صدق الإسراء على الأقل ـ ذلك أن هذه الدعوة لا تعتمد على الخوارق ، إنما تعتمد على طبيعة الدعوة ومنهاجها المستمد من الفطرة القويمة ، المتفقة مع المدارك بعد تصحيحها وتقويمها . فلم يكن جهر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالواقعة ناشئاً عن اعتماده عليها فى شىء من رسالته . إنما كان جهرا بالحقيقة المستيقنة له لمجرد أنها حقيقة :

والآن نأخذ فى الدرس الأول على وجه التفصيل :

* * *

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ، لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » . .

تبدأ السورة بتسبيح الله ، أليق حركة نفسية تتسق مع جو الإسراء اللطيف ، وأليق صلة بين العبد والرب فى ذلك الأفق الوضىء .

وتذكر صفة العبودية : « أسرى بعبده » لتقريرها وتوكيدها فى مقام الإسراء والعروج إلى الدرجات التى لم يبلغها بشر ؛ وذلك كى لا تنسى هذه الصفة ، ولا يلتبس مقام العبودية ، بمقام الألوهية ، كما التبسا فى العقائد المسيحية بعد عيسى عليه السلام ، بسبب ما لابس مولده ووفاته ، وبسبب الآيات التى أعطيت له ، فاتخذها بعضهم سببا للخلط بين مقام العبودية ومقام الألوهية . . وبذلك تبقى للعقيدة الإسلامية بساطتها ونصاعتها وتنزيهها للذات الإلهية عن كل شبهة من شرك أو مشابهة ، من قريب أو من بعيد .

Marfat.com

والإسراء من السرى : السير ليلا . فكلمة « أسرى » تحمل معها زمانها . ولا تحتاج إلى ذكره . ولكن السياق ينص على الليل « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا » للتظليل والتصوير - على طريقة القرآن الكريم - فيلقى ظل الليل الساكن ، ويخيم جوه الساجى على النفس ، وهى تتملى حركة الإسراء اللطيفة وتتابعها .

والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير ، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، إلى محمد خاتم النبيين - صلى الله عليه وسلم - وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعا . وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله ، واشتمال رسالته على هذه المقدسات ، وارتباط رسالته بها جميعا . فهى رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان ؛ وتشمل آمادا وآفاقا أوسع من الزمان والمكان ؛ وتتضمن معانى أكبر من المعانى القريبة التى تتكشف عنها للنظرة الأولى .

ووصف المسجد الأقصى بأنه « الذى باركنا حوله » وصف يرسم البركة حافة بالمسجد ، فائضة عليه . وهو ظل لم يكن ليلقيه تعبير مباشر مثل : باركناه . أو باركنا فيه . وذلك من دقائق التعبير القرآنى العجيب .

والإسراء آية صاحبتها آيات : «لنريه من آياتنا» والنقلة العجيبة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى فى البرهة الوجيزة التى لم يبرد فيها فراش الرسول - صلى الله عليه وسلم - أيا كانت صورتها وكيفيتها . . آية من آيات الله ، تفتح القلب على آفاق عجيبة فى هذا الوجود ؛ وتكشف عن الطاقات المخبوءة فى كيان هذا المخلوق البشرى ، والاستعدادات اللدنية التى يتهيأ بها لاستقبال فيض القدرة فى أشخاص المختارين من هذا الجنس ، الذى كرمه الله وفضله على كثير من خلقه ، وأودع فيه هذه الأسرار اللطيفة . . « إنه هو السميع البصير » . . يسمع ويرى كل ما لطف ودق ، وخفى على الأسماع والأبصار من اللطائف والأسرار .

والسياق يتنقل فى آية الافتتاح من صيغة التسبيح لله : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا » إلى صيغة التقرير من الله : « لنريه من آياتنا » إلى صيغة الوصف لله : « إنه هو السميع البصير » وفقا لدقائق الدلالات التعبيرية بميزان دقيق حساس . فالتسبيح يرتفع موجها إلى ذات الله سبحانه . وتقرير القصد من الإسراء يجىء منه تعالى نصا . والوصف بالسمع والبصر يجىء فى صورة الخبر الثابت لذاته الإلهية . وتجتمع هذه الصيغ المختلفة فى الآية الواحدة لتؤدى دلالاتها بدقة كاملة .

* * *

هذا الإسراء آية من آيات الله . وهو نقلة عجيبة بالقياس إلى مألوف البشر .

Marfat.com

والمسجد الأقصى هو طرف الرحلة . والمسجد الأقصى هو قلب الأرض المقدسة التى أسكنها الله بنى إسرائيل ثم أخرجهم منها . فسيرة موسى وبنى إسرائيل تجيء هنا فى مكانها المناسب من سياق السورة فى الآيات التالية :

«وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا ؛ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا . وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار ، وكان وعدا مفعولا . ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال وبنين ، وجعلناكم أكثر نفيرا . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها . فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ماعلوا تتبيرا . عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً » ..

وهذه الحلقة من سيرة بنى إسرائيل لا تذكر فى القرآن إلا فى هذه السورة . وهى تتضمن نهاية بنى إسرائيل التى صاروا إليها ؛ ودالت دولتهم بها . وتكشف عن العلاقة المباشرة بين مصارع الأمم وفشو الفساد فيها ، وفاقا لسنة الله التى ستذكر بعد قليل فى السورة ذاتها . وذلك أنه إذا قدر الله الهلاك لقرية جعل إفساد المترفين فيها سببا لهلاكها وتدميرها .

ويبدأ الحديث فى هذه الحلقة بذكر كتاب موسى ـ التوراة ـ وما اشتمل عليه من إنذار لبنى إسرائيل وتذكير لهم بجدهم الأكبر ـ نوح ـ العبد الشكور ، وآبائهم الأولين الذين حملوا معه فى السفينة ، ولم يحمل معه إلا المؤمنون :

« وآتينا موسى الكتاب ، وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا ، ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا » ..

ذلك الإنذار وهذا التذكير مصداق لوعد الله الذى يتضمنه سياق السورة كذلك بعد قليل . وذلك ألا يعذب الله قوما حتى يبعث إليهم رسولا ينذرهم ويذكرهم .

وقد نص على القصد الأول من إيتاء موسى الكتاب : « هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا » فلا يعتمدوا إلا على الله وحده ، ولا يتجهوا إلا إلى الله وحده . فهذا هو الهدى ، وهذا هو الإيمان . فما آمن ولا اهتدى من اتخذ من دون الله وكيلا .

Marfat.com

Marfat.com

ولقد خاطبهم باسم آبائهم الذين حملهم مع نوح ، وهم خلاصة البشرية على عهد الرسول الأول فى الأرض . خاطبهم بهذا النسب ليذكرهم باستخلاص الله لآبائهم الأولين ، مع نوح العبد الشكور ، وليردهم إلى هذا النسب المؤمن العريق .

ووصف نوحا بالعبودية لهـذا المعنى ولمعنى آخر ، هو تنسيق صفة الرسل المختارين وإبرازها . وقد وصف بها محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قبل . على طريقة التناسق القرآنية فى جو السورة وسياقها .

فى ذلك الكتاب الذى آتاه الله لموسى ليكون هدى لبنى إسرائيل ، أخبرهم بما قضاه عليهم من تدميرهم بسبب إفسادهم فى الأرض . وتكرار هذا التدمير مرتين لتكرر أسبابه من أفعالهم . وأنذرهم بمثله كلما عادوا إلى الإفساد فى الأرض ، تصديقا لسنة الله الجارية التى لا تتخلف :

« وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا » ..

وهذا القضاء إخبار من الله تعالى لهم بما سيكون منهم ، حسب ماوقع فى علمه الإلهى من مآلهم ؛ لا أنه قضاء قهرى عليهم ، تنشأ عنه أفعالهم . فالله سبحانه لا يقضى بالإفساد على أحد « قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء » إنما يعلم الله ماسيكون علمه بما هو كائن . فما سيكون ـ بالقياس إلى علم الله ـ كائن ، وإن كان بالقياس إلى علم البشر لم يكن بعد ، ولم يكشف عنه الستار .

ولقد قضى الله لبنى إسرائيل فى الكتاب الذى آتاه لموسى أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين ، وأنهم سيعلون فى الأرض المقدسة ويسيطرون . وكلما ارتفعوا فاتخذوا الارتفاع وسيلة للإفساد سلط عليهم من عباده من يقهرهم ويستبيح حرماتهم ويدمرهم تدميرا :

« فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار ، وكان وعدا مفعولا » .

فهذه هى الأولى : يعلون فى الأرض المقدسة ، ويصبح لهم فيها قوة وسلطان ، فيفسدون فيها . فيبعث الله عليهم عبادا من عباده أولى بأس شديد ، وأولى بطش وقوة ، يستبيحون الديار، ويروحون فيها ويغدون باستهتار ، ويطأون مافيها ومن فيها بلا تهيب « وكان وعدا مفعولا» لا يخلف ولا يكذب .

Marfat.com

حتى إذا ذاق بنو إسرائيل ويلات الغلب والقهر والذل ؛ فرجعوا إلى ربهم ، وأصلحوا أحوالهم وأفادوا من البلاء المسلط عليهم . وحتى إذا استعلى الفاتحون وغرتهم قوتهم ، فطغوا هم الآخرون وأفسدوا فى الأرض ، أدال الله للمغلوبين من الغالبين ، ومكن للمستضعفين من المستكبرين : « ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا » ..

ثم تتكرر القصة من جديد !

وقبل أن يتم السياق بقية النبوءة الصادقة والوعد المفعول يقرر قاعدة العمل والجزاء :

« إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » ..

القاعدة التى لا تتغير فى الدنيا وفى الأخرى ؛ والتى تجعل عمل الإنسان كله له ، بكل ثماره ونتائجه . وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل ، منه تنتج ، وبه تتكيف ؛ وتجعل الإنسان مسؤولا عن نفسه ، إن شاء أحسن إليها ، وإن شاء أساء ، لا يلومن إلا نفسه حين يحق عليه الجزاء .

فإذا تقررت القاعدة مضى السياق يكمل النبوءة الصادقة :

« فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ماعلوا تتبيرا » ..

ويحذف السياق ما يقع من بنى إسرائيل بعد الكرة من إفساد فى الأرض ، اكتفاء بذكره من قبل : « لتفسدن فى الأرض مرتين » ويثبت مايسلطه عليهم فى المرة الآخرة : « فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم » بما يرتكبونه معهم من نكال يملأ النفوس بالإساءة حتى تفيض على الوجوه ، أو بما يجبهون به وجوههم من مساءة وإذلال . ويستبيحون المقدسات ويستهينون بها : « وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » ويدمرون مايغلبون عليه من مال وديار « وليتبروا ماعلوا تتبيرا » .. وهى صورة للدمار الشامل الكامل الذى يطغى على كل شىء ، والذى لا يبقى على شىء .

ولقد صدقت النبوءة ووقع الوعد ، فسلط الله على بنى إسرائيل من قهرهم أول مرة ، ثم سلط عليهم من شردهم فى الأرض ، ودمر مملكتهم فيها تدميرا .

ولا ينص القرآن على جنسية هؤلاء الذين سلطهم على بنى إسرائيل ، لأن النص عليها لا يزيد فى العبرة شيئا . والعبرة هى المطلوبة هنا . وبيان سنة الله فى الخلق هو المقصود .

Marfat.com

ويعقب السياق على النبوءة الصادقة والوعد المفعول ، بأن هذا الدمار قد يكون طريقا للرحمة : « عسى ربكم أن يرحمكم » إن أفدتم منه عبرة .

فأما إذا عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد فى الأرض فالجزاء حاضر والسنة ماضية : « وإن عدتم عدنا » ..

ولقد عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها . ثم عادوا إلى الإفساد فسلط عليهم عبادا آخرين ، حتى كان العصر الحديث فسلط عليهم « هتلر » .. ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد فى صورة « إسرائيل » التى أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات . وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، تصديقا لوعد الله القاطع ، وفاقا لسنته التى لا تتخلف .. وإن غدا لناظره قريب !

ويختم السياق الآية بمصير الكافرين فى الآخرة لما بينه وبين مصير المفسدين من مشاكلة :

« وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » .. تحصرهم فلا يفلت منهم أحد ؛ وتتسع لهم فلا يند عنها أحد .

* * *

ومن هذه الحلقة من سيرة بنى إسرائيل ، وكتابهم الذى آتاه الله لموسى ليهتدوا به فلم يهتدوا ؛ بل ضلوا فهلكوا .. ينتقل السياق إلى القرآن . القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم :

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما » ..

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » ..

هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم ، فيشمل الهدى أقواما وأجيالا بلا حدود من زمان أو مكان ؛ ويشمل مايهديهم إليه كل منهج وكل طريق ، وكل خير يهتدى إليه البشر فى كل زمان ومكان .

يهدى للتى هى أقوم فى عالم الضمير والشعور ، بالعقيدة الواضحة البسيطة التى لا تعقيد فيها ولا غموض ، والتى تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة ، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء ، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية فى تناسق واتساق .

ويهدى للتى هى أقوم فى التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله ، فإذا هى كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التى لا تنفصم ، متطلعة إلى أعلى وهى مستقرة على الأرض ، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله ، ولو كان هذا العمل متاعا واستمتاعا بالحياة .

ويهدى للتى هى أقوم فى عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة ، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء . ولا تسهل وتترخص حتى تشيع فى النفس الرخاوة والاستهتار . ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال .

ويهدى للتى هى أقوم فى علاقات الناس بعضهم ببعض : أفرادا وأزواجا ، وحكومات وشعوبا ، ودولا وأجناسا ، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التى لا تتأثر بالرأى والهوى ؛ ولا تميل مع المودة والشنآن ؛ ولا تصرفها المصالح والأغراض . الأسس التى أقامها العليم الخبير لخلقه ، وهو أعلم بمن خلق ، وأعرف بما يصلح لهم فى كل أرض وفى كل جيل فيهديهم للتى هى أقوم فى نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولى اللائق بعالم الإنسان .

ويهدى للتى هى أقوم فى تبنى الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها ، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماتها فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية فى سلام ووئام .

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » . . « ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما » فهذه هى قاعدته الأصيلة فى العمل والجزاء . فعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم بناءه . فلا إيمان بلا عمل ، ولا عمل بلا إيمان . الأول مبتور لم يبلغ تمامه ، والثانى مقطوع لا ركيزة له . وبهما معا تسير الحياة على التى هى أقوم . . وبهما معا تتحقق الهداية بهذا القرآن .

فأما الذين لا يهتدون بهدى القرآن ، فهم متروكون لهوى الإنسان . الإنسان العجول الجاهل بما ينفعه وما يضره ، المندفع الذى لا يضبط انفعالاته ولو كان من ورائها الشر له :

« ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا » ..

ذلك أنه لا يعرف مصائر الأمور وعواقبها . ولقد يفعل الفعل وهو شر ، ويعجل به على

Marfat.com

نفسه وهو لا يدرى . أو يدرى ولكنه لا يقدر على كبح جماحه وضبط زمامه .. فأين هذا من هدى القرآن الثابت الهادىء الهادى ؟ ألا إنهما طريقان مختلفان : شتان شتان . هدى القرآن وهوى الإنسان !

* * *

ومن الإشارة إلى الإسراء وما صاحبه من آيات ؛ والإشارة إلى نوح ومن حملوا معه من المؤمنين ؛ والإشارة إلى قصة بنى إسرائيل وما قضاه الله لهم فى الكتاب ، وما يدل عليه هذا القضاء من سنن الله فى العباد ، ومن قواعد العمل والجزاء ؛ والإشارة إلى الكتاب الأخير الذى يهدى للتى هى أقوم ..

من هذه الإشارات إلى آيات الله التى أعطاها للرسل ينتقل السياق إلى آيات الله الكونية فى هذا الوجود ، يربط بها نشاط البشر وأعمالهم ، وجهدهم وجزاءهم ، وكسبهم وحسابهم ،فإذا نواميس العمل والجزاء والكسب والحساب مرتبطة أشد ارتباط بالنواميس الكونية الكبرى، محكومة بالنواميس ذاتها ، قائمة على قواعد وسنن لا تتخلف ، دقيقة منظمة دقة النظام الكونى الذى يصرف الليل والنهار ؛ مدبرة بإرادة الخالق الذى جعل الليل والنهار :

« وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ، لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شىء فصلناه تفصيلا ؛ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا . من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا . من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ؛ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » ..

فالناموس الكونى الذى يحكم الليل والنهار ، يرتبط به سعى الناس للكسب . وعلم السنين والحساب . ويرتبط به كسب الإنسان من خير وشر وجزاؤه على الخير والشر . وترتبط به عواقب الهدى والضلال ، وفردية التبعة فلا تزر وازرة وزر أخرى . ويرتبط به

Marfat.com

وعد الله ألا يعذب حتى يبعث رسولا . وترتبط به سنة الله فى إهلاك القرى بعد أن يفسق فيها مترفوها . وترتبط به مصائر الذين يطلبون العاجلة والذين يطلبون الآخرة وعطاء الله لهؤلاء وهؤلاء فى الدنيا والآخرة .. كلها تمضى وفق ناموس ثابت وسنن لا تتبدل ، ونظام لا يتحول . فليس شىء من هذا كله جزافا .

« وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شىء فصلناه تفصيلا » ..

والليل والنهار آيتان كونيتان كبيرتان تشيان بدقة الناموس الذى لا يصيبه الخلل مرة واحدة ، ولا يدركه التعطل مرة واحدة ، ولا ينى يعمل دائبا بالليل والنهار . فما المحو المقصود هنا وآية الليل باقية كآية النهار ؟ يبدو - والله أعلم - أن المقصود به ظلمة الليل التى تخفى فيها الأشياء وتسكن فيها الحركات والأشباح .. فكأن الليل ممحو إذا قيس إلى ضوء النهار وحركة الأحياء فيه والأشياء ؛ وكأنما النهار ذاته مبصر بالضوء الذى يكشف كل شىء فيه للأبصار .

ذلك المحو لليل والبروز للنهار « لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب » . . فالليل للراحة والسكون والجمام ، والنهار للسعى والكسب والقيام ، ومن المخالفة بين الليل والنهار يعلم البشر عدد السنين ، ويعلمون حساب المواعيد والفصول والمعاملات .

« وكل شىء فصلناه تفصيلا » فليس شىء وليس أمر فى هذا الوجود متروكا للمصادفة والجزاف . ودقة الناموس الذى يصرف الليل والنهار ناطقة بدقة التدبير والتفصيل ، وهى عليه شاهد ودليل .

بهذا الناموس الكونى الدقيق يرتبط العمل والجزاء .

« وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » .

وطائر كل إنسان مايطير له من عمله ، أى مايقسم له من العمل ، وهو كناية عما يعمله . وإلزامه له فى عنقه تصوير للزومه إياه وعدم مفارقته ؛ على طريقة القرآن فى تجسيم المعانى وإبرازها فى صورة حسية. فعمله لا يتخلف عنه وهو لا يملك التملص منه . وكذلك التعبير بإخراج كتابه منشورا يوم القيامة . فهو يصور عمله مكشوفا ، لا يملك إخفاءه ، أو تجاهله أو المغالطة فيه . ويتجسم هذا المعنى فى صورة الكتاب المنشور ، فإذا هو أعمق أثرا فى النفس وأشد تأثيرا فى الحس ؛ وإذا الخيال البشرى يلاحق ذلك الطائر ويلحظ هذا الكتاب فى

Marfat.com

فى فزع طائر من اليوم العصيب ، الذى تتكشف فيه الخبايا والأسرار ، ولا يحتاج إلى شاهد وحسيب : « اقرأ كتابك . كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

وبذلك الناموس الكونى الدقيق ترتبط قاعدة العمل والجزاء :

« من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى » ..

فهى التبعة الفردية التى تربط كل إنسان بنفسه ؛ إن اهتدى فلها ، وإن ضل فعليها . وما من نفس تحمل وزر أخرى ، وما من أحد يخفف حمل أحد . إنما يسأل كل عن عمله ، ويجزى كل بعمله ولا يسأل حميم حميما ..

وقد شاءت رحمة الله ألا يأخذ الإنسان بالآيات الكونية المبثوثة فى صفحات الوجود ، وألا يأخذه بعهد الفطرة الذى أخذه على بنى آدم فى ظهور آبائهم[1] ، إنما يرسل اليهم الرسل منذرين ومذكرين : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » وهى رحمة من الله أن يعذر إلى العباد قبل أن يأخذهم بالعذاب .

كذلك تمضى سنة الله فى إهلاك القرى وأخذ أهلها فى الدنيا ، مرتبطة بذلك الناموس الكونى الذى يصرف الليل والنهار :

«وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا» .

والمترفون فى كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة ، فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة ، حتى تترهل نفوسهم وتأسن ، وترتع فى الفسق والمجانة ، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات ، وتلغ فى الأعراض والحرمات ، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا فى الأرض فسادا ، ونشروا الفاحشة فى الأمة وأشاعوها ، وأرخصوا القيم العليا التى لا تعيش الشعوب إلا بها ولها . ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخى ، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها ، فتهلك وتطوى صفحتها .

والآية تقرر سنة الله هذه . فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك ، فكثر فيها المترفون ، فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم ، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها ، فعم فيها الفسق ، فتحللت وترهلت ، فحقت عليها سنة الله ، وأصابها الدمار والهلاك . وهى المسؤولة عما يحل بها لأنها لم تضرب على أيدى المترفين ، ولم تصلح من نظامها الذى يسمح

---

(١) يراجع الجزء الأول والجزء التاسع

Marfat.com

بوجود المترفين . فوجود المترفين ذاته هو السبب الذى من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا ، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها مااستحقت الهلاك ، وما سلط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك .

إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف ، وسننا لا تتبدل ، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتنفذ إرادة الله وتحق كلمته . والله لايأمر بالفسق ، لأن الله لا يأمر بالفحشاء . ولكن وجود المترفين فى ذاته ، دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها ، وسارت فى طريق الانحلال، وأن قدر الله سيصيبها جزاء وفاقا . وهى التى تعرضت لسنة الله بسماحها للمترفين بالوجود والحياة .

فالإرادة هنا ليست إرادة للتوجيه القهرى الذى ينشىء السبب ، ولكنها ترتب النتيجة على السبب . الأمر الذى لامفر منه لأن السنة جرت به . والأمر ليس أمرا توجيهيا إلى الفسق ، ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترتبة على وجود المترفين وهى الفسق .

وهنا تبرز تبعة الجماعة فى ترك النظم الفاسدة تنشىء آثارها التى لا مفر منها . وعدم الضرب على أيدى المترفين فيها كى لا يفسقوا فيها فيحق عليها القول فيدمرها تدميرا .

هذه السنة قد مضت فى الأولين من بعد نوح ، قرنا بعد قرن ، كلما فشت الذنوب فى أمة انتهت بها إلى ذلك المصير ، والله هو الخبير بذنوب عباده البصير :

« وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبير بصيرا » .

* * *

وبعد فإن من أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها ، فلا يتطلع إلى أعلى من الأرض التى يعيش فيها ، فإن الله يعجل له حظه فى الدنيا حين يشاء ، ثم تنتظره فى الآخرة جهنم عن استحقاق . فالذين لا يتطلعون إلى أبعد من هذه الأرض يتلطخون بوحلها ودنسها ورجسها ، ويستمتعون فيها كالأنعام ، ويستسلمون فيها للشهوات والنزعات . ويرتكبون فى سبيل تحصيل اللذة الأرضية مايؤدى بهم إلى جهنم :

« من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ، وجعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا »

مذموما بما ارتكب ، مدحورا بما انتهى إليه من عذاب .

Marfat.com

Marfat.com

« ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكورا » .

والذى يريد الآخرة لا بد أن يسعى لها سعيها ، فيؤدى تكاليفها ، وينهض بتبعاتها ، ويقيم سعيه لها على الإيمان . وليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل . والسعى للآخرة لا يحرم المرء من لذائذ الدنيا الطيبة ، إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى فلا يكون المتاع فى الأرض هو الهدف والغاية . ولاضير بعد ذلك من المتاع حين يملك الإنسان نفسه ، فلايكون عبدا لهذا المتاع .

وإذا كان الذى يريد العاجلة ينتهى إلى جهنم مذموما مدحورا ، فالذى يريد الآخرة ويسعى لها سعيها ينتهى إليها مشكورا يتلقى التكريم فى الملأ الأعلى جزاء السعى الكريم لهدف كريم ، وجزاء التطلع إلى الأفق البعيد الوضىء .

إن الحياة للأرض حياة تليق بالديدان والزواحف والحشرات والهوام والوحوش والأنعام. فأما الحياة للآخرة فهى الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله ، الذى خلقه فسواه ، وأودع روحه ذلك السر الذى ينزع به إلى السماء وإن استقرت على الأرض قدماه .

على أن هؤلاء وهؤلاء إنما ينالون من عطاء الله . سواء منهم من يطلب الدنيا فيعطاها ومن يطلب الآخرة فيلقاها . وعطاء الله لا يحظره أحد ولا يمنعه ، فهو مطلق تتوجه به المشيئة حيث تشاء :

« كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك . وما كان عطاء ربك محظورا » .

والتفاوت فى الأرض ملحوظ بين الناس بحسب وسائلهم وأسبابهم واتجاهاتهم وأعمالهم ، ومجال الأرض ضيق ورقعة الأرض محدودة . فكيف بهم فى المجال الواسع وفى المدى المتطاول. كيف بهم فى الآخرة التى لا تزن فيها الدنيا كلها جناح بعوضة ؟

« انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » .

فمن شاء التفاوت الحق ، ومن شاء التفاضل الضخم ، فهو هناك فى الآخرة . هنالك فى الرقعة الفسيحة ، والآماد المتطاولة التى لا يعلم حدودها إلا الله . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون لا فى متاع الدنيا القليل الهزيل . . .

Marfat.com

« لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ، وَقُلْ : رَبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا .

« رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ، إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا .

« وَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ، وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ ٱلشَّيَاطِينِ ؛ وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا ، فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا .

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُوراً * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا .

« وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً * وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا * وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي ٱلْقَتْلِ ، إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً .

« وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ؛ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا .

« وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا .

« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ

Marfat.com

كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا . وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا .

« كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا .

« ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا » ٣٩

في الدرس الماضى ربطت قواعـد العمل والجزاء ، والهدى والضلال ، والكسب والحساب .. إلى الناموس الكونى الذى يصرف الليل والنهار . وفى هذا الدرس تربط قواعد السلوك والآداب والتكاليف الفردية والاجتماعية إلى العقيدة فى وحدة الله ، كما تربط بهذه العروة الوثقى جميع الروابط وتشد إليها كل الوشائج ، فى الأسرة وفى الجماعة وفى الحياة .

وفى الدرس الماضى ورد « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » وورد : « وكل شىء فصلناه تفصيلا » .

فنى هذا الدرس يعرض شيئاً من أوامر هذا القرآن ونواهيه ، مما يهدى للتى هى أقوم ، ويفصل شيئاً مما اشتمل عليه من قواعد السلوك فى واقع الحياة .

يبدأ الدرس بالنهى عن الشرك ، وبإعلان قضاء الله بعبادته وحده . ومن ثم تبدأ الأوامر والتكاليف : بر الوالدين ، وإيتاء ذى القربى والمسكين وابن السبيل ، فى غير إسراف ولا تبذير . وتحريم قتل الذرية ، وتحريم الزنا ، وتحريم القتل . ورعاية مال اليتيم ، والوفاء بالعهد ، وتوفية الكيل والميزان ، والتثبت من الحق ، والنهى عن الخيلاء والكبر . . . وينتهى بالتحذير من الشرك . فإذا الأوامر والنواهى والتكاليف محصورة بين بدء الدرس وختامه ، مشدودة إلى عقيدة التوحيد التى يقوم عليها بناء الحياة .

* * *

« لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولا » .

إنه النهى عن الشرك والتحذير من عاقبته ، والأمر عام ، ولكنه وجه إلى الفرد ليحس كل أحد أنه أمر خاص به ، صادر إلى شخصه . فالاعتقاد مسألة شخصية مسؤول عنها كل فرد بذاته ، والعاقبة التى تنتظر كل فرد يحيد عن التوحيد أن « يقعد » «مذموما» بالفعلة الذميمة التى أقدم عليها ، « مخذولا » لا ناصر له ، ومن لا ينصره الله فهو مخذول وإن كثر ناصروه . ولفظ « فتقعد » يصور هيئة المذموم المخذول وقد حط به الخذلان فقعد ، ويلقى ظل الضعف فالقعود هو أضعف هيئات الإنسان وأكثرها استكانة وعجزا ، وهو يلقى كذلك ظل الاستمرار فى حالة النبذ والخذلان ، لأن القعود لا يوحى بالحركة ولا تغير الوضع ، فهو لفظ مقصود فى هذا المكان .

« وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » . .

فهو أمر بتوحيد المعبود بعد النهى عن الشرك . أمر فى صورة قضاء . فهو أمر حتمى حتمية القضاء . ولفظة « قضى » تخلع على الأمر معنى التوكيد ، إلى جانب القصر الذى يفيده النفى والاستثناء « ألا تعبدوا إلا إياه » فتبدو فى جو التعبير كله ظلال التوكيد والتشديد .

فإذا وضعت القاعدة ، وأقيم الأساس ، جاءت التكاليف الفردية والاجتماعية ، ولها فى النفس ركيزة من العقيدة فى الله الواحد ، توحد البواعث والأهداف من التكاليف والأعمال.

والرابطة الأولى بعد رابطة العقيدة، هى رابطة الأسرة ،ومن ثم يربط السياق بر الوالدين بعبادة الله ، إعلاناً لقيمة هذا البر عند الله :

« وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلاتقل لهما : أف ولاتنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

بهذه العبارات الندية ، والصور الموحية ، يستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة فى قلوب الأبناء . ذلك أن الحياة وهى مندفعة فى طريقها بالأحياء ، توجه اهتمامهم القوى إلى الأمام. إلى الذرية . إلى الناشئة الجديدة. إلى الجيل المقبل. وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء . إلى الأبوة . إلى الحياة الولية . إلى الجيل الذاهب ! ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف ، وتتلفت إلى الآباء والأمهات .

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد . إلى التضحية بكل شىء حتى بالذات . وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء فى الحبة فإذا هى فتات ، ويمتص الفرخ كل غذاء

Marfat.com

فى البيضة فإذا هى قشر ؛ كذلك يمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين فإذا هما شيخوخة فانية - إن أمهلهما الأجل - وهما مع ذلك سعيدان!

فأما الأولاد فسرعان ماينسون هذا كله ، ويندفعون بدورهم إلى الأمام . إلى الزوجات والذرية . . وهكذا تندفع الحياة .

ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء . إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ليذكروا واجب الجيل الذى أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف !

وهنا يجىء الأمر بالإحسان إلى الوالدين فى صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد ، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله .

ثم يأخذ السياق فى تظليل الجو كله بأرق الظلال ؛ وفى استجاشة الوجدان بذكريات الطفولة ومشاعر الحب والعطف والحنان :

« إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما » .. والكبر له جلاله ، وضعف الكبر له إيحاؤه ؛ وكلمة « عندك » تصور معنى الالتجاء والاحتماء فى حالة الكبر والضعف . . « فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما » وهى أول مرتبة من مراتب الرعاية والأدب ألا يند من الولد ما يدل على الضجر والضيق ، وما يشى بالإهانة وسوء الأدب .. « وقل لهما قولا كريما » وهى مرتبة أعلى إيجابية أن يكون كلامه لهما يشى بالإكرام والاحترام .. « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة» وهنا يشف التعبير ويلطف ، ويبلغ شغاف القلب وحنايا الوجدان . فهى الرحمة ترق وتلطف حتى لكأنها الذل الذى لا يرفع عينا ، ولا يرفض أمرا . وكأنما للذل جناح يخفضه إيذانا بالسلام والاستسلام . « وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » فهى الذكرى الحانية . ذكرى الطفولة الضعيفة يرعاها الوالدان ، وهما اليوم فى مثلها من الضعف والحاجة إلى الرعاية والحنان . وهو التوجه إلى الله أن يرحمهما فرحمة الله أوسع ، ورعاية الله أشمل ، وجناب الله أرحب . وهو أقدر على جزائهما بما بذلا من دمهما وقلبهما مما لا يقدر على جزائه الأبناء .

قال الحافظ أبو بكر البزار - بإسناده - عن بريدة عن أبيه : أن رجلا كان فى الطواف حاملا أمه يطوف بها فسأل النبى - صلى الله عليه وسلم - هل أديت حقها ؟ قال : لا . ولا بزفرة واحدة .

* * *

ولأن الانفعالات والحركات موصولة بالعقيدة فى السياق ، فإنه يعقب على ذلك برجع الأمر كله لله الذى يعلم النوايا ، ويعلم ماوراء الأقوال والأفعال :

Marfat.com

« ربكم أعلم بما فى نفوسكم ، إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا » .

وجاء هـذا النص قبل أن يمضى فى بقية التـكاليف والواجبات والآداب ليرجع إليه كل قول وكل فعل ؛ وليفتح باب التوبة والرحمة لمن يخطىء أو يقصر ، ثم يرجع فيتوب من الخطأ والتقصير .

وما دام القلب صالحا ، فإن باب المغفرة مفتوح. والأوابون هم الذين كلما أخطأوا عادوا إلى ربهم مستغفرين .

***

ثم يمضى السياق بعد الوالدين إلى ذوى القربى أجمعين؛ ويصل بهم المساكين وابن السبيل ، متوسعا فى القرابات حتى تشمل الروابط الإنسانية بمعناها الـكبير :

« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا ؛ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ، فقل لهم قولا ميسورا » .

والقرآن يجعل لذى القربى والمسـكين وابن السبيل حقا فى الأعناق يوفى بالإنفاق . فليس هو تفضلا من أحد على أحد؛ إنما هو الحق الذى فرضه الله ، ووصله بعبادته وتوحيده . الحق الذى يؤديه المـكلف فيبرىء ذمته ، ويصل المودة بينه وبين من يعطيه ، وإن هو إلا مؤد ما عليه لله .

وينهى القرآن عن التبذير . والتبذير ـ كما يفسره ابن مسعود وابن عباس ـ الإنفاق فى غير حق . وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله فى الحق لم يكن مبذرا ، ولو أنفق مُدًّا فى غير حق كان مبذرا .

فليست هى الـكثرة والقلة فى الإنفاق . إنما هو موضع الإنفاق . ومن ثم كان المبذرون إخوان الشياطين ، لأنهم ينفقون فى الباطل ، وينفقون فى الشر ، وينفقون فى المعصية . فهم رفقاء الشياطين وصحابهم « وكان الشيطان لربه كفورا » لا يؤدى حق النعمة ، كذلك إخوانه المبذرون لا يؤدون حق النعمة ، وحقها أن ينفقوها فى الطاعات والحقوق ، غير متجاوزين ولا مبذرين .

فإذا لم يجد إنسان ما يؤدى به حق ذوى القربى والمساكين وابن السبيل واستحيا أن يواجههم ، وتوجه إلى الله يرجو أن يرزقه ويرزقهم ، فليعدهم إلى ميسرة ،

Marfat.com

وليقل لهم قولا لينا ، فلا يضيق بهم صدره ، ولا يسكت ويدعهم فيحسوا بالضيق فى سكوته ، ففى القول الميسور عوض وأمل وتجمل .

* * *

وبمناسبة التبذير والنهى عنه يأمر بالتوسط فى الإنفاق كافة :

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » . .

والتوازن هو القاعدة الكبرى فى النهج الإسلامى ، والغلو كالتفريط يخل بالتوازن . والتعبير هنا يجرى على طريقة التصوير ؛ فيرسم البخل يداً مغلولة إلى العنق ، ويرسم الإسراف يدا مبسوطة كل البسط لا تمسك شيئاً ، ويرسم نهاية البخل ونهاية الإسراف قعدة كقعدة الملوم المحسور . والحسير فى اللغة الدابة تعجز عن السير فتقف ضعفاً وعجزا . فكذلك البخيل يحسره بخله فيقف . وكذلك المسرف ينتهى به سرفه إلى وقفة الحسير . ملوما فى الحالتين على البخل وعلى السرف ، وخير الأمور الوسط .

ثم يعقب على الأمر بالتوسط بأن الرازق هو الله . هو الذى يبسط فى الرزق ويوسع ، وهو الذى يقدر فى الرزق ويضيق . ومعطى الرزق هو الآمر بالتوسط فى الإنفاق :

« إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا » .

يبسط الرزق لمن يشاء عن خبرة وبصر ، ويقدر الرزق لمن يشاء عن خبرة وبصر . ويأمر بالقصد والاعتدال ، وينهى عن البخل والسرف ، وهو الخبير البصير بالأقوم فى جميع الأحوال؛ وقد أنزل هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم فى جميع الأحوال .

* * *

وكان بعض أهل الجاهلية يقتلون البنات خشية الفقر والإملاق ؛ فلما قرر فى الآية السابقة أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، أتبعه بالنهى عن قتل الأولاد خشية الإملاق فى المكان المناسب من السياق . فما دام الرزق بيد الله ، فلاعلاقة إذن بين الإملاق وكثرة النسل أو نوع النسل ؛ إنما الأمر كله إلى الله . ومتى انتفت العلاقة بين الفقر والنسل من تفكير الناس ، وصححت عقيدتهم من هذه الناحية فقد انتفى الدافع إلى تلك الفعلة الوحشية المنافية لفطرة الأحياء وسنة الحياة :

« ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطئاً كبيرا » . .

Marfat.com

Marfat.com

إن انحراف العقيدة وفسادها ينشىء آثاره فى حياة الجماعة الواقعية ، ولا يقتصر على فساد الاعتقاد والطقوس التعبدية . وتصحيح العقيدة ينشىء آثاره فى صحة المشاعر وسلامتها ، وفى سلامة الحياة الاجتماعية واستقامتها . وهذا المثل من وأد البنات مثل بارز على آثار العقيدة فى واقع الجماعة الإنسانية . وشاهد على أن الحياة لا يمكن إلا أن تتأثر بالعقيدة ، وأن العقيدة لا يمكن أن تعيش فى معزل عن الحياة .

ثم نقف هنا لحظة أمام مثل من دقائق التعبير القرآنى العجيبة .

ففى هـذا الموضع قدم رزق الأبناء على رزق الآباء : « نحن نرزقهم وإياكم » وفى سورة الأنعام قدم رزق الآباء على رزق الأبناء : « نحن نرزقكم وإياهم » . وذلك بسبب اختلاف آخر فى مدلول النصين . فهذا النص : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » : والنص الآخر « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » .

هنا قتـل الأولاد خشية وقوع الفقر بسببهم فقدم رزق الأولاد . وفى الأنعام قتلهم بسبب فقر الآباء فعلا . فقدم رزق الآباء . فكان التقديم والتأخير وفق مقتضى الدلالات التعبيرية هنا وهناك .

ومن النهى عن قتل الأولاد إلى النهى عن الزنا :

« ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » ..

وبين قتل الأولاد والزنا صلة ومناسبة ـ وقد توسط النهى عن الزنا بين النهى عن قتل الأولاد والنهى عن قتل النفس ـ لذات الصلة وذات المناسبة .

إن فى الزنا قتلا من نواحى شتى . إنه قتل ابتداء لأنه إراقة لمادة الحياة فى غير موضعها ، يتبعه غالبا الرغبة فى التخلص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلق أو بعد أن يتخلق ، قبل مولده أو بعد مولده فإذا ترك الجنين للحياة ترك فى الغالب لحياة شريرة ، أو حياة مهينة ، فهى حياة مضيعة فى المجتمع على نحو من الأنحاء . . وهو قتل فى صورة أخرى . قتل للجماعة التى يفشو فيها ، فتضيع الأنساب وتختلط الدماء ، وتذهب الثقة فى العرض والولد ، وتتحلل الجماعة وتتفكك روابطها ، فتنتهى إلى مايشبه الموت بين الجماعات .

وهو قتل للجماعة من جانب آخر ، إذ أن سهولة قضاء الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجية نافلة لا ضرورة لها ، ويجعل الأسرة تبعة لا داعى إليها ، والأسرة هى المحضن الصالح للفراخ الناشئة ، لا تصح فطرتها ولا تسلم تربيتها إلا فيه .

Marfat.com

وما من أمة فشت فيها الفاحشة إلا صارت إلى انحلال ، منذ التاريخ القديم إلى العصر الحديث . وقد يغر بعضهم أن أوربا وأمريكا تملكان زمام القوة المادية اليوم مع فشو هذه الفاحشة فيهما . ولكن آثار هذا الانحلال فى الأمم القديمة منها كفرنسا ظاهرة لاشك فيها . أما فى الأمم الفتية كالولايات المتحدة ، فإن فعلها لم تظهر بعد آثاره بسبب حداثة هذا الشعب واتساع موارده كالشاب الذى يسرف فى شهواته فلا يظهر أثر الإسراف فى بنيته وهو شاب ولكنه سرعان مايتحطم عندما يدلف إلى الكهولة فلا يقوى على احتمال آثار السن ، كما يقوى عليها المعتدلون من أنداده !

والقرآن يحذر من مجرد مقاربة الزنا . وهى مبالغة فى التحرز . لأن الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة ، فالتحرز من المقاربة أضمن . فعند المقاربة من أسبابه لا يكون هناك ضمان .

ومن ثم يأخذ الإسلام الطريق على أسبابه الدافعة ، توقيا للوقوع فيه . . يكره الاختلاط فى غير ضرورة . ويحرم الخلوة . وينهى عن التبرج بالزينة . ويحض على الزواج لمن استطاع ، ويوصى بالصوم لمن لا يستطيع . ويكره الحواجز التى تمنع من الزواج كالمغالاة فى المهور . وينفى الخوف من العيلة والإملاق بسبب الأولاد . ويحض على مساعدة من يبتغون الزواج ليحصنوا أنفسهم . ويوقع أشد العقوبة على الجريمة حين تقع ، وعلى رمى المحصنات الغافلات دون برهان ... إلى آخر وسائل الوقاية والعلاج ، ليحفظ الجماعة الإسلامية من التردى والانحلال .

***

ويختم النهى عن قتل الأولاد وعن الزنا بالنهى عن قتل النفس إلا بالحق :

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل ، إنه كان منصورا » ..

والإسلام دين الحياة ودين السلام ، فقتل النفس عنده كبيرة تلى الشرك بالله ، فالله واهب الحياة ، وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلا بإذنه وفى الحدود التى يرسمها . وكل نفس هى حرم لا يمس ، وحرام إلا بالحق ، وهذا الحق الذى يبيح قتل النفس محدد لا غموض فيه ، وليس متروكا للرأى ولا متأثرا بالهوى . وقد جاء فى الصحيحين أن رسول

Marfat.com

الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزانى المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

فأما الأولى فهى القصاص العادل الذى إن قتل نفسا فقد ضمن الحياة لنفوس « ولكم فى القصاص حياة » . حياة بكف يد الذين يهمون بالاعتداء على الأنفس والقصاص ينتظرهم فيردعهم قبل الإقدام على الفعلة النكراء . وحياة بكف يد أصحاب الدم أن تثور نفوسهم فيثأروا ولا يقفوا عند القاتل ، بل يمضوا فى الثأر ، ويتبادلوا القتل فلا يقف هذا الفريق وذاك حتى تسيل دماء ودماء . وحياة بأمن كل فرد على شخصه واطمئنانه إلى عدالة القصاص ، فينطلق آمنا يعمل وينتج فإذا الأمة كلها فى حياة .

وأما الثانية فهى دفع للفساد القاتل فى انتشار الفاحشة ، وهى لون من القتل على النحو الذى بيناه .

وأما الثالثة فهى دفع للفساد الروحى الذى يشيع الفوضى فى الجماعة ، ويهدد أمنها ونظامها الذى اختاره الله لها ، ويسلمها إلى الفرقة القاتلة . والتارك لدينه المفارق للجماعة إنما يقتل لأنه اختار الإسلام لم يجبر عليه ، ودخل فى جسم الجماعة المسلمة ، واطلع على أسرارها ، فخروجه بعد ذلك عليها فيه تهديد لها . ولو بقى خارجها ما أكرهه أحد على الإسلام . بل لتكفل الإسلام بحمايته إن كان من أهل الكتاب وبإجارته وإبلاغه مأمنه إن كان من المشركين . وليس بعد ذلك سماحة للمخالفين فى العقيدة .

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » .. « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا » . .

تلك الأسباب الثلاثة هى المبيحة للقتل ، فمن قتل مظلوما بغير واحد من تلك الأسباب ، فقد جعل الله لوليه ـ وهو أقرب عاصب إليه ـ سلطانا على القاتل ، إن شاء قتله وإن شاء عفا على الدية ، وإن شاء عفا عنه بلا دية . فهو صاحب الأمر فى التصرف فى القاتل ، لأن دمه له .

وفى مقابل هذا السلطان الكبير ينهاه الإسلام عن الإسراف فى القتل استغلالا لهذا السلطان الذى منحه إياه . والإسراف فى القتل يكون بتجاوز القاتل إلى سواه ممن لا ذنب لهم ـ كما يقع فى الثأر الجاهلى الذى يؤخذ فيه الآباء والإخوة والأبناء والأقارب بغير ذنب إلا أنهم من أسرة القاتل ـ ويكون الإسراف كذلك بالتمثيل بالقاتل ، والولى مسلط على دمه بلا مثلة . فالله يكره المثلة والرسول قد نهى عنها .

« فلا يسرف فى القتـل إنه كان منصورا » يقضى له الله ، ويؤيده الشرع ، وينصره الحاكم . فليكن عادلا فى قصاصه ، وكل السلطات تناصره وتأخذ له بحقه .

وفى تولية صاحب الدم على القصاص من القاتل ، وتجنيد سلطان الشرع وسلطان الحاكم لنصرته تلبية للفطرة البشرية ، وتهدئة للغليان الذى تستشعره نفس الولى . الغليان الذى قد يجرفه ويدفعه إلى الضرب يمينا وشمالا فى حمى الغضب والانفعال على غير هدى . فأما حين يحس أن الله قد ولاه على دم القاتل ، وأن الحاكم مجند لنصرته على القصاص ، فإن ثائرته تهدأ ونفسه تسكن ويقف عند حد القصاص العادل الهادىء .

والإنسان إنسان فلا يطالب بغير ما ركب فى فطرته من الرغبة العميقة فى القصاص . لذلك يعترف الإسلام بهذه الفطرة ويلبيها فى الحدود المأمونة ، ولا يتجاهلها فيفرض التسامح فرضا . إنما هو يدعو إلى التسامح ويؤثره ويحبب فيه ، ويأجر عليه . ولـكن بعد أن يعطى الحق . فولى الدم أن يقتص أو يصفح . وشعور ولى الدم بأنه قادر على كليهما قد يجنح به إلى الصفح والتسامح ، أما شعوره بأنه مرغم على الصفح فقد يهيج نفسه ويدفع به إلى الغلو والجماح !

* * *

وبعد أن ينتهى السياق من حرمة العرض وحرمة النفس ، يتحدث عن حرمة مال اليتيم ، وحرمة العهد .

« ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا » ..

والإسلام يحفظ على المسلم دمه وعرضه وماله ، لقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله »(١) ولـكنه يشدد فى مال اليتيم ويبرز النهى عن مجرد قربه إلا بالتى هى أحسن . ذلك أن اليتيم ضعيف عن تدبير ماله ، ضعيف عن الذود عنه ، والجماعة الإسلامية مكلفة برعاية اليتيم وماله حتى يبلغ أشده ويرشد ويستطيع أن يدبر ماله وأن يدفع عنه

ومما يلاحظ فى هذه الأوامر والنواهى أن الأمور التى يكلف بها كل فرد بصفته الفردية جاء الأمر أو النهى فيها بصيغة المفرد ؛ أما الأمور التى تناط بالجماعة فقد جاء الأمر أو النهى فيها

---

(١) أخرجه مالك والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى .

Marfat.com

Marfat.com

بصيغة الجمع ، ففى الإحسان للوالدين وإيتاء ذى القربى والمسكين وابن السبيل ، وعدم التبذير ، والتوسط فى الإنفاق بين البخل والسرف ، وفى التثبت من الحق والنهى عن الخيلاء والكبر.. كان الأمر أو النهى بصيغة المفرد لما لها من صبغة فردية . وفى النهى عن قتل الأولاد وعن الزنا وعن قتل النفس ، والأمر برعاية مال اليتيم والوفاء بالعهد ، وإيفاء الكيل والميزان كان الأمر أو النهى بصيغة الجمع لما لها من صبغة جماعية .

ومن ثم جاء النهى عن قرب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن فى صيغة الجمع ، لتكون الجماعة كلها مسؤولة عن اليتيم وماله ، فهذا عهد عليها بوصفها جماعة .

ولأن رعاية مال اليتيم عهد على الجماعة ألحق به الأمر بالوفاء بالعهد إطلاقا . « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا » . . يسأل الله جل جلاله عن الوفاء به ، ويحاسب من ينكث به وينقضه .

وقد أكد الإسلام على الوفاء بالعهد وشدد . لأن هذا الوفاء مناط الاستقامة والثقة والنظافة فى ضمير الفرد وفى حياة الجماعة . وقد تكرر الحديث عن الوفاء بالعهد فى صور شتى فى القرآن والحديث ؛ سواء فى ذلك عهد الله وعهد الناس . عهد الفرد وعهد الجماعة وعهد الدولة . عهد الحاكم وعهد المحكوم . وبلغ الإسلام فى واقعه التاريخى شأوا بعيدا فى الوفاء بالعهود لم تبلغه البشرية إلا فى ظل الإسلام[1] .

* * *

ومن الوفاء بالعهد إلى إيفاء الكيل والميزان :

« وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم . ذلك خير وأحسن تأويلا » . .

والمناسبة بين الوفاء بالعهد وإيفاء الكيل والميزان ظاهرة فى المعنى واللفظ ، فالانتقال فى السياق ملحوظ التناسق .

وإيفاء الكيل والاستقامة فى الوزن ، أمانة فى التعامل ، ونظافة فى القلب ، يستقيم بهما التعامل فى الجماعة ، وتتوافر بهما الثقة فى النفوس ، وتتم بهما البركة فى الحياة . « ذلك خير وأحسن تأويلا » .. خير فى الدنيا وأحسن مآلا فى الآخرة .

---

(١) يراجع كتاب « السلام العالمى فى الإسلام » فصل : « سلام المجتمع » فقرة : « العنصر الأخلاقى فى المعاملات » .

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ، ليس به إلا مخافة الله ، إلا أبدله الله به فى عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير من ذلك » .

والطمع فى الكيل والوزن قذارة وصغار فى النفس ، وغش وخيانة فى التعامل تتزعزع بهما الثقة ، ويتبعها الكساد ، وتقل بهما البركة فى محيط الجماعة ، فيرتد هذا على الأفراد ؛ وهم يحسبون أنهم كاسبون بالتطفيف . وهو كسب ظاهرى ووقتى ، لأن الكساد فى الجماعة يعود على الأفراد بعد حين .

وهذه حقيقة أدركها بعيدو النظر فى عالم التجارة فاتبعوها ، ولم يكن الدافع الأخلاقى ، أو الحافز الدينى هو الباعث عليها ؛ بل مجرد إدراكها فى واقع السوق بالتجربة العملية .

والفارق بين من يلتزم إيفاء الكيل والميزان تجارة ، ومن يلتزمه اعتقادا . . أن هذا يحقق أهداف ذاك ؛ ويزيد عليه نظافة القلب والتطلع فى نشاطه العملى إلى آفاق أعلى من الأرض ، وأوسع فى تصور الحياة وتذوقها .

وهكذا يحقق الإسلام دائماً أهداف الحياة العملية وهو ماض فى طريقه إلى آفاقه الوضيئة وآماده البعيدة ، ومجالاته الرحيبة .

* * *

والعقيدة الإسلامية عقيدة الوضوح والاستقامة والنصاعة . فلا يقوم شىء فيها على الظن أو الوهم أو الشبهة :

« ولا تقف ما ليس لك به علم . إن السمع والبصر والفؤاد . . كل أولئك كان عنه مسؤولا » . . .

وهذه الكلمات القليلة تقيم منهجا كاملا للقلب والعقل ، يشمل المنهج العلمى الذى عرفته البشرية حديثاً جدا ، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله ، ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة !

فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الإسلام الدقيق . ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة فى عالم العقيدة . ولم يبق مجال للظن والشبهة فى عالم الحكم والقضاء والتعامل . ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية فى عالم البحوث والتجارب والعلوم .

Marfat.com

Marfat.com

والأمانة العلمية التى يشيد بها الناس فى العصر الحديث ليست سوى طرف من الأمانة العقلية القلبية التى يعلن القرآن تبعتها الكبرى ، ويجعل الإنسان مسؤولا عن سمعه وبصره وفؤاده ، أمام واهب السمع والبصر والفؤاد . .

إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب . أمانة يسأل عنها صاحبها ، وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعا . أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة ، وكلما روى الإنسان رواية ، وكلما أصدر حكماً على شخص أو أمر أو حادثة .

« ولا تقف ما ليس لك به علم » . . ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين ، وما لم تتثبت من صحته : من قول يقال ورواية تروى . ومن ظاهرة تفسر أو واقعة تعلل . ومن حكم شرعى أو قضية اعتقادية .

وفى الحديث : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » . وفى سنن أبى داود : « بئس مطية الرجل : زعموا » وفى الحديث الآخر : « إن أفرى الفرى أن يُرِىَ الرجل عينيه ما لم تريا » . .

وهكذا تتضافر الآيات والأحاديث على تقرير ذلك المنهج الكامل المتكامل الذى لا يأخذ العقل وحده بالتحرج فى أحكامه ، والتثبت فى استقرائه ؛ إنما يصل ذلك التحرج بالقلب فى خواطره وتصوراته ، وفى مشاعره وأحكامه ، فلا يقول اللسان كلمة ولا يروى حادثة ولا ينقل رواية ،ولا يحكم العقل حكماً ولا يبرم الإنسان أمرا إلا وقد تثبت من كل جزئية ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة ، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة فى صحتها . « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » حقا وصدقا . .

* * *

وتختم هذه الأوامر والنواهى المرتبطة بعقيدة التوحيد بالنهى عن الكبر الفارغ والخيلاء الكاذبة :

« ولا تمش فى الأرض مرحا . إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » . .

والإنسان حين يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده تأخذه الخيلاء بما يبلغه من ثراء أو سلطان ، أو قوة أو جمال . ولو تذكر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأنه ضعيف أمام

Marfat.com

حول الله ، لطامن من كبريائه ، وخفف من خيلائه ، ومشى على الأرض هونا لا تيها ولا مرحا .

والقرآن يجبه المتطاول المختال المرح بضعفه وعجزه وضآلته : « إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » فالإنسان بجسمه ضئيل هزيل ، لا يبلغ شيئا من الأجسام الضخمة التي خلقها الله . إنما هو قوى بقوة الله ، عزيز بعزة الله ، كريم بروحه الذى نفخه الله فيه ، ليتصل به ويراقبه ولا ينساه .

ذلك التطامن والتواضع الذى يدعو إليه القرآن بترذيل المرح والخيلاء ، أدب مع الله ، وأدب مع الناس . أدب نفسى وأدب اجتماعى . وما يترك هذا الأدب إلى الخيلاء والعجب إلا فارغ صغير القلب صغير الاهتمامات . يكرهه الله لبطره ونسيان نعمته ، ويكرهه الناس لانتفاشه وتعاليه .

وفى الحديث : « من تواضع لله رفعه فهو فى نفسه حقير وعند الناس كبير . ومن استكبر وضعه الله ، فهو فى نفسه كبير وعند الناس حقير . حتى لهو أبغض إليهم من الكلب والخنزير[1] » .

* * *

وتنتهى تلك الأوامر والنواهى والغالب فيها هو النهى عن ذميم الفعال والصفات بإعلان كراهية الله للسيء منها :

« كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها » .

فيكون هذا تلخيصا وتذكيرا بمرجع الأمر والنهى وهو كراهية الله للسيء من تلك الأمور . ويسكت عن الحسن المأمور به ، لأن النهى عن السيء هو الغالب فيها كما ذكرنا .

ويختم الأوامر والنواهى كما بدأها بربطها بالله وعقيدة التوحيد والتحذير من الشرك . وبيان أنها بعض الحكمة التى يهدى إليها القرآن الذى أوحاه الله إلى الرسول :

« ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا » .

وهو ختام يشبه الابتداء . فتجيء محبوكة الطرفين ، موصولة بالقاعدة الكبرى التى يقيم عليها الإسلام بناء الحياة ، قاعدة توحيد الله وعبادته دون سواه . .

---

(١) رواه ابن كثير فى التفسير .

« أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ؟ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا * قُلْ : لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً * تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً .

« وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ، إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ : إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ؟ * قُلْ : كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ! فَسَيَقُولُونَ : مَنْ يُعِيدُنَا ؟ قُلِ : الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ : مَتَى هُوَ ؟ قُلْ : عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا * وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ، أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا * وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا .

« قُلِ : ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً » ﴿٥٧﴾

Marfat.com

Marfat.com

بدأ الدرس الثانى وانتهى بتوحيد الله والنهى عن الشرك به ، وضم بين البداية والنهاية تكاليف وأوامر ونواهى وآدابا مرتكزة كلها على قاعدة التوحيد الوطيدة .. ويبدأ هذا الدرس وينتهى باستنكار فكرة الولد والشريك ، وبيان مافيها من اضطراب وتهافت ، وتقرير وحدة الاتجاه الكونى إلى الخالق الواحد : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » ووحدة المصير والرجعة إلى الله فى الآخرة ، ووحدة علم الله الشامل بمن فى السماوات ومن فى الأرض ، ووحدة التصرف فى شؤون الخلائق بلا معقب : « إن يشأ يرحمكم وإن يشأ يعذبكم » ..

ومن خلال السياق تتهافت عقائد الشرك وتتهاوى ، وتنفرد الذات الإلهية بالعبادة والاتجاه والقدرة والتصرف والحكم فى هذا الوجود ، ظاهره وخافيه ، دنياه وآخرته ؛ ويبدو الوجود كله متجها إلى خالقه فى تسبيحة مديدة شاملة تشترك فيها الأحياء والأشياء .

***

« أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا ؟ إنكم لتقولون قولا عظيما ؟ »

استفهام للاستنكار والتهكم . استنكار لما يقولون من أن الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن الولد والصاحبة كما تعالى عن الشبيه والشريك . وتهكم على نسبة البنات لله وهم يعدون البنات أدنى من البنين ويقتلون البنات خوف الفقر أو العار ؛ ومع هذا يجعلون الملائكة إناثا ، وينسبون هؤلاء الإناث إلى الله ! فإذا كان الله هو واهب البنين والبنات ، فهل أصفاهم بالبنين المفضلين واتخذ لنفسه الإناث المفضولات ؟!

وهذا كله على سبيل مجاراتهم فى ادعاءاتهم لبيان ما فيها من تفكك وتهافت . وإلا فالقضية كلها مستنكرة من الأساس :

« إنكم لتقولون قولا عظيما » .. عظيما فى شناعته و بشاعته ، عظيما فى جرأته ووقاحته ، عظيما فى ضخامة الافتراء فيه ، عظيما فى خروجه عن التصور والتصديق .

« ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا ، وما يزيدهم إلا نفورا » ..

فقد جاء القرآن بالتوحيد ، وسلك إلى تقرير هذه العقيدة وإيضاحها طرقا شتى ، وأساليب متنوعة ، ووسائل متعددة « ليذكروا » فالتوحيد لا يحتاج إلى أكثر من التذكر والرجوع إلى الفطرة ومنطقها ، وإلى الآيات الكونية ودلالتها ؛ ولكنهم يزيدون نفورا كلما سمعوا هذا القرآن . نفورا من العقيدة التى جاء بها ، ونفورا من القرآن ذاته خيفة أن يغلبهم على عقائدهم الباطلة التى يستمسكون بها . عقائد الشرك والوهم والترهات .

وكما جاراهم فى إدعاءاتهم فى حكاية البنات ولسبتها إلى الله ليكشف عما فيها من تفكك وتهافت ، فهو يجاريهم فى حكاية الآلهة المدعاة ، ليقرر أن هذه الآلهة لو وجدت فإنها ستحاول أن تتقرب إلى الله ، وأن تجد لها وسيلة إليه وسبيلا :

« قل : لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذن لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا » . .

ولو ـ كما يقول النحاة ـ حرف امتناع لامتناع ، فالقضية كلها ممتنعة ، وليس هنالك آلهة مع الله ـ كما يقولون ـ والآلهة التى يدعونها إن هى إلا خلق من خلق الله سواء كانت نجما أو كوكبا ، إنسانا أو حيوانا ، نباتا أو جمادا . وهذه كلها تتجه إلى الخالق حسب ناموس الفطرة الكونية ، وتخضع للإرادة التى تحكمها وتصرفها ؛ وتجد طريقها إلى الله عن طريق خضوعها لناموسه وتلبيتها لإرادته :

« إذن لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا » .. وذكر العرش هنا يوحى بالارتفاع والتسامى على هذه الخلائق التى يدعون أنها آلهة « مع » الله . وهى تحت عرشه وليست معه .. ويعقب على ذلك بتنزيه الله فى علاه :

« سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا » ..

ثم يرسم السياق للكون كله بما فيه ومن فيه مشهدا فريدا ، تحت عرش الله ، يتوجه كله إلى الله ، يسبح له ويجد الوسيلة إليه :

« تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا » ..

وهو تعبير تنبض به كل ذرة فى هذا الكون الكبير ، وتنتفض روحا حية تسبح الله . فإذا الكون كله حركة وحياة ، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة شجية رخية ، ترتفع فى جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال .

وإنه لمشهد كونى فريد ، حين يتصور القلب . كل حصاة وكل حجر . كل حبة وكل ورقة . كل زهرة وكل ثمرة . كل نبتة وكل شجرة . كل حشرة وكل زاحفة . كل حيوان وكل إنسان . كل دابة على الأرض وكل سابحة فى الماء والهواء .. ومعها سكان السماء .. كلها تسبح الله وتتوجه إليه فى علاه .

وإن الوجدان ليرتعش وهو يستشعر الحياة تدب فى كل ماحوله مما يراه ومما لا يراه ، وكلما همت يده أن تلمس شيئا ، وكلما همت رجله أن تطأ شيئا .. سمعه يسبح لله ، وينبض بالحياة .

Marfat.com

« وإن من شيء إلا يسبح بحمده » يسبح بطريقته ولغته « ولكن لاتفقهون تسبيحهم » لا تفقهونه لأنكم محجوبون بصفاقة الطين ، ولأنكم لم تتسمعوا بقلوبكم ، ولم توجهوها إلى أسرار الوجود الخفية ، وإلى النواميس التي تنجذب إليها كل ذرة فى هذا الكون الكبير ، وتتوجه بها إلى الله خالق النواميس ، ومدبر هذا الكون الكبير .

وحين تشف الروح وتصفو فتتسمع لكل متحرك أو ساكن وهو ينبض بالروح ، ويتوجه بالتسبيح ، فإنها تتهيأ للاتصال بالملأ الأعلى ، وتدرك من أسرار هذا الوجود ما لايدركه الغافلون ، الذين تحول صفاقة الطين بين قلوبهم وبين الحياة الخفية السارية فى ضمير هذا الوجود ، النابضة فى كل متحرك وساكن ، وفى كل شيء فى هذا الوجود .

« إنه كان حليما غفورا » . . وذكر الحلم هنا والغفران بمناسبة ما يبدو من البشر من تقصير فى ظل هذا الموكب الكونى المسبح بحمد الله ، بينما البشر فى جحود وفيهم من يشرك بالله ، ومن ينسب له البنات ، ومن يغفل عن حمده وتسبيحه . والبشر أولى من كل شيء فى هذا الكون بالتسبيح والتحميد والمعرفة والتوحيد . ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيز مقتدر . ولكنه يمهلهم ويذكرهم ويعظهم ويزجرهم « إنه كان حليما غفورا » .

* * *

ولقد كان كبراء قريش يستمعون إلى القرآن ، ولكنهم يجاهدون قلوبهم ألا ترق له ، ويقاومون فطرتهم أن تتأثر به ؛ فجعل الله بينهم وبين الرسول حجابا ، حجابا خفيا ، وجعل على قلوبهم كالأغلفة فلا تفقه القرآن ، وجعل فى آذانهم كالصمم فلا تعى ما فيه من توجيه :

« وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا . وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا . وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا . نحن أعلم بما يستمعون به ، إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى . إذ يقول الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحورا . انظر كيف ضربوا لك الأمثال ، فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » . .

وقد روى ابن إسحاق فى السيرة عن محمد بن مسلم بن شهاب عن الزهرى أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى حليف بنى زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو يصلى بالليل فى بيته ؛ فأخذ كل واحد منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا

Marfat.com

يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا ، فقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا . ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعهم الطريق . فقال بعضهم لبعض مثل ما قاله أول مرة . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ؛ فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود . فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا . فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته ، فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . قال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا ، والذى حلفت به . قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته ؛ فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء . فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ! قال فقام عنه الأخنس وتركه . .

فهكذا كان القوم تتأثر بالقرآن فطرتهم فيصدونها ، وتجاذبهم إليه قلوبهم فيمانعونها ، فجعل الله بينهم وبين الرسول حجابا خفيا لا يظهر للعيون ولكن تحسه القلوب ، فإذا هم لا ينتفعون به ، ولا يهتدون بالقرآن الذى يتلوه . وهكذا كانوا يتناجون بما أصاب قلوبهم من القرآن ، ثم يتآمرون على عدم الاستماع إليه ؛ ثم يغلبهم التأثر به فيعودون ، ثم يتناجون من جديد ، حتى ليتعاهدون على عدم العودة ليحجزوا أنفسهم عن هذا القرآن المؤثر الجذاب الذى يخلب القلوب والألباب ! ذلك أن عقيدة التوحيد التى يدور عليها هذا القرآن كانت تهددهم فى مكانتهم وفى امتيازاتهم وفى كبريائهم فينفرون منها :

« وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا » . .

نفورا من كلمة التوحيد ، التى تهدد وضعهم الاجتماعى ، القائم على أوهام الوثنية وتقاليد الجاهلية ، وإلا فقد كان كبراء قريش أذكى من أن يخفى عليهم ما فى عقائدهم من تهافت ، وما فى الإسلام من تماسك ، وأعرف بالقول من أن يغيب عنهم ما فى القرآن من سمو وارتفاع وامتياز . وهم الذين لم يكونوا يملكون أنفسهم من الاستماع إليه والتأثر به ، على شدة ما يمانعون قلوبهم ويدافعونها !

Marfat.com

Marfat.com

ولقد كانت الفطرة تدفعهم إلى التسمع والتأثر ؛ والكبرياء تدفعهم عن التسليم والإذعان ؛ فيطلقون التهم على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعتذرون بها عن المكابرة والعناد :

« وقال الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحورا » . .

وهذه الكلمة ذاتها تحمل فى ثناياها دليل تأثرهم بالقرآن ؛ فهم يستكثرون فى دخيلتهم أن يكون هذا قول بشر؛ لأنهم يحسون فيه شيئا غير بشرى . ويحسون دبيبه الخفى فى مشاعرهم فينسبون قائله إلى السحر ، يرجعون إليه هذه الغرابة فى قوله ، وهذا التميز فى حديثه ، وهذا التفوق فى نظمه . فمحمد إذن لا ينطق عن نفسه ، إنما ينطق عن السحر بقوة غير قوة البشر ! ولو أنصفوا لقالوا : إنه من عند الله ، فما يمكن أن يقول هذا إنسان ، ولا خلق آخر من خلق الله .

« انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » . .

ضربوا لك الأمثال بالمسحورين ولست بمسحور ، إنما أنت رسول ، فضلوا ولم يهتدوا ، وحاروا فلم يجدوا طريقا يسلكونه . لا إلى الهدى ، ولا إلى تعليل موقفهم المريب !

* * *

ذلك قولهم عن القرآن ، وعن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يتلو عليهم القرآن . كذلك كذبوا بالبعث ، وكفروا بالآخرة :

« وقالوا : أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ قل : كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم . فسيقولون : من يعيدنا ؟ قل : الذى فطركم أول مرة . فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون : متى هو ؟ قل : عسى أن يكون قريبا . يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » . .

وقد كانت قضية البعث مثار جدل طويل بين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمشركين ، واشتمل القرآن الكريم على الكثير من هذا الجدل . مع بساطة هذه القضية ووضوحها عند من يتصور طبيعة الحياة والموت ، وطبيعة البعث والحشر . ولقد عرضها القرآن الكريم فى هذا النحو مرات . ولكن القوم لم يكونوا يتصورونها بهذا الوضوح وبتلك البساطة ؛ فكان يصعب عليهم تصور البعث بعد البلى والفناء المسلط على الأجسام :

« وقالوا : أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا » ؟

ذلك أنهم لم يكونوا يتدبرون أنهم لم يكونوا أحياء أصلا ثم كانوا ، وأن النشأة الآخرة ليست أعسر من النشأة الأولى . وأنه لا شيء أمام القدرة الإلهية أعسر من شيء ، وأداة الخلق واحدة في كل شيء : « كن فيكون » فيستوى إذن أن يكون الشيء سهلا وأن يكون صعبا في نظر الناس ، متى توجهت الإرادة الإلهية إليه .

وكان الرد على ذلك التعجب :

« قل : كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم » . .

والعظام والرفات فيها رائحة البشرية وفيها ذكرى الحياة ؛ والحديد والحجارة أبعد عن الحياة. فيقال لهم : كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا آخر أوغل في البعد عن الحياة من الحجارة والحديد مما يكبر في صدوركم أن تتصوروه وقد نفخت فيه الحياة . . فسيبعثكم الله .

وهم لا يملكون أن يكونوا حجارة أو حديدا أو خلقا آخر ولكنه قول للتحدى . وفيه كذلك ظل التوبيخ والتقريع ، فالحجارة والحديد جماد لا يحس ولا يتأثر ، وفي هذا إيماء من بعيد إلى ما في تصورهم من جمود وتحجر !

« فسيقولون : من يعيدنا » ؟

من يردنا إلى الحياة إن كنا رفاتا وعظاما ، أو خلقا آخر أشد إيغالا في الموت والخمود ؟

« قل : الذى فطركم أول مرة » . .

وهو رد يرجع المشكلة إلى تصور بسيط واضح مريح . فالذى أنشأهم إنشاء قادر على أن يردهم أحياء . ولكنهم لا ينتفعون به ولا يقتنعون :

« فسينغضون إليك رؤوسهم » ينغضونها علوا أو سفلا ، استنكارا واستهزاء :

« ويقولون: متى هو ؟ » : استبعادا لهذا الحادث واستنكارا .

« قل : عسى أن يكون قريبا » . .

فالرسول لا يعلم موعده تحديدا . ولكن لعله أقرب مما يظنون . وما أجدرهم أن يخشوا وقوعه وهم في غفلتهم يكذبون ويستهزئون !

ثم يرسم مشهدا سريعا لذلك اليوم :

« يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » . .

وهو مشهد يصور أولئك المكذبين بالبعث المنكرين له ، وقد قاموا يلبون دعوة الداع ،

Marfat.com

وألسنتهم تلهج بحمد الله . ليس لهم سوى هذه الكلمة من قول ولا جواب !

وهو جواب عجيب ممن كانوا ينكرون اليوم كله وينكرون الله ، فلا يكون لهم جواب إلا أن يقولوا : الحمد لله . الحمد لله !

ويومئذ تنطوى الحياة الدنيا كما ينطوى الظل : « وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » .

وتصوير الشعور بالدنيا على هذا النحو يصغر من قيمتها فى نفوس المخاطبين ، فإذا هى قصيرة قصيرة ، لا يبقى من ظلالها فى النفس وصورها فى الحس ، إلا أنها لمحة مرت وعهد زال وظل تحول ، ومتاع قليل .

***

ثم يلتفت السياق عن هؤلاء المكذبين بالبعث والنشور ، المستهزئين بوعد الله وقول الرسول ، المنغضين رؤوسهم المتهكمين المتهجمين . . يلتفت عنهم إلى عباد الله المؤمنين ليوجههم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقولوا الكلمة الطيبة وينطقوا دائما بالحسنى :

« وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن . إن الشيطان ينزغ بينهم ، إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا » .

« وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن » على وجه الإطلاق وفى كل مجال . فيختاروا أحسن مايقال ليقولوه .. بذلك يتقون أن يفسد الشيطان مابينهم من مودة . فالشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخشنة تفلت ، وبالرد السيء يتلوها فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء . والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب ، وتندى جفافها ، وتجمعها على الود الكريم .

« إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا »..

يتلمس سقطات فمه وعثرات لسانه ، فيغرى بها العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه . والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات ، وتقطع عليه الطريق ، وتحفظ حرم الأخوة آمنا من نزغاته ونفثاته .

***

وبعد هذه اللفتة يعود السياق إلى مصائر القوم يوم يدعوهم فيستجيبون بحمده ، فإذا المصير

Marfat.com

Marfat.com

كله بيد الله وحده ، إن شاء رحم ، وإن شاء عذب ، وهم متروكون لقضاء الله ، وما الرسول عليهم بوكيل ، إن هو إلا رسول :

« ربكم أعلم بكم ، إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ، وما أرسلناك عليهم وكيلا. وربك أعلم بمن فى السماوات والأرض » ..

فالعلم المطلق لله. وهو يرتب على كامل علمه بالناس رحمتهم أو عذابهم . وعند البلاغ تنتهى وظيفة الرسول .

وعلم الله الكامل يشمل من فى السماوات والأرض من ملائكة ورسل وإنس وجن ، وكائنات لا يعلم إلا الله ماهى ؟ وما قدرها ؟ وما درجتها .

وبهذا العلم المطلق بحقائق الخلائق فضل الله بعض النبيين على بعض :

« ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض » . وهو تفضيل يعلم الله أسبابه . أما مظاهر هذا التفضيل فقد سبق الحديث عنها فى الجزء الثالث من هذه الظلال عند تفسير قوله تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » . . فيراجع فى موضعه هناك :

« وآتينا داود زبورا » .. وهو نموذج من عطاء الله لأحد أنبيائه ، ومن مظاهر التفضيل أيضا . إذ كانت الكتب أبقى من الخوارق المادية التى يراها بعض الناس فى ظرف معين من الزمان .

* * *

وينتهى هذا الدرس الذى بدأ بنفى فكرة الأبناء والشركاء ، واستطرد إلى تفرد الله سبحانه بالاتجاه إليه ، وتفرده بالعلم والتصرف فى مصائر العباد .. ينتهى بتحدى الذين يزعمون الشركاء ، أن يدعوا الآلهة المدعاة إلى كشف الضر عنهم لو شاء الله أن يعذبهم ، أو تحويل العذاب إلى سواهم :

« قل : ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » . . فليس أحد بقادر على أن يكشف الضر أو يحوله إلا الله وحده ، المتصرف فى أقدار عباده .

ويقرر لهم أن من يدعونهم آلهة من الملائكة أو الجن أو الإنس .. إن هم إلا خلق من خلق الله ، يحاولون أن يجدوا طريقهم إلى الله ويتسابقون إلى رضاه ، ويخافون عذابه الذى يحذره من يعلم حقيقته ويخشاه :

Marfat.com

« أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه . إن عذاب ربك كان محذورا » ..

وقد كان بعضهم يدعو عزيرا ابن الله ويعبده ، وبعضهم يدعو عيسى ابن الله ويعبده . وبعضهم يدعو الملائكة بنات الله ويعبدهم ، وبعضهم يدعو غير هؤلاء .. فالله يقول لهم جميعا: إن هؤلاء الذين تدعونهم ، أقربهم إلى الله يبتغى إليه الوسيلة ، ويتقرب إليه بالعبادة ، ويرجو رحمته ، ويخشى عذابه ـ وعذاب الله شديد يحذر ويخاف ـ فما أجدركم أن تتوجهوا إلى الله ، كما يتوجه إليه من تدعونهم آلهة من دونه وهم عباد لله ، يبتغون رضاه .

وهكذا يبدأ الدرس ويختم ببيان تهافت عقائد الشرك فى كل صورها . وتفرد الله سبحانه بالألوهية والعبادة والاتجاه .

« وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا، كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا * وَإِذْ قُلْنَا لَكَ : إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ، وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ؛ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا .

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ : اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ : أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ؟ * قَالَ : أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ؟ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ : اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ، وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ، وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ ، وَالْأَوْلَادِ ، وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ . وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا .

Marfat.com

« رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً * وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً * أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ، أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ؟ * أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ، ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ؟

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا * يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا » ٧٢

انتهى الدرس السابق بتقرير أن الله وحده هو المتصرف فى مصائر العباد ، إن شاء رحمهم وإن شاء عذبهم ؛ وأن الآلهة التى يدعونها من دونه لا تملك كشف الضر عنهم ولا تحويله إلى سواهم .

فالآن يستطرد السياق إلى بيان المصير النهائى للبشر جميعا ـ كما قدره الله فى علمه وقضائه ـ وهو انتهاء القرى جميعها إلى الموت والهلاك قبل يوم القيامة ، أو وقوع العذاب ببعضها إن ارتكبت ما يستحق العذاب . فلا يبقى حى إلا ويلاقى نهايته على أى الوجهين : الهلاك حتف أنفه أو الهلاك بالعذاب .

وبمناسبة ذكر العذاب الذى يحل ببعض القرى يشير السياق إلى ما كان يسبقه من الخوارق على أيدى الرسل ـ قبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ـ هذه الخوارق التى امتنعت فى هذه الرسالة ، لأن الأولين الذين جاءتهم كذبوا بها ولم يهتدوا فحق عليهم الهلاك . والهلاك لم يقدر على أمة محمد فلذلك لم يرسله بالخوارق المادية ، وما كانت الخوارق إلا تخويفا للأمم الخالية مما يحل بها من الهلاك إذا كذبت بعد مجيئها .

Marfat.com

وقد كف الله الناس عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعصمه منهم فلا يصلون إليه . وأراه الرؤيا الصادقة فى الإسراء لتكون ابتلاء للناس ، ولم يتخذ منها خارقة كخوارق الرسالات من قبل ، وخوفهم الشجرة الملعونة فى القرآن - شجرة الزقوم - التى رآها فى أصل الجحيم ، فلم يزدهم التخويف إلا طغيانا . وإذن فما كانت الخوارق إلا لتزيدهم طغيانا .

وفى هذا الموضع من السياق تجىء قصة إبليس مع آدم ، وإذن الله لإبليس فى ذرية آدم إلا الصالحين من عباده فقد عصمهم من سلطانه وإغوائه . . فتكشف القصة عن أسباب الغواية الأصيلة التى تقود الناس إلى الكفر والطغيان ، وتبعدهم عن تدبر الآيات .

ويلمس السياق فى هذا الموضع وجدان الإنسان بذكر فضل الله على بنى آدم ، ومقابلتهم هذا الفضل بالبطر والجحود ، فلايذكرون الله إلا فى ساعات الشدة . فإذا مسهم الضر فى البحر لجأوا إليه . فإذا أنجاهم إلى البر أعرضوا . والله قادر على أن يأخذهم فى البر وفى البحر سواء ! ولقد كرمهم الله وفضلهم على كثير ممن خلقه ، ولكنهم لا يشكرون ولا يذكرون .

ويختم هذا الدرس بمشهد من مشاهد القيامة ؛ يوم يلقون جزاءهم على ما قدمت أيديهم ، فلا مجال للنجاة لأحد إلا بما قدمت يداه .

* * *

« وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديدا . كان ذلك فى الكتاب مسطورا » . .

فقد قدر الله أن يجىء يوم القيامة ووجه هذه الأرض خال من الحياة ، فالهلاك ينتظر كل حى قبل ذلك اليوم الموعود . كذلك قدر العذاب لبعض هذه القرى بما ترتكب من ذنوب. ذلك ما ركز فى علم الله . والله يعلم ما سيكون علمه بما هو كائن . فالذى كان والذى سيكون كله بالقياس إلى علم الله سواء .

وقد كانت الخوارق تصاحب الرسالات لتصديق الرسل وتخويف الناس من عاقبة التكذيب وهى الهلاك بالعذاب . ولكن لم يؤمن بهذه الخوارق إلا المستعدة قلوبهم للإيمان ؛ أما الجاحدون فقد كذبوا بها فى زمانهم . ومن هنا جاءت الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بهذه الخوارق :

« وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون . وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها . وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » .

إن معجزة الإسلام هى القرآن . وهو كتاب يرسم منهجاً كاملا للحياة . ويخاطب الفكر والقلب ، ويلبى الفطرة القويمة . ويبقى مفتوحا للأجيال المتتابعة تقرؤه وتؤمن به إلى يوم القيامة . أما الخارقة المادية فهى تخاطب جيلا واحدا من الناس ، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل .

على أن كثرة من كانوا يشاهدون الآيات لم يؤمنوا بها . وقد ضرب السياق المثل بثمود ، الذين جاءتهم الناقة وفق ما طلبوا واقترحوا آية واضحة . فظلموا بها أنفسهم وأوردوها موارد الهلكة تصديقا لوعد الله بإهلاك المكذبين بالآية الخارقة . وما كانت الآيات إلا إنذاراً وتخويفاً بحتمية الهلاك بعد مجيء الآيات .

هذه التجارب البشرية اقتضت أن تجيء الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بالخوارق . لأنها رسالة الأجيال المقبلة جميعها لا رسالة جيل واحد يراها . ولأنها رسالة الرشد البشرى تخاطب مدارك الإنسان جيلا بعد جيل ، وتحترم إدراكه الذى تتميز به بشريته والذى من أجله كرمه الله على كثير من خلقه .

أما الخوارق التى وقعت للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأولها خارقة الإسراء والمعراج فلم تتخذ معجزة مصدقة للرسالة . إنما جعلت فتنة للناس وابتلاء .

« وإذ قلنا لك : إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ، والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا » .

ولقد ارتد بعض من كان آمن بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد حادثة الإسراء ، كما ثبت بعضهم وازداد يقيناً . ومن ثم كانت الرؤيا التى أراها الله لعبده فى تلك الليلة « فتنة للناس » وابتلاء لإيمانهم . أما إحاطة الله بالناس فقد كانت وعدا من الله لرسوله بالنصر ، وعصمة له من أن تمتد أيديهم إليه .

ولقد أخبرهم بوعد الله له وبما أطلعه الله عليه فى رؤياه الكاشفة الصادقة . ومنه شجرة الزقوم التى يخوف الله بها المكذبين . فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل متهكما : هاتوا لنا تمراً وزبدا ، وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول : تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا !

فماذا كانت الخوارق صانعة مع القوم لو كانت هى آية رسالته كما كانت علامة الرسالات قبله ومعجزة المرسلين ؟ وما زادتهم خارقة الإسراء ولا زادهم التخويف بشجرة الزقوم إلا طغياناً كبيرا ؟

Marfat.com

إن الله لم يقدر إهلاكهم بعذاب من عنده . ومن ثم لم يرسل إليهم بخارقة . فقد اقتضت إرادته أن يهلك المكذبين بالخوارق . أما قريش فقد أمهلت ولم تؤخذ بالإبادة كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب .. ومن المكذبين من آمن من بعد ذلك وكان من جند الإسلام الصادقين . ومنهم من أنجب المؤمنين الصادقين . وظل القرآن ـ معجزة الإسلام ـ كتابا مفتوحا لجيل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللأجيال بعده ، فآمن به من لم يشهد الرسول وعصره وصحابته . إنما قرأ القرآن أو صاحب من قرأه . وسيبقى القرآن كتابا مفتوحا للأجيال ، يهتدى به من هم بعد فى ضمير الغيب . وقد يكون منهم من هو أشد إيمانا وأصلح عملا ، وأنفع للإسلام من كثير سبقوه ..

***

وفى ظل الرؤيا التى رآها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ واطلع فيها على ما اطلع من عوالم . والشجرة الملعونة التى يطعم منها أتباع الشياطين . . يجىء مشهد إبليس اللعون ، يهدد ويتوعد بإغواء الضالين :

«وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . فسجدوا إلا إبليس . قال : أأسجد لمن خلقت طينا ؟ قال : أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ ؟ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال : اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا . واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم . وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان . وكفى بربك وكيلا » ..

إن السياق يكشف عن الأسباب الأصيلة لضلال الضالين ، فيعرض هذا المشهد هنا ، ليحذر الناس وهم يطلعون على أسباب الغواية ، ويرون إبليس عدوهم وعدو أبيهم يتهددهم بها ، عن إصرار سابق قديم !

« وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال : أأسجد لمن خلقت طينا ؟ »

إنه حسد إبليس لآدم يجعله يذكر الطين ويغفل نفخة الله فى هذا الطين !

ويعرض إبليس بضعف هذا المخلوق واستعداده للغواية ، فيقول فى تبجح :

«أرأيتك هذا الذى كرمت على ؟ » أترى هذا المخلوق الذى جعلته أكرم منى عندك ؟

«لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا » .. فلأستولين عليهم وأحتويهم وأملك زمامهم وأجعلهم فى قبضة يدى أصرف أمرهم .

Marfat.com

Marfat.com

ويغفل إبليس عن استعداد الإنسان للخير والهداية استعداده للشر والغواية. عن حالته التى يكون فيها متصلا بالله فيرتفع ويسمو ويعتصم من الشر والغواية، ويغفل عن أن هذه هى مزية هذا المخلوق التى ترفعه على ذوى الطبيعة المفردة التى لا تعرف إلا طريقا واحدا تسلكه بلا إرادة. فالإرادة هى سر هذا المخلوق العجيب.

وتشاء إرادة الله أن يطلق لرسول الشر والغواية الزمام، يحاول محاولته مع بنى الإنسان:

«قال: اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا» ..

اذهب فحاول محاولتك. اذهب مأذونا فى إغوائهم. فهم مزودون بالعقل والإرادة، يملكون أن يتبعوك أو يعرضوا عنك «فمن تبعك منهم» مغلبا جانب الغواية فى نفسه على جانب الهداية، معرضا عن نداء الرحمان إلى نداء الشيطان، غافلا عن آيات الله فى الكون، وآيات الله الصاحبة للرسالات، «فإن جهنم جزاؤكم» أنت وتابعوك «جزاء موفورا».

«واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك»

وهو تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة، والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول. فهى المعركة الصاخبة، تستخدم فيها الأصوات والخيل والرجل على طريقة المعارك والمبارزات. يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة، أو يستدرجهم للفخ المنصوب والمكيدة المدبرة. فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل، وأحاطت بهم الرجال!

«وشاركهم فى الأموال والأولاد» ..

وهذه الشركة تتمثل فى أوهام الوثنية الجاهلية، إذ كانوا يجعلون فى أموالهم نصيبا للآلهة المدعاة – فهى للشيطان – وفى أولادهم نذورا للآلهة أو عبيدا لها – فهى للشيطان – كعبد اللات وعبد مناة. وأحيانا كانوا يجعلونها للشيطان رأسا كعبد الحارث!

كما تتمثل فى كل مال يجىء من حرام، أو يتصرف فيه بغير حق، أو ينفق فى إثم. وفى كل ولد يجىء من حرام. ففيه شركة للشيطان.

والتعبير يصور فى عمومه شركة تقوم بين إبليس وأتباعه تشمل الأموال والأولاد وهما قوام الحياة!

وإبليس مأذون فى أن يستخدم وسائله كلها، ومنها الوعود المغرية الخادعة: «وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا» كالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص. والوعد بالغنى من الأسباب الحرام. والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل القذرة والأساليب الخسيسة ...

ولعل أشد الوعود إغراء الوعد بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة؛ وهى الثغرة التى يدخل

Marfat.com

منها الشيطان على كثير من القلوب التى يعز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة . فيتلطف حينئذ إلى تلك النفوس المتحرجة ، ويزين لها الخطيئة وهو يلوح لها بسعة الرحمة الإلهية وشمول العفو والمغفرة !

اذهب مأذونا فى إغواء من يجنحون إليك . ولكن هنالك من لا سلطان لك عليهم ، لأنهم مزودون بحصانة تمنعهم منك ومن خيلك ورجلك !

« إن عبادى ليس لك عليهم سلطان . وكفى بربك وكيلا » . .

فمتى اتصل القلب بالله ، واتجه إليه بالعبادة . متى ارتبط بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها . متى أيقظ فى روحه النفخة العلوية فأشرقت وأنارت . . فلا سلطان حينئذ للشيطان على ذلك القلب الموصول بالله ، وهذا الروح المشرق بنور الإيمان . . « وكفى بربك وكيلا » يعصم وينصر ويبطل كيد الشيطان .

وانطلق الشيطان ينفذ وعيده ، ويستذل عبيده ، ولكنه لا يجرؤ على عباد الرحمن ، فما له عليهم من سلطان .

* * *

ذلك مايبيته الشيطان للناس من شر وأذى ؛ ثم يوجد فى الناس من يتبعون هذا الشيطان ، ويستمعون إليه ، ويعرضون عن نداء الله لهم وهدايته . والله رحيم بهم يعينهم ويهديهم وييسر لهم المعاش ، وينجيهم من الضر والكرب ، ويستجيب لهم فى موقف الشدة والضيق . . ثم إذا هم يعرضون ويكفرون :

« ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله ، إنه كان بكم رحيما . وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الإنسان كفورا » . .

والسياق يعرض هذا المشهد ، مشهد الفلك فى البحر ، نموذجا للحظات الشدة والحرج . لأن الشعور بيد الله فى الخضم أقوى وأشد حساسية ، ونقطة من الخشب أو المعدن تائهة فى الخضم ، تتقاذفها الأمواج والتيارات ، والناس متشبثون بهذه النقطة على كف الرحمان .

إنه مشهد يحس به من كابده ، ويحس بالقلوب الخافقة الواجفة المتعلقة بكل هزة وكل رجفة فى الفلك صغيراً كان أو كبيرا حتى عابرات المحيط الجبارة التى تبدو فى بعض اللحظات كالريشة فى مهب الرياح على ثبج الموج الجبار !

والتعبير يلمس القلوب لمسة قوية وهو يشعر الناس أن يد الله تزجى لهم الفلك فى البحر وتدفعه ليبتغوا من فضله « إنه كان بكم رحيما » فالرحمة هى أظهر ما تستشعره القلوب فى هذا الأوان .

ثم ينتقل بهم من الإزجاء الرخى للاضطراب العنى . حين ينسى الركب فى الفلك المتناوح بين الأمواج كل قوة وكل سند وكل مجير إلا الله ، فيتجهون إليه وحده فى لحظة الخطر لا يدعون أحدا سواه : « ضل من تدعون إلا إياه » . .

ولكن الإنسان هو الإنسان ، فما إن تنجلى الغمرة ، وتحس قدماه ثبات الأرض من تحته حتى ينسى لحظة الشدة ، فينسى الله ، وتتقاذفه الأهواء وتجرفه الشهوات ، وتغطى على فطرته التى جلاها الخطر : « فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا » إلا من اتصل قلبه بالله فأشرق واستنار .

وهنا يستجيش السياق وجدان المخاطبين بتصوير الخطر الذى تركوه فى البحر وهو يلاحقهم فى البر أو وهم يعودون إليه فى البحر ، ليشعروا أن الأمن والقرار لا يكونان إلا فى جوار الله وحماه ، لا فى البحر ولا فى البر ؛ لا فى الموجة الرخية والريح المواتية ولا فى الملجأ الحصين والمنزل المريح :

« أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ، ثم لا تجدوا لكم وكيلا ؛ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ، فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ؟ » .

إن البشر فى قبضة الله فى كل لحظة وفى كل بقعة إنهم فى قبضته فى البر كما هم فى قبضته فى البحر . فكيف يأمنون ؟ كيف يأمنون أن يخسف بهم جانب البر بزلزال أو بركان ، أو بغيرهما من الأسباب المسخرة لقدرة الله ؟ أو يرسل عليهم عاصفة بركانية تقذفهم بالحمم والماء والطين والأحجار ، فتهلكهم دون أن يجدوا لهم من دون الله وكيلا يحميهم ويدفع عنهم ؟

أم كيف يأمنون أن يردهم الله إلى البحر فيرسل عليهم ريحا قاصفة ، تقصف الصوارى وتحطم السفين ، فيغرقهم بسبب كفرهم وإعراضهم ، فلا يجدون من يطالب بعدهم بتبعة إغراقهم ؟

ألا إنها الغفلة أن يعرض الناس عن ربهم ويكفروا . ثم يأمنوا أخذه وكيده . وهم يتوجهون إليه وحده فى الشدة ثم ينسونه بعد النجاة . كأنها آخر شدة يمكن أن يأخذهم بها الله !

* * *

Marfat.com

Marfat.com

ذلك وقد كرم الله هذا المخلوق البشرى على كثير من خلقه . كرمه بخلقته على تلك الهيئة ، بهذه الفطرة التى تجمع بين الطين والنفخة ، فتجمع بين الأرض والسماء فى ذلك الكيان !

وكرمه بالاستعدادات التى أودعها فطرته ؛ والتى استأهل بها الخلافة فى الأرض ، يغير فيها ويبدل ، وينتج فيها وينشىء ، ويركب فيها ويحلل ، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة .

وكرمه بتسخير القوى الكونية له فى الأرض وإمداده بعون القوى الكونية فى الكواكب والأفلاك . .

وكرمه بذلك الاستقبال الفخم الذى استقبله به الوجود ، وبذلك الموكب الذى تسجد فيه الملائكة ويعلن فيه الخالق جل شأنه تكريم هذا الإنسان !

وكرمه بإعلان هذا التكريم كله فى كتابه المنزل من الملأ الأعلى الباقى فى الأرض . . القرآن . .

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . .

« وحملناهم فى البر والبحر » والحمل فى البر والبحر يتم بتسخير النواميس وجعلها موافقة لطبيعة الحياة الإنسانية وما ركب فيها من استعدادات ، ولو لم تكن هذه النواميس موافقة للطبيعة البشرية لما قامت الحياة الإنسانية ، وهى ضعيفة ضئيلة بالقياس إلى العوامل الطبيعية فى البر والبحر . ولكن الإنسان مزود بالقدرة على الحياة فيها ، ومزود كذلك بالاستعدادات التى تمكنه من استخدامها . وكله من فضل الله .

« ورزقناهم من الطيبات » . . والإنسان ينسى ما رزقه الله من الطيبات بطول الألفة فلايذكر الكثير من هذه الطيبات التى رزقها إلا حين يحرمها. فعندئذ يعرف قيمة مايستمتع به ، ولكنه سرعان ما يعود فينسى . . هذه الشمس . هذا الهواء . هذا الماء . هذه الصحة . هذه القدرة على الحركة . هذه الحواس . هذا العقل . . هذه المطاعم والمشارب والمشاهد . . . هذا الكون الطويل العريض الذى استخلف فيه ، وفيه من الطيبات ما لا يحصيه .

« وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . . فضلناهم بهذا الاستخلاف فى ملك الأرض الطويل العريض . وبما ركب فى فطرتهم من استعدادات تجعل المخلوق الإنسانى فذاً بين الخلائق فى ملك الله . . .

* * *

Marfat.com

ومن التكريم أن يكون الإنسان قيما على نفسه ، محتملا تبعة اتجاهه وعمله . فهذه هي الصفة الأولى التي بها كان الإنسان إنسانا . حرية الاتجاه وفردية التبعة . وبها استخلف في دار العمل . فمن العدل أن يلقى جزاء اتجاهه وثمرة عمله في دار الحساب :

« يوم ندعو كل أناس بإمامهم . فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا . ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » . .

وهو مشهد يصور الخلائق محشورة . وكل جماعة تنادى بعنوانها باسم المنهج الذي اتبعته ، أو الرسول الذي اقتدت به ، أو الإمام الذي ائتمت به في الحياة الدنيا . تنادى ليسلم لها كتاب عملها وجزائها في الدار الآخرة . . فمن أوتي كتابه بيمينه فهو فرح بكتابه يقرؤه ويتملاه ، ويوفى أجره لا ينقص منه شيئاً ولو قدر الخيط الذي يتوسط النواة ! ومن عمى في الدنيا عن دلائل الهدى فهو في الآخرة أعمى عن طريق الخير . وأشد ضلالا . وجزاؤه معروف . ولكن السياق يرسمه في المشهد المزدحم الهائل ، أعمى ضالا يتخبط ، لا يجد من يهديه ولا ما يهتدي به ، ويدعه كذلك لا يقرر في شأنه أمرا ، لأن مشهد العمى والضلال في ذلك الموقف العصيب هو وحده جزاء مرهوب ؛ يؤثر في القلوب !

« وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ، وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا * وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ، وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا .

« أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا * وَقُلْ : رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ، وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ، وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ

Marfat.com

سُلْطَانًا نَصِيرًا * وَقُلْ : جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا * وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا .

« وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا * قُلْ : كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ، فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا .

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ . قُلِ : الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا * وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا * إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا .

« قُلْ : لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَقَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ، أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ، أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ . وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ . قُلْ : سُبْحَانَ رَبِّي ! هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ؟

« وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا : أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا * قُلْ : لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا * قُلْ : كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ، مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ

زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا * ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا : أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ؟ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ ، فَأَبَىٰ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا

« قُلْ : لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ : إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَىٰ مَسْحُورًا * قَالَ : لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ، وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا * فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا * وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ : اسْكُنُوا الْأَرْضَ ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا .

« وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا * قُلْ : آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ : سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا .

« قُلِ : ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ، أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ، وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ، وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * وَقُلِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ، وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا »(١١١)

Marfat.com

Marfat.com

هـذا الدرس الأخير فى سورة الإسراء يقوم على المحور الرئيسى للسورة . شخص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وموقف القوم منه . والقرآن الذى جاء به وخصائص هذا القرآن .

وهو يبدأ بالإشارة إلى محاولات المشركين مع الرسول ليفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه ، وما هموا به من إخراجه من مكة وعصمة الله له من فتنتهم ومن استفزازهم ، لما سبق فى علمه تعالى من إمهالهم وعدم أخذهم بعذاب الإبادة كالأمم قبلهم . ولو أخرجوا الرسول لحاق بهم الهلاك وفق سنة الله التى لا تتبدل مع الذين يخرجون رسلهم من الأقوام .

ومن ثم يؤمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يمضى فى طريقه يصلى لربه ويقرأ قرآنه ويدعو الله أن يدخله مدخل صدق ويخرجه مخرج صدق ويجعل له سلطان نصيراً ،ويعلن مجىء الحق وزهوق الباطل . فهذا الاتصال بالله هو سلاحه الذى يعصمه من الفتنة ويكفل له النصر والسلطان .

ثم بيان لوظيفة القرآن فهو شفاء ورحمة لمن يؤمنون به ، وهو عذاب ونقمة على من يكذبون ، فهم فى عذاب منه فى الدنيا ويلقون العذاب بسببه فى الآخرة .

وبمناسبة الرحمة والعذاب يذكر السياق شيئا من صفة الإنسان فى حالتى الرحمة والعذاب . فهو فى النعمة متبطر معرض ، وهو فى النقمة يؤوس قنوط. ويعقب على هذا بتهديد خفى بترك كل إنسان يعمل وفق طبيعته حتى يلقى فى الآخرة جزاءه .

كذلك يقرر أن علم الإنسان قليل ضئيل . وذلك بمناسبة سؤالهم عن الروح. والروح غيب من غيب الله ، ليس فى مقدور البشر إدراكه .. والعلم المستيقن هو ما أنزله الله على رسوله . وهو من فضله عليه ولو شاء الله لذهب بهـذا الفضل دون معقب ، ولكنها رحمة الله وفضله على رسوله .

ثم يذكر أن هـذا القرآن المعجز الذى لا يستطيع الإنسان والجن أن يأتوا بمثله ولو اجتمعوا وتظاهروا ، والذى صرف الله فيه دلائل الهدى ونوعها لتخاطب كل عقل وكل قلب .. هـذا القرآن لم يغن كفار قريش ، فراحوا يطلبون إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ خوارق مادية ساذجة كتفجير الينابيع فى الأرض ، أو أن يكون له بيت من زخرف ؛ كما تعنتوا فطلبوا ما ليس من خصائص البشر كأن يرقى الرسول فى السماء أمامهم ويأتى إليهم بكتاب مادى يقرأونه ، أو يرسل عليهم قطعا من السماء تهلكهم . وزادوا عنتا وكفرا فطلبوا أن يأتيهم بالله والملائكة قبيلا !

وهنا يعرض السياق مشهدا من مشاهد القيامة يصور فيه عاقبتهم التى تنتظرهم جزاء هـذا العنت ، وجزاء تكذيبهم بالآخرة ، واستنكارهم البعث وقد صاروا عظاما ورفاتا .

ويسخر من اقتراحاتهم المتعنتة ، وهم لو كانوا خزنة رحمة الله ، لأدركهم الشح البشرى فأمسكوا خشية نفاد الخزائن التى لا تنفد ! وهم مع ذلك لا يقفون عند حد فيما يطلبون ويقترحون !

وبمناسبة طلبهم الخوارق يذكرهم بالخوارق التى جاء بها موسى فكذب بها فرعون وقومه فأهلكهم الله حسب سنته فى إهلاك المكذبين .

فأما هذا القرآن فهو المعجزة الباقية الحقة . وقد جاء متفرقا حسب حاجة الأمة التى جاء لتربيتها وإعدادها . والذين أوتوا العلم من قبله من مؤمنى الأمم السابقة يدركون ما فيه من حق ويذعنون له ويخشعون ، ويؤمنون به ويسلمون .

وتنتهى السورة بتوجيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى عبادة الله وحده ، وإلى تسبيحه وحمده ، كما بدأت بالتسبيح والتنزيه ..

* * *

« وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره . وإذا لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا . إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيرا . وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ، وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا . سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا » . .

يعدد السياق محاولات المشركين مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأولها محاولة فتنته عما أوحى الله إليه ، ليفترى عليه غيره ، وهو الصادق الأمين .

لقد حاولوا هـذه المحاولة فى صور شتى . . منها مساومتهم له أن يعبدوا إلهه فى مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم . ومنها مساومة بعضهم له أن يجعل أرضهم حراما كالبيت العتيق الذى حرمه الله . ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلسا غير مجلس الفقراء . . .

والنص يشير إلى هذه المحاولات ولا يفصلها ، ليذكر فضل الله على الرسول فى تثبيته على الحق ، وعصمته من الفتنة ، ولو تخلى عنه تثبيت الله وعصمته لركن إليهم فاتخذوه خليلا .

Marfat.com

Marfat.com

وللقى عاقبة الركون إلى فتنة المشركين ، وهى مضاعفة العذاب فى الحياة والممات ، دون أن يجد له نصيراً منهم يعصمه من الله .

هذه المحاولات التى عصم الله منها رسوله ، هى محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائما . محاولة إغرائهم لينحرفوا - ولو قليلا - عن استقامة الدعوة وصلابتها . ويرضوا بالحلول الوسط التى يغرونهم بها فى مقابل مغانم كثيرة . ومن حملة الدعوات من يفتن بهذا عن دعوته لأنه يرى الأمر هينا ، فأصحاب السلطان لايطلبون إليه أن يترك دعوته كلية ، إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقى الطرفان فى منتصف الطريق . وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة ، فيتصور أن خير الدعوة فى كسب أصحاب السلطان إليها ولو بالتنازل عن جانب منها !

ولكن الانحراف الطفيف فى أول الطريق ينتهى إلى الانحراف الكامل فى نهاية الطريق. وصاحب الدعوة الذى يقبل التسليم فى جزء منها ولو يسير ، وفى إغفال طرف منها ولو ضئيل ، لا يملك أن يقف عند ما سلم به أول مرة . لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء !

والمسألة مسألة إيمان بالدعوة كلها . فالذى ينزل عن جزء منها مهما صغر ، والذى يسكت عن طرف منها مهما ضؤل ، لايمكن أن يكون مؤمنا بدعوته حق الإيمان . فكل جانب من جوانب الدعوة فى نظر المؤمن هو حق كالآخر . وليس فيها فاضل ومفضول . وليس فيها ضرورى ونافلة . وليس فيها مايمكن الاستغناء عنه ، وهى كلٌّ متكامل يفقد خصائصه كلها حين يفقد أحد أجزائه . كالمركب يفقد خواصه كلها إذا فقد أحد عناصره !

وأصحاب السلطان يستدرجون أصحاب الدعوات . فإذا سلموا فى الجزء فقدوا هيبتهم وحصانتهم ، وعرف المتسلطون أن استمرار المساومة ، وارتفاع السعر ينتهيان إلى تسليم الصفقة كلها !

والتسليم فى جانب ولو ضئيل من جوانب الدعوة لكسب أصحاب السلطان إلى صفها ؛ هو هزيمة روحية بالاعتماد على أصحاب السلطان فى نصرة الدعوة . والله وحده هو الذى يعتمد عليه المؤمنون بدعوتهم . ومتى دبت الهزيمة فى أعماق السريرة ، فلن تنقلب الهزيمة نصرا !

لذلك امتن الله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن ثبته على ماأوحى الله ، وعصمه من

Marfat.com

فتنة المشركين له ، ووقاه الركون إليهم ـ ولو قليلا ـ ورحمه من عاقبة هـذا الركون ، وهى عذاب الدنيا والآخرة مضاعفا ، وفقدان المعين والنصير .

وعندما عجز المشركون عن استدراج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى هـذه الفتنة حاولوا استفزازه من الأرض ـ أى مكة ـ ولـكن الله أوحى إليه أن يخرج هو مهاجرا ، لما سبق فى علمه من عدم إهلاك قريش بالإبادة . ولو أخرجوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنوة وقسرا لحل بهم الهلاك « وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا » فهذه هى سنة الله النافذة : « سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنتنا تحويلا » .

ولقد جعل الله هذه سنة جارية لا تتحول ، لأن إخراج الرسل كبيرة تستحق التأديب الحاسم . وهذا الـكون تصرفه سنن مطردة ، لا تتحول أمام اعتبار فردى. وليست المصادفات العابرة هى السائدة فى هـذا الـكون ، إنما هى السنن المطردة الثابتة . فلما لم يرد الله أن يأخـذ قريشا بعذاب الإبادة كما أخذ المـكذبين من قبل ، لحـكمة علوية ، لم يرسل الرسول بالخوارق ، ولم يقدر أن يخرجوه عنوة ، بل أوحى إليه بالهجرة . ومضت سنة الله فى طريقها لا تتحول ..

* * *

بعد ذلك يوجه الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الاتصال به ، واستمداد العون منه ، والمضى فى طريقه ، يعلن انتصار الحق وزهوق الباطل :

«أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ، وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهودا ؛ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ؛ وقل : جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا . وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » . .

ودلوك الشمس هو ميلها إلى المغيب . والأمر هنا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة . أما الصلاة المـكتوبة فلها أوقاتها التى تواترت بها أحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتواترت بها سنته العملية . وقد فسر بعضهم دلوك الشمس بزوالها عن كبد السماء ، والغسق بأول الليل ، وفسر قرآن الفجر بصلاة الفجر ، وأخذ من هـذا أوقات الصلاة المـكتوبة وهى الظهر والعصر والمغرب والعشاء ـ من دلوك الشمس إلى الغسق ـ ثم الفجر . وجعل التهجد وحده هو الذى اختص رسول الله بأن يكون مأمورا به ، وأنه نافلة له .

Marfat.com

ونحن نميل إلى الرأى الأول . وهو أن كل ماورد فى هذه الآيات مختص بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن أوقات الصلاة المكتوبة ثابتة بالسنة القولية والعملية .

« أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل » .. أقم الصلاة مابين ميل الشمس للغروب وإقبال الليل وظلامه ؛ واقرأ قرآن الفجر « إن قرآن الفجر كان مشهودا » .. ولهذين الآنين خاصيتهما وهما إدبار النهار وإقبال الليل . وإدبار الليل وإقبال النهار . ولهما وقعهما العميق فى النفس، فإن مقدم الليل وزحف الظلام ، كمطلع النور وانكشاف الظلمة .. كلاهما يخشع فيه القلب ، وكلاهما مجال للتأمل والتفكر فى نواميس الكون التى لا تفتر لحظة ولا تختل مرة . وللقرآن ـ كما للصلاة ـ إيقاعه فى الحس فى مطلع الفجر ونداوته ، ونسماته الرخية ، وهدوئه السارب ، وتفتحه بالنور ، ونبضه بالحركة ، وتنفسه بالحياة .

« ومن الليل فتهجد به نافلة لك » .. والتهجد الصلاة بعد نومة أول الليل . والضمير فى « به » عائد على القرآن ، لأنه روح الصلاة وقوامها .

« عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » .. بهذه الصلاة وبهذا القرآن والتهجد به ، وبهذه الصلة الدائمة بالله . فهذا هو الطريق المؤدى إلى المقام المحمود . وإذا كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤمر بالصلاة والتهجد والقرآن ليبعثه ربه المقام المحمود المأذون له به[1] ، وهو المصطفى المختار ، فما أحوج الآخرين إلى هذه الوسائل لينالوا المقام المأذون لهم به فى درجاتهم . فهذا هو الطريق . وهذا هو زاد الطريق .

« وقل : رب أدخلنى مدخل صدق . وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » .

وهو دعاء يعلمه الله لنبيه ليدعوه به . ولتعلم أمته كيف تدعو الله وفيم تتجه إليه . دعاء بصدق المدخل وصدق المخرج ، كناية عن صدق الرحلة كلها . بدئها وختامها . أولها وآخرها ومابين الأول والآخر . وللصدق هنا قيمته بمناسبة ماحاوله المشركون من فتنته عما أنزل الله عليه ليفترى على الله غيره. وللصدق كذلك ظلاله : ظلال الثبات والاطمئنان والنظافة والإخلاص . « واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » قوة وهيبة أستعلى بهما على سلطان الأرض وقوة المشركين وكلمة « من لدنك » تصور القرب والاتصال بالله والاستمداد من عونه مباشرة واللجوء إلى حماه .

وصاحب الدعوة لا يمكن أن يستمد السلطان إلا من الله . ولا يمكن أن يهاب إلا بسلطان

(١) فى روايات أنه مقام الشفاعة يوم القيامة .

الله . لا يمكن أن يستظل بحاكم أو ذى جاه فينصره ويمنعه مالم يكن اتجاهه قبل ذلك إلى الله . والدعوة قد تغزو قلوب ذوى السلطان والجاه ، فيصبحون لها جندا وخدما فيفلحون، ولكنها هى لا تفلح إن كانت من جند السلطان وخدمه ، فهى من أمر الله ، وهى أعلى من ذوى السلطان والجاه .

« وقل : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » . .

بهذا السلطان المستمد من الله ، أعلن مجىء الحق بقوته وصدقه وثباته ، وزهوق الباطل واندحاره وجلاءه . فمن طبيعة الصدق أن يحيا ويثبت ، ومن طبيعة الباطل أن يتوارى ويزهق . .

« إن الباطل كان زهوقا » . . حقيقة لدنية يقررها بصيغة التوكيد . وإن بدا للنظرة الأولى أن للباطل صولة ودولة . فالباطل ينتفخ ويتنفج وينفش ، لأنه باطل لا يطمئن إلى حقيقة؛ ومن ثم يحاول أن يموه على العين ، وأن يبدو عظيما كبيرا ضخماً راسخا ، ولكنه هش سريع العطب ، كشعلة الهشيم ترتفع فى الفضاء عالياً ثم تخبو سريعا وتستحيل إلى رماد ؛ بينما الجمرة الذاكية تدفىء وتنفع وتبقى ؛ وكالزبد يطفو على الماء ولكنه يذهب جفاء ويبقى الماء .

« إن الباطل كان زهوقا » . . لأنه لا يحمل عناصر البقاء فى ذاته ، إنما يستمد حياته الموقوتة من عوامل خارجية وأسناد غير طبيعية ؛ فإذا تخلخلت تلك العوامل ، ووهت هذه الأسناد تهاوى وانهار . فأما الحق فمن ذاته يستمد عناصر وجوده . وقد تقف ضده الأهواء وتقف ضده الظروف ويقف ضده السلطان . ولكن ثباته واطمئنانه يجعل له العقبى ويكفل له البقاء ، لأنه من عند الله الذى جعل « الحق » من أسمائه وهو الحى الباقى الذى لا يزول .

« إن الباطل كان زهوقا » . . ومن ورائه الشيطان ، ومن ورائه السلطان . ولكن وعد الله أصدق ، وسلطان الله أقوى . وما من مؤمن ذاق طعم الإيمان ، إلا وذاق معه حلاوة الوعد ، وصدق العهد . ومن أوفى بعهده من الله ؟ ومن أصدق من الله حديثا ؟

* * *

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » . .

وفى القرآن شفاء ، وفى القرآن رحمة ، لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان ، فأشرقت وتفتحت لتلقى ما فى القرآن من روح ، وطمأنينة وأمان .

Marfat.com

Marfat.com

فى القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة . فهو يصل القلب بالله ، فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن ؛ ويرضى فيستروح الرضى من الله والرضى عن الحياة ؛ والقلق مرض ، والحيرة نصب ، والوسوسة داء . ومن ثم هو رحمة للمؤمنين .

وفى القرآن شفاء من الهوى والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان . . وهى من آفات القلب تصيبه بالمرض والضعف والتعب ، وتدفع به إلى التحطم والبلى والانهيار . ومن ثم هو رحمة للمؤمنين .

وفى القرآن شفاء من الاتجاهات المختلة فى الشعور والتفكير . فهو يعصم العقل من الشطط ، ويطلق له الحرية فى مجالاته المثمرة ، ويكفه عن إنفاق طاقته فيما لا يجدى ، ويأخذه بمنهج سليم مضبوط ، يجعل نشاطه منتجا ومأمونا . ويعصمه من الشطط والزلل . وكذلك هو فى عالم الجسد ينفق طاقاته فى اعتدال بلا كبت ولا شطط فيحفظه سليما معافى ويدخر طاقاته للإنتاج المثمر . ومن ثم هو رحمة للمؤمنين .

وفى القرآن شفاء من العلل الاجتماعية التى تخلخل بناء الجماعات ، وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنينتها . فتعيش الجماعة فى ظل نظامه الاجتماعى وعدالته الشاملة فى سلامة وأمن وطمأنينة. ومن ثم هو رحمة للمؤمنين .

« ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » . .

فهم لا ينتفعون بما فيه من شفاء ورحمة . وهم فى غيظ وقهر من استعلاء المؤمنين به ، وهم فى عنادهم وكبريائهم يشتطون فى الظلم والفساد ، وهم فى الدنيا مغلوبون من أهل هذا القرآن ، فهم خاسرون . وفى الآخرة معذبون بكفرهم به ولجاجهم فى الطغيان ، فهم خاسرون: « ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » . .

* * *

فأما حين يترك الإنسان بلا شفاء ولا رحمة . حين يترك لنزعاته واندفاعاته فهو فى حال النعمة متبطر معرض لا يشكر ولا يذكر ، وهو فى حال الشدة يائس من رحمة الله ، تظلم فى وجهه فجاج الحياة :

« وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر كان يؤوسا » . .

والنعمة تطغى وتبطر ما لم يذكر الإنسان واهبها فيحمد ويشكر ، والشدة تيئس وتقنط ما لم يتصل الإنسان بالله ، فيرجو ويأمل ، ويطمئن إلى رحمة الله وفضله ، فيتفاءل ويستبشر .

Marfat.com

ومن هنا تتجلى قيمة الإيمان وما فيه من رحمة فى السراء والضراء سواء .

ثم يقرر السياق أن كل فرد وكل فريق يعمل وفق طريقته واتجاهه ؛ والحكم على الاتجاهات والأعمال موكول لله :

« قل : كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » . .

وفى هذا التقرير تهديد خفى ، بعاقبة العمل والاتجاه ، ليأخذ كل حذره ، ويحاول أن يسلك سبيل الهدى ويجد طريقه إلى الله .

* * *

وراح بعضهم يسأل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الروح ماهو ؟ والمنهج الذى سار عليه القرآن ـ وهو المنهج الأقوم ـ أن يجيب الناس عما هم فى حاجة إليه ، وما يستطيع إدراكهم البشرى بلوغه ومعرفته ؛ فلا يبدد الطاقة العقلية التى وهبها الله لهم فيما لا ينتج ولا يثمر ، وفى غير مجالها الذى تملك وسائله وتحيط به . فلما سألوه عن الروح أمره الله أن يجيبهم بأن الروح من أمر الله ، اختص بعلمه دون سواه :

« ويسألونك عن الروح . قل : الروح من أمر ربى . وما أوتيتم من العلم إلا قليلا[1] » . .

وليس فى هذا حجر على العقل البشرى أن يعمل . ولكن فيه توجيها لهذا العقل أن يعمل فى حدوده وفى مجاله الذى يدركه . فلا جدوى من الخبط فى التيه ، ومن إنفاق الطاقة فيما لا يملك العقل إدراكه لأنه لا يملك وسائل إدراكه . والروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه ، وسر من أسراره القدسية أودعه هذا المخلوق البشرى وبعض الخلائق التى لا نعلم حقيقتها . وعلم الإنسان محدود بالقياس إلى علم الله المطلق ، وأسرار هذا الوجود أوسع من أن يحيط بها العقل البشرى المحدود . والإنسان لا يدبر هذا الكون فطاقاته ليست شاملة ، إنما وهب منها بقدر محيطه وبقدر حاجته ليقوم بالخلافة فى الأرض ، ويحقق فيها ما شاء الله أن يحققه ، فى حدود علمه القليل .

ولقد أبدع الإنسان فى هذه الأرض ما أبدع ؛ ولكنه وقف حسيرا أمام ذلك السر اللطيف ـ الروح ـ لا يدرى ما هو ، ولا كيف جاء ، ولا كيف يذهب ، ولا أين كان ولا أين يكون ، إلا ما يخبر به العليم الخبير فى التنزيل .

---

(١) فى الأرجح أن هذا السؤال جاء من أهل الكتاب وأن هذه الآية مدنية هى وسبع آيات بعدها .

Marfat.com

وما جاء فى التنزيل هو العلم المستيقن ، لأنه من العليم الخبير . ولو شاء الله لحرم البشرية منه ، وذهب بما أوحى إلى رسوله ؛ ولـكنها رحمة الله وفضله .

« ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ، ثم لا تجد لك به علينا وكيلا . إلا رحمة من ربك ، إن فضله كان عليك كبيرا » . .

والله يمتن على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا الفضل . فضل إنزال الوحى ، واستبقاء ما أوحى به إليه ؛ والمنة على الناس أكبر ، فهم بهذا القرآن فى رحمة وهداية ونعمة ، أجيالا بعد أجيال .

* * *

وكما أن الروح من الأسرار التى اختص الله بها فالقرآن من صنع الله الذى لا يملك الخلق محاكاته ، ولا يملك الإنس والجن ـ وهما يمثلان الخلق الظاهر والخفى ـ أن يأتوا بمثله ، ولو تظاهروا وتعاونوا فى هذه المحاولة :

« قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . .

فهذا القرآن ليس ألفاظا وعبارات يحاول الإنس والجن أن يحاكوها . إنما هو كسائر مايبدعه الله يعجز المخلوقون أن يصنعوه . هو كالروح من أمر الله لايدرك الخلق سره الشامل الـكامل ، وإن أدركوا بعض أوصافه وخصائصه وآثاره .

والقرآن بعد ذلك منهج حياة كامل . منهج ملحوظ فيه نواميس الفطرة التى تصرف النفس البشرية فى كل أطوارها وأحوالها ، والتى تصرف الجماعات الإنسانية فى كل ظروفها وأطوارها . ومن ثم فهو يعالج النفس المفردة ، ويعالج الجماعة المتشابكة ، بالقوانين الملائمة للفطرة المتغلغلة فى وشائجها ودروبها ومنحنياتها الـكثيرة . يعالجها علاجاً متكاملا متناسق الخطوات فى كل جانب ، فى الوقت الواحد ، فلا يغيب عن حسابه احتمال من الاحتمالات الـكثيرة ولا ملابسة من الملابسات المتعارضة فى حياة الفرد وحياة الجماعة . لأن مشرع هذه القوانين هو العليم بالفطرة فى كل أحوالها وملابساتها المتشابكة .

أما النظم البشرية فهى متأثرة بقصور الإنسان وملابسات حياته . ومن ثم فهى تقصر عن الإحاطة بجميع الاحتمالات فى الوقت الواحد ؛ وقد تعالج ظاهرة فردية أو اجتماعية بدواء يؤدى بدوره إلى بروز ظاهرة أخرى تحتاج إلى علاج جديد !

Marfat.com

إن إعجاز القرآن أبعد مدى من إعجاز نظمه ومعانيه، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله هو عجز كذلك عن إبداع منهج كمنهجه يحيط بما يحيط به.

« ولقد صرفنا فى هـذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا. وقالوا: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا؛ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا؛ أو تسقط السماء - كما زعمت - علينا كسفا؛ أو تأتى بالله والملائكة قبيلا؛ أو يكون لك بيت من زخرف؛ أو ترقى فى السماء. ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ... ».

وهكذا قصر إدراكهم عن التطلع إلى آفاق الإعجاز القرآنية، فراحوا يطلبون تلك الخوارق المادية، ويتعنتون فى اقتراحاتهم الدالة على الطفولة العقلية، أو يتبجحون فى حق الذات الإلهية بلا أدب ولا تحرج.. لم ينفعهم تصريف القرآن للأمثال والتنويع فيها لعرض حقائقه فى أساليب شتى تناسب شتى العقول والمشاعر، وشتى الأجيال والأطوار. « فأبى أكثر الناس إلا كفورا » وعلقوا إيمانهم بالرسول - صلى الله عليه وسلم - بأن يفجر لهم من الأرض ينبوعا! أو بأن تكون له جنة من نخيل وعنب يفجر الأنهار خلالها تفجيرا! أو أن يأخذهم بعذاب من السماء، فيسقطها عليهم قطعا كما أنذرهم أن يكون ذلك يوم القيامة! أو أن يأتى بالله والملائكة قبيلا يناصره ويدفع عنه كما يفعلون هم فى قبائلهم! أو أن يكون له بيت من المعادن الثمينة. أو أن يرقى فى السماء. ولا يكفى أن يعرج إليها وهم ينظرونه، بل لا بد أن يعود إليهم ومعه كتاب محبر يقرأونه!

وتبدو طفولة الإدراك والتصور، كما يبدو التعنت فى هـذه المقترحات الساذجة. وهم يسوون بين البيت المزخرف والعروج إلى السماء! أو بين تفجير الينبوع من الأرض ومجىء الله - سبحانه - والملائكة قبيلا! والذى يجمع فى تصورهم بين هذه المقترحات كلها هو أنها خوارق. فإذا جاءهم بها نظروا فى الإيمان له والتصديق به!

وغفلوا عن الخارقة الباقية فى القرآن، وهم يعجزون عن الإتيان بمثله فى نظمه ومعناه ومنهجه، ولكنهم لا يلمسون هذا الإعجاز بحواسهم فيطلبون ما تدركه الحواس!

والخارقة ليست من صنع الرسول، ولا هى من شأنه، إنما هى من أمر الله سبحانه وفق تقديره وحكمته. وليس من شأن الرسول أن يطلبها إذا لم يعطه الله إياها. فأدب الرسالة وإدراك حكمة الله فى تدبيره يمنعان الرسول أن يقترح على ربه مالم يصرح له به.. « قل: سبحان

ربى هل كنت إلا بشرا رسولا » يقف عند حدود بشريته ، ويعمل وفق تكاليف رسالته ، لا يقترح على الله ولا يتزيد فيما كلفه إياه .

* * *

ولقد كانت الشبهة التى عرضت للأقوام من قبل أن يأتيهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن بعد ماجاءهم ، والتى صدتهم عن الإيمان بالرسل ومامعهم من الهدى ، أنهم استبعدوا أن يكون الرسول بشرا ؛ ولا يكون ملكا :

« وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشرا رسولا ؟ »

وقد نشأ هذا الوهم من عدم إدراك الناس لقيمة بشريتهم وكرامتها على الله ، فاستكثروا على بشر أن يكون رسولا من عند الله . كذلك نشأ هذا الوهم من عدم إدراكهم لطبيعة الكون وطبيعة الملائكة ، وأنهم ليسوا مهيئين للاستقرار فى الأرض وهم فى صورتهم الملائكية حتى يميزهم الناس ويستيقنوا أنهم ملائكة .

« قل : لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » .

فلو قدر الله أن الملائكة تعيش فى الأرض لصاغهم فى صورة آدمية ، لأنها الصورة التى تتفق مع نواميس الخلق وطبيعة الأرض ، كما قال فى آية أخرى : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا » والله قادر على كل شىء ، ولكنه خلق نواميس وبرأ مخلوقاته وفق هذه النواميس بقدرته واختياره ، وقدر أن تمضى النواميس فى طريقها لا تتبدل ولا تتحول ، لتحقق حكمته فى الخلق والتكوين ـ غير أن القوم لا يدركون !

ومادامت هذه سنة الله فى خلقه ، فهو يأمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ينهى معهم الجدل ، وأن يكل أمره وأمرهم إلى الله يشهده عليهم ، ويدع له التصرف فى أمرهم ، وهو الخبير البصير بالعباد جميعا :

« قل : كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا » . .

وهو قول يحمل رائحة التهديد . أما عاقبته فيرسمها فى مشهد من مشاهد القيامة مخيف :

« ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ، مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا . ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا ، وقالوا : أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ أو لم يروا

Marfat.com

أن الله الذى خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ؟ وجعل لهم أجلا لا ريب فيه ، فأبى الظالمون إلا كفورا » . .

ولقد جعل الله للهدى والضلال سننا ، وترك الناس لهذه السنن يسيرون وفقها ، ويتعرضون لعواقبها . ومن هذه السنن أن الإنسان مهيأ للهدى وللضلال ، وفق مايحاوله لنفسه من السير فى طريق الهدى أو طريق الضلال . فالذى يستحق هداية الله بمحاولته واتجاهه يهديه الله ؛ وهذا هو المهتدى حقا ، لأنه اتبع هدى الله . والذين يستحقون الضلال بالإعراض عن دلائل الهدى وآياته لا يعصمهم أحد من عذاب الله : « فلن تجد لهم أولياء من دونه » ويحشرهم يوم القيامة فى صورة مهينة مزعجة : « على وجوههم » يتكفأون « عميا وبكما وصما » مطموسين محرومين من جوارحهم التى تهديهم فى هذا الزحام . جزاء ماعطلوا هذه الجوارح فى الدنيا عن إدراك دلائل الهدى . « ومأواهم جهنم » فى النهاية ، لاتبرد ولا تفتر « كلما خبت زدناهم سعيرا » .

وهى نهاية مفزعة وجزاء مخيف . ولكنهم يستحقونه بكفرهم بآيات الله : « ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا » واستنكروا البعث واستبعدوا وقوعه : « وقالوا : أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ »

والسياق يعرض هذا المشهد كأنه هو الحاضر الآن ، وكأنما الدنيا التى كانوا فيها قد انطوت صفحتها وصارت ماضيا بعيدا . . وذلك على طريقة القرآن فى تجسيم المشاهد وعرضها واقعة حية ، تفعل فعلها فى القلوب والمشاعر قبل فوات الأوان .

ثم يعود ليجادلهم بالمنطق الواقعى الذى يرونه فيغفلونه .

« أو لم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ؟ » ، فأية غرابة فى البعث ؛ والله خالق هذا الكون الهائل قادر على أن يخلق مثلهم ، فهو قادر إذا على أن يعيدهم أحياء . « وجعل لهم أجلا لا ريب فيه » أنظرهم إليه ، وأجلهم إلى موعده « فأبى الظالمون إلا كفورا » فكان جزاؤهم عادلا بعد منطق الدلالات ومنطق المشاهدات ، ووضوح الآيات .

* * *

على أن أولئك الذين يقترحون على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تلك المقترحات المتعنتة ، من بيوت الزخرف ، وجنات النخيل والأعناب ، والينابيع المتفجرة . . بخلاء أشحاء حتى لو أن

Marfat.com

رحمة الله قد وكلت إليهم خزائنها لأمسكوا وبخلوا خوفا من نفادها ، ورحمة الله لاتنفدولاتغيض :

« قل : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا » .

وهى صورة بالغة للشح ، فإن رحمة الله وسعت كل شى ، ولا يخشى نفادها ولا نقصها . ولكن نفوسهم لشحيحة تمنع هذه الرحمة وتبخل بها لو أنهم كانوا هم خزنتها !

* * *

وعلى أية حال فإن كثرة الخوارق لا تنشىء الإيمان فى القلوب الجاحدة . وهاهو ذا موسى قد أوتى تسع آيات بينات ثم كذب بها فرعون وملؤه ، فحل بهم الهلاك جميعا .

« ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون : إنى لأظنك ياموسى مسحورا . قال : لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر ، وإنى لأظنك يافرعون مثبورا . فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا . وقلنا من بعده لبنى إسرائيل : اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا » . .

وهذا المثل من قصة موسى وبنى إسرائيل يذكر لتناسقه مع سياق السورة وذكر المسجد الأقصى فى أولها وطرف من قصة بنى إسرائيل وموسى . وكذلك يعقب عليه بذكر الآخرة والمجىء بفرعون وقومه لمناسبة مشهد القيامة القريب فى سياق السورة ومصير المكذبين بالبعث الذى صوره هذا المشهد .

والآيات التسع المشار إليها هنا هى اليد البيضاء والعصا وما أخذ الله به فرعون وقومه من السنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . . « فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم » فهم شهداء على ما كان بين موسى وفرعون :

« فقال له فرعون : إنى لأظنك ياموسى مسحورا » . . فكلمة الحق وتوحيد الله والدعوة إلى ترك الظلم والطغيان والإيذاء لا تصدر فى عرف الطاغية إلا من مسحور لا يدرى مايقول ! فما يستطيع الطغاة من أمثال فرعون أن يتصوروا هذه المعانى ؛ ولا أن يرفع أحد رأسه ليتحدث عنها وهو يملك قواه العقلية !

فأما موسى فهو قوى بالحق الذى أرسل به مشرقا منيرا ؛ مطمئن إلى نصرة الله له وأخذه للطغاة :

Marfat.com

Marfat.com

« قال : لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض . بصائر . وإنى لأظنك يافرعون مثبورا » هالـكا مدمرا ، جزاء تـكذيبك بآيات الله وأنت تعلم أن لا أحد غيره علك هذه الخوارق . وإنها لواضحة مكشوفة منيرة للبصائر ، حتى لـكأنها البصائر تـكشف الحقائق وتجلوها .

عندئذ يلجأ الطاغية إلى قوته المادية ، ويعزم أن يزيلهم من الأرض ويبيدهم ، « فأراد أن يستفزهم من الأرض » فـكذلك يفـكر الطغاة فى الرد على كلمة الحق .

وعندئذ تحق على الطاغيـة كلمة الله ، وتجرى سنته بإهلاك الظالمين وتوريث المستضعفين الصابرين : « فأهلـكناه ومن معه جميعاً » . وقلنا من بعده لبنى إسرائيل : اسكنوا الأرض . فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا » ..

وهكذا كانت عاقبة التـكذيب بالآيات . وهكذا أورث الله الأرض للذين كانوا يستضعفون ، موكولين فيها إلى أعمالهم وسلوكهم ـ وقد عرفنا كيف كان مصيرهم فى أول السورة ـ أما هنا فهو يكلهم هم وأعداؤهم إلى جزاء الآخرة ، « فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا » .

* * *

ذلك مثل من الخوارق ، وكيف استقبلها المـكذبون ، وكيف جرت سنـة الله مع المـكذبين . فأما هذا القرآن فقد جاء بالحق ليـكون آية دائمة ، ونزل مفرقا ليقرأ على مهل فى الزمن الطويل :

« وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ، وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » . .

لقد جاء هذا القرآن ليربى أمة . ويقيم لها نظاما ، فتحمله هذه الأمة إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وتعلم به البشرية هذا النظام وفق المنهج الـكامل المتـكامل . ومن ثم فقد جاء هذا القرآن مفرقا وفق الحاجات الواقعية لتلك الأمة ، ووفق الملابسات التى صاحبت فترة التربية الأولى . والتربية تتم فى الزمن الطويل ، وبالتجربة العملية فى الزمن الطويل . جاء ليـكون منهجا عمليا يتحقق جزءا جزءا فى مرحلة الإعداد ، لا فقها نظريا ولا فـكرة تجريدية تعرض للقراءة والاستمتاع الذهنى !

وتلك حكمة نزوله متفرقا ، لا كتابا كاملا منذ اللحظة الأولى .

ولقـد تلقاه الجيل الأول من المسلمين على هذا المعنى . تلقوه توجيها يطبق فى واقع الحياة

كلما جاءهم منه أمر أو نهى ، وكلما تلقوا منه أدبا أو فريضة . وم يأخذوه متعة عقلية أو نفسية كما كانوا يأخذون الشعر والأدب ؛ ولا تسلية وتلهية كما كانوا يأخذون القصص والأساطير . فتكيفوا به فى حياتهم اليومية . تكيفوا به فى مشاعرهم وضمائرهم ، وفى سلوكهم ونشاطهم . وفى بيوتهم ومعاشهم . فكان منهج حياتهم الذى طرحوا كل ماعداه مما ورثوه ، ومما عرفوه ، ومما مارسوه قبل أن يأتيهم هذا القرآن .

قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .

ولقد أنزل الله هذا القرآن قائما على الحق : «وبالحق أنزلناه» فنزل ليقر الحق فى الأرض ويثبته : « وبالحق نزل » .. فالحق مادته والحق غايته . ومن الحق قوامه ، وبالحق اهتمامه .. الحق الأصيل الثابت فى ناموس الوجود ، والذى خلق الله السماوات والأرض قائمين به ، متلبسا بهما ، والقرآن مرتبط بناموس الوجود كله ، يشير إليه ويدل عليه وهو طرف منه . فالحق سداه ولحمته ، والحق مادته وغايته . والرسول مبشر ومنذر بهذا الحق الذى جاء به .

ودنا يأمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجبه القوم بهذا الحق ، ويدع لهم أن يختاروا طريقهم . إن شاءوا آمنوا بالقرآن وإن شاءوا لم يؤمنوا . وعليهم تبعة ما يختارون لأنفسهم . ويضع أمام أنظارهم نموذجا من تلقى الذين أوتوا العلم من قبله من اليهود والنصارى المؤمنين لهذا القرآن ، لعل لهم فيه قدوة وأسوة وهم الأميون الذين لم يؤتوا علما ولا كتابا :

« قل : آمنوا به أو لا تؤمنوا . إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ، ويقولون : سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ؛ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » ..

وهو مشهد موح يلمس الوجدان . مشهد الذين أوتوا العلم من قبله ، وهم يسمعون القرآن ، فيخشعون ، « ويخرون للأذقان سجدا » إنهم لا يتمالكون أنفسهم ، فهم لايسجدون ولكن « يخرون للأذقان سجدا » ثم تنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله وصدق وعده : « سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا » . ويغلبهم التأثر فلا تكفى الألفاظ فى تصوير ما يجيش فى صدورهم منه ، فإذا الدموع تنطلق معبرة عن ذلك التأثر الغامر الذى لا تصوره الألفاظ : « ويخرون للأذقان يبكون » .. « ويزيدهم خشوعا » فوق ما استقبلوه به من خشوع .

Marfat.com

إنه مشهد مصور لحالة شعورية غامرة ، يرسم تأثير هذا القرآن فى القلوب المتفتحة لاستقبال فيضه ؛ العارفة بطبيعته وقيمته بسبب ما أوتيت من العلم قبله . والعلم المقصود هو ما أنزله الله من الكتاب قبل القرآن ، فالعلم الحق هو ما جاء من عند الله .

* * *

هذا المشهد الموحى للذين أوتوا العلم من قبل يعرضه السياق بعد تخيير القوم فى أن يؤمنوا بهذا القرآن أو لا يؤمنوا ، ثم يعقب عليه بتركهم يدعون الله بما شاءوا من الأسماء - وقد كانوا بسبب أوهامهم الجاهلية ينكرون تسمية الله بالرحمن ، ويستبعدون هذا الاسم من أسماء الله - فكلها أسماؤه فما شاءوا منها فليدعوه بها :

« قل : ادعوا الله أو ادعوا الرحمان . أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى » .

وإن هى إلا سخافات الجاهلية وأوهام الوثنية التى لا تثبت للمناقشة والتعليل .

كذلك يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يتوسط فى صلاته بين الجهر والخفوت لما كانوا يقابلون به صلاته من استهزاء وإيذاء ، أو من نفور وابتعاد . ولعل الأمر كذلك لأن التوسط بين الجهر والخفاء أليق بالوقوف فى حضرة الله :

« ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » . .

* * *

وتختم السورة كما بدأت بحمد الله وتقرير وحدانيته بلا ولد ولا شريك ، وتنزيهه عن الحاجة إلى الولى والنصير . وهو العلى الكبير . فيلخص هذا الختام محور السورة الذى دارت عليه ، والذى بدأت ثم ختمت به :

« وقل : الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك فى الملك . ولم يكن له ولى من الذل . وكبره تكبيرا » . .

Marfat.com

سورة الكهف مكية

إلا آية ٢٨ ومن آية ٨٣ إلى نهاية السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ① قيما لينذر
بأسا شديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا
حسنا * ماكثين فيه أبدا * وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولدا * ما لهم به من علم
ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا * فلعلك باخع
نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا * إنا جعلنا ما على الأرض
زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا * وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ؟ * إذ أوى
الفتية إلى الكهف فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا * فضربنا على
آذانهم في الكهف سنين عددا * ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا.

« نحن نقص عليك نبأهم بالحق . إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى *
وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه
إلها ، لقد قلنا إذا شططا * هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان
بين ! فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟ * وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله
فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيئ لكم من أمركم مرفقا .

Marfat.com

« وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ، وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ، ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا * وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ، وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ، لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا .

« وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : كَمْ لَبِثْتُمْ ؟ قَالُوا : لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . قَالُوا : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ، فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ، فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ، وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا .

« وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ، إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ، فَقَالُوا : ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ . قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ : لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا .

« سَيَقُولُونَ : ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وَيَقُولُونَ : خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ، رَجْمًا بِالْغَيْبِ . وَيَقُولُونَ : سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ . قُلْ : رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ . فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ، وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا .

« وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * ـ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ـ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ : عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا .

« وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ : اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ، لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ، وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا * وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا » ٢٧

Marfat.com

Marfat.com

القصص هو العنصر الغالب فى هـذه السورة . ففى أولها تجىء قصة أصحاب الكهف ، وبعدها قصة الجنتين ، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس . وفى وسطها تجىء قصة موسى مع العبد الصالح . وفى نهايتها قصة ذى القرنين . ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة ، فهو وارد فى إحدى وسبعين آية من عشر ومئة آية ؛ ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها . وإلى جوار القصص بعض مشاهد القيامة ، وبعض مشاهد الحياة التى تصور فكرة أو معنى ، على طريقة القرآن فى التعبير بالتصوير .

أما المحور الموضوعى للسورة الذى ترتبط به موضوعاتها ، ويدور حوله سياقها ، فهو تصحيح العقيدة وتصحيح منهج النظر والفكر . وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة .

فأما تصحيح العقيدة فيقرره بدؤها وختامها .

فى البدء : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما . لينذر بأسا شديدا من لدنه ؛ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا ماكثين فيه أبدا ، وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولدا . مالهم به من علم ولا لآبائهم . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » .

وفى الختام : « قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .

وهكذا يتساوق البدء والختام فى إعلان الوحدانية وإنكار الشرك ، وإثبات الوحى ، والتميز المطلق بين الذات الإلهية وذوات الحوادث .

ويلمس سياق السورة هذا الموضوع مرات كثيرة فى صور شتى :

فى قصة أصحاب الكهف يقول الفتية الذين آمنوا بربهم : « ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها ، لقد قلنا إذن شططا » .

وفى التعقيب عليها : « ما لهم من دونه من ولى ، ولا يشرك فى حكمه أحدا » . .

وفى قصة الجنتين يقول الرجل المؤمن لصاحبه وهو يحاوره : « أ كفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ، لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا » .

وفى التعقيب عليها : « ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا ، هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثوابا وخير عقبا » .

وفى مشهد من مشاهد القيامة : « ويوم يقول : نادوا شركائى الذين زعمتم ، فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ، وجعلنا بينهم موبقا » .

وفى التعقيب على مشهد آخر : « أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء؟ إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا »

* * *

أما تصحيح منهج الفكر والنظر فيتجلى فى استنكار دعاوى المشركين الذين يقولون ماليس لهم به علم ، والذين لا يأتون على مايقولون ببرهان. وفى توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما يعلم ولا يتعداه ، ومالا علم له به فليدع أمره إلى الله .

ففى مطلع السورة : « وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولدا ، مالهم به من علم ولا لآبائهم »

والفتية أصحاب الكهف يقولون : « هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة . لولا يأتون عليهم بسلطان بين ! » وعندما يتساءلون عن فترة لبثهم فى الكهف يكلون علمها لله : « قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم » .

وفى ثنايا القصة إنكار على من يتحدثون عن عددهم رجما بالغيب : « سيقولون: ثلاثة رابعهم كلبهم ؛ ويقولون: خمسة سادسهم كلبهم - رجما بالغيب - ويقولون : سبعة وثامنهم كلبهم . قل : ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل ؛ فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ، ولا تستفت فيهم منهم أحدا » .

وفى قصة موسى مع العبد الصالح عند مايكشف له عن سر تصرفاته التى أنكرها عليه موسى يقول : « رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى » فيكل الأمر فيها لله .

* * *

فأما تصحيح القيم بميزان العقيدة ، فيرد فى مواضع متفرقة ، حيث يرد القيم الحقيقية إلى الإيمان والعمل الصالح ، ويصغر ماعداها من القيم الأرضية الدنيوية التى تبهر الأنظار .

فكل ماعلى الأرض من زينة إنما جعل للابتلاء والاختبار ، ونهايته إلى فناء وزوال : « إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، وإنا لجاعلون ماعليها صعيدا جرزا » .

وحمى الله أوسع وأرحب ، ولو أوى الإنسان إلى كهف خشن ضيق . والفتية المؤمنون أصحاب الكهف يقولون بعد اعتزالهم لقومهم : « وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون - إلا الله - فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيء لكم من أمركم مرفقا »

والخطاب يوجه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليصبر نفسه مع أهل الإيمان ؛ غير مبال بزينة الحياة الدنيا وأهلها الغافلين عن الله « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولاتعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن

Marfat.com

Marfat.com

ذكرنا ؛ واتبع هواه وكان أمره فرطا . وقل: الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» .

وقصة الجنتين تصور كيف يعتز المؤمن بإيمانه فى وجه المال والجاه والزينة . وكيف يجبه صاحبها المنتفش المتفخ بالحق ، ويؤنبه على نسيان الله : «قال له صاحبه وهو يحاوره : أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ؟ لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا . ولولا إذ دخلت جنتك قلت : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله . إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا . فعسى ربى أن يؤتينى خيرا من جنتك ، ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا ، أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا » .

وعقب القصة يضرب مثلا للحياة الدنيا وسرعة زوالها بعد ازدهارها : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شىء مقتدرا » .

ويعقب عليه ببيان للقيم الزائلة والقيم الباقية : «المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » .

وذو القرنين لا يذكر لأنه ملك ، ولكن يذكر لأعماله الصالحة . وحين يعرض عليه القوم الذين وجدهم بين السدين أن يبنى لهم سدا يحميهم من يأجوج ومأجوج فى مقابل أن يعطوه مالا ، فإنه يرد عليهم ما عرضوه من المال ، لأن تمكين الله له خير من أموالهم « قال : مامكنى فيه ربى خير » . وحين يتم السد يرد الأمر لله لا لقوته البشرية :« قال : هذا رحمة من ربى ، فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا » .

وفى نهاية السورة يقرر أن أخسر الخلق أعمالا ، هم الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ؛ وهؤلاء لا وزن لهم ولا قيمة وإن حسبوا أنهم يحسنون صنعا : « قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؟ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » .

وهكذا نجد محور السورة هو تصحيح العقيدة . وتصحيح منهج الفكر والنظر . وتصحيح القيم بميزان العقيدة .

***

ويسير سياق السورة حول هذه الموضوعات الرئيسية فى أشواط متتابعة :

تبدأ السورة بالحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب للإنذار والتبشير . تبشير المؤمنين وإنذار الذين قالوا : اتخذ الله ولدا ؛ وتقرير أن ما على الأرض من زينة إنما هو للابتلاء والاختبار ، والنهاية إلى زوال وفناء . ويتلو هذا قصة أصحاب الكهف . وهى نموذج لإيثار الإيمان على

Marfat.com

باطل الحياة وزخرفها ، والالتجاء إلى رحمة الله فى الكهف ، هربا بالعقيدة أن تمس .

ويبدأ الشوط الثانى بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، وأن يغفل الغافلين عن ذكر الله . . ثم تجىء قصة الجنتين تصور اعتزاز القلب المؤمن بالله ، واستصغاره لقيم الأرض .. وينتهى هذا الشوط بتقرير القيم الحقيقية الباقية .

والشوط الثالث يتضمن عدة مشاهد متصلة من مشاهد القيامة تتوسطها إشارة قصة آدم وإبليس . . وينتهى ببيان سنة الله فى إهلاك الظالمين ، ورحمة الله وإمهاله للمذنبين إلى أجل معلوم .

وتشغل قصة موسى مع العبد الصالح الشوط الرابع . وقصة ذى القرنين الشوط الخامس .

ثم تختم السورة بمثل ما بدأت : تبشيرا للمؤمنين وإنذارا للكافرين ، وإثباتا للوحى وتنزيها لله عن الشريك .

فلنأخذ فى الشوط الأول بالتفصيل :

* * *

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما . لينذر بأساً شديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ما كثين فيه أبدا ، وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولدا ، مالهم به من علم ولا لآبائهم . كبرت كلمة تخرج من أفواههم . إن يقولون إلا كذبا . فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا . . إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا » . . .

بدء فيه استقامة ، وفيه صرامة . وفيه حمد لله على إنزاله الكتاب « على عبده » بهذه الاستقامة ، لا عوج فيه ولا التواء ، ولامداراة ولا مداورة : « لينذر بأسا شديدا من لدنه » .

ومنذ الآية الأولى تتضح المعالم ، فلا لبس فى العقيدة ولا غموض : الله هو الذى أنزل الكتاب ، والحمد له على تنزيله . ومحمد هو عبد الله . فالكل إذن عبيد . وليس لله من ولد ولا شريك .

والكتاب لا عوج له . . « قيما » . . يتكرر معنى الاستقامة مرة عن طريق نفى العوج ، ومرة عن طريق إثبات الاستقامة . توكيدا لهذا المعنى وتشديدا فيه .

والغرض من إنزال الكتاب واضح صريح : « لينذر بأسا شديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا » .

ويظلب ظل الإنذار الصارم فى التعبير كله . فهو يبدأ به على وجه الإجمال : « لينذر بأسا شديدا من لدنه » . ثم يعود إليه على وجه التخصيص : « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ».. وبينهما تبشير للمؤمنين « الذين يعملون الصالحات » بهذا القيد الذى يجعل للإيمان دليله العملى الظاهر المستند إلى الواقع الأكيد .

ثم يأخذ فى كشف المنهج الفاسد الذى يتخذونه للحكم على أكبر القضايا وأخطرها . قضية العقيدة :

« ما لهم به من علم ولا لآبائهم » . .

فما أشنع وما أفظع أن يفضوا بهذا القول بغير علم ، هكذا جزافا :

« كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » . .

وتشترك الألفاظ بنظمها فى العبرة وجرسها فى النطق فى تفظيع هذه الكلمة التى يقولونها. فهو يبدأ بكلمة « كبرت » لتجبه السامع بالضخامة والفظاعة وتملأ الجو بهما . ويجعل الكلمة الكبيرة تمييزاً لضميرها فى الجملة : « كبرت كلمة » زيادة فى توجيه الانتباه إليها . ويجعل هذه الكلمة تخرج من أفواههم خروجا كأنما تنطلق منها جزافا وتندفع منها اندفاعا « تخرج من أفواههم » . وتشارك لفظة « أفواههم » بجرسها الخاص فى تكبير هذه الكلمة وتفظيعها ، فالناطق بها يفتح فاه فى مقطعها الأول بما فيه من مد : « أفوا . . . » ثم تتوالى الهاءان فيمتلىء الفم بهما قبل أن يطبق على الميم فى نهاية اللفظة : « أفواههم » . وبذلك يشترك نظم الجملة وجرس اللفظة فى تصوير المعنى ورسم الظل . ويعقب على ذلك بالتوكيد عن طريق النفى والاستثناء : « إن يقولون إلا كذبا » : ويختار للنفى كلمة : « إن » لا كلمة « ما » لأن فى الأولى صرامة بالسكون الواضح ، وفى لفظ « ما » شىء من الليونة بالمد . . وذلك لزيادة التشديد فى الاستنكار ، ولزيادة التوكيد لكذب هذه الكلمة الكبيرة . .

* * *

وفيما يشبه الإنكار يخاطب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى كان يحزنه أن يكذب قومه بالقرآن ويعرضوا عن الهدى ، ويذهبوا فى الطريق الذى يعلم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه مود بهم إلى الهلاك . . فيما يشبه الإنكار يقال للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« فلعلك باخع نفسك على آثارهم . إن لم يؤمنوا بهذا الحديث . أسفا » !

أى فلعلك قاتل نفسك أسفا وحزنا عليهم ، إن لم يؤمنوا بهذا القرآن . وما يستحق هؤلاء

Marfat.com

Marfat.com

أن تحزن عليهم وتأسف . فدعهم فقد جعلنا ما على الأرض من زخرف ومتاع ، وأموال وأولاد . . جعلناه اختبارا وامتحانا لأهلها ، ليتبين من يحسن منهم العمل فى الدنيا ، ويستحق نعمتها ، كما يستحق نعيم الآخرة :

« إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » .

والله يعلم . ولكنه يجزى على ما يصدر من العباد فعلا ، وما يتحقق منهم فى الحياة عملا. ويسكت عمن لا يحسنون العمل فلا يذكرهم لأن مفهوم التعبير واضح .

ونهاية هذه الزينة محتومة . فستعود الأرض مجردة منها ، وسيهلك كل ما عليها ، فتصبح قبل يوم القيامة سطحا أجرد خشنا جدبا :

« وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا » . .

وفى التعبير صرامة ، وفى المشهد الذى يرسمه كذلك . وكلمة « جرزا » تصور معنى الجدب بجرسها اللفظى . كما أن كلمة « صعيدا » ترسم مشهد الاستواء والصلادة !

* * *

ثم تجىء قصة أصحاب الكهف ، فتعرض نموذجا للإيمان فى النفوس المؤمنة . كيف تطمئن به ، وتؤثره على زينة الأرض ومتاعها ، وتلجأ به إلى الكهف حين يعز عليها أن تعيش به مع الناس . وكيف يرعى الله هذه النفوس المؤمنة ، ويقيها الفتنة ، ويشملها بالرحمة .

وفى القصة روايات شتى ، وأقاويل كثيرة. فقد وردت فى بعض الكتب القديمة وفى الأساطير بصور شتى . ونحن نقف فيها عند حد ما جاء فى القرآن ، فهو المصدر الوحيد المستيقن . ونطرح سائر الروايات والأساطير التى اندست فى التفاسير بلا سند صحيح . وبخاصة أن القرآن الكريم قد نهى عن استفتاء غير القرآن فيها ، وعن المراء فيها والجدل رجما بالغيب .

وقد ورد فى سبب نزولها ونزول قصة ذى القرنين أن اليهود أغروا أهل مكة بسؤال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنهما وعن الروح . أو أن أهل مكة طلبوا إلى اليهود أن يصوغوا لهم أسئلة يختبرون بها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد يكون هذا كله أو بعضه صحيحا . فقد جاء فى أول قصة ذى القرنين : « ويسألونك عن ذى القرنين . قل : سأتلو عليكم منه ذكرا » ولكن لم تجىء عن قصة أصحاب الكهف مثل هذه الإشارة . فنحن نمضى فى القصة لذاتها وهى واضحة الارتباط بمحور السورة كما بينا .

* * *

Marfat.com

إن الطريقة التى اتبعت فى عرض هذه القصة من الناحية الفنية هى طريقة التلخيص الإجمالى أولا ، ثم العرض التفصيلى أخيرا . وهى تعرض فى مشاهد وتترك بين المشاهد لجوات يعرف ما فيها من السياق[1] . وهى تبدأ هكذا :

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . إذ أوى الفتية إلى الكهف ، فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيىء لنا من أمرنا رشدا . فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا » .

وهو تلخيص يجمل القصة ، ويرسم خطوطها الرئيسية العريضة . فنعرف أن أصحاب الكهف فتية ـ لا نعلم عددهم ـ آووا إلى الكهف وهم مؤمنون . وأنه ضرب على آذانهم فى الكهف ـ أى ناموا ـ سنين معدودة ـ لا نعلم عددها ـ وأنهم بعثوا من رقدتهم الطويلة . وأنه كان هناك فريقان يتجادلان فى شأنهم ثم لبثوا فى الكهف فبعثوا ليتبين أى الفريقين أدق إحصاء . وأن قصتهم على غرابتها ليست بأعجب آيات الله . وفى صفحات هذا الكون من العجائب وفى ثناياه من الغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف والرقيم[2] .

وبعد هذا التلخيص المشوق للقصة يأخذ السياق فى التفصيل . ويبدأ هذا التفصيل بأن ما سيقصه الله منها هو فصل الخطاب فى الروايات المتضاربة ، وهو الحق اليقين :

« نحن نقص عليك نبأهم بالحق . إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السماوات والأرض ، لن ندعو من دونه إلها . لقد قلنا إذن شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة . لولا يأتون عليهم بسلطان بين . فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون ـ إلا الله ـ فأووا إلى الكهف ، ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيىء لكم من أمركم مرفقا » .

هذا هو المشهد الأول من مشاهد القصة . « إنهم فتية آمنوا بربهم » . . « وزدناهم هدى» بإلهامهم كيف يدبرون أمرهم . « وربطنا على قلوبهم » فإذا هى ثابتة راسخة ، مطمئنة إلى الحق الذى عرفت . معتزة بالإيمان الذى اختارت « إذ قاموا » . . والقيام حركة تدل على العزم والثبات . « فقالوا : ربنا رب السماوات والأرض » . . فهو رب هذا الكون كله « لن ندعو من دونه إلها » . . فهو واحد بلا شريك . « لقد قلنا إذن شططا » . . وتجاوزنا الحق وحدنا عن الصواب .

(١) يراجع فصل « القصة فى القرآن » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

(٢) الكهف: الفجوة فى الصخر ، والرقيم ـ فى الغالب ـ هو الكتاب الذى يحمل أسماءهم وربما كان هو الذى وضع على باب الكهف الذى عثر عليهم فيه .

Marfat.com

ثم يلتفتون إلى ما عليه قومهم فيستنكرونه ، ويستنكرون النهج الذى يسلكونه فى تكوين العقيدة :

« هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة . لولا يأتون عليهم بسلطان بين ؟ » . .

فهذا هو طريق الاعتقاد : أن يكون للإنسان دليل قوى يستند إليه ، وبرهان له سلطان على النفوس والعقول . وإلا فهو الكذب الشنيع ، لأنه الكذب على الله : « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟ » . .

وإلى هنا يبدو موقف الفتية واضحا صريحا حاسما ، لا ترددفيه ولا تلعثم .. إنهم فتية ، أشداء فى أجسامهم ، أشداء فى إيمانهم . أشداء فى استنكار ما عليه قومهم ..

ولقد تبين الطريقان ، واختلف المنهجان ، فلا سبيل إلى الالتقاء ، ولا للمشاركة فى الحياة. ولا بد من الفرار بالعقيدة . إنهم ليسوا رسلا إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها ، ويتلقوا ما يتلقاه الرسل . إنما هم فتية تبين لهم الهدى فى وسط ظالم كافر ، ولا حياة لهم فى هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها ، وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم ويداوروهم ، ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيل التقية ويخفوا عبادتهم لله . والأرجح أن أمرهم قد كشف . فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله ، وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة . وقد أجمعوا أمرهم فهم يتناجون بينهم :

« وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون ـ إلا الله ـ فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيىء لكم من أمركم مرفقا » . .

وهنا ينكشف العجب فى شأن القلوب المؤمنة . فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم ، ويهجرون ديارهم ، ويفارقون أهلهم . ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة . هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم . هؤلاء يستروحون رحمة الله . ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة . « ينشر لكم ربكم من رحمته » ولفظة « ينشر » يلقى ظلال السعة والبحبوحة والانفساح. فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها وتمتد ظلالها ، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء .. إن الحدود الضيقة لتنزاح، وإن الجدران الصلدة لترق ، وإن الوحشة الموغلة لتشف ، فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق .

إنه الإيمان . .

وما قيمة الظواهر ؟ وماقيمة القيم والأوضاع والمدلولات التى تعارف عليها الناس فى حياتهم الأرضية ؟ إن هنالك عالما آخر فى جنبات القلب المعمور بالإيمان ، المأنوس بالرحمان . عالما تظلله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان .

ويسدل الستار على هذا المشهد . ليرفع على مشهد آخر والفتية فى الكهف وقد ضرب الله عليهم النعاس .

* * *

« وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ، وهم فى فجوة منه . ذلك من آيات الله . من يهد الله فهو المهتد . ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا . وتحسبهم أيقاظا وهم رقود . ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال . وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد . لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ، ولملئت منهم رعبا » .

وهو مشهد تصويرى عجيب ، ينقل بالكلمات هيئة الفتية فى الكهف ، كما يلتقطها شريط متحرك . والشمس تطلع على الكهف فتميل عنه كأنها متعمدة . ولفظ « تزاور » تصور مدلولها وتلقى ظل الإرادة فى عملها . والشمس تغرب فتجاوزهم إلى الشمال وهم فى فجوة منه ..

وقبل أن يكمل نقل المشهد العجيب يعلق على وضعهم ذاك بأحد التعليقات القرآنية التى تتخلل سياق القصص لتوجيه القلوب فى اللحظة المناسبة(١) :

« ذلك من آيات الله » .. وضعهم هكذا فى الكهف والشمس لا تنالهم بأشعتها وتقرب منهم بضوئها . وهم فى مكانهم لا يموتون ولا يتحركون .

« من يهد الله فهو المهتد . ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » . . وللهدى والضلال ناموس . فمن اهتدى بآيات الله فقد هداه الله وفق ناموسه وهو المهتدى حقا . ومن لم يأخذ بأسباب الهدى ضل ، وجاء ضلاله وفق الناموس الإلهى فقد أضله الله إذن ، ولن تجد له من بعد هاديا .

ثم يمضى السياق يكمل المشهد العجيب . وهم يقلبون من جنب إلى جنب فى نومتهم الطويلة . فيحسبهم الرائى أيقاظا وهم رقود . وكلبهم ـ على عادة الكلاب ـ باسط ذراعيه بالفناء قريبا من باب الكهف كأنه يحرسهم . وهم فى هيئتهم هذه يثيرون الرعب فى قلب من يطلع عليهم . إذ يراهم نياما كالأيقاظ ، يتقلبون ولا يستيقظون . وذلك من تدبير الله كى لا يعبث بهم عابث ، حتى يحين الوقت المعلوم .

* * *

وفجأة تدب فيهم الحياة . فلننظر ولنسمع :

---

(١) فصل القصة القرآن .

« وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم . قال قائل منهم : كم لبثتم ؟ قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم . قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ، فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا . إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ، ولن تفلحوا إذن أبدا » ..

إن السياق يحتفظ بالمفاجأة فى عرض القصة ، فيعرض هذا المشهد ، والفتية يستيقظون وهم لا يعرفون كم لبثوا منذ أن أدركهم النعاس . . إنهم يفركون أعينهم ، ويلتفت أحدهم إلى الآخرين فيسأل : كم لبثتم ؟ كما يسأل من يستيقظ من نوم طويل . ولا بد أنه كان يحس بآثار نوم طويل . « قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم » !

ثم رأوا أن يتركوا هذه المسألة التى لا طائل وراء البحث فيها ، ويدعوا أمرها لله ـ شأن المؤمن فى كل ما يعرض له مما يجهله ـ وأن يأخذوا فى شأن عملى . فهم جائعون . ولديهم نقود فضية خرجوا بها من المدينة : « قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما ، فليأتكم برزق منه » .. أى فليختر أطيب طعام فى المدينة فليأتكم بشىء منه .

وهم يحذرون أن ينكشف أمرهم ويعرف مخبؤهم ، فيأخذهم أصحاب السلطان فى المدينة فيقتلوهم رجما ـ بوصفهم خارجين على الدين لأنهم يعبدون إلها واحدا فى المدينة المشركة ! ـ أو يفتنوهم عن عقيدتهم بالتعذيب . وهذه هى التى يتقونها . لذلك يوصون الرسول أن يكون حذرا لبقا : « وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا . إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ، ولن تفلحوا إذن أبدا » . . فما يفلح من يرتد عن الإيمان إلى الشرك ، وإنها للخسارة الكبرى .

وهكذا نشهد الفتية يتناجون فيما بينهم ، حذرين خائفين ، لا يدرون أن الأعوام قد كرت ، وأن عجلة الزمن قد دارت ، وأن أجيالا قد تعاقبت ، وأن مدينتهم التى يعرفونها قد تغيرت معالمها ، وأن المتسلطين الذين يخشونهم على عقيدتهم قد دالت دولتهم ، وأن قصة الفتية الذين فروا بدينهم فى عهد الملك الظالم قد تناقلها الخلف عن السلف ؛ وأن الأقاويل حولهم متعارضة ؛ حول عقيدتهم ، وحول الفترة التى مضت منذ اختفائهم .

وهنا يسدل الستار على مشهدهم فى الكهف ليرفع على مشهد آخر . وبين المشهدين فجوة متروكة فى السياق القرآنى .

ونفهم أن أهل المدينة اليوم مؤمنون ، فهم شديدو الحفاوة بالفتية المؤمنين بعد أن انكشف أمرهم بذهاب أحدهم لشراء الطعام ، وعرف الناس أنه أحد الفتية الذين فروا بدينهم منذ عهد بعيد .

Marfat.com

ولنا أن نتصور ضخامة المفاجأة التى اعترت الفتية ـ بعد أن أيقن زميلهم أن المدينة قد مضى عليها العهد الطويل منذ أن فارقوها ؛ وأن الدنيا قد تبدلت من حولهم فلم يعد لشىء مما ينكرونه ولا لشىء مما يعرفونه وجود ! وأنهم من جيل قديم مضت عليه القرون . وأنهم أعجوبة فى نظر الناس وحسهم ، فلن يمكن أن يعاملوهم كبشر عاديين . وأن كل مايربطهم بجيلهم من قرابات ومعاملات ومشاعر وعادات وتقاليد .. كله قد تقطع ، فهم أشبه بالذكرى الحية منهم بالأشخاص الواقعية .. فيرحمهم الله من هذا كله فيتوفاهم .

لنا أن نتصور هذا كله . أما السياق القرآنى فيعرض المشهد الأخير ، مشهد وفاتهم ، والناس خارج الكهف يتنازعون فى شأنهم : على أى دين كانوا ، وكيف يخلدونهم ويحفظون ذكراهم للأجيال . ويعهد مباشرة إلى العبرة المستقاة من هذا الحادث العجيب :

« وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها . إذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا : ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم . قال الذين غلبوا على أمرهم : لنتخذن عليهم مسجدا » ..

إن العبرة فى خاتمة هؤلاء الفتية هى دلالتها على البعث بمثل واقعى قريب محسوس . يقرب إلى الناس قضية البعث . فيعلموا أن وعد الله بالبعث حق ، وأن الساعة لا ريب فيها .. وعلى هذا النحو بعث الله الفتية من نومتهم وأعثر قومهم عليهم .

وقال بعض الناس : « ابنوا عليهم بنيانا » لا يحدد عقيدتهم « ربهم أعلم بهم » وبما كانوا عليه من عقيدة . وقال أصحاب السلطان فى ذلك الأوان : « لنتخذن عليهم مسجدا» والمقصود معبد ، على طريقة اليهود والنصارى فى اتخاذ المعابد على مقابر الأنبياء والقديسين . وكما يصنع اليوم من يقلدونهم من المسلمين مخالفين لهدى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد » (١) .

ويسدل الستار على هذا المشهد . ثم يرفع لنسمع الجدل حول أصحاب الكهف ـ على عادة الناس يتناقلون الروايات والأخبار ، ويزيدون فيها وينقصون ، ويضيفون إليها من خيالهم جيلا بعد جيل ، حتى تتضخم وتتحول ، وتكثر الأقاويل حول الخبر الواحد أو الحادث الواحد كلما مرت القرون :

« سيقولون : ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون : خمسة سادسهم كلبهم ـ رجما بالغيب ،

---

(١) أورده ابن كثير فى التفسير .

Marfat.com

ويقولون : سبعة وثامنهم كلبهم . قل : ربى أعلم بعدتهم . مايعلمهم إلا قليل . فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ، ولا تستفت فيهم منهم أحدا » ..

فهذا الجدل حول عدد الفتية لا طائل وراءه . وإنه ليستوى أن يكونوا ثلاثة أو خمسة أو سبعة ، أو أكثر . وأمرهم موكول إلى الله ، وعلمهم عند الله . وعند القليلين الذين تثبتوا من الحادث عند وقوعه أو من روايته الصحيحة . فلا ضرورة إذن للجدل الطويل حول عددهم . والعبرة فى أمرهم حاصلة بالقليل وبالكثير . لذلك يوجه القرآن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى ترك الجدل فى هذه القضية ، وإلى عدم استفتاء أحد من المتجادلين فى شأنهم . تمشيا مع منهج الإسلام فى صيانة الطاقة العقلية أن تبدد فى غير مايفيد . وفى ألا يقفو المسلم ماليس له به علم وثيق . وهذا الحادث الذى طواه الزمن هو من الغيب الموكول إلى علم الله ، فليترك إلى علم الله .

وبمناسبة النهى عن الجدل فى غيب الماضى ، يرد النهى عن الحكم على غيب المستقبل ومايقع فيه ؛ فالإنسان لا يدرى مايكون فى المستقبل حتى يقطع برأى فيه :

« ولا تقولن لشىء : إنى فاعل ذلك غدا - إلا أن يشاء الله - واذكر ربك إذا نسيت ، وقل : عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا » ..

إن كل حركة وكل نأمة ، بل كل نفس من أنفاس الحى ، مرهون بإرادة الله . وسجف الغيب مسبل يحجب ما وراء اللحظة الحاضرة ؛ وعين الإنسان لا تمتد إلى ماوراء الستر المسدل ؛ وعقله مها علم قاصر كليل . فلا يقل إنسان : إنى فاعل ذلك غدا . وغدا فى غيب الله وأستار غيب الله دون العواقب .

وليس معنى هذا أن يقعد الإنسان ، لا يفكر فى أمر المستقبل ولا يدبر له ؛ وأن يعيش يوما بيوم ، ولحظة بلحظة . وألا يصل ماضى حياته بحاضره وقابله .. كلا . ولكن معناه أن يحسب حساب الغيب وحساب المشيئة التى تدبره ؛ وأن يعزم مايعزم ويستعين بمشيئة الله على مايعزم ، ويستشعر أن يد الله فوق يده ، فلا يستبعد أن يكون لله تدبير غير تدبيره . فإن وفقه الله إلى مااعتزم فبها . وإن جرت مشيئة الله بغير مادبر لم يحزن ولم ييأس ، لأن الأمر لله أولا وأخيرا .

فليفكر الإنسان وليدبر ؛ ولكن ليشعر أنه إنما يفكر بتيسير الله ، ويدبر بتوفيق الله ، وأنه لا يملك إلا مايمده الله به من تفكير وتدبير . ولن يدعو هذا إلى كسل أو تراخ ، أو ضعف أو فتور ؛ بل على العكس يمده بالثقة والقوة والاطمئنان والعزيمة . فإذا انكشف ستر الغيب عن تدبير لله غير تدبيره ، فليتقبل قضاء الله بالرضى والطمأنينة والاستسلام . لأنه الأصل الذى كان مجهولا له فكشف عنه الستار .

Marfat.com

Marfat.com

هذا هو المنهج الذى يأخذ به الإسلام قلب المسلم . فلا يشعر بالوحدة والوحشة وهو يفكر ويدبر . ولا يحس بالغرور والتبطر وهو يفلح وينجح . ولا يستشعر القنوط واليأس وهو يفشل ويخفق . بل يبقى فى كل أحواله متصلا بالله ، قويا بالاعتماد عليه ، شاكرا لتوفيقه إياه ، مسلما بقضائه وقدره . غير متبطر ولا قنوط .

« واذكر ربك إذا نسيت » .. إذا نسيت هذا التوجيه والاتجاه فاذكر ربك وارجع إليه .

« وقل : عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا » .. من هذا النهج الذى يصل القلب دائما بالله ، فى كل ما يهم به وكل ما يتوجه إليه .

ويجىء كلمة « عسى » وكلمة « لأقرب » للدلالة على ارتفاع هذا المرتقى ، وضرورة المحاولة الدائمة للاستواء عليه فى جميع الأحوال .

* * *

وإلى هنا لم نكن نعلم : كم لبث الفتية فى الكهف . فلنعرفه الآن لنعرفه على وجه اليقين :

« ولبثوا فى كهفهم ثلاث مئة سنين ، وازدادوا تسعا . قل : الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض . أبصر به وأسمع » ..

فهذا هو فصل الخطاب فى أمرهم ، يقرره عالم غيب السماوات والأرض . ما أبصره ، وما أسمعه ! سبحانه . فلا جدال بعد هذا ولا مراء .

* * *

ويعقب على القصة بإعلان الوحدانية الظاهرة الأثر فى سير القصة وأحداثها : « مالهم من دونه من ولى . ولا يشرك فى حكمه أحدا » . .

وبتوجيه الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى تلاوة ما أوحاه ربه إليه ، وفيه فصل الخطاب – وهو الحق الذى لا يأتيه الباطل – والاتجاه إلى الله وحده ، فليس من حمى إلا حماه . وقد فر إليه أصحاب الكهف فشملهم برحمته وهداه :

« واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ، ولن تجد من دونه ملتحدا » ..

وهكذا تنتهى القصة ، تسبقها وتتخللها وتعقبها تلك التوجيهات التى من أجلها يساق القصص فى القرآن . مع التناسق المطلق بين التوجيه الدينى والعرض الفنى فى السياق .

« وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ، وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۞ وَقُلِ : ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ، بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ ، يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ، وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ، مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَائِكِ . نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا .

« وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ، وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ، وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا .

« وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ، فَقَالَ لِصَاحِبِهِ ـ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ـ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ـ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ـ قَالَ : مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَائِمَةً ، وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا .

« قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ ـ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ـ : أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ؟ * لَّٰكِنَّا هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ، وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ : مَا شَاءَ ٱللَّهُ ! لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ، إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ، وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَاءِ ، فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا .

« وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا ، وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ

Marfat.com

Marfat.com

عُرُوشِهَا ، وَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً .

« وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً ، وَخَيْرٌ أَمَلًا » ﴿٤٦﴾

هذا الدرس كله تقرير للقيم فى ميزان العقيدة . إن القيم الحقيقية ليست هى المال ، وليست هى الجاه ، وليست هى السلطان . كذلك ليست هى اللذائذ والمتاع فى هذه الحياة . . إن هذه كلها قيم زائفة وقيم زائلة . والإسلام لا يحرم الطيب منها ؛ ولكنه لا يجعل منها غاية لحياة الإنسان . فمن شاء أن يتمتع بها فليتمتع ، ولكن ليذكر الله الذى أنعم بها . وليشكره على النعمة بالعمل الصالح ، فالباقيات الصالحات خير وأبقى .

وهو يبدأ بتوجيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يصبر نفسه مع الذين يتجهون إلى الله ؛ وأن يغفل ويهمل الذين يغفلون عن ذكر الله . ثم يضرب للفريقين مثلا رجلين : أحدهما يعتز بما أوتى من مال وعزوة ومتاع . والآخر يعتز بالإيمان الخالص ، ويرجو عند ربه ما هو خير . ثم يعقب بمثل يضرب للحياة الدنيا كلها ، فإذا هى قصيرة زائلة كالهشيم تذروه الرياح . وينتهى من ذلك كله بتقرير الحقيقة الباقية : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا » . .

* * *

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه وكان أمره فرطا . وقل : الحق من ربكم . فمن شاء فليؤمن . ومن شاء فليكفر » . .

Marfat.com

يروى أنها نزلت فى أشراف قريش ، حين طلبوا إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يطرد فقراء المؤمنين من أمثال بلال وصهيب وعمار وخباب وابن مسعود إذا كان يطمع فى إيمان رؤوس قريش . أو أن يجعل لهم مجلسا غير مجلس هؤلاء النفر ، لأن عليهم جبابا تفوح منها رائحة العرق ، فتؤذى السادة من كبراء قريش !

ويروى أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ طمع فى إيمانهم فحدثته نفسه فيما طلبوا إليه . فأنزل الله عز وجل : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ... » أنزلها تعلن عن القيم الحقيقية ، وتقيم الميزان الذى لا يخطىء . وبعد ذلك « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » فالإسلام لا يتملق أحدا ، ولا يزن الناس بموازين الجاهلية الأولى ، ولا أية جاهلية تقيم للناس ميزانا غير ميزانه .

« واصبر نفسك » . . لا تمل ولا تستعجل « مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » . . فالله غايتهم ، يتجهون إليه بالغداة والعشى ، لا يتحولون عنه ، ولا يبتغون إلا رضاه . وما يبتغونه أجل وأعلى من كل ما يبتغيه طلاب الحياة .

اصبر نفسك مع هؤلاء . صاحبهم وجالسهم وعلمهم . ففيهم الخير ، وعلى مثلهم تقوم الدعوات. فالدعوات لاتقوم على من يعتنقونها لأنها غالبة ؛ ومن يعتنقونها ليقودوا بها الأتباع؛ ومن يعتنقونها ليحققوا بها الأطماع ، وليتجروا بها فى سوق الدعوات تشترى منهم وتباع ! إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التى تتجه إلى الله خالصة له ، لا تبغى جاها ولا متاعا ولا انتفاعا ، إنما تبتغى وجهه وترجو رضاه .

« ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا » . . ولا يتحول اهتمامك عنهم إلى مظاهر الحياة التى يستمتع بها أصحاب الزينة . فهذه زينة الحياة « الدنيا » لا ترتفع إلى ذلك الأفق العالى الذى يتطلع إليه من يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه .

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطا » .. لاتطعهم فيما يطلبون من تميز بينهم وبين الفقراء . فلو ذكروا الله لطامنوا من كبريائهم ، وخففوا من غلوائهم ، وخفضوا من تلك الهامات المتشامخة ، واستشعروا جلال الله الذى تتساوى فى ظله الرؤوس ؛ وأحسوا رابطة العقيدة التى يصبح بها الناس إخوة . ولكنهم إنما يتبعون أهواءهم. أهواء الجاهلية . ويحكمون مقاييسها فى العباد . فهم وأقوالهم سفه ضائع لا يستحق إلا الإغفال جزاء ما غفلوا عن ذكر الله .

لقد جاء الإسلام ليسوى بين الرؤوس أمام الله . فلا تفاضل بينها بمال ولا نسب ولا جاه

Marfat.com

فهذه قيم زائفة ، وقيم زائلة . إنما التفاضل بمكانها عند الله . ومكانها عند الله يوزن بقدر اتجاهها إليه وتجردها له . وما عدا هذا فهو الهوى والسفه والبطلان .

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا » . . أغفلنا قلبه حين اتجه إلى ذاته ، وإلى ماله ، وإلى أبنائه ، وإلى متاعه ولذائذه وشهواته ، فلم يعد فى قلبه متسع لله . والقلب الذى يشتغل بهذه الشواغل ، ويجعلها غاية حياته لاجرم يغفل عن ذكر الله ، فيزيده الله غفلة ، ويملى له فيما هو فيه ، حتى تفلت الأيام من بين يديه ، ويلقى ما أعده الله لأمثاله الذين يظلمون أنفسهم ويظلمون غيرهم :

« وقل : الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » . .

بهذه العزة ، وبهذه الصراحة ، وبهذه الصرامة ، فالحق لا ينثنى ولا ينحنى ، إنما يسير فى طريقه قيما لا عوج فيه ، قويا لا ضعف فيه ، صريحا لا مداورة فيه . فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ومن لم يعجبه الحق فليذهب ، ومن لم يجعل هواه تبعا لما جاء من عند الله فلا مجاملة على حساب العقيدة ؛ ومن لم يحن هامته ويطامن من كبريائه أمام جلال الله فلا حاجة بالعقيدة إليه .

إن العقيدة ليست ملكا لأحد حتى يجامل فيها . إنما هى ملك لله ، والله غنى عن العالمين . والعقيدة لا تعتز ولا تنتصر بمن لا يريدونها لذاتها خالصة ، ولا يأخذونها كما هى بلا تحوير . والذى يترفع عن المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه لا يرجى منه خير للإسلام ولا المسلمين .

* * *

ثم يعرض ما أعد للكافرين ، وما أعد للمؤمنين فى مشهد من مشاهد القيامة :

« إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها ؛ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه . بئس الشراب وساءت مرتفقا . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا . أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار ، يحلون فيها من أساور من ذهب ؛ ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق ، متكئين فيها على الأرائك . نعم الثواب وحسنت مرتفقا » .

« إنا أعتدنا للظالمين نارا » . . أعددناها وأحضرناها . . فهى لا تحتاج إلى جهد لإيقادها ، ولا تستغرق زمنا لإعدادها ! ومع أن خلق أى شىء لا يقتضى إلا كلمة الإرادة : كن . فيكون . إلا أن التعبير هنا بلفظ « أعتدنا » يلقى ظل السرعة والتهيؤ والاستعداد ،

Marfat.com

والأخذ المباشر إلى النار المعدة المهيأة للاستقبال !

وهى نار ذات سرادق يحيط بالظالمين ، فلاسبيل إلى الهرب ، ولا أمل فى النجاة والإفلات . ولا مطمع فى منفذ تهب منه نسمة ، أو يكون فيه استرواح !

فإن استغاثوا من الحريق والظمأ أغيثوا .. أغيثوا بماء كدردى الزيت المغلى فى قول ، وكالصديد الساخن فى قول ! يشوى الوجوه بالقرب منها فكيف بالحلوق والبطون التى تتجرعه « بئس الشراب » الذى يغاث به الملهوفون من الحريق ! ويا لسوء النار وسرادقها مكانا للارتفاق والاتكاء . وفى ذكر الارتفاق فى سرادق النار تهكم مرير . فما هم هنالك للارتفاق ، إنما هم للاشتواء ! ولكنها مقابلة مع ارتفاق الذين آمنوا وعملوا الصالحات هنالك فى الجنان .. وشتان شتان !

وبينما هؤلاء كذلك إذا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات عدن . للإقامة . تجرى من تحتهم الأنهار بالرى وبهجة المنظر واعتدال النسيم . وهم هنالك للارتفاق حقا « متكئين فيها على الأرائك » وهم رافلون فى ألوان من الحرير . من سندس ناعم خفيف ومن إستبرق مخمل كثيف . تزيد عليها أساور من ذهب للزينة والمتاع : « نعم الثواب وحسنت مرتفقا » !

ومن شاء فليختر . ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ومن شاء فليجالس فقراء المؤمنين ، وجبابهم تفوح منها رائحة العرق أو فلينفر . فمن لم ترضه رائحة العرق من تلك الجباب ، التى تضم القلوب الزكية بذكر الله ، فليرتفق فى سرادق النار ، ولهنأ بدردى الزيت أو القيح يغاث به من النار ..

* * *

ثم تجىء قصة الرجلين والجنتين تضرب مثلا للقيم الزائلة والقيم الباقية ، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة ، والنفس المعتزة بالله . وكلاهما نموذج إنسانى لطائفة من الناس : صاحب الجنتين نموذج للرجل الثرى ، تذهله الثروة ، وتبطره النعمة ، فينسى القوة الكبرى التى تسيطر على أقدار الناس والحياة . ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى ، فلن تخذله القوة ولا الجاه . وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه ، الذاكر لربه ، يرى النعمة دليلا على المنعم ، موجبة لحمده وذكره ، لا لجحوده وكفره .

وتبدأ القصة بمشهد الجنتين فى ازدهار وفخامة :

« واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ، وحففناهما بنخل ، وجعلنا

Marfat.com

بينهما زرعا. كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا ، وفجرنا خلالهما نهرا . وكان له ثمر»..

فهما جنتان مثمرتان من الكروم ، محفوفتان بسياج من النخيل ، تتوسطهما الزروع ، ويتفجر بينهما نهر . . إنه المنظر البهيج والحيوية الدافقة والمتاع والمال :

« كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا » . . ويختار التعبير كلمة « تظلم » فى معنى تنقص وتمنع ، لتقابل بين الجنتين وصاحبهما الذى ظلم نفسه فبطر ولم يشكر ، وازدهى وتكبر .

وهاهو ذا صاحب الجنتين تمتلىء نفسه بهما ، ويزدهيه النظر إليهما ، فيحس بالزهو ، وينتفش كالديك ، ويختال كالطاووس ، ويتعالى على صاحبه الفقير : « فقال لصاحبه ـ وهو يحاوره ـ أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا » ..

ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين ، وملء نفسه البطر ، وملء جنبه الغرور ؛ وقد نسى الله ، ونسى أن يشكره على ماأعطاه ؛ وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبدا ، وأنكر قيام الساعة أصلا ، وهبها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار ! أليس من أصحاب الجنان فى الدنيا فلا بد أن يكون جنابه ملحوظا فى الآخرة !

«ودخل جنته وهو ظالم لنفسه . قال : ماأظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة . ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا » !

إنه الغرور يخيل لذوى الجاه والسلطان والمتاع والثراء ، أن القيم التى يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى فى الملأ الأعلى ! فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ !

فأما صاحبه الفقير الذى لا مال له ولا نفر ، ولا جنة عنده ولا ثمر .. فإنه معتز بما هو أبقى وأعلى . معتز بعقيدته وإيمانه . معتز بالله الذى تعنو له الجباه ؛ فهو يجبه صاحبه المتبطر المغرور منكرا عليه بطره وكبره ، يذكره بمنشئه المهين من ماء وطين ، ويوجهه إلى الأدب الواجب فى حق المنعم . وينذره عاقبة البطر والكبر . ويرجو عند ربه ماهو خير من الجنة والثمار :

« قال له صاحبه ـ وهو يحاوره ـ أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ؟ لكنا هو الله ربى ، ولا أشرك بربى أحدا . ولولا إذ دخلت جنتك قلت : ماشاء الله لا قوة إلا بالله . إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا . فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ، ويرسل عليها حسبانا(١) من السماء فتصبح صعيدا زلقا(٢) ، أو يصبح ماؤها غورا(٣) فلن تستطيع له طلبا » ..

---

(١) سيل مدمر يقتل أشجارها ويهلكها (٢) سطحا أجرد تزل فيه القدم (٣) غائرا وهوضد النابع .

وهكذا تنتفض عزة الإيمان فى النفس المؤمنة ، فلا تبالى المال والنفر ، ولا تدارى الغنى والبطر ، ولا تتلعثم فى الحق ، ولا تجامل فيه الأصحاب . وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال ، وأن ماعند الله خير من أعراض الحياة ، وأن فضل الله عظيم وهو يطمع فى فضل الله . وأن نقمة الله جبارة وأنها وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين .

وفجأة ينقلنا السياق من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار . ومن هيئة البطر والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار . فلقد كان ماتوقعه الرجل المؤمن :

« وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ماأنفق فيها ، وهى خاوية على عروشها ، ويقول : ياليتنى لم أشرك بربى أحدا » ..

وهو مشهد شاخص كامل : الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شىء . والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة. وصاحبها يقلب كفيه أسفا وحزنا على ماله الضائع وجهده الذاهب . وهو نادم على إشراكه بالله ، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته . ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك ، إلا أن اعتزازه بقيمة أخرى أرضية غير قيمة الإيمان كان شركا ينكره الآن ، ويندم عليه ويستعيذ منه بعد فوات الأوان .

هنا يتفرد الله بالولاية والقدرة : فلا قوة إلا قوته ، ولا نصر إلا نصره . وثوابه هو خير الثواب ، وما يبقى عنده للمرء من خير فهو خير مايتبقى :

« ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان منتصرا . هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثوابا وخير عقبا » ..

ويسدل الستار على مشهد الجنة الخاوية على عروشها ، وموقف صاحبها يقلب كفيه أسفا وندما ، وجلال الله يظلل الموقف ، حيث تتوارى قدرة الإنسان ..

* * *

وأمام هذا المشهد يضرب مثلا للحياة الدنيا كلها . فإذا هى كتلك الجنة المضروبة مثلا قصيرة قصيرة ، لا بقاء لها ولا قرار :

« واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شىء مقتدرا » ..

هذا المشهد يعرض قصيرا خاطفا ليلقى فى النفس ظل الفناء والزوال . فالماء ينزل من السماء فلا يجرى ولا يسيل ولكن يختلط به نبات الأرض . والنبات لاينمو ولا ينضج ، ولكنه

Marfat.com

Marfat.com

يصبح هشيما تذروه الرياح . وما بين ثلاث جمل قصار ، ينتهى شريط الحياة .

ولقد استخدم النسق اللفظى فى تقصير عرض المشاهد . بالتعقيب الذى تدل عليه الفاء :
« ماء أنزلناه من السماء » ف « اختلط به نبات الأرض » ف « أصبح هشيما تذروه الرياح»
فما أقصرها حياة ! وما أهونها حياة !

وبعد أن يلقى مشهد الحياة الذاهبة ظله فى النفس يقرر السياق بميزان العقيدة قيم الحياة التى يتعبدها الناس فى الأرض ، والقيم الباقية التى تستحق الاهتمام :

«المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا ، وخير أملا»..

المال والبنون زينة الحياة ؛ والإسلام لا ينهى عن المتاع بالزينة فى حدود الطيبات . ولكنه يعطيهما القيمة التى تستحقها الزينة فى ميزان الخلود ولا يزيد .

إنهما زينة ولكنهما ليسا قيمة . فما يجوز أن يوزن بهما الناس ولا أن يقدروا على أساسهما فى الحياة . إنما القيمة الحقة للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات .

وإذا كان أمل الناس عادة يتعلق بالأموال والبنين فإن الباقيات الصالحات خير ثوابا وخير أملا . عند ما تتعلق بها القلوب ، ويناط بها الرجاء ، ويرتقب المؤمنون نتاجها وثمارها يوم الجزاء .

* * *

وهكذا يتناسق التوجيه الإلهى للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم فى الغداة والعشى يريدون وجهه . مع إيحاء قصة الجنتين . مع ظل المثل المضروب للحياة الدنيا . مع هذا التقرير الأخير للقيم فى الحياة وما بعد الحياة . . وتشترك كلها فى تصحيح القيم بميزان العقيدة . وتتساوق كلها فى السورة وفق قاعدة التناسق الفنى والتناسق الوجدانى فى القرآن[1] .

« وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ، وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا : لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ، وَيَقُولُونَ :

---

(١) يراجع فصل « التناسق الفنى » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هٰذَا ٱلْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ؟ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا .

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ : ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ . بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا * مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ، وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا .

« وَيَوْمَ يَقُولُ : نَادُوا شُرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا * وَرَأَى ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ، وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا .

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هٰذَا ٱلْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا * وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا * وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، وَيُجَادِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ ، وَٱتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ، وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا * وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا * وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا » (٥٩)

انتهى الدرس السابق بالحديث عن الباقيات الصالحات ؛ فهنا يصله بوصف اليوم الذى يكون للباقيات الصالحات وزن فيه وحساب ، يعرضه فى مشهد من مشاهد القيامة . ويتبعه فى السياق بإشارة إلى ما كان من إبليس يوم أمر بالسجود لآدم ففسق عن أمر ربه للتعجيب من أبناء آدم الذين يتخذون الشياطين أولياء ، وقد علموا أنهم لهم أعداء ، وبذلك ينتهون إلى العذاب فى يوم الحساب . ويعرج على الشركاء الذين لا يستجيبون لعبادهم فى ذلك اليوم الموعود .

Marfat.com

هذا وقد صرف الله فى القرآن الأمثال للناس ليقوا أنفسهم شر ذلك اليوم ، ولـكنهم لم يؤمنوا ، وطلبوا أن يحل بهم العذاب أو أن يأتيهم الهلاك الذى نزل بالأمم قبلهم . وجادلوا بالباطل ليغلبوا به الحق ، واستهزأوا بآيات الله ورسله . ولولا رحمة الله لعجل لهم العذاب ..

هذا الشوط من مشاهد القيامة ، ومن مصارع المكذبين يرتبط بمحور السورة الأصيل فى تصحيح العقيدة ، وبيان ماينتظر المكذبين ، لعلهم يهتدون .

* * *

« ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ، وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا . وعرضوا على ربك صفا . لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا . ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ؛ ويقولون : ياويلتنا ! مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ؟ ووجدوا ماعملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا » .

إنه مشهد تشترك فيه الطبيعة ويرتسم الهول فيه على صفحاتها وعلى صفحات القلوب . مشهد تتحرك فيه الجبال الراسخة فتسير ، فكيف بالقلوب ، وتتبدى فيه الأرض عارية ، وتبرز فيه صفحتها مكشوفة لانجاد فيها ولا وهاد ، ولا جبال فيها ولا وديان . وكذلك تتكشف خبايا القلوب فلا تخفى منها خافية » .

ومن هذه الأرض المستوية المكشوفة التى لا تخبىء شيئاً ، ولا تخفى أحدا : « وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا » .

ومن الحشر الجامع الذى لا يخلف أحدا إلى العرض الشامل : «وعرضوا على ربك صفا».. هذه الخلائق التى لا يحصى لها عدد ، منذ أن قامت البشرية على ظهر هذه الأرض إلى نهاية الحياة الدنيا .. هذه الخلائق كلها محشورة مجموعة مصفوفة ، لم يتخلف منها أحد ، فالأرض مكشوفة مستوية لا تخفى أحدا .

وهنا يتحول السياق من الوصف إلى الخطاب . فكأنما المشهد حاضر اللحظة ، شاخص نراه ونسمع مايدور فيه . ونرى الخزى على وجوه القوم الذين كذبوا بذلك الموقف وأنكروه : « لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة . بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا » .

هذا الالتفات من الوصف إلى الخطاب يحيي المشهد ويجسمه . كأنما هو حاضر اللحظة ، لا مستقبل فى ضمير الغيب فى يوم الحساب .

وإننا لنكاد نلمح الخزى على الوجوه ، والذل فى الملامح . وصوت الجلالة الرهيب يجبه هؤلاء المجرمين بالتأنيب : « لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة » وكنتم تزعمون أن ذلك لن يكون : « بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا » !

Marfat.com

وبعد إحياء المشهد واستحضاره بهذا الالتفات من الوصف إلى الخطاب يعود إلى وصف ماهناك :

«ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه » فهذا هو سجل أعمالهم يوضع أمامهم ، وهم يتملونه ويراجعونه ، فإذا هو شامل دقيق . وهم خائفون من العاقبة ضيقو الصدور بهذا الكتاب الذى لا يترك شاردة ولا واردة ، ولا تند عنه كبيرة ولا صغيرة : «ويقولون : ياويلتنا. مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، إلا أحصاها ؟ » وهى قولة المحسور المغيظ الخائف المتوقع لأسوأ العواقب ، وقد ضبط مكشوفا لا يملك تفلتا ولا هربا ، ولا مغالطة ولا مداورة : « ووجدوا ما عملوا حاضرا » ولاقوا جزاء عادلا : «ولا يظلم ربك أحدا» ..

* * *

هؤلاء المجرمون الذين وقفوا ذلك الموقف كانوا يعرفون أن الشيطان عدو لهم ، ولكنهم تولوه فقادهم إلى ذلك الموقف العصيب . فما أعجب أن يتولوا إبليس وذريته وهم لهم عدو منذ ما كان بين آدم وإبليس :

« وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه . أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى ، وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلا » .

وهذه الإشارة إلى تلك القصة القديمة تجيء هنا للتعجيب من أبناء آدم الذين يتخذون ذرية إبليس أولياء من دون الله بعد ذلك العداء القديم .

واتخاذ إبليس وذريته أولياء يتمثل فى تلبية دواعى المعصية والتولى عن دواعى الطاعة.

ولماذا يتولون أعداءهم هؤلاء ، وليس لديهم علم ولا لهم قوة . فالله لم يشهدهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم فيطلعهم على غيبه . والله لا يتخذهم عضدا فتكون لهم قوة :

« ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذ المضلين عضدا» ..

إنما هم خلق من خلق الله ، لا يعلمون غيبه ، ولا يستعين بهم سبحانه ..

« وما كنت متخذ المضلين عضدا » فهل يتخذ الله سبحانه غير المضلين عضدا ؟

وتعالى الله الغنى عن العالمين ، ذو القوة المتين .. إنما هو تعبير فيه مجاراة لأوهام المشركين لتتبعها واستئصالها . فالذين يتولون الشيطان ويشركون به مع الله ، إنما يسلكون هذا المسلك توهما منهم أن للشيطان علما خفيا ، وقوة خارقة . والشيطان مضل ، والله يكره الضلال والمضلين . فلو أنه ــ على سبيل الفرض والجدل ــ كان متخذا له مساعدين ، لما اختارهم من المضلين !

وهذا هو الظل الذى يراد أن يلقيه التعبير ..

ثم يعرض مشهد من مشاهد القيامة يكشف عن مصير الشركاء ومصير المجرمين :

« ويوم يقول : نادوا شركائى الذين زعمتم . فدعوهم فلم يستجيبوا لهم . وجعلنا بينهم موبقا . ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ، ولم يجدوا عنها مصرفا » ..

إنهم فى الموقف الذى لا تجدى فيه دعوى بلا برهان . والديان يطالبهم أن يأتوا بشركائهم الذين زعموا ، ويأمرهم أن يدعوهم ليحضروا . . وإنهم لفى ذهول ينسون أنها الآخرة ، فينادون . ولكن الشركاء لا يجيبون ! وهم بعض خلق الله الذين لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئا فى الموقف المرهوب . وقد جعل الله بين المعبودين وعبادهم مهلكة لا يجتازها هؤلاء ولا هؤلاء .. إنها النار « وجعلنا بينهم موبقا » .

ويتطلع المجرمون ، فتمتلىء نفوسهم بالخوف والهلع ، وهم يتوقعون فى كل لحظة أن يقعوا فيها . وما أشق توقع العذاب وهو حاضر ، وقد أيقنوا أن لا نجاة منها ولا محيص :

«ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ، ولم يجدوا عنها مصرفا »

* * *

ولقد كان لهم عنها مصرف ، لو أنهم صرفوا قلوبهم من قبل للقرآن ، ولم يجادلوا فى الحق الذى جاء به ، وقد ضرب الله لهم فيه الأمثال ونوعها لتشمل جميع الأحوال :

« ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل ، وكان الإنسان أكثر شىء جدلا».

ويعبر السياق عن الإنسان فى هذا المقام بأنه « شىء » وأنه أكثر شىء جدلا . ذلك كى يطامن الإنسان من كبريائه ، ويقلل من غروره ، ويشعر أنه خلق من مخلوقات الله الكثيرة. وأنه أكثر هذه الخلائق جدلا . بعد ما صرف الله فى هذا القرآن من كل مثل .

ثم يعرض الشبهة التى تعلق بها من لم يؤمنوا - وهم كثرة الناس - على مدار الزمان والرسالات :

« وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين ، أو يأتيهم العذاب قبلا » . .

فلقد جاءهم من الهدى ما يكفى للاهتداء . ولكنهم كانوا يطلبون أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم من هلاك - استبعادا لوقوعه واستهزاء - أو أن يأتيهم العذاب مواجهة يرون أنه سيقع بهم . وعندئذ فقط يوقنون فيؤمنون !

وليس هذا أو ذاك من شأن الرسل . فأخذ المكذبين بالهلاك - كما جرت سنة الله

Marfat.com

فى الأولين بعد مجىء الخوارق وتكذيبهم بها ـ أو إرسال العذاب . . كله من أمر الله .
أما الرسل فهم مبشرون ومنذرون :

« وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين . ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق . واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا » .

والحق واضح . ولكن الذين كفروا يجادلون بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه . وهم حين يطلبون الخوارق ، ويستعجلون بالعذاب لا يبغون اقتناعا ، إنما هم يستهزئون بالآيات والنذر ويسخرون .

« ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه . إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبدا » . .

فهؤلاء الذين يستهزئون بآيات الله ونذره لا يرجى منهم أن يفقهوا هذا القرآن ، ولا أن ينتفعوا به . لذلك جعل الله على قلوبهم أغطية تحول دون فقهه ، وجعل فى آذانهم كالصمم فلا يستمعون إليه . وقدر عليهم الضلال ـ بسبب استهزائهم وإعراضهم ـ فلن يهتدوا إذن أبدا . فللهدى قلوب متفتحة مستعدة للتلقى .

« وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب » . .

ولكن الله يمهلهم رحمة بهم، ويؤخر عنهم الهلاك الذى يستعجلون به ، ولكنه لن يهملهم :

« بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا » . .

موعد فى الدنيا يحل بهم فيه شىء من العذاب . وموعد فى الآخرة يوفون فيه الحساب . ولقد ظلموا فكانوا مستحقين للعذاب أو الهلاك كالقرى قبلهم . لولا أن الله قدر إمهالهم إلى موعدهم ، لحكمة اقتضتها إرادته فيهم ، فلم يأخذهم أخذ القرى ؛ بل جعل لهم موعدا آخر لا يخلفونه :

« وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا . وجعلنا لمهلكهم موعدا » . .

فلا يغرنهم إمهال الله لهم ، فإن موعدهم بعد ذلك آت . وسنة الله لا تتخلف . والله لا يخلف الميعاد . .

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ⑥٠ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ، فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ : آتِنَا غَدَاءَنَا ، لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا * قَالَ : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى

Marfat.com

Marfat.com

نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ،وَمَا أَنسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ : ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ، فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَى : هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ؟ * قَالَ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ؟ * قَالَ : سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ : فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا

« فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا . قَالَ : أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا : لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ؟ * قَالَ : لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا .

« فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ . قَالَ : أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ؟ ٧٥ قَالَ : إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا .

« فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ . قَالَ: لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ : هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ . سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا .

« أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ، وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا ٱلْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ، ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا » ٨٢

هذه الحلقة من سيرة موسى ـ عليه السلام ـ لا تذكر فى القرآن كله إلا فى هذا الموضع من هذه السورة . والقرآن لا يحدد المكان الذى وقعت فيه إلا بأنه « مجمع البحرين » ولا يحدد التاريخ الذى وقعت فيه من حياة موسى ، هل كان ذلك وهو فى مصر قبل خروجه ببنى إسرائيل أم بعد خروجه بهم منها ؟ ومتى بعد الخروج : قبل أن يذهب بهم إلى الأرض المقدسة ؟ أم بعد ما ذهب بهم إليها فوقفوا حيالها لا يدخلون لأن فيها قوما جبارين ؟ أم بعد ذهابهم فى التيه مفرقين مبددين ؟

كذلك لا يذكر القرآن شيئا عن العبد الصالح الذى لقيه موسى . من هو ؟ ما اسمه ؟ هل هو نبى أو رسول ؟ أم عالم ؟ أم ولى ؟

وهناك روايات كثيرة عن ابن عباس وعن غيره فى هذه القصة . ونحن نقف عند نصوص القصة فى القرآن . لنعيش « فى ظلال القرآن » ونعتقد أن لعرضها فى القرآن على النحو الذى عرضت به ، دون زيادة ، ودون تحديد للمكان والزمان والأسماء ، حكمة خاصة . فنقف نحن عند النص القرآنى نتملاه[1] . .

« وإذ قال موسى لفتاه : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا » . .

والأرجح ـ والله أعلم ـ أنه مجمع البحرين : بحر الروم وبحر القلزم . أى البحر الأبيض والبحر الأحمر . . ومجمعهما مكان التقائهما فى منطقة البحيرات المرة وبحيرة التمساح . أو أنه مجمع خليجى العقبة والسويس فى البحر الأحمر . فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر . وعلى أى فقد تركها القرآن مجملة فنكتفى بهذه الإشارة[2] .

ونفهم من سياق القصة فيما بعد ـ أنه كان لموسى ـ عليه السلام ـ هدف من رحلته هذه التى اعتزمها ، وأنه كان يقصد من ورائها أمرا ، فهو يعلن تصميمه على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة ، ومهما يكن الزمن الذى ينفقه فى الوصول . وهو يعبر عن هذا التصميم بما

---

(1) أورد البخارى عند الكلام عن هذه القصة فى القرآن :

« حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو بن دينار ، أخبرنى سعيد ابن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نوفاً البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل . وقال ابن عباس : كذب عدو الله . حدثنا أبى ابن كعب ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل أى الناس أعلم ؟ قال : أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى : يا رب وكيف لى به ؟ قال تأخذ معك حوتا فتجعله بمكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم » . .

(2) ورد أن قتادة وغير واحد قال : هما بحر فارس مما يلى المشرق وبحر الروم مما يلى المغرب . وقال محمد ابن كعب القرظى : مجمع البحرين عند طنجة يعنى فى أقصى بلاد المغرب . . ونحن نستبعد القولين . .

Marfat.com

Marfat.com

حكاه القرآن من قوله: « أو أمضى حقبا » والحقب قيل عام ، وقيل ثمانون عاما ! على أية حال فهو تعبير عن التصميم ، لا عن المدة على وجه التحديد .

« فلما بلغ مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا . فلما جاوزا قال لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هـذا نصبا . قال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا . . » . .

والأرجح كذلك أن هذا الحوت كان مشويا ، وأن إحياءه واتخاذه سبيله فى البحر سربا كان آية من آيات الله لموسى ، يعرف بهما موعده ، بدليل عجب فتاه من اتخاذه سبيله فى البحر، ولو كان يعنى أنه سقط منه فغاص فى البحر ما كان فى هذا عجب . ويرجح هذا الوجه أن الرحلة كلها مفاجآت غيبية . فهذه إحداها .

وأدرك موسى أنه جاوز الموعد الذى حدده ربه له للقاء عبده الصالح . وأنه هنالك عند الصخرة ثم عاد على أثره هو وفتاه فوجداه :

« قال : ذلك ما كنا نبغ . فارتدا على آثارهما قصصا . فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » . .

ويبدو أن ذلك اللقاء كان سر موسى وحده مع ربه ، فلم يطلع عليه فتاه حتى لقياه . ومن ثم ينفرد موسى والعبد الصالح فى المشاهد التالية للقصة :

« قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ؟ » .

بهذا الأدب اللائق بنبى ، يستفهم ولا يجزم ، ويطلب العلم الراشد من العبد الصالح العالم .

ولـكن علم الرجل ليس هو العلم البشرى الواضح الأسباب القريب النتائج ، إنما هو جانب من العلم اللدنى بالغيب أطلعه الله عليه بالقدر الذى أراده ، للحكمة التى أرادها . ومن ثم فلا طاقة لموسى بالصبر على الرجل وتصرفاته ولو كان نبيا رسولا . لأن هذه التصرفات حسب ظاهرها قد تصطدم بالمنطق العقلى ، وبالأحكام الظاهرة ، ولا بد من إدراك ما وراءها من الحكمة المغيبة ؛ وإلا بقيت عجيبة تثير الاستنكار . لذلك يخشى العبد الصالح الذى أوتى العلم اللدنى على موسى ألا يصبر على صحبته وتصرفاته :

« قال : إنك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ؟ » .

ويعزم موسى على الصبر والطاعة ، ويستعين الله ، ويقدم مشيئته :

« قال : ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا » . .

فيزيد الرجل توكيدا وبيانا ، ويذكر له شرط صحبته قبل بدء الرحلة ، وهو أن يصبر فلا يسأل ولا يستفسر عن شىء من تصرفاته حتى يكشف له عن سرها :

« قال : فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ».

ويرضى موسى . . وإذا نحن أمام المشهد الأول لهما :

« فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها » . .

سفينة تحملهما وتحمل معهما ركابا ، وهم فى وسط اللجة ؛ ثم يجيء هذا العبد الصالح فيخرق السفينة ! إن ظاهر الأمر هنا أن هذه الفعلة تعرض السفينة وركابها لخطر الغرق وتؤدى بهم إلى هذا الشر ؛ فلماذا يقدم الرجل على هذا الشر ؟

لقد نسى موسى ماقاله هو وماقاله صاحبه ، أمام هذا التصرف العجيب الذى لا مبرر له فى نظر المنطق العقلى ! والإنسان قد يتصور المعنى الكلى المجرد ، ولكنه عندما يصطدم بالتطبيق العملى لهذا المعنى والنموذج الواقعى منه يستشعر له وقعا غير التصور النظرى . فالتجربة العملية ذات طعم آخر غير التصور المجرد . وهاهو ذا موسى الذى نبه من قبل إلى أنه لا يستطيع صبرا على مالم يحط به خبرا ، فاعتزم الصبر واستعان بالمشيئة وبذل الوعد وقبل الشرط . هاهو ذا يصطدم بالتجربة العملية لتصرفات هذا الرجل فيندفع مستنكرا .

نعم إن طبيعة موسى طبيعة انفعالية اندفاعية ، كما يظهر من تصرفاته فى كل أدوار حياته . منذ أن وكز الرجل المصرى الذى رآه يقتتل مع الإسرائيلى فقتله فى اندفاعة من اندفاعاته . ثم أناب إلى ربه مستغفرا معتذرا حتى إذا كان اليوم الثانى ورأى الإسرائيلى يقتتل مع مصرى آخر ، هم بالآخر مرة أخرى[1] !

نعم إن طبيعة موسى هى هذه الطبيعة . ومن ثم لم يصبر على فعلة الرجل ولم يستطع الوفاء بوعده الذى قطعه أمام غرابتها . ولكن الطبيعة البشرية كلها تلتقى فى أنها تجد للتجربة العملية وقعا وطعما غير التصور النظرى . ولا تدرك الأمور حق إدراكها إلا إذا ذاقتها وجربتها .

ومن هنا اندفع موسى مستنكرا :

« قال : أخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئا إمرا » .

وفى صبر ولطف يذكره العبد الصالح بما كان قد قاله منذ البداية :

« قال : ألم أقل : إنك لن تستطيع معى صبرا ؟ » .

ويعتذر موسى بنسيانه ، ويطلب إلى الرجل أن يقبل عذره ولا يرهقه بالمراجعة والتذكير :

« قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا » . .

ويقبل الرجل اعتذاره ، فنجدنا أمام المشهد الثانى :

« فانطلقا . حتى إذا لقيا غلاما فقتله . . » .

---

(١) يراجع فصل : « القصة فى القرآن » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

Marfat.com

وإذا كانت الأولى خرق سفينة واحتمال غرق من فيها ؛ فهذه قتل نفس . قتل عمد لا مجرد احتمال . وهى فظيعة كبيرة لم يستطع موسى أن يصبر عليها على الرغم من تذكره لوعده :

« قال : أقتلت نفسا زكية بغير نفس ؟ لقد جئت شيئا نكرا » .

فليس ناسيا فى هذه المرة ولا غافلا ؛ ولكنه قاصد . قاصد أن ينكر هذا النكر الذى لا يصبر على وقوعه ولا يتأول له أسبابا ؛ والغلام فى نظره برىء . لم يرتكب مايوجب القتل ، بل لم يبلغ الحلم حتى يكون مؤاخذا على مايصدر منه .

ومرة أخرى يرده العبد الصالح إلى شرطه الذى شرط ووعده الذى وعد ، ويذكره بما قاله له أول مرة . والتجربة تصدقه بعد التجربة :

« قال : ألم أقل لك : إنك لن تستطيع معى صبرا » ..

وفى هذه المرة يعين أنه قال له : « ألم أقل لك ؟ » لك أنت على التعيين والتحديد . فلم تقتنع وطلبت الصحبة وقبلت الشرط .

ويعود موسى إلى نفسه ، ويجد أنه خالف عن وعده مرتين ، ونسى ماتعهد به بعد التذكير والتفكير . فيندفع ويقطع على نفسه الطريق ، ويجعلها آخر فرصة أمامه :

« قال : إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى . قد بلغت من لدنى عذرا » .

وينطلق السياق فإذا نحن أمام المشهد الثالث :

« فانطلقا . حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه » . .

إنهما جائعان ، وهما فى قرية أهلها بخلاء ، لا يطعمون جائعا ، ولا يستضيفون ضيفا. ثم يجد أن جدارا مائلا يهم أن ينقض . والتعبير يخلع على الجدار حياة وإرادة كالأحياء فيقول : « يريد أن ينقض » فإذا الرجل الغريب يشغل نفسه بإقامة الجدار دون مقابل !!!

وهنا يشعر موسى بالتناقض فى الموقف . ماالذى يدفع هذا الرجل أن يجهد نفسه ويقيم جدارا يهم بالانقضاض فى قرية لم يقدم لهما أهلها الطعام وهما جائعان ، وقد أبوا أن يستضيفوهما ؟ أفلا أقل من أن يطلب عليه أجرا يأ كلان منه ؟

« قال : لو شئت لاتخذت عليه أجرا » !

وكانت هى الفاصلة . فلم يعد لموسى من عذر ، ولم يعد للصحبة بينه وبين الرجل مجال :

« قال : هذا فراق بينى وبينك . سأنبئك بتأويل مالم تسطع عليه صبرا » [1] .

---

(١) إلى هنا ينتهى الجزء الخامس عشر ، ولكننا استطردنا فيه إلى نهاية القصة .

وإلى هنا كان موسى ـ ونحن الذين نتابع سياق القرآن ـ أمام مفاجآت متوالية لا نعلم لها سرا . وموقفنا منها كموقف موسى . بل نحن لا نعرف من هو هذا الذى يتصرف تلك التصرفات العجيبة ، فلم ينبئنا القرآن باسمه ، تكملة للجو الغامض الذى يحيط بنا . وماقيمة اسمه ؟ إنما يراد به أن يمثل الحكمة الإلهية العليا ، التى لا ترتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة ، بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة . فعدم ذكر اسمه يتفق مع الشخصية المعنوية التى يمثلها . وإن القوى الغيبية لتتحكم فى القصة منذ نشأتها . فهاهو ذا موسى يريد أن يلقى هذا الرجل الموعود . فيمضى فى طريقه ؛ ولكن فتاه ينسى غداءهما عند الصخرة ، وكأنما نسيه ليعودا . فيجد هذا الرجل هناك . وكان لقاؤه يفوتهما لو سارا فى وجهتهما ، ولو لم تردهما الأقدار إلى الصخرة كرة أخرى .. كل الجو غامض مجهول ، وكذلك اسم الرجل الغامض المجهول فى سياق القرآن .

ثم يأخذ السر فى التجلى ..

« أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر ، فأردت أن أعيبها ؛ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا »

فبهذا العيب نجت السفينة من أن يأخذها ذلك الملك الظالم غصبا . وكان الضرر الصغير الذى أصابها اتقاء للضرر الكبير الذى يكنه الغيب لها لو بقيت على سلامتها .

« وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما » ..

فهذا الغلام الذى لا يبدو فى حاضره ومظهره أنه يستحق القتل ، قد كشف ستر الغيب عن حقيقته للعبد الصالح ، فإذا هو فى طبيعته كافر طاغ ، تكمن فى نفسه بذور الكفر والطغيان ، وتزيد على الزمن بروزا وتحققا . فلو عاش لأرهق والديه المؤمنين بكفره وطغيانه ، وقادهما بدافع حبهما له أن يتبعاه فى طريقه . فأراد الله ووجه إرادة عبده الصالح إلى قتل هذا الغلام الذى يحمل طبيعة كافرة طاغية ، وأن يبدلهما الله خلفا خيرا منه ، وأرحم بوالديه .

ولو كان الأمر موكولا إلى العلم البشرى الظاهر ، لما كان له إلا الظاهر من أمر الغلام ، ولما كان له عليه من سلطان ، وهو لم يرتكب بعد مايستحق عليه القتل شرعا . وليس لغير الله ولمن يطلعه من عباده على شىء من غيبه أن يحكم على الطبيعة المغيبة لفرد من الناس . ولا أن يرتب على هذا العلم حكما غير حكم الظاهر الذى تأخذ به الشريعة . ولكنه أمر الله القائم على علمه بالغيب البعيد .

«وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحا ،

Marfat.com

فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ، رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى . ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا » . .

فهذا الجدار الذى أتعب الرجل نفسه فى إقامته ، ولم يطلب عليه أجرا من أهل القرية ـ وهما جائعان وأهل القرية لا يضيفونهما ـ كان يخبىء تحته كنزا ، ويغيب وراءه مالا لغلامين يتيمين ضعيفين فى المدينة . ولو ترك الجدار ينقض لظهر من تحته الكنز فلم يستطع الصغيران أن يدفعا عنه .. ولما كان أبوهما صالحا فقد نفعهما الله بصلاحه فى طفولتهما وضعفهما ، فأراد أن يكبرا ويشتد عودهما ، ويستخرجا كنزهما وهما قادران على حمايته .

ثم ينفض الرجل يده من الأمر . فهى رحمة الله التى اقتضت هذا التصرف . وهو أمر الله لا أمره . فقد أطلعه على الغيب فى هذه المسألة وفيما قبلها ، ووجهه إلى التصرف فيها وفق ما أطلعه عليه من غيبه « رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى » ..

فالآن ينكشف الستر عن حكمة ذلك التصرف ، كما انكشف عن غيب الله الذى لا يطلع عليه أحدا إلا من ارتضى .

وفى دهشة السر المكشوف والستر المرفوع يختفى الرجل من السياق كما بدا . لقد مضى فى المجهول كما خرج من المجهول . فالقصة تمثل الحكمة الكبرى . وهذه الحكمة لا تكشف عن نفسها إلا بمقدار . ثم تبقى مغيبة فى علم الله وراء الأستار .

* * *

وهكذا ترتبط ـ فى سياق السورة ـ قصة موسى والعبد الصالح ، بقصة أصحاب الكهف فى ترك الغيب لله ، الذى يدبر الأمر بحكمته ، وفق علمه الشامل الذى يقصر عنه البشر ، الواقفون وراء الأستار ، لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار إلا بمقدار . . .

انتهى الجزء الخامس عشر ، ويليه الجزء السادس عشر مبدوءا بقوله تعالى « أما السفينة ... »

Marfat.com

في ظلال القرآن

الجزء السادس عشر

بقلم

سيد قطب

Marfat.com

Marfat.com

من سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

« أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ، وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً * وَأَمَّا ٱلْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً * وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي . ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً [1] » .

* * *

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ . قُلْ : سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي ٱلْأَرْضِ ، وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ، وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً . قُلْنَا : يَاذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً * قَالَ : أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً ٱلْحُسْنَى ، وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً .

« ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً * كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً .

« ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً * قَالُوا : يَاذَا ٱلْقَرْنَيْنِ : إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ، فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً * قَالَ : مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي

---

(١) سبق تفسير هذه الآيات فى الجزء الخامس لارتباطها به .

Marfat.com

Marfat.com

خَيْرٌ ، فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ . حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ : انْفُخُوا . حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ : آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً * قَالَ : هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً .

« وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً * وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ، وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً * أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ؟ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً .

« قُلْ : هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً .

« قُلْ : لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً .

« قُلْ : إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً » ١١٠

هـذا الدرس الأخير فى سورة الكهف قوامه قصة ذى القرنين ، ورحلاته الثلاث إلى الشرق وإلى الغرب وإلى الوسط ، وبناؤه للسد فى وجه يأجوج ومأجوج .

والسياق يحكى عن ذى القرنين قوله بعد بناء السد : « قال : هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء ، وكان وعد ربى حقا » . . ثم يعقب الوعد الحق ، بالنفخ فى الصور ومشهد من مشاهد القيامة . . ثم تختم السور بثلاثة مقاطع ، يبدأ كل مقطع منها : بقوله : « قل » .

وهذه المقاطع تلخص موضوعات السورة الرئيسية واتجاهاتها العامة . وكأنما هى الإيقاعات الأخيرة القوية فى اللحن المتناسق . .

* * *

وتبدأ قصة ذى القرنين على النحو التالى :

« ويسألونك عن ذى القرنين . قل : سأتلو عليكم منه ذكرا » . .

وقد ذكر محمد ابن اسحاق سبب نزول هذه السورة فقال : « حدثنى شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : « بعثت قريش النضر ابن الحارث ، وعقبة ابن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ماليس عندنا من علم الأنبياء . . فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ووصفوا لهم أمره وبعض قوله ، وقالا : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هـذا . قل : فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن . فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإلا فرجل متقول تروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول . ما كان من أمرهم ؟ فإنهم كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها . ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ماهو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبى فاتبعوه ، ، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا فى أمره مابدا لكم . . فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش ، فقالا : يامعشر قريش ، قد جئناكم بفصل مابينكم وبين محمد . قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور . . . فأخبروهم بها . فجاءوا رسول الله - صلى

Marfat.com

Marfat.com

الله عليه وسلم ــ فقالوا : يامحمد أخبرنا . . . فسألوه عما أمرهم به . فقال لهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « أخبركم غدا عما سألتم عنه » ــ ولم يستثن[1] ــ فانصرفوا عنه . ومكث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له فى ذلك وحيا ، ولا يأتيه جبريل عليه السلام ، حتى أرجف أهل مكة ؛ وقالوا : وعدنا محمد غدا ، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشىء عما سألناه عنه . وحتى أحزن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مكث الوحى عنه ؛ وشق عليه مايتكلم به أهل مكة . ثم جاءه جبرائيل ــ عليه السلام ــ من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ماسألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف ، وقول الله عز وجل : « ويسألونك عن الروح ... » الآية .

هذه رواية .. وقد وردت عن ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ رواية أخرى فى سبب نزول آية الروح خاصة ، ذكرها العوفى . وذلك أن اليهود قالوا : للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ : أخبرنا عن الروح . وكيف تعذب الروح التى فى الجسد وإنما الروح من الله ؟ ولم يكن نزل عليه شىء . فلم يحر إليهم شيئاً . فأتاه جبريل فقال له : « قل : الروح من أمر ربى ، وماأوتيتم من العلم إلا قليلا » ... إلى آخر الرواية .

ولتعدد الروايات فى أسباب النزول ، نؤثر أن نقف فى ظل النص القرآنى المستيقن . ومن هذا النص نعلم أنه كان هناك سؤال عن ذى القرنين . لا ندرى ــ على وجه التحقيق ــ من الذى سأله . والمعرفة به لا تزيد شيئا فى دلالة القصة . فلنواجه النص بلا زيادة .

إن النص لا يذكر شيئا عن شخصية ذى القرنين ولاعن زمانه أو مكانه . وهذه هى السمة المطردة فى قصص القرآن . فالتسجيل التاريخى ليس هو المقصود . إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة . والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان فى أغلب الأحيان .

والتاريخ المدون يعرف ملكا اسمه الاسكندر ذو القرنين . ومن المقطوع به أنه ليس ذا القرنين المذكور فى القرآن . فالإسكندر الإغريقى كان وثنيا . وهذا الذى يتحدث عنه القرآن مؤمن بالله موحد معتقد بالبعث والآخرة .

ويقول أبو الريحان البيرونى المنجم فى كتاب : « الآثار الباقية عن القرون الخالية » إن

---

(١) يعنى لم يقل . إلا أن يشاء الله .

ذا القرنين المذكور فى القرآن كان من حمير مستدلا باسمه . فملوك حمير كانوا يلقبون بذى . كذى نواس وذى يزن . وكان اسمه أبو بكر ابن افريقش . وأنه رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فمر بتونس ومراكش وغيرهما ؛ وبنى مدينة إفريقية فسميت القارة كلها باسمه . وسمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس .

وقد يكون هذا القول صحيحاً . ولكننا لا نملك وسائل تمحيصه . ذلك أنه لايمكن البحث فى التاريخ المدون عن ذى القرنين الذى يقص القرآن طرفا من سيرته ، شأنه شأن كثير من القصص الوارد فى القرآن كقصص قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وغيرهم . فالتاريخ مولود حديث العهد جدا بالقياس إلى عمر البشرية . وقد جرت قبل هذا التاريخ المدون أحداث كثيرة لا يعرف عنها شيئاً . فليس هو الذى يستفتى فيها !

ولو قد سلمت التوراة من التحريف والزيادات لكانت مرجعاً يعتمد عليه فى شىء من تلك الأحداث . ولكن التوراة أحيطت بالأساطير التى لا شك فى كونها أساطير . وشحنت كذلك بالروايات التى لا شك فى أنها مزيدة على الأصل الموحى به من الله . فلم تعد التوراة مصدراً مستيقناً لما ورد فيها من القصص التاريخى .

وإذن فلم يبق إلا القرآن . الذى حفظ من التحريف والتبديل . هو المصدر الوحيد لما ورد فيه من القصص التاريخى .

ومن البديهى أنه لا تجوز محاكمة القرآن الكريم إلى التاريخ لسببين واضحين :

أولهما : أن التاريخ مولود حديث العهد ، فاتته أحداث لا تحصى فى تاريخ البشرية ، لم يعلم عنها شيئا . والقرآن يروى بعض هذه الأحداث التى ليس لدى التاريخ علم عنها !

وثانيهما : أن التاريخ ـ وإن وعى بعض هذه الأحداث ـ هو عمل من أعمال البشر القاصرة يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف . ونحن نشهد فى زماننا هذا ـ الذى تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص ـ أن الخبر الواحد أو الحادث الواحد يروى على أوجه شتى ، وينظر إليه من زوايا مختلفة، ويفسر تفسيرات متناقضة . ومن مثل هذا الركام يصنع التاريخ ، مهما قيل بعد ذلك فى التمحيص والتدقيق !

فمجرد الكلام عن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن الكريم من القصص ، كلام تنكره

Marfat.com

القواعد العلمية المقررة التى ارتضاها البشر ، قبل أن تنكره العقيدة التى تقرر أن القرآن هو القول الفصل . وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن ، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمى على السواء . إنما هو مراء !!!

* * *

لقد سأل سائلون عن ذى القرنين . سألوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأوحى إليه الله بما هو وارد هنا من سيرته . وليس أمامنا مصدر آخر غير القرآن فى هذه السيرة . فنحن لا نملك التوسع فيها بغير علم . وقد وردت فى التفاسير أقوال كثيرة ، ولكنها لا تعتمد على يقين . وينبغى أن تؤخذ بحذر ، لما فيها من إسرائيليات وأساطير .

وقد سجل السياق القرآنى لذى القرنين ثلاث رحلات : واحدة إلى المغرب ، وواحدة إلى المشرق ، وواحدة إلى مكان بين السدين . . فلنتابع السياق فى هذه الرحلات الثلاث .

* * *

يبدأ الحديث عن ذى القرنين بشىء عنه :

« إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا » . .

لقد مكن الله له فى الأرض ، فأعطاه سلطانا وطيد الدعائم ؛ ويسر له أسباب الحكم والفتح ، وأسباب البناء والعمران ، وأسباب السلطان والمتاع . . وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه فى هذه الحياة .

« فأتبع سببا » . ومضى فى وجه مما هو ميسر له ، وسلك طريقه إلى الغرب .

« حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ، ووجد عندها قوما . قلنا : يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا . قال : أما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا » .

ومغرب الشمس هو المكان الذى يرى الرائى أن الشمس تغرب عنده وراء الأفق . وهو

Marfat.com

يختلف بالنسبة للمواضع . فبعض المواضع يرى الرائي فيها أن الشمس تغرب خلف جبل . وفى بعض المواضع يرى أنها تغرب فى الماء كما فى المحيطات الواسعة والبحار . وفى بعض المواضع يرى أنها تغرب فى الرمال إذا كان فى صحراء مكشوفة على مد البصر . . .

والظاهر من النص أن ذا القرنين غرب حتى وصل إلى نقطة على شاطىء المحيط الأطلسى ـ وكان يسمى بحر الظلمات ويظن أن اليابسة تنتهى عنده ـ فرأى الشمس تغرب فيه .

والأرجح أنه كان عند مصب أحد الأنهار . حيث تكثر الأعشاب ويتجمع حولها طين لزج هو الحمأ . وتوجد البرك وكأنها عيون الماء . . فرأى الشمس تغرب هناك و « وجدها تغرب فى عين حمئة » . . ولكن يتعذر علينا تحديد المكان ، لأن النص لا يحدده . وليس لنا مصدر آخر موثوق به نعتمد عليه فى تحديده . وكل قول غير هذا ليس مأموناً لأنه لا يستند إلى مصدر صحيح .

عند هذه الحمئة وجد ذو القرنين قوما : « قلنا : يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » .

كيف قال الله هذا القول لذى القرنين ؟ أكان ذلك وحيا إليه أم إنه حكاية حال . إذ سلطه الله على القوم ، وترك له التصرف فى أمرهم فكأنما قيل له : دونك وإياهم . فإما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ؟ كلا القولين ممكن ، ولا مانع من فهم النص على هذا الوجه أو ذاك . والمهم أن ذا القرنين أعلن دستوره فى معاملة البلاد المفتوحة ، التى دان له أهلها وسلطه الله عليها .

« قال : أما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا » .

أعلن أن للمعتدين الظالمين عذابه الدنيوى وعقابه ، وأنهم بعد ذلك يردون إلى ربهم فيعذبهم عذابا فظيعا « نكرا » لا نظير له فيما يعرفه البشر . أما المؤمنون الصالحون فلهم الجزاء الحسن ، والمعاملة الطيبة ، والتكريم والمعونة والتيسير .

وهذا هو دستور الحكم الصالح . فالمؤمن الصالح ينبغى أن يجد الكرامة والتيسير

Marfat.com

Marfat.com

والجزاء الحسن عند الحاكم . والمعتدى الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء . . وحين يجد المحسن فى الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسنا ، ومكانا كريما وعونا وتيسيرا ؛ ويجد المعتدى جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة . . عندئذ يجد النـاس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج . أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون فى الدولة ؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون . فعندئذ تتحول السلطة فى يد الحاكم سوط عـذاب وأداة إفساد . ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد .

* * *

ثم عاد ذو القرنين من رحلة المغرب إلى رحلة المشرق ، ممكنا له فى الأرض ، ميسرة له الأسباب :

« ثم أتبع سببا . حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا . كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا » .

وما قيل عن مغرب الشمس يقال عن مطلعها . فالمقصود هو مطلعها من الأفق الشرقى فى عين الرائى . والقرآن لم يحدد المكان . ولكنه وصف طبيعته وحال القوم الذى وجدهم ذو القرنين هناك : « حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا » . . أى إنها أرض مكشوفة ، لا تحجبها عن الشمس مرتفعات ولا أشجار . فالشمس تطلع على القوم فيها حين تطلع بلا ساتر . . وهذا الوصف ينطبق على الصحارى والسهوب الواسعة . فهو لا يحدد مكانا بعينه . وكل ما نرجحه أن هذا المكان كان فى أقصى الشرق حيث يجد الرائى أن الشمس تطلع على هذه الأرض المستوية المكشوفة ،وقد يكون ذلك على شاطىء إفريقية الشرق . وهناك احتمال لأن يكون المقصود بقوله : « لم نجعل لهم من دونها سترا » أنهم قوم عراة الأجسام لم يجعل لهم سترا من الشمس . .

ولقد أعلن ذو القرنين من قبل دستوره فى الحكم ، فلم يتكرر بيانه هنا ، ولا تصرفه فى رحلة المشرق لأنه معروف من قبل . وقد علم الله كل ما لديه من أفكار واتجاهات .

Marfat.com

ونقف هنا وقفة قصيرة أمام ظاهرة التناسق الفنى فى العرض .. فإن المشهد الذى يعرضه السياق هو مشهد مكشوف فى الطبيعة : الشمس ساطعة لا يسترها عن القوم ساتر . وكذلك ضمير ذى القرنين ونواياه كلها مكشوفة لعلم الله .. وكذلك يتناسق المشهد فى الطبيعة وفى ضمير ذى القرنين على طريقة التنسيق القرآنية الدقيقة .

* * *

«ثم أتبع سببا . حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا . قالوا : ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ، فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ؟ قال : مامكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما . آتونى زبر الحديد . حتى إذا ساوى بين الصدفين قال : انفخوا . حتى إذا جعله نارا قال : آتونى أفرغ عليه قطرا . فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا . قال : هذا رحمة من ربى ، فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء ، وكان وعد ربى حقا » .

ونحن لا نستطيع أن نجزم بشىء عن المكان الذى بلغ إليه ذو القرنين « بين السدين » ولا ماهما هذان السدان . كل مايؤخذ من النص أنه وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين ، أو بين سدين صناعيين . تفصلهما فجوة أو ممر . فوجد هنالك قوما متخلفين : « لا يكادون يفقهون قولا » .

وعندما وجدوه فاتحا قويا ، وتوسموا فيه القدرة والصلاح .. عرضوا عليه أن يقيم لهم سدا فى وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجزين ، ويغيرون عليهم من ذلك الممر ، فيعيثون فى أرضهم فسادا ؛ ولا يقدرون هم على دفعهم وصدهم .. وذلك فى مقابل خراج من المال يجمعونه له من بينهم » .

وتبعا للمنهج الصالح الذى أعلنه ذلك الحاكم الصالح من مقاومة الفساد فى الأرض فقد رد عليهم عرضهم الذى عرضوه من المال ؛ وتطوع بإقامة السد ؛ ورأى أن أيسر طريقة لإقامته هى ردم الممر بين الحاجزين الطبيعيين ؛ فطلب إلى أولئك القوم المتخلفين أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية : « فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما . آتونى زبر الحديد ».. فجمعوا له قطع الحديد ، وكوموها فى الفتحة بين الحاجزين ، فأصبحا كأنهما صدفتان تغلفان ذلك الكوم

Marfat.com

بينهما . « حتى إذا ساوى بين الصدفين » وأصبح الركام بمساواة القمتين « قال: انفخوا » على النار لتسخين الحديد « حتى إذا جعله نارا » كله لشدة توهجه واحمراره « قال : آتونى أفرغ عليه قطرا » أى نحاسا مذابا يتخلل الحديد ، ويختلط به فيزيده صلابة .

وقد استخدمت هذه الطريقة حديثا فى تقوية الحديد ؛ فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته . وكان هذا الذى هدى الله إليه ذا القرنين ، وسجله فى كتابه الخالد سبقا للعلم البشرى الحديث بقرون لا يعلم عددها إلا الله .

بذلك التحم الحاجزان ، وأغلق الطريق على يأجوج ومأجوج «فما اسطاعوا أن يظهروه» ويتسوروه « وما استطاعوا له نقبا » فينفذوا منه . وتعذر عليهم أن يهاجموا أولئك القوم الضعاف المتخلفين . فأمنوا واطمأنوا(١) .

ونظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذى قام به ، فلم يأخذه البطر والغرور ، ولم تسكره نشوة القوة والعلم . ولكنه ذكر الله فشكره . ورد إليه العمل الصالح الذى وفقه إليه . وتبرأ من قوته إلى قوة الله ، وفوض إليه الأمر ، وأعلن مايؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة ، فتعود الأرض سطحا أجرد مستويا .

« قال : هذا رحمة من ربى ، فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء . وكان وعد ربى حقا » .

وبذلك تنتهى هذه الحلقة من سيرة ذى القرنين . النموذج الطيب للحاكم الصالح ، يمكنه الله فى الأرض ، وييسر له الأسباب ؛ فيجتاح الأرض شرقا وغربا ؛ ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر ، ولا يطغى ولا يتبطر ، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادى ، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان ، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق ؛ ولا يسخر أهلها فى أغراضه وأطماعه .. إنما ينشر العدل فى كل مكان يحل به ، ويساعد المتخلفين ، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل ؛ ويستخدم القوة التى يسرها الله له فى التعمير والإصلاح ، ودفع العدوان

---

(١) كشف سد بمقربة من مدينة « ترمذ » عرف بباب الحديد . وقد مر به فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى العالم الألمانى (سيلد برجر) وسجله فى كتابه . وكذلك ذكره المؤرخ الأسبانى (كلانيجو) فى رحلته سنة ١٤٠٣ وقال : إن سد مدينة باب الحديد على الطريق — سمرقند والهند ... وقد يكون هو السد الذى بناه ذو القرنين . .

Marfat.com

وإحقاق الحق . ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله ، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته ، وأنه راجع إلى الله .

* * *

وبعد فمن يأجوج ومأجوج ؟ وأين هم الآن ؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون !

كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق ، فنحن لا نعرف عنهم إلا ماورد في القرآن ، وفي بعض الأثر الصحيح .

والقرآن يذكر في هذا الموضع ماحكاه من قول ذى القرنين : « فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء ، وكان وعد ربى حقا »

وهذا النص لا يحدد زمانا . ووعد الله بمعنى وعده بدك السد ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار ، وانساحوا في الأرض ، ودمروا الممالك تدميرا .

وفي موضع آخر في سورة الأنبياء : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق ... »

وهذا النص كذلك لا يحدد زمانا معينا لخروج يأجوج ومأجوج فاقتراب الوعد الحق بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجاء في القرآن : « اقتربت الساعة وانشق القمر » والزمان في الحساب الإلهي غيره في حساب البشر . فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون ، يراها البشر طويلة مديدة ، وهي عند الله ومضة قصيرة .

وإذن فمن الجائز أن يكون السد قد فتح في الفترة مابين : « اقتربت الساعة » ويومنا هذا . وتكون غارات المغول والتتار التي اجتاحت الشرق هي انسياح يأجوج ومأجوج .

وهناك حديث صحيح رواه الإمام أحمد عن سفيان الثورى عن عروة ، عن زينب بنت أبي سلمة ، عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان ، عن أمها حبيبة ، عن زينب بنت جحش ـ زوج النبي صلى الله عليه وسلم ـ قالت : استيقظ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نومه وهو محمر الوجه وهو يقول : « ويل للعرب من شر قد اقترب . فتح اليوم من ردم يأجوج

ومأجوج مثل هذا » وحلق (بإصبعيه السبابة والإبهام) . قلت : يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبيث » .

وقد كانت هـذه الرؤيا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن . وقد وقعت غارات التتار بعدها ، ودمرت ملك العرب بتدمير الخلافة العباسية على يد هولاكو فى خلافة المستعصم آخر ملوك العباسيين . وقد يكون هـذا تعبير رؤيا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعلم ذلك عند الله . وكل مانقوله ترجيح لا يقين .

* * *

ثم نعود إلى سياق السورة . فنجده يعقب على ذكر ذى القرنين للوعد الحق بمشهد من مشاهد القيامة .

« وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ، ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا ؛ وعرضنا جهنم يومئذ للـكافرين عرضا ، الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى ، وكان لا يستطيعون سمعا » .

وهو مشهد يرسم حركة الجموع البشرية من كل لون وجنس وأرض . ومن كل جيل وزمان وعصر ، مبعوثين منتشرين . يختلطون ويضطربون فى غير نظام وفى غير انتباه ، تتدافع جموعهم تدافع الموج وتختلط اختلاط الموج . . ثم إذا نفخة التجمع والنظام : « ونفخ فى الصور(١) فجمعناهم جمعا » فإذا هم فى الصف فى نظام !

ثم إذا الـكافرون الذين أعرضوا عن ذكر الله حتى لـكأن على عيونهم غطاء ، ولـكأن فى أسماعهم صمما . . إذا بهؤلاء تعرض عليهم جهنم فلا يعرضون عنها كما كانوا يعرضون عن ذكر الله . فما يستطيعون اليوم إعراضا . لقد نزع الغطاء عن عيونهم نزعا فرأوا عاقبة الإعراض والعمى جزاء وفاقا !

والتعبير ينسق بين الإعراض والعرض متقابلين فى المشهد ، متقابلين فى الحركة على طريقة التناسق الفنى فى القرآن .

---

(١) البوق.

Marfat.com

ويعقب على هذا التقابل بالتهكم اللاذع والسخرية المريرة :

«أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء . إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا » ..

أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا مخلوقات الله المستعبدة له أنصارا لهم من دونه ، ينصرونهم منه ويدفعون عنهم سلطانه ؟ إذن فليلقوا عاقبة هذا الحسبان : «إنا أعتدنا[1] جهنم للكافرين نزلا » .. ويا له من نزل مهيأ للاستقبال ، لا يحتاج إلى جهد ولا انتظار . فهو حاضر ينتظر النزلاء الكفار !

* * *

ثم تختم السورة بالإيقاعات الأخيرة ، تلخص خطوطها الكثيرة ، وتجمع إيقاعاتها المتفرقة :

فأما الإيقاع الأول فهو الإيقاع حول القيم والموازين كما هى فى عرف الضالين ، وكما هى على وجه اليقين .. قيم الأعمال وقيم الأشخاص ..

« قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؟ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » .

« قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا » الذين لا يوجد من هم أشد منهم خسرانا ؟«الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا » فلم يؤد بهم إلى الهدى ، ولم ينته بهم إلى ثمرة أو غاية : « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » لأنهم من الغفلة بحيث لا يشعرون بضلال سعيهم وذهابه سدى ، فهم ماضون فى هذا السعى الخائب الضال ، ينفقون حياتهم فيه هدرا . .

قل هل ننبئكم من هم هؤلاء ؟

وعندما يبلغ من استثارة التطلع والانتظار إلى هذا الحد يكشف عنهم فإذا هم :

« أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم » ..

---

(١) أحضرنا وأعددنا .

Marfat.com

Marfat.com

وأصل الحبوط هو انتفاخ بطن الدابة حين تتغذى بنوع سام من الكلأ ثم تلقى حتفها .. وهو أنسب شيء لوصف الأعمال . . إنها تنتفخ وأصحابها يظنونها صالحة ناجحة رابحة . . ثم تنتهي إلى البوار !

« أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم » . . « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » . .

فهم مهملون ، لا قيمة لهم ولا وزن فى ميزان القيم الصحيحة « يوم القيامة » . ولهم بعد ذلك جزاؤهم :

« ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا »

ويتم التعاون فى المشهد بعرض كفة المؤمنين فى الميزان وقيمتهم :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا يبغون عنها حولا » . .

وهذا النزل فى جنات الفردوس فى مقابل ذلك النزل فى نار جهنم . وشتان شتان !

ثم هذه اللفتة الدقيقة العميقة إلى طبيعة النفس البشرية وإحساسها بالمتاع فى قوله : «لا يبغون عنها حولا » .. وهى تحتاج منا إلى وقفة بإزاء ما فيها من عمق ودقة . .

إنهم خالدون فى جنات الفردوس . . ولكن النفس البشرية حوّل قلب . تمل الاطراد ، وتسأم البقاء على حال واحدة أو مكان واحد ؛ وإذا اطمأنت على النعيم من التغير والنفاد فقدت حرصها عليه . وإذا مضى على وتيرة واحدة فقد تسأمه . بل قد تنتهى إلى الضيق به ؛ والرغبة فى الفرار منه !

هذه هى الفطرة التى فطر عليها الإنسان لحكمة عليا تناسب خلافته للأرض ، ودوره فى هذه الخلافة . فهذا الدور يقتضى تحوير الحياة وتطويرها حتى تبلغ الكمال المقدر لها فى علم الله . ومن ثم ركز فى الفطرة البشرية حب التغيير والتبديل ؛ وحب الكشف والاستطلاع ، وحب الانتقال من حال إلى حال ، ومن مكان إلى مكان ، ومن مشهد إلى مشهد ، ومن نظام إلى نظام . . وذلك كى يندفع الإنسان فى طريقه ، يغير فى واقع الحياة ، ويكشف عن مجاهل الأرض ، ويبدع فى نظم المجتمع وفى أشكال المادة .. ومن وراء التغير

والكشف والإبداع ترتقى الحياة وتتطور ؛ وتصل شيئاً فشيئاً إلى الكمال المقدر لها فى علم الله.

نعم إنه مركوز فى الفطرة كذلك ألفة القديم ، والتعلق بالمألوف ، والمحافظة على العادة . ولكن ذلك كله بدرجة لاتشل عملية التطور والإبداع ، ولاتعوق الحياة عن الرقى والارتفاع. ولا تنتهى بالأفكار والأوضاع إلى الجمود والركود . إنما هى المقاومة التى تضمن التوازن مع الاندفاع . وكلما اختل التوازن فغلب الجمود فى بيئة من البيئات انبعثت الثورة التى تدفع بالعجلة دفعة قوية قد تتجاوز حدود الاعتدال . وخير الفترات هى فترات التعادل بين قوتى الدفع والجذب ، والتوازن بين الدوافع والضوابط فى جهاز الحياة .

فأما إذا غلب الركود والجمود . فهو الإعلان بانحسار دوافع الحياة ، وهو الإيذان بالموت فى حياة الأفراد والجماعات سواء .

هذه هى الفطرة المناسبة لخلافة الإنسان فى الأرض . . فأما فى الجنة وهى دار الكمال المطلق .. فإن هذه الفطرة لاتقابلها وظيفة . ولو بقيت النفس بفطرة الأرض ، وعاشت فى هذا النعيم المقيم الذى لا تخشى عليه النفاد ، ولا تتحول هى عنه ، ولا يتحول هو عنها لانقلب النعيم جحيما لهذه النفس بعد فترة من الزمان ؛ ولأصبحت الجنة سجناً لنزلائها يودون لو يغادرونه فترة ، ولو إلى الجحيم ، ليرضوا نزعة التغيير والتبديل !

ولكن بارىء هذه النفس ـ وهو أعلم بها ـ يحول رغباتها ، فلا تعود تبغى التحول عن الجنة ، وذلك فى مقابل الخلود الذى لا تحول له ولا نفاد !

* * *

وأما الإيقاع الثانى فيصور العلم البشرى المحدود بالقياس إلى العلم الإلهى الذى ليست له حدود ؛ ويقربه إلى تصور البشر القاصر بمثال محسوس على طريقة القرآن فى التعبير بالتصوير .

« قل : لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ، ولو جئنا بمثله مددا » . .

والبحر أوسع وأغزر ما يعرفه البشر . والبشر يكتبون بالمداد كل ما يكتبون ؛ وكل ما يسجلون به علمهم الذى يعتقدون أنه غزير !

Marfat.com

فالسياق يعرض لهم البحر بسعته وغزارة فى صورة مداد يكتبون به كلمات الله الدالة على علمه؛ فإذا البحر ينفد وكلمات الله لا تنفد . ثم إذا هو يمدهم ببحر آخر مثله ، ثم إذا البحر الآخر ينفد كذلك وكلمات الله تنتظر المداد !

وبهذا التصوير المحسوس والحركة المجسمة يقرب إلى التصور البشرى المحدود معنى غير المحدود ، ونسبة المحدود إليه مهما عظم واتسع .

والمعنى الكلى المجرد يظل حائراً فى التصور البشرى ومائعاً حتى يتمثل فى صورة محسوسة. ومهما أوتى العقل البشرى من القدرة على التجريد فإنه يظل فى حاجة إلى تمثل المعنى المجرد فى صور وأشكال وخصائص ونماذج . . ذلك شأنه مع المعانى المجردة التى تمثل المحدود ؟ فكيف بغير المحدود ؟

لذلك يضرب القرآن الأمثال للناس ؛ ويقرب إلى حسهم معانيه الكبرى بوضعها فى صور ومشاهد ، ومحسوسات ذات مقومات وخصائص وأشكال على مثال هذا المثال .

والبحر فى هذا المثال يمثل علم الإنسان الذى يظنه واسعا غزيرا . وهو - على سعته وغزارته - محدود . وكلمات الله تمثل العلم الإلهى الذى لا حدود له ، والذى لا يدرك البشر نهايته ؛ بل لا يستطيعون تلقيه وتسجيله . فضلا على محاكاته .

ولقد يدرك البشر الغرور بما يكشفونه من أسرار فى أنفسهم وفى الآفاق ، فتأخذهم نشوة الظفر العلمى ، فيحسبون أنهم علموا كل شىء ، أو أنهم فى الطريق !

ولكن المجهول يواجههم بآفاقه المترامية التى لا حد لها ، فإذا هم ما يزالون على خطوات من الشاطىء ، والخضم أمامهم أبعد من الأفق الذى تدركه أبصارهم !

إن ما يطيق الإنسان تلقيه وتسجيله من علم الله ضئيل قليل ، لأنه يمثل نسبة المحدود إلى غير المحدود .

فليعلم الإنسان ما يعلم ؛ وليكشف من أسرار هذا الوجود ما يكشف .. ولكن ليطامن من غروره العلمى ، فسيظل أقصى ما يبلغه علمه أن يكون البحر مدادا فى يده . وسينفد البحر وكلمات الله لم تنفد ؛ ولو أمده الله ببحر مثله فسينتهى من بين يديه وكلمات الله ليست إلى نفاد..

* * *

Marfat.com

Marfat.com

وفى ظل هذا المشهد الذى يتضاءل فيه علم الإنسان ينطلق الإيقاع الثالث والأخير فى السورة ، فيرسم أعلى أفق للبشرية ـ وهو أفق الرسالة الكاملة الشاملة . فإذا هو قريب محدود بالقياس إلى الأفق الأعلى الذى تتقاصر دونه الأبصار ، وتنحسر دونه الأنظار :

« قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » . .

إنه أفق الألوهية الأسمى . . فأين هنا آفاق النبوة ، وهى ـ على كل حال ـ آفاق بشرية ؟

« قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى . . . » . . بشر يتلقى من ذلك الأفق الأسمى . بشر يستمد من ذلك المعين الذى لا ينضب . بشر لا يتجاوز الهدى الذى يتلقاه من مولاه . بشر يتعلم فيعلم . . فمن كان يتطلع إلى القرب من ذلك الجوار الأسنى ، فلينتفع بما يتعلم من الرسول الذى يتلقى ، وليأخذ بالوسيلة التى لا وسيلة سواها :

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » . .

هذا هو جواز المرور إلى ذلك اللقاء الأثير .

* * *

وهكذا تختم السورة ـ التى بدأت بذكر الوحى والتوحيد ـ بتلك الإيقاعات المتدرجة فى العمق والشمول ، حتى تصل إلى نهايتها فيكون هذا الإيقاع الشامل العميق ، الذى ترتكز عليه سائر الأنغام فى لحن العقيدة الكبير . . .

Marfat.com

سورة مريم مكية

وآياتها ٩٨ إلا آيتي ٥٨ و ٧١ فمدنيتان

بسم الله الرحمن الرحيم

« كهيعص ① ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ ذَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ : رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ، وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ، وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ، فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا .

« يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا .

« قَالَ : رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ، وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ: كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ : هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا * قَالَ . رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً . قَالَ : آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا .

« فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ، فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا .

« يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ، وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً ، وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا » .

* * *

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا ، فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ، فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ . إِنِّي أَعُوذُ

بِالرَّحْمَانِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ: إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ، وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ، وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ: كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ: هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا، وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا.

« فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ، قَالَتْ: يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا، فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي: إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا، فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا.

« فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا: يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ، وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا: كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا؟ * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ، وَيَوْمَ أَمُوتُ، وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا.

« ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ. فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ.

« فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ * أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ »(١)

Marfat.com

يدور سياق هذه السورة على محور التوحيد ؛ ونفى الولد والشريك ؛ ويلم بقضية البعث القائمة على قضية التوحيد .. هـذا هو الموضوع الأساسى الذى تعالجه السورة ، كالشأن فى السور المكية غالبا .

والقصص هو مادة هذه السورة . فهى تبدأ بقصة زكريا ويحي .فقصة مريم ومولد عيسى . فطرف من قصة إبراهيم مع أبيه .. ثم تعقبها إشارات إلى النبيين : إسحاق ويعقوب ، وموسى وهرون ، واسماعيل ، وإدريس . وآدم ونوح . ويستغرق هذا القصص حوالى ثلثى السورة . ويستهدف إثبات الوحدانية والبعث ، ونفى الولد والشريك ، وبيان منهج المهتدين ومنهج الضالين من أتباع النبيين .

ومن ثم بعض مشاهد القيامة ، وبعض الجدل مع المنكرين للبعث .

واستنكار للشرك ودعوى الولد ؛ وعرض لمصارع المشركين والمكذبين فى الدنيا وفى الآخرة . .وكله يتناسق مع اتجاه القصص فى السورة ويتجمع حول محورها الأصيل .

وللسورة كلها جو خاص يظللها ويشيع فيها ، ويتمشى فى موضوعاتها ..

إن سياق هـذه السورة معرض للانفعالات والمشاعر القوية . . الانفعالات فى النفس البشرية ، وفى « نفس » الكون من حولها . فهذا الكون الذى نتصوره جمادا لا حس له يعرض فى السياق ذا نفس وحس ومشاعر وانفعالات ، تشارك فى رسم الجو العام للسورة . حيث نرى السماوات والأرض والجبال تغضب وتنفعل حتى لتكاد تنفطر وتنشق وتنهد استنكارا :

« أن دعوا للرحمان ولدا وما ينبغى للرحمان أن يتخذ ولدا » ..

أما الانفعالات فى النفس البشرية فتبدأ مع مفتتح السورة وتنتهى مع ختامها . والقصص الرئيسى فيها حافل بهـذه الانفعالات فى مواقفه العنيفة العميقة . وبخاصة فى قصة مريم وميلاد عيسى .

والظل الغالب فى الجو هو ظل الرحمة والرضى والاتصال . فهى تبدأ بذكر رحمة الله لعبده زكريا « ذكر رحمة ربك عبده زكريا » وهو يناجى ربه نجاء : « إذ نادى ربه نداء خفيا » . . ويتكرر لفظ الرحمة ومعناها وظلها فى ثنايا السورة كثيرا . ويكثر فيها اسم « الرحمان » . ويصور النعيم الذى يلقاه المؤمنون به فى صورة ود : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمان ودا » ويذكر من نعمة الله على يحي أن آتاه الله حنانا « وحنانا

Marfat.com

من لدنا وزكاة وكان تقيا » . ومن نعمة الله على عيسى أن جعله برا بوالدته وديعا لطيفا : « وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا » . .

وإنك لتحس لمسات الرحمة الندية ودبيبها اللطيف فى الكلمات والعبارات والظلال . كما تحس انتفاضات الكون وارتجافاته لوقع كلمة الشرك التى لا تطيقها فطرته .. كذلك تحس أن للسورة إيقاعا موسيقيا خاصا . فحتى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء وفيه عمق : رضيا . سريا . حفيا . نجيا ... فأما المواضع التى تقتضى الشد والعنف ، فتجىء فيها الفاصلة مشددة دالا فى الغالب . مدّا . ضدّا . إدّا ، هدّا ، أو زايا : عزّا . أزّا .

وتنوع الإيقاع الموسيقى والفاصلة والقافية بتنوع الجو والموضوع يبدو جليا فى هذه[1]. فهى تبدأ بقصة زكريا ويحيى فتسير الفاصلة والقافية هكذا :

« ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذا نادى ربه نداء خفيا ... الخ »

وتليها قصة مريم وعيسى فتسير الفاصلة والقافية على النظام نفسه :

« واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ... الخ »

إلى أن ينتهى القصص ، ويجىء التعقيب ، لتقرير حقيقة عيسى ابن مريم ، وللفصل فى قضية بنوته . فيختلف نظام الفواصل والقوافى .. تطول الفاصلة ، وتنتهى القافية بحرف الميم أو النون المستقر الساكن عند الوقف لا بالياء الممدودة الرخية . على النحو التالى .

« ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن فيكون ... الخ » .

حتى إذا انتهى التقرير والفصل وعاد السياق إلى القصص عادت القافية الرخية المديدة :

« واذكر فى الكتاب ابراهيم إنه كان صديقا نبيا . إذ قال لأبيه : ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا .. الخ » .

حتى إذا جاء ذكر المكذبين وما ينتظرهم من عذاب وانتقام ، تغير الإيقاع الموسيقى وجرس القافية :

---

(١) يراجع هذا الموضوع بتوسع فى فصل التناسق الفنى فى القرآن فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن من ص ٨٦ إلى ٩٦ من الطبعة الثالثة .

Marfat.com

Marfat.com

« قل: من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا . حتى إذ رأوا ما يوعدون إما العذاب ؛ وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا .. الخ » .

وفى موضع الاستنكار يشتد الجرس والنغم بتشديد الدال :

« وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدا ، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ... الخ » .

وهكذا يسير الإيقاع الموسيقى فى السورة وفق المعنى والجو ؛ ويشارك فى إبقاء الظل الذى يتناسق مع المعنى فى ثنايا السورة ، وفق انتقالات السياق من جو إلى جو ومن معنى إلى معنى .

* * *

ويسير السياق مع موضوعات السورة فى أشواط ثلاثة :

الشوط الأول يتضمن قصة زكريا ويحيى ، وقصة مريم وعيسى . والتعقيب على هذه القصة بالفصل فى قضية عيسى التى كثر فيها الجدل ، واختلفت فيها أحزاب اليهود والنصارى .

والشوط الثانى يتضمن حلقة من قصة ابراهيم مع أبيه وقومه واعتزاله لملة الشرك وماعوضه الله من ذرية نسلت بعد ذلك أمة ثم إشارات إلى قصص النبيين ، ومن اهتدى بهم ومن خلفهم من الغواة ؛ ومصير هؤلاء وهؤلاء . وينتهى باعلان الربوبية الواحدة ، التى تعبد بلا شريك : « رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته . هل تعلم له سميا ؟ »

والشوط الثالث والأخير يبدأ بالجدل حول قضية البعث ، ويستعرض بعض مشاهد القيامة. ويعرض صورة من استنكار الكون كله لدعوى الشرك ، وينتهى بمشهد مؤثر عميق من مصارع القرون ! « وكم أهلكنا قبلهم من قرن . هل تحس منهم من أحدا أو تسمع لهم ركزا» فنأخذ فى الدرس الأول :

* * *

« كاف , ها . يا . عين . صاد » ..

هذه الأحرف المتقطعة التى تبدأ بها بعض السور ، والتى اخترنا فى تفسيرها أنها نماذج من الحروف التى يتألف منها هذا القرآن ، فيجىء نسقا جديدا لا يستطيعه البشر مع

أنهم يملكون الحروف ويعرفون الكلمات ، ولكنهم يعجزون أن يصوغوا منها مثل ماتصوغه القدرة المبدعة لهذا القرآن .

وبعدها تبدأ القصة الأولى . قصة زكريا ويحي . والرحمة قوامها . والرحمه تظللها . ومن ثم يتقدمها ذكر الرحمة : « ذكر رحمة ربك عبده زكريا » ..

تبدأ القصة بمشهد الدعاء . دعاء زكريا لربه فى ضراعة وفى خفية :

« إذ نادى ربه نداء خفيا . قال : رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا . وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا » . .

إنه يناجى ربه بعيدا عن عيون الناس ، بعيدا عن أسماعهم . فى عزلة يخلص فيها لربه ، ويكشف له عما يثقل كاهله ويكرب صدره ويناديه فى قرب واتصال : « رب .. » بلا واسطة حتى ولا حرف النداء . وإن ربه ليسمع ويرى من غير دعاء ولا نداء ولكن المكروب يستريح إلى البث ، ويحتاج إلى الشكوى . والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر ، فيستحب لهم أن يدعوه وأن يبثوه ماتضيق به صدورهم . « وقال ربكم: ادعونى أستجب لكم » ليريحوا أعصابهم من العبء المرهق ، ولتطمئن قلوبهم إلى أنهم قد عهدوا بأعبائهم إلى من هو أقوى وأقدر ؛ وليستشعروا صلتهم بالجناب الذى لا يضام من يلجأ إليه ، ولا يخيب من يتوكل عليه .

وزكريا يشكو إلى ربه وهن العظم . وحين يهن العظم يكون الجسم كله قد وهن . فالعظم هو أصلب مافيه ، وهو قوامه الذى يقوم به ويتجمع عليه . ويشكو إليه اشتعال الرأس شيبا . والتعبير المصور يجعل الشيب كأنه نار تشتعل ويجعل الرأس كله كأنما تشمله هذه النار المشتعلة ، فلا يبقى فى الرأس المشتعل سواد .

ووهن العظم واشتعال الرأس شيبا كلاهما كناية عن الشيخوخة وضعفها الذى يعانيه زكريا ويشكوه إلى ربه ، وهو يعرض عليه حاله ورجاءه ..

ثم يعقب عليه بقوله : «ولم أكن بدعائك رب شقيا» معترفا بأن الله قد عوده أن يستجيب إليه إذا دعاه ، فلم يشق مع دعائه لربه ، وهو فى فتوته وقوته . فما أحوجه الآن فى هرمه وكبرته أن يستجيب الله له ويتم نعمته عليه .

فإذا صور حاله ، وقدم رجاءه ، ذكر مايخشاه ، وعرض مايطلبه .. إنه يخشى

Marfat.com

من بعده . يخشاهم ألا يقوموا على تراثه بما يرضاه . وتراثه هو دعوته التى يقوم عليها ـ وهو أحد أنبياء بنى إسرائيل البارزين ـ وأهله الذين يرعاهم ـ ومنهم مريم التى كان قيما عليها وهى تخدم المحراب الذى يتولاه ـ وماله الذى يحسن تدبيره وإنفاقه فى وجهه . وهو يخشى الموالى من ورائه على هذا التراث كله ، ويخشى ألا يسيروا فيه سيرته . . قيل لأنه يعهدهم غير صالحين للقيام على ذلك التراث . .

« وكانت امرأتى عاقرا » . . لم تعقب فلم يكن له من ذريته من يملك تربيته وإعداده لوراثته وخلافته .

ذلك ما يخشاه . فأما ما يطلبه فهو الولى الصالح ، الذى يحسن الوراثة ، ويحسن القيام على تراثه وتراث النبوة من آبائه وأجداده : « فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب » .

ولا ينسى زكريا ، النبى الصالح ، أن يصور أمله فى ذلك الوريث الذى يرجوه فى كبرته : « واجعله رب رضيا » لا جبارا ولا غليظا ، ولا متبطرا ولا طموعا . ولفظة « رضىّ » تلقى هذه الظلال . فالرضى الذى يرضى ويرضى . وينشر ظلال الرضى فيما حوله ومن حوله .

ذلك دعاء زكريا لربه فى ضراعة وخفية . والألفاظ والمعانى والظلال والإيقاع الرخى . كلها تشارك فى تصوير مشهد الدعاء .

ثم ترتسم لحظة الاستجابة فى رعاية وعطف ورضى .. فالرب ينادى عبده من الملأ الأعلى: « يا زكريا » . . ويعجل له البشرى : « إنا نبشرك بغلام » ويغمره بالعطف فيختار له اسم الغلام الذى بشره به : « اسمه يحيى » . وهو اسم فذ غير مسبوق : « لم نجعل له من قبل سميا » . .

إنه فيض الكرم الإلهى يغدقه على عبده الذى دعاه فى ضراعة ، وناجاه فى خفية ، وكشف له عما يخشى ، وتوجه إليه فيما يرجو . والذى دفعه إلى دعاء ربه خوفه الموالى من بعده على تراث العقيدة وعلى تدبير المال والقيام على الأهل بما يرضى الله . وعلم الله ذلك من نيته فأغدق عليه وأرضاه .

وكأنما أفاق زكريا من غمرة الرغبة وحرارة الرجاء ، على هذه الاستجابة القريبة للدعاء. فإذا هو يواجه الواقع . . إنه رجل شيخ بلغ من الكبر عتيا ، وهن عظمه واشتعل شيبه ،

Marfat.com

Marfat.com

وامرأته عاقر لم تلد له فى فتوته وصباه : فكيف ياترى سيكون له غلام ؟ إنه ليريد أن يطمئن، ويعرف الوسيلة التى يرزقه الله بها هذا الغلام : « قال : رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا ؟ »

إنه يواجه الواقع ، ويواجه معه وعد الله . وإنه ليثق بالوعد ، ولكنه يريد أن يعرف كيف يكون تحقيقه مع ذلك الواقع الذى يواجهه ليطمئن قلبه . وهى حالة نفسية طبيعية . فى مثل موقف زكريا النبى الصالح. الإنسان ! الذى لا يملك أن يغفل الواقع ، فيشتاق أن يعرف كيف يغيره الله !

هنا يأتيه الجواب عن سؤاله : أن هذا هين على الله سهل . ويذكره بمثل قريب فى نفسه : فى خلقته هو وإيجاده بعد أن لم يكن . وهومثل لكل حى ، ولكل شىء فى هذا الوجود :

« قال : كذلك قال ربك : هو على هين . وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا »

وليس فى الخلق هين وصعب على الله . ووسيلة الخالق للصغير والكبير ، وللحقير والجليل واحدة : كن . فيكون .

والله هو الذى جعل العاقر لا تلد . وجعل الشيخ الفانى لا ينسل ؛ وهو قادر على إصلاح العاقر وإزالة سبب العقم ، وتجديد قوة الإخصاب فى الرجل . وهو أهون فى اعتبار الناس من إنشاء الحياة ابتداء . وإن كان كل شىء هينا على القدرة : إعادة أو إنشاء .

ومع ذلك فإن لهفة زكريا على الطمأنينة تدفع به أن يطلب آية وعلامة على تحقق البشرى فعلا . فأعطاه الله آية تناسب الجو النفسى الذى كان فيه الدعاء وكانت فيه الاستجابة . . ويؤدى بها حق الشكر لله الذى وهبه على الكبر غلاما . . وذلك أن ينقطع عن دنيا الناس ويحيا مع الله ثلاث ليال ينطلق لسانه إذا سبح ربه ، ويحتبس إذا كلم الناس ، وهو سوىٌّ معافى فى جوارحه لم يصب لسانه عوج ولا آفة .

« قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا » . .

وكان ذلك :

« فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » . .

ذلك ليعيشوا فى مثل الجو الذى يعيش فيه ، وليشكروا الله معه على ما أنعم عليه وعليهم من بعده .

* * *

Marfat.com

ويترك السياق زكريا فى صمته وتسبيحه ، ويسدل عليه الستار فى هذا المشهد ويطوى صفحته ليفتح الصفحة الجديدة على يحي ؛ يناديه ربه من الملأ الأعلى :

« يا يحي خذ الكتاب بقوة . . . » .

لقد ولد يحي وترعرع وصار صبيا ، فى الفجوة التى تركها السياق بين المشهدين . على طريقة القرآن فى عرضه الفنى للقصص ، ليبرز أهم الحلقات والمشاهد ، وأشدها حيوية وحركة .

وهو يبدأ بهذا النداء العلوى ليحي قبل أن يتحدث عنه بكلمة . لأن مشهد النداء مشهد رائع عظيم ، يدل على مكانة يحي ، وعلى استجابة الله لزكريا ، فى أن يجعل له من ذريته وليا ، يحسن الخلافة بعده فى العقيدة وفى العشيرة . فها هو ذا أول موقف ليحي هو موقف انتدابه ليحمل الأمانة الكبرى . « يا يحي خذ الكتاب بقوة » . . والكتاب هو التوراة كتاب بنى إسرائيل من بعد موسى ، وعليه كان يقوم أنبياؤهم يحكمون به ويحكمون . وقد ورث يحي أباه زكريا ، ونودى ليحمل العبء وينهض بالأمانة فى قوة وعزم ، لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة . .

وبعد النداء يكشف السياق عما زود به يحي لينهض بالتبعة الكبرى :

« وآتيناه الحكم صبيا ، وحنانا من لدنا وزكاة ، وكان تقيا » . .

فهذه هى المؤهلات التى زوده الله بها وأعده وأعانه على احتمال ما كلفه إياه عند ما ناداه . .

آتاه الحكمة صبيا . فكان فذا فى زاده ، كما كان فذا فى اسمه وفى ميلاده . فالحكمة تأتى متأخرة . ولكن يحي قد زود بها صبيا .

وآتاه الحنان هبة لدنية لا يتكلفه ولا يتعلمه ؛ إنما هو مطبوع عليه ومطبوع به . والحنان صفة ضرورية للنبى المكلف رعاية القلوب والنفوس ، وتألفها واجتذابها إلى الخير فى رفق .

وآتاه الطهارة والعفة ونظافة القلب والطبع ؛ يواجه بها أدران القلوب ودنس النفوس ، فيطهرها ويزكيها .

« وكان تقيا » موصولا بالله ، متحرجا معه ، مراقباً له ، يخشاه ويستشعر رقابته عليه فى سره ونجواه .

ذلك هو الزاد الذى آتاه الله يحي فى صباه ، ليخلف أباه كما توجه إلى ربه وناداه نداء خفيا . فاستجاب له ربه ووهب له غلاما زكيا . .

وهنا يسدل الستار على يحيى كما أسدل من قبل على زكريا . وقد رسم الخط الرئيسى فى حياته ، وفى منهجه ، وفى اتجاهه. وبرزت العبرة من القصة فى دعاء زكريا واستجابة ربه له، وفى نداء يحيى وما زوده الله به . ولم يعد فى تفصيلات القصة بعد ذلك ما يزيد شيئا فى عبرتها ومغزاها . .

***

والآن فإلى قصة أعجب من قصة ميلاد يحيى . إنها قصة ميلاد عيسى . وقد تدرج السياق من القصة الأولى ووجه العجب فيها هو ولادة العاقر من بعلها الشيخ ، إلى الثانية ووجه العجب فيها هو ولادة العذراء من غير بعل ! وهى أعجب وأغرب .

وإذا نحن تجاوزنا حادث خلق الإنسان أصلا وإنشائه على هذه الصورة ، فإن حادث ولادة عيسى ابن مريم يكون أعجب ما شهدته البشرية فى تاريخها كله ، ويكون حادثا فذا لا نظير له من قبله ولا من بعده .

والبشرية لم تشهد خلق نفسها وهو الحادث العجيب الضخم فى تاريخها ! لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب وأم ، وقد مضت القرون بعد ذلك الحادث ؛ فشاءت الحكمة الإلهية أن تبرز العجيبة الثانية فى مولد عيسى من غير أب ، على غير السنة التى جرت منذ وجد الإنسان على هذه الأرض ، ليشهدها البشر ؛ ثم تظل فى سجل الحياة الإنسانية بارزة فذة تتلفت إليها الأجيال ، إن عز عليها أن تتلفت إلى العجيبة الأولى التى لم يشهدها إنسان !

لقد جرت بسنة الله التى وضعها لامتداد الحياة بالتناسل من ذكر وأنثى فى جميع الفصائل والأنواع بلا استثناء ، حتى المخلوقات التى لا يوجد فيها ذكر وأنثى متميزان تتجمع فى الفرد الواحد منها خلايا التذكير والتأنيث . . جرت هذه السنة أحقاباً طويلة حتى استقر فى تصور البشر أن هذه الطريقة الوحيدة ، ونسوا الحادث الأول . حادث وجود الإنسان لأنه خارج عن القياس . فأراد الله أن يضرب لهم مثل عيسى ابن مريم – عليه السلام – ليذكرهم بحرية القدرة وطلاقة الإرادة ، وأنها لا تحتبس داخل النواميس التى تختارها . ولم يتكرر حادث عيسى لأن الأصل هو أن تجرى السنة التى وضعها الله ، وأن ينفذ الناموس الذى اختاره . وهذه الحادثة الواحدة تكفى لتبقى أمام أنظار البشرية معلما بارزا على حرية المشيئة ، وعدم احتباسها داخل حدود النواميس « ولنجعله آية للناس » .

Marfat.com

Marfat.com

ونظرا لغرابة الحادث وضخامته فقد عز على فرق من الناس أن تتصوره على طبيعته وأن تدرك الحكمة فى إبرازه ، فجعات تضفى على عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ صفات ألوهية ، وتصوغ حول مولده الخرافات والأساطير ، وتعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب ، ـ وهى إثبات القدرة الإلهية التى لا تتقيد ـ تعكسها فتشوه عقيدة التوحيد .

والقرآن فى هذه السورة يقص كيف وقعت هذه العجيبة ، ويبرز دلالتها الحقيقية ، وينفى تلك الخرافات والأساطير .

والسياق يخرج القصة فى مشاهد مثيرة ، حافلة بالعواطف والانفعالات ، التى تهز من يقرؤها هزا كأنما هو يشهدها :

* * *

« واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجابا. فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشرا سويا . قالت : إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا ؟ قال : كذلكِ قال ربكِ هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا . وكان أمرا مقضيا » . .

فهذا هو المشهد الأول ـ فتاة عذراء . قديسة ، وهبتها أمها وهى فى بطنها لخدمة المعبد . لا يعرف عنها أحد إلا الطهر والعفة حتى لتنسب إلى هارون أبى سدنة المعبد الإسرائيلى المتطهرين ـ ولا يعرف عن أسرتها إلا الطيبة والصلاح من قديم .

ها هى ذى تخلو إلى نفسها لشأن من شؤونها التى تقتضى التوارى من أهلها والاحتجاب عن أنظارهم . . ولا يحدد السياق هذا الشأن ، ربما لأنه شأن خاص جدا من خصوصيات الفتاة . .

وها هى ذى فى خلوتها ، مطمئنة إلى انفرادها . ولكن ها هى ذى تفاجأ مفاجأة عنيفة.. إنه رجل مكتمل سوى : « فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا » .. وهاهى ذى تنتفض انتفاضة العذراء المذعورة يفجؤها رجل فى خلوتها ، فتلجأ إلى الله تستعيذ به وتستنجد وتستثير مشاعر التقوى فى نفس الرجل ، والخوف من الله والتحرج من رقابته فى هذا المكان

Marfat.com

الخالى : « قالت : إنى أعوذ بالرحمان منك إن كنت تقيا » فالتقىّ ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمان ، ويرجع عن دفعة الشهوة ونزغ الشيطان . .

وهنا يتمثل الخيال تلك العذراء الطيبة البريئة ذات التربية الصالحة ، التى نشأت فى وسط صالح ، وكفلها زكريا ، بعد أن نذرت لله جنينا . . وهذه هى الهزة الأولى . .

« قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا » . . وليتمثل الخيال مقدار الفزع والخجل . وهذا الرجل السوى ـ الذى لم تثق بعد بأنه رسول ربها ـ فقد تكون حيلة فاتك يستغل طيبتها ـ يصارحها بما يخدش سمع الفتاة الخجول ، وهو أنه يريد أن يهب لها غلاما ، وهما فى خلوة ـ وهذه هى الهزة الثانية .

ثم تدركها شجاعة الأنثى المهددة فى عرضها ! فتسأل فى صراحة : كيف ؟

« قالت : أنى يكون لى غلام ، ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا ؟ » . . هكذا فى صراحة . وبالألفاظ المكشوفة . فهى والرجل فى خلوة . والغرض من مباغتته لها قد صار مكشوفا . فما تعرف هى بعد كيف يهب لها غلاما ؟ وما يخفف من روع الموقف أن يقول لها : « إنما أنا رسول ربك » ولا أنه مرسل ليهب لها غلاما طاهرا غير مدنس المولد ، ولا مدنس السيرة ، ليطمئن بالها . لا . فالحياء هنا لا يجدى ، والصراحة أولى . . كيف ؟ وهى عذراء لم يمسسها بشر ، وما هى بغى فتقبل الفعلة التى تجىء منها بغلام !

ويبدو من سؤالها أنها لم تكن تتصور حتى اللحظة وسيلة أخرى لأن يهبها غلاما إلا الوسيلة المعهودة بين الذكر والأنثى . وهذا هو الطبيعى بحكم التصور البشرى .

« قال : كذلك قال ربك : هو على هين . ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا » . .

فهذا الأمر الخارق الذى لا تتصور مريم وقوعه ، هين على الله . فأمام القدرة التى تقول للشىء كن فيكون ، كل شىء هين ، سواء جرت به السنة المعهودة أو جرت بغيره . والروح يخبرها بأن ربها يخبرها بأن هذا هين عليه . وأنه أراد أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للناس ، وعلامة على وجوده وقدرته وحرية إرادته . ورحمة لبنى إسرائيل أولا وللبشرية جميعا ، بإبراز هذا الحادث الذى يقودهم إلى معرفة الله وعبادته وابتغاء رضاه .

بذلك انتهى الحوار بين الروح الأمين ومريم العذراء .. ولا يذكر السياق ماذا كان بعد الحوار، فهنا فجوة من فجوات العرض الفنى للقصة . ولكنه يذكر أن ماأخبرها به من أن يكون لها غلام وهى عذراء لم يمسسها بشر، وأن يكون هذا الغلام آية للناس ورحمة من الله . أن هذا قد انتهى أمره ، وتحقق وقوعه : « وكان أمرا مقضيا » كيف ؟ لا يذكر هنا عن ذلك شيئا [1].

ثم تمضى القصة فى مشهد جديد من مشاهدها ؛ فتعرض هذه العذراء الحائرة فى موقف آخر أشد هولا :

« فحملته فانتبذت به مكانا قصيا . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ؛ قالت : ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » . .

وهذه هى الهزة الثالثة ..

إن السياق لا يذكر كيف حملته ولا كم حملته . هل كان حملا عاديا كما تحمل النساء وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط فى البويضة فإذا هى علقة فمضغة فعظام ثم تكسى العظام باللحم ويستكمل الجنين أيامه المعهودة ؟ إن هذا جائز . فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح فى النشاط والنمو حتى تستكمل تسعة أشهر قمرية، والنفخة تكون قد أدت دور التلقيح فسارت البويضة سيرتها الطبيعية .. كما أنه من الجائز فى مثل هذه الحالة الخاصة أن لا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية ، فتختصر المراحل اختصارا ؛ ويعقبها تكون الجنين ونموه واكتماله فى فترة وجيزة .. ليس فى النص مايدل على إحدى الحالتين . فلا نجرى طويلا وراء تحقيق القضية التى لا سند لنا فيها .. فلنشهد مريم تنتبذ مكاناً قصيا عن أهلها، فى موقف أشد هولا من موقفها

---

(١) جاء فى سورة التحريم : « ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » . فهل كلمة «روحنا» التى فى سورة مريم هى نفسها التى فى سورة التحريم ؟ وهل مدلولها واحد ؟ . . نحن نميل إلى أنها ذات مدلولين : فهى هنا فى السورة تعنى جبريل الروح الأمين وهو رسول الله إلى مريم . أما فى التحريم فتعنى الروح الذى نفخ الله منه فى آدم فإذا هو إنسان ونفخ منه فى فرج مريم فإذا البويضة حية مستعدة للنمو: فهى النفخة الإلهية التى تمنح الحياة وتمنح معها الخصائص المرافقة لنوع هذه الحياة . وهى فى الإنسان الاستعدادات التى تصله بالملأ الأعلى وتهبه الحس الإنسانى والتفكير والمشاعر والإلهامات . ونفسر حالة مريم بأن جبريل وهو الروح الأمين كان حاملا وموصلا لنفخة الروح العلوية من الله .. ثم نعود فنقول : إننا لا ندرك شيئا لا عن ماهية الروح بمعنى جبريل ، ولا عن ماهية الروح بالمعنى الآخر . فكله غيب إنما نحن نستلهم السياق فى السورتين فنجد أن مدلول الروح هنا غيره هناك .

Marfat.com

الذى أسلفنا . فلئن كانت فى الموقف الأول تواجه الحصانة والتربية والأخلاق بينها وبين نفسها ، فهى هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة . ثم هى تواجه الآلام الجسدية بجانب الآلام النفسية . تواجه المخاض الذى « أجاءها» إجاءة إلى جذع النخلة ، واضطرها اضطرارا إلى الاستناد عليها . وهى وحيدة فريدة ، تعانى حيرة العذراء فى أول مخاض ، ولا علم لها بشىء ، ولا معين لها فى شىء .. فإذا هى قالت : « ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » فإننا لنكاد نرى ملامحها ، ونحس اضطراب خواطرها ، ونلمس مواقع الألم فيها . وهى تتمنى لو كانت « نسيا » : تلك الخرقة التى تتخذ لدم الحيض ثم تلقى بعد ذلك وتنسى !

وفى حدة الألم وغمرة الهول تقع المفاجأة الكبرى :

« فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا . وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا . فكلى واشربى وقرى عينا ، فإما ترين من البشر أحدا فقولى : إنى نذرت للرحمان صوما فلن أكلم اليوم إنسيا » ..

يالله ! طفل ولد اللحظة يناديها من تحتها . يطمئن قلبها ويصلها بربها ، ويرشدها إلى طعامها وشرابها . ويدلها على حجتها وبرهانها !

لا تحزنى .. « قد جعل ربك تحتك سريا » فلم ينسك ولم يتركك ، بل أجرى لك تحت قدميك جدولا ساريا ـ الأرجح أنه جرى للحظته من ينبوع أو تدفق من مسيل ماء فى الجبل ـ وهذه النخلة التى تستندين إليها هزيها فتساقط عليك رطبا . فهذا طعام وذاك شراب . والطعام الحلو مناسب للنفساء . والرطب والتمر من أجود طعام النفساء . « فكلى واشربى » هنيئا . «وقرى عينا » واطمئنى قلبا . فأما إذا واجهت أحدا فأعلنيه بطريقة غير الكلام ، أنك نذرت للرحمان صوما عن حديث الناس وانقطعت إليه للعبادة . ولا تجيبى أحدا عن سؤال ..

ونحسبها قد دهشت طويلا ، وبهتت طويلا ، قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزه ليساقط عليها رطبا جنيا . . ثم أفاقت فاطمأنت إلى أن الله لا يتركها . وإلى أن حجتها معها . . هذا الطفل الذى ينطق فى المهد .. فيكشف عن الخارقة التى جاءت به إليها . .

« فأتت بها قومها تحمله . . ! » .. فلنشهد هذا المشهد المثير :

Marfat.com

إننا لنتصور الدهشة التى تعلو وجوه القوم ـ ويبدو أنهم أهل بيتها الأقربون فى نطاق ضيق محدود ـ وهم يرون ابنتهم الطاهرة العذراء الموهوبة للهيكل العابدة المنقطعة للعبـادة . . يرونها تحمل طفلا !

« قالوا : يامريم لقد جئت شيئا فريا . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا ! »

إن ألسنتهم لتنطلق بالتقريع والتأنيب : « يا مريم لقد جئت شيئا فريا » فظيعا مستنكرا. ثم يتحول السخط إلى تهكم مرير : « يا أخت هارون » النبى الذى تولى الهيكل هو وذريته من بعده والذى تنتسبين إليه بعبادتك وانقطاعك لخدمة الهيكل . فيا للمفارقة بين تلك النسبة التى تنتسبينها وذاك الفعل الذى تقارفينه ! « ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » حتى تأتى بهذه الفعلة التى لا يأتيها إلا بنات آباء السوء والأمهات البغايا !

وتنفذ مريم وصية الطفل العجيب التى لقنها إياها :

« فأشارت إليه » .. فماذا نقول فى العجب والغيظ الذى ساورهم وهم يرون عذراء تواجههم بطفل ؛ ثم تتبجح فتسخر ممن يستنـكرون فعلتها فتصمت وتشير لهم إلى الطفل ليسألوه عن سرها !

« قالوا : كيف نـكلم من كان فى المهد صبيا ؟ » . .

ولـكن ها هى ذى الخارقة العجيبة تقع مرة أخرى :

« قال : إنى عبد الله ، آتانى الـكتاب ، وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

وهكذا يعلن عيسى ـ عليه السلام ـ عبوديته لله . فليس هو ابنه كما تدعى فرقة . وليس هو إلها كما تدعى فرقة . وليس هو ثالث ثلاثة هم إله واحد وهم ثلاثة كما تدعى فرقة .. ويعلن أن الله جعله نبيا ، لا ولدا ولا شريكا . وبارك فيه ، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته . والبر بوالدته والتواضع مع عشيرته . فله إذن حياة محدودة ذات أمد . وهو يموت ويبعث . وقد قدر الله له السلام والأمان والطمأنينة يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا . .

Marfat.com

Marfat.com

والنص صريح هنا فى موت عيسى وبعثه . وهو لا يحتمل تأويلا فى هذه الحقيقة ولا جدالا .

* * *

ولا يزيد السياق القرآنى شيئا على هذا المشهد . لا يقول : كيف استقبل القوم هذه الخارقة . ولا ماذا كان بعدها من أمر مريم وابنها العجيب . ولا متى كانت نبوته التى أشار إليها وهو يقول :

« آتانى الكتاب وجعلنى نبيا » . . ذلك أن حادث ميلاد عيسى هو المقصود فى هذا الموضع . فحين يصل به السياق إلى ذلك المشهد الخارق يسدل الستار ليعقب بالغرض المقصود فى أنسب موضع من السياق ، بلهجة التقرير ، وإيقاع التقرير :

« ذلك عيسى ابن مريم . قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد . سبحانه . إذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن فيكون . وإن الله ربى وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم » . .

ذلك عيسى ابن مريم ، لا ما يقوله المؤلهون له أو المتهمون لأمه فى مولده . . ذلك هو فى حقيقته وذلك واقع نشأته . ذلك هو يقول قول الحق الذى فيه يمترون ويشكون . يقولها لسانه ويقولها الحال فى قصته : « ما كان لله أن يتخذ من ولد » تعالى وتنزه فليس من شأنه أن يتخذ ولدا . والولد إنما يتخذه الفانون للامتداد ، ويتخذه الضعاف للنصرة . والله باق لا يخشى فناء ، قادر لا يحتاج معينا . والكائنات كلها توجد بكلمة كن . وإذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن فيكون . . فما يريد تحقيقه يحققه بتوجه الإرادة لا بالولد والمعين . . وينتهى ما يقوله عيسى ــ عليه السلام ــ ويقوله حاله بإعلان ربوبية الله له وللناس ، ودعوته إلى عبادة الله الواحد بلا شريك : « وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .. فلا يبقى بعد شهادة عيسى وشهادة قصته مجال للأوهام والأساطير . . وهذا هو المقصود بذلك التعقيب فى لغة التقرير وإيقاع التقرير :

* * *

وبعد هذا التقرير يعرض اختلاف الفرق والأحزاب فى أمر عيسى فيبدو هذا الاختلاف مستنكرا نابيا فى ظل هذه الحقيقة الناصعة :

« فاختلف الأحزاب من بينهم » . .

ولقد جمع الإمبراطور الرومانى قسطنطين مجمعاً من الأساقفة ـ وهو أحد المجامع الثلاثة الشهيرة ـ بلغ عدد أعضائه ألفين ومئة وسبعين أسقفا فاختلفوا فى عيسى اختلافاً شديدا ، وقالت كل فرقة فيه قولا . . قال بعضهم : هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات ثم صعد إلى السماء . وقال بعضهم : هو ابن الله ، وقال بعضهم : هو أحد الأقانيم الثلاثة : الأب والابن وروح القدس . وقال بعضهم : هو ثالث ثلاثة : الله إله وهو إله وأمه إله . وقال بعضهم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته . وقالت فرق أخرى أقوالا أخرى . ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاث مئة وثمانية اتفقوا على قول . فمال إليه الإمبراطور ونصر أصحابه وطرد الآخرين وشرد المعارضين وبخاصة الموحدين .

ولما كانت العقائد المنحرفة قد قررتها مجامع شهدتها جموع الأساقفة فإن السياق هنا ينذر الكافرين الذين ينحرفون عن الإيمان بوحدانية الله ، ينذرهم بمشهد يوم عظيم تشهده جموع أكبر ، وترى ما يحل بالكافرين المنحرفين :

« فويل للكافرين من مشهد يوم عظيم . أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ، لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين . وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون » .

ويل لهم من ذلك المشهد فى يوم عظيم . بهذا التنكير للتفخيم والتهويل . المشهد الذى يشهده الثقلان : الإنس والجن ، وتشهده الملائكة ، فى حضرة الجبار الذى أشرك به الكفار .

ثم يأخذ السياق فى التهكم بهم وبإعراضهم عن دلائل الهدى فى الدنيا . وهم فى ذلك المشهد أسمع الناس وأبصر الناس ! :

« أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ، لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين » . .

فما أعجب حالهم ! . . لا يسمعون ولا يبصرون حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة . وهم أسمع شىء وأبصر شىء يوم يكون السمع والبصر وسيلة للخزى ولإسماعهم ما يكرهون وتبصيرهم ما يتقون فى مشهد يوم عظيم !

« وأنذرهم يوم الحسرة » .. يوم تشتد الحسرات حتى لكأن اليوم ممحض للحسرة لا شىء فيه سواها ، فهى الغالبة على جوه ، البارزة فيه . أنذرهم هذا اليوم الذى لا تنفع فيه

Marfat.com

Marfat.com

الحسرات : « إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون » وكأنما ذلك اليوم موصول بعدم إيمانهم ، موصول بالغفلة التى هم فيها سادرون . .

أنذرهم ذلك اليوم الذى لا شك فيه ؛ فكل ما على الأرض ومن على الأرض عائد إلى الله ، عودة الميراث كله إلى الوارث الوحيد ! :

« إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون » .

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ : يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ؟ * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ : أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ، وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ : سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَأَدْعُو رَبِّي ، عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا .

« فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا .

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ، إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا ، وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا .

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ، إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ، وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا .

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ، إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا .

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ، وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ

نُوحٍ ، وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ ، وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَانِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا * جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَانُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ، وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا .

« وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ؟ » ٦٥

انتهت قصة ميلاد عيسى بكشف مافى أسطورة الولد من نكارة وكذب وضلال ؛ وهى التى يستند إليها بعض أهل الكتاب فى عقائدهم الفاسدة . وتليها فى السورة حلقة من قصة إبراهيم تكشف عما فى عقيدة الشرك من نكارة وكذب وضلال كذلك . وإبراهيم هو الذى ينتسب إليه العرب ، ويقول المشركون : إنهم سدنة البيت الذى بناه هو وإسماعيل .

وتبدو فى هذه الحلقة شخصية إبراهيم الرضى الحليم . . تبدو وداعته وحلمه فى ألفاظه وتعبيراته التى يحكى القرآن الكريم ترجمتها بالعربية ، وفى تصرفاته ومواجهته للجهالة من أبيه . كما تتجلى رحمة الله به وتعويضه عن أبيه وأهله المشركين ذرية صالحة تنسل أمة كبيرة ، فيها الأنبياء وفيها الصالحون . وقد خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ينحرفون عن الصراط الذى سنه لهم أبوهم إبراهيم . هم هؤلاء المشركون ..

ويصف الله إبراهيم بأنه كان صديقا نبيا . ولفظة صديق تحتمل معنى أنه كثير الصدق وأنه كثير التصديق . وكلتاهما تناسب شخصية إبراهيم :

« واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ، إذ قال لأبيه : ياأبت لم تعبدمالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟ ياأبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا .

Marfat.com

Marfat.com

يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمان عصيا . يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمان فتكون للشيطان وليا .. »

بهذا اللطف فى الخطاب يتوجه إبراهيم إلى أبيه ، يحاول أن يهديه إلى الخير الذى هداه الله إليه ، وعلمه إياه ؛ وهو يتحبب إليه فيخاطبه : «يا أبت» ويسأله : « لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟» والأصل فى العبادة أن يتوجه بها الإنسان إلى من هو أعلى من الإنسان وأعلم وأقوى . وأن يرفعها إلى مقام أسمى من مقام الإنسان وأسنى . فكيف يتوجه بها إذن إلى ماهو دون الإنسان ، بل إلى ماهو فى مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان ، لا يسمع ولا يبصر ولا يملك ضرا ولا نفعا . إذ كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام كما هو حال قريش الذين يواجههم الإسلام .

هذه هى اللمسة الأولى التى يبدأ بها إبراهيم دعوته لأبيه . ثم يتبعها بأنه لا يقول هذا من نفسه ، إنما هو العلم الذى جاءه من الله فهداه . ولو أنه أصغر من أبيه سنا وأقل تجربة ، ولكن المدد العلوى جعله يفقه ويعرف الحق ؛ فهو ينصح أباه الذى لم يتلق هذا العلم ، ليتبعه فى الطريق الذى هدى إليه :

« يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا » . .

فليست هناك غضاضة فى أن يتبع الوالد ولده ، إذا كان الولد على اتصال بمصدر أعلى . فإنما يتبع ذلك المصدر ، ويسير فى الطريق إلى الهدى .

وبعد هذا الكشف عما فى عبادة الأصنام من نكارة ، وبيان المصدر الذى يستمد منه إبراهيم ويعتمد عليه فى دعوة أبيه . . يبين له أن طريقه هو طريق الشيطان ، وهو يريد أن يهديه إلى طريق الرحمان ، فهو يخشى أن يغضب الله عليه فيقضى عليه أن يكون من أتباع الشيطان .

« يا أبت لا تعبد الشيطان . إن الشيطان كان للرحمان عصيا . يا أبت إنى إخاف أن يمسك عذاب من الرحمان فتكون للشيطان وليا » .

والشيطان هو الذى يغرى بعبادة الأصنام من دون الله ، فالذى يعبدها كأنما يتعبد الشيطان والشيطان عاص للرحمان . وإبراهيم يحذر أباه أن يغضب الله عليه فيعاقبه فيجعله وليا للشيطان

وتابعا . فهداية الله لعبده إلى الطاعة نعمة ؛ وقضاؤه عليه أن يكون من أولياء الشيطان نقمة . نقمة تقوده إلى عذاب أشد وخسارة أفدح يوم يقوم الحساب .

ولكن هذه الدعوة اللطيفة بأحب الألفاظ وأرقها لا تصل إلى القلب المشرك الجاسى ، فإذا أبو إبراهيم يقابله بالاستنكار والتهديد والوعيد :

« قال : أراغب أنت عن آلهتى يإبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك . واهجرنى مليا » .

أراغب أنت عن آلهتى ياإبراهيم ، وكاره لعبادتها ومعرض عنها ؟ أو بلغ بك الأمر إلى هذا الحد من الجراءة ؟! فهذا إنذار لك بالموت الفظيع إن أنت أصررت على هذا الموقف الشنيع : « لئن لم تنته لأرجمنك » ! فاغرب عن وجهى وابعد عنى طويلا . استبقاء لحياتك إن كنت تريد النجاة : « واهجرنى مليا » ..

بهذه الجهالة تلقى الرجل الدعوة إلى الهدى . وبهذه القسوة قابل القول المؤدب المهذب . وذلك شأن الإيمان مع الكفر ؛ وشأن القلب الذى هذبه الإيمان والقلب الذى أفسده الكفر .

ولم يغضب إبراهيم الحليم . ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه :

« قال : سلام عليك . سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا . وأعتزلكم وماتدعون من دون الله ، وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا » .

سلام عليك . . فلا جدال ولا أذى ولا رد للتهديد والوعيد . سأدعو الله أن يغفر لك فلا يعاقبك بالاستمرار فى الضلال وتولى الشيطان ، بل يرحمك فيرزقك الهدى . وقد عودنى ربى أن يكرمنى فيجيب دعائى . وإذا كان وجودى إلى جوارك ودعوتى لك إلى الإيمان تؤذيك فسأعتزلك أنت وقومك ، وأعتزل ماتدعون من دون الله من الآلهة . وأدعو ربى وحده ، راجيا ـ بسبب دعائى لله ـ ألا يجعلنى شقيا .

فالذى يرجوه إبراهيم هو مجرد تجنيبه الشقاوة . . وذلك من الأدب والتحرج الذى يستشعره . فهو لا يرى لنفسه فضلا ، ولا يتطلع إلى أكثر من تجنيبه الشقاوة !

وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم وآلهتهم وهجر أهله ودياره ، فلم يتركه الله وحيدا . بل وهب له ذرية وعوضه خيرا :

« فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب . وكلا جعلنا نبيا . ووهبنا لهم من رحمتنا ، وجعلنا لهم لسان صدق عليا » ..

Marfat.com

Marfat.com

وإسحاق هو ابن إبراهيم ، رزقه من سارة ـ وكانت قبله عقيما ـ ويعقوب هو ابن إسحاق : ولكنه يحسب ولدا لإبراهيم لأن إسحاق رزقه فى حياة جده ، فنشأ فى بيته وحجره ، وكان كأنه ولده المباشر ؛ وتعلم ديانته ولقنها بنيه . وكان نبيا كأبيه .

« ووهبنا لهم من رحمتنا » إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونسلهم . . والرحمة تذكر هنا لأنها السمة البارزة فى جو السورة ، ولأنها هبة الله التى تعوض إبراهيم عن أهله ودياره ، وتؤنسه فى وحدته واعتزاله .

« وجعلنا لهم لسان صدق عليا » . . فكانوا صادقين فى دعوتهم ، مسموعى الكلمة فى قومهم . يؤخذ قولهم بالطاعة وبالتبجيل .

* * *

ثم يمضى السياق مع ذرية إبراهيم : مستطردا مع فرع إسحق فيذكر موسى وهارون :

« واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا . وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا » . .

فيصف موسى بأنه كان مخلصا استخلصه الله له ومحضه لدعوته . وكان رسولا نبيا . والرسول هو صاحب الدعوة من الأنبياء المأمور بإبلاغها للناس . والنبى لا يكلف إبلاغ الناس دعوة إنما هو فى ذاته صاحب عقيدة يتلقاها من الله . وكان فى بنى إسرائيل أنبياء كثيرون وظيفتهم القيام على دعوة موسى والحكم بالتوراة التى جاء بها من عند الله : « يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا . والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » . .

ويبين فضل موسى بندائه من جانب الطور الأيمن (الأيمن بالنسبة لموسى إذ ذاك) وتقريبه إلى الله لدرجة الكلام . الكلام القريب فى صورة مناجاة . ونحن لا ندرى كيف كان هذا الكلام . وكيف أدركه موسى . . أكان صوتا تسمعه الأذن أم يتلقاه الكيان الإنسانى كله . ولا نعلم كيف أعد الله كيان موسى البشرى لتلقى كلام الله الأزلى . . إنما نؤمن أنه كان . وهو على الله هين أن يصل مخلوقه به بطريقة من الطرق ، وهو بشر على بشريته ، وكلام الله علوى على علويته . ومن قبل كان الإنسان إنسانا بنفخة من روح الله . .

ويذكر رحمة الله بموسى فى مساعدته بإرسال أخيه هارون معه حين طلب إلى الله أن يعينه به

« وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون » .
وظل الرحمة هو الذى يظلل جو السورة كله .

ثم يعود السياق إلى الفرع الآخر من ذرية إبراهيم . فيذكر إسماعيل أبا العرب : « واذكر فى الكتاب إسماعيل ، إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضيا » . .

وينوه من صفات إسماعيل بأنه كان صادق الوعد . وصدق الوعد صفة كل نبى وكل صالح ، فلا بد أن هذه الصفة كانت بارزة فى إسماعيل بدرجة تستدعى إبرازها والتنويه بها بشكل خاص .

وهو رسول فلا بد أن كانت له دعوة فى العرب الأوائل وهو جدهم الكبير . وقد كان فى العرب موحدون أفراد قبيل الرسالة المحمدية ، فالأرجح أنهم بقية الموحدين من أتباع إسماعيل . ويذكر السياق من أركان العقيدة التى جاء بها الصلاة والزكاة وكان يأمر بها أهله . . ثم يثبت له أنه كان عند ربه مرضيا . والرضى سمة من سمات هذه السورة البارزة فى جوها وهى شبيهة بسمة الرحمة ، وبينها قرابة !

وأخيرا يختم السياق هذه الإشارات بذكر إدريس :

« واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا . ورفعناه مكانا عليا » .

ولا نملك نحن تحديد زمان إدريس . ولكن الأرجح أنه سابق على إبراهيم وليس من أنبياء بنى إسرائيل فلم يرد ذكره فى كتبهم . والقرآن يصفه بأنه كان صديقا نبيا ويسجل له أن الله رفعه مكانا عليا . فأعلى قدره ورفع ذكره . .

وهناك رأى نذكره لمجرد الاستئناس به ولا نقرره أو ننفيه ، يقول به بعض الباحثين فى الآثار المصرية ، وهو أن إدريس تعريب لكلمة « أوزريس » المصرية القديمة . كما أن يحيى تعريب لكلمة يوحنا . وكلمة اليسع تعريب لكلمة إليشع . . وأنه هو الذى صيغت حوله أساطير كثيرة . فهم يعتقدون أنه صعد إلى السماء وصار له فيها عرش عظيم . وكل من وزنت أعماله بعد الموت فوجدت حسناته ترجح سيئاته فإنه يلحق بأوزريس الذى جعلوه إلها لهم . وقد علمهم العلوم والمعارف قبل صعوده إلى السماء .

Marfat.com

Marfat.com

وعلى أية حال فنحن نكتفى بما جاء عنه فى القرآن الكريم ؛ ونرجح أنه سابق على أنبياء بنى إسرائيل .

* * *

يستعرض السياق أولئك الأنبياء ، ليوازن بين هذا الرعيل من المؤمنين الأتقياء وبين الذين خلفوهم سواء من مشركى العرب أو من مشركى بنى إسرائيل . . فإذا المفارقة صارخة والمسافة شاسعة والهوة عميقة والفارق بعيد بين السلف والخلف :

« أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ، وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ، وممن هدينا واجتبينا . إذا تتلى عليهم آيات الرحمان خروا سجدا وبكيا . فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا . . . »

والسياق يقف فى هذا الاستعراض عند المعالم البارزة فى صفحة النبوة فى تاريخ البشرية : « من ذرية آدم » . « وممن حملنا مع نوح » . «ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل» . فآدم يشمل الجميع ، ونوح يشمل من بعده ، وإبراهيم يشمل فرعى النبوة الكبيرين : ويعقوب يشمل شجرة بنى إسرائيل . وإسماعيل وإليه ينتسب العرب ومنهم خاتم النبيين .

أولئك النبيون ومعهم من هدى الله واجتبى من الصالحين من ذريتهم . . صفتهم البارزة : « إذا تتلى عليهم آيات الرحمان خروا سجدا وبكيا » . . فهم أتقياء شديدو الحساسية بالله ؛ ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليهم آياته ، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر ، فتفيض عيونهم بالدموع ويخرون سجدا وبكيا . .

أولئك الأتقياء الحساسون الذين تفيض عيونهم بالدمع وتخشع قلوبهم لذكر الله . . خلف من بعدهم خلف ، بعيدون عن الله . « أضاعوا الصلاة » فتركوها وجحدوها « واتبعوا الشهوات » واستغرقوا فيها . فما أشد المفارقة ، وما أبعد الشبه بين أولئك وهؤلاء !

ومن ثم يتهدد السياق هؤلاء الذين خالفوا عن سيرة آبائهم الصالحين . يتهددهم بالضلال والهلاك : « فسوف يلقون غيا » والغى الشرود والضلال ، وعاقبة الشرود الضياع والهلاك .

ثم يفتح باب التوبة على مصراعيه تنسم منه نسمات الرحمة واللطف والنعمى :

Marfat.com

« إلا من تاب وآمن وعمل صالحا ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا . جنات عدن التى وعد الرحمـان عباده بالغيب . إنه كان وعده مأتيا . لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما . ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا . تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا » ..

فالتوبة التى تنشىء الإيمان والعمل الصالح ، فتحقق مدلولها الإيجابى الواضح . . تنجى من ذلك المصير فلا يلقى أصحابها « غيا » إنما يدخلون الجنـة ولا يظلمون شيئا . يدخلون الجنة للإقامة . الجنـة التى وعد الرحمان عباده إياها فآمنوا بها بالغيب قبل أن يروها . ووعد الله واقع لا يضيع . .

ثم يرسم صورة للجنة ومن فيها .. « لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما » فلا فضول فى الحديث ولا ضجة ولا جدال ، إنما يسمع فيها صوت واحد يناسب هذا الجو الراضى . صوت السلام . . والرزق فى هذه الجنة مكفول لا يحتاج إلى طلب ولا كد . ولا يشغل النفس بالقلق والخوف من التخلف أو النفاد : « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » فما يليق الطلب ولا القلق فى هذا الجو الراضى الناعم الأمين . .

« تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا » .. فمن شاء الوراثة فالطريق معروف : التوبة والإيمان والعمل الصالح . أما وراثة النسب فلا تجدى . فقد ورث قوم نسب أولئك الأتقياء من النبيين وممن هدى الله واجتبى ؛ ولـكنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فلم تنفعهم وراثة النسب « فسوف يلقون غيا » . .

* * *

ويختم هذا الدرس بإعلان الربوبية المطلقة لله ، والتوجيه إلى عبادته والصبر على تـكاليفها . ونفى الشبيه والنظير :

« وما نتنزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا . رب السماوات والأرض وما بينهما ، فاعبده واصطبر لعبادته . هل تعلم له سميا ؟ » ..

وتتضافر الروايات على أن قوله : «وما نتنزل إلا بأمر ربك .. » مما أمر جبريل عليه السلام أن يقوله للرسول ـ صلى الله عليـه وسلم ـ ردا على استبطائه للوحى فترة لم يأته فيها جبريل .

فاستوحشت نفسه ، واشتاقت للاتصال الحبيب . فكلف جبريل أن يقول له : « وما تتنزل إلا بأمر ربك » فهو الذى يملك كل شيء من أمرنا :

« له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك » وهو لا ينسى شيئا ، إنما ينزل الوحى عند ما تقتضى حكمته أن ينزل « وما كان ربك نسيا » فناسب بعد ذلك أن يذكر الاصطبار على عبادة الله مع إعلان الربوبية له دون سواه :

« رب السماوات والأرض وما بينهما » .. فلا ربوبية لغيره ، ولاشرك معه فى هذا الكون الكبير .

« فاعبده واصطبر لعبادته » . . اعبده واصطبر على تكاليف العبادة . وهى تكاليف الارتقاء إلى أفق المثول بين يدى المعبود ، والثبات فى هذا المرتقى العالى . اعبده واحشد نفسك وعبىء طاقتك للقاء والتلقى فى ذلك الأفق العلوى .. إنها مشقة . مشقة التجمع والاحتشاد والتجرد من كل شاغل ، ومن كل هاتف ومن كل التفات .. وإنها مع المشقة للذة لا يعرفها إلا من ذاق . ولكنها لا تنال إلا بتلك المشقة ، وإلا بالتجرد لها ، والاستغراق فيها ، والتحفز لها بكل جارحة وخالجة . فهى لا تفشى سرها ولا تمنح عطرها إلا لمن يتجرد لها ، ويفتح منافذ حسه وقلبه جميعا .

« فاعبده واصطبر لعبادته » . . والعبادة فى الإسلام ليست مجرد الشعائر . إنما هى كل نشاط : كل حركة . كل خالجة . كل نية . كل اتجاه .. وإنها لمشقة أن يتجه الإنسان فى هذا كله إلى الله وحده دون سواه . مشقة تحتاج إلى الاصطبار . ليتوجه القلب فى كل نشاط من نشاط الأرض إلى السماء . خالصا من أوشاب الأرض وأوهاق الضرورات ، وشهوات النفس ، ومواضعات الحياة .

إنه منهج حياة كامل ، يعيش الإنسان وفقه ، وهو يستشعر فى كل صغيرة وكبيرة طوال الحياة أنه يتعبد الله ؛ فيرتفع فى نشاطه كله إلى أفق العبادة الطاهر الوضىء . وإنه لمنهج يحتاج إلى الصبر والجهد والمعاناة .

فاعبده واصطبر لعبادته . . فهو الواحد الذى يعبد فى هذا الوجود والذى تتجه إليه الفطر والقلوب . . « هل تعلم له سميا ؟ » . هل تعرف له نظيرا ؟ تعالى الله عن السمى والنظير . .

Marfat.com

« وَيَقُولُ ٱلْإِنْسَانُ : أَئِذَا مَامِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ؟ أَوَ لَا يَذْكُرُ ٱلْإِنْسَانُ
أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ؟ * فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ، ثُمَّ
لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَانِ
عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا * وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا .
كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ ٱلظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا .

« وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ
خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ؟ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا *
قُلْ : مَنْ كَانَ فِي ٱلضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَانُ مَدًّا ، حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ :
إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا * وَيَزِيدُ
ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ، وَالْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا .

« أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ : لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ
ٱتَّخَذَ عِنْدَ ٱلرَّحْمَانِ عَهْدًا ؟ * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا *
وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا .

« وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ
وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا .

« أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَاطِينَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا * فَلَا تَعْجَلْ
عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا * يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَانِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ
ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا * لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ ٱلرَّحْمَانِ عَهْدًا .
« وَقَالُوا : ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَانُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ

Marfat.com

مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ ٱلْأَرْضُ ، وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِى لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا آتِى ٱلرَّحْمَانِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَرْدًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَانُ وُدًّا .

« فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ . هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ؟ » ٩٨

مضى السياق فى السورة بقصص زكريا ومولد يحيى ؛ ومريم ومولد عيسى ؛ وإبراهيم واعتزاله لأبيه . ومن خلف بعدهم من المهتدين والضالين ، وبالتعقيب على هذا القصص بإعلان الربوبية الواحدة ، التى تستحق العبادة بلا شريك ؛ وهى الحقيقة الكبيرة التى يبرزها ذلك القصص بأحداثه ومشاهده وتعقيباته .

وهذا الدرس الأخير فى السورة يمضى فى جدل حول عقائد الشرك وحول إنكار البعث . ويعرض فى مشاهد القيامة مصائر البشر فى مواقف حية حافلة بالحركة والانفعال ، يشارك فيها الكون كله ، سماواته وأرضه ، إنسه وجنه ، مؤمنوه وكافروه .

وينتقل السياق بمشاهده بين الدنيا والآخرة ، فإذا هما متصلتان . تعرض المقدمة هنا فى هذه الأرض ، وتعرض نتيجتها هنالك فى العالم الآخر ، فلا تتجاوز المسافة بضع آيات أو بضع كلمات . مما يلقى فى الحس أن العالمين متصلان مرتبطان متكاملان .

* * *

« ويقول الإنسان : أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ؟ أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ؟ فوربك لنحشرنهم والشياطين ، ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا . ثم لننزعن

Marfat.com

من كل شيعة أيهم أشد على الرحمان عتيا . ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا . وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا . ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » .

يبدأ المشهد بذكر ما يقوله « الإنسان » عن البعث . ذلك أن هذه المقولة قالتها صنوف كثيرة من البشر فى عصور مختلفة ؛ فكأنما هى شبهة « الإنسان » واعتراضه المتكرر فى جميع الأجيال :

« ويقول الإنسان : أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ؟ » . .

وهو اعتراض منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى . فأين كان ؟ وكيف كان؟ إنه لم يكن ثم كان ؛ والبعث أقرب إلى التصور من النشأة الأولى لو أنه تذكر :

« أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ؟ »

ثم يعقب على هذا الإنكار والاستنكار بقسم تهديدى . يقسم الله تعالى بنفسه وهو أعظم قسم وأجله ؛ أنهم سيحشرون ــ بعد البعث فهذا أمر مفروغ منه :

« فوربك لنحشرنهم ».. ولن يكونوا وحدهم . فلنحشرنهم « والشياطين » فهم والشياطين سواء . والشياطين هم الذين يوسوسون بالإنكار ، وبينهما صلة التابع والمتبوع ، والقائد والمقود . .

وهنا يرسم لهم صورة حسية وهم جاثون حول جهنم جثوّ الخزى والمهانة : « ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا » .. وهى صورة رهيبة وهذه الجموع التى لا يحصيها العد محشورة محضرة إلى جهنم جاثية حولها ، تشهد هولها ويلفحها حرها ، وتنتظر فى كل لحظة أن تؤخذ فتلقى فيها . وهم جاثون على ركبهم فى ذلة وفزع . .

وهو مشهد ذليل للمتجبرين المتكبرين ، يليه مشهد النزع والجذب لمن كانوا أشد عتوا وتجبرا :

« ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمان عتيا » . . وفى اللفظ تشديد ، ليرسم بظله وجرسه صورة لهذا الانتزاع ؛ تتبعها صورة القذف فى النار ، وهى الحركة التى يكملها الخيال !

وإن الله ليعلم من هم أولى بأن يصلوها ، فلا يؤخذ أحد جزافا من هذه الجموع التى لا تحصى . والتى أحصاها الله فردا فردا :

Marfat.com

Marfat.com

« ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا » . . فهم المختارون ليكونوا طليعة المقذوفين ! وإن المؤمنين ليشهدون العرض الرهيب : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا » فهم يردون فيدنون ويمرون بها وهي تتأجج وتتميز وتتلمظ ؛ ويرون العتاة ينزعون ويقذفون . « ثم ننجي الذين اتقوا » فتزحزح عنهم وينجون منها لا يكادون ! « ونذر الظالمين فيها جثيا » . .

* * *

ومن هذا المشهد الفزع الذي يجثو فيه العتاة جثو الخزي والمهانة ، ويروح فيه المتقون ناجين . ويبقى الظالمون فيه جاثين . . من هذا المشهد إلى مشهد في الدنيا يتعالى فيه الكفار على المؤمنين ، ويعيرونهم بفقرهم ، ويعتزون بثرائهم ومظاهرهم وقيمهم في عالم الفناء :

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات . قال الذين كفروا للذين آمنوا : أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ؟ » . .

إنها النوادي الفخمة والمجامع المترفة ؛ والقيم التي يتعامل بها الكبراء والمترفون في عصور الفساد . وإلى جانبها تلك المجتمعات المتواضعة المظهر والمنتديات الفقيرة إلا من الإيمان . لا أبهة ولا زينة ، ولا زخرف ، ولا فخامة .. هذه وتلك تتقابلان في هذه الأرض وتجتمعان !

وتقف الأولى بمغرياتها الفخمة الضخمة : تقف بمالها وجمالها . بسلطانها وجاهها . بالمصالح تحققها ، والمغانم توفرها ، وباللذائذ والمتاع . وتقف الثانية بمظهرها الفقير المتواضع ، تهزأ بالمال والمتاع ، وتسخر من الجاه والسلطان ؛ وتدعو الناس إليها ، لا باسم لذة تحققها ، ولا مصلحة توفرها ، ولا قربى من حاكم ولا اعتزاز بذي سلطان . ولكن باسم العقيدة تقدمها إليهم مجردة من كل زخرف ، عاطلة من كل زينة ، معتزة بعزة الله دون سواه . . لا بل تقدمها إليهم ومعها المشقة والجهد والجهاد والاستهتار ، لا تملك أن تأجرهم على ذلك كله شيئا في هذه الأرض ، إنما هو القرب من الله ، وجزاؤه الأوفى يوم الحساب .

وهؤلاء هم سادة قريش تتلى عليهم آيات الله - على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم - فيقولون للمؤمنين الفقراء : « أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ؟ » الكبراء الذين لا يؤمنون بمحمد ، أم الفقراء الذين يلتفون حوله . أيهم خير مقاما وأحسن ناديا ؟ النضير ابن

الحارث وعمرو ابن هشام والوليد ابن المغيرة وإخوانهم من السادة، أم بلال وعمار وخباب وإخوانهم من المعدمين؟ أفلو كان ما يدعو إليه محمد خيرا أفكان أتباعه يكونون هم هؤلاء النفر الذين لا قيمة لهم فى مجتمع قريش ولا خطر؟ وهم يجتمعون فى بيت فقير عاطل كبيت خباب؟ ويكون معارضوه هم أولئك أصحاب النوادى الفخمة الضخمة والمكانة الاجتماعية البارزة؟ .

إنه منطق الأرض. منطق المحجوبين عن الآفاق العليا فى كل زمان ومكان. وإنها لحكمة الله أن تقف العقيدة مجردة من الزينة والطلاء، عاطلة من عوامل الإغراء. ليقبل عليها من يريدها لذاتها خالصة لله من دون الناس، ومن دون ما تواضعوا عليه من قيم ومغريات؛ وينصرف عنها من يبتغى المطامع والمنافع، ومن يشتهى الزينة والزخرف، ومن يطلب المال والمتاع.

ويعقب السياق على قولة الكفار التياهين، المتباهين بما هم فيه من مقام وزينة بلمسة وجدانية ترجع القلب إلى مصارع الغابرين، على ما كانوا فيه من مقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين:

« وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا[1] » . .

فلم ينفعهم أثاثهم ورياشهم وزينتهم ومظهرهم. ولم يعصمهم شىء من الله حين كتب عليهم الهلاك.

ألا إن هذا الإنسان لينسى. ولو تذكر وتفكر ما أخذه الغرور بمظهر؟ ومصارع الغابرين من حوله تلفته بعنف وتنذره وتحذره، وهو سادر فيما هو فيه، غافل عما ينتظره مما لقيه من كانوا قبله وكانوا أشد قوة وأكثر أموالا وأولادا.

يعقب السياق بتلك اللفتة ثم يأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يدعو عليهم فى صورة مباهلة - بأن من كان من الفريقين فى الضلالة فليزده الله مما هو فيه؛ حتى يأتى وعده فى الدنيا أو فى الآخرة:

« قل: من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمان مدا، حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب

(١) مظهرا ومنظرا.

Marfat.com

وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا ، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا » . .

فهم يزعمون أنهم أهدى من أتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنهم أغنى وأبهى . فليكن! وليدع محمد ربه أن يزيد الضالين من الفريقين ضلالا ، وأن يزيد المهتدين منهما اهتداء . . حتى إذا وقع ما يعدهم ؛ وهو لا يعدو أن يكون عذاب الضالين فى الدنيا بأيدى المؤمنين ، أو عذابهم الأكبر يوم الدين - فعندئذ سيعرفون : أى الفريقين شر مكانا وأضعف جندا . ويومئذ يفرح المؤمنون ويعتزون « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا » خير من كل ما يتباهى به أهل الأرض ويتيهون .

* * *

ثم يستعرض السياق نموذجا آخر من تبجح الكافرين ، وقولة أخرى من أقوالهم يستنكرها ويعجب منها :

« أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالا وولدا ؟ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمان عهدا ؟ كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا . ونرثه ما يقول ويأتينا فردا » . .

ورد فى سبب نزول هذه الآيات - بإسناده - عن خباب بن الأرتّ قال : كنت رجلا قينا (حدادا) وكان لى على العاص ابن وائل دين فأتيته أتقاضاه منه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله ، لا أكفر بمحمد - صلى الله عليه وسلم - حتى تموت ثم تبعث . قال : فإنى إذا مت ثم بعثت جئتنى ولى ثَمّ مال وولد ، فأعطيتك ! فأنزل الله : « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالا وولدا ...[1] » .

وقولة العاص ابن وائل نموذج من تهكم الكفار واستخفافهم بالبعث ؛ والقرآن يعجب من أمره ، ويستنكر ادعاءه : « أطلع الغيب ؟ » فهو يعرف ما هنالك . « أم اتخذ عند الرحمان عهدا » فهو واثق من تحققه ؟ ثم يعقب : « كلا » . وهى لفظة نفى وزجر . كلا لم يطلع على الغيب ولم يتخذ عند الله عهدا ، إنما هو يكفر ويسخر ؛ فالتهديد إذن والوعيد هو اللائق لتأديب

---

(١) البخارى ومسلم .

Marfat.com

الكافرين الساخرين : « كلا سنكتب مايقول ونمد له من العذاب مدا » .. سنكتب مايقول فنسجله عليه ليوم الحساب فلا يُنسى ولا يقبل المغالطة . . وهو تعبير تصويرى للتهديد . وإلا فالمغالطة مستحيلة ، وعلم الله لا تند عنه صغيرة ولا كبيرة . ونمد له من العذاب مدا، فنزيده منه ونطيله عليه ولا نقطعه عنه ! ويستمر السياق فى التهديد على طريقة التصوير أيضا : « ونرثه ما يقول » أى نأخذ ما يخلفه مما يتحدث عنه من مال وولد كما يفعل الوارث بعد موت المورث ! « ويأتينا فردا » لا مال معه ولا ولد ولا نصير له ولا سند ، مجردا ضعيفا وحيدا فريدا .

فهل رأيت إلى هذا الذى كفر بآيات الله وهو يحيل على يوم لا يملك فيه شيئا ؟ يوم يجرد من كل ما يملك فى هذه الدنيا ؟ إنه نموذج من نماذج الكفار . نموذج الكفر والادعاء والاستهتار . .

* * *

ويستطرد السياق فى استعراض ظواهر الكفر والشرك :

« واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا . ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا . فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا . يوم نحشر المتقين إلى الرحمان وفدا ، ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ، لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمان عهدا » .

فهؤلاء الذين يكفرون بآيات الله يتخذون من دونه آلهة يطلبون عندها العزة ، والغلب والنصرة . وكان فيهم من يعبد الملائكة ومن يعبد الجن ويستنصرونهم ويتقوون بهم . . كلا ! فسيكفر الملائكة والجن بعبادتهم ، وينكرونها عليهم ، ويبرأون إلى الله منهم ، « ويكونون عليهم ضدا » بالتبرؤ منهم والشهادة عليهم .

وإن الشياطين ليهيجونهم إلى المعاصى . فهم مسلطون عليهم ، مأذون لهم فى إغوائهم منذ أن طلب إبليس إطلاق يده فيهم . .

« فلا تعجل عليهم » ولا يضق صدرك بهم ؛ فإنهم ممهلون إلى أجل قريب ، وكل شىء من أعمالهم محسوب عليهم ومعدود . . والتعبير يصور دقة الحساب تصويرا محسوسا « إنما نعد لهم

Marfat.com

عدا » .. وإنه لتصوير مرهوب ، فيا ويل من يعد الله عليه ذنوبه وأعماله وأنفاسه ، ويتتبعها ليحاسبه الحساب العسير . . إن الذى يحس أن رئيسه فى الأرض يتتبع أعماله وأخطاءه يفزع ويخاف ويعيش فى قلق وحسبان . . فكيف بالله المنتقم الجبار ؟ !

وفى مشهد من مشاهد القيامة يصور عاقبة العد والحساب . فأما المؤمنون فقادمون على الرحمان وفدا فى كرامة وحسن استقبال : « يوم نحشر المتقين إلى الرحمان وفدا » . وأما المجرمون فسوقون إلى جهنم وردا كما تساق القطعان. « ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا » . ولا شفاعة يومئذ إلا لمن قدم عملا صالحا فهو عهد له عند الله يستوفيه . وقد وعد الله من آمن وعمل صالحا أن يجزيه الجزاء الأوفى ، ولن يخلف الله وعدا .

* * *

ثم يستطرد السياق مرة أخرى إلى مقولة منكرة من مقولات المشركين . ذلك حين يقول المشركون من العرب : الملائكة بنات الله . والمشركون من اليهود : عزير ابن الله . والمشركون من النصارى : المسيح ابن الله . . فينتفض الكون كله لهذه القولة المنكرة التى تنكرها فطرته ، وينفر منها ضميره :

« وقالوا : اتخذ الرحمان ولدا . لقد جئتم شيئا إدًّا . تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمان ولدا ، وما ينبغى للرحمان أن يتخذ ولدا » ..

إن جرس الألفاظ وإيقاع العبارات ليشارك ظلال المشهد فى رسم الجو : جو الغضب والغيرة والانتفاض ! وإن ضمير الكون وجوارحه لتنتفض ، وترتعش وترجف من سماع تلك القولة النابية ، والمساس بقداسة الذات العلية ، كما ينتفض كل عضو وكل جارحة عند مايغضب الإنسان للمساس بكرامته أو كرامة من يحبه ويوقره .

هذه الانتفاضة الكونية للكلمة النابية تشترك فيها السماوات والأرض والجبال ، والألفاظ بإيقاعها ترسم حركة الزلزلة والارتجاف .

وما تكاد الكلمة النابية تنطلق : « وقالوا : اتخذ الرحمان ولدا » حتى تنطلق كلمة التفظيع والتبشيع : « لقد جئتم شيئا إدا » ثم يهتز كل ساكن من حولهم ويرتج كل مستقر وينتفض الكون كله لبارئه . وهو يحس بتلك الكلمة تصدم كيانه وفطرته ؛ وتجافى ما وقر

Marfat.com

فى ضميره وما استقر فى كيانه ؛ وتهز القاعدة التى قام عليها واطمأن إليها : « تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمان أن يتخذ ولدا » . .

وفى وسط الغضبة الكونية يصدر البيان الرهيب :

« إن كل من فى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » .

إن كل من فى السماوات والأرض إلا عبد يأتى معبوده خاضعا طائعا ، فلا ولد ولا شريك ، إنما خلق وعبيد .

وإن الكيان البشرى ليرتجف وهو يتصور مدلول هذا البيان . . « لقد أحصاهم وعدهم عدا » فلا مجال لهرب أحد ولا لنسيان أحد « وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » فعين الله على كل فرد . وكل فرد يقدم وحيدا لا يأنس بأحد ولا يعتز بأحد . حتى روح الجماعة ومشاعر الجماعة يجرد منها ، فإذا هو وحيد فريد أمام الديان .

وفى وسط هذه الوحدة والوحشة والرهبة ، إذا المؤمنون فى ظلال ندية من الود السامى : ود الرحمان :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمان ودا » . .

وللتعبير بالود فى هذا الجو نداوة رخية تمس القلوب ، وروح رضى يلمس النفوس . وهو ود يشيع فى الملأ الأعلى ، ثم يفيض على الأرض والناس فيمتلىء به الكون كله ويفيض . .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال : يا جبريل إنى أحب فلانا فأحبه . قال : فيحبه جبريل . ثم ينادى فى أهل السماء : ان الله يحب فلانا فأحبوه . قال : فيحبه أهل السماء . ثم يوضع له القبول فى الأرض . وإن الله إذا أبغض عبدا دعا جبريل فقال : يا جبريل إنى أبغض فلانا فأبغضه . قال : فيبغضه جبريل . ثم ينادى فى أهل السماء : ان الله يبغض فلانا فأبغضوه . قال : فيبغضه أهل السماء ؛ ثم يوضع له البغضاء فى الأرض[1] » . .

***

(١) رواه الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوانة ، حدثنا سهيل عن أبيه عن أبى هريرة . ورواه مسلم من حديث سهيل . ورواه أحمد والبخارى من حديث ابن جريج عن موسى عن ابن عتبة عن نافع عن أبى هريرة .

Marfat.com

وبعد فإن هذه البشرى للمؤمنين المتقين، وذلك الإنذار للجاحدين الخصيمين هما غاية هذا القرآن . ولقد يسره الله للعرب فأنزله بلسان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليقرأوه :

« فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لداً » . .

وتختم السورة بمشهد يتأمله القلب طويلا ؛ ويرتعش له الوجدان طويلا ؛ ولا ينتهي الخيال من استعراضه وتمليه :

« وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟ » .

وهو مشهد يبدؤك بالرجة المدمرة ، ثم يغمرك بالصمت العميق . وكأنما يأخذ بك إلى وادى الردى ، ويقفك على مصارع القرون ؛ وفى ذلك الوادى الذى لا يكاد يحده البصر، يسبح خيالك مع الشخوص التى كانت تدب وتتحرك ، والحياة التى كانت تنبض وتمرح . والأمانى والمشاعر التى كانت تحيا وتتطلع . . ثم إذا الصمت يخيم ، والموت يجثم ، وإذا الجثث والأشلاء والبلى والدمار، لا نأمة . لا حس. لا حركة. لا صوت .. « هل تحس منهم من أحد ؟ » انظر وتلفت « هل تسمع لهم ركزا » تسمع وأنصت . ألا إنه السكون العميق والصمت الرهيب . وما من أحد إلا الواحد الحى الذى لا يموت ...

* * *

سورة طه مكية

وآياتها ١٣٥ إلا آيتي ١٣٠ و١٣١ فمدنيتان

بسم الله الرحمن الرحيم

« طه ① ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى * تنزيلا
ممن خلق الأرض والسماوات العلى * الرحمان على العرش استوى * له ما في
السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم
السر وأخفى * الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى.

***

« وهل أتاك حديث موسى * إذ رأى نارا ، فقال لأهله : امكثوا إني آنست
نارا ، لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى.

« فلما أتاها نودي ياموسى : إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس
طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني
وأقم الصلاة لذكري * إن الساعة آتية ، أكاد أخفيها ، لتجزى كل نفس بما
تسعى * فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى.

« وما تلك بيمينك ياموسى ؟ * قال : هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على
غنمي ولي فيها مآرب أخرى * قال : ألقها ياموسى * فألقاها فإذا هي حية تسعى *

Marfat.com

Marfat.com

قَالَ : خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا ٱلْكُبْرَى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ : رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ : قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى. وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَايُوحَى * أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ ، فَاقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ، يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ؛ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ؟ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ، وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ، وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ، فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي * اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ : قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى .

« قَالَا : رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ : لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا : إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى .

« قَالَ : فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى * قَالَ : رَبُّنَا ٱلَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ : فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَى ؟ * قَالَ : عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ، وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ، وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا

أنعامكم . إنّ في ذلك لآيات لأولي النهى * منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى . ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى * قال : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟ * فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى * قال : موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى .

« فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى * قال لهم موسى : ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى * فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى * قالوا : إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى * فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا ، وقد أفلح اليوم من استعلى * قالوا : ياموسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى * قال : بل ألقوا . فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خيفة موسى * قلنا : لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق مافي يمينك تلقف ماصنعوا ، إن ماصنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى .

« فألقي السحرة سجدا ، قالوا : آمنا برب هارون وموسى * قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم في جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى * قالوا : لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذي فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى * إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا * ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات

Marfat.com

Marfat.com

فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ .

« وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ، لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ، فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ .

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ، وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ * كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ، وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ * وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ .

« وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَىٰ ؟ * قَالَ : هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي ، وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ * قَالَ : فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ، وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ .

« فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ، قَالَ : يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ؟ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ؟ * قَالُوا : مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ، وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ، فَقَالُوا : هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ، وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ : يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَانُ ، فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا : لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ * قَالَ : يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ ؟ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ : يَاابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ، إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ : فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي .

« قَالَ : فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ ؟ * قَالَ : بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ، وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ : فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ : لَا مِسَاسَ ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ، وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ، لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا * إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا » ﴿٩٨﴾

تبدأ هـذه السورة وتختم خطابا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ببيان وظيفته وحدود تـكاليفه .. إنها ليست شقوة كتبت عليه ، وليست عناء يعذب به . إنما هى الدعوة والتذكرة ، وهى التبشير والإنذار . وأمر الخلق بعد ذلك إلى الله الواحد الذى لا إله غيره . المهيمن على ظاهر الـكون وباطنه ، الخبير بظواهر القلوب وخوافيهـا . الذى تعنو له الجباه ، ويرجع إليه الناس : طائعهم وعاصيهم . . فلا على الرسول ممن يكذب ويكفر ؛ ولا يشقى لأنهم يكذبون ويكفرون .

وبين المطلع والختام تعرض قصة موسى عليه السلام من حلقة الرسالة إلى حلقة اتخاذ بنى اسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر ، مفصلة مطولة ؛ وبخاصة موقف المناجاة بين الله وكليمه موسى . ـ وموقف الجدل بين موسى وفرعون . وموقف المبـاراة بين موسى والسحرة ... وتتجلى فى غضون القصة رعاية الله لموسى الذى صنعه على عينه واصطنعه لنفسه ، وقال له ولأخيه : « لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى » . .

وتعرض قصة آدم سريعة قصيرة ، تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد خطيئته ، وهدايته له . وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدى أو ضلال بعد التذكير والإنذار .

وتحيط بالقصة مشاهد القيامة . وكأنما هى تـكملة لما كان أول الأمر فى الملأ الأعلى من قصة آدم . حيث يعود الطائعون إلى الجنة ، ويذهب العصاة إلى النار . تصديقا لمـا قيل لأبيهم آدم ، وهو يهبط إلى الأرض بعد ما كان !

ومن ثم يمضى السياق فى هـذه السورة فى شوطين اثنين : الشوط الأول يتضمن مطلع

Marfat.com

السورة بالخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . . . » تتبعه قصة موسى نموذجا كاملا لرعاية الله سبحانه لمن يختارهم لإبلاغ دعوته فلا يشقون بها وهم فى رعايته .

والشوط الثانى يتضمن مشاهد القيامة وقصة آدم وهما يسيران فى اتجاه مطلع السورة وقصة موسى . ثم ختام السورة بما يشبه مطلعها ويتناسق معه ومع جو السورة .

وللسورة ظل خاص يغمر جوها كله . . ظل علوى جليل ، تخشع له القلوب ، وتسكن له النفوس ، وتعنو له الجباه . . إنه الظل الذى يخلعه تجلى الرحمان على الوادى المقدس على عبده موسى ، فى تلك المناجاة الطويلة ؛ والليل ساكن وموسى وحيد ، والوجود كله يتجاوب بذلك النجاء الطويل . . وهو الظل الذى يخلعه تجلى القيوم فى موقف الحشر العظيم : « وخشعت الأصوات للرحمان فلا تسمع إلا همساً » . . « وعنت الوجوه للحى القيوم » . .

والإيقاع الموسيقى للسورة كلها يستطرد فى مثل هذا الجو من مطلعها إلى ختامها رخيا شجيا نديا بذلك المد الذاهب مع الألف المقصورة فى القافية كلها تقريبا . .

* * *

« طه . ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى . الرحمان على العرش استوى . له مافى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى» .

مطلع رخى ندى . يبدأ بالحروف المقطعة : « طا . ها » للتنبيه إلى أن هـذه السورة . كهذا القرآن - مؤلفة من مثل هذه الحروف على نحو ماأوردنا فى مطالع السور . ويختار هنا حرفان ينتهيان بإيقاع كإيقاع السورة ، ويقصران ولا يمدان لتنسيق الإيقاع كذلك .

يتلو هذين الحرفين حديث عن القرآن - كما هو الحال فى السور التى تبدأ بالحروف المقطعة - فى صورة خطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

« ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى » . . ماأنزلنا عليك القرآن ليؤدى إلى شقائك به أو بسببه . ماأنزلناه لتشقى بتلاوته والتعبد به حتى يجاوز ذلك طاقتك ، ويشق عليك ؛ فهو ميسر للذكر ، لا تتجاوز تكاليفه طاقة البشر ، ولا يكلفك إلا مافى وسعك ، ولا يفرض

Marfat.com

Marfat.com

عليك إلا مافى طوقك والتعبد به فى حدود الطاقة نعمة لا شقوة ، وفرصة للاتصال بالملأ الأعلى ، واستمداد القوة والطمأنينة ، والشعور بالرضى والأنس والوصول . .

وما أنزلناه عليك لتشقى مع الناس حين لا يؤمنون به . فلست مكلفا أن تحملهم على الإيمان حملا ؛ ولا أن تذهب نفسك عليهم حسرات ؛ وما كان هذا القرآن إلا للتذكير والإنذار :

« إلا تذكرة لمن يخشى » . .

والذى يخشى يتذكر حين يُذكر ، ويتقى ربه فيستغفر . وعند هذا تنتهى وظيفة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا يكلف فتح مغاليق القلوب ، والسيطرة على الأفئدة والنفوس . إنما ذلك إلى الله الذى أنزل هذا القرآن . وهو المهيمن على الكون كله ، المحيط بخفايا القلوب والأسرار :

« تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى . الرحمان على العرش استوى . له مافى السماوات ومافى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » . .

فالذى نزل هذا القرآن هو الذى خلق الأرض والسماوات .. السماوات العلى .. فالقرآن ظاهرة كونية كالأرض والسماوات . تنزلت من الملأ الأعلى . ويربط السياق بين النواميس التى تحكم الكون والتى ينزل بها القرآن ؛ كما ينسق ظل السماوات العلى مع الأرض ، وظل القرآن الذى ينزل من الملأ الأعلى إلى الأرض . .

والذى نزل القرآن من الملأ الأعلى ، وخلق الأرض والسماوات العلى ، هو « الرحمان » فما نزله على عبده ليشقى . وصفة الرحمة هى التى تبرز هنا للإلمام بهذا المعنى . وهو المهيمن على الكون كله . « على العرش استوى » والاستواء على العرش كناية عن غاية السيطرة والاستعلاء . فأمر الناس إذن إليه وما على الرسول إلا التذكرة لمن يخشى .

ومع الهيمنة والاستعلاء الملك والإحاطة :

« له مافى السماوات ومافى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » . .

والمشاهد الكونية تستخدم فى التعبير لإبراز معنى الملك والإحاطة فى صورة يدركها التصور البشرى . والأمر أكبر من ذلك جدا . ولله مافى الوجود كله وهو أكبر مما فى السماوات ومافى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

وعلم الله يحيط بما يحيط به ملكه :

« وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » ..

وينسق التعبير بين الظل الذى تلقيه الآية : « له مافى السماوات ومافى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » . والظل الذى تلقيه للآية بعدها : « وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » ينسق بين الظاهر الجاهر فى الكون ، والظاهر الجاهر من القول . وبين المستور المخبوء تحت الثرى والمستور المخبوء فى الصدور : السر وأخفى . على طريقة التنسيق فى التصوير . والسر خاف . وما هو أخفى من السر تصوير لدرجات الخفاء والاستتار ، كما هو الحال تحت أطباق الثرى ..

والخطاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لطمأنة قلبه بأن ربه معه يسمعه ، ولا يتركه وحده يشقى بهذا القرآن ، ويواجه الكافرين بلا سند ، فإذا كان يدعوه جهرا فإنه يعلم السر وأخفى . والقلب حين يستشعر قرب الله منه ، وعلمه بسره ونجواه ، يطمئن ويرضى ؛ ويأنس بهذا القرب فلا يستوحش من العزلة بين المكذبين المناوئين ؛ ولا يشعر بالغربة بين المخالفين له فى العقيدة والشعور .

ويختم هذا المطلع بإعلان وحدانية الله بعد إعلان هيمنته وملكيته وعلمه :

« الله لا إله إلا هو . له الأسماء الحسنى » ..

و « الحسنى » تشارك فى تنسيق الإيقاع ، كما تشارك فى تنسيق الظلال . ظلال الرحمة والقرب والرعاية ، التى تغمر جو هذا المطلع وجو السورة كله .

* * *

ثم يقص الله على رسوله حديث موسى ، نموذجا لرعايته للمختارين لحمل دعوته : وقصة موسى هى أكثر قصص المرسلين ورودا فى القرآن . وهى تعرض فى حلقات تناسب موضوع السورة التى تعرض فيها وجوها وظلها . وقد وردت حلقات منها حتى الآن فى سورة البقرة . وسورة المائدة . وسورة الأعراف . وسورة يونس . وسورة الإسراء . وسورة الكهف . وذلك غير الإشارات إليها فى سور أخرى .

Marfat.com

Marfat.com

وما جاء منها فى المائدة كان حلقة واحدة : حلقة وقوف بنى إسرائيل أمام الأرض المقدسة لا يدخلون لأن فيها قوما جبارين . وفى سورة الكهف كانت كذلك حلقة واحدة : حلقة لقاء موسى للعبد الصالح وصحبته فترة . .

فأما فى البقرة والأعراف ويونس وفى هذه السورة ـ طه ـ فقد وردت منها حلقات كثيرة. ولكن هذه الحلقات تختلف فى سورة عنها فى الأخرى . تختلف الحلقات المعروضة ، كما تختلف الجانب الذى تعرض منه تنسيقا له مع اتجاه السورة التى يعرض فيها .

فى البقرة سبقتها قصة آدم وتكريمه فى الملأ الأعلى ، وعهد الله إليه بخلافة الأرض ونعمته عليه بعد ما غفر له . . فجاءت قصة موسى وبنى اسرائيل تذكيرا لبنى إسرائيل بنعمة الله عليهم وعهده إليهم وإنجائهم من فرعون وملئه . واستسقائهم وتفجير الينابيع لهم وإطعامهم المن والسلوى، وذكرت مواعدة موسى وعبادتهم للعجل من بعده ، ثم غفرانه لهم . وعهده إليهم تحت الجبل . ثم عدوانهم فى السبت . وقصة البقرة .

وفى الأعراف سبقها الإنذار وعواقب المكذبين بالآيات قبل موسى ـ عليه السلام ـ فجاءت قصة موسى تعرض ابتداء من حلقة الرسالة ، وتعرض فيها آيات العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . وتعرض حلقة السحرة بالتفصيل ، وخاتمة فرعون وملئه المكذبين . ثم ما كان من بنى اسرائيل بعد ذلك من اتخاذ العجل فى غيبة موسى . وتنتهى القصة بإعلان فيها وراثة رحمة الله وهداه للذين يتبعون الرسول النبى الأمى .

وفى يونس سبقها عرض مصارع المكذبين . فجاءت قصة موسى من حلقة الرسالة، وعرض مشهد السحرة ، ومصرع فرعون وقومه بالتفصيل .

أما هنا فى طه . فقد سبقها مطلع السورة يشف عن رحمة الله ورعايته لمن يصطفيهم لحمل رسالته وتبليغ دعوته . فجاءت القصة مظللة بهذا الظل تبدأ بمشهد المناجاة ؛ وتتضمن نماذج من رعاية الله لموسى عليه السلام وتثبيته وتأييده ؛ وتشير إلى سبق هذه الرعاية للرسالة ، فقد كانت ترافقه فى طفولته ، فتحرسه وتتعهده : « وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى » . .

فلنأخذ فى تتبع حلقات القصة كما وردت فى السياق .

* * *

« وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى نارا فقال لأهله : امكثوا إنى آنست نارا ، لعلى آتيكم منها بقبس ، أو أجد على النار هدى » ..

« وهل أتاك حديث موسى ؟ » وما يتجلى فيه من رعاية الله وهداه لمن اصطفاه ؟ ..

فهاهو ذا موسى - عليه السلام - فى الطريق بين مدين ومصر إلى جانب الطور . هاهو ذا عائد بأهله بعد أن قضى فترة التعاقد بينه وبين نبى الله شعيب ، على أن يزوجه إحدى ابنتيه فى مقابل أن يخدمه ثمانى سنوات أو عشرا . والأرجح أنه وفى عشرا ؛ ثم خطر له أن يفارق شعيبا وأن يستقل بنفسه وبزوجه ، ويعود إلى البلد الذى نشأ فيه ، والذى فيه قومه بنو إسرائيل يعيشون تحت سياط فرعون وقهره[1] .

لماذا عاد . وقد خرج من مصر طريدا . قتل قبطيا فيها حين رآه يقتتل مع اسرائيلى ، وغادر مصر هاربا وبنو إسرائيل فيها يسامون العذاب ألوانا ؟ حيث وجد الأمن والطمأنينة فى مدين إلى جوار شعيب صهره الذى آواه وزوجه إحدى ابنتيه ؟

إنها جاذبية الوطن والأهل تتخذها القدرة ستارا لما تهيئه لموسى من أدوار .. وهكذا نحن فى هذه الحياة تتحرك . تحركنا أشواق وهواتف ، ومطامح ومطامع ، وآلام وآمال . . وإن هى إلا الأسباب الظاهرة للغاية المضمرة ، والستار الذى تراه العيون لليد التى لا تراها الأنظار ولا تدركها الأبصار . يد المدبر المهيمن العزيز القهار ..

وهكذا عاد موسى . وهكذا ضل طريقه فى الصحراء ومعه زوجه وقد يكون معهما خادم . ضل طريقه والليل مظلم ، والمتاهة واسعة . نعرف هذا من قوله لأهله : « امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » . . فأهل البادية يوقدون النار عادة على مرتفع من الأرض ، ليراها السارى فى الصحراء ، فتكشف له عن الطريق ، أو يجد عندها القرى والضيافة ومن يهديه إلى الطريق .

ولقد رأى موسى النار فى الفلاة . فاستبشر . وذهب ليأتى منها بقبس يستدفىء به أهله ، فالليلة باردة وليالى الصحراء باردة قارة . أو ليجد عندها من يهديه إلى الطريق ؛ أو يهتدى على ضوئها إلى الطريق .

لقد ذهب يطلب قبسا من النار ؛ ويطلب هاديا فى السرى . . ولكنه وجد المفاجأة

---

(1) ورد هذا فى الحلقات الأولى من قصة موسى فى سورة القصص . وهى سابقة فى النزول على سورة طه .

Marfat.com

Marfat.com

الكبرى . إنها النار التى تدفىء . لا الأجسام ولكن الأرواح . النار التى تهدى لا فى السرى ولكن فى الرحلة الكبرى :

« فلما أتاها نودى : ياموسى إنى أنا ربك . فاخلع نعليك . إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله لا إله إلا أنا ، فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » ..

إن القلب ليجفُ ، وإن الكيان ليرتجف . وهو يتصور ـ مجرد تصور ـ ذلك المشهد.. موسى فريد فى تلك الفلاة . والليل دامس ، والظلام شامل ، والصمت مخيم . وهو ذاهب يلتمس النار التى آنسها من جانب الطور . ثم إذا الوجود كله من حوله يتجاوب بذلك النداء : « إنى أنا ربك فاخلع نعليك . إنك بالوادى المقدس طوى وأنا اخترتك .. »

إن تلك الذرة الصغيرة الضعيفة المحدودة تواجه الجلال الذى لا تدركه الأبصار . الجلال الذى تتضاءل فى ظله الأرض والسماوات . ويتلقى . يتلقى ذلك النداء العلوى بالكيان البشرى . . فكيف ؟ كيف لولا لطف الله ؟

إنها لحظة ترتفع فيها البشرية كلها وتكبر ممثلة فى موسى ـ عليه السلام ـ فبحسب الكيان البشرى أن يطيق التلقى من ذلك الفيض لحظة . وبحسب البشرية أن يكون فيها الاستعداد لمثل هـذا الاتصال على نحو من الأنحاء .. كيف ؟ لا ندرى كيف ! فالعقل البشرى ليس هنا ليدرك ويحكم ، إنما قصاراه أن يقف مبهوتا يشهد ويؤمن !

« فلما أتاها نودى ياموسى : إنى أنا ربك .. » نودى . بهذا البناء للمجهول . فما يمكن تحديد مصدر النداء ولا اتجاهه . ولا تعيين صورته ولا كيفيته . ولا كيف سمعه موسى أو تلقاه . . نودى بطريقة ما فتلقى بطريقة ما . فذلك من أمر الله الذى نؤمن بوقوعه ، ولا نسأل عن كيفيته ، لأن كيفيته وراء مدارك البشر وتصورات الإنسان .

« ياموسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى[1] » . . إنك فى الحضرة العلوية . فتجرد بقدميك . وفى الوادى الذى تتجلى عليه الطلعة المقدسة ، فلا تطأه بنعليك .

« وأنا اخترتك » . . فيا للتكريم ! ياللتكريم أن يكون الله بذاته هو الذى يختار . يختار عبدا من العبيد هو فرد من جموع الجموع .. تعيش على كوكب من الكوكب هو ذرة فى مجموعة . المجموعة هى ذرة فى الكون الكبير الذى قال له الله : كن .. فكان ! ولكنها رعاية الرحمان لهذا الإنسان !

(١) قيل : إنها اسم الوادى . وقيل : إنها وصف له .

Marfat.com

وبعد إعلانه بالتكريم والاختيار ، والاستعداد والتهيؤ بخلع نعليه ، يجيء التنبيه للتلقى :

« فاستمع لما يوحى » ..

ويلخص ما يوحى فى ثلاثة أمور مترابطة : الاعتقاد بالوحدانية ، والتوجه بالعبادة ، والإيمان بالساعة ؛ وهى أسس رسالة الله الواحدة :

« إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » ..

فأما الألوهية الواحدة فهى قوام العقيدة . والله فى ندائه لموسى ـ عليه السلام ـ يؤكدها بكل المؤكدات : بالإثبات المؤكد : « إننى أنا الله » وبالقصر المستفاد من النفى والاستثناء : « لا إله إلا أنا » الأولى لإثبات الألوهية لله ، والثانية لنفيها عن سواه . . وعلى الألوهية تترتب العبادة ؛ والعبادة تشمل التوجه لله فى كل نشاط الحياة ؛ ولكنه يخص بالذكر منها الصلاة : « وأقم الصلاة لذكرى » لأن الصلاة أكمل صورة من صور العبادة ، وأكمل وسيلة من وسائل الذكر ، لأنها تتمحض لهذه الغاية ، وتتجرد من كل الملابسات الأخرى ؛ وتتهيأ فيها النفس لهذا الغرض وحده ، وتتجمع للاتصال بالله .

فأما الساعة فهى الموعد المرتقب للجزاء الكامل العادل ، الذى تتوجه إليه النفوس فتحسب حسابه ؛ وتسير فى الطريق وهى تراقب وتحاسب وتخشى الانزلاق . . والله سبحانه يؤكد مجيئها : « إن الساعة آتية » وأنه يكاد يخفيها . فعلم الناس بها قليل لا يتجاوز ما يطلعهم عليه من أمرها بقدر ما يحقق حكمته من معرفتهم ومن جهلهم . . والمجهول عنصر أساسى فى حياة البشر وفى تكوينهم النفسى . فلابد من مجهول فى حياتهم يتطلعون إليه . ولو كان كل شيء مكشوفا لهم ـ وهم بهذه الفطرة ـ لوقف نشاطهم وأسنت حياتهم . فوراء المجهول يجرون . فيحذرون ويأملون ، ويجربون ويتعلمون . ويكشفون المخبوء من طاقاتهم وطاقات الكون من حولهم ؛ ويرون آيات الله فى أنفسهم وفى الآفاق ؛ ويبدعون فى الأرض بما شاء لهم الله أن يبدعوا . . وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد ، يحفظهم من الشرود ، فهم لا يدرون متى تأتى الساعة ، فهم من موعدها على حذر دائم وعلى استعداد دائم . ذلك لمن صحت فطرته واستقام . فأما من فسدت فطرته واتبع هواه فيغفل ويجهل ، فيسقط ومصيره إلى الردى :

« فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » . .

ذلك أن اتباع الهوى هو الذى ينشىء التكذيب بالساعة . فالفطرة السليمة تؤمن من نفسها بأن الحياة الدنيا لا تبلغ فيها الإنسانية كمالها ، ولا يتم فيها العدل تمامه ؛ وأنه لابد من حياة أخرى يتحقق فيها الكمال المقدر للإنسان ، والعدل المطلق فى الجزاء على الأعمال .

* * *

هذه هى الوهلة الأولى للنداء العلوى الذى تجاوبت به جنبات الوجود ؛ وأنهى الله سبحانه إلى عبده المختار قواعد التوحيد . ولا بد أن موسى قد نسى نفسه ونسى ما جاء من أجله ، ليتبع ذلك الصوت العلوى الذى ناداه ؛ وليسمع التوجيه القدسى الذى يتلقاه . وبينما هو مستغرق فيما هو فيه ، ليس فى كيانه ذرة واحدة تلتفت إلى سواه ، إذا هو يتلقى سؤالا لا يحتاج منه إلى جواب :

« وما تلك بيمينك يا موسى ؟ » . .

إنها عصاه . ولكن أين هو من عصاه ؟ إنما يتذكر فيجيب :

« قال : هى عصاى ، أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى » . .

والسؤال لم يكن عن وظيفة العصا فى يده . إنما كان عما فى يمينه . ولكنه أدرك أن ليس عن ماهيتها يسأل ، فهى واضحة ، إنما عن وظيفتها معه . فأجاب . .

ذلك أقصى ما يعرفه موسى عن تلك العصا : أن يتوكأ عليها وأن يضرب بها أوراق الشجر لتتساقط فتأكلها الغنم ــ وقد كان يرعى الغنم لشعيب . وقيل : إنه ساق معه فى عودته قطيعا منها كان من نصيبه . . وأن يستخدمها فى أغراض أخرى من هذا القبيل أجملها ولم يعددها لأن ما ذكره نموذج منها .

ولكن ها هى ذى القدرة القادرة تصنع بتلك العصا فى يده ما لم يخطر له على بال ، تمهيدا لتكليفه بالمهمة الكبرى :

« قال : ألقها يا موسى . فألقاها . فإذا هى حية تسعى . قال : خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى » :

ووقعت المعجزة الخارقة التى تقع فى كل لحظة ؛ ولكن الناس لا ينتبهون إليها . وقعت

Marfat.com

Marfat.com

معجزة الحياة . فإذا العصا حية تسعى . وكم من ملايين الذرات الميتة أو الجامدة كالعصا تتحول في كل لحظة إلى خلية حية ؛ ولكنها لا تبهر الإنسان كما يبهره أن تتحول عصا موسى حية تسعى ! ذلك أن الإنسان أسير حواسه ، وأسير تجاربه، فلا يبعد كثيرا فى تصوراته عما تدركه حواسه . وانقلاب العصا حية تسعى ظاهرة حسية تصدم حسه فينتبه لها بشدة . أما الظواهر الخفية لمعجزة الحياة الأولى ، ومعجزات الحياة التى تدب فى كل لحظة فهى خفية قلما يلتفت إليها . وبخاصة أن الألفة تفقدها جدتها فى حسه ، فيمر عليها غافلا أو ناسيا .

وقعت المعجزة فدهش لهـا موسى وخاف : « قال : خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى » ونردها عصا .

والسياق هنا لا يذكر ما ذكره فى سورة أخرى من أنه ولى مدبرا ولم يعقب . إنما يكتفى بالإشارة الخفيفة إلى ما نال موسى – عليه السلام – من خوف : ذلك أن ظل هذه السورة ظل أمن وطمأنينة ، فلا يشوبه بحركة الفزع والجرى والتولى بعيدا .

واطمأن موسى والتقط الحية ، فإذا هى تعود سيرتها الأولى ! عصا ! .. ووقعت المعجزة فى صورتها الأخرى . صورة سلب الحياة من الحى ، فإذا هو جامد ميت ، كما كان قبل أن تدركه المعجزة الأولى . .

وصدر الأمر العلوى مرة أخرى إلى عبده موسى :

« واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء . آية أخرى » ..

ووضع موسى يده تحت إبطه . . والسياق يختار للإبط والذراع صورة الجناح لما فيها من رفرفة وطلاقة وخفة فى هذا الموقف المجنح الطليق من ربقة الأرض وثقلة الجسم لتخرج بيضاء لا عن مرض أو آفة . ولكن : « آية أخرى » مع آية العصا . « لنريك من آياتنا الكبرى » فتشهد وقوعها بنفسك تحت بصرك وحسك . فتطمئن للنهوض بالتبعة الكبرى :

« اذهب إلى فرعون إنه طغى » . .

وإلى هنا لم يكن موسى يعلم أنه منتدب لهذه المهمة الضخمة . . وإنه ليعرف من هو فرعون : فقد ربى فى قصره . وشهد طغيانه وجبروته . وشاهد ما يصبه على قومه من عذاب

ونـكال . . وهو اللحظة فى حضرة ربه . يحس الرضى والتـكريم والحفاوة . فليسأله كل ما يطمئنه على مواجهة هذه المهمة العسيرة ؛ ويكفل له الاستقامة على طريق الرسالة :

« قال : رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى . واجعـل لى وزيرا من أهلى ، هارون أخى . اشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى . كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا . إنك كنت بنا بصيرا » . .

لقد طلب إلى ربه أن يشرح له صـدره . . وانشراح الصدر يحول مشقة التـكليف إلى متعة ، ويحيل عناءه لذة ؛ ويجعله دافعا للحياة لا عبئاً يثقل خطى الحياة .

وطلب إلى ربه أن ييسر له أمره . . وتيسير الله لعباده هو ضمان النجاح . وإلا فماذا يملك الإنسان بدون هذا التيسير ؟ ماذا يملك وقواه محدودة وعلمه قاصر والطريق طويل وشائك ومجهول ؟ ! .

وطلب إلى ربه أن يحل عقـدة لسانه فيفقهوا قوله . . وقد روى أنه كانت بلسانه حبسة والأرجح أن هذا هو الذى عناه. ويؤيده ماورد فى سورة أخرى من قوله : « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا » . وقد دعا ربه فى أول الأمر دعاء شاملا بشرح الصدر وتيسير الأمر . ثم أخذ يحدد ويفصل بعض مايعينه على أمره وييسر له تمامه .

وطلب أن يعينه الله بمعين من أهله . هارون أخيه . فهو يعلم منه فصاحة اللسان وثبات الجنان وهدوء الأعصاب ، وكان موسى ـ عليه السلام ـ انفعاليا حاد الطبع سريع الانفعال . فطلب إلى ربه أن يعينه بأخيه يشد أزره ويقويه ويتروى معه فى الأمر الجليل الذى هو مقدم عليه .

والأمر الجليل الذى هو مقدم عليه يحتاج إلى التسبيح الـكثير والذكر الـكثير والاتصال الـكثير . فموسى ـ عليه السلام ـ يطلب أن يشرح الله صدره وييسر له أمره ويحل عقدة من لسانه ويعينه بوزير من أهله . . كل أولئك لا ليواجه المهمة مباشرة ؛ ولـكن ليتخذ ذلك كله مساعدا له ولأخيه على التسبيح الـكثير والذكر الـكثير والتلقى الـكثير من السميع البصير . . « إنك كنت بنا بصيرا » . . تعرف حالنا وتطلع على ضعفنا وقصورنا ، وتعلم حاجتنا إلى العون والتدبير . .

لقد أطال موسى سؤاله ، وبسط حاجته ، وكشف عن ضعفه ، وطلب العون والتيسير والاتصال الـكثير . وربه يسمع له ، وهو ضيف فى حضرته ، ناداه وناجاه . فها هو ذا الـكريم

Marfat.com

المنان لا يخجل ضيفه ، ولا يرد سائله ، ولا يبطىء عليه بالإجابة الكاملة :

« قال : قد أوتيت سؤلك ياموسى » :

هكذا مرة واحدة ، فى كلمة واحدة . فيها إجمال يغنى عن التفصيل . وفيها إنجاز لاوعد ولاتأجيل . . كل ماسألته أعطيته . أعطيته فعلا . لاتعطاه ولاستعطاه ؟ وفيها مع الانجاز عطف وتكريم وإيناس بندائه باسمه : « ياموسى » وأى تكريم أكبر من أن يذكر الكبير المتعال اسم عبد من العباد ؟

وإلى هنا كفاية وفضل من التكريم والعطف والإيناس . وقد طال التجلى ؛ وطال النجاء؛ وأجيب السؤل وقضيت الحاجة . . ولكن فضل الله لاخازن له ، ورحمة الله لاممسك لها . فهو يغمر عبده بمزيد من فضله وفيض من رضاه ، فيستبقيه فى حضرته ، ويمد فى نجائه وهو يذكره بسابق نعمته ، لزيده اطمئنانا وأنسا بموصول رحمته وقديم رعايته . وكل لحظة تمروهو فى هذا المقام الوضىء هى متاع ونعمى وزاد ورصيد .

« ولقد مننا عليك مرة أخرى . إذ أوحينا إلى أمك مايوحى . أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم . فليلقه اليم بالساحل ، يأخذه عدو لى وعدو له . وألقيت عليك محبة منى ،ولتصنع على عينى . إذ تمشى أختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله ؟ فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولاتحزن . وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا ، فلبثت سنين فى أهل مدين . ثم جئت على قدر ياموسى. واصطنعتك لنفسى ...» .

إن موسى ـ عليه السلام ـ ذاهب لمواجهة أقوى ملك فى الأرض وأطغى جبار . إنه ذاهب لخوض معركة الإيمان مع الطغيان . إنه ذاهب الى خضم من الأحداث والمشكلات مع فرعون أول الأمر ؛ ثم مع قومه بنى اسرائيل وقد أذلهم الاستعباد الطويل وأفسد فطرتهم ، وأضعف استعدادهم للمهمة التى هم منتدبون لها بعد الخلاص . فربه يطلعه على أنه لن يذهب غفلا من التهيؤ والاستعداد . وأنه لم يرسل الا بعد التهيئة والإعداد . وأنه صنع على عين الله منذ زمان ،ودرب على الشاق وهو طفل رضيع ، ورافقته العناية وسهرت عليه وهو صغير ضعيف. وكان تحت سلطان فرعون وفى متناوله وهو مجرد من كل عدة ومن كل قوة فلم تمتد اليه يد فرعون ،لأن يد القدرة كانت تسنده ، وعين القدرة كانت ترعاه . فى كل خطاه . فلا عليه اليوم من فرعون ، وقد بلغ أشده . وربه معه . قد اصطنعه لنفسه ، واستخلصه واصطفاه .

Marfat.com

« ولقد مننا عليك مرة أخرى » .. فالمنة قديمة ممتدة مطردة ، سائرة فى طريقها معك منذ زمان . فلا انقطاع لها إذن بعد التكليف الآن .

لقد مننا عليك إذ أوحينا إلى أمك مايوحى ، وألهمناها مايلهم فى مثل حالها .. ذلك الإلهام:

« أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل » ..

حركات كلها عنف وكلها خشونة .. قذف فى التابوت بالطفل . وقذف فى اليم بالتابوت . وإلقاء للتابوت على الساحل .. ثم ماذا ؟ أين يذهب التابوت المقذوف فيه بالطفل المقذوف فى اليم الملقى به على الساحل . من يتسلمه ؟ « عدو لى وعدوله »

وفى زحمة هذه المخاوف كلها . وبعد تلك الصدمات كلها . ماذا ؟ ماالذى حدث للطفل الضعيف المجرد من كل قوة ؟ ماالذى جرى للتابوت الصغير المجرد من كل وقاية ؟

« وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى » ! ! !

ياللقدرة القادرة التى تجعل من المحبة الهينة اللينة درعا تتكسر عليها الضربات وتتحطم عليه الأمواج . وتعجز قوى الشر والطغيان كلها أن تمس حاملها بسوء ؛ ولو كان طفلا رضيعا لا يصول ولا يجول بل لايملك أن يقول . . .

إنها مقابلة عجيبة فى تصوير المشهد . مقابلة بين القوى الجبارة الطاغية التى تتربص بالطفل الصغير ، والخشونة القاسية فيما يحيط به من ملابسات وظروف . . والرحمة اللينـة اللطيفة تحرسه من المخاوف ، وتقيه من الشدائد وتلفه من الخشونة ، ممثلة فى المحبة لا فى صيال أو نزال :

« ولتصنع على عينى » . . وما من شرح يمكن أن يضيف شيئا إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق الذى يلقيه التعبير القرآنى العجيب : « ولتصنع على عينى » وكيف يصف لسان بشرى ، خلقا يصنع على عين الله ؟ إن قصارى أى بشرى أن يتأمله ويتملاه . . إنها منزلة وإنها كرامة أن ينال إنسان لحظة من العناية . فـكيف بمن يصنع صنعا على عين الله ؟ إنه بسبب من هذا أطاق موسى أن يتلق ذلك العنصر العلوى الذى تلقاه .

ولتصنع على عينى . تحت عين فرعون ـ عدوك وعدوى ـ وفى متناول يده بلا حارس ولا مانع ولا مدافع . ولـكن عينه لاتمتد إليك بالشر لأنى ألقيت عليك محبة منى . ويده لا تنالك بالضر وأنت تصنع على عينى .

Marfat.com

ولم أحطك فى قصر فرعون ، بالرعاية والحماية وأدع أمك فى بيتها للقلق والخوف . بل جمعتك بها وجمعتها بك :

« إذا تمشى أختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله ؟ فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن » . .

وكان ذلك من تدبير الله . إذ جعل الطفل لا يقبل ثدى المرضعات . وفرعون وزوجه وقد تبنيا الطفل الذى ألقاه اليم بالساحل ـ مما لا يفصله السياق كما يفصله فى موضع آخر ـ يبحثان له عن مرضع . فيتسامع الناس وتروح أخت موسى بإيحاء من أمها تقول لهم : هل أدلكم على من يكفله ؟ وتجيء لهم بأمه فيلقم ثديها . وهكذا يتم تدبير الله للطفل وأمه التى سمعت الإلهام فقذفت بفلذة كبدها فى التابوت ، وقذفت بالتابوت فى اليم ، فألقاه اليم بالساحل . ليأخذه عدو لله وله ، فيكون الأمن بإلقائه بين هذه المخاوف ، وتكون النجاة من فرعون الذى كان يذبح أطفال بنى إسرائيل . بإلقائه بين يدى فرعون بلا حارس ولا معين !

ومنة أخرى : « وقتلت نفسا فنجيناك من الغم ، وفتناك فتونا فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى . واصطنعتك لنفسى » . .

ذلك حين كبر وشب فى قصر فرعون ، ثم نزل المدينة يوما فوجد فيها رجلين يقتتلان أحدهما إسرائيلى والآخر مصرى ، فاستعانه الإسرائيلى فوكز المصرى بيده فخر صريعا . ولم يكن ينوى قتله إنما كان ينوى دفعه . فامتلأت نفسه بالغم على هذه الفعلة ـ وهو المصنوع على عين الله منذ نشأته ؛ وتحرج ضميره وتأثم من اندفاعه .. فربه يذكره هنا بنعمته عليه ، إذ هداه إلى الاستغفار فشرح صدره بهذا ونجاه من الغم . ولم يتركه مع هذا بلا ابتلاء ليربيه ويعده لما أراد ؛ فامتحنه بالخوف والهرب من القصاص ؛ وامتحنه بالغربة ومفارقة الأهل والوطن ؛ وامتحنه بالخدمة ورعى الغنم ، وهو الذى تربى فى قصر أعظم ملوك الأرض ، وأكثرهم ترفا ومتاعا وزينة . .

وفى الوقت المقدر . عندما نضج واستعد ، وابتلى فثبت وصبر ؛ وامتحن فجاز الامتحان . وتهيأت الظروف كذلك والأحوال فى مصر ، وبلغ العذاب ببنى إسرائيل مداه . .

فى ذلك الوقت المقدر فى علم الله جيء بموسى من أرض مدين ، وهو يظن أنه هو جاء : « فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى »

Marfat.com

Marfat.com

جئت فى الوقت الذى قدرته لمجيئك . . « واصطنعتك لنفسى » خالصا مستخلصا ممحضا لى ولرسالتى ودعوتى . . ليس بك شىء من هذه الدنيا ولا لهذه الدنيا . إنما أنت للمهمة التى صنعتك على عينى لها واصطنعتك لتؤديها . فما لك فى نفسك شىء . وما لأهلك منك شىء ،وما لأحد فيك شىء . فامض لما اصطنعتك له:

« اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى . اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له : قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » . .

اذهب أنت وأخوك مزودين بآياتى وقد شهد منها آية العصا وآية اليد ـ ، ولا تنيا فى ذكرى فهو عدتكما وسلاحكما وسندكما الذى تأويان منه إلى ركن شديد . . اذهبا إلى فرعون . وقد حفظتك من شره من قبل . وأنت طفل وقد قذفت فى التابوت، فقذف التابوت فى اليم ، فألقاه اليم بالساحل ، فلم تضرك هذه الخشونة ، ولم تؤذك هذه المخاوف . فالآن أنت معد مهيأ ، ومعك أخوك . فلا عليك وقد نجوت مماهو أشد ، فى ظروف أسوأ وأعنف .

اذهبا إلى فرعون فقد طغى وتجبر وعتا « فقولا له قولا لينا » فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم ؛ ولا يهيج الكبرياء الزائف الذى يعيش به الطغاة . ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان .

اذهبا إليه غير يائسين من هدايته ، راجيين أن يتذكر ويخشى . فالداعية الذى ييأس من اهتداء أحد بدعوته لا يبلغها بحرارة ، ولا يثبت عليها فى وجه الجحود والإنكار .

وإن الله ليعلم مايكون من فرعون . ولكن الأخذ بالأسباب فى الدعوات وغيرها لا بد منه . والله يحاسب الناس على مايقع منهم بعد أن يقع فى عالمهم . وهو عالم بأنه سيكون . فعلمه تعالى بمستقبل الحوادث كعلمه بالحاضر منها والماضى فى درجة سواء .

* * *

وإلى هنا كان الخطاب لموسى ـ عليه السلام ـ وكان المشهد هو مشهد المناجاة فى الفلاة . وهنا يطوى السياق المسافات والأبعاد والأزمان، فإذا هارون مع موسى . وإذا هما معا يكشفان

Marfat.com

لربهما عن خوفهما من مواجهة فرعون ، ومن التسرع فى أذاه ، ومن طغيانه إذا دعواه :

« قالا : ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال : لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى . فأتياه فقولا : إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم . قد جئناك بآية من ربك . والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » .

وهارون لم يكن مع موسى قطعا فى موقف المناجاة الطويل ـ الذى تفضل المنعم فيه على عبده ، فأطال له فيه النجاء ، وبسط له فى القول ، وأوسع له فى السؤال والجواب ـ فردهما معا بقولهما : « إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » لم يكن فى موقف المناجاة . إنما هو السياق القرآنى يطوى الزمان والمكان ، ويترك فجوات بين مشاهد القصص ، تعلم من السياق ليصل مباشرة إلى المواقف الحية الموحية ذات الأثر فى سير القصص وفى وجدان الناس .

ولقد اجتمع موسى وهارون عليهما السلام إذن بعد انصراف موسى من موقف المناجاة بجانب الطور . وأوحى الله إلى هارون بمشاركة أخيه فى دعوة فرعون ثم هاهما ذان يتوجهان إلى ربهما بمخاوفهما : « قالا : ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » .

والفرط هو التسرع بالأذى للوهلة الأولى ، والطغيان أشمل من التسرع وأشمل من الأذى . وفرعون الجبار يومئذ لا يتحرج من أحدهما أو كليهما .

هنا يجيئهما الرد الحاسم الذى لا خوف بعده ، ولا خشية معه :

« قال : لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى » . .

إننى معكما . . إنه القوى الجبار الكبير المتعال . إنه الله القاهر فوق عباده . إنه موجد الأكوان والحيوات والأفراد والأشياء بقولة : كن . ولا زيادة . . إنه معهما . . وكان هذا الإجمال يكفى . ولكنه يزيدهما طمأنينة ، ولمسا بالحس للمعونة : « أسمع وأرى . . » فما يكون فرعون وما يملك وما يصنع حين يفرط أو يطغى ؟ والله معهما يسمع ويرى ؟

ومع الطمأنينة الهداية إلى صورة الدعوة وطريق الجدال :

« فأتياه فقولا : إنا رسولا ربك . فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم . قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » . .

Marfat.com

إنه البدء بإيضاح قاعدة رسالتهما : « إنا رسولا ربك » ليشعر منه اللحظة الأولى بأن هناك إلها هو ربه . وهو رب الناس . فليس هو إلها خاصا بموسى وهارون أو ببنى اسرائيل ، كما كان سائدا فى خرافات الوثنية يومذاك أن لكل قوم إلها أو آلهة ، ولكل قبيل إلها أو آلهة . أو كما كان سائدا فى بعض العصور من أن فرعون مصر إله يعبد فيها لأنه من نسل الآلهة .

ثم إيضاح لموضوع رسالتهما : « فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم » .. ففى هذه الحدود كانت رسالتهما إلى فرعون . لاستنقاذ بنى اسرائيل ، والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد ، وإلى الأرض المقدسة التى كتب الله لهم أن يسكنوها (إلى أن يفسدوا فيها ، فيدمرهم تدميرا)

ثم استشهاد على صدقهما فى الرسالة : « قد جئناك بآية من ربك » تدل على صدقنا فى مجيئنا إليك بأمر ربك ، فى هذه المهمة التى حددناها .

ثم ترغيب واستمالة : « والسلام على من اتبع الهدى » : فلعله منهم يتلقى السلام ويتبع الهدى

ثم تهديد وتحذير غير مباشرين كى لا يثيرا كبرياءه وطغيانه : « إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » .. فلعله لا يكون ممن كذب وتولى !

هكذا ألقى الله الطمأنينة على موسى وهارون . وهكذا رسم لهما الطريق . ودبر لهما الأمر. ليمضيا آمنين عارفين هاديين .

وهنا يسدل الستار ليرفع . فإذا هما أمام الطاغية فى حوار وجدال .

* * *

لقد أتيا فرعون ــ والسياق لا يذكر كيف وصلا إليه ــ أتياه وربهما معهما يسمع ويرى . فأية قوة وأى سلطان هذا الذى يتكلم به موسى وهارون ، كائنا فرعون ما كان ؛ ولقد أبلغاه ما أمرهما ربهما بتبليغه . والمشهد هنا يبدأ بما دار بينه وبين موسى ــ عليه السلام ــ من حوار:

« قال : فمن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » ..

إنه لا يريد أن يعترف بأن رب موسى وهارون هو ربه ، كما قالا له : « إنا رسولا ربك » فهو يسأل موجها الكلام إلى موسى لما بدا له أنه هو صاحب الدعوى : « فمن ربكما يا موسى ؟ » من ربكما الذى تتكلمان باسمه وتطلبان اطلاق بنى اسرائيل ؟

Marfat.com

فأما موسى - عليه السلام - فيرد بالصفة المبدعة المنشئة المدبرة من صفات الله تعالى : « قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » . . ربنا الذى وهب الوجود لكل موجود فى الصورة التى أوجده بها وفطره عليها . ثم هدى كل شىء إلى وظيفته التى خلقه لها ؛ وأمده بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها . وثم هنا ليست للتراخى الزمنى . فكل شىء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعى الفطرى للوظيفة التى خلق لها ،وليس هناك افتراق زمنى بين خلق المخلوق وخلق وظيفته. إنما هو التراخى فى الرتبة بين خلق الشىء واهتدائه إلى وظيفته ؛ فهداية كل شىء إلى وظيفته مرتبة أعلى من خلقه غفلا ..

وهذا الوصف الذى يحكيه القرآن الكريم عن موسى - عليه السلام - يلخص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود: هبة الوجود لكل موجود . وهبة خلقه على الصورة التى خلق بها . وهبة هدايته للوظيفة التى خلق لها . . وحين يجول الإنسان ببصره وبصيرته - فى حدود مايطيق - فى جنبات هذا الوجود الكبير تتجلى له آثار تلك القدرة المبدعة المدبرة فى كل كائن صغير أو كبير . من الذرة المفردة الى أضخم الأجسام ، ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة فى الانسان .

هذا الوجود الكبير المؤلف مما لايحصى من الذرات والخلايا ، والخلائق والأحياء ؛ وكل ذرة فيه تنبض ، وكل خلية فيه تحيا ، وكل حى فيه يتحرك ،وكل كائن فيه يتفاعل أو يتعامل مع الكائنات الأخرى ... وكلها تعمل منفردة ومجتمعة داخل إطار النواميس المودعة فى فطرتها وتكوينها بلا تعارض ولاخلل ولا فتور فى لحظة من اللحظات !

وكل كائن بمفرده كون وحده وعالم بذاته ، تعمل فى داخله ذراته وخلاياه وأعضاؤه وأجهزته وفق الفطرة التى فطرت عليها ، داخل حدود الناموس العام ، فى توافق وانتظام .

وكل كائن بمفرده - ودعك من الكون الكبير - يقف علم الإنسان وجهده قاصرا محدودا فى دراسة خواصه ووظائفه وأمراضه وعلاجه . دراستها مجرد دراسة لاخلقها ولاهدايتها إلى وظائفها، فذلك خارج كاية عن طوق الإنسان . وهو خلق من خلق الله .. وهبه وجوده ، على الهيئة التى وجد بها ؟ للوظيفة التى خلق لها ، كأى شىء من هاته الأشياء !

إلا أنه للاله الواحد .. ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ..

وثنى فرعون بسؤال آخر :

« قال : فما بال القرون الأولى ؟ » .

Marfat.com

ما شأن القرون التي مضت من الناس ؟ أين ذهبت ؟ ومن كان ربها ؟ وما يكون شأنها وقد هلكت لا تعرف إلهها هـذا ؟

« قال : علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » ..

بهـذا أحال موسى ذلك الغيب البعيد فى الزمان ، الخافى عن العيان ، إلى ربه الذى لا يفوت علمه شىء ولا ينسى شيئا . فهو الذى يعلم شأن تلك القرون كله . فى ماضيها وفى مستقبلها . والغيب لله والتصرف فى شأن البشر لله .

ثم يستطرد فيعرض على فرعون آثار تدبير الله فى الكون وآلائه على بنى الإنسان . فيختار بعض هـذه الآثار المحيطة بفرعون ، المشهودة له فى مصر ذات التربة الخصبة والمـاء الموفور والزروع والأنعام :

« الذى جعل لـكم الأرض مهدا ، وسلك لـكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم . إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » ..

والأرض كلها مهد للبشر فى كل مكان وزمان . مهد كمهد الطفل . وما البشر إلا أطفال هـذه الأرض . يضمهم حضنها ويغذوهم درها ! وهى ممهدة لهم كذلك للسير والحرث والزرع والحياة . جعلها الخالق المدبر كذلك يوم أعطى كل شىء خلقه . فأعطى هـذه الأرض خلقها على الهيئة التى خلقت بها صالحة للحياة التى قدرها فيها ؛ وأعطى البشر خلقهم كذلك على الهيئة التى خلقهم بهـا صالحين للحياة فى هـذه الأرض التى مهدها لهم وجعلها مهدهم . . المعنيان متقاربان متصلان .

وصورة المهد وصفة التمهيد لا تبدو فى بقعة من الأرض كما تبدو فى مصر . ذلك الوادى الخصيب الأخضر السهل المهد الذى لا يحوج أهله إلا إلى أيسر الـكد فى زرعه وجناه . وكأنما هو المهد الحانى على الطفل يضمه ويرعاه !

والخالق المدبر الذى جعل الأرض مهدا ، شق للبشر فيها طرقا وأنزل من السماء ماء . ومن ماء المطر تتكون الأنهار وتفيض – ومنها نهر النيل القريب من فرعون – فيخرج النبات أزواجا من أجناس كثيرة . ومصر أظهر نموذج لإخراج النبات لطعام الإنسان ورعى الحيوان .

وقد شاء الخالق المدبر أن يكون النبات أزواجا كسائر الأحياء . وهى ظاهرة مطردة فى الأحياء كلها . والنبات فى الغالب يحمل خلايا التذكير ، وخلايا التأنيث فى النبتة الواحـدة

Marfat.com

وأحيانا يكون اللقاح فى نبتة ذكر منفردة كما هو الحال فى الفصائل الحيوانية . وبذلك يتم التناسق فى نواميس الحياة ويطرد فى كل الفصائل والأنواع . . «إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » .. وما من عقل مستقيم يتأمل هذا النظام العجيب ثم لا يطلع فيه على آيات تدل على الخالق المدبر الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . .

ويكمل السياق حكاية قول موسى بقول مباشر من الله جل وعلا :

«منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى . ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى» .

من هذه الأرض التى جعلناها لكم مهدا وسلكنا لكم فيها سبلا وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا به أزواجا من نبات شتى ، لتأكل والمرعى .. من هذه الأرض خلقناكم ، وفى هذه الأرض نعيدكم ، ومنها نخرجكم بعد موتكم .

والإنسان مخلوق من مادة هذه الأرض . عناصر جسمه كلها من عناصرها إجمالا . ومن زرعها يأكل ، ومن مائها يشرب ، ومن هوائها يتنفس . وهو ابنها وهى له مهد . وإليها يعود جثة تطويها الأرض ، ورفاتا يختلط بترابها ، وغازا يختلط بهوائها . ومنها يبعث إلى الحياة الأخرى ، كما خلق فى النشأة الأولى .

وللتذكير بالأرض هنا مناسبة فى مشهد الحوار مع فرعون الطاغية المتكبر ؛ الذى يتسامى إلى مقام الربوبية ؛ وهو من هذه الأرض وإليها ! وهو شىء من الأشياء التى خلقها الله فى الأرض وهداها إلى وظيفتها . . « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » أريناه الآيات الكونية التى وجهه إليها موسى - عليه السلام - فيما حوله ، وآيتى العصا واليد يحملهما هنا لأنهما بعض آيات الله ، وما فى الكون منها أكبر وأبقى . لذلك لا يفصل السياق هنا عرض هاتين الآيتين على فرعون ، فهذا مفهوم ضمنا ، إنما يفصل رده على الآيات كلها ففهم أنه يشير إليهما . .

« قال : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟ فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت ، مكانا سوى . قال : موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى » . .

وهكذا لم يمض فرعون فى الجدل ، لأن حجة موسى - عليه السلام - فيه واضحة وسلطانه فيه قوى ، وهو يستمد حجته من آيات الله فى الكون ، ومن آياته الخاصة معه . . إنما لجأ إلى

Marfat.com

اتهام موسى بالسحر الذى يجعل العصا حية تسعى ، ويحيل اليد بيضاء من غير سوء . وقد كان السحر أقرب خاطر إلى فرعون لأنه منتشر فى ذلك الوقت فى مصر ؛ وهاتان الآيتان أقرب فى طبيعتهما إلى المعروف من السحر .. وهو تخييل لا حقيقة ، وخداع للبصر والحواس ، قد يصل إلى خداع الإحساس ، فينشىء فيه آثارا محسوسة كآثار الحقيقة . كما يشاهد من رؤية الإنسان لأشياء لا وجود لها ، أو فى صورة غير صورتها . وما يشاهد من تأثر المسحور أحيانا تأثرات عصبية وجسدية كما لو كان الأثر الواقع عليه حقيقة . . وليس من هذا النوع آيتا موسى . إنما هما من صنع القدرة المبدعة المحولة للأشياء حقا . تحويلا وقتيا أو دائما .

« قال : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟ »

ويظهر أن استعباد بنى اسرائيل كان إجراء سياسيا خوفا من تكاثرهم وغلبتهم . وفى سبيل الملك والحكم لا يتحرج الطغاة من ارتكاب أشد الجرائم وحشية وأشنعها بربرية وأبعدها عن كل معانى الإنسانية وعن الخلق والشرف والضمير . ومن ثم كان فرعون يستأصل بنى اسرائيل ويذلهم بقتل المواليد الذكور . واستبقاء الإناث ؛ وتسخير الكبار فى الشاق المهلك من الأعمال . . فلما قال له موسى وهارون : أرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم . قال : « أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟ » لأن إطلاق بنى إسرائيل تمهيد للاستيلاء على الحكم والأرض .

وإذا كان موسى يطلب إطلاق بنى اسرائيل لهذا الغرض ، وكل مايقدمه هو عمل من أعمال السحر ، فما أسهل الرد عليه : « فلنأتينك بسحر مثله » . . وهكذا يفهم الطغاة أن دعوى أصحاب العقائد إنما تخفى وراءها هدفا من أهداف هذه الأرض ؛ وأنها ليست سوى ستار للملك والحكم .. ثم هم يرون مع أصحاب الدعوات آيات ، إما خارقة كآيات موسى ، وإما مؤثرة فى الناس تأخذ طريقها إلى قلوبهم وإن لم تكن من الخوارق . فإذا الطغاة يقابلونها بما يماثلها ظاهريا .. سحر نأتى بسحر مثله ! كلام نأتى بكلام من نوعه ! صلاح نتظاهر بالصلاح ! عمل طيب نرائى بعمل طيب ! ولا يدركون أن للعقائد رصيدا من الإيمان ، ورصيدا من عون الله ؛ فهى تغلب بهذا وبذاك ، لا بالظواهر والأشكال !

وهكذا طلب فرعون إلى موسى تحديد موعد للمباراة مع السحرة .. وترك له اختيار ذلك الموعد : للتحدى : « فاجعل بيننا وبينك موعدا » وشدد عليه فى عدم إخلاف الموعد زيادة فى التحدى « لا نخلفه نحن ولا أنت » . وأن يكون الموعد فى مكان مفتوح مكشوف : « مكانا سوى » مبالغة فى التحدى !

وقبل موسى - عليه السلام - تحدى فرعون له ؛ واختار الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة ، يأخذ فيه الناس فى مصر زينتهم ، ويتجمعون فى الميادين والأمكنة المكشوفة : « قال: موعدكم يوم الزينة » . وطلب أن يجمع الناس ضحى ، ليكون المكان مكشوفا والوقت ضاحيا . فقابل التحدى بمثله وزاد عليه اختيار الوقت فى أوضح فترة من النهار وأشدها تجمعا فى يوم العيد . لا فى الصباح الباكر حيث لا يكون الجميع قد غادروا البيوت . ولا فى الظهيرة فقد يعوقهم الحر ، ولا فى المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع أو من وضوح الرؤية .. !!

وانتهى المشهد الأول من مشاهد اللقاء بين الإيمان والطغيان فى الميدان . .

وهنا يسدل الستار ليرفع على مشهد المباراة :

* * *

« فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى » . .

ويجمل السياق فى هذا التعبير كل ما قاله فرعون وما أشار به الملأ من قومه ، وما دار بينه وبين السحرة من تشجيع وتحميس ووعد بالمكافأة ، وما فكر فيه ومادبر هو ومستشاروه .. يجمله فى جملة : فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى . وتصور تلك الآية الواحدة القصيرة ثلاث حركات متواليات : ذهاب فرعون ، وجمع كيده ، والإتيان به .

ورأى موسى - عليه السلام - قبل الدخول فى المباراة أن يبذل لهم النصيحة ، وأن يحذرهم عاقبة الكذب والافتراء على الله ، لعلهم يثوبون إلى الهدى ، ويدعون التحدى بالسحر والسحر افتراء :

« قال لهم موسى : ويلكم ! لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم[1] بعذاب ، وقد خاب من افترى » .

والكلمة الصادقة تلمس بعض القلوب وتنفذ فيها . ويبدو أن هذا الذى كان ؛ فقد تأثر بعض السحرة بالكلمة المخلصة ، فتلجلج فى الأمر ؛ وأخذ المصرون على المباراة يجادلونهم همسا خيفة أن يسمعهم موسى :

---

(١) يهلككم ويستأصلكم .

Marfat.com

Marfat.com

« فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى » . .

وجعل بعضهم يحمس بعضا ، وراحوا يهيجون فى المترددين الخوف من موسى وهارون ، اللذين يريدان الاستيلاء على مصر وتغيير عقائد أهلها ؛ مما يوجب مواجهتهما يدا واحدة بلا تردد ولا نزاع . واليوم هو يوم المعركة الفاصلة والذى يغلب فيها الفالح الناجح :

« قالوا : إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم أْتوا صفا . وقد أفلح اليوم من استعلى » . .

وهكذا تنزل الكلمة الصادقة الواحدة الصادرة عن عقيدة ، كالقذيفة فى معسكر المبطلين وصفوفهم ، فتزعزع اعتقادهم فى أنفسهم وفى قدرتهم ، وفى ما هم عليه من عقيدة وفكرة . وتحتاج إلى مثل هذا التحميس والتشجيع. وموسى وأخوه رجلان اثنان ، والسحرة كثيرون ، ووراءهم فرعون وملكه وجنده وجبروته وماله . . ولكن موسى وهارون كان معهما ربهما يسمع ويرى . .

ولعل هذا هو الذى يفسر لنا تصرف فرعون الطاغية المتجبر ، وموقف السحرة ومن ورائهم فرعون . فمن هوّ موسى ومن هو هارون من أول الأمر حتى يتحداهما فرعون ويقبل تحديهما ، ويجمع كيده ثم يأتى ؛ ويحشر السحرة ويجمع الناس ؛ ويجلس هو والملأ من قومه ليشهدوا المباراة ؟ وكيف قبل فرعون أن يجادله موسى ويطاوله ؟ وموسى فرد من بنى إسرائيل المستعبدين المستذلين تحت قهره ؟ . . إنها الهيبة التى ألقاها الله على موسى وهارون وهو معهما يسمع ويرى . .

وهى كذلك التى جعلت جملة واحدة توقع الارتباك فى صفوف السحرة المدربين ، فتحوجهم إلى التناجى سرا ؛ وإلى تجسيم الخطر ، واستثارة الهمم ، والدعوة إلى التجمع والترابط والثبات .

ثم أقدموا :

« قالوا : يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى » . .

وهى دعوة الميدان إلى النزال . يبدو فيها التماسك وإظهار النصفة والتحدى .

« قال : بل ألقوا » . .

فقبل التحدى ، وترك لهم فرصة البدء ، واستبقى لنفسه الكلمة الأخيرة .. ولكن ماذا؟ إنه لسحر عظيم فيما يبدو ، وحركة مفاجئة ماجت بها الساحة حتى موسى :

« فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى » ، والتعبير يشى بعظمة ذلك السحر وضخامته حتى ليوجس فى نفسه خيفـــة موسى ، ومعه ربه يسمع ويرى . وهو لا يوجس فى نفسه خيفة إلا لأمر جلل ينسيه لحظة أنه الأقوى، حتى يذكره ربه بأن معه القوة الـكبرى :

« قلنا : لا تخف . إنك أنت الأعلى . وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا . إن ما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى » . .

لا تخف إنك أنت الأعلى . فمعك الحق ومعهم الباطل . معك العقيدة ومعهم الحرفة . معك الإيمان بصدق ما أنت عليه ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة . أنت متصل بالقوة الـكبرى وهم يخدمون مخلوقا بشريا فانيا مهما يكن طاغية جبارا .

لا تخف « وألق ما فى يمينك » بهذا التنكير للتضخيم « تلقف ما صنعوا » . فهو سحر من تدبير ساحر وعمله . والساحر لا يفلح أنى ذهب وفى أى طريق سار ، لأنه يتبع تخييلا ويصنع تخييلا ؛ ولا يعتمد على حقيقة ثابتة باقية . شأنه شأن كل مبطل أمام القائم على الحق المعتمد على الصدق . وقد يبدو باطله ضخما فخما ، مخيفا لمن يغفل عن قوة الحق الـكامنة الهائلة التى لا تتبختر ولا تتطاول ولا تتظاهر ؛ ولـكنها تدمغ الباطل فى النهاية ، فإذا هو زاهق وتلقفه فتطويه ، فإذا هو يتوارى .

وألقى موسى . . ووقعت المفاجأة الـكبرى . والسياق يصور ضخامة المفاجأه بوقعها فى نفوس السحرة الذين جاءوا للمباراة فهم أحرص الناس على الفوز فيها ، والذين كانوا منذ لحظة يحمس بعضهم بعضا ويدفع بعضهم بعضاً . والذين بلغت بهم البراعة فى فنهم إلى حد أن يوجس فى نفسه خيفة موسى .

ويخيل إليه ـ وهو الرسول ـ أن حبالهم وعصيهم حيات تسعى ! يصور السياق وقع المفاجأة فى نفوسهم فى صورة تحول كامل فى مشاعرهم ووجدانهم ، لا يسعفهم الـكلام للتعبير عنه ؛ ولا يكفى النطق للإفضاء به :

« فألقى السحرة سجدا . قالوا : آمنا برب هارون وموسى » . .

إنها اللمسة تصادف العصب الحساس فينتفض الجسم كله . وتصادف « الزر » الصغير فينبعث النور ويشرق الظلام . إنها لمسة الإيمان للقلب البشرى تحوله فى لحظة من الـكفر إلى الإيمان .

Marfat.com

Marfat.com

ولكن أنى للطغاة أن يدركوا هذا السر اللطيف ؟ أنى لهم أن يدركوا كيف تتقلب القلوب؟ وهم قد نسوا لطول ما طغوا وبغوا ، ورأوا الأتباع ينقادون لإشارة منهم ، نسوا أن الله هو مقلب القلوب ؛ وأنها حين تتصل به وتستمد منه وتشرق بنوره لايكون لأحد عليها سلطان:

« قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى » .

« آمنتم له قبل أن آذن لكم » .. قولة الطاغية الذى لايدرك أنهم هم أنفسهم لا يملكون، وقد لمس الإيمان قلوبهم، أن يدفعوه عنها ، والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمان يقلبه كيف يشاء.

« إنه لكبيركم الذى علمكم السحر».. فذلك سر الاستسلام فى نظره ، لا أنه الإيمان الذى دب فى قلوبهم من حيث لا يحتسبون . ولا أنها يد الرحمان تكشف عن بصائرهم غشاوة الضلال.

ثم التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذى يعتمد عليه الطغاة ؛ ويسلطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح : « فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل » .. .

ثم الاستعلاء بالقوة الغاشمة . قوة الوحوش فى الغابة . القوة التى تمزق الأحشاء والأوصال، ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب : « ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى » !

ولكنه كان قد فات الأوان . كانت اللمسة الإيمانية قد وصلت الذرة الصغيرة بمصدرها الهائل . فإذا هى قوية قويمة . وإذا القوى الأرضية كلها ضئيلة ضئيلة . واذا الحياة الأرضية كلها زهيدة زهيدة . وكانت قد تفتحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضيئة لاتبالى أن تنظر بعدها إلى الأرض ومابها من عرض زائل . ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافه :

« قالوا : لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا، فاقض ماأنت قاض . إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى »

إنها لمسة الإيمان فى القلوب التى كانت منذ لحظة تعنو لفرعون وتعد القربى منه مغنما يتسابق اليه المتسابقون : فإذا هى بعد لحظة تواجهه فى قوة ، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه :

«قالوا : لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا .. » فهى علينا أعز وأغلى وهو جل شأنه

أكبر وأعلى . « فاقض ما أنت قاض » ودونك وما تملكه لنا فى الارض . « إنما تقضى هذه الحياة الدنيا » . فسلطانك مقيد بها ، ومالك من سلطان علينا فى غيرها . وما أقصر الحياة الدنيا ، وما أهون الحياة الدنيا . وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل بالله ، ويأمل فى الحياة الخالدة أبدا . « إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر » مما كنت تكلفنا به فلا نملك لك عصيانا ؛ فلعل بإيماننا بربنا يغفر لنا خطايانا . « والله خير وأبقى » خير قسمة وجوارا ، وأبقى مغنما وجزاء . إن كنت تهددنا بمن هو أشد وأبقى ...

وألهم السحرة الذى آمنوا بربهم أن يقفوا من الطاغية موقف المعلم المستعلى :

« إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا . ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجرى من تحتها الانهار وذلك جزاء من تزكى »

فاذا كان يتهددهم بمن هو أشد وأبقى . فها هى ذى صورة لمن يأتى ربه مجرما هى أشد عذابا وأدوم «فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا » فلا هو ميت فيستريح ، ولا هو حى فيتمتع. إنما هو العذاب الذى لا ينتهى إلى موت ولا ينتهى إلى حياة .. وفى الجانب الآخر الدرجات العلى.. جنات للإقامة ندية بما يجرى تحت غرفاتها من أنهار « وذلك جزاء من تزكى » وتطهر من الآثام .

وهزأت القلوب المؤمنه بتهديد الطغيان الجائر ، وواجهته بكلمة الايمان القوية . وباستعلاء الايمان الواثق . وبتحذير الإيمان الناصع. وبرجاء الإيمان العميق .

ومضى هذا المشهد فى تاريخ البشرية إعلانا لحرية القلب البشرى باستعلائه على قيود الارض وسلطان الارض ، وعلى الطمع ، فى المثوبة والخوف من السلطان . وما يملك القلب البشرى أن يجهر بهذا الإعلان القوى إلا فى ظلال الإيمان.

وهنا يسدل الستار ليرفع على مشهد آخر وحلقة من القصة جديدة .

إنه مشهد انتصار الحق والإيمان فى واقع الحياة المشهود ، بعد انتصارهما فى عالم الفكرة والعقيدة . فلقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر ؛ وانتصار العقيدة فى قلوب السحرة على الاحتراف ؛ وانتصار الإيمان فى قلوبهم على الرغب والرهب ، والتهديد والوعيد . فالآن ينتصر الحق على الباطل والهدى على الضلال ، والإيمان على الطغيان فى الواقع المشهود . والنصر الأخير

Marfat.com

مرتبط بالنصر الأول . فما يتحقق النصر فى عالم الواقع إلا بعد تمامه فى عالم الضمير ؛ وما يستعلى أصحاب الحق فى الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق فى الباطن . . إن للحق والإيمان حقيقة متى تجسمت فى المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس فى صورتها الواقعية . فأما إذا ظل الإيمان مظهرا لم يتجسم فى القلب ، والحق شعارا لا ينبع من الضمير ، فإن الطغيان والباطل قد يغلبان ، لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لامقابل لها ولا كفاء فى مظهر الحق والإيمان . . يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان فى النفس وحقيقة الحق فى القلب ؛ فتصبحان أقوى من حقيقة القوى المادية التى يستعلى بها الباطل ويصول بها الطغيان . . وهذا هو الذى كان فى موقف موسى - عليه السلام - من السحر والسحرة . وفى موقف السحرة من فرعون وملئه . ومن ثم انتصر الحق فى الأرض كما يعرضه هذا المشهد فى سياق السورة :

« ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى ، فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا ، لا تخاف دركا ولا تخشى . فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ، وأضل فرعون قومه وما هـدى » . .

ولا يذكر السياق هنا ما الذى كان بعد مواجهة الإيمان للطغيان فى موقف السحرة مع فرعون . ولا كيف تصرف معهم بعد ما اعتصموا بإيمانهم مستقبلين التهديد والوعيد بقلب المؤمن المتعلق بربه ، المستهين بحياة الأرض وما فيها ومن فيها . إنما يعقب بهذا المشهد . مشهد الانتصار الكامل ليتصل النصر القلبى بالنصر الواقعى . وتتجلى رعاية الله لعباده المؤمنين كاملة حاسمة . . ولنفس الغرض لا يطيل هنا فى مشهد الخروج والوقوف أمام البحر - كما يطيل فى سور أخرى - بل يبادر بعرض مشهد النصر بلا مقدمات كثيرة . لأن مقدماته كانت فى الضمائر والقلوب .

وإن هو إلا الإيحاء لموسى أن يخرج بعباد الله - بنى إسرائيل - ليلا . فيضرب لهم طريقا فى البحر يبسا بدون تفصيل ولا تطويل - فنعرضه نحن كذلك كما جاء - مطمئنا إلى أن عناية الله ترعاهم فلا يخاف أن يدركه فرعون وجنوده ، ولا يخشى من البحر الذى اتخذ له طريقا يابسا فيه ! ويد القدرة التى أجرت الماء وفق الناموس الذى أرادته قادرة على أن تكشفه بعض الوقت عن طريق يابس فيه !

« فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم . وأضل فرعون قومه وما هدى » . .

Marfat.com

Marfat.com

هكذا يجمل السياق كذلك ماغشى فرعون وقومه ، ولا يفصله ، ليبقى وقعه فى النفس شاملامهولا ؛ لا يحدده التفصيل . وقاد فرعون قومه إلى الضلال فى الحياة كما قادهم إلى الضلال والبحر . وكلاهما ضلال يؤدى إلى البوار ..

ولا نتعرض نحن لتفصيلات ماحدث فى هذا الموضع ، كى تتابع السياق فى حكمة الإجمال . إنما نقف أمام العبرة التى يتركها المشهد ونتسمع لإيقاعه فى القلوب ..

لقد تولت يد القدرة إدارة المعركة بين الإيمان والطغيان فلم يتكلف أصحاب الإيمان فيها شيئاً سوى اتباع الوحى والسرى ليلا . ذلك أن القوتين لم تكونا متكافئتين ولا متقاربتين فى عالم الواقع .. موسى وقومه ضعاف مجردون من القوة ، وفرعون وجنده يملكون القوة كلها . فلا سبيل إلى خوض معركة مادية أصلا. هنا تولت يد القدرة إدارة المعركة . ولكن بعد أن اكتملت حقيقة الإيمان فى نفوس الذين لا يملكون قوة سواها . بعد أن استعلن الإيمان فى وجه الطغيان لا يخشاه ولا يرجوه ؛ لا يرهب وعيده ولا يرغب فى شىء مما فى يده .. يقول الطغيان : « فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل » فيقول الإيمان : « فاقض ماأنت قاض. إنما تقضى هذه الحياة الدنيا » .. عندما بلغت المعركة بين الإيمان والطغيان فى عالم القلب إلى هـذا الحد تولت يد القدرة راية الحق لترفعها عالية ، وتنكس راية الباطل بلا جهد من أهل الإيمان .

وعبرة أخرى ..

إنه حين كان بنو اسرائيـل يؤدون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة . فهم لم يكونوا يؤدون هـذه الضريبة إلا ذلا واستكانة وخوفا . فأما حين استعلن الإيمان ، فى قلوب الذين آمنوا بموسى واستعدوا لاحتمال التعذيب وهم مرفوعو الرؤوس يجهرون بكلمة الإيمان فى وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرج ، ودون اتقاء للتعذيب . فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة . وإعلان النصر الذى تم قبل ذلك فى الأرواح والقلوب ..

هـذه هى العبرة التى يبرزها السياق بذلك الإجمال ، وبتتابع المشهدين بلا عائق من

التفصيلات . ليستيقنها أصحاب الدعوات ، ويعرفوا متى يرتقبون النصر من عند الله وهم مجردون من عدة الأرض . والطغاة يملكون المال والجند والسلاح ..

* * *

وفى ظلال النصر والنجاة يتوجه الخطاب إلى الناجين بالتذكير والتحذير ، كى لا ينسوا ولا يبطروا ؛ ولا يتجردوا من السلاح الوحيد الذى كان لهم فى المعركة فضمنوا به النصر والنجاح :

« يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ؛ وواعدناكم جانب الطور الأيمن ، ونزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات مارزقناكم ، ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ، ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى . وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » ..

لقد جازوا منطقة الخطر ، وانطلقوا ناجين ناحية الطور . وتركوا وراءهم فرعون وجنده غرقى : وإنجاؤهم من عدوهم واقع قريب يذكرونه اللحظة فلم يمض عليه كثير . ولكنه إعلان التسجيل . والتذكير بالنعمة المشهودة ليعرفوها ويشكروها .

ومواعدتهم جانب الطور الأيمن يشار إليها هنا على أنها أمر وقع ؛ وكانت مواعدة لموسى ـ عليه السلام ـ بعد خروجهم من مصر ، أن يأتى إلى الطور بعد أربعين ليلة يتهيأ فيها للقاء ربه ، ليسمع مايوحى إليه فى الألواح من أمور العقيدة والشريعة ، المنظمة لهذا الشعب الذى كتب له دور ايؤديه فى الأرض المقدسة بعد الخروج من مصر .

وتنزيل المن . وهو مادة حلوة تتجمع على أوراق الشجر . والسلوى وهو طائر السمانى يساق إليهم فى الصحراء ، قريب المتناول سهل التناول ، كان نعمة من الله ومظهرا لعنايته بهم فى الصحراء الجرداء . وهو يتولاهم حتى فى طعامهم اليومى فييسره لهم من أقرب الموارد .

وهو يذكرهم بهذه النعم ليأ كلوا من الطيبات التى يسرها لهم ويحذرهم من الطغيان فيها . بالبطنة والانصراف إلى لذائذ البطون والغفلة عن الواجب الذى هم خارجون له ، والتكليف الذى يعدهم ربهم لتلقيه . ويسميه طغيانا وهم قريبو العهد بالطغيان ، ذاقوا منه ماذاقوا ، ورأوا من نهايته مارأوا . « ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى . ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى » .. ولقد هوى فرعون منذ قليل . هوى عن عرشه وهوى فى الماء . . والهوىّ إلى أسفل

Marfat.com

Marfat.com

يقابل الطغيان والتعالى . والتعبير ينسق هـذه المقابلات فى اللفظ والظل على طريقة التناسق القرآنية الملحوظة .

هذا هو التحذير والإنذار للقوم المقدمين على المهمة التى من أجلها خرجوا ؛ كى لا تبطرهم النعمة ، ولا يترفوا فيهـا فيسترخوا . . وإلى جانب التحذير والإنذار يفتح باب التوبة لمن يخطىء ويرجع :

« وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » . .

والتوبة ليست كلمة تقال ، إنمـا هى عزيمة فى القلب ، يتحقق مدلولها بالإيمان والعمل الصالح . ويتجلى أثرها فى السلوك العملى فى عالم الواقع . فإذا وقعت التوبة وصح الإيمان ، وصدقه العمل فهنا يأخذ الإنسان فى الطريق ، على هدى من الإيمان ، وعلى ضمانة من العمل الصالح . فالاهتداء هنا ثمرة ونتيجة للمحاولة والعمل . .

وإلى هنا ينتهى مشهد النصر والتعقيب عليه . فيسدل الستار حتى يرفع على مشهد المناجاة الثانية إلى جانب الطور الأيمن . . .

* * *

لقد واعد الله موسى ـ عليه السلام ـ على الجبل ميعادا ضربه له ليلقاه بعد أربعين يوما ؛ لتلقى التكاليف : تكاليف النصر بعد الهزيمة . وللنصر تكاليفه ، وللعقيدة تـكاليفها . ولا بد من تهيؤ نفس واستعداد للتلقى .

وصعد موسى إلى الجبل ، وترك قومه فى أسفله ، وترك عليهم هارون نائبا عنه . .

لقد غلب الشوق على موسى إلى مناجاة ربه ، والوقوف بين يديه ، وقد ذاق حلاوتها من قبل ، فهو إليها مشتاق عجول. ووقف فى حضرة مولاه . وهو لا يعلم ماوراءه ، ولا ما أحدث القوم بعده ؛ حين تركهم فى أسفل الجبل .

وهنا ينبئه ربه بما كان خلفه . . فلنشهد المشهد ولنسمع الحوار :

« وما أعجلك عن قومك ياموسى ؟ قال : هم أولاء على أثرى ، وعجلت إليك رب لترضى . قال : فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى » .

وهكذا فوجىء موسى . . إنه عجلان إلى ربه ، بعد ما تهيأ واستعد أربعين يوما ، ليلقاه ويتلقى منه التوجيه الذى يقيم عليه حياة بنى إسرائيل الجديدة . وقد استخلصهم من الذل والاستعباد ، ليصوغ منهم أمة ذات رسالة ، وذات تكاليف .

ولكن الاستعباد الطويل والذل الطويل فى ظل الفرعونية الوثنية كان قد أفسد طبيعة القوم وأضعف استعدادهم لاحتمال التكاليف والصبر عليها ، والوفاء بالعهد والثبات عليه ؛ وترك فى كيانهم النفسى خلخلة واستعدادا للانقياد والتقليد المريح . . فما يكاد موسى يتركهم فى رعاية هارون ويبعد عنهم قليلا حتى تتخلخل عقيدتهم كلها وتنهار أمام أول اختبار . ولم يكن بد من اختبارات متوالية وابتلاءات متكررة لإعادة بنائهم النفسى . وكان أول ابتلاء هو ابتلاؤهم بالعجل الذى صنعه لهم السامرى : « قال : فإنا قد فتنا قومك من بعدك ، وأضلهم السامرى » ولم يكن لدى موسى علم بهذا الابتلاء ، حتى لقى ربه ، وتلقى الألواح وفى نسختها هدى ، وبها الدستور التشريعى لبناء بنى إسرائيل بناء يصلح للمهمة التى هم منتدبون لها .

وينهى السياق موقف المناجاة هنا على عجل ويطويه ، ليصور انفعال موسى – عليه السلام – مما علم من أمر الفتنة ، ومسارعته بالعودة ، وفى نفسه حزن وغضب ، على القوم الذين أنقذهم الله على يديه من الاستعباد والذل فى ظل الوثنية ؛ ومن عليهم بالرزق الميسر والرعاية الرحيمة فى الصحراء ؛ وذكرهم منذ قليل بآلائه ، وحذرهم الضلال وعواقبه . ثم ها هم أولاء يتبعون أول ناعق إلى الوثنية ، وإلى عبادة العجل !

ولم يذكر هنا ما أخبر الله به موسى من تفصيلات الفتنة ، استعجالا فى عرض موقف العودة إلى قومه . ولكن السياق يثنى بهذه التفصيلات . فلقد عاد موسى غضبان أسفا يوبخ قومه ويؤنب أخاه . فلا بد أنه كان يعلم شناعة الفعلة التى أقدموا عليها :

« فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا . قال : يا قوم : ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ؟ أفطال عليكم العهد ؟ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ؟ قالوا : ما أخلفنا موعدك بملكنا ، ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها ، فكذلك ألقى السامرى ، فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار ، فقالوا : هذا إلهكم وإله موسى فنسى ، أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ؟ ولقد قال لهم هارون من قبل : يا قوم إنما فتنتم به ،

Marfat.com

وإن ربكم الرحمان فاتبعونى وأطيعوا أمرى . قالوا : لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ! » .

هذه هى الفتنة يكشف السياق عنها فى مواجهة موسى بقومه ؛ وقد أخر كشفها عن موقف المناجاة ، واحتفظ بتفصيلاتها لتظهر فى مشهد التحقيق الذى يقوم به موسى ..

لقد رجع موسى ليجد قومه عاكفين على عجل من الذهب له خوار يقولون : هذا إلهكم وإله موسى . وقد نسى موسى فذهب يطلب ربه على الجبل وربه هنا حاضر !

فراح موسى يسألهم فى حزن وغضب : « يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ؟ » وقد وعدهم الله بالنصر ودخول الأرض المقدسة فى ظل التوحيد ؛ ولم يمض على هذا الوعد وإنجاز مقدماته طويل وقت . ويؤنبهم فى استنكار : « أفطال عليكم العهد ؟ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ؟ » فعملكم هذا عمل من يريد أن يحل عليه غضب من الله كأنما يتعمد ذلك تعمدا ، ويقصد إليه قصدا !.. أفطال عليكم العهد ؟ أم تعمدتم حلول الغضب « فأخلفتم موعدى » وقد تواعدنا على أن تبقوا على عهدى حتى أعود إليكم ، لا تغيرون فى عقيدتكم ولا منهجكم بغير أمرى ؟

عندئذ يعتذرون بذلك العذر العجيب ، الذى يكشف عن أثر الاستعباد الطويل ، والتخلخل النفسى والسخف العقلى : « قالوا : ما أخلفنا موعدك بملكنا » فلقد كان الأمر أكبر من طاقتنا ! « ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها » . . وقد حملوا معهم أكداسا من حلى المصريات كانت عارية عند نسائهم فحملنها معهن . فهم يشيرون إلى هذه الأحمال . ويقولون : لقد قذفناها تخلصا منها لأنها حرام . فأخذها السامرى فصاغ منها عجلا . والسامرى رجل من « سامراء » كان يرافقهم أو أنه واحد منهم يحمل هذا اللقب . وجعل له منافذ إذا دارت فيها الريح أخرجت صوتا كصوت الخوار ، ولا حياة فيه ولا روح فهو جسد ــ ولفظ الجسد يطلق على الجسم الذى لا حياة فيه ــ فما كادوا يرون عجلا من ذهب يخور حتى نسوا ربهم الذى أنقذهم من أرض الذل ، وعكفوا على عجل الذهب ؛ وفى بلاهة فكر وبلادة روح قالوا : « هذا إلهكم وإله موسى » راح يبحث عنه على الجبل ، وهو هنا معنا . وقد نسى موسى الطريق إلى ربه وضل عنه !

Marfat.com

Marfat.com

وهى قولة تضيف إلى معنى البلادة والتفاهة اتهامهم لنبيهم الذى أنقذهم تحت عين الله وسمعه، وبتوجيهه وإرشاده . اتهامهم له بأنه غير موصول بربه ، حتى ليضل الطريق إليه ، فلاهو يهتدى ولا ربه يهديه !

ذلك فضلا على وضوح الخدعة : « أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ؟ » والمقصود أنه حتى لم يكن عجلا حيا يسمع قولهم ويستجيب له على عادة العجول البقرية ! فهو فى درجة أقل من درجة الحيوانية . وهو بطبيعة الحال لا يملك لهم ضرا ولا نفعا فى أبسط صورة . فهو لا ينطح ولا يرفس ولا يدير طاحونة ولا ساقية !

وغير ذلك كله لقد نصح لهم هارون ، وهو نبيهم كذلك ، والنائب عن نبيهم المنقذ . ونبههم إلى أن هذا ابتلاء : « قال : يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمان » ونصحهم باتباعه وطاعته كما تواعدوا مع موسى ، وهو عائد إليهم بعد ميعاده مع ربه على الجبل . . ولكنهم بدلا من الاستجابة له التووا وتملصوا من نصحه ، ومن عهدهم لنبيهم بطاعته ، وقالوا : « لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى » . .

رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ؛ فسمع منهم حجتهم التى تكشف عن مدى ما أصاب نفوسهم من تخلخل ، وأصاب تفكيرهم من فساد . فالتفت إلى أخيه وهو فى فورة الغضب ، يأخذ بشعر رأسه وبلحيته فى انفعال وثورة :

« قال : يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن ؟ أفعصيت أمرى ؟ »

يؤنبه على تركهم يعبدون العجل ، دون أن يبطل عبادته ، اتباعا لأمر موسى — عليه السلام — بألا يحدث أمرا بعده ، ولا يسمح بإحداث أمر . ويستنكر عليه عدم تنفيذه ، فهل كان ذلك عصيانا لأمره ؟

وقد قرر السياق ما كان من موقف هارون . فهو يطلع أخاه عليه ؛ محاولا أن يهدىء من غضبه ، باستجاشة عاطفة الرحم فى نفسه :

« قال : يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى . إنى خشيت أن تقول : فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى » .

وهكذا نجد هارون أهدأ أعصابا وأملك لانفعاله من موسى ، فهو يلمس فى مشاعره نقطة حساسة . ويجىء له من ناحية الرحم وهى أشد حساسية ، ويعرض له وجهة نظره

فى صورة الطاعة لأمره حسب تقديره ؛ وأنه خشى إن هو عالج الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيعا ، بعضها مع العجل ، وبعضها مع نصيحة هارون . وقد أمره بأن يحافظ على بنى إسرائيل ولا يحدث فيهم أمرا . فهى كذلك طاعة الأمر من ناحية أخرى ...

عندئذ يتجه موسى بغضبه وانفعاله إلى السامرى صاحب الفتنة من أساسها . إنما لم يتوجه إليه منذ البدء ، لأن القوم هم المسؤولون ألا يتبعوا كل ناعق ، وهارون هو المسؤول أن يحول بينهم وبين اتباعه إذا هموا بذلك وهو قائدهم المؤتمن عليهم . فأما السامرى فذنبه يجىء متأخرا لأنه لم يفتنهم بالقوة ، ولم يضرب على عقولهم ، إنما أغواهم فغووا ، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الأول ونصح نبيهم الثانى . فالتبعة عليهم أولا وعلى راعيهم بعد ذلك . ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيرا .

اتجه موسى إلى السامرى !

« قال : فما خطبك ياسامرى ؟ » . . أى ماشأنك وما قصتك . وهذه الصيغة تشير إلى جسامة الأمر ، وعظم الفعلة .

« قال : بصرت بما لم يبصروا به ، فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها . وكذلك سولت لى نفسى » ..

وتتكاثر الروايات حول قول السامرى هذا . فما هو الذى بصر به ؟ ومن هو الرسول الذى قبض قبضة من أثره فنبذها ؟ وماعلاقة هذا بعجل الذهب الذى صنعه ؟ وماأثر هذه القبضة فيه ؟

والذى يتردد كثيرا فى هذه الرويات أنه رأى جبريل ــ عليه السلام ــ وهو فى صورته التى ينزل بها إلى الأرض ؛ فقبض قبضة من تحت قدمه ، أو من تحت حافر فرسه ، فألقاها على عجل الذهب ، فكان له هذا الخوار . أو إنها هى التى أحالت كوم الذهب عجلا له خوار ..

والقرآن لا يقرر هنا حقيقة ماحدث ، إنما هو يحكى قول السامرى مجرد حكاية . . ونحن نميل إلى اعتبار هذا عذرا من السامرى وتملصا من تبعة ما حدث . وأنه هو صنع العجل من الذهب الذى قذفه بنو إسرائيل من زينة المصريين التى أخذوها معهم ، وأنه صنعه بطريقة تجعل الريح تصوت فى فراغه فتحدث صوتا كالخوار . ثم قال حكاية أثر الرسول يبرر بها موقفه ، ويرجع الأمر إلى فطنته إلى أثر الرسول !

Marfat.com

وعلى أية حال فقد أعلنه موسى ـ عليه السلام ـ بالطرد من جماعة بنى اسرائيل . مدة حياته . ووكل أمره بعد ذلك إلى الله . وواجهه بعنف فى أمر إلهه الذى صنعه بيده . ليرى قومه بالدليل المادى أنه ليس إلها ، فهو لا يحمى صانعه ، ولا يدفع عن نفسه :

« قال : فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول : لا مساس . وإن لك موعداً لن تخلفه . وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا ، لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا » ..

اذهب مطرودا لا يمسك أحد لا بسوء ولا بخير ولا تمس أحدا ـ وكانت هذه إحدى العقوبات فى ديانة موسى . عقوبة العزل، وإعلان دنس المدنس فلا يقربه أحد ولا يقرب أحدا ـ أما الموعد الآخر فهو موعد العقوبة والجزاء عند الله . . وفى حنق وعنف أمر أن يهوى على عجل الذهب ، فيحرق وينسف ويلقى فى الماء . والعنف إحدى سمات موسى ـ عليه السلام ـ وهو هنا غضبة لله ولدين الله ، حيث يستحب العنف وتحسن الشدة .

وعلى مشهد الإله المزيف يحرق وينسف ، يعلن موسى ـ عليه السلام ـ حقيقة العقيدة .

« إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو . وسع كل شىء علما . » .

وينتهى بهذا الإعلان هذا القدر من قصة موسى فى هذه السورة . تتجلى فيه رحمة الله ورعايته بحملة دعوته وعباده . حتى عندما يبتلون فيخطئون . ولا يزيد السياق شيئا من مراحل القصة بعد هذا ، لأنه بعد ذلك يقع العذاب على بنى إسرائيل بما يرتكبون من آثام وفساد وطغيان . وجو السورة هو جو الرحمة والرعاية بالمختارين . فلا حاجة إلى عرض مشاهد أخرى من القصة فى هذا الجو الظليل .

« كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ ، وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا * يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ، وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً : إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا .

Marfat.com

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ : يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ ، وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَانِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً * يَوْمَئِذٍ لاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً .

« وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا ، وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا * فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ : رَبِّ زِدْنِي عِلْماً .

« وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا : يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ : يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى ؟ * فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ : اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ، فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ : رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ : كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى * وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى .

Marfat.com

« أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ؟ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ * وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى.

فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ * وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ، لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ .

« وَقَالُوا : لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ . أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا : رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ * قُلْ : كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ » ١٣٥

Marfat.com

بدأت السورة بالحديث عن القرآن ، وأنه لم ينزل على الرسول – صلى الله عليه وسلم – ليشقى به أو بسببه . ومن القرآن قصة موسى – عليه السلام – وما يبدو فيها من رعاية الله وعنايته بموسى وأخيه وقومه .

فالآن يعقب السياق على القصة بالعودة إلى القرآن ووظيفته ، وعاقبة من يعرض عنه . ويرسم هذه العاقبة فى مشهد من مشاهد القيامة ، تتضاءل فيه أيام الحياة الدنيا ؛ وتتكشف الأرض من جبالها وتعرى ، وتخشع الأصوات للرحمان، وتعنو الوجوه للحى القيوم . لعل هذا المشهد وما فى القرآن من وعيد يثير مشاعر التقوى فى النفوس ، ويذكرها بالله ويصلها به . . وينتهى هذا المقطع بإراحة بال الرسول – صلى الله عليه وسلم – من القلق من ناحية القرآن الذى ينزل عليه ، فلايعجل فى ترديده خوف أن ينساه ، ولايشقى بذلك فالله ميسره وحافظه. إنما يطلب من ربه أن يزيده علما .

وبمناسبة حرص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن يردد ما يوحى إليه قبل انتهاء الوحى خشية النسيان ، يعرض السياق نسيان آدم لعهد الله . وينتهى بإعلان العداوة بينه وبين إبليس ، وعاقبة من يتذكرون عهد الله ومن يعرضون عنه من ولد آدم . ويرسم هذه العاقبة فى مشهد من مشاهد القيامة كأنما هو نهاية الرحلة التى بدأت فى الملأ الأعلى ، ثم تنتهى إلى هناك مرة أخرى .

وتختم السورة بتسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن إعراض المعرضين وتكذيب المكذبين فلا يشقى بهم ، فلهم أجل معلوم . ولا يحفل بما أوتوه من متاع فى الحياة الدنيا فهو فتنة لهم . وينصرف إلى عبادة الله وذكره فترضى نفسه وتطمئن . ولقد هلكت القرون من قبلهم ، وشاء الله أن يعذر إليهم بالرسول الأخير ، فلينفض يده من أمرهم ويكلهم إلى مصيرهم .

« قل : كل متربص فتربصوا ، فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى » ..

* * *

« كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق ، وقد آتيناك من لدنا ذكرا . من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا . خالدين فيه ، وساء لهم يوم القيامة حملا يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا . يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا . نحن أعلم بما يقولون : إذ يقول أمثلهم طريقة : إن لبثتم إلا يوما » . .

كذلك القصص الذى أوحينا إليك بشأن موسى نقص عليك من أنباء ماقد سبق . نقصه عليك فى القرآن ـ ويسمى القرآن ذكرا ، فهو ذكر لله ولآياته ، وتذكير بما كان من هذه الآيات فى القرون الأولى .

ويرسم للمعرضين عن هذا الذكر ـ ويسميهم المجرمين ـ مشهدا فى يوم القيامة . فهؤلاء المجرمون يحملون أثقالهم كما يحمل المسافر أحماله . ويالسوئها من أحمال ! فإذا نفخ فى البوق للتجمع فالمجرمون يحشرون زرق الوجوه من الكدر والغم . يتخافتون بينهم بالحديث ، لا يرفعون به صوتا من الرعب والهول ، ومن الرهبة المخيمة على ساحة الحشر . وفيم يتخافتون ؟ إنهم يحدسون عما قضوا على الأرض من أيام . وقد تضاءلت الحياة الدنيا فى

Marfat.com

Marfat.com

حسهم ، وقصرت أيامها فى مشاعرهم ، فليست فى حسهم سوى أيام قلائل : «إن لبثتم إلا عشرا» فأما أرشدهم وأصوبهم رأيا فيحسونها أقصر وأقصر : « إن لبثتم إلا يوما » . وهكذا تنزوى تلك الأعمار التى عاشوها على الأرض وتنطوى ؛ ويتضاءل متاع الحياة وهموم الحياة ؛ ويبدو ذلك كله فترة وجيزة فى الزمان ، وشيئا ضئيلا فى القيمة . فما قيمة عشر ليال ولو حفلت باللذائذ كلها وبالمتاع ؟ وما قيمة ليلة ولو كانت دقائقها ولحظاتها مليئة بالسعادة والمسرة . ماقيمة هـذه أو تلك إلى جانب الآماد التى لا نهاية لها ، والتى تنتظرهم بعد الحشر وتمتد بهم بلا انقطاع ؟ !

ويزيد مشهد الهول بروزا ، بالعودة إلى سؤال لهم يسألونه فى الدنيا عن الجبـال مايكون من شأنها يومذاك . فإذا الجواب يصور درجة الهول الذى يواجهونه !

« ويسألونك عن الجبال فقل : ينسفها ربى نسفا ، فيذرها قاعا صفصفاً لاترى فيها عوجا ولا أمتا . يومئـذ يتبعون الداعى لا عوج له ، وخشعت الأصوات للرحمـان ، فلا تسمع إلا همسا . يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمان ورضى له قولا . يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما . وعنت الوجوه للحى القيوم ، وقد خاب من حمل ظلما . ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما » . .

ويتجلى المشهد الرهيب فإذا الجبال الراسية الراسخة قد نسفت نسفا ؛ وإذا هى قاع بعدار تفاع. قاع صفصف خال من كل نتوء ومن كل اعوجاج ، فلقد سويت الأرض فلا علو فيها ولا انخفاض..

وكأنمـا تسكن العاصفة بعد ذلك النسف والتسوية ؛ وتنصت الجموع المحشودة المحشورة ، وتخفت كل حركة وكل نأمة ، ويستمعون الداعى إلى الموقف فيتبعون توجيهه كالقطيع صامتين مستسلمين ، لا يتلفتون ولا يتخلفون ـ وقد كانوا يدعون إلى الهدى فيتخلفون ويعرضون ـ ويعبر عن استسلامهم بأنهم « يتبعون الداعى لاعوج له » تنسيقا لمشهد القلوب والأجسام مع مشهد الجبال التى لاعوج فيها ولا نتوء !

ثم يخيم الصمت الرهيب والسكون الغامر : « وخشعت الأصوات للرحمان فلا تسمع إلا همسا » .. « وعنت الوجوه للحى القيوم » . .

وهكذا يخيم الجلال على الموقف كله ، وتغمر الساحة التى لا يحدها البصر رهبة وصمت

وخشوع . فالكلام همس . والسؤال تخافت . والخشوع ضاف . والوجوه عانية . وجلال الحى القيوم يغمر النفوس بالجلال الرزين . ولا شفاعة إلا لمن ارتضى الله قوله . والعلم كله لله . وهم لا يحيطون به علما . والظالمون يحملون ظلمهم فيلقون الخيبة . والذين آمنوا مطمئنون لا يخشون ظلما فى الحساب ولا هضما لما عملوا من صالحات .

إنه الجلال ، يغمر الجو كله ويغشاه ، فى حضرة الرحمان .

« وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ».

كذلك على هذا النسق نوعنا فى القرآن من صور الوعيد ومواقفه ومشاهده لعله يستجيش فى نفوس المكذبين شعور التقوى ، أو يذكرهم بما سيلقون فى الآخرة فينزجروا . . فذلك إذ يقول الله فى أول السورة . « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى » . .

ولقد كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يلاحق الوحى فيردد ألفاظ القرآن وآياته قبل أن ينتهى الوحى مخافة أن ينسى . وكان ذلك يشق عليه . فأراد ربه أن يطمئن قلبه على الأمانة التى يحملها .

« فتعالى الله الملك الحق . ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه . وقل : رب زدنى علما » . .

فتعالى الله الملك الحق الذى تعنو له الوجوه ؛ ويخيب فى حضرته الظالمون ويأمن فى ظله المؤمنون الصالحون . . هو منزل هـذا القرآن من عليائه ، فلا يعجل به لسانك ، فقد نزل القرآن لحكمة ، ولن يضيعه . إنما عليك أن تدعو ربك ليزيدك من العلم ، وأنت مطمئن إلى مايعطيك ، لا تخشى عليه الذهاب . وما العلم إلا مايعلمه الله فهو الباقى الذى ينفع ولا يضيع . ويثمر ولا يخيب . .

* * *

ثم تجىء قصة آدم ، وقد نسى ماعهد الله به إليه ؛ وضعف أمام الإغراء بالخلود ، فاستمع لوسوسة الشيطان : وكان هذا ابتلاء من ربه له قبل أن يعهد إليه بخلافة الأرض ؛ ونموذجا من فعل إبليس يتخذ أبناء آدم منه عبرة . فلما تم الابتلاء تداركت آدم رحمة الله فاجتباه وهداه . .

Marfat.com

Marfat.com

والقصص القرآني يجيء في السياق متناسقاً معه . وقصة آدم هنا تجيء بعد عجلة الرسول بالقرآن خوف النسيان ، فيذكر في قصة آدم نقطة النسيان . وتجيء في السورة التي تكشف عن رحمة الله ورعايته لمن يجتبيهم من عباده ، فيذكر في قصة آدم أن ربه اجتباه فتاب عليه وهداه . ثم يعقبها مشهد من مشاهد القيامة يصور عاقبة الطائعين من أبنائه وعاقبة العصاة . وكأنما هي العودة من رحلة الأرض إلى المقر الأول ليجزى كل بما قدمت يداه .

فلنتبع القصة كما جاءت في السياق :

« ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » ..

وعهد الله إلى آدم كان هو الأكل من كل الثمار سوى شجرة واحدة ، تمثل المحظور الذي لا بد منه لتربية الإرادة ، وتأكيد الشخصية ، والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر الذي يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عند ما تريد ؛ فلا تستعبدها الرغائب وتقهرها . وهذا هو المقياس الذي لا يخطىء في قياس الرقي البشري فكلما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها والاستعلاء عليها كانت أعلى في سلم الرقي البشري . وكلما ضعفت أمام الرغبة وتهاوت كانت أقرب إلى البهيمية وإلى المدارج الأولى .

من أجل ذلك شاءت العناية الإلهية التي ترعى هذا الكائن الإنساني أن تعده لخلافة الأرض باختبار إرادته ، وتنبيه قوة المقاومة فيه ، وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين الرغائب التي يزينها الشيطان ، وإرادته وعهده للرحمان . وها هي ذي التجربة الأولى تعلن نتيجتها الأولى : « فنسى ولم نجد له عزما » ثم تعرض تفصيلاتها :

« وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى » .

هكذا في إجمال ، يجيء هذا المشهد الذي يفصل في سور أخرى ، لأن السياق هنا سياق النعمة والرعاية . . فيعجل بمظاهر النعمة في الرعاية :

« فقلنا : يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » . .

وكانت هذه رعاية من الله وعنايته أن ينبه آدم إلى عدوه ويحذره عذره ، عقب نشوزه

وعصيانه ، والامتناع عن السجود لآدم كما أمره ربه . « فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » فالشقاء بالكد والعمل والشرود والضلال والقلق والحيرة واللهفة والانتظار والألم والفقدان.. كلها تنتظر هناك خارج الجنة ؛ وأنت فى حمى منها كلها ما دمت فى رحاب الفردوس . . « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » . . فهذا كله مضمون لك ما دمت فى رحابها ، والجوع والعرى ، يتقابلان مع الظمأ والضحوة . وهى فى مجموعها تمثل متاعب الإنسان الأولى فى الحصول على الطعام والكساء ، والشراب والظلال .

ولكن آدم كان غفلا من التجارب . وهو يحمل الضعف البشرى تجاه الرغبة فى البقاء والرغبة فى السلطان . ومن هذه الثغرة نفذ إليه الشيطان :

« فوسوس إليه الشيطان قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ »

لقد لمس فى نفسه الموضع الحساس ، فالعمر البشرى محدود ، والقوة البشرية محدودة . من هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة وإلى الملك الطويل ، ومن هاتين النافذتين يدخل عليه الشيطان ، وآدم مخلوق بفطرة البشر وضعف البشر ، لأمر مقدور وحكمة مخبوءة . . ومن ثم نسى العهد ، وأقدم على المحظور :

« فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . . وعصى آدم ربه فغوى » . .

والظاهر أنها السوءات الحسية تبدت لهما وكانت عنهما مستورة ، وأنها مواضع العفة فى جسديهما . يرجح ذلك أنهما أخذا يسترانها بورق الجنة يشبكانه ليستر هذه المواضع . وقد يكون ذلك إيذانا باستيقاظ الدوافع الجنسية فى كيانهما . فقبل يقظة هذه الدوافع لا يحس الإنسان بالخجل من كشف مواضع العفة ولا ينتبه إليها ولكنه ينتبه إلى العورات عند استيقاظ دوافع الجنس ويخجل من كشفها .

وربما كان حظر هذه الشجرة عليهما ، لأن ثمارها مما يوقظ هذه الدوافع فى الجسم تأجيلا لها فترة من الزمان كما يشاء الله . وربما كان نسيانهما عهد الله وعصيانهما له تبعه هبوط فى عزيمتهما وانقطاع عن الصلة بخالقهما فسيطرت عليهما دوافع الجسد وتنبهت فيهما دوافع الجنس. وربما كانت الرغبة فى الخلود تجسمت فى استيقاظ الدوافع الجنسية للتناسل ؛ فهذه هى الوسيلة الميسرة للإنسان للامتداد وراء العمر الفردى المحدود . . كل هذه فروض لتفسير مصاحبة

Marfat.com

ظهور سوآتهما لهما للأكل من الشجرة . فهو لم يقل : فبدت سوآتهما . إنما قال : فبدت لهما سوآتهما . مما يؤذن أنها كانت محجوبة عنهما فظهرت لهما بدافع داخلى من إحساسهما . وقد جاء فى موضع آخر عن إبليس : « ليبدى لهما ما ووری عنهما من سوآتهما » ، وجاء : « ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما » وقد يكون اللباس الذى نزعه الشيطان ليس لباسا ماديا إنما هو شعور ساتر ، قد يكون هو شعور البراءة والطهارة والصلة بالله . وعلى أية حال فهى مجرد فروض كما أسلفنا لا نؤكدها ولا نرجح واحدا منها . إنما هى لتقرب صورة التجربة الأولى فى حياة البشرية .

ثم أدركت آدم وزوجه رحمة الله ، بعد ما عصاه ، فقد كانت هذه هى التجربة الأولى :

« ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » . .

بعد ما استغفر آدم وندم واعتذر . ولا يذكر هذا هنا لتبدو رحمة الله فى الجو وحدها . .

ثم صدر الأمر إلى الخصمين اللدودين أن يهبطا إلى أرض المعركة الطويلة بعد الجولة الأولى:

« قال : اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو » . .

وبذلك أعلنت الخصومة فى الثقلين . فلم يعد هناك عذر لآدم وبنيه من بعده أن يقول أحد منهم إنما أخذت على غرة ومن حيث لا أدرى . فقد درى وعلم ؛ وأعلن هذا الأمر العلوى فى الوجود كله : « بعضكم لبعض عدو » !

ومع هذا الإعلان الذى دوت به السماوات والأرضون ، وشهده الملائكة أجمعون . شاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسله بالهدى . قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم . فأعلن لهم يوم أعلن الخصومة الكبرى بين آدم وإبليس ، أنه آتيهم بهدى منه ، فمجاز كلا منهم بعد ذلك حسبما ضل أو اهتدى :

« فإما يأتينكم منى هدى ، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى . قال : رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » . .

يجىء هذا المشهد بعد القصة كأنه جزء منها ، فقد أعلن عنه فى ختامها فى الملأ الأعلى . فذلك أمر إذن قضى فيه منذ بعيد ولا رجعة فيه ولا تعديل .

Marfat.com

Marfat.com

« فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » . . فهو فى أمان من الضلال والشقاء باتباع هدى الله . وهما ينتظران خارج عتبات الجنة . ولكن الله يقى منهما من اتبع هداه . والشقاء ثمرة الضلال ولو كان صاحبه غارقا فى المتاع. فهذا المتاع ذاته شقوة .شقوة فى الدنيا وشقوة فى الآخرة . وما من متاع حرام ، إلا وله غصة تعقبه وعقابيل تتبعه . وما يضل الإنسان عن هدى الله إلا ويتخبط فى القلق والحيرة والتكفؤ والاندفاع من طرف إلى طرف لا يستقر ولا يتوازن فى خطاه . والشقاء قرين التخبط ولو كان فى المرتع المرع ! ثم الشقوة الكبرى فى دار البقاء . ومن اتبع هدى الله فهو فى نجوة من الضلال والشقاء فى الأرض ، وفى ذلك عوض عن الفردوس المفقود ، حتى يؤوب إليه فى اليوم الموعود .

« ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا » والحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة، ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع . إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه . ضنك الحيرة والقلق والشك . ضنك الحرص والحذر : الحرص على مافى اليد والحذر من الفوت . ضنك الجرى وراء بارق المطامع والحسرة على كل مايفوت . وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا فى رحاب الله . وما يحس راحة الثقة إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها . . إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولا وعرضا وعمقا وسعة ، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان .

« ومن أعرض عن ذكرى» وانقطع عن الاتصال بى « فإن له معيشة ضنكا » .. « ونحشره يوم القيامة أعمى » .. وذلك ضلال من نوع ضلاله فى الدنيا . وذلك جزاء على إعراضه عن الذكر فى الأولى . حتى إذا سأل : « رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ » كان الجواب : « كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » !

ولقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه . أسرف فألقى بالهدى من بين يديه وهو أنفس ثراء وذخر، وأسرف فى انفاق بصره فى غير ماخلق له فلم يبصر من آيات الله شيئاً . فلا جرم يعيش معيشة ضنكا ! ويحشر فى يوم القيامة أعمى !

اتساق فى التعبير . واتساق فى التصوير .. هبوط من الجنة وشقاء وضلال ، يقابله عوده إلى

الجنة ونجوة من الشقاء والضلال . وفسحة فى الحياة يقابلها الضنك ، وهداية يقابلها العمى ..

ويجيء هـذا تعقيبا على قصة آدم ـ وهى قصة البشرية جميعا ـ فيبدأ الاستعراض فى الجنة ، وينتهى فى الجنة ، كما مر فى سورة الأعراف ، مع الاختلاف فى الصور الداخلة فى الاستعراض هنا وهناك حسب اختلاف السياق . .

* * *

فإذا انتهت هذه الجولة بطرفيها أخذ السياق فى جولة حول مصارع الغابرين ؛ وهى أقرب فى الزمان من القيامة ، وهى واقع تشهده العيون إن كانت القيامة غيبا لا تراه الأبصار :

« أفلم يهد لهم كم أهلـكنا قبلهم من القرون يمشون فى مسا كنهم ؟ إن فى ذلك لآيات لأولى النهى . ولولا كلمة سبقت من ربك لـكان لزاما وأجل مسمى » .

وحين تجول العين والقلب فى مصارع القرون . وحين تطالع العين آثارهم ومسا كنهم عن كثب ، وحين يتملى الخيال الدور وقد خلت من أهلها الأول ؛ ويتصور شخوصهم الذاهبة ، وأشباحهم الهاربة ، وحركاتهم وسكناتهم ، وخواطرهم وأحلامهم ، وهمومهم وآمالهم . . حين يتأمل هذا الحشد من الأشباح والصور والانفعالات والمشاعر .. ثم يفتح عينه فلا يرى من ذلك كله شيئا إلا الفراغ والخواء . . عندئذ يستيقظ للهوة التى تفغر فاها لتبتلع الحاضر كما ابتلعت الغابر . وعندئذ يدرك يد القدرة التى أخذت القرون الأولى وهى قادرة على أن تأخذ مايليها . وعندئذ يعى معنى الإنذار ، والعبرة أمامه معروضة للأنظار . فما لهؤلاء القوم لا يهتدون وفى مصارع القرون مايهدى أولى الألباب ؟ : « إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » !

ولولا أن الله وعدهم ألا يستأصلهم بعذاب الدنيا ، لحكمة عليا . لحل بهم ماحل بالقرون الأولى . ولـكنها كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى أمهلهم إليه : « ولولا كلمة سبقت من ربك لـكان لزاما ، وأجل مسمى » .

* * *

وإذا كانوا مؤخرين إلى أجل ، ممهلين لا مهملين ، فلا عليك ـ يا محمد ـ منهم ولا مما

Marfat.com

Marfat.com

أوتوه من زينة الحياة الدنيا ليكون ابتلاء لهم ، فإنما هى الفتنة ، وما أعطاكم الله إنما هو خير مما أعطاهم ابتلاء :

« فاصبر على مايقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى . ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى . وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى » ..

فاصبر على مايقولون من كفر واستهزاء وجحود وإعراض ، ولا يضق صدرك بهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات . واتجه إلى ربك . سبح بحمده قبل طلوع الشمس وقبل غروبها . فى هدأة الصبح وهو يتنفس ويتفتح بالحياة ؛ وفى هدأة الغروب والشمس تودع ، والكون يغمض أجفانه ، وسبح بحمده فترات من الليل والنهار . . كن موصولا بالله على مدار اليوم .. « لعلك ترضى » . .

إن التسبيح بالله اتصال . والنفس التى تتصل تطمئن وترضى . ترضى وهى فى ذلك الجوار الرضى ؛ وتطمئن وهى فى ذلك الحمى الآمن .

فالرضى ثمرة التسبيح والعبادة ، وهو وحده جزاء حاضر ينبت من داخل النفس ويترعرع فى حنايا القلب .

اتجه إلى ربك بالعبادة « ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم » من عرض الحياة الدنيا، من زينة ومتاع ومال وأولاد وجاه وسلطان . « زهرة الحياة الدنيا » التى تطلعها كما يطلع النبات زهرته لامعة جذابة . والزهرة سريعة الذبول على مابها من رواء وزواق . فإنما نمتعهم بها ابتلاء « لنفتنهم فيه » فنكشف عن معادنهم ، بسلوكهم مع هذه النعمة وذلك المتاع . وهو متاع زائل كالزهرة سرعان ماتذبل « ورزق ربك خير وأبقى » وهو رزق للنعمة لا للفتنه . رزق طيب خير باق لا يذبل ولا يخدع ولا يفتن .

وما هى دعوة للزهد فى طيبات الحياة ، ولكنها دعوة إلى الاعتزاز بالقيم الأصيلة الباقية وبالصلة بالله والرضى به . فلا تتهاوى النفوس أمام زينة الثراء ، ولا تفقد اعتزازها بالقيم العليا ، وتبقى دائما تحس حرية الاستعلاء على الزخارف الباطلة التى تبهر الأنظار . .

Marfat.com

« وأمر أهلك بالصلاة » . . فأول واجبات الرجل المسلم أن يحول بيته إلى بيت مسلم ؛ وأن يوجه أهله إلى أداء الفريضة التى تصلهم معه بالله ، فتوحد اتجاههم العلوى فى الحياة . وما أروح الحياة فى ظلال بيت أهله كلهم يتجهون إلى الله .

« واصطبر عليها » . . على إقامتها كاملة ؛ وعلى تحقيق آثارها . إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . وهذه هى آثارها الصحيحة . وهى فى حاجة إلى اصطبار على البلوغ بالصلاة إلى الحد الذى تثمر فيه ثمارها هذه فى المشاعر والسلوك . وإلا فما هى صلاة مقامة . إنما هى حركات وكلمات.

هذه الصلاة والعبادة والاتجاه إلى الله هى تكاليفك والله لا ينال منها شيئا . فالله غنى عنك وعن عبادة العباد : « لا نسألك رزقا نحن نرزقك » إنما هى العبادة تستجيش وجدان التقوى « والعاقبة للتقوى » . فالإنسان هو الرابح بالعبادة فى دنياه وأخراه . يعبد فيرضى ويطمئن ويستريح . ويعبد فيجزى بعد ذلك الجزاء الأوفى . والله غنى عن العالمين .

* * *

وقرب ختام السورة يعود بالحديث إلى أولئك الكبراء المتعين المكذبين ، الذين يطلبون إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ما جاءهم بهذا القرآن أن يأتيهم بآية من ربه : هذا القرآن الذى يبين ويوضح ما جاءت به الرسالات قبله :

« وقالوا : لولا يأتينا بآية من ربه . أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى ؟ »

فليس إلا التعنت وإلا المكابرة والرغبة فى الاقتراح هى التى تملى مثل هذا الاقتراح . وإلا فآية القرآن كافية . وهو يصل حاضر الرسالة بماضيها ، ويوحد طبيعتها واتجاهها ، ويبين ويفصل ما أجمل فى الصحف الأولى .

ولقد أعذر الله للمكذبين فأرسل إليهم خاتم المرسلين ـ صلى الله عليه وسلم ـ

« ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا : لولا أرسلت إلينا رسولا ، فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى » . .

وهم لم يذلوا ولم يخزوا لحظة أن كان هذا النص يتلى عليهم . إنما هو تصوير لمصيرهم المحتوم . الذى يذلون فيه ويخزون : فلعلهم حينذاك قائلون : « ربنا لولا أرسلت إلينا

Marfat.com

رسولا . . . » فها هي ذي الحجة قد قطعت عليهم ، فلم يعد لهم من عذر ولا عذير !

وعند ما يصل السياق إلى تصوير المصير المحتوم الذي ينتظرهم يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن ينفض يده منهم ، فلا يشق بهم ، ولا يكربه عدم إيمانهم ، وأن يعلن إليهم أنه متربص بهم ذلك المصير ، فليتربصوا هم كيف يشاءون :

« قل : كل متربص فتربصوا . فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى » ..

* * *

بذلك تختم السورة التي بدأت بنفي إرادة الشقاء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من تنزيل القرآن ، وحددت وظيفة القرآن : « إلا تذكرة لمن يخشى » . . والختام يتناسق مع المطلع كل التناسق . فهو التذكرة الأخيرة لمن تنفعه التذكرة . وليس بعد البلاغ إلا انتظار العاقبة . والعاقبة بيد الله . .

في ظلال القرآن

الجزء السابع عشر

بقلم

سيد قطب

Marfat.com

Marfat.com

من سورة الأنبياء والحج

بسم الله الرحمن الرحيم

Marfat.com

سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ مَكِّيَّة
وآياتها ١١٢ نزلت بعد سورة ابراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ① مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا : هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ؟ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ؟ * قَالَ : رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، بَلِ افْتَرَاهُ ، بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ * مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ * ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ .

لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ * وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا : يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ .

« وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ .

« أَمِ ٱتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ؟ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ .

« أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ! قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ .

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ .

« وَقَالُوا : ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَانُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ ! بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ، وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَى ، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ : إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كَذَلِكَ نَجْزِي ٱلظَّالِمِينَ.

« أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ، وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ؟ * وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ، وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ، كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

« وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ، أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ ، وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » (٣٥)

Marfat.com

هذه السورة ، مكية تعالج الموضوع الرئيسى الذى تعالجه السور المكية . . موضوع العقيدة . . تعالجه فى ميادنيه الكبيرة : ميادين التوحيد ، والرسالة والبعث .

وسياق السورة يعالج ذلك الموضوع بعرض النواميس الكونية الكبرى وربط العقيدة بها . فالعقيدة جزء من بناء هذا الكون ، يسير على نواميسه الكبرى ؛ وهى تقوم على الحق الذى قامت عليه السماوات والأرض ، وعلى الجد الذى تدبر به السماوات والأرض ، وليست لعبا ولا باطلا ، كما أن هذا الكون لم يخلق لعبا ، ولم يشب خلقه باطل : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين » . .

ومن ثم يجول بالناس . . بقلوبهم وأبصارهم وأفكارهم . . بين مجالى الكون الكبرى : السماء والأرض . الرواسى والفجاج . الليل والنهار . الشمس والقمر . . . موجها أنظارهم إلى وحدة النواميس التى تحكمها وتصرفها ، وإلى دلالة هذه الوحدة على وحدة الخالق المدبر ، والمالك الذى لا شريك له فى الملك ، كما أنه لا شريك له فى الخلق . . « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » . .

ثم يوجه مداركهم إلى وحدة النواميس التى تحكم الحياة فى هذه الأرض ، وإلى وحدة مصدر الحياة : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » وإلى وحدة النهاية التى ينتهى إليها الأحياء : « كل نفس ذائقة الموت » . . وإلى وحدة المصير الذى إليه ينتهون : « ثم إلينا ترجعون » . .

والعقيدة وثيقة الارتباط بتلك النواميس الكونية الكبرى . فهى واحدة كذلك وإن تعدد الرسل على مدار الزمان : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » . . وقد اقتضت مشيئة الله أن يكون الرسل كلهم من البشر : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم » . .

وكما أن العقيدة وثيقة الارتباط بنواميس الكون الكبرى ، فكذلك ملابسات هذه العقيدة فى الأرض . فالسنة التى لا تتخلف أن يغلب الحق فى النهاية وأن يزهق الباطل ، لأن الحق قاعدة كونية وغلبته سنة إلهية : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » . . وأن يحل الهلاك بالظالمين المكذبين ، وينجى الله الرسل والمؤمنين : « ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين » . . وأن يرث الأرض عباد الله الصالحون :

Marfat.com

Marfat.com

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » ..

ومن ثم يستعرض السياق أمة الرسل الواحدة فى سلسلة طويلة استعراضا سريعا . يطول بعض الشىء عند عرض حلقة من قصة ابراهيم ـ عليه السلام ـ وعند الإشارة إلى داود وسليمان . ويقصر عند الإشارة إلى قصص نوح ، وموسى ، وهارون ، ولوط ، واسماعيل ، وإدريس ، وذى الكفل، وذى النون ، وزكريا، ويحيى ، وعيسى عليهم السلام .

وفى هذا الاستعراض تتجلى المعانى التى سبقت فى سياق السورة . تتجلى . فى صورة وقائع فى حياة الرسل والدعوات ، بعد ماتجلت فى صورة قواعد عامة ونواميس .

كذلك يتضمن سياق السورة بعض مشاهد القيامة ؛ وتتمثل فيها تلك المعانى نفسها فى صورة واقع يوم القيامة ..

وهكذا تتجمع الإيقاعات المنوعة فى السورة على هدف واحد ، هو استجاشة القلب البشرى لإدراك الحق الأصيل فى العقيدة التى جاء بها خاتم الرسل ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا يتلقاها الناس غافلين معرضين لاهين كما يصفهم فى مطلع السورة : « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم ... »

إن هذه الرسالة حق وجد . كما أن هذا الكون حق وجد . فلا مجال للهو فى استقبال الرسالة ؛ولا مجال لطلب الآيات الخارقة ؛ وآيات الله فى الكون وسنن الكون كله . توحى بأنه الخالق القادر الواحد ، والرسالة من لدن ذلك الخالق القادر الواحد .

* * *

نظم هذه السورة من ناحية بنائه اللفظى وإيقاعه الوسيقى هو نظم التقرير ، الذى يتناسق مع موضوعها ، ومع جو السياق فى عرض هذا الموضوع . يبدو هذا واضحاً بموازنته بنظم سورتى مريم وطه مثلا . فهناك الإيقاع الرخى الذى يناسب جوهما . وهنا الإيقاع المستقر الذى يناسب موضوع السورة وجوها ..

ويزيد هذا وضوحا بموازنة نظم قصة ابراهيم ـ عليه السلام ـ فى مريم ونظمها هنا .

وكذلك بالتأمل فى الحلقة التى أخذت منها هنا الحلقة التى أخذت منها هناك . ففى سورة مريم أخذت حلقة الحوار الرخى بين إبراهيم وأبيه . أما هنا فجاءت حلقة تحطيم الأصنام ، وإلقاء إبراهيم فى النار . ليتم التناسق فى الموضوع والجو والنظم والإيقاع .

* * *

والسياق فى هذه السورة يمضى فى أشواط أربعة :

الأول : ويبدأ بمطلع قوى الضربات ، يهز القلوب هزا ، وهو يلفتها إلى الخطر القريب المحدق ، وهى عنه غافلة لاهية : « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ... الخ » .

ثم يهزها هزة أخرى بمشهد من مصارع الغابرين ، الذين كانوا عن آيات ربهم غافلين ، فعاشوا سادرين فى الغى ظالمين : « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون . قالوا : يا ويلنا ! إنا كنا ظالمين . فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين » . .

ثم يربط بين الحق والجد فى الدعوة ، والحق والجد فى نظام الكون . وبين عقيدة التوحيد ونواميس الوجود . وبين وحدة الخالق المدبر ووحدة الرسالة والعقيدة . ووحدة مصدر الحياة ونهايتها ومصيرها على النحو الذى أسلفناه .

فأما الشوط الثانى فيرجع بالحديث إلى الكفار الذين يواجهون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالسخرية والاستهزاء ، بينما الأمر جد وحق ، وكل ما حولهم يوحى باليقظة والاهتمام . وهم يستعجلون العذاب والعذاب منهم قريب . . وهنا يعرض مشهدا من مشاهد القيامة . ويلفتهم إلى ما أصاب المستهزئين بالرسل قبلهم . ويقرر أن ليس لهم من الله من عاصم . ويوجه قلوبهم إلى تأمل يد القدرة وهى تنقص الأرض من أطرافها ، وتزوى رقعتها وتطويها ، فلعل هذا أن يوقظهم من غفلتهم التى جاءتهم من طول النعمة وامتداد الرخاء . .

وينتهى هذا الشوط بتوجيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بيان وظيفته : « قل : إنما أنذركم بالوحى » وإلى الخطر الذى يتهددهم فى غفلتهم : « ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون » حتى تنصب الموازين القسط وهم فى غفلتهم سادرون .

Marfat.com

Marfat.com

ويتضمن الشوط الثالث استعراض أمة النبيين ، وفيها تتجلى وحدة الرسالة والعقيدة . كما تتجلى رحمة الله بعباده الصالحين وإنجاؤه لهم وأخذ المكذبين .

أما الشوط الرابع والأخير فيعرض النهاية والمصير ، فى مشهد من مشاهد القيامة المثيرة : ويتضمن ختـام السورة بمثل ما بدأت : إيقاعا قويا ، وإنذارا صريحا ، وتخلية بينهم وبين مصيرهم المحتوم . .

* * *

والآن نأخذ فى دراسة الشوط الأول بالتفصيل . .

« اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا . هل هذا إلا بشر مثلكم. أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ؟ قال : ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم . بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون . ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها . . أفهم يؤمنون ؟ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام ، وما كانوا خالدين . ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين » . .

مطلع قوى يهز الغافلين هزا . والحساب يقترب وهم فى غفـلة . والآيات تعرض وهم معرضون عن الهدى . والموقف جد وهم لا يشعرون بالموقف وخطورته . وكلما جاءهم من القرآن جديد قابلوه باللهو والاستهتار ، واستمعوه وهم هازلون يلعبون .. « لاهية قلوبهم».. والقلوب هى موضع التأمل والتدبر والتفكير .

إنها صـورة للنفوس الفارغة التى لا تعرف الجد ، فتلهو فى أخطر المواقف ، وتهزل فى مواطن الجد ؛ وتستهتر فى مواقف القداسـة . فالذكر الذى يأتيهم « من ربهم » فيستقبلونه لاعبين ، بلا وقار ولا تقديس . والنفس التى تفرغ من الجد والاحتفال والقداسة تنتهى إلى حالة من التفاهة والجدب والانحلال ؛ فلا تصلح للنهوض بعبء ، ولا الاضطلاع بواجب ، ولا القيام بتكليف . وتغدو الحياة فيها عاطلة هينة رخيصة !

إن روح الاستهتار التى تلهو بالمقدسات روح مريضة . والاستهتار غير الاحتمال . فالاحتمال قوة جادة شاعرة . والاستهتار فقدان للشعور واسترخاء .

وهؤلاء الذين يصفهم القرآن الكريم كانوا يواجهون ما ينزل من القرآن ليكون دستورا للحياة ، ومنهاجا للعمل ، وقانونا للتعامل . . باللعب . ويواجهون اقتراب الحساب بالغفلة . وأمثال هؤلاء موجودون فى كل زمان . فحيثما خلت الروح من الجد والاحتفال والقداسة صارت إلى هذه السورة المريضة الشائهة التى يرسمها القرآن . والتى تحيل الحياة كلها إلى هزل فارغ ، لا هدف له ولا قوام !

ذلك بينما كان المؤمنون يتلقون هذه السورة بالاهتمام الذى يذهل القلوب عن الدنيا وما فيها :

جاء فى ترجمة الآمدى لعامر ابن ربيعة أنه كان قد نزل به رجل من العرب فأكرم مثواه . . ثم جاءه هذا الرجل وقد أصاب أرضا فقال له : إنى استقطعت من رسول الله ـصلى الله عليه وسلمـ واديا فى العرب . وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك . فقال عامر : لا حاجة لى فى قطيعتك . نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا : « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون » . .

وهذا هو فرق ما بين القلوب الحية المتلقية المتأثرة ، والقلوب الميتة المغلقة الخامدة . التى تكفن ميتتها باللهو ؛ وتوارى خمودها بالاستهتار ؛ ولا تتأثر بالذكر لأنها خاوية من مقومات الحياة .

« وأسروا النجوى الذين ظلموا » . . وقد كانوا يتناجون فيما بينهم ويتآمرون خفية ، يقولون عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « هل هذا إلا بشر مثلكم ؟ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ؟ » .

فهم على موت قلوبهم وفراغها من الحياة لم يكونوا يملكون أنفسهم من أن تتزلزل بهذا القرآن ؛ فكانوا يلجأون فى مقاومة تأثيره الطاغى إلى التعلات ، يقولون : إن محمدا بشر . فكيف تؤمنون لبشر مثلكم ؟ وإن ما جاء به السحر . فكيف تجيئون للسحر وتنقادون له وفيكم عيون وأنتم تبصرون ؟ !

عند ذلك وكل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمرهم وأمره إلى ربه ، وقد أخبره الله بنجواهم التى أداروها بينهم خفية ؛ وأطلعه على كيدهم الذى يتقون به القرآن وأثره !

Marfat.com

Marfat.com

« قال : ربى يعلم القول فى السماء والأرض ، وهو السميع العليم » .

فما من نجوى فى مكان على الأرض إلا وهو مطلع عليها ـ وهو الذى يعلم القول فى السماء والأرض .. ومامن مؤامرة يحدثونها إلا وهو كاشفها ومطلع رسوله عليها ـ وهو السميع العليم.

ولقد حاروا كيف يصفون هذا القرآن وكيف يتقونه . فقالوا : إنه سحر . وقالوا : إنه أحلام مختلطة يراها محمد ويرويها . وقالوا : إنه شعر . وقالوا : إنه افتراه وزعم أنه وحى من عند الله :

« بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر » . .

ولم يثبتوا على صفة له ، ولا على رأى يرونه فيه ، لأنهم إنما يتمحلون ويحاولون أن يعللوا أثره المزلزل فى نفوسهم بشتى التعلات فلا يستطيعون ؛ فينتقلون من ادعاء إلى ادعاء ، ومن تعليل إلى تعليل ، حائرين غير مستقرين . . ثم يخلصون من الحرج بأن يطلبوا بدل القرآن خارقة من الخوارق التى جاء بها الأولون :

« فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » . .

ولقد جاءت الخوارق من قبل ، فلم يؤمن بها من جاءتهم ، فحل بهم الهلاك ، وفقا لسنة الله التى لا تتخلف فى إهلاك من يكذبون بالخوارق :

« ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها » . .

ذلك أن من يبلغ به العناد ألا يؤمن بالخارقة المادية المحسوسة ، لا يبقى له عذر ، ولا يرجى له صلاح . فيحق عليه الهلاك .

ولقد تكررت الآيات ، وتكرر التكذيب بها ، وتكرر كذلك إهلاك المكذبين . . فما بال هؤلاء سيؤمنون بالخارقة لو جاءتهم ؟ وهم ليسوا سوى بشر كهؤلاء الهالكين !

« أفهم يؤمنون » . .

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام ، وما كانوا خالدين » . .

فقد اقتضت حكمة الله أن يكون الرسل من البشر ، يتلقون الوحى فيدعون به الناس . وما كان الرسل من قبل إلا رجالا ذوى أجساد . وما جعل الله لهم أجسادا ثم جعلهم

Marfat.com

لا يأكلون الطعام . فأكل الطعام من مقتضيات الجسدية ، والجسدية من مقتضيات البشرية . وهم بحكم أنهم بشر مخلوقون لم يكونوا خالدين . . هذه هي سنة الله المطردة فليسألوا أهل الكتاب الذي عرفوا الأنبياء من قبل . إن كانوا هم لا يعلمون .

لقد كان الرسل من البشر ليعيشوا حياة البشر ؛ فتكون حياتهم الواقعية مصداق شريعتهم . وسلوكهم العملي نموذجا حيا لما يدعون إليه الناس . فالكلمة الحية الواقعية هي التي تؤثر وتهدي ، لأن الناس يرونها ممثلة في شخص مترجمة إلى حياة .

ولو كان الرسل من غير البشر لا يأكلون الطعام ، ولا يمشون في الأسواق ، ولا يعاشرون النساء . ولا تعتلج في صدورهم عواطف البشر وانفعالاتهم لما كانت هناك وشيجة بينهم وبين الناس . فلا هم يحسون دوافع البشر التي تحركهم ، ولا البشر يتأسون بهم ويقتدون .

وأيما داعية لا يحس مشاعر الذين يدعوهم ولا يحسون مشاعره ، فإنه يقف على هامش حياتهم ، لا يتجاوب معهم ولا يتجاوبون معه . ومهما سمعوا من قوله فلن يحركهم للعمل بما يقول . لما بينه وبينهم من قطيعة في الحس والشعور .

وأيما داعية لا يصدق فعله قوله . فإن كلماته تقف على أبواب الآذان لا تتعداها إلى القلوب . مهما تكن كلماته بارعة وعباراته بليغة . فالكلمة البسيطة التي يصاحبها الانفعال ، ويؤيدها العمل . هي الكلمة المثمرة التي تحرك الآخرين إلى العمل .

والذين كانوا يقترحون أن يكون الرسول من الملائكة ، كالذين يقترحون اليوم أن يكون الرسول منزها عن انفعالات البشر . . كلهم يتعنتون ويغفلون عن هذه الحقيقة . وهي أن الملائكة لا يحيون حياة البشر بحكم تكوينهم ولا يمكن أن يحيوها . . لا يمكن أن يحسوا بدوافع الجسد ومقتضياته ، ولا بمشاعر هذا المخلوق الآدمي ذي التكوين الخاص . وأن الرسول يجب أن يحس بهذه الدوافع والمشاعر ، وأن يزاولها في حياته الواقعية ليرسم بحياته دستور الحياة العملي لمتبعيه من الناس .

وهنالك اعتبار آخر ، وهو أن شعور الناس بأن الرسول ملك لا يثير في نفوسهم الرغبة في تقليده في جزئيات حياته ؛ لأنه من جنس غير جنسهم ، وطبيعة غير طبيعتهم ، فلا مطمع لهم في تقليد منهجه في حياته اليومية . وحياة الرسل أسوة دافعة لغيرهم من الناس .

Marfat.com

وهذا وذلك فوق مافى ذلك الاقتراح من غفلة عن تكريم الله للجنس البشر كله ، باختيار الرسل منه ، ليتصلوا بالملأ الأعلى ويتلقوا عنه .

لذلك كله اقتضت سنة الله الجارية اختيار الرسل من البشر ؛ وأجرت عليهم كل مايجرى على البشر من ولادة وموت . ومن عواطف وانفعالات . ومن آلام وآمال . ومن أكل للطعام ومعاشرة للنساء . وجعلت أكبر الرسل وأكملهم وخاتمهم وصاحب الرسالة الباقية فيهم .. أكمل نموذج لحياة الإنسان على الأرض ، بكل مافيها من دوافع وتجارب وعمل وحياة .

تلك سنة الله فى اختيار الرسل . ومثلها سنته فى إنجائهم ومن معهم ، وإهلاك المسرفين الظالمين المكذبين :

« ثم صدقناهم الوعد ، فأنجيناهم ومن نشاء ، وأهلكنا المسرفين » ..

فهى كذلك سنة جارية كسنة اختيارهم . وقد وعدهم الله النجاة هم والمؤمنون معهم إيمانا حقيقيا يصدقه العمل ؛ فصدقهم وعده ، وأهلك ، الذين كانوا يسرفون عليهم ، ويتجاوزون الحد معهم .

***

هذه السنة يخوف الله بها المشركين الذين كانوا يواجهون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإسراف عليه ، وتكذيبه ، وإيذائه والمؤمنين معه . وينبههم إلى أنه رحمة بهم لم يرسل إليهم بخارقة مادية ، يتبعها هلاكهم ، إذا هم كذبوا بها كما كذب من قبلهم . إنما أرسل إليهم بكتاب يشرفهم لأنه بلغتهم ، ويقوم حياتهم ، ويخلق منهم أمة ذات سيادة فى الأرض وذكر فى الناس . وهو مفتوح للعقول تتدبره ، وترتفع به فى سلم البشرية :

« لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم . أفلا تعقلون ؟ » ..

إن معجزة القرآن معجزة مفتوحة للأجيال ، وليست كالخوارق المادية التى تنقضى فى جيل واحد ، ولا يتأثر بها إلا الذين يرونها من ذلك الجيل .

ولقد كان به ذكر العرب ومجدهم حين حملوا رسالته فشرقوا بها وغربوا . فلم يكن لهم قبله ذكر ، ولم يكن معهم مايعطونه للبشرية فتعرفه لهم وتذكرهم به . ولقد ظلت البشرية تذكرهم وترفعهم طالما استمسكوا بهذا الكتاب ، وقادوا به البشرية قرونا طويلة ، فسعدوا

وسعدت بما معهم من ذلك الكتاب . حتى إذا تخلوا عنه تخلت عنهم البشرية ، وانحط فيها ذكرهم ، وصاروا ذيلا للقافلة يتخطفهم الناس ، وكانوا بكتابهم يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون !

وما يملك العرب من زاد يقدمونه للبشرية سوى هـذا الزاد . وما يملكون من فكرة يقدمونها للإنسانية سوى هـذه الفكرة . فإن تقدموا للبشرية بكتابهم ذاك عرفتهم وذكرتهم ورفعتهم ، لأنها تجد عندهم ماتنتفع به . فأما إذا تقدموا إليها عربا فحسب بجنسية العرب . فما هم ؟ وماذاك ؟ وما قيمة هـذا النسب بغير هذا الكتاب ؟ إن البشرية لم تعرفهم إلا بكتابهم وعقيدتهم وسلوكهم المستمد من ذلك الكتاب وهذه العقيدة . . لم تعرفهم لأنهم عرب فحسب . فذلك لا يساوى شيئا فى تاريخ البشرية ، ولا مدلول له فى معجم الحضارة ! إنما عرفتهم لأنهم يحملون حضارة الإسلام ومثله وفكرته . وهذا أمر له مدلوله فى تاريخ البشرية ومعجم الحضارة !

.. ذلك ما كان يشير إليه القرآن الكريم ، وهو يقول للمشركين ، الذين كانوا يواجهون كل جديد يأتيهم منه باللهو والإعراض والغفلة والتكذيب : « لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم . أفلا تعقلون ؟ » .

ولقد كانت رحمة بهم أن ينزل الله لهم هـذا القرآن . ولا يأتيهم بالخارقة التى يطلبونها . فلا يأخذهم وفق سنته بالقاصمة كالقرى التى كذبت فاستأصلت .. وهنا يعرض مشهدا حيا من القصم والاستئصال :

« وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون .. قالوا : ياويلنا إنا كنا ظالمين . فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين » . .

والقصم أشد حركات القطع . وجرسها اللفظى يصور معناها ، ويلقى ظل الشدة والعنف والتحطيم والقضاء الحاسم على القرى التى كانت ظالمة . فإذا هى مدمرة محطمة . . « ثم أنشأنا بعدها قوما آخرين » .

وهو عند القصم يوقع الفعل على القرى ليشمل مافيها ومن فيها . وعند الانشاء يوقع الفعل على القوم الذين ينشأون ويعيدون إنشاء القرى . . وهذه حقيقة فى ذاتها .

Marfat.com

فالدمار يحل بالديار والديّار . والإنشاء يبدأ بالديارين فيعيدون إنشاء الدور .. ولكن عرض هذه الحقيقة فى هذه الصورة يضخم عملية القصم والتدمير ، وهذا هو الظل المراد إلقاؤه بالتعبير على طريقة التصوير[1] ؟

ثم ننظر فنشهد حركة القوم فى تلك القرى وبأس الله يأخذهم ، وهم كالفيران فى المصيدة يضطربون من هنا إلى هناك قبيل الخمود :

« فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون » . .

يسارعون بالخروج من القرية ركضاً وعدوا ، وقد تبين لهم أنهم مأخوذون ببأس الله . كأنما الركض ينجيهم من بأس الله . وكأنما هم أسرع عدوا فلا يلحق بهم حيث يركضون ! ولكنها حركة الفأر فى المصيدة بلا تفكير ولا شعور .

عندئذ يتلقون التهكم المرير :

« لا تركضوا ، وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون » !

لا تركضوا من قريتكم . وعودوا إلى متاعكم الهنيء وعيشكم الرغيد وسكنكم المريح . . عودوا لعلكم تسألون عن ذلك كله فيم أنفقتموه ؟ !

وما عاد هنالك مجال لسؤال ولا لجواب . إنما هو التهكم والاستهزاء !

عند ذلك يفيقون فيشعرون بأن لا مفر ولا مهرب من بأس الله المحيط . وأنه لا ينفعهم ركض ، ولا ينقذهم فرار . فيحاولون الاعتراف والتوبة والاستغفار :

« قالوا : يا ويلنا ! إنا كنا ظالمين » . .

ولكن لقد فات الأوان . فليقولوا ما يشاءون . فإنهم لمتروكون يقولون حتى يقضى الأمر وتخمد الأنفاس :

« فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين » . .

ويا له من حصيد آدمى ، لا حركة فيه ولا حياة ؛ وكان منذ لحظة يموج بالحركة ، وتضطرب فيه الحياة !

* * *

(١) يراجع فصل : التصوير الفنى : وفصل : طريقة القرآن . فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

Marfat.com

هنا يربط السياق بين العقيدة التي سبق الحديث عنها ، وسننها التي تجري عليها ، والتي تأخذ المكذبين بها . يربط بينها وبين الحق الكبير والجد الأصيل ، اللذين يقوم بهما الكون كله ، ويتلبس بهما خلق السماوات والأرض في صميمه .

فإذا كان المشركون يستقبلون القرآن كلما جاءهم منه جديد باللعب واللهو ، غافلين عما في الأمر من حق وجد . وإذا كانوا يغفلون عن يوم الحساب القريب ، وعما ينتظر المكذبين المستهزئين . . فإن سنة الله مطردة نافذة مرتبطة بالحق الكبير والجد الأصيل :

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا . إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » . .

لقد خلق الله سبحانه هذا الكون لحكمة ، لا لعبا ولا لهوا . ودبره بحكمة ، لا جزافا ولا هوى . وبالجد الذي خلق به السماء والأرض وما بينهما أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وفرض الفرائض ، وشرع التكاليف . . فالجد أصيل في طبيعة هذا الكون ، أصيل في تدبيره ، أصيل في العقيدة التي أرادها الله للناس ، أصيل في الحساب الذي يأخذهم به بعد الممات .

ولو أراد الله ـ سبحانه ـ أن يتخذ لهوا لاتخذه من لدنه . لهوا ذاتيا لا يتعلق بشيء من مخلوقاته الحادثة الفانية .

وهو مجرد فرض جدلي : « لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا » . . ولو ـ كما يقول النحاة ـ حرف امتناع لامتناع . تفيد امتناع وقوع فعل الجواب لامتناع وقوع فعل الشرط . فالله سبحانه لم يرد أن يتخذ لهوا فلم يكن هناك لهو . لا من لدنه ولا من شيء خارج عنه .

ولن يكون لأن الله ـ سبحانه ـ لم يرده ابتداء ولم يوجه إليه إرادته أصلا : « إن كنا فاعلين » . . وإن حرف نفي بمعنى ما ، والصيغة لنفي إرادة الفعل ابتداء .

إنما هو فرض جدلي لتقرير حقيقة مجردة . . هي أن كل ما يتعلق بذات الله ـ سبحانه ـ قديم لا حادث ، وباق غير فان . فلو أراد ـ سبحانه ـ أن يتخذ لهوا لما كان هذا اللهو حادثا ،

Marfat.com

ولا كان متعلقاً بحادث كالسماء والأرض وما بينهما فكلها حوادث . إنما كان يكون ذاتيا من لدنه سبحانه . فيكون أزليا باقيا ، لأنه يتعلق بالذات الأزلية الباقية .

إنما الناموس المقرر والسنة المطردة ألا يكون هناك لهو ، إنما يكون هناك جد ، ويكون هناك حق ؛ فيغلب الحق الأصيل على الباطل العارض :

« بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » . .

و « بل » للإضراب عن الحديث فى موضوع اللهو ؛ والعدول عنه إلى الحديث فى الواقع المقرر الذى تجرى به السنة ويقتضيه الناموس . وهو غلبة الحق وزهوق الباطل .

والتعبير يرسم هذه السنة فى صورة حسية حية متحركة . فكأنما الحق قذيفة فى يد القدرة تقذف به على الباطل ، فيشق دماغه ! فإذا هو زاهق هالك ذاهب . .

هذه هى السنة المقررة ، فالحق أصيل فى طبيعة الكون ، عميق فى تكوين الوجود . والباطل منفى عن خلقة هذا الكون أصلا ، طارىء لا أصالة فيه ، ولا سلطان له ، يطارده الله ، ويقذف عليه بالحق فيدمغه . ولا بقاء لشىء يطارده الله ؛ ولا حياة لشىء تقذفه يد الله فتدمغه !

ولقد يخيل للناس أحياناً أن واقع الحياة يخالف هذه الحقيقة التى يقررها العليم الخبير . وذلك فى الفترات التى يبدو فيها الباطل منتفشا كأنه غالب ، ويبدو فيها الحق منزوياً كأنه مغلوب . وإن هى إلا فترة من الزمان ، يمد الله فيها ما يشاء ، للفتنة والابتلاء . ثم تجرى السنة الأزلية الباقية التى قام عليها بناء السماء والأرض ؛ وقامت عليها العقائد والدعوات سواء بسواء .

والمؤمنون بالله لا يخالجهم الشك فى صدق وعده ؛ وفى أصالة الحق فى بناء الوجود ونظامه ؛ وفى نصرة الحق الذى يقذف به على الباطل فيدمغه . . فإذا ابتلاهم الله بغلبة الباطل حينا من الدهر عرفوا أنها الفتنة ؛ وأدركوا أنه الابتلاء ؛ وأحسوا أن ربهم يربيهم ، لأن فيهم ضعفا أو نقصا ؛ وهو يريد أن يعدهم لاستقبال الحق المنتصر ، وأن يجعلهم ستار القدرة ، فيدعهم يجتازون فترة البلاء يستكملون فيها النقص ويعالجون فيها الضعف . . وكلما سارعوا إلى

Marfat.com

العلاج قصر الله عليهم فترة الابتلاء ، وحقق على أيديهم ما يشاء . أما العاقبة فهي مقررة : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » والله يفعل ما يريد .

* * *

هكذا يقرر القرآن الكريم تلك الحقيقة للمشركين ، الذين يتقولون على القرآن وعلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويصفونه بالسحر والشعر والافتراء . وهو الحق الغالب الذى يدمغ الباطل ، فإذا هو زاهق . . ثم يعقب على ذلك التقرير بإنذارهم عاقبة ما يتقولون : « ولكم الويل مما تصفون » . .

ثم يعرض لهم نموذجاً من نماذج الطاعة والعبادة فى مقابل عصيانهم وإعراضهم . نموذجا ممن هم أقرب منهم إلى الله . ومع هذا فهم دائبون على طاعته وعبادته ، لايفترون ولايقصرون :

« وله من فى السماوات والأرض . ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولايستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون » . .

ومن فى السماوات والأرض لا يعلمهم إلا الله ، ولا يحصيهم إلا الله . والعلم البشرى لايستيقن إلا من وجود البشر . والمؤمنون يستيقنون من وجود الملائكة والجن كذلك لذكرهما فى القرآن . ولكننا لا نعرف عنهم إلا ما أخبرنا به خالقهم . وقد يكون هناك غيرهم من العقلاء فى غير هذا الكوكب الأرضى ، بطبائع وأشكال تناسب طبيعة تلك الكواكب . وعلم ذلك عند الله .

فإذا نحن قرأنا : « وله من فى السماوات والأرض » عرفنا منهم من نعرف ، وتركنا علم من لا نعلم لخالق السماوات والأرض ومن فيهن .

« والذين عند ربك » المفهوم القريب أنهم الملائكة . ولكننا لا نحدد ولا نقيد ما دام النص عاما يشمل الملائكة وغيرهم . والمفهوم من التعبير أنهم هم الأقرب إلى الله . فكلمة « عند » بالقياس إلى الله لا تعنى مكانا ، ولا تحدد وصفا .

« ومن عنده لايستكبرون عن عبادته » كما يستكبر هؤلاء المشركون «ولايستحسرون» ـ أى يقصرون ـ فى العبادة . فحياتهم كلها عبادة وتسبيح بالليل والنهار دون انقطاع ولا فتور . .

Marfat.com

Marfat.com

والبشر يملكون أن تكون حياتهم كلها عبادة دون أن ينقطعوا للتسبيح والتعبد كالملائكة. فالإسلام يعد كل حركة وكل نفس عبادة إذا توجه بها صاحبها إلى الله. ولو كانت متاعا ذاتيا بطيبات الحياة!

* * *

وفى ظل التسبيح الذى لا يفتر ولا ينقطع لله الواحد، مالك السماوات والأرض ومن فيهن. يجىء الإنكار على المشركين واستنكار دعواهم فى الآلهة. ويعرض السياق دليل الوحدانية من المشهود فى نظام الكون وناموسه الواحد الدال على المدبر الواحد؛ ومن المنقول عن الكتب السابقة عند أهل الكتاب:

« أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا. فسبحان الله رب العرش عما يصفون. لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. أم اتخذوا من دونه آلهة؟ قل: هاتوا برهانكم. هذا ذكر من معى وذكر من قبلى. بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون. وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ».

والسؤال عن اتخاذهم آلهة هو سؤال استنكار للواقع منهم. ووصف هؤلاء الآلهة بأنهم ينشرون من الأرض أى يقيمون الأموات ويبعثونهم أحياء. فيه تهكم بتلك الآلهة التى اتخذوها. فمن أول صفات الإله الحق أن يُنشر الأموات من الأرض. فهل الآلهة التى اتخذوها تفعل هذا؟ إنها لا تفعل، ولا يدعون لها هم أنها تخلق حياة أو تعيد حياة. فهى إذن فاقدة للصفة الأولى من صفات الإله.

ذلك منطق الواقع المشهود فى الأرض. وهنالك الدليل الكونى المستمد من واقع الوجود: « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »..

فالكون قائم على الناموس الواحد الذى يربط بين أجزائه جميعا؛ وينسق بين أجزائه جميعا؛ وبين حركات هذه الأجزاء وحركة المجموع المنظم.. هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد. فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات. ولتعددت النواميس تبعا لها ـ فالإرادة مظهر الذات المريدة. والناموس مظهر الإرادة النافذة ـ ولانعدمت الوحدة

Marfat.com

التي تنسق الجهاز الكوني كله ، وتوحد منهجه واتجاهه وسلوكه ؛ ولوقع الاضطراب والفساد تبعا لفقدان التناسق . . هذا التناسق الملحوظ الذي لا ينكره أشد الملحدين لأنه واقع محسوس .

وإن الفطرة السليمة التي تتلقى إيقاع الناموس الواحد للوجود كله ، لتشهد شهادة فطرية بوحدة هذا الناموس ، ووحدة الإرادة التي أوجدته ، ووحدة الخالق المدبر لهذا الكون المنظم المنسق ، الذي لا فساد في تكوينه ، ولا خلل في سيره :

« فسبحان الله رب العرش عما يصفون » .

وهم يصفونه بأن له شركاء . تنزه الله المتعالي المسيطر : « رب العرش » والعرش رمز الملك والسيطرة والاستعلاء . تنزه عما يقولون والوجود كله بنظامه وسلامته من الخلل والفساد يكذبهم فيما يقولون .

« لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . .

ومتى كان المسيطر على الوجود كله يسأل ؟ ومن ذا الذي يسأله ؟ وهو القاهر فوق عباده ، وإرادته طليقة لا يحدها قيد من إرادة أخرى ، ولا حتى من الناموس الذي ترتضيه هي وتتخذه حاكما لنظام الوجود . والسؤال والحساب إنما يكونان بناء على حدود ترسم ومقياس يوضع . والإرادة الطليقة هي التي تضع الحدود والمقاييس ، ولا تتقيد بما تضع للكون من الحدود والمقاييس إلا كما تريد . والخلق مأخوذون بما تضع لهم من تلك الحدود فهم يسألون .

وإن الخلق ليستبد بهم الغرور أحيانا فيسألون سؤال المنكر المتعجب : ولماذا صنع الله كذا . وما الحكمة في هذا الصنيع ؟ وكأنما يريدون ليقولوا : إنهم لا يجدون الحكمة في ذلك الصنيع !

وهم يتجاوزون في هذا حدود الأدب الواجب في حق المعبود ، كما يتجاوزون حدود الإدراك الإنساني القاصر الذي لا يعرف العلل والأسباب والغايات وهو محصور في حيزه المحدود . .

إن الذي يعلم كل شيء ، ويدبر كل شيء ، ويسيطر على كل شيء ، هو الذي يقدر ويدبر ويحكم . « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . .

Marfat.com

وإلى جانب الدليل الكونى المستمد من طبيعة الوجود وواقعه يسألهم عن الدليل النقلى الذى يستندون إليه فى دعوى الشرك التى لا تعتمد على دليل :

« أم اتخذوا من دونه آلهة ؟ قل : هاتوا برهانكم . هذا ذكر من معى وذكر من قبلى »

فهذا هو القرآن يشتمل على ذكر المعاصرين للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهناك ذكر من سبقه من الرسل . وليس فيما جاءوا به ذكر الشركاء . فكل الديانات قائمة على عقيدة التوحيد . فمن أين جاء المشركون بدعوى الشرك التى تنقضها طبيعة الكون ، ولا يوجد من الكتب السابقة عليها دليل :

« بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » ..

« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » ..

فالتوحيد هى قاعدة العقيدة منذ أن بعث الله الرسل للناس . لا تبديل فيها ولا تحويل . توحيد الإله وتوحيد المعبود . فلا انفصال بين الألوهية والربوبية ؛ ولا مجال للشرك فى الألوهية ولا فى العبادة .. قاعدة ثابتة ثبوت النواميس الكونية ، متصلة بهذه النواميس وهى واحدة منها .

* * *

ثم يعرض السياق لدعوى المشركين من العرب أن لله ولدا . وهى إحدى مقولات الجاهلية السخيفة :

« وقالوا : اتخذ الرحمان ولدا . سبحانه ! بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم : إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم . كذلك نجزى الظالمين » ..

ودعوى البنوة لله ـ سبحانه ـ دعوى اتخذت لها عدة صور فى الجاهليات المختلفة . فقد عرفت عند مشركى العرب فى صورة بنوة الملائكة لله . وعند مشركى اليهود فى صورة بنوة العزير لله . وعند مشركى النصارى فى صورة بنوة المسيح لله . . وكلها من انحرافات الجاهلية فى شتى الصور والعصور .

Marfat.com

والمفهوم أن الذى يعنيه السياق هنا هو دعوى العرب فى بنوة الملائكة . وهو يرد عليهم ببيان طبيعة الملائكة . فهم ليسوا بنات لله - كما يزعمون - « بل هم عباد مكرمون » عند الله . لا يقترحون عليه شيئا تأدبا وطاعة وإجلالا . إنما يعملون بأمره لا يناقشون . وعلم الله بهم محيط . ولا يتقدمون بالشفاعة إلا لمن ارتضاه الله ورضى أن يقبل الشفاعة فيه . وهم بطبيعتهم خائفون لله مشفقون من خشيته - على قربهم وطهارتهم وطاعتهم التى لا استثناء فيها ولا انحراف عنها . وهم لا يدعون الألوهية قطعا . ولو ادعوها - جدلا - لكان جزاؤهم جزاء من يدعى الألوهية كائنا من كان ، وهو جهنم . فذلك جزاء الظالمين الذين يدعون هذه الدعوى الظالمة لكل حق ، ولكل أحد ، ولكل شىء فى هذا الوجود .

وكذلك تبدو دعوى المشركين فى صورتها هذه واهية مستنكرة مستبعدة ، لا يدعيها أحد . ولو ادعاها لذاق جزاءها الأليم !

وكذلك يلمس الوجدان بمشهد الملائكة طائعين لله ، مشفقين من خشيته . بينما المشركون يتطاولون ويدعون !

* * *

وعند هذا الحد من عرض الأدلة الكونية الشاهدة بالوحدة ؛ والأدلة النقلية النافية للتعدد ؛ والأدلة الوجدانية التى تلمس القلوب . . يجول السياق بالقلب البشرى فى مجال الكون الضخمة ، ويد القدرة تدبره بحكمة ، وهم معرضون عن آياتها المعروضة على الأنظار والقلوب :

« أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما . وجعلنا من الماء كل شىء حى ؛ أفلا يؤمنون ؟ وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون . وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر . كل فى فلك يسبحون » . .

إنها جولة فى الكون المعروض للأنظار ، والقلوب غافلة عن آياته الكبار ، وفيها ما يحير اللب حين يتأمله بالبصيرة المفتوحة والقلب الواعى والحس اليقظ .

Marfat.com

وتقريره أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقتا ، مسألة جديرة بالتأمل ، كلما تقدمت النظريات الفلكية فى محاولة تفسير الظواهر الكونية ، فحامت حول هذه الحقيقة التى أوردها القرآن الكريم منذ أكثر من ثلاث مئة وألف عام .

فالنظرية القائمة اليوم هى أن المجموعات النجمية ـ كالمجموعة الشمسية المؤلفة من الشمس وتوابعها ومنها الأرض والقمر . . كانت سديما . ثم انفصلت وأخذت أشكالها الكرية . وأن الأرض كانت قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها وبردت . .

ولكن هذه ليست سوى نظرية فلكية . تقوم اليوم وقد تنقض غدا . وتقوم نظرية أخرى تصلح لتفسير الظواهر الكونية بفرض آخر يتحول إلى نظرية . .

ونحن ـ أصحاب هذه العقيدة ـ لا نحاول أن نحمل النص القرآنى المستيقن على نظرية غير مستيقنة ، تقبل اليوم وترفض غدا . لذلك لا نحاول فى هذه الظلال أن نوفق بين النصوص القرآنيه والنظريات التى تسمى علمية . وهى شىء آخر غير الحقائق العلمية الثابتة القابلة للتجربة كتمدد المعادن بالحرارة وتحول الماء بخارا وتجمده بالبرودة . . . إلى آخر هذا النوع من الحقائق العلمية . وهى شىء آخر غير النظريات العلمية ـ كما بينا من قبل فى الظلال ـ

إن القرآن ليس كتاب نظريات علمية ولم يجىء ليكون علما تجريبيا كذلك . إنما هو منهج للحياة كلها . منهج لتقويم العقل ليعمل وينطلق فى حدوده . ولتقويم المجتمع ليسمح للعقل بالعمل والانطلاق . دون أن يدخل فى جزئيات وتفصيليات . علمية بحتة . فهذا متروك للعقل بعد تقويمه وإطلاق سراحه .

وقد يشير القرآن أحيانا إلى حقائق كونية كهذه الحقيقة التى يقررها هنا : « أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » ونحن نستيقن هذه الحقيقة لمجرد ورودها فى القرآن . وإن كنا لا نعرف منه كيف كان فتق السماوات والأرض . أو فتق السماوات عن الأرض . ونتقبل النظريات الفلكية التى لا تخالف هذه الحقيقة المجملة التى قررها القرآن . ولكننا لا نجرى بالنص القرآنى وراء أية نظرية فلكية ، ولا نطلب تصديقا للقرآن فى نظريات البشر . وهو حقيقة مستيقنة ! وقصارى مايقال : إن النظرية الفلكية القائمة اليوم لا تعارض المفهوم الإجمالى لهذا النص القرآنى السابق عليها بأجيال !

Marfat.com

فأما شطر الآية الثانى : « وجعلنا من الماء كل شيء حى » فيقرر كذلك حقيقة خطيرة . يعد العلماء كشفها وتقريرها أمرا عظيما . ويمجدون « دارون » لاهتدائه إليها ! وتقريره أن الماء هو مهد الحياة الأول .

وهى حقيقة تثير الانتباه حقا . وإن كان ورودها فى القرآن الكريم لا يثير العجب فى نفوسنا ، ولا يزيدنا يقينا بصدق هـذا القرآن . فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق فى كل مايقرره من إيماننا بأنه من عند الله . لا من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له . وأقصى مايقال هنا كذلك : إن نظرية النشوء والارتقاء لدارون وجماعته لاتعارض مفهوم النص القرآنى فى هذه النقطة بالذات .

ومنذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا كان القرآن الكريم يوجه أنظار الكفار إلى عجائب صنع الله فى الكون ، ويستنكر ألا يؤمنوا بها وهم يرونها مبثوثة فى الوجود : « أفلا يؤمنون ؟ » وكل ما حولهم فى الكون يقود إلى الإيمان بالخالق المدبر الحكيم ؟

ثم يمضى فى عرض مشاهد الكون الهائلة :

« وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم » . .

فيقرر أن هذه الجبال الرواسى تحفظ توازن الأرض فلا تميد بهم ولا تضطرب . وحفظ التوازن يتحقق فى صور شتى . فقد يكون توازنا بين الضغط الخارجى على الأرض والضغط الداخلى فى جوفها ، وهو يختلف من بقعة إلى بقعة : وقد يكون بروز الجبال فى موضع معادلا لانخفاض الأرض فى موضع آخر . . وعلى أية حال فهذا النص يثبت أن للجبال علاقة بتوازن الأرض واستقرارها . فلنترك للبحوث العلمية كشف الطريقة التى يتم بها هذا التوازن فذلك مجالها الأصيل . ولنكتف من النص القرآنى الصادق باللمسة الوجدانية والتأمل الموحى ، وبتتبع يد القدرة المبدعة المدبرة لهذا الكون الكبير :

« وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون » . .

وذكر الفجاج فى الجبال . وهى الفجوات بين حواجزها العالية ، وتتخذ سبلا وطرقا . . ذكر هذه الفجاج هنا مع الإشارة إلى الاهتداء يصور الحقيقة الواقعة أولا ، ثم يشير من طرف

Marfat.com

خفى إلى شأن آخر فى عالم العقيدة . فلعلهم يهتدون إلى سبيل يقودهم إلى الإيمان ، كما يهتدون فى فجاج الجبال !

« وجعلنا السماء سقفا محفوظا » . .

والسماء كل ما علا . ونحن نرى فوقنا ما يشبه السقف . والقرآن يقرر أن السماء سقف محفوظ . محفوظ من الخلل بالنظام الكونى الدقيق . ومحفوظ من الدنس باعتباره رمزاً للعلو الذى تتنزل منه آيات الله . . « وهم عن آياتنا معرضون » . .

« وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر . كل فى فلك يسبحون » . .

والليل والنهار ظاهرتان كونيتان . والشمس والقمر جرمان هائلان لهما علاقة وثيقة بحياة الإنسان فى الأرض . وبالحياة كلها . . والتأمل فى توالى الليل والنهار ، وفى حركة الشمس والقمر . بهذه الدقة التى لا تختل مرة ؛ وبهذا الاطراد الذى لا يكف لحظة . . جدير بأن يهدى القلب إلى وحدة الناموس ، ووحدة الإرادة ، ووحدة الخالق المدبر القدير .

* * *

وفى نهاية الشوط يربط السياق بين نواميس الكون فى خلقه وتكوينه وتصريفه ؛ ونواميس الحياة البشرية فى طبيعتها ونهايتها ومصيرها :

« وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد . أفإن مت فهم الخالدون ؟ كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون » . .

وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد . فكل حادث فهو فان . وكل ما له بدء فله نهاية . وإذا كان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يموت فهل هم يخلدون ؟ وإذا كانوا لا يخلدون فما لهم لا يعملون عمل أهل الموتى ؟ وما لهم لا يتبصرون ولا يتدبرون ؟

« كل نفس ذائقة الموت » . . هذا هو الناموس الذى يحكم الحياة . وهذه هى السنة التى ليس لها استثناء . فما أجدر الأحياء أن يحسبوا حساب هذا المذاق !

إنه الموت نهاية كل حى ، وعاقبة المطاف للرحلة القصيرة على الأرض . وإلى الله يرجع الجميع . فأما مايصيب الإنسان فى أثناء الرحلة من خير وشر فهو فتنة له وابتلاء :

« ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ..

والابتلاء بالشر مفهوم أمره . ليتكشف مدى احتمال المبتلى ، ومدى صبره على الضر ومدى ثقته فى ربه ، ورجائه فى رحمته .. فأما الابتلاء بالخير فهو فى حاجة إلى بيان ..

إن الابتلاء بالخير أشد وطأة ، وإن خيل للناس أنه دون الابتلاء بالشر ..

إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ولكن القلة القليلة هى التى تصمد للابتلاء بالخير .

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف . ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة . ويكبحون جماح القوة الهائجة فى كيانهم الجامحة فى أوصالهم .

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل . ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء والوجدان . وما يغريان به من متاع ، وما يثيرانه من شهوات وأطماع !

كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم ، ويصبرون على التهديد والوعيد فلا يرهبهم . ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الإغراء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء !

كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح ؛ ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الدعة والمراح . ثم لا يصابون بالحرص الذى يذل أعناق الرجال . وبالاسترخاء الذى يقعد الهمم ويذلل الأرواح !

إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء ، ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب ، فتكون القوى كلها معباة لاستقبال الشدة والصمود لها . أما الرخاء فيرخى الأعصاب وينيمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة !

لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح ، حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا فى الابتلاء ! وذلك شأن البشر .. إلا من عصم الله فكانوا ممن قال فيهم رسول الله – صلى عليه وسلم – :

« عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له[1] » .. وهم قليل !

---

(١) رواه مسلم بسنده ، فى كتاب الزهد والرقائق .

Marfat.com

Marfat.com

فاليقظة للنفس فى الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها فى الابتلاء بالشر . والصلة بالله فى الحالين هى وحدها الضمان ...

« وَإِذَا رَآكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا . أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾

« خُلِقَ ٱلْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ . سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ * وَيَقُولُونَ : مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ؟ * لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ .

« وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ، فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .

« قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ؟ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ؟ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ * بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ . أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ؛ أَفَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ ؟

« قُلْ : إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ، وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ * وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ : يَاوَيْلَنَا ! إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ .

« وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ، فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ » ﴿٤٧﴾

Marfat.com

بعد ذلك الشوط البعيد المديد فى أرجاء الكون ، وفى نواميس الوجود ، وفى سنن الدعوات ، وفى مصائر البشر ، وفى مصارع الغابرين . . يرتد السياق إلى مثل مابدأ به فى مطلع السورة عن استقبال المشركين للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وما معه من الوحى ؛ واستهزائهم به و إصرارهم على الشرك . .

ثم يتحدث عن طبيعة الإنسان العجول ، واستعجالهم بالعذاب . فيحذرهم مايستعجلون به . وينذرهم عاقبة الاستهزاء بالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويعرض لهم مشهدا من تقلص ظلال الغالبين المسيطرين فى الدنيا . ومشهدا من عذاب المكذبين فى الآخرة .

ويختم الشوط بدقة الحساب والجزاء فى يوم القيامة . فيربط الحساب والجزاء بنواميس الكون وفطرة الإنسان وسنة الله فى حياة البشر وفى الدعوات . .

***

« وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا . أهذا الذى يذكر آلهتكم ؟ وهم بذكر الرحمان هم كافرون » .

إن هؤلاء الكفار يكفرون بالرحمان ، خالق الكون ومدبره ، ليستنكرون على الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يذكر آلهتهم الأصنام بالسوء ، بينما هم يكفرون بالرحمان دون أن يتحرجوا أو يتلوموا . . وهو أمر عجيب جد عجيب !

وإنهم ليلقون رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالهزء ، يستكثرون عليه أن ينال من أصنامهم تلك : « أهذا الذى يذكر آلهتكم ؟ » ولا يستكثرون على أنفسهم ــ وهم عبيد من عبيد الله ــ أن يكفروا به ، ويعرضوا عما أنزل لهم من قرآن . . وهى مفارقة عجيبة تكشف عن مدى الفساد الذى أصاب فطرتهم وتقديرهم للأمور !

ثم هم يستعجلون بما ينذرهم به الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من عذاب ؛ ويحذرهم من عاقبته . والإنسان بطبعه عجول :

« خلق الإنسان من عجل . سأريكم آياتى فلا تستعجلون . ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ! » . .

« خلق الإنسان من عجل » .. فالعجلة فى طبعه وتكوينه . وهو يمد ببصره دائماً إلى ماوراء اللحظة الحاضرة يريد ليتناوله بيده ، ويريد ليحقق كل مايخطر له بمجرد أن يخطر بباله ، ويريد أن يستحضر كل مايوعد به ولو كان فى ذلك ضرره وإيذاؤه . ذلك إلا أن يتصل بالله فيثبت ويطمئن ، ويكل الأمر لله فلا يتعجل قضاءه . والإيمان ثقة وصبر واطمئنان .

وهؤلاء المشركون كانوا يستعجلون بالعذاب ، ويسألون متى هذا الوعد . الوعد بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا . . فهاهو ذا القرآن يرسم لهم مشهداً من عذاب الآخرة ، ويحذرهم ما أصاب المستهزئين قبلهم من عذاب الدنيا :

« لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون . بل تأتيهم بغتة فتبهتهم ، فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون . . ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » .

لو يعلمون ماسيكون لكان لهم شأن غير شأنهم ، ولكفوا عن استهزائهم واستعجالهم . . فلينظروا ماذا سيكون ..

هاهم أولاء تنوشهم النار من كل جانب ، فيحاولون فى حركة مخبلة ــ يرسمها التعبير من وراء السطور ــ أن يكفوا النار عن وجوهم وعن ظهورهم ، ولكنهم لا يستطيعون . وكأنما تلقفتهم النار من كل جانب ، فلا هم يستطيعون ردها ، ولا هم يؤخرون عنها ، ولا هم يمهلون إلى أجل قريب .

وهذه المباغتة جزاء الاستعجال . فلقد كانوا يقولون : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » فكان الرد هو هذه البغتة التى تذهل العقول ، وتشل الإرادة ، وتعجزهم عن التفكير والعمل ، وتحرمهم مهلة الإنظار والتأجيل .

ذلك عذاب الآخرة . فأما عذاب الدنيا فقد حل بالمستهزئين قبلهم . فإذا كانوا هم لم يقدر عليهم عذاب الاستئصال ، فعذاب القتل والأسر والغلب غير ممنوع . وليحذروا الاستهزاء برسولهم . وإلا فمصير المستهزئين بالرسل معروف ، جرت به السنة التى لا تتخلف وشهدت به مصارع المستهزئين .

Marfat.com

Marfat.com

أم إن لهم من يرعاهم بالليل والنهار غير الرحمان ، ويمنعهم من العذاب في الدنيا أو الآخرة من دون الله ؟

« قل : من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمان ؟ بل هم عن ذكر ربهم معرضون . أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ؟ لا يستطيعون نصر أنفسهم ، ولا هم منا يصحبون » .

إن الله هو الحارس على كل نفس بالليل والنهار . وصفته هي الرحمة الكبرى ، وليس من دونه راع ولا حام . فاسألهم : هل لهم حارس سواه ؟

وهو سؤال للإنكار ، وللتوبيخ على غفلتهم عن ذكر الله ، وهو الذي يكلؤهم بالليل والنهار ، ولا راعى لهم سواه : « بل هم عن ذكر ربهم معرضون » .

ثم يعيد عليهم السؤال في صورة أخرى : « أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ؟ » فتكون هي التي تحرسهم إذن وتحفظهم ؟ كلا فهؤلاء الآلهة « لا يستطيعون نصر أنفسهم » فهم من باب أولى لا يستطيعون نصر سواهم . « ولا هم منا يصحبون » فيستمدوا القوة من صحبة القدرة لهم ـ كما استمدها هارون وموسى وربهما يقول لهما : « إنني معكما أسمع وأرى » . .

إن هذه الآلهة مجردة من القوة بذاتها ؛ وليس لها مدد من الله تستمد منه القوة . فهي عاجزة عاجزة .

وبعد هذا الجدل التهكمي الذي يكشف عن سخف مايعتقده المشركون وخوائه من المنطق والدليل .. يضرب السياق عن مجادلتهم ؛ ويكشف عن علة لجاجتهم ؛ ثم يلمس وجدانهم بلمسة تهز القلوب ، وهو يوجهها إلى تأمل يد القدرة ، وهي تطوى رقعة الأرض تحت أقدام الغالبين ، وتقص أطرافها فتردهم إلى حيز منها منزو صغير ، بعد السعة والمنعة والسلطان !

« بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر . أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ؟ أفهم الغالبون ؟ » ...

فهو المتاع الطويل الموروث الذي أفسد فطرتهم . والمتاع ترف . والترف يفسد القلب ويبلد الحس . وينتهى إلى ضعف الحساسية بالله ، وانطماس البصيرة دون تأمل آياته . وهذا هو الابتلاء بالنعمة حين لا يستيقظ الإنسان لنفسه ويراقبها ، ويصلها دائما بالله ، فلا تنساه .

ومن ثم يمس السياق وجدانهم بعرض المشهد الذى يقع كل يوم فى جانب من جنبات الأرض حيث تطوى رقعة الدول المتغلبة وتنحسر وتتقاص . فإذا هى دويلات صغيرة وكانت امبراطوريات . وإذا هى مغلوبة على أمرها وكانت غالبة . وإذا هى قليلة العدد وكانت كثيرة . قليلة الخيرات وكانت فائضة بالخيرات . . .

والتعبير يرسم يد القدرة وهى تطوى الرقعة وتنقص الأطراف وتزوى الأبعاد . . . فإذا هو مشهد ساحر فيه الحركة اللطيفة ، وفيه الرهبة المخيفة !

« أفهم الغالبون » ؟ فلا يجرى عليهم ما يجرى على الآخرين ؟

* * *

وفى ظل هذا المشهد الذى ترتعش له القلوب يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يلقى كلمة الإنذار :

« قل : إنما أنذركم بالوحى ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون » . .

فليحذروا أن يكونوا هم الصم الذين لايسمعون ! فتطوى رقعة الأرض تحت أقدامهم ، وتقص يد القدرة أطرافهم ، وتتحيفهم وما هم فيه من متاع !

ويتابع السياق إيقاعه المؤثر فى القلوب ، فيصورهم لأنفسهم حين يمسهم العذاب :

« ولئن مستهم نفحة من عذاب الله ليقولن : يا ويلنا إنا كنا ظالمين » .

والنفحة تطلق غالبا فى الرحمة . ولكنها هنا تطلق فى العذاب . كأنما ليقال : إن أخف مسة من عذاب ربك تطلقهم يجأرون بالاعتراف . ولكن حيث لا يجدى الاعتراف . فلقد سبق فى سياق السورة مشهد القرى التى أخذها بأس الله ، فنادى أهلها : « يا ويلنا إنا كنا ظالمين . فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين » .

وإذن فهو الاعتراف بعد فوات الأوان . والخير منه أن يسمعوا نذير الوحى وفى الوقت متسع ، قبل أن تمسهم نفحة من العذاب !

* * *

Marfat.com

ويختم الشوط بالإيقاع الأخير من مشاهد يوم الحساب :

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً . وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها . وكفى بنا حاسبين » . .

والحبة من خردل تصور أصغر ماتراه العيون وأخفه فى الميزان ، وهى لاتترك يوم الحساب ولا تضيع . والميزان الدقيق يشيل بها أو يميل !

فلتنظر نفس ما قدمت لغد . وليصغ قلب إلى النذير . وليبادر الغافلون المعرضون المستهزئون قبل أن يحق النذير فى الدنيا أو فى الآخرة . فإنهم إن نجوا من عذاب الدنيا فهناك عذاب الآخرة الذى تعد موازينه ، فلا تظلم نفس شيئا ، ولا يهمل مثقال حبة من خردل .

وهكذا ترتبط موازين الآخرة الدقيقة ، بنواميس الكون الدقيقة ، بسنن الدعوات ، وطبائع الحياة والناس . وتلتقى كلها متناسقة موحدة فى يد الإرادة الواحدة مما يشهد لقضية التوحيد وهى محور السورة الأصيل .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ، وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ⑧ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ، وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ * وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ، أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ؟

« وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ: مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ؟ * قَالُوا : وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ : لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالُوا : أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ؟ * قَالَ : بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ .

« فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ .

Marfat.com

Marfat.com

« قَالُوا : مَنْ فَعَلَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا : سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ؟ * قَالُوا : فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ .

« قَالُوا : أَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ * قَالَ : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا ، فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا : إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ : لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ * قَالَ : أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ؟ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ! أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ * قَالُوا : حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * : قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ .

« وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ، وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ، وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ .

« وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ .

« وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ .

« وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ، وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ

Marfat.com

مِنْ بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ؟ * وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَىٰ الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ ، وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ .

« وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ : أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ، وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ، رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ .

« وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ، إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ .

« وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً ، فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ . وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ .

« وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ : رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ ، وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ .

« وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ، وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ .

« إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ » ﴿٩٢﴾

هذا الشوط الثالث يستعرض أمة الرسل . لا على وجه الحصر . يشير إلى بعضهم مجرد إشارة ؛ ويفصل ذكر بعضهم تفصيلا مطولا ومختصرا .

Marfat.com

وتتجلى فى هذه الإشارات والحلقات رحمة الله وعنايته برسله ، وعواقب المكذبين بالرسل بعد أن جاءتهم البينات . كما تتجلى بعض الاختبارات للرسل بالخير وبالضر ، وكيف اجتازوا الابتلاء .

كذلك تتجلى سنة الله فى إرسال الرسل من البشر . ووحدة العقيدة والطريق ، لجماعة الرسل على مدار الزمان ؛ حتى لكأنهم أمة واحدة على تباعد الزمان والمكان .

وتلك إحدى دلائل وحدانية الألوهية المبدعة ، ووحدانية الإرادة المدبرة ، ووحدانية الناموس الذى يربط سنن الله فى الكون ، ويؤلف بينها ، ويوجهها جميعا وجهة واحدة ، إلى معبود واحد : « وأنا ربكم فاعبدون » ..

* * *

«ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب ، وهم من الساعة مشفقون . وهذا ذكر مبارك أنزلناه ، أفأنتم له منكرون ؟ » .

ولقد سبق فى سياق السورة أن المشركين كانوا يستهزئون بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه بشر . وأنهم كانوا يكذبون بالوحى ، ويقولون : إنه سحر أو شعر أو افتراء .

فهاهو ذا يكشف لهم أن إرسال الرسل من البشر هى السنة المطردة ، وهذه نماذج لها من قبل . وأن نزول الكتب على الرسل ليس بدعة مستغربة فهاهما ذان موسى وهارون آتاهما الله كتابا .

ويسمى هذا الكتاب « الفرقان » وهى صفة القرآن . فهناك وحدة حتى فى الاسم . ذلك أن الكتب المنزلة كلها فرقان بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال ، وبين منهج فى الحياة ومنهج ، واتجاه فى الحياة واتجاه . فهى فى عمومها فرقان . وفى هذه الصفة تلتقى التوراة والقرآن .

وجعل التوراة كذلك . «ضياء » يكشف ظلمات القلب والعقيدة ، وظلمات الضلال والباطل . وهى ظلمات يتوه فيها العقل ويضل فيها الضمير . وإن القلب البشرى ليظل مظلما حتى تشرق فيه شعلة الإيمان ، فتنير جوانبه ، ويتكشف له منهجه ، ويستقيم له اتجاهه ، ولا تختلط عليه القيم والمعانى والتقديرات .

Marfat.com

وجعل التوراة كالقرآن « ذكرا للمتقين » تذكرهم بالله ، وتبقى لهم ذكرا فى الناس. وماذ كان بنو إسرائيل قبل التوراة ؟ كانوا أذلاء تحت سياط فرعون ، يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم ويستذلهم بالسخرة والإيذاء .

ويخص المتقين « الذين يخشون ربهم بالغيب » لأن الذين تستشعر قلوبهم خشية الله ولم يروه ، « والذين هم من الساعة مشفقون » فيعملون لها ويستعدون . . هؤلاء هم الذين ينتفعون بالضياء ، ويسيرون على هداه ، فيكون كتاب الله لهم ذكرا ، يذكرهم بالله ، ويرفع لهم ذكرا فى الناس .

ذلك شأن موسى وهارون . . « وهذا ذكر مبارك أنزلناه » فليس بدعا ولا عجبا ، إنما هو أمر مسبوق وسنة معروفة « أفأنتم له منكرون ؟ » فماذا تنكرون منه ، وقد سبقت به الرسالات ؟

* * *

وبعد الإشارة السريعة إلى موسى وهارون وكتابهما يرتد السياق إلى حلقة كاملة من قصة إبراهيم ، وهو جد العرب الأكبر وبانى الكعبة التى يحشدون فيها الأصنام ، ويعكفون عليها بالعبادة ، وهو الذى حطم الأصنام من قبل . والسياق يعرضه هنا وهو يستنكر الشرك ويحطم الأصنام .

والحلقة المعروفة هنا هى حلقة الرسالة . وهى مقسمة إلى مشاهد متتابعة ، بينها فجوات صغيرة . وهى تبدأ بالإشارة إلى سبق هداية إبراهيم إلى الرشد . ويعنى به الهداية إلى التوحيد . فهذا هو الرشد الأكبر الذى تنصرف إليه لفظة « الرشد » فى هذا المقام .

« ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين » . .

آتينا رشده ، وكنا عالمين بحاله وباستعداده لحمل الأمانة التى يحملها المرسلون .

« إذ قال لأبيه وقومه : ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ » . .

فكانت قولته هذه دليل رشده .. سمى تلك الأحجار والخشب باسمها : « هذه التماثيل » ولم يقل : إنها آلهة ، واستنكر أن يعكفوا عليها بالعبادة . وكلمة « عاكفون » تفيد الانكباب

الدائم المستمر . وهم لا يقضون وقتهم كله فى عبادتها . ولكنهم يتعلقون بها . فهو عكوف معنوى لا زمنى . وهو يسخف هذا التعلق ويبشعه بتصويرهم منكبين أبدا على هذه التماثيل !

فكان جوابهم وحجتهم أن

« قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين » !

وهو جواب يدل على التحجر العقلى والنفسى داخل قوالب التقليد الميتة ، فى مقابل حرية الإيمان ، وانطلاقه للنظر والتدبر ، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمها الحقيقية لا التقليدية . فالإيمان بالله طلاقة وتحرر من القداسات الوهمية التقليدية ، والوراثات المتحجرة التى لا تقوم على دليل :

« قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » ..

وما كانت عبادة الآباء لتكسب هذه التماثيل قيمة ليست لها ، ولا لتخلع عليها قداسة لا تستحقها . فالقيم لا تنبع من تقليد الآباء وتقديسهم ، إنما تنبع من التقويم المتحرر الطليق .

وعندما واجههم إبراهيم بهذه الطلاقة فى التقدير ، وبهذه الصراحة فى الحكم ، راحوا يسألون :

« قالوا : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟ » ..

وهو سؤال المزعزع العقيدة ، الذى لا يطمئن إلى ماهو عليه ، لأنه لم يتدبره ولم يتحقق منه . ولكنه كذلك معطل الفكر والروح بتأثير الوهم والتقليد . فهو لا يدرى أى الأقوال حق . والعبادة تقوم على اليقين لا على الوهم المزعزع الذى لا يستند إلى دليل ! وهذا هو التيه الذى يخبط فيه من لا يدينون بعقيدة التوحيد الناصعة الواضحة المستقيمة فى العقل والضمير .

فأما إبراهيم فهو مستيقن واثق عارف بربه ، متمثل له فى خاطره وفكره ، يقولها كلمة المؤمن المطمئن لإيمانه :

«قال : بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين» .

فهو رب واحد . رب الناس ورب السماوات والأرض . ربوبيته ناشئة عن كونه الخالق . فهما صفتان لا تنفكان : « بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن » .. فهذه هى

Marfat.com

العقيدة المستقيمة الناصعة ، لا كما يعتقد المشركون أن الآلهة أرباب ، فى الوقت الذى يقرون أنها لا تخلق ، وأن الخالق هو الله . ثم هم يعبدون تلك الآلهة التى لا تخلق شيئاً وهم يعلمون !

إنه واثق وثوق الذى يشهد على واقع لا شك فيه : « وأنا على ذلكم من الشاهدين » . . وإبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يشهد خلق السماوات والأرض ، ولم يشهد خلق نفسه ولا قومه . . ولكن الأمر من الوضوح والثبوت إلى حد أن يشهد المؤمنون عليه واثقين . . إن كل مافى الكون لينطق بوحدة الخالق المدبر . وإن كل مافى كيان الإنسان ليهتف به إلى الإقرار بوحدانية الخالق المدبر ، وبوحدة الناموس الذى يدبر الكون ويصرفه .

ثم يعلن إبراهيم لمن كان يواجههم من قومه بهذا الحوار . أنه قد اعتزم فى شأن آلهتهم أمراً لا رجعة فيه :

« وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » . .

ويترك مااعتزمه من الكيد للأصنام مبهما لا يفصح عنه . . ولا يذكر السياق كيف ردوا عليه . ولعلهم كانوا مطمئنين إلى أنه لن يستطيع لآلهتهم كيدا . فتركوه !

« فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون » . .

وتحولت الآلهة المعبودة إلى قطع صغيرة من الحجارة والأخشاب المهشمة . . إلا كبير الأصنام فقد تركه إبراهيم « لعلهم إليه يرجعون » فيسألونه كيف وقعت الواقعة وهو حاضر فلم يدفع عن صغار الآلهة ! ولعلهم حينئذ يراجعون القضية كلها ، فيرجعون إلى صوابهم ، ويدركون منه مافى عبادة هذه الأصنام من سخف وتهافت .

وعاد القوم ليروا آلهتهم جذاذا إلا ذلك الكبير ! ولكنهم لم يرجعوا إليه يسألونه ولا إلى أنفسهم يسألونها : إن كانت هذه آلهة فكيف وقع لها ماوقع دون أن تدفع عن أنفسها شيئاً . وهذا كبيرها كيف لم يدفع عنها ؟ لم يسألوا أنفسهم هذا السؤال ، لأن الخرافة قد عطلت عقولهم عن التفكير ، ولأن التقليد قد غل أفكارهم عن التأمل والتدبر . فإذا هم يدعون هذا السؤال الطبيعى لينقموا على من حطم آلهتهم ، وصنع بها هذا الصنيع :

« قالوا : من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين » . .

Marfat.com

Marfat.com

عندئذ تذكر الذين سمعوا إبراهيم ينكر على أبيه ومن معه عبادة هذه التماثيل ، ويتوعدهم أن يكيد لآلهتهم بعد انصرافهم عنها !

« قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » . .

ويبدو من هذا أن إبراهيم - عليه السلام - كان شابا صغير السن ، حينما آتاه الله رشده ، فاستنكر عبادة الأصنام وحطمها هذا التحطيم . ولكن أ كان قد أوحى إليه بالرسالة فى ذلك الحين ؟ أم هو إلهام هداه إلى الحق قبل الرسالة . فدعا إليه أباه ، واستنكر على قومه ماهم فيه ؟

هذا هو الأرجح . .

وهناك احتمال أن يكون قولهم : « سمعنا فتى » يقصد به إلى تصغير شأنه بدليل تجهيلهم لأمره فى قولهم : « يقال له إبراهيم ! » للتقليل من أهميته ، وإفادة أنه مجهول لا خطر له ؟ قد يكون . ولكننا نرجح أنه كان فتى حديث السن فى ذلك الحين .

« قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون » . .

وقد قصدوا إلى التشهير به ، وإعلان فعلته على رؤوس الأشهاد :

« قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم ؟ »

فهم مايزالون يصرون على أنها آلهة وهى جذاذ مهشمة . فأما إبراهيم فهو يتهكم بهم ويسخر منهم ، وهو فرد وحده وهم كثير . ذلك أنه ينظر بعقله المفتوح وقلبه الواصل فلا يملك إلا أن يهزأ بهم ويسخر ، وأن يجيبهم إجابة تناسب هذا المستوى العقلى الدون :

« قال : بل فعله كبيرهم هذا . فاسألوهم إن كانوا ينطقون » .

والتهكم واضح فى هذا الجواب الساخر . فلا داعى لتسمية هذه كذبة من إبراهيم - عليه السلام - والبحث عن تعليلها بشق العلل التى اختلف عليها المفسرون . فالأمر أيسر من هذا بكثير ! إنما أراد أن يقول لهم : إن هذه التماثيل لا تدرى من حطمها إن كنت أنا أم هذا الصنم الكبير الذى لا يملك مثلها حراكا . فهى جماد لا إدراك له أصلا . وأنتم كذلك مثلها مسلوبو الإدراك لاتميزون بين الجائز والمستحيل . فلا تعرفون إن كنت أنا الذى حطمتها أم إن هذا التمثال هو الذى حطمها ! « فاسألوهم إن كانوا ينطقون » !

Marfat.com

ويبدو أن هـذا التهكم الساخر قد هزهم هزا ، وردهم إلى شيء من التدبر والتفكر :
« فرجعوا إلى أنفسهم ، فقالوا : إنكم أنتم الظالمون » ..

وكانت بادرة خير أن يستشعروا مافى موقفهم من سخف ، ومافى عبادتهم لهـذه التماثيل من ظلم . وأن تتفتح بصيرتهم لأول مرة فيتدبروا ذلك السخف الذى يأخذون به أنفسهم ، وذلك الظلم الذى هم فيه سادرون .

ولـكنها لم تكن إلا ومضة واحدة أعقبها الظلام ، وإلا خفقة واحداة عادت بعدها قلوبهم إلى الخمود :

« ثم نكسوا على رؤوسهم . لقد علمت ماهؤلاء ينطقون » !

وحقا لقد كانت الأولى رجعة إلى النفوس ، وكانت الثانية نكسة على الرؤوس ؛ كما يقول التعبير القرآنى المصور العجيب . . كانت الأولى حركة فى النفس للنظر والتدبر . أما الثانية فـكانت انقلابا على الرأس فلا عقل ولا تفـكير . وإلا فإن قولهم هذا الأخير هو الحجة عليهم . وأية حجة لإبراهيم أقوى من أن هؤلاء لا ينطقون ؟ !

ومن ثم يجبههم بعنف وضيق على غير عادته وهو الصبور الحليم . لأن السخف هنا يجاوز صبر الحليم :

« قال : أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم ؟ أف لـكم ولمـا تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ؟! »

وهى قولة يظهر فيها ضيق الصدر ، وغيظ النفس ، والعجب من السخف الذى يتجاوز كل مألوف .

عند ذلك أخذتهم العزة بالإثم كما تأخذ الطغاة دائما حين يفقدون الحجة ويعوزهم الدليل ، فيلجأون إلى القوة الغاشمة والعذاب الغليظ :

« قالو : حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين » ..

فيالها من آلهة ينصرها عبـادها ، وهى لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا ؛ ولا تحاول لها ولا لعبادها نصراً !

« قالوا: حرقوه » ولـكن كلمة أخرى قد قيلت .. فأبطلت كل قول ، وأحبطت كل كيد. ذلك أنها الـكلمة العليا التى لا ترد :

« قلنا : يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم » ..

فـكانت بردا وسلاما على ابراهيم ..

كيف ؟

ولماذا نسأل عن هذه وحدها . و « كونى » هذه هى الـكلمة التى تكون بها أكوان ، وتنشأ بها عوالم ، وتخلق بها نواميس : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون »

فلا نسـأل : كيف لم تحرق النار إبراهيم ، والمشهود المعروف أن النار تحرق الأجسام الحية ؟ فالذى قال للنار : كونى حارقة . هو الذى قال لها : كونى بردا وسلاما . وهى الكلمة الواحدة التى تنشىء مدلولها عند قولها كيفما كان هذا المدلول . مألوفا للبشر أو غير مألوف .

إن الذين يقيسون أعمال الله سبحانه إلى أعمال البشر هم الذين يسألون : كيف كان هذا ؟ وكيف أمكن أن يكون ؟ فأما الذين يدركون اختلاف الطبيعتين ، واختلاف الأداتين ، فإنهم لا يسألون أصلا ، ولا يحاولون أن يخلقوا تعليلا . علميا أو غير علمى . فالمسألة ليست فى هذا الميدان أصلا . ليست فى ميدان التعليل والتحليل بموازين البشر ومقاييس البشر . وكل منهج فى تصور مثل هذه المعجزات غير منهج الإحالة إلى القدرة المطلقة هو منهج فاسد من أساسه ، لأن أعمال الله غير خاضعة لمقاييس البشر وعلمهم القليل المحدود .

إن علينا فقط أن نؤمن بأن هـذا قد كان ، لأن صانعه يملك أن يكون . أما كيف صنع بالنـار فإذا هى برد وسلام ؟ وكيف صنع بإبراهيم فلا تحرقه النار . . فذلك ماسكت عنه النص القرآنى لأنه لا سبيل إلى إدراكه بعقل البشر المحدود . وليس لنا سوى النص القرآنى من دليل .

وما كان تحويل النار بردا وسلاما على إبراهيم إلا مثلا تقع نظائره فى صور شتى . ولـكنها قد لا تهز الشاعر كما يهزها هذا المثل السافر الجاهر . فـكم من ضيقات وكربات تحيط بالأشخاص والجماعات من شأنها أن يكون القاصمة القاضية ، وإن هى إلا لفتة صغيرة ، فإذا هى تحيى ولا تميت ، وتنعش ولا تخمد ، وتعود بالخير وهى الشر المستطير .

Marfat.com

إن « يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم » لتتكرر فى حياة الأشخاص والجماعات والأمم ؛ وفى حياة الأفكار والعقائد والدعوات . وإن هى إلا رمز للكلمة التى تبطل كل قول ، وتحبط كل كيد ، لأنها الكلمة العليا التى لا ترد !

« وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين » ..

وقد روى أن الملك المعاصر لإبراهيم كان يلقب « بالنمروذ » وهو ملك الآراميين بالعراق . وأنه قد أهلك هو والملأ من قومه بعذاب من عند الله . تختلف الروايات فى تفصيلاته ، وليس لنا عليها من دليل . المهم أن الله قد أنجى ابراهيم من الكيد الذى أريد به ، وباء الكائدون له بخسارة مابعدها خسارة « فجعلناهم الأخسرين » هكذا على وجه الإطلاق دون تحديد !

« ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين » ..

وهى أرض الشام التى هاجر إليها هو وابن أخيه لوط . فكانت مهبط الوحى فترة طويلة ، ومبعث الرسل من نسل إبراهيم . وفيها الأرض المقدسة . وثانى الحرمين . وفيها بركة الخصب والرزق ، إلى جانب بركة الوحى والنبوة جيلا بعد جيل .

« ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين » ..

لقد ترك إبراهيم ـ عليه السلام ـ وطنا وأهلا وقوما . فعوضه الله الأرض المباركة وطنا خيرا من وطنه . وعوضه ابنه إسحاق وحفيده يعقوب أهلا خيرا من أهله . وعوض من ذريته أمة عظيمة العدد قوما خيرا من قومه . وجعل من نسله أئمة يهدون الناس بأمر الله ؛ وأوحى إليهم أن يفعلوا الخيرات على اختلافها ، وأن يقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة . وكانوا طائعين لله عابدين .. فنعم العوض ، ونعم الجزاء ، ونعمت الخاتمة التى قسمها الله لإبراهيم . لقد ابتلاه بالضراء فصبر ، فكانت الخاتمة الكريمة اللائقة بصبره الجميل .

***

« ولوطا آتيناه حكما وعلما ؛ ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث ، إنهم كانوا قوم سوء فاسقين . وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين » ..

وقصة لوط قد سبقت مفصلة . وهو يشير إليها هنا مجرد إشارة . وقد صحب عمه ابراهيم

Marfat.com

Marfat.com

من العراق إلى الشام ، وأقام فى قرية سدوم . وكانت تعمل الخبائث . وهى إتيان الفاحشة مع الذكور جهرة وبلا حياء أو تحرج . فأهلك الله القرية وأهلها : « إنهم كانوا قوم سوء فاسقين » . وأنجى لوطا وأهله إلا امرأته . «وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين » . . وكأنما الرحمة مأوى وملاذ يدخل الله فيه من يشاء ، فإذا هو آمن ناعم مرحوم .

* * *

ويشير إلى نوح إشارة سريعة كذلك :

« ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ، فنجيناه وأهله من الكرب العظيم . ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين » .

وهى إشارة كذلك لا تفصيل فيها . لإثبات استجابة الله لنوح ـ عليه السلام ـ حين ناداه « من قبل » وهو سابق لإبراهيم ولوط . ولقد أنجاه الله وأهله كذلك . إلا امرأته ، وأهلك قومه بالطوفان وهو « الكرب العظيم » الذى وصفه بالتفصيل فى سورة هود .

* * *

ثم يفصل بعض الشىء فى حلقة من قصة داود وسليمان :

« وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ؛ وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان . وكلا آتينا حكما وعلما . وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير . وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون ؟ »

« ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ، وكنا بكل شىء عالمين . ومن الشياطين من يغوصون له ، ويعملون عملا دون ذلك ، وكنا لهم حافظين » . .

وقصة الحرث التى حكم فيها داود وسليمان يقول الرواة فى تفصيلها : إن رجلين دخلا على داود ، أحدهما صاحب حرث أى حقل وقيل حديقة كرم ـ والآخر صاحب غنم . فقال صاحب الحرث : إن غنم هذا قد نفشت فى حرثى ـ أى انطلقت فيه ليلا ـ فلم تبق منه شيئا . فحكم داود لصاحب الحرث أن يأخذ غنم خصمه فى مقابل حرثه . . ومر صاحب الغنم بسليمان ؛ فأخبره

بقضاء داود . فدخل سليمان على أبيه فقال : يانبي الله إن القضاء غير ماقضيت . فقال : كيف ؟ قال : ادفع الغنم إلى صاحب الحرث لينتفع بها ، وادفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان . ثم يعيد كل منهما إلى صاحبه ماتحت يده . فيأخذ صاحب الحرث حرثه ، وصاحب الغنم غنمه . . فقال داود : القضاء ما قضيت . وأمضى حكم سليمان .

وكان حكم دواد وحكم سليمان فى القضية اجتهادا منهما . وكان الله حاضرا حكمهما ، فألهم سليمان حكما أحكم ، وفهمه ذلك الوجه وهو أصوب .

لقد اتجه داود فى حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث . وهذا عدل فحسب . ولكن حكم سليمان تضمن مع العدل البناء والتعمير ، وجعل العدل دافعا إلى البناء والتعمير . وهذا هو العدل الحى الإيجابى فى صورته البانية الدافعة . وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء .

ولقد أوتى داود وسليمان كلاهما الحكمة والعلم : « وكلا آتينا حكما وعلما » . . وليس فى قضاء داود من خطأ ، ولكن قضاء سليمان كان أصوب ، لأنه من نبع الإلهام .

ثم يعرض السياق مااختص به كلا منهما . فيبدأ بالوالد :

« وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير . وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون ؟ »

وقد عرف دواد ــ عليه السلام ــ بمزاميره . وهى تسابيح لله كان يرتلها بصوته الحنون ، فتتجاوب أصداؤها حوله ، وترجع معه الجبال والطير . .

وحينما يتصل قلب عبد بربه فإنه يحس الاتصال بالوجود كله ؛ وينبض قلب الوجود معه ؛ وتنزاح العوائق والحواجز الناشئة عن الشعور بالفوارق والفواصل التى تميز الأنواع والأجناس ، وتقيم بينها الحدود والحواجز ، وعندئذ تتلاقى ضمائرها وحقائقها فى ضمير الكون وحقيقته .

وفى لحظات الإشراق تحس الروح بإندماجها فى الكل ، واحتوائها على الكل . . عندئذ لا تحس بأن هنالك ماهو خارج عن ذاتها ؛ ولا بأنها هى متميزة عما حولها . فكل ماحولها مندمج فيها وهى مندمجة فيه .

ومن النص القرآنى نتصور داود وهو يرتل مزاميره ، فيسهو عن نفسه المنفصلة المتميزة

Marfat.com

Marfat.com

المتحيرة . وتهيم روحه فى ظلال الله فى هذا الكون ومجاليه ومخلوقاته الجوامد منها والأحياء . فيحس ترجيعها ، ويتجاوب معها كما تتجاوب معه . وإذا الكون كله فرقة مرتلة عازفة مسبحة بجلال الله وحده . « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .. إنما يفقهه من يتجرد من الحواجز والفواصل ، وينطلق مع أرواح الكائنات ، المتجهة كلها إلى الله .

« وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير » .. «وكنا فاعلين » فما هنالك من شىء يعز على القدرة أو يتأبى حين تريد . يستوى أن يكون مألوفا للناس أو غير مألوف .

« وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون ؟ » .

تلك هى صنعة الدروع حلقا متداخلة ، بعد أن كانت تصنع صفيحة واحدة جامدة . والزرد المتداخل أيسر استعمالا وأكثر مرونة ، ويبدو أن داود هو الذى ابتدع هذا النوع من الدروع بتعليم الله . والله يمن على الناس أن علم داود هذه الصناعة لوقايتهم فى الحرب : « لتحصنكم من بأسكم » وهو يسألهم سؤال توجيه وتحضيض : « فهل أنتم شاكرون ؟ » ..

والحضارة البشرية سارت فى طريقها خطوة خطوة وراء الكشوف . ولم تجىء طفرة ، لأن خلافة الأرض تركت لهذا الإنسان ، ولمداركه التى زوده الله بها ليخطو فى كل يوم خطوة ؛ ويعيد تنسيق حياته وفق هذه الخطوة . وإعادة تنسيق الحياة وفق نظام جديد ليست سهلة على النفس البشرية ؛ فهى تهز أعماقها ؛ وتغير عاداتها ومألوفها ؛ وتقتضى فترة من الزمان لإعادة الاستقرار الذى تطمئن فيه إلى العمل والإنتاج . ومن ثم شاءت حكمة الله أن تكون هناك فترة استقرار تطول أو تقصر . بعد كل تنسيق جديد .

والقلق الذى يستولى على أعصاب العالم اليوم منشؤه الأول سرعة توالى الهزات العلمية والاجتماعية التى لا تدع للبشرية فترة استقرار ، ولا تدع للنفس فرصة التكيف والتذوق للوضع الجديد .

* * *

ذلك شأن دواد . فأما شأن سليمان فهو أعظم :

« ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ؛ وكنا بكل شىء

Marfat.com

عالمين . ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك . وكنا لهم حافظين » ..

وتدور حول سليمان روايات وتصورات وأقاويل ، معظمها مستمد من الاسرائيليات والتخيلات والأوهام . ولكن لا نضل فى هذا التيه . فإننا نقف عند حدود النصوص القرآنية وليس وراءها أثر مستيقن فى قصة سليمان بالذات .

والنص القرآنى هنا يقرر تسخير الريح - وهى عاصفة - لسليمان ، تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها . وهى فى الغالب الشام لسبق الإشارة إليها بهذه الصفة فى قصة ابراهيم .. فكيف كان هذا التسخير ؟

هنالك قصة بساط الريح الذى قيل : إن سليمان كان يجلس عليه هو وحاشيته فيطير بهم إلى الشام فى فترة وجيزة . وهى مسافة كانت تقطع فى شهر على الجمال . ثم يعود كذلك .. وتستند هذه الرواية إلى ماورد فى سورة « سبأ » من قوله : « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر » ..

ولكن القرآن لم يذكر شيئا عن بساط الريح ذاك ؛ ولم يرد ذكره كذلك فى أى أثر مستيقن . فليس لنا مانستند عليه لنقرر مسألة البساط .

والأسلم إذن أن نفسر تسخير الريح بتوجيهها - بأمر الله - إلى الأرض المباركة فى دورة تستغرق شهرا طردا وعكسا .. كيف ؟ لقد قلنا : إن القدرة الإلهية الطليقة لا تسأل كيف ؟ فخلق النواميس وتوجيهها هو من اختصاص تلك القدرة الطليقة . والمعلوم للبشر من نواميس الوجود قليل . ولا يمتنع أن تكون هناك نواميس أخرى خفية على البشر تعمل ، وتظهر آثارها عندما يؤذن لها بالظهور : « وكنا بكل شىء عالمين » .. العلم المطلق لا كعلم البشر المحدود .

وكذلك تسخير الجن لسليمان - عليه السلام - ليغوصوا فى أعماق البحر أو أعماق اليابسة . ويستخرجوا كنوزها المخبوءة لسليمان ؛ أو ليعملوا له أعمالا غير هذا وذاك .. فالجن كل ماخفى . وقد قررت النصوص القرآنية أن هناك خلقا يسمون الجن خافين علينا ، فمن هؤلاء سخر الله لسليمان من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك . وحفظهم فلا يهربون ولا يفسدون ولا يخرجون على طاعة عبده . وهو القاهر فوق عباده يسخرهم حين يشاء كيف يشاء .

وعند هذا الحد المأمون نقف فى ظلال النصوص . فلا نسبح فى الإسرائليات .

* * *

لقد ابتلى الله داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ بالسراء . وفتنهما فى هذه النعمة . فتن داود فى القضاء . وفتن سليمان بالخيل الصافنات ـ كما سيأتى فى سورة ص ـ فلا نتعرض هنا لتفصيلات الفتنة حتى يأتى ذكرها فى موضعها . إنما نخلص إلى نتائجها . . لقد صبر داود ، وصبر سليمان للابتلاء بالنعمة ـ بعد الاستغفار من الفتنة ـ واجتازا الامتحان فى النهاية بسلام ؛ فكانا شاكرين لنعمة الله .

* * *

والآن نجىء إلى الابتلاء بالضراء فى قصة أيوب عليه السلام :

« وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر ، وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا مابه من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم ، رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » .

وقصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء . والنصوص القرآنية تشير إلى مجملها دون تفصيل . وهى فى هـذا الموضع تعرض دعاء أيوب واستجابة الله للدعاء . لأن السياق سياق رحمة الله بأنبيائه ، ورعايته لهم فى الابتلاء . سواء كان الابتلاء بتكذيب قومهم لهم وإيذائهم ، كما فى قصص ابراهيم ولوط ونوح . أو بالنعمة فى قصة داود وسليمان . أو بالضر كما فى حال أيوب . . .

وأيوب هنا فى دعائه لا يزيد على وصف حاله : «أنى مسنى الضر» . ووصف ربه بصفته : « وأنت أرحم الراحمين » . ثم لا يدعو بتغيير حاله ، صبرا على بلائه ، ولا يقترح شيئا على ربه ، تأدبا معه وتوقيرا . فهو نموذج للعبد الصابر لايضيق صدره بالبلاء ، ولا يتململ من الضر الذى تضرب به الأمثال فى جميع الأعصار[1] . بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه ، فيدع الأمر كله إليه ، اطمئنانا إلى علمه بالحال وغناه عن السؤال .

---

(١) تكثر الأقوال وتبالغ الروايات فى الضر الذى مس أيوب . حتى تقول : إنه مرض مرضا منفرا تحاشاه الناس بسببه وطرحوه خارج المدينة . . وليس وراء هذا القول من سند . والرسالة تتنافى مع المرض المنفر . والظاهر من نصوص القرآن أنه أصيب بالضر فى أهله ونفسه . . وفى هذا كفاية للابتلاء .

وفى اللحظة التى توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة ، وكانت الرحمة ، وكانت نهاية الابتلاء : « فاستجبنا له وكشفنا مابه من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم » . .

رفع عنه الضر فى بدنه فإذا هو معافى صحيح . ورفع عنه الضر فى أهله فعوضه عمن فقد منهم ، ورزقه مثلهم . وقيل هم أبناؤه فوهب الله له مثليهم . أو أنه وهب له أبناء وأحفاد.

« رحمة من عندنا » فكل نعمة فهى رحمة من عند الله ومنة . « وذكرى للعابدين » . تذكرهم بالله وبلائه ، ورحمته فى البلاء وبعد البلاء . وإن فى بلاء أيوب لمثلا للبشرية كلها ؛ وإن فى صبر أيوب لعبرة للبشرية كلهـا . وإنه لأفق للصبر والأدب وحسن العاقبة تتطلع إليه الأبصار .

والإشارة « للعابدين » بمناسبة البلاء إشارة لها مغزاها . فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء . وتلك تكاليف العبادة وتكاليف العقيدة وتكاليف الإيمان . والأمر جد لا لعب . والعقيدة أمانة لا تسلم إلا للأمناء القادرين عليها ، المستعدين لتكاليفهـا وليست كلمة تقولها الشفاه ، ولا دعوى يدعيها من يشاء . ولا بد من الصبر ليجتاز العابدون البلاء . .

* * *

بعد ذلك يشير السياق مجرد إشارة إلى اسماعيل وإدريس وذى الكفل :

« وإسماعيل وإدريس وذا الكفل . كل من الصابرين . وأدخلنـاهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين » . .

فهو عنصر الصبر كذلك يشير إليه فى قصص هؤلاء الرسل .

فأما إسماعيل فقد صبر على ابتلاء ربه له بالذبح فاستسلم لله وقال : « ياأبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » .

وأما إدريس فقد سبق إن زمانه مجهول وكذلك مكانه ، وإن هنا لك قولا بأنه أوزوريس الذى عبده المصريون بعد موته ، وصاغوا حوله الأساطير . بوصف المعلم الأول

Marfat.com

Marfat.com

للبشر ، الذى علمهم الزراعة والصناعة ! ولكننا لا نملك على هـذا دليلا . فلنعلم أنه كان من الصابرين على نحو من أنحاء الصبر الذى يستحق التسجيل فى كتاب الله الباقى .

وأما ذو الكفل فهو كذلك مجهول لا نملك تحديد زمانه ولا مكانه . والأرجح أنه من أنبياء بنى إسرائيل . وقيل : إنه من صالحيهم ، وأنه تكفل لأحـد أنبيائهم قبل موت هـذا النبى . بأن يخلفه فى بنى إسرائيل على أن يتكفل بثلاث : أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب فى القضاء . فوفى بما تكفل به وسمى ذا الكفل لذاك ـ ولكن هذه ليست سوى أقوال لا دليل عليها . والنص القرآنى يكفى فى هذا الموضع لتسجيل صفة الصبر لذى الكفل .

«وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين» .. وهذا هو المقصود بذكرهم فى هذا السياق .

* * *

ثم تجىء قصة يونس ـ عليه السلام ـ وهو ذو النون .

« وذا النون إذ ذهب مغاضبا . فظن أن لن نقدر عليه . فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظـالمين . فاستجبنـا له ونجينـاه من الغم . وكذلك ننجى المؤمنين » ..

وقصة يونس تأتى هنا فى صورة إشارة سريعه مراعاة للتناسق فى السياق ، وتفصل فى سورة الصافات . ولكن لا بد لنا من بعض التفصيل هنا لهذه الإشارة كى تكون مفهومة .

لقد سمى ذا النون ـ أى صاحب الحوت ـ لأن الحوت التقمه ثم نبذه . وقصة ذلك أنه أرسل إلى قرية فدعا أهلها إلى الله فاستعصوا عليه ، فضاق بهم صدرا ، وغادرهم مغاضبا ، ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم . ظانا أن الله لن يضيق عليه الأرض ، فهى فسيحة ، والقرى كثيرة ، والأقوام متعددون . وما دام هؤلاء يستعصون على الدعوة ، فسيوجهه الله إلى قوم آخرين .

ذلك معنى « فظن أن لن نقدر عليه » أى أن لن نضيق عليه .

وقاده غضبه الجامح ، وضيقه الخانق ، إلى شاطىء البحر ، فوجد سفينة مشحونة فركب فيها . حتى إذا كانت فى اللجة ثقلت ، وقال ربانها : إنه لا بد من إلقاء أحـد ركابها فى

Marfat.com

البحر لينجو سائر من فيها من الغرق . فساهموا فجاء السهم على يونس ، فألقوه أو ألقى هو بنفسه . فالتقمه الحوت .. مضيقاً عليه أشد الضيق ! فلما كان فى الظلمات : ظلمة جوف الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل نادى : « أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » . فاستجاب الله دعاءه ، ونجاه من الغم الذى هو فيه . ولفظه الحوت على الساحل . ثم كان من أمره ما يفصله فى سورة الصافات . فحسبنا هذا فى هذا السياق .

إن فى هذه الحلقة من قصة يونس ـ عليه السلام ـ لفتات ولمسات نقف أمامها لحظات .

إن يونس لم يصبر على تكاليف الرسالة ، فضاق صدرا بالقوم ، وألقى عبء الدعوة ، وذهب مغاضباً ، ضيق الصدر ، حرج النفس ؛ فأوقعه الله فى الضيق الذى تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين . ولولا أن ثاب إلى ربه ! واعترف بظلمه لنفسه ودعوته وواجبه . لما فرج الله عنه هذا الضيق . ولكنها القدرة حفظته ونجته من الغم الذى يعانيه .

وأصحاب الدعوات لا بد أن يحتملوا تكاليفها ، وأن يصبروا على التكذيب بها ، والإيذاء من أجلها . وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس حقا . ولكنه بعض تكاليف الرسالة . فلا بد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا ، ولا بد أن يثابروا ويثبتوا . ولا بد أن يكرروا الدعوة ويبدئوا فيها ويعيدوا .

إنهم لا يجوز لهم أن ييأسوا من صلاح النفوس واستجابة القلوب ، مهما واجهوا من إنكار وتكذيب ، ومن عتو وجحود . فإذا كانت المرة المئة لم تصل إلى القلوب ، فقد تصل المرة الواحدة بعد المئة : وقد تصل المرة الواحدة بعد الألف . . ولو صبروا هذه المرة وحاولوا ولم يقنطوا لتفتحت لهم أرصاد القلوب !

إن طريق الدعوات ليس هيناً لينا . واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة . فهناك ركام من الباطل والضلال والتقاليد والعادات ، والنظم والأوضاع ، يجثم على القلوب . ولا بد من إزالة هذا الركام . ولا بد من استحياء القلوب بكل وسيلة . ولا بد من لمس جميع المراكز الحساسة . ومن محاولة العثور على العصب الموصل . . وإحدى اللمسات ستصادف مع المثابرة والصبر والرجاء . ولمسة واحدة قد تحول الكائن البشرى تحويلا تاماً فى لحظة متى أصابت اللمسة موضعها . وإن الإنسان ليدهش أحيانا وهو يحاول ألف محاولة ، ثم إذا لمسة

عابرة تصيب موضعها فى الجهاز البشرى فينتفض كله بأيسر مجهود ، وقد أعيا من قبل على كل الجهود ! .

وأقرب ما يحضرنى للتمثيل لهذه الحالة جهاز الاستقبال عند البحث عن محطة إرسال . . إنك لتحرك المشير مرات كثيرة ذهاباً وإياباً فتخطىء المحطة وأنت تدقق وتصوب . ثم إذا حركة عابرة من يدك . فتتصل الموجة وتنطلق الأصداء والأنغام !

إن القلب البشرى هو أقرب ما يكون إلى جهاز الاستقبال . وأصحاب الدعوات لا بد أن يحاولوا تحريك المشير ليتلقى القلب من وراء الأفق . ولمسة واحدة بعد ألف لمسة قد تصله بمصدر الإرسال !

إنه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب لأن الناس لا يستجيبون لدعوته ، فيهجر الناس . . إنه عمل مريح ، قد يفثأ الغضب ، ويهدىء الأعصاب . . ولكن أين هى الدعوة ؟ وما الذى عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين ؟ !

إن الدعوة هى الأصل لا شخص الداعية ! فليضق صدره . ولكن ليكظم ويمض . وخير له أن يصبر فلا يضيق صدره بما يقولون !

إن الداعية أداة فى يد القدرة . والله أرعى لدعوته وأحفظ . فليؤد هو واجبه فى كل ظرف ، وفى كل جو ، والبقية على الله . والهدى هدى الله .

وإن فى قصة ذى النون لدرسا لأصحاب الدعوات ينبغى أن يتأملوه .

وإن فى رجعة ذى النون إلى ربه واعترافه بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغى أن يتدبروها .

وإن فى رحمة الله لذى النون واستجابة دعائه المنيب فى الظلمات لبشرى للمؤمنين : « وكذلك ننجى المؤمنين » . .

* * *

ثم إشارة إلى قصة زكريا ويحيَ ـ عليهما السلام ـ واستجابة الله لزكريا عند ما دعاه : « وزكريا إذ نادى ربه . رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ، ووهبنا

Marfat.com

له يحي ، وأصلحنا له زوجه . إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين » .

وقصة مولد يحي سبقت مفصلة فى سورة مريم وفى سورة آل عمران . وهى ترد هنا متناسقة مع السياق . فتبدأ بدعاء زكريا : « رب لا تذرنى فردا » بلا عقب يقوم على الهيكل : وكان زكريا قائما على هيكل العبادة فى بنى اسرائيل قبل مولد عيسى ـ عليه السلام ـ ولا ينسى زكريا أن الله هو وارث العقيدة ووارث المال : « وأنت خير الوارثين » إنما هو يريد من ذريته من يحسن الخلافة بعده فى أهله ودينه وماله . لأن الخلق ستار القدرة فى الأرض .

وكانت الاستجابة سريعة ومباشرة : « فاستجبنا له ، ووهبنا له يحي وأصلحنا له زوجه » وكانت عقيما لا تصلح للنسل . . ويختصر السياق تفصيلات هذا كله ليصل مباشرة إلى استجابة الله للدعاء .

« إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات » . . فسارع الله فى استجابة الدعاء .

« ويدعوننا رغبا ورهبا » . . رغبة فى الرضوان ورهبة للغضب . فقلوبهم وثيقة الصلة دائمة التطلع .

« وكانوا لنا خاشعين » . . لا متكبرين ولا متجبرين . .

بهذه الصفات فى زكريا وزوجه وابنهما يحي استحق الوالدان أن ينعم عليهما بالابن الصالح. فكانت أسرة مباركة تستحق رحمة الله ورضاه .

* * *

أخيراً يذكر مريم بمناسبة ذكر ابنها عليه السلام :

« والتى أحصنت فرجها ، فنفخنا فيها من روحنا ، وجعلناها وابنها آية للعالمين » . .

ولا يذكر هنا اسم مريم ، لأن المقصود فى سلسلة الأنبياء هو ابنها ـ عليه السلام ـ وقد جاءت هى تبعا له فى السياق . إنما يذكر صفتها المتعلقة بولدها : « والتى أحصنت فرجها » . أحصنته فصانته من كل مباشرة . والإحصان يطلق عادة على الزواج بالتبعية ، لأن الزواج يحصن من الوقوع فى الفاحشة . أما هنا فيذكر فى معناه الأصيل ، وهو الحفظ والصون أصلا من كل

Marfat.com

مباشرة شرعية أو غير شرعية . وذلك تنزيها لمريم عن كل ما رماها به اليهود مع يوسف النجار الذى كان معها فى خدمة الهيكل . والذى تقول عنه الأناجيل المتداولة ، إنه كان قد تزوجها ولكنه لم يدخل بها ولم يقربها .

لقد أحصنت فرجها « فنفخنا فيها من روحنا » والنفخ هنا شائع لا يحدد موضعه كما فى سورة التحريم ـ وقد سبق الحديث عن هذا الأمر فى تفسير سورة مريم ـ ومحافظة على أن نعيش فى ظلال النص الذى بين أيدينا فإننا لا نفصل ولا نطول ، فنمضى مع النص إلى غايته :

« وجعلناها وابنها آية للعالمين » . .

وهى آية غير مسبوقة ولا ملحوقة . آية فذة واحدة فى تاريخ البشرية جميعا . ذلك أن المثل الواحد من هذا النوع يكفى لتتأمله البشرية فى أجيالها جميعا ؛ وتدرك يد القدرة الطليقة التى تخلق النواميس ، ولكنها لا تحتبس داخل النواميس .

* * *

وفى نهاية الاستعراض الذى شمل نماذج من الرسل ، ونماذج من الابتلاء ، ونماذج من رحمة الله ـ يعقب بالغرض الشامل من هذا الاستعراض :

« إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » . .

إن هذه أمتكم . أمة الأنبياء . أمة واحدة . تدين بعقيدة واحدة . وتنهج نهجا واحدا . هو الاتجاه إلى الله دون سواه .

أمة واحدة فى الأرض ، ورب واحد فى السماء . لا إله غيره ولا معبود إلا إياه .

أمة واحدة وفق سنة واحدة ، تشهد بالإرادة الواحدة فى الأرض والسماء .

وهنا يلتقى هذا الاستعراض بالمحور الذى تدور عليه السورة كلها ؛ وتشترك فى تقرير عقيدة التوحيد ، تشهد بها مع سنن الكون وناموس الوجود . .

« وتقطعوا أمرهم بينهم . كل إلينا راجعون ﴿٩٣﴾ فمن يعمل من الصالحات وهو
مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون * وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا
يرجعون .

« حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقترب
الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا . . ياويلنا ! قد كنا في غفلة
من هذا ، بل كنا ظالمين * إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها
واردون * لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون * لهم فيها زفير ، وهم
فيها لا يسمعون * إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون
حسيسها ، وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون * لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتتلقاهم
الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون * يوم نطوي السماء كطي السجل
للكتب ، كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعداً علينا إنا كنا فاعلين .

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون .

« إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين * وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين * قل : إنما
يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ؟ * فإن تولوا فقل آذنتكم
على سواء وإن أدري أقريب أم بعيد ماتوعدون * إنه يعلم الجهر من القول ويعلم
ماتكتمون * وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين .

« قال : رب احكم بالحق ، وربنا الرحمان المستعان على ما تصفون » ﴿١١٢﴾

Marfat.com

Marfat.com

هذا الشوط الأخير فى السورة بعد عرض سنن الله الكونية ، الشاهدة بوحدة الخالق ؛ وسنن الله فى إرسال الرسل بالدعوات الشاهدة بوحدة الأمة ووحدة العقيدة .. يعرض السياق فيه مشهداً للساعة وأشراطها ، يتبين فيه مصير المشركين بالله ومصير الشركاء ؛ ويتفرد الله ذو الجلال بالتصريف فيه والتدبير .

ثم يقرر سنة الله فى وراثة الأرض ، ورحمة الله للعالمين المتمثلة فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

وعندئذ يؤمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ينفض يده منهم ، وأن يدعهم لمصيرهم ، فيترك الحكم لله فيهم ؛ ويستعين به على شركهم وتكذيبهم واستهزائهم ، وانصرافهم إلى اللعب واللهو ، ويوم الحساب قريب .

* * *

« وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون . فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه ، وإنا له كاتبون . وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون » ..

إن أمة الرسل واحدة تقوم على عقيدة واحدة وملة واحدة ، أساسها التوحيد الذى تشهد به نواميس الوجود ؛ والذى دعت إليه الرسل منذ أولى الرسالات إلى أخراها دون تبديل ولا تغيير فى هذا الأصل الكبير .

إنما كانت التفصيلات والزيادات فى مناهج الحياة القائمة على عقيدة التوحيد ، بقدر استعداد كل أمة ، وتطور كل جيل ؛ وبقدر نمو مدارك البشرية ونمو تجاربها ، واستعدادها لأنماط من التكاليف ومن التشريعات ؛ وبقدر حاجاتها الجديدة التى نشأت من التجارب ، ومن نمو الحياة ووسائلها وارتباطاتها جيلا بعد جيل .

ومع وحدة أمة الرسل ، ووحدة القاعدة التى تقوم عليها الرسالات .. فقد تقطع أتباعها أمرهم بينهم ، كأنما اقتطع كل منهم قطعة وذهب بها . وثار بينهم الجدل ، وكثر بينهم الخلاف ، وهاجت بينهم العداوة والبغضاء .. وقع ذلك بين أتباع الرسول الواحد حتى ليقتل بعضهم بعضاً باسم العقيدة . والعقيدة واحدة ، وأمة الرسل كلها واحدة .

لقد تقطعوا أمرهم بينهم فى الدنيا . ولـكنهم جميعاً سيرجعون إلى الله ، فى الآخرة : « كل إلينا راجعون » فالمرجع إليه وحـده ، وهو الذى يتولى حسابهم ويعلم ما كانوا عليه من هدى أو ضلال :

« فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا كفران لسعيه ، وإنا له كاتبون » .

هـذا هو قانون العمل والجزاء .. لا جحود ولا كفران للعمل الصالح متى قام على قاعدة الإيمان .. وهو مكتوب عند الله لا يضيع منه شيء ولا يغيب .

ولا بد من الإيمان لتكون للعمل الصالح قيمته ، بل ليثبت للعمل الصالح وجوده . ولا بد من العمل الصالح لتكون للإيمان ثمرته ، بل لتثبت للإيمان حقيقته .

إن الإيمان هو قاعدة الحياة ، لأنه الصلة الحقيقية بين الإنسان وهذا الوجود ، والرابطة التى تشد الوجود بما فيه ومن فيه إلى خالقه الواحد ، وترده إلى الناموس الواحـد الذى ارتضاه ، ولا بد من القاعدة ليقوم البناء . والعمل الصالح هو هـذا البناء . فهو منهـار من أساسه مالم يقم على قاعدته .

والعمل الصالح هو ثمرة الإيمان التى تثبت وجوده وحيويته فى الضمير . والإسلام بالذات عقيدة متحركة متى تم وجودها فى الضمير تحولت إلى عمل صالح هو الصورة الظاهرة للإيمان المضمر . والثمرة اليانعة للجذور الممتدة فى الأعماق .

ومن ثم يقرن القرآن دائماً بين الإيمان والعمل الصالح كلما ذكر العمل والجزاء . فلا جزاء على إيمان عاطل خامد لا يعمل ولا يثمر . ولا على عمل منقطع لا يقوم على الإيمان .

والعمل الطيب الذى لا يصدر عن إيمان إنما هو مصادفة عابرة ، لأنه غير مرتبط بمنهج مرسوم ، ولا موصول بناموس مطرد . وإن هو إلا شهوة أو نزوة غـير موصولة بالباعث الأصيل للعمل الصالح فى هـذا الوجود . وهو الإيمان بإله يرضى عن العمل الصالح ، لأنه وسيلة البناء فى هـذا الـكون ، ووسيلة الـكمال الذى قدره الله لهذه الحياة . فهو حركة ذات غاية مرتبطة بغاية الحياة ومصيرها ، لا فلتة عابرة ، ولا نزوة عارضة ، ولا رمية بغير هدف ، ولا اتجاهاً معزولا عن اتجاه الـكون وناموسه الـكبير .

والجزاء على العمل يتم فى الآخرة حتى ولو قدم منه قسط فى الدنيا . فالقرى التى هلـكت

Marfat.com

Marfat.com

بعذاب الاستئصال ستعود كذلك حتما لتنال جزاءها الأخير ، وعدم عودتها ممتنعة ، فهي راجعة بكل تأكيد .

« وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون » ..

إنما يفرد السياق هذه القرى بالذكر بعد أن قال : « كل إلينا راجعون » لأنه قد يخطر للذهن أن هلاكها في الدنيا كان نهاية أمرها ، ونهاية حسابها وجزائها . فهو يؤكد رجعتها إلى الله ، وينفي عدم الرجعة نفيا قاطعا في صورة التحريم لوقوعه . . وهو تعبير فيه شيء من الغرابة ، مما جعل المفسرين يؤولونه فيقدرون أن « لا » زائدة . وأن المعنى هي نفي رجعة القرى إلى الحياة في الدنيا بعد إهلاكها . أو نفي رجوعهم عن غيهم إلى قيام الساعة . وكلاهما تأويل لا داعي له . وتفسير النص على ظاهره أولى ، لأن له وجهه في السياق على النحو الذي ذكرنا .

* * *

ثم يعرض مشهدا من مشاهد القيامة يبدؤه بالعلامة التي تدل على قرب الموعد . وهو فتح يأجوج ومأجوج :

« حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، واقترب الوعد الحق ، فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا . ياويلنا قد كنا في غفلة من هـذا ، بل كنا ظالمين . إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها ، وكل فيها خالدون . لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون . إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون . يوم نطوى السماء كطي السجل للكتب ، كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا إنا كنا فاعلين » ..

وقد قلنا من قبل عند الكلام على يأجوج ومأجوج في قصة ذي القرنين في سورة الكهف : اقتراب الوعد الحق الذي يقرنه السياق بفتح يأجوج ومأجوج، ربما يكون قد وقع بانسياح التتار وتدفقهم شرقا وغربا ، وتحطيم الممالك والعروش . . لأن القرآن قد قال منذ

أيام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « اقتربت الساعة » . غير أن اقتراب الوعد الحق لا يحدد زمانا معينا للساعة . فحساب الزمن فى تقدير الله غيره فى تقدير البشر ، « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » .

إنما المقصود هنا هو وصف ذلك اليوم حين يجىء ، والتقديم له بصورة مصغرة من مشاهد الأرض ، هى تدفق يأجوج ومأجوج من كل حدب فى سرعة واضطراب . على طريقة القرآن الكريم فى الاستعانة بمشاهدات البشر والترقى بهم من تصوراتهم الأرضية إلى المشاهد الأخروية .

وفى المشهد المعروض هنا يبرز عنصر المفاجأة التى تبهت المفجوئين !

« فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا » ..

لا تطرف من الهول الذى فوجئوا به . ويقدم فى التعبير كلمة « شاخصة » لترسم المشهد وتبرزه !

ثم يميل السياق عن حكاية حالهم إلى إبرازهم يتكلمون ، وبذلك يحيى المشهد ويستحضره :

«ياويلنا ! قد كنا فى غفلة من هذا . بل كنا ظالمين » ..

وهو تفجع المفجوء الذى تتكشف له الحقيقة المروعة بغتة ، فيذهل ويشخص بصره فلا يطرف ، ويدعو بالويل والهلاك ، ويعترف ويندم ، ولكن بعد فوات الأوان !

وحين يصدر هذا الاعتراف فى ذهول المفاجأة يصدر الحكم القاطع الذى لا مرد له :

« إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » :

وكأنما هم اللحظة فى ساحة العرض ، يردون جهنم هم وآلهتهم المدعاة ؛ وكأنما هم يقذفون فيها قذفا بلا رفق ولا أناة ؛ وكأنما تحصب بهم حصبا كما تحصب بالنواة ! وعندئذ يوجه إليهم البرهان على كذب مايدعون لها من كونها آلهة . يوجه إليهم البرهان من هذا الواقع المشهود :

«لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها » ..

وهو برهان وجدانى ينتزع من هذا المشهد المعروض عليهم فى الدنيا ، وكأنما هو واقع فى الآخرة . . ثم يستمر السياق على أنهم قد وردوا جهنم فعلا ، فيصف مقامهم فيها ، ويصور حالهم هناك ؛ وهى حال المكروب المذهوب بإدراكه من هول ماهو فيه :

Marfat.com

« وكل فيها خالدون . لهم فيها زفير ، وهم فيها لا يسمعون » .

وندع هؤلاء لنجد المؤمنين فى نجوة من هذا كله ، قد سبقت لهم الحسنى من الله ، وقدر لهم الفوز والنجاة :

« إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون » ..

ولفظة « حسيسها » من الألفاظ المصورة بجرسها لمعناها . فهو تنقل صوت النار وهى تسرى وتحرق ، وتحدث ذلك الصوت المفزع . وإنه لصوت يتفزع له الجلد ويقشعر . ولذلك نجى الذين سبقت لهم الحسنى من سماعه ـ فضلا على معاناته ـ نجوا من الفزع الأكبر الذى يذهل المشركين . وعاشوا فيما تشتهى أنفسهم من أمن ونعيم تولى الملائكة استقبالهم بالترحيب ، ومصاحبتهم لتطمئن قلوبهم فى جو الفزع المرهوب :

« لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتتلقاهم الملائكة . هذا يومكم الذى كنتم توعدون » ..

ويختم المشهد بمنظر الكون الذى آل إليه . وهو يشارك فى تصوير الهول الآخذ بزمام القلوب ، وبزمام الكائنات كلها فى ذلك اليوم العصيب :

« يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب » ...

فإذا السماء مطوية كما يطوى خازن الصحائف صحائفه ؛ وقد قضى الأمر ، وانتهى العرض ، وطوى الكون الذى كان يألفه الإنسان .. وإذا عالم جديد وكون جديد :

« كما بدأنا أول خلق نعيده » .. « وعدا علينا إنا كنا فاعلين » ..

* * *

ومن هذا المشهد المصور لنهاية الكون والأحياء فى الآخرة يعود السياق لبيان سنة الله فى وراثة الأرض ، وصيرورتها للصالحين من عبادِه فى الحياة . وبين المشهدين مناسبة وارتباط :

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » ..

والزبور إما أن يكون كتابا بعينه هو الذى أوتيه داود عليه السلام . ويكون الذكر إذن هو التوراة التى سبقت الزبور . وإما أن يكون وصفا لكل كتاب بمعنى قطعة من الكتاب

Marfat.com

الأصيل الذى هو الذكر وهو اللوح المحفوظ ، الذى يمثل المنهج الكلى ، والمرجع الكامل ، لكل نواميس الله فى الوجود .

وعلى أية حال فالمقصود بقوله : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر . . . » هو بيان سنة الله المقررة فى وراثة الأرض : « أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . .

فما هى هذه الوراثة ؟ ومن هم عباد الله الصالحون ؟

لقد استخلف الله آدم فى الأرض لعمارتها وإصلاحها ، وتنميتها وتحويرها ، واستخدام الكنوز والطاقات المرصودة فيها ، واستغلال الثروات الظاهرة والمخبوءة ، والبلوغ بها إلى الكمال المقدر لها فى علم الله .

ولقد وضع الله للبشر منهجا كاملا متكاملا للعمل على وفقه فى هذه الأرض . منهجا يقوم على الإيمان والعمل الصالح . وفى الرسالة الأخيرة للبشر فصل هذا المنهج ، وشرع له القوانين التى تقيمه وتحرسه ؛ وتكفل التناسق والتوازن بين خطواته .

فى هذا المنهج ليست عمارة الأرض واستغلال ثرواتها والانتفاع بطاقاتها هو وحده المقصود . ولكن المقصود هو هذا مع العناية بضمير الإنسان ، ليبلغ الإنسان كماله المقدر له فى هذه الحياة . فلا ينتكس حيوانا فى وسط الحضارة المادية الزاهرة ؛ ولا يهبط إلى الدرك بإنسانيته وهو يرتفع إلى الأوج فى استغلال موارد الثروة الظاهرة والمخبوءة .

وفى الطريق لبلوغ ذلك التوازن والتناسق تشيل كفة وترجح كفة . وقد يغلب على الأرض جبارون وظلمة وطغاة . وقد يغلب عليها همج ومتبربرون وغزاة . وقد يغلب عليها كفار فجار يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاتها استغلالا ماديا .. ولكن هذه ليست سوى تجارب الطريق . والوراثة الأخيرة هى للعباد الصالحين ، الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح . فلا يفترق فى كيانهم هذان العنصران ولا فى حياتهم .

وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل فى أمة فهى الوارثة للأرض فى أية فترة من فترات التاريخ . ولكن حين يفترق هذان العنصران فالميزان يتأرجح . وقد تقع الغلبة للآخذين بالوسائل المادية حين يهمل الأخذ بها من يتظاهرون بالإيمان ، وحين تفرغ قلوب المؤمنين

Marfat.com

Marfat.com

من الإيمان الصحيح الدافع إلى العمل الصالح ، وإلى عمارة الأرض ، والقيام بتكاليف الخلافة التي وكلها الله إلى هذا الإنسان .

وما على أصحاب الإيمان إلا أن يحققوا مدلول إيمانهم ، وهو العمل الصالح ، والنهوض بتبعات الخلافة ليتحقق وعد الله ، وتجرى سنته : « أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . . فالمؤمنون العاملون هم العباد الصالحون . .

* * *

وفى النهاية يجىء إيقاع الختام فى السورة مشابها لإيقاع الافتتاح !

« إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين . وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . قل : إنما يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ؟ فإن تولوا فقل : آذنتكم على سواء ، وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون . إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون . وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين . . قال : رب احكم بالحق ، وربنا الرحمان المستعان على ما تصفون » . .

« إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين » . إن فى هذا القرآن وما يكشفه من سنن فى الكون والحياة . ومن مصائر الناس فى الدنيا والآخرة . ومن قواعد العمل والجزاء . . . إن فى هذا لبلاغا وكفاية للمستعدين لاستقبال هدى الله . ويسميهم « عابدين » لأن العابد خاشع القلب طائع متهيىء للتلقى والتدبر والانتفاع .

ولقد أرسل الله رسوله رحمة للناس كافة ليأخذ بأيديهم إلى الهدى ، وما يهتدى إلا أولئك المتهيئون المستعدون . وإن كانت الرحمة تتحقق للمؤمنين ولغير المؤمنين . .

إن المنهج الذى جاء مع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهج يسعد البشرية كلها ويقودها إلى الكمال المقدر لها فى هذه الحياة .

ولقد جاءت هذه الرسالة للبشرية حينما بلغت سن الرشد العقلى : جاءت كتابا مفتوحا للعقول فى مقبل الأجيال ، شاملا لأصول الحياة البشرية التى لا تتبدل ، مستعدا لتلبية الحاجات المتجددة التى يعلمها خالق البشر ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

ولقد وضع هذا الكتاب أصول المنهج الدائم لحياة إنسانية متجددة . وترك للبشرية أن تستنبط الأحكام الجزئية التى تحتاج إليها ارتباطات حياتها النامية المتجددة ، واستنباط وسائل تنفيذها كذلك بحسب ظروف الحياة وملابساتها ، دون اصطدام بأصول المنهج الدائم.

وكفل للعقل البشرى حرية العمل ، بكفالة حقه فى التفكير ، وبكفالة مجتمع يسمح لهذا العقل بالتفكير . ثم ترك له الحرية فى دائرة الأصول المنهجية التى وضعها لحياة البشر ، كما تنمو وترقى وتصل إلى الكمال المقدر لحياة الناس فى هذه الأرض .

ولقد دلت تجارب البشرية حتى اللحظة على أن ذلك المنهج كان وما يزال سابقا لخطوات البشرية فى عمومه ، قابلا لأن تنمو الحياة فى ظلاله بكل ارتباطاتها نموا مطردا . وهو يقودها دائما ، ولا يتخلف عنها ، ولا يقعد بها ، ولا يشدها إلى الخلف ، لأنه سابق دائما على خطواتها متسع دائما لكامل خطواتها .

وهو فى تلبيته لرغبة البشرية فى النمو والتقدم لا يكبت طاقاتها فى صورة من صور الكبت الفردى أو الجماعى ، ولا يحرمها الاستمتاع بثمرات جهدها وطيبات الحياة التى تحققها .

وقيمة هذا المنهج أنه متوازن متناسق . لايعذب الجسد ليسمو بالروح ، ولا يهمل الروح ليستمتع الجسد . ولا يقيد طاقات الفرد ورغائبه الفطرية السليمة ليحقق مصلحة الجماعة أو الدولة . ولا يطلق للفرد نزواته وشهواته الطاغية المنحرفة لتؤذى حياة الجماعة ، أو تسخرها لإمتاع فرد أو أفراد .

وكافة التكاليف التى يضعها ذلك المنهج على كاهل الإنسان ملحوظ فيها أنها فى حدود طاقته . ولمصلحته ؛ وقد زود بالاستعدادات والمقدرات التى تعينه على أداء تلك التكاليف ، وتجعلها محببة لديه ـ مهما لقى من أجلها الآلام أحيانا ـ لأنها تلبى رغبة من رغائبه ، أو تصرف طاقة من طاقاته .

ولقد كانت رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رحمة لقومه ورحمة للبشرية كلها من بعده والمبادىء التى جاء بها كانت غريبة فى أول الأمر على ضمير البشرية ، لبعد ما كان بينها وبين واقع الحياة الواقعية والروحية من مسافة . ولكن البشرية أخذت من يومها تقرب شيئا فشيئا من آفاق هذه المبادىء ، فتزول غرابتها فى حسها ، وتتبناها وتنفذها ولو تحت عنوانات أخرى .

Marfat.com

لقد جاء الإسلام لينادى بإنسانية واحدة تذوب فيها الفوارق الجنسية والجغرافية . لتلتقى فى عقيدة واحدة ونظام اجتماعى واحد . . وكان هذا غريبا على ضمير البشرية وتفكيرها وواقعها يومذاك . والأشراف يعدون أنفسهم من طينة غير طينة العبيد . . ولكن ها هى ذى البشرية فى خلال نيف وثلاثة عشر قرنا تحاول أن تقفو خطى الإسلام ، فتتعثر فى الطريق ، لأنها لاتهتدى بنور الإسلام الكامل. ولكنها تصل إلى شىء من ذلك المنهج - ولوفى الدعاوى والأقوال - وإن كانت ما تزال أمم فى أوربا وأمريكا تتمسك بالعنصرية البغيضة التى حاربها الإسلام منذ نيف وثلاث مئة وألف عام .

ولقد جاء الإسلام ليسوى بين جميع الناس أمام القضاء والقانون . فى الوقت الذى كانت البشرية تفرق الناس طبقات ، وتجعل لكل طبقة قانونا . بل تجعل إرادة السيد هى القانون فى عهدى الرق والإقطاع . . فكان غريبا على ضمير البشرية يومذاك أن ينادى ذلك المنهج السابق المتقدم بمبدأ المساواة المطلقة أمام القضاء . . ولكن ها هى ذى شيئا فشيئا تحاول أن تصل - ولو نظريا - إلى شىء مما طبقه الإسلام عمليا منذ نيف وثلاث مئة وألف عام .

وغير هذا وذلك كثير يشهد بأن الرسالة المحمدية كانت رحمة للبشرية وأن محمدا - صلى الله عليه وسلم - إنما أرسل رحمة للعالمين . من آمن به ومن لم يؤمن به على السواء . فالبشرية كلها قد تأثرت بالمنهج الذى جاء به طائعة أو كارهة ، شاعرة أو غير شاعرة ؛ وماتزال ظلال هذه الرحمة وارفة ، لمن يريد أن يستظل بها ، ويستروح فيها نسائم السماء الرخية . فى هجير الأرض المحرق وبخاصة فى هذه الأيام .

وإن البشرية اليوم لفى أشد الحاجة إلى حس هذه الرحمة ونداها . وهى قلقة حائرة ، شاردة فى متاهات المادية ، وجحيم الحروب ، وجفاف الأرواح والقلوب . .

* * *

وبعد إبراز معنى الرحمة وتقريره يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأن يواجه المكذبين المستهزئين ، بخلاصة رسالته التى تنبع منها الرحمة للعالمين :

« قل : إنما إلهكم إله واحد . فهل أنتم مسلمون ؟ »

Marfat.com

فهذا هو عنصر الرحمة الأصيل فى تلك الرسالة . عنصر التوحيـد المطلق الذى ينقذ البشرية من أوهام الجاهلية ، ومن أثقال الوثنية ، ومن ضغط الوهم والخرافة. والذى يقيم الحياة على قاعدتها الركينة ، فيربطها بالوجود كله ، وفق نواميس واضحة وسنن ثابتة ، لا وفق أهواء ونزوات وشهوات . والذى يكفل لـكل إنسان أن يقف مرفوع الرأس فلا تنحنى الرؤوس إلا لله الواحد القهار .

هذا هو طريق الرحمة . . « فهل أنتم مسلمون ؟ » .

وهذا هو السؤال الواحد الذى يكلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يلقيه على المـكذبين المستهزئين .

« فإن تولوا فقل : آذنتكم على سواء » . .

أى كشفت لـكم ماعندى فأنا وأنتم على علم سواء . والإيذان يكون فى الحرب لإنهاء فترة السلم ، وإعـلام الفريق الآخر أنهـا حرب لا سلام . . أما هنا ـ والسورة مكية ولم يكن القتال قد فرض بعد ـ فالمقصود هو أن يعلنهم بأنه قد نفض يده منهم ، وتركهم عالمين بمصيرهم ، وأنذرهم عاقبة أمرهم . فلم يعد لهم بعد ذلك عذر ، فليذوقوا وبال أمرهم وهم عالمون . .

« وإن أدرى أقريب أم بعيد ماتوعدون » .

آذنتكم على سواء . ولست أدرى متى يحل بكم ماتوعدون . فهو غيب من غيب الله . لا يعلمه إلا الله . وهو وحده يعلم متى يأخذكم بعذابه فى الدنيـا أو فى الآخرة سواء . وهو يعلم سركم وجهركم ، فما يخفى عليه منـكم خافية :

« إنه يعلم الجهر من القول ، ويعلم ماتكتمون » . .

فأمركم كله مكشوف له ، وحين يعذبكم يعذبكم بما يعلم من أمركم ظاهره وخافيه . وإذا أخر عنكم العذاب لحـكمة تأخيره عند الله :

« وإن أدرى لعله فتنة لـكم ومتاع إلى حين » . .

وما أدرى مايريد الله بهذا التأخير . فلعله يريد أن يكون فتنة لـكم وابتلاء ، فيمتعكم إلى أجل ، ثم يأخذكم أخذ عزيز مقتدر .

Marfat.com

Marfat.com

وبهذا التجهيل يلمس قلوبهم لمسة قوية ، ويدعهم يتوقعون كل احتمال ، ويتوجسون خيفة من المفاجأة التي تأخذهم بغتة . وتوقظ قلوبهم من غفلة المتاع فلعل وراءه الفتنة والبلاء . وتوقع العذاب على غير موعد مضروب كفيل بأن يترك النفس متوجسة ، والأعصاب متوفزة ، ترتقب في كل لحظة أن يرفع الستار المسدل ، عن الغيب المخبوء .

وإن القلب البشرى ليغفل عما ينتظره من غيب الله ، وإن المتاع ليخدع ، فينسى الإنسان أن وراء الستار المسدل ماوراء مما لا يدريه ولا يكشف عنه إلا الله فى موعده المغيب المجهول .

فهذا الإنذار يرد القلوب إلى اليقظة ، ويعذر إليها بين يدى الله قبل فوات الأوان .

* * *

وهنا يتوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى ربه . وقد أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة . وآذنهم على سواء ، وحذرهم بغتة البلاء . . يتوجه إلى ربه الرحمن يطلب حكمه الحق بينه وبين المستهزئين الغافلين ، ويستعينه على كيدهم وتكذيبهم . وهو وحده المستعان :

« قال : رب احكم بالحق ، وربنا الرحمان المستعان على ماتصفون » . .

وصفة الرحمة الكبيرة هنا ذات مدلول . فهو الذى أرسله رحمة للعالمين ، فكذب به المكذبون واستهزأ به المستهزئون . وهو الكفيل بأن يرحم رسوله ويعينه على مايصفون .

وبهذا المقطع القوى تختم السورة كما بدأت بذلك المطلع القوى . فيتقابل طرفاها فى إيقاع نافذ قوى مثير عميق .

سورة الحج مدنية
وآياتها ٧٨ نزلت بعد النور
الا الآيات ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ و ٥٥ فبين مكة والمدينة

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيها الناس اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شيء عظيم ① يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد .

« ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد * كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير .

« يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ـ لنبين لكم ـ ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا . وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور .

« ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير * ثاني عطفه

Marfat.com

لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ ، لَهُ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ، وَنُذِيقُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ ٱللهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ * يَدْعُو مِنْ دُونِ ٱللهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ * يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ، لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَى وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ .

« إِنَّ ٱللهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ . إِنَّ ٱللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ .

« مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ ٱللهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ، فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ !

« وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، وَأَنَّ ٱللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ، وَٱلَّذِينَ هَادُوا ، وَٱلصَّابِئِينَ ، وَٱلنَّصَارَى ، وَٱلْمَجُوسَ ، وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا . . إِنَّ ٱللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، إِنَّ ٱللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ ، وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ . وَمَنْ يُهِنِ ٱللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إِنَّ ٱللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ .

« هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ . فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ، يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ، وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ *

Marfat.com

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ، وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ» ﴿٢٤﴾

هـذه السورة مشتركة بين مكية ومدنية كما يبدو من دلالة آياتها . وعلى الأخص آيات الإذن بالقتال[1] . وآيات العقاب بالمثل[2] ، فهى مدنية قطعا . فالمسلمون لم يؤذن لهم فى القتال والقصاص إلا بعد الهجرة . وبعد قيام الدولة الإسلامية فى المدينة . أما قبل ذلك فقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين بايعه أهل يثرب ، وعرضوا عليه أن يميلوا على أهل منى من الـكفار فيقتلوهم « إنى لم أومر بهـذا » . حتى إذا صارت المدينة دار إسلام شرع الله القتال لرد أذى المشركين عن المسلمين والدفاع عن حرية العقيدة ، وحرية العبادة للمؤمنين .

والذى يغلب على السورة هو موضوعات السور المـكية ، وجو السور المـكية . فموضوعات التوحيد والتخويف من الساعة ، وإثبات البعث ، وإنكار الشرك . ومشاهد القيامة ، وآيات الله المبثوثة فى صفحات الـكون .. بارزة فى السورة وإلى جوارها الموضوعات المدنية من الإذن بالقتال ، وحماية الشعائر ، والوعد بنصر الله لمن يقع عليـه البغى وهو يرد العدوان ، والأمر بالجهاد فى سبيل الله .

والظلال الواضحة فى جو السـورة كلها هى ظلال القوة والشـدة والعنف والرهبة . والتحذير والترهيب واستجاشة مشاعر التقوى والوجل والاستسلام .

تبدو هذه الظلال فى المشاهد والأمثال ..

فمشهد البعث مزلزل عنيف رهيب : «ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة السـاعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها . وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولـكن عذاب الله شديد » ..

وكذلك مشهد العذاب : « فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقـامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها ـ من غم ـ أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق » ..

(١) آيات ٣٨ ـ ٤١ (٢) آية ٦٠ .

Marfat.com

Marfat.com

ومثل الذى يشرك بالله : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » ..

وحركة من ييأس من نصر الله : « من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع ، فلينظر هل يذهبن كيده مايغيظ » ..

ومشهد القرى المدمرة بظلمها : « فكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها ، وبئر معطلة وقصر مشيد » ..

تجمع هذه المشاهد العنيفة المرهوبة إلى قوة الأوامر والتكاليف ، وتبرير الدفع بالقوة ، وتأكيد الوعد بالنصر والتمكين . إلى عرض الحديث عن قوة الله وضعف الشركاء المزعومين ..

ففى الأولى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره . إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور » ..

وفى الثانية : « ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب . ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز » ..

ووراء هذا وذلك الدعوة إلى التقوى والوجل واستجاشة مشاعر الرهبة والاستسلام تبدأ بها السورة ، وتتناثر فى ثناياها : « ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم » .. « ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » .. « فإلهكم إله واحد ، فله أسلموا وبشر المخبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » .. « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » ..

ذلك إلى استعراض مشاهد الكون ، ومشاهد القيامة ، ومصارع الغابرين . والأمثلة والعبر والصور والتأملات لاستجاشة مشاعر الإيمان والتقوى والإخبات والاستسلام .. وهذا هو الظل الشائع فى جو السورة كلها ، والذى يطبعها ويميزها .

***

Marfat.com

ويجرى سياق السورة فى أربعة أشواط :

يبدأ الشوط الأول بالنداء العام . نداء الناس جميعا إلى تقوى الله ، وتخويفهم من زلزلة الساعة ، ووصف الهول المصاحب لها ، وهو هول عنيف مرهوب . ويعقب فى ظل هذا الهول باستنكار الجدل فى الله بغير علم ، واتباع كل شيطان محتوم على من يتبعه الضلال . ثم يعرض دلائل البعث من أطوار الحياة فى جنين الإنسان ، وحياة النبات ؛ مسجلا تلك القربى بين أبناء الحياة ، ويربط بين تلك الأطوار المطردة الثابتة وبين أن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور . . وكلها سنن مطردة وحقائق ثابتة متصلة بناموس الوجود . . ثم يعود إلى استنكار الجدل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير بعد هذه الدلائل المستقرة فى صلب الكون وفى نظام الوجود . وإلى استنكار بناء العقيدة على حساب الربح والخسارة ، والانحراف عن الاتجاه إلى الله عند وقوع الضراء ، والالتجاء إلى غير حماه ؛ واليأس من نصرة الله وعقباه . وينتهى هذا الشوط بتقرير أن الهدى والضلال بيد الله ، وأنه سيحكم بين أصحاب العقائد المختلفة يوم الحساب . . وهنا يعرض ذلك المشهد العنيف من مشاهد العذاب للكافرين ، وإلى جواره مشهد النعيم للمؤمنين .

ويتصل الشوط الثانى بنهاية الشوط الأول بالحديث عن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام . ويستنكر هذا الصد عن المسجد الحرام الذى جعله الله للناس جميعا . يستوى فى ذلك المقيمون به والطارئون عليه . . وبهذه المناسبة يذكر طرفا من قصة بناء البيت ، وتكليف ابراهيم — عليه السلام — أن يقيمه على التوحيد ، وأن يطهره من رجس الشرك . ويستطرد إلى بعض شعائر الحج وماوراءها من استجاشة مشاعر التقوى فى القلوب ، وهى الهدف المقصود . وينتهى هذا الشوط بالإذن للمؤمنين بالقتال لحماية الشعائر والعبادات من العدوان الذى يقع على المؤمنين ولا جريرة لهم إلا أن يقولوا : ربنا الله !

والشوط الثالث يتضمن عرض نماذج من تكذيب المكذبين من قبل ، ومن مصارع المكذبين ومشاهد القرى المدمرة على الظالمين . وذلك لبيان سنة الله فى الدعوات ، وتسلية الرسول — صلى الله عليه وسلم — عما يلقاه من صد وإعراض ، وتطمين المسلمين ، بالعاقبة التى لا بد أن تكون . كذلك يتضمن عرض طرف من كيد الشيطان للرسل والنبيين فى دعوتهم ، وتثبيت الله لدعوته ، وإحكامه لآياته ، حتى يستيقن بها المؤمنون ، ويفتتن بها الضعاف والمستكبرون !

أما الشوط الأخير فيتضمن وعد الله بنصرة من يقع عليه البغى وهو يدفع عنه العدوان ويتبع هذا الوعد بعرض دلائل القدرة فى صفحات الكون ، وإلى جوارها يعرض صورة زرية لضعف الآلهة التى يركن إليها المشركون . . وينتهى الشوط وتنتهى السورة معه بنداء الذين آمنوا ليعبدوا ربهم ، ويجاهدوا فى الله حق جهاده ، ويعتصموا بالله وحده ، وهم ينهضون بتكاليف عقيدتهم العريقة منذ أيام إبراهيم الخليل . .

وهكذا تتساوق موضوعات السورة وتتعاقب فى مثل هذا التناسق . .

والآن نبدأ الشوط الأول بالتفصيل :

* * *

« يا أيها الناس اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ؛ وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد » . .

مطلع عنيف رعيب ، ومشهد ترتجف لهوله القلوب . يبدأ بالنداء الشامل للناس جميعا : « يأيها الناس » يدعوهم إلى الخوف من الله : « اتقوا ربكم » ويخوفهم ذلك اليوم العصيب : « إن زلزلة الساعة شىء عظيم » .

وهكذا يبدأ بالتهويل المجمل ، وبالتجهيل الذى يلقى ظل الهول يقصر عن تعريفه التعبير ، فيقال : إنه زلزلة . وإن الزلزلة « شىء عظيم » ، من غير تحديد ولا تعريف .

ثم يأخذ فى التفصيل . فإذا هو أشد رهبة من التهويل . . إذا هو مشهد حافل بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت تنظر ولا ترى ، وتتحرك ولا تعى . وبكل حامل تسقط حملها للهول المروع ينتابها . وبالناس سكارى وما هم بسكارى ، يتبدى السكر فى نظراتهم الذاهلة ، وفى خطواتهم المترنحة . . مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج ، تكاد العين تبصره لحظة التلاوة ، بينما الخيال يتملاه . والهول الشاخص يذهله ، فلا يكاد يبلغ أقصاه .. وهو هول حى لا يقاس بالحجم والضخامة ، ولكن يقاس بوقعه فى النفوس الآدمية : فى المرضعات الذاهلات عما أرضعن — وما تذهل المرضعة عن طفلها وفى فمه ثديها إلا للهول الذى لا يدع بقية من وعى — والحوامل الملقيات حملهن ، وبالناس سكارى وماهم بسكارى : « ولكن عذاب الله شديد » . .

إنه مطلع عنيف مرهوب تتزلزل له القلوب . .

* * *

Marfat.com

فى ظل هذا الهول المروع يذكر أن هنالك من يتطاول فيجادل فى الله ، ولا يستشعر تقواه :

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد ، كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير » . .

والجدال فى الله ، سواء فى وجوده تعالى ، أو فى وحدانيته ، أو فى قدرته ، أو فى علمه ، أو فى صفة ما من صفاته . . الجدال فى شىء من هذا فى ظل ذلك الهول الذى ينتظر الناس جميعاً ، والذى لانجاة منه إلا بتقوى الله ورضاه .. ذلك الجدال يبدو عجيبا من ذىعقل وقلب، لا يتقى شر ذلك الهول المزلزل المجتاح .

وياليته كان جدالا عن علم ومعرفة ويقين . ولكنه جدال « بغير علم » جدال التطاول المجرد من الدليل . جدال الضلال الناشىء من اتباع الشيطان . فهذا الصنف من الناس يجادل فى الله بالهوى : « ويتبع كل شيطان مريد » عات مخالف للحق متبجح « كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير » . . فهو حتم مقدور أن يضل تابعه عن الهدى والصواب ، وأن يقوده إلى عذاب السعير . . ويتهكم التعبير فيسمى قيادته أتباعه إلى عذاب السعير هداية ! « ويهديه إلى عذاب السعير » . . فيالها من هداية هى الضلال المهلك المبيد !

* * *

أم إن الناس فى ريب من البعث ؟ وفى شك من زلزلة الساعة ؟ إن كانوا يشكون فى إعادة الحياة فليتدبروا كيف تنشأ الحياة ، ولينظروا فى أنفسهم ، وفى الأرض من حولهم ، حيث تنطق لهم الدلائل بأن الأمر مألوف ميسور ؛ ولكنهم هم الذين يمرون على الدلائل فى أنفسهم وفى الأرض غافلين :

« يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ـ لنبين لكم ـ ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ؛ ثم نخرجكم طفلا ؛ ثم لتبلغوا أشدكم ؛ ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا . وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » . .

إن البعث إعادة لحياة كانت ، فهو فى تقدير البشر ـ أيسر من إنشاء الحياة . وإن لم يكن ـ بالقياس إلى قدرة الله ـ شىء أيسر ولا شىء أصعب . فالبدء كالإعادة أثر لتوجه

Marfat.com

الإرادة : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون » .

ولكن القرآن يأخذ البشر بمقاييسهم ، ومنطقهم ، وإدراكهم ، فيوجه قلوبهم إلى تدبر المشهود المعهود لهم ، وهو يقع لهم كل لحظة ، ويمر بهم فى كل برهة ؛ وهو من الخوارق لو تدبروه بالعين البصيرة ، والقلب المفتوح ، والحس المدرك . ولكنهم يمرون به أو يمر بهم دون وعى ولا انتباه .

فما هؤلاء الناس ؟ ما هم ؟ من أين جاءوا ؟ وكيف كانوا ؟ وفى أى الأطوار مروا ؟

« فإنا خلقناكم من تراب » .. والإنسان ابن هذه الأرض . من ترابها نشأ ، ومن ترابها تكوّن ، ومن ترابها عاش . وما فى جسمه من عنصر إلا له نظيره فى عناصر أمه الأرض . اللهم إلا ذلك السر اللطيف الذى أودعه الله إياه ونفخه فيه من روحه ؛ وبه افترق عن عناصر ذلك التراب . ولكنه أصلا من التراب عنصراً وهيكلا وغذاء . وكل عناصره المحسوسة من ذلك التراب .

ولكن أين التراب وأين الإنسان ؟ أين تلك الذرات الأولية الساذجة من ذلك الخلق السوى المركب ، الفاعل المستجيب ، المؤثر المتأثر ، الذى يضع قدميه على الأرض ، ويرف بقلبه إلى السماء ؛ ويحلق بفكره فيما وراء المادة كلها ومنها ذلك التراب ..

إنها نقلة ضخمة بعيدة الأغوار والآماد ، تشهد بالقدرة التى لا يعجزها البعث ، وهى أنشأت ذلك الخلق من تراب !

« ثم من نطفة . ثم من علقة . ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ـ لنبين لكم ـ ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى . ثم نخرجكم طفلا ... »

والمسافة بين عناصر التراب الأولية الساذجة والنطفة المؤلفة من الخلايا المنوية الحية ، مسافة هائلة ، تضمر فى طياتها السر الأعظم . سر الحياة . السر الذى لم يعرف البشر عنه شيئا يذكر ، بعد ملايين الملايين من السنين ، وبعد ما لا يحصى من تحول العناصر الساذجة إلى خلايا حية فى كل لحظة من لحظات تلك الملايين . والذى لا سبيل إلى أكثر من ملاحظته وتسجيله ، دون التطلع إلى خلقه وإنشائه ، مهما طمح الإنسان ، وتعلق بأهداب المحال !

ثم يبقى بعد ذلك سر تحول تلك النطفة إلى علقة ، وتحول العلقة إلى مضغة ، وتحول المضغة إلى إنسان !

فما تلك النطفة ؟ إنها ماء الرجل . والنقطة الواحدة من هذا الماء تحمل ألوف الحيوانات

Marfat.com

المنوية . وحيوان واحد منها هو الذى يلقح البويضة من ماء المرأة فى الرحم ، ويتحد بها فتعلق فى جدار الرحم .

وفى هذه البويضة الملقحة بالحيوان المنوى . . فى هذه النقطة الصغيرة العالقة بجدار الرحم ـ بقدرة القادر وبالقوة المودعة بها من لدنه ـ فى هذه النقطة تكمن جميع خصائص الإنسان المقبل : صفاته الجسدية وسماته من طول وقصر ، وضخامة وضآلة ، وقبح ووسامة ، وآفة وصحة . . . كما تكمن صفاته العصبية والعقلية والنفسية : من ميول ونزعات ، وطباع واتجاهات ، وانحرافات واستعدادات . . .

فمن يتصور أو يصدق أن ذلك كله كامن فى تلك النقطة العالقة ؟ وأن هذه النقطة الصغيرة الضئيلة هى هذا الإنسان المعقد المركب ، الذى يختلف كل فرد من جنسه عن الآخر ، فلا يتماثل اثنان فى هذه الأرض فى جميع الأزمان ؟ !

ومن العلقة إلى المضغة ، وهى قطعة من دم غليظ لا تحمل سمة ولا شكلا . ثم تخلق فتتخذ شكلها بتحولها إلى هيكل عظمى يكسى باللحم ؛ أو يلفظها الرحم قبل ذلك إن لم يكن مقدراً لها التمام .

« لنبين لكم » .. فهنا محطة بين المضغة والطفل ، يقف السياق عندها بهذه الجملة المعترضة: « لنبين لكم » . لنبين لكم دلائل القدرة بمناسبة تبين الملامح فى المضغة . وذلك على طريقة التناسق الفنى فى القرآن .

ثم يمضى السياق مع أطوار الجنين : « ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى » فما شاء الله أن يتم تمامه أقره فى الأرحام حتى يحين أجل الوضع . « ثم نخرجكم طفلا » . . ويا للمسافة الهائلة بين الطور الأول والطور الأخير !

إنها فى الزمان ـ تعادل فى العادة ـ تسعة أشهر . ولكنها أبعد من ذلك جدا فى اختلاف طبيعة النطفة وطبيعة الطفل . النطفة التى لا ترى بالعين المجردة وهذا المخلوق البشرى المعقد المركب ، ذى الأعضاء والجوارح ، والسمات والملامح ، والصفات والاستعدادات ، والميول والنزعات . . .

إلا إنها المسافة التى لا يعبرها الفكر الواعى إلا وقد وقف خاشعا أمام آثار القدرة القادرة مرات ومرات . .

ثم يمضى السياق مع أطوار ذلك الطفل بعد أن يرى النور ، ويفارق المكمن الذى تمت فيه تلك الخوارق الضخام ، فى خفية عن الأنظار !

Marfat.com

Marfat.com

« ثم لتبلغوا أشـدكم » . . فتستوفوا نموكم العضلى ، ونموكم العقلى ، ونموكم النفسى . . وكم بين الطفـل الوليد والإنسان الشديد من مسافات فى المميزات أبعد من مسافات الزمان ! ولـكنها تتم بيد القدرة المبدعة التى أودعت الطفل الوليد كل خصائص الإنسان الرشيد ، وكل الاستعدادات الـكامنة التى تتبدى فيه وتتكشف فى أوانها ، كما أودعت النقطة العالقة بالرحم كل خصائص الطفل ، وهى ماء مهين !

« ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد أرذل العمر لـكى لا يعلم من بعد علم شيئا » . .

فأما من يتوفى فهو صائر إلى نهاية كل حى . وأما من يرد إلى أرذل العمر فهو صفحة مفتوحة للتدبر ما تزال . فبعد العلم ، وبعد الرشد ، وبعد الوعى ، وبعد الاكتمال . . إذا هو يرتد طفلا . طفلا فى عواطفه وانفعالاته . طفلا فى وعيه ومعلوماته . طفلا فى تقديره وتدبيره . طفلا أقل شىء يرضيه وأقل شىء يبكيه . طفلا فى حافظته فلا تمسك شيئا ، وفى ذاكرته فلا تستحضر شيئا . طفلا فى أخذه الأحداث والتجارب فرادى لا يربط بينها رابط ، ولا تؤدى فى حسه ووعيه إلى نتيجة ، لأنه ينسى أولها قبل أن يأتى على آخرها : « لـكى لا يعلم من بعد علم شيئا » ولـكى يفلت من عقله ووعيه ذلك العلم الذى ربما تخايل به وتطاول ، وجادل فى الله وصفاته بالباطل !

ثم تستطرد الآية إلى عرض مشاهد الخلق والإحياء فى الأرض والنبات ، بعد عرض مشاهد الخلق والإحياء فى الإنسان .

« وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها المـاء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج » .

والهمود درجة بين الحياة والموت . وهكذا تكون الأرض قبل الماء ، وهو العنصر الأصيل فى الحياة والأحياء . فإذا نزل عليها الماء « اهتزت وربت » وهى حركة عجيبة سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام ، فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهى تتشرب الماء وتنتفخ فتربو « ثم تتفتح بالحياة عن النبات من كل زوج بهيج » . وهل أبهج من الحياة وهى تتفتح بعد الكمون ، وتنتفض بعد الهمود ؟

وهكذا يتحدث القرآن عن القرابة بين أبناء الحياة جميعا ، فيسلكهم فى آية واحدة من آياته . وإنها للفتة عجيبة إلى هذه القرابة الوثيقة . وإنها لدليل على وحدة عنصر الحياة ، وعلى وحدة الإرادة الدافعة لها هنا وهناك . فى الأرض والنبات والحيوان والإنسان .

Marfat.com

« ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحي الموتى ، وأنه على شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور » ..

ذلك . . أى إنشاء الإنسان من التراب وتطور الجنين فى مراحل تكونه ، وتطور الطفل فى مراحل حياته ، وانبعاث الحياة من الأرض بعد الهمود . ذلك متعلق بأن الله هو الحق .فهو من السنن المطردة التى تنشأ من أن خالقها هو الحق الذى لا تختل سننه ولا تتخلف . وأن اتجاه الحياة هذا الاتجاه فى هذه الأطوار ليدل على الإرادة التى تدفعها وتنسق خطاها وترتب مراحلها . فهناك ارتباط وثيق بين أن الله هو الحق ، وبين هذا الاطراد والثبات والاتجاه الذى لا يحيد . « وأنه يحي الموتى » فإحياء الموتى هو إعادة للحياة . والذى أنشأ الحياة الأولى هو الذى ينشئها للمرة الآخرة « وأن الله يبعث من فى القبور » ليلاقوا مايستحقونه من جزاء . فهذا البعث تقتضيه حكمة الخلق والتدبير .

وإن هذه الأطوار التى يمر بها الجنين ، ثم يمر بها الطفل بعد أن يرى النور لتشير إلى أن الإرادة المدبرة لهذه الأطوار ستدفع بالإنسان إلى حيث يبلغ كماله الممكن فى دار الكمال . إذ أن الإنسان لا يبلغ كماله فى حياة الأرض ، فهو يقف ثم يتراجع « لكى لا يعلم من بعد علم شيئا » فلا بد من دار أخرى يتم فيها تمام الإنسان .

فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجة . . فهى تدل على البعث من ناحية أن القادر على الإنشاء قادر على الاعادة . وهى تدل على البعث لأن الإرادة المدبرة تكمل تطوير الإنسان فى الدار الآخرة . .

وهكذا تلتقى نواميس الخلق والإعادة ، ونواميس الحياة والبعث ، ونواميس الحساب والجزاء وتشهد كلها بوجود الخالق المدبر القادر الذى ليس فى وجوده جدال ..

ومع هذه الدلائل المتضافرة فهناك من يجادل فى الله :

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله . له فى الدنيا خزى ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق . ذلك بما قدمت يداك ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » ..

والجدال فى الله بعد تلك الدلائل يبدو غريبا مستنكرا . فكيف إذا كان جدالا بغير علم ، لا يستند إلى دليل ، ولا يقوم على معرفة ، ولا يستمد من كتاب ينير القلب والعقل ، ويوضح الحق ، ويهدى إلى اليقين .

والتعبير يرسم صورة لهذا الصنف من الناس . صورة فيها الكبر المتعجرف : « ثانى عطفة » مائلا مزورا بجنبه . فهو لا يستند إلى حق فيعوض عن هذا بالعجرفة والكبر . « ليضل عن سبيل الله » فلا يكتفى بأن يضل ، إنما يحمل غيره على الضلال .

هذا الكبر الضال المضل لا بد أن يقمع ، ولا بد أن يحطم : « له فى الدنيا خزى » فالخزى هو المقابل للكبر . والله لا يدع المتكبرين المتعجرفين الضالين المضلين حتى يحطم تلك الكبرياء الزائفة وينكسها ولو بعد حين . إنما يمهلهم أحيانا ليكون الخزى أعظم ، والتحقير أوقع . أما عذاب الآخرة فهو أشد وأوجع : «ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » .

وفى لحظة ينقلب ذلك الوعيد المنظور إلى واقع مشهود ، بلفتة صغيرة فى السياق ، من الحكاية إلى الخطاب :

« ذلك بما قدمت يداك ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » ..

وكأنما هو اللحظة يلقى التقريع والتبكيت ، مع العذاب والحريق .

***

ويمضى السياق إلى نموذج آخر من الناس - إن كان يواجه الدعوة يومذاك فهو نموذج مكرور فى كل جيل - ذلك الذى يزن العقيدة بميزان الربح والخسارة ؛ ويظنها صفقة فى سوق التجارة :

« ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة . ذلك هو الخسران المبين . يدعو من دون مالا يضره ومالا ينفعه . ذلك هو الضلال البعيد . يدعو لمن ضره أقرب من نفعه . لبئس المولى ولبئس العشير » ..

إن العقيدة هى الركيزة الثابتة فى حياة المؤمن ، تضطرب الدنيا من حوله فيثبت هو على هذه الركيزة وتتجاذبه الأحداث والدوافع فيتشبث هو بالصخرة التى لا تتزعزع ؛ وتتهاوى من حوله الأسناد فيستند هو الى القاعدة التى لا تحول ولا تزول .

هذه قيمة العقيدة فى حياة المؤمن . ومن ثم يجب أن يستوى عليها ، متمكنا منها ، واثقا بها ، لا يتلجلج فيها ، ولا ينتظر عليها جزاء ، فهى فى ذاتها جزاء . ذلك أنها الحمى الذى يلجأ إليه ، والسند الذى يستند عليه . أجل هى فى ذاتها جزاء على تفتح القلب للنور ، وطلبه للهدى . ومن ثم يهبه الله العقيدة ليأوى إليها ، ويطمئن بها . هى فى ذاتها جزاء يدرك المؤمن قيمته حين

Marfat.com

Marfat.com

يرى الحيارى الشاردين من حوله ، تتجاذبهم الرياح ، وتتقاذفهم الزوابع ، ويستبد بهم القلق . بينما هو بعقيدته مطمئن القلب ، ثابت القدم ، هادئ البال ، موصول بالله مطمئن بهذا الاتصال .

أما ذلك الصنف من الناس الذى يتحدث عنه السياق فيجعل العقيدة صفقة فى سوق التجارة : « فإن أصابه خير اطمأن به » وقال : إن الإيمان خير . فهاهو ذا يجلب النفع ، ويدر الضرع ، وينمى الزرع ، ويربح التجارة ، ويكفل الرواج « وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة » . . خسر الدنيا بالبلاء الذى أصابه فلم يصبر عليه ، ولم يتماسك له ، ولم يرجع إلى الله فيه . وخسر الآخرة بانقلابه على وجهه ، وانكفائه عن عقيدته ، وانتكاسه عن الهدى الذى كان ميسرا له .

والتعبير القرآنى يصوره فى عبادته لله « على حرف » غير متمكن من العقيدة ، ولا متثبت فى العبادة . يصوره فى حركة جسدية متأرجحة قابلة للسقوط عند الدفعة الأولى . ومن ثم ينقلب على وجهه عن مس الفتنة ، ووقفته المتأرجحة تمهد من قبل لهذا الانقلاب !

إن حساب الربح والخسارة يصلح للتجارة ، ولكنه لا يصلح للعقيدة . فالعقيدة حق يعتنق لذاته ، بانفعال القلب المتلقى للنور والهدى الذى لا يملك إلا أن ينفعل بما يتلقى . والعقيدة تحمل جزاءها فى ذاتها ، بما فيها من طمأنينة وراحة ورضى ، فهى لا تطلب جزاءها خارجا عن ذاتها .

والمؤمن يعبد ربه شكرا له على هدايته إليه ، وعلى اطمئنانه للقرب منه والأنس به . فإن كان هنالك جزاء فهو فضل من الله ومنة . استحقاقا على الإيمان أو العبادة !

والمؤمن لا يجرب إلهه . فهو قابل ابتداء لكل مايقدره له ، مستسلم ابتداء لكل مايجربه عليه راض ابتداء بكل مايناله من السراء والضراء . وليست هى صفقة فى السوق بين بائع وشار ، إنما هى إسلام المخلوق للخالق ، صاحب الأمر فيه ، ومصدر وجوده من الأساس

والذى ينقلب على وجهه عند مس الفتنة يخسر الخسارة التى لا شبهة فيها ولا ريب : « ذلك هو الخسران المبين » . . يخسر الطمأنينة والثقة والهدوء والرضى . إلى جوار خسارة المال أو الولد ، أو الصحة ، أو أعراض الحياة الأخرى التى يفتن الله بها عباده ، ويبتلى بها ثقتهم فيه ، وصبرهم على بلائه ، وإخلاصهم أنفسهم له ، واستعدادهم لقبول قضائه وقدره .. ويخسر الآخرة وما فيها من نعيم وقربى ورضوان . فياله من خسران !

وإلى أين يتجه هذا الذى يعبد الله على حرف ؟ إلى أين يتجه بعيدا عن الله ؟ إنه « يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه » . . يدعو صنما أو وثنا على طريقة . الجاهلية

الأولى . ويدعو شخصا أو جهة أو مصلحة على طريقة الجاهليات المتناثرة فى كل زمان ومكان ، كلما انحرف الناس عن الاتجاه إلى الله وحده ، والسير على صراطه ونهجه . . فما هذا كله ؟ إنه الضلال عن المتجه الوحيد الذى يجدى فيه الدعاء : « ذلك هو الضلال البعيد » المغرق فى البعد عن الهدى والاهتداء . . « يدعو لمن ضره أقرب من نفعه » من وثن أو شيطان ، أو سند من بنى الإنسان . . وهذا كله لا يملك ضرا ولا نفعا ؛ وهو أقرب لأن ينشأ عنه الضر . وضره أقرب من نفعه . ضره فى عالم الضمير بتوزيع القلب ، وإثقاله بالوهم وإثقاله بالذل . وضره فى عالم الواقع وكفى بما يعقبه فى الآخرة من ضلال وخسران « لبئس المولى » ذلك الضعيف لا سلطان له فى ضر أو نفع « ولبئس العشير » ذلك الذى ينشأ عنه الخسران . يستوى فى ذلك المولى والعشير من الأصنام والأوثان ، والمولى والعشير من بنى الإنسان ، ممن يتخذهم بعض الناس آلهة أو أشباه آلهة فى كل زمان ومكان !

والله يدخر للمؤمنين به ما هو خير من عرض الحياة الدنيا كله ، حتى لو خسروا ذلك العرض كله فى الفتنة والابتلاء :

« إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار . إن الله يفعل ما يريده » . .

فمن مسه الضر فى فتنة من الفتن ، وفى ابتلاء من الابتلاءات ، فليثبت ولا يتزعزع ، وليستبق ثقته برحمة الله وعونه ، وقدرته على كشف الضراء ، وعلى العوض والجزاء .

وأما من يفقد ثقته فى نصر الله فى الدنيا والآخرة ؛ ويقنط من عون الله له فى المحنة حين تشتد المحنة . فدونه فليفعل بنفسه ما يشاء ؛ وليذهب بنفسه كل مذهب ، فما شىء من ذلك بمبدل ما به من البلاء :

« من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع، فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » !

وهو مشهد متحرك لغيظ النفس ، وللحركات المصاحبة لذلك الغيظ ، يجسم هذه الحالة التى يبلغ فيها الضيق بالنفس أقصاه ، عند ما ينزل بها الضر وهى على غير اتصال بالله .

والذى ييأس فى الضر من عون الله يفقد كل نافذة مضيئة ، وكل نسمة رخية ، وكل رجاء فى الفرج ، ويستبد به الضيق ، ويثقل على صدره الكرب ، فيزيد هذا كله من وقع الكرب والبلاء .

Marfat.com

Marfat.com

فمن كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إلى السماء يتعلق به أو يختنق . ثم ليقطع الحبل فيسقط أو ليقطع النفس فيختنق . . ثم لينظر هل ينقذه تدبيره ذاك مما يغيظه !

ألا إنه لا سبيل إلى احتمال البلاء إلا بالرجاء فى نصر الله . ولا سبيل إلى الفرج إلا بالتوجه إلى الله . ولا سبيل إلى الاستعلاء على الضر ، والكفاح للخلاص إلا بالاستعانة بالله . وكل حركة يائسة لا ثمرة لها ولا نتيجة إلا زيادة الكرب ، ومضاعفة الشعور به ، والعجز عن دفعه بغير عون الله . . فليستبق المكروب تلك النافذة المضيئة التى تنسم عليه من روح الله . . .

* * *

بمثل هذا البيان لحالات الهدى والضلال ، ولنماذج الهدى والضلال ، أنزل الله هذا القرآن ليهتدى به من يفتح له قلبه ، فيقسم الله له الهداية :

« وكذلك أنزلناه آيات بينات ، وأن الله يهدى من يريد » . .

وإرادة الله قد قررت سبق الهدى والضلال . فمن طلب الهدى تحققت إرادة الله بهدايته ، وفق سنته ، وكذلك من طلب الضلال . إنما يفرد هنا حالة الهدى بالذكر ، بمناسبة ما فى الآيات من بيان يقتضى الهدى فى القلب المستقيم .

فأما الفرق المختلفة فى الاعتقاد فأمرها إلى الله يوم القيامة ، وهو العليم بكل ما فى عقائدها من حق أو باطل ، ومن هدى أو ضلال :

« إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئين ، والنصارى ، والمجوس ، والذين أشركوا . . إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شىء شهيد » . .

وقد سبق تعريف هذه الفرق . وهى تذكر هنا بمناسبة أن الله يهدى من يريد ، وهو أعلم بالمهتدين والضالين ، وعليه حساب الجميع ، والأمر إليه فى النهاية ، وهو على كل شىء شهيد .

وإذا كان الناس بتفكيرهم ونزعاتهم وميولهم ، فإن الكون كله ـ فيما عداهم ـ يتجه بفطرته إلى خالقه ، يخضع لناموسه ، ويسجد لوجهه :

« ألم تر أن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض ، والشمس والقمر والنجوم ،

والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب . ومن يهن الله فما له من مكرم . إن الله يفعل ما يشاء » . .

ويتدبر القلب هذا النص ، فإذا حشد من الخلائق مما يدرك الإنسان ومما لا يدرك . وإذا حشد من الأفلاك والأجرام . مما يعلم الإنسان ومما لا يعلم . وإذا حشد من الجبال والشجر والدواب فى هذه الأرض التى يعيش عليها الإنسان . . إذا بتلك الحشود كلها فى موكب خاشع تسجد كلها لله ، وتتجه إليه وحده دون سواه . تتجه إليه وحده فى وحدة واتساق . إلا ذلك الإنسان فهو وحده الذى يتفرق : « وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب » فيبدو هذا الإنسان عجيبا فى ذلك الموكب المتناسق .

وهنا يقرر أن من يحق عليه العذاب فقد حق عليه الهوان : « ومن يهن الله فما له من مكرم » . . فلا كرامة إلا بإكرام الله ، ولا عزة إلا بعزة الله . وقد ذل وهان من دان لغير الديان .

* * *

ثم مشهد من مشاهد القيامة يتجلى فيه الإكرام والهوان ، فى صورة واقع يشهد كأنه معروض للعيان :

« هذان خصمان اختصموا فى ربهم . فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود ؛ ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها ــ من غم ــ أعيدوا فيها . وذوقوا عذاب الحريق . إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير » .

إنه مشهد عنيف صاخب ، حافل بالحركة ، مطوّل بالتخييل الذى يبعثه فى النفس نسق التعبير . فلا يكاد الخيال ينتهى من تتبعه فى تجدده . .

هذه ثياب من النار تقطع وتفصل ! وهذا حميم ساخن يصب من فوق الرؤوس ، يصهر به ما فى البطون والجلود عند صبه على الرؤوس ! وهذه سياط من حديد أحمته النار . . وهذا هو العذاب يشتد ، ويتجاوز الطاقة ، فيهب « الذين كفروا » من الوهج والحميم والضرب الأليم يهمون بالخروج من هذا « الغم » وها هم أولاء يردون بعنف ، ويسمعون التأنيب : « وذوقوا عذاب الحريق » . .

Marfat.com

Marfat.com

ويظل الخيال يكرر هذه المشاهد من أولى حلقاتها إلى أخراها، حتى يصل إلى حلقة محاولة الخروج والرد العنيف، ليبدأ فى العرض من جديد!

ولا يبارح الخيال هذا المشهد العنيف المتجدد إلا أن يلتفت إلى الجانب الآخر، الذى يستطرد السياق إلى عرضه. فأصل الموضوع أن هناك خصمين اختصموا فى ربهم. فأما الذين كفروا به فقد كنا نشهد مصيرهم المفجع منذ لحظة! وأما الذين آمنوا فهم هنالك فى الجنات تجرى من تحتها الأنهار. وملابسهم لم تقطع من النار، إنما فصلت من الحرير. ولهم فوقها حلى من الذهب واللؤلؤ. وقد هداهم الله إلى الطيب من القول، وهداهم إلى صراط الحميد. فلا مشقة حتى فى القول أو فى الطريق.. والهداية إلى الطيب من القول، والهداية إلى صراط الحميد نعمة تذكر فى مشهد النعيم. نعمة الطمأنينة واليسر والتوفيق.

وتلك عاقبة الخصام فى الله. فهذا فريق وذلك فريق.. فليتدبر تلك العاقبة من لا تكفيه الآيات البينات، ومن يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير..

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ. وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

« وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَلَّا تُشْرِكْ بِى شَيْئًا، وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَٱلْقَائِمِينَ، وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ * وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَائِسَ ٱلْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ، وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ.

« ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ. وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامُ ـ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ـ فَٱجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَانِ، وَٱجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ. وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ، أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ.

Marfat.com

« ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ .

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ . فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، فَلَهُ أَسْلِمُوا ، وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ، وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ .

« وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ، كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا ، وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ، كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ .

« إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ؛ وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا : رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » (٤١)

انتهى الدرس الماضي بتصوير عاقبة الخصام فى الله ، ومشهد الجحيم الحارق للكافرين ، والنعيم الوارف للمؤمنين .

وبهذه النهاية يتصل الدرس الجديد ، فيتحدث عن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام . وهم الذين كانوا يواجهون الدعوة الإسلامية فى مكة ، فيصدون الناس عنها ؛ ويواجهون الرسول — صلى الله عليه وسلم — والمؤمنين فيمنعونهم من دخول المسجد الحرام .

Marfat.com

وبهذه المناسبة يتحدث عن الأساس الذى أقيم عليه ذلك المسجد يوم فوض الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى بنائه ، والأذان فى الناس بالحج إليه . ولقد كلف إبراهيم أن يقيم هذا البيت على التوحيد ، وأن ينفى عنه الشرك ، وأن يجعله للناس جميعا ، سواء المقيم فيه والطارىء عليه ، لا يمنع منه أحد ، ولا يملكه أحد .. ويستطرد إلى بعض شعائر الحج وما وراءها من استجاشة القلوب للتقوى وذكر الله والاتصال به . . وينتهى إلى ضرورة حماية المسجد الحرام من عدوان المعتدين الذين يصدون عنه ويغيرون الأساس الذى قام عليه ؛ وبوعد الله للمدافعين بالنصر متى نهضوا بالتكاليف التى تفرضها حماية العقيدة .

* * *

« إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس . سواء العاكف فيه والباد . ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » ..

وكان ذلك فعل المشركين من قريش : أن يصدوا الناس عن دين الله ـ وهو سبيله الواصل إليه ، وهو طريقه الذى شرعه للناس ، وهو نهجه الذى اختاره للعباد ـ وأن يمنعوا المسلمين من الحج والعمرة إلى المسجد الحرام ـ كما فعلوا عام الحديبية ـ وهو الذى جعله الله للناس منطقة أمان ودار سلام ، وواحة اطمئنان . يستوى فيه المقيم بمكة والطارىء عليها . فهو بيت الله الذى يتساوى فيه عباد الله ، فلا يملكه أحد منهم ، ولا يمتاز فيه أحد منهم : « سواء العاكف فيه والباد » .

ولقد كان هذا النهج الذى شرعه الله فى بيته الحرام سابقا لكل محاولات البشر فى إيجاد منطقة حرام . يلقى فيها السلاح ، ويأمن فيها المتخاصمون ، وتحقن فيها الدماء ، ويجد كل أحد فيها مأواه . لا تفضلا من أحد ، ولكن حقا يتساوى فيها الجميع .

ولقد اختلفت أقوال الفقهاء فى جواز الملكية الفردية لبيوت مكة غير المسكونة بأهلها . وفى جواز كراء هذه البيوت عند من أجاز ملكيتها .. فذهب الشافعى رحمه الله ـ إلى أنها تملك وتورث وتؤجر محتجا بما ثبت من أن عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ اشترى من صفوان ابن أمية دارا بمكة بأربعة آلاف درهم فجعلها سجنا . وذهب اسحاق ابن راهويه ـ رحمه الله ـ إلى أنها لا تورث ولا تؤجر ، وقال : توفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبو بكر وعمر ، وماتدعى رباع مكة (جمع ربع) إلا السوائب ، من احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن . وقال عبد الرزاق عن مجاهد عن أبيه عن عبد الله ابن عمر ـ رضى الله عنهم ـ أنه

قال : لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها . وقال أيضا عن ابن جريج : كان عطاء ينهى عن الكراء فى الحرم . وأخبرنى أن عمر بن الخطاب كان ينهى عن تبويب دور مكة لأن ينزل الحاج فى عرصاتها . فكان أول من بوّب سهيل بن عمرو ، فأرسل إليه عمر ابن الخطاب فى ذلك ، فقال : أنظرنى ياأمير المؤمنين إنى كنت امرأ تاجرا ، فأردت أن أتخذ لى بابين يحبسان لى ظهرى (أى ركائبى) قال : فلك ذلك إذن . وقال عبد الرزاق عن معمر عن منصور عن مجاهد أن عمر ابن الخطاب قال : ياأهل مكة لا تتخذوا لدوركم أبوابا لينزل البادى حيث يشاء . . وتوسط الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ فقال : تملك وتورث ولا تؤجر . جمعا بين الأدلة .

وهكذا سبق الإسلام سبقا بعيدا بإنشاء واحة السلام ، ومنطقة الأمان ، ودار الإنسان المفتوحة لكل إنسان !

والقرآن الكريم يهدد من يريد اعوجاجا فى هذا النهج المستقيم بالعذاب الأليم : « ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » . . فما بال من يريد ويفعل ؟ إن التعبير يهدد ويتوعد على مجرد الإرادة زيادة فى التحذير ، ومبالغة فى التوكيد . وذلك من دقائق التعبير .

ومن دقائق التعبير كذلك أن يحذف خبر إن فى الجملة : « إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام . . . » فلا يذكرهم مالهم ؟ ما شأنهم ؟ ما جزاؤهم كأن مجرد ذكر هذا الوصف لهم يغنى عن كل شىء آخر فى شأنهم ، ويقرر أمرهم ومصيرهم !

* * *

ثم يرجع إلى نشأة هذا البيت الحرام ، الذى يستبد به المشركون ، يعبدون فيه الأصنام ، ويمنعون منه الموحدين بالله ، المتطهرين من الشرك . . يرجع إلى نشأته على يد إبراهيم ـ عليه السلام ـ بتوجيه ربه وإرشاده . ويرجع إلى القاعدة التى أقيم عليها وهى قاعدة التوحيد . وإلى الغرض من إقامته وهو عبادة الله الواحد ، وتخصيصه للطائفين به والقائمين لله فيه :

« وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا ، وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » . .

Marfat.com

Marfat.com

فللتوحيد أقيم هذا البيت منذ أول لحظة . عرف الله مكانه لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وملكه أمره ليقيمه على هذا الأساس : « ألا تشرك بى شيئا » فهو بيت الله وحده دون سواه . وليطهره به من الحجيج ، والقائمين فيه للصلاة : « وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود » فهؤلاء هم الذين أنشىء البيت لهم ، لا لمن يشركون بالله ، ويتوجهون بالعبادة إلى سواه .

ثم أمر الله إبراهيم عليه السلام ـ بانى البيت ـ إذا فرغ من إقامته على الأساس الذى كلف به أن يؤذن فى الناس بالحج ؛ وأن يدعوهم إلى بيت الله الحرام ووعده أن يلبى الناس دعوته ، فيتقاطرون على البيت من كل فج ، رجالا يسعون على أقدامهم ، وركوبا « على كل ضامر » جهده السير فضمر من الجهد والجوع :

« وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » . .

وما يزال وعد الله يتحقق منذ إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى اليوم والغد . وما تزال أفئدة من الناس تهوى إلى البيت الحرام ؛ وترف إلى رؤيته والطواف به . . الغنى القادر الذى يجد الظهر يركبه ووسيلة الركوب المختلفة تنقله ؛ والفقير المعدم الذى لا يجد إلا قدميه . وعشرات الألوف من هؤلاء يتقاطرون من فجاج الأرض البعيدة تلبية لدعوة الله التى أذن بها إبراهيم ـ عليه السلام ـ منذ آلاف الأعوام . .

ويقف السياق عن بعض معالم الحج وغاياته :

« ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » . .

والمنافع التى يشهدها الحجيج كثير . فالحج موسم ومؤتمر . الحج موسم تجارة وموسم عبادة . والحج مؤتمر اجتماع وتعارف ، ومؤتمر تنسيق وتعاون . وهو الفريضة التى تلتقى فيها الدنيا والآخرة كما تلتقى فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة . . أصحاب السلع والتجارة يجدون فى موسم الحج سوقا رائجة ، حيث تجبى إلى البلد الحرام ثمرات كل شىء . من أطراف الأرض ؛ ويقدم الحجيج من كل فج ومن كل قطر ، ومعهم من خيرات بلادهم ما تفرق فى أرجاء الأرض فى شتى المواسم . يتجمع كله فى البلد الحرام فى موسم واحد . فهو موسم تجارة ومعرض نتاج ؛ وسوق عالمية تقام فى كل عام .

وهو موسم عبادة تصفو فيه الأرواح ، وهى تستشعر قربها من الله فى بيته الحرام . وهى ترف حول هذا البيت وتستروح الذكريات التى تحوم عليه وترف كالأطياف من قريب ومن بعيد . .

طيف إبراهيم الخليل - عليه السلام - وهو يودع البيت فلذة كبده إسماعيل وأمه ، ويتوجه بقلبه الخافق الواجف إلى ربه : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة . فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

وطيف هاجر ، وهى تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع فى تلك الحرة الملتهبة حول البيت ، وهى تهرول بين الصفا والمروة وقد نهكها العطش ، وهدها الجهد وأضناها الإشفاق على الطفل . . ثم ترجع فى الجولة السابعة وقد حطمها اليأس لتجد النبع يتدفق بين يدى الرضيع الوضىء . وإذا هى زمزم . ينبوع الرحمة فى صحراء اليأس والجدب .

وطيف إبراهيم - عليه السلام - وهو يرى الرؤيا ، فلا يتردد فى التضحية بفلذة كبده ، ويمضى فى الطاعة المؤمنة إلى ذلك الأفق البعيد : « قال : يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ » فتجيبه الطاعة الراضية فى إسماعيل - عليه السلام - : « قال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » . . وإذا رحمة الله تتجلى فى الفداء : « وناديناه أن ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا إن كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم » . .

وطيف إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- يرفعان القواعد من البيت، فى إنابة وخشوع: « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم »

وتظل هذه الأطياف وتلك الذكريات ترف وتتتابع ، حتى يلوح طيف عبد المطلب ، وهو ينذر دم ابنه العاشر إن رزقه الله عشرة أبناء . وإذا هو عبد الله . وإذا عبد المطلب حريصا على الوفاء بالنذر . وإذا قومه من حوله يعرضون عليه فكرة الفداء وإذا هو يدير القداح حول الكعبة ويضاعف الفداء ، والقدح يخرج فى كل مرة على عبد الله ، حتى يبلغ الفداء مئة ناقة بعد عشر هى الدية المعروفة . فيقبل منه الفداء ، فينحر المئة وينجو عبد الله . ينجو ليودع رحم آمنة أطهر نطفة وأكرم خلق الله على الله - محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - ثم يموت ! فكأنما فداه الله من الذبح لهذا القصد الوحيد الكريم الكبير !

Marfat.com

ثم تتواكب الأطياف والذكريات . من محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يدرج فى طفولته وصباه فوق هذا الثرى ، حول هذا البيت .. وهو يرفع الحجر الأسود بيديه الكريمتين فيضعه موضعه ليطفئ الفتنة التى كادت تنشب بين القبائل . . وهو يصلى . . وهو يطوف . . وهو يخطب .. وهو يعتكف . . وإن خطواته -عليه الصلاة والسلام- لتنبض حية فى الخاطر ، وتتمثل شاخصة فى الضمير . يكاد الحاج هناك يلمحها وهو مستغرق فى تلك الذكريات . . وخطوات الحشد من صحابته الكرام وأطيافهم ترف وتدف فوق هذا الثرى ، حول ذلك البيت ، تكاد تسمعها الأذن وتكاد تراها الأبصار !

والحج بعد ذلك كله مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة . مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب فى أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل : « ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا » .. ويجدون محورهم الذى يشدهم جميعا إليه : هذه القبلة التى يتوجهون إليها جميعا ويلتقون عليها جميعا . . ويجدون رايتهم التى يفيئون إليها . راية العقيدة الواحدة التى تتوارى فى ظلها فوارق الأجناس والألوان والأوطان . . ويجدون قوتهم التى قد ينسونها حينا . قوة التجمع والتوحد والترابط الذى يضم الملايين . الملايين التى لا يقف لها أحد لو فاءت إلى رايتها الواحدة التى لا تتعدد راية العقيدة والتوحيد .

وهو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى ، وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب . وتنظيم ذلك العالم الإسلامى الواحد الكامل المتكامل مرة فى كل عام . فى ظل الله . بالقرب من بيت الله . وفى ظلال الطاعات البعيدة والقريبة ، والذكريات الغائبة والحاضرة . فى أنسب مكان ، وأنسب جو ، وأنسب زمان . .

فذلك إذ يقول الله سبحانه : « ليشهدوا منافع لهم » . . كل جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته . وذلك بعض ما أراده الله بالحج يوم أن فرضه على المسلمين ، وأمر إبراهيم - عليه السلام - إن يؤذن به فى الناس .

ويمضى السياق يشير إلى بعض مناسك الحج وشعائره وأهدافها :

« ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام » . .

وهذه كناية عن نحر الذبائح فى أيام العيد وأيام التشريق الثلاثة بعده . والقرآن يقدم ذكر اسم الله المصاحب لنحر الذبائح ، لأن الجو جو عبادة ولأن المقصود من النحر هو التقرب إلى الله . ومن ثم فإن أظهر ما يبرز فى عملية النحر هو ذكر اسم الله على الذبيحة . وكأنما هو الهدف المقصود من النحر لا النحر ذاته . .

Marfat.com

والنحر ذكرى لفداء اسماعيل ـ عليه السلام ـ فهو ذكرى لآية من آيات الله وطاعة من طاعات عبديه إبراهيم واسماعيل ـ عليهما السلام ـ فوق ماهو صدقة وقربى لله بإطعام الفقراء. وبهيمة الأنعام هى الإبل والبقر والغنم والمعز.

« فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » ..

والأمر بالأكل من الذبيحة يوم النحر هو أمر للإباحة أو الاستحباب. أما الأمر بإطعام البائس الفقير منها فهو أمر للوجوب. ولعل المقصود من أكل صاحبها منها أن يشعر الفقراء أنها طيبة كريمة.

وبالنحر ينتهى الإحرام فيحل للحاج حلق شعره أو تقصيره. ونتف شعر الإبط، وقص الأظافر والاستحمام... مما كان ممنوعا عليه فى فترة الإحرام. وهو الذى يقول عنه: « ثم ليقضوا تفثهم، وليوفوا نذورهم » التى نذروها من الذبائح غير الهدى الذى هو من أركان الحج. « وليطوفوا بالبيت العتيق » .. طواف الإفاضة بعد الوقوف بعرفات، وبه تنتهى شعائر الحج. وهو غير طواف الوداع.

والبيت العتيق هو المسجد الحرام أعفاه الله فلم يغلب عليه جبار. وأعفاه الله من البلى والدثور، فما يزال معمورا منذ ابراهيم عليه السلام ولن يزال.

* * *

تلك قصة بناء البيت الحرام، وذلك أساسه الذى قام عليه.. بيت أمر الله خليله ابراهيم ـ عليه السلام ـ بإقامته على التوحيد، وتطهيره من الشرك، وأمره أن يؤذن فى الناس بالحج إليه. ليذكروا اسم الله ـ لا أسماء الآلهة المدعاة ـ على مارزقهم من بهيمة الأنعام. ويأكلوا منها ويطعموا البائس الفقير على اسم الله دون سواه.. فهو بيت حرام حرمات الله فيه مصونة ـ وأولها عقيدة التوحيد، وفتح أبوابه للطائفين والقائمين والركع السجود ـ إلى جانب حرمة الدماء، وحرمة العهود والمواثيق. وحرمة الهدنة والسلام.

« ذلك. ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه. وأحلت لكم الأنعام ـ إلا مايتلى عليكم ـ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور، حنفاء لله غير مشركين به. ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » ..

وتعظيم حرمات الله يتبعه التحرج من المساس بها. وذلك خير عند الله. خير فى عالم الضمير والمشاعر، وخير فى عالم الحياة والواقع. فالضمير الذى يتحرج هو الضمير الذى يتطهر

Marfat.com

والحياة التى ترعى فيها حرمات الله هى الحياة التى يأمن فيها البشر من البغى والاعتداء، ويجدون فيها مثابة أمن، وواحة سلام، ومنطقة اطمئنان ..

ولما كان المشركون يحرمون بعض الأنعام ـ كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى ـ فيجعلون لها حرمة، وهى ليست من حرمات الله بينما هم يعتدون على حرمات الله ـ فإن النص يتحدث عن حل الأنعام إلا ماحرم الله منها ـ كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به : « وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم » . وذلك كى لا تكون هنالك حرمات إلا لله؛ وألا يشرع أحد إلا بإذن الله؛ ولا يحكم إلا بشريعة الله .

وبمناسبة حل الأنعام يأمر باجتناب الرجس من الأوثان . وقد كان المشركون يذبحون عليها وهى رجس ـ والرجس دنس النفس ـ والشرك بالله دنس يصيب الضمير ويلوث القلوب، ويشوب نقاءها وطهارتها كما تشوب النجاسة الثوب والمكان .

ولأن الشرك افتراء على الله وزور، فإنه يحذر من قول الزور كافة : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » ..

ويغلظ النص من جريمة قول الزور إذ يقرنها إلى الشرك . . وهكذا روى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن فاتك الأسدى قال : صلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصبح . فلما انصرف قام قائما فقال : « عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عز وجل » ثم تلا هذه الآية ...

إنما يريد الله من الناس أن يميلوا عن الشرك كله، وأن يجتنبوا الزور كله، وأن يستقيموا على التوحيد الصادق الخالص : « حنفاء لله غير مشركين به » . . ثم يرسم النص مشهدا عنيفا يصور حال من تزل قدماه عن أفق التوحيد، فيهوى إلى درك الشرك . فإذا هو ضائع ذاهب بددا كأن لم يكن من قبل أبدا :

« ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » . .

إنه مشهد الهوىّ من شاهق « فكأنما خر من السماء » . وفى مثل لمح البصر يتمزق « فتخطفه الطير » أو تقذف به الريح بعيدا عن الأنظار : « أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » فى هوة ليس لها قرار !

والملحوظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها فى اللفظ (بالفاء) وفى المنظر بسرعة الاختفاء .. على طريقة القرآن الكريم فى التعبير بالتصوير .

وهى صورة صادقة لحال من يشرك بالله ، فهوى من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء . إذ يفقد القاعدة الثابتة التى يطمئن إليها . قاعدة التوحيد . ويفقد المستقر الآمن الذى يثوب إليه ؛ فتتخطفه الأهواء تخطف الجوارح ، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح . وهو لا يمسك بالعروة الوثقى ، ولا يستقر على القاعدة الثابتة ، التى تربطه بهذا الوجود الذى يعيش فيه .

* * *

ثم يعود السياق من تعظيم حرمات الله باتقائها والتحرج من المساس بها . . إلى تعظيم شعائر الله ـ وهى ذبائح الحج ـ باستسمانها وغلاء أثمانها :

« ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب . لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ، ثم محلها إلى البيت العتيق » .

ويربط بين الهدى الذى ينحره الحاج وتقوى القلوب ؛ إذ أن التقوى هى الغاية من مناسك الحج وشعائره . وهذه المناسك والشعائر إن هى إلا رموز تعبيرية عن التوجه إلى رب البيت وطاعته . وقد تحمل فى طياتها ذكريات قديمة من عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ وما تلاه . وهى ذكريات الطاعة والإنابة ، والتوجه إلى الله منذ نشأة هذه الأمة المسلمة . فهى والدعاء والصلاة سواء .

وهذه الأنعام التى تتخذ هديا ينحر فى نهاية أيام الإحرام يجوز لصاحبها الانتفاع بها . إن كان فى حاجة إليها يركبها ، أو فى حاجة إلى ألبانها يشربها ، حتى تبلغ محلها ـ أى مكان حلها ـ وهو البيت العتيق . ثم تنحر هناك ليأكل منها . ويطعم البائس الفقير .

« وقد كان المسلمون على عهد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يغالون فى الهدى ، يختارونه سمينا غالى الثمن ، يعلنون بها عن تعظيمهم لشعائر الله ، مدفوعين بتقوى الله . روى عبد الله ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : أهدى عمر نجيبا فأعطى بها ثلاث مئة دينار ، فأتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله إنى أهديت نجيبا ، فأعطيت بها ثلاث مئة دينار . أفأبيعها وأشترى بثمنها بدنا[1] ؟ قال : « لا . انحرها إياها » .

والناقة النجيب التى جاءت هدية لعمر ـ رضى الله عنه ـ وقومت بثلاث مئة دينار لم يكن عمر ـ رضى الله عنه ـ يريد أن يضن بقيمتها بل كان يريد أن يبيعها فيشترى بها نوقا أو بقرا

---

(١) جمع بدنة وهى الناقة أو البقرة وتجزىء فى الحج عن ثمانية من الناس .

Marfat.com

Marfat.com

للذبح . فشاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يضحى بالنجيب ذاتها لنفاستها وعظم قيمتها ، ولا يستبدل بها نوقا كثيرة ، قد تعطى لحما أكثر ، ولكنها من ناحية القيمة الشعورية أقل . والقيمة الشعورية مقصودة « فإنها من تقوى القلوب » . وهذا هو المعنى الذى لحظه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول لعمر - رضى الله عنه - « انحرها إياها » هى بذاتها لا سواها !

* * *

هذه الذبائح يذكر القرآن الكريم أنها شعيرة معروفة فى شتى الأمم ؛ إنما يوجهها الإسلام وجهتها الصحيحة حين يتوجه بها إلى الله وحده دون سواه :

« ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام . فإلهكم إله واحد . فله أسلموا وبشر المخبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم ، والمقيمى الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون » . .

والإسلام يوحد المشاعر والاتجاهات ، ويتوجه بها كلها إلى الله . ومن ثم يعنى بتوجيه الشعور والعمل ، والنشاط والعبادة ، والحركة والعادة ؛ إلى تلك الوجهة الواحدة . وبذلك تصطبغ الحياة كلها بصبغة العقيدة .

وعلى هذا الأساس حرم من الذبائح ما أهل لغير الله به ؛ وحتم ذكر اسم الله عليها ، حتى ليجعل ذكر اسم الله هو الغرض البارز ، وكأنما تذبح الذبيحة بقصد ذكر اسم الله. «ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » . .

ويعقب بتقرير الوحدانية : « فإلهكم إله واحد » . . وبالأمر بالإسلام له وحده : « فله أسلموا » . . وليس هو إسلام الإجبار والاضطرار ، إنما هو إسلام التسليم والاطمئنان : « وبشر المخبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » فبمجرد ذكر اسم الله يحرك الوجل فى ضمائرهم ومشاعرهم . « والصابرين على ما أصابهم » فلا اعتراض لهم على قضاء الله فيهم . « والمقيمى الصلاة » . فهم يعبدون الله حق عبادته . « ومما رزقناهم ينفقون » فهم لا يضنون على الله بما فى أيديهم . .

وهكذا يربط بين العقيدة والشعائر . فهى منبثقة من العقيدة وقائمة عليها . والشعائر تعبير عن هذه العقيدة ورمز لها . والمهم أن تصطبغ الحياة كلها ويصطبغ نشاطها كله بتلك الصبغة ، فتتوحد الطاقة ويتوحد الاتجاه ، ولا تتمزق النفس الإنسانية فى شتى الاتجاهات[1] .

---

(١) يراجع فصل : العقيدة والحياة، فى كتاب : السلام العالمى والإسلام .

Marfat.com

ويستطرد السياق فى تقرير هذا المعنى وتوكيده وهو يبين شعائر الحج بنحر البدن :

« والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف. فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر . كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون .. لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم ، وبشر المحسنين » . .

ويخص البدن بالذكر لأنها أعظم الهدى ، فيقرر أن الله أراد بها الخير لهم ، فجعل فيها خيرا وهى حية تركب وتحلب ، وهى ذبيحة تهدى وتطعم فجزاء ما جعلها الله خيرا لهم أن يذكروا اسم الله عليها ويتوجهوا بها إليه وهى تهيأ للنحر بصف أقدامها : « فاذكروا اسم عليها صواف » . والإبل تنحر قائمة على ثلاث معقولة الرجل الرابعة ـ « فإذا وجبت جنوبها » واطمأنت على الأرض بموتها أ كل منها أصحابها استحبابا ، وأطعموا منها الفقير القانع الذى لا يسأل والفقير المعتر الذى يتعرض للسؤال . فلهذا سخرها الله للناس ليشكروه على ما قدر لهم فيها من الخير حية وذبيحة : « كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون » . .

وهم حين يؤمرون بنحرها باسم الله « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها » فإن اللحوم والدماء لا تصل إلى الله سبحانه . إنما تصل إليه تقوى القلوب وتوجهاتها ـ لا كما كان مشركو قريش يلطخون أوثانهم وآلهتهم بدماء الأضحيات على طريقة الشرك المنحرفة الغليظة !

« كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم » .. فقد هداكم إلى توحيده والاتجاه إليه وإدراك حقيقة الصلة بين الرب والعباد . وحقيقة الصلة بين العمل والاتجاه .

« وبشر المحسنين » . . الذين يحسنون التصور ، ويحسنون الشعور ، ويحسنون العبادة ، ويحسنون الصلة بالله فى كل نشاط الحياة .

وهكذا لا يخطو المسلم فى حياته خطوة ، ولا يتحرك فى ليله أو نهاره حركة ، إلا وهو ينظر فيها إلى الله . ويجيش قلبه فيها بتقواه ، ويتطلع فيها إلى وجهه ورضاه . فإذا الحياة كلها عبادة تتحقق بها إرادة الله من خلق العباد ، وتصلح بها الحياة فى الأرض وهى موصولة السبب بالسماء .

* * *

تلك الشعائر والعبادات لا بد لها من حماية تدفع عنها الذين يصدون عن سبيل الله ويمنعهم من الاعتداء على حرية العقيدة وحرية العبادة ، وعلى قداسة المعابد وحرمة الشعائر ،

Marfat.com

وتمكن المؤمنين العابدين العاملين من تحقيق منهاج الحياة القائم على العقيدة ، المتصل بالله ، الكفيل بتحقيق الخير للبشرية فى الدنيا والآخرة .

ومن ثم أذن الله للمسلمين بعد الهجرة فى قتال المشركين ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم اعتداء المعتدين ، بعد أن بلغ أقصاه ، وليحققوا لأنفسهم ولغيرهم حرية العقيدة وحرية العبادة فى ظل دين الله ، ووعدهم النصر والتمكين ، على شرط أن ينهضوا بتكاليف عقيدتهم التى بينها لهم فيما يلى من الآيات :

« إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لا يحب كل خوان كفور . أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا . وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور » ..

إن قوى الشر والضلال تعمل فى هذه الأرض ، والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال ؛ والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان .

والشر جامح والباطل مسلح . وهو يبطش غير متحرج ، ويضرب غير متورع ؛ ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهتدوا إليه ، وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له . فلا بد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش ، وتقيها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسموم .

ولم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عزلا تكافح قوى الطغيان والشر والباطل ، اعتمادا على قوة الإيمان فى النفوس وتغلغل الحق فى الفطر ، وعمق الخير فى القلوب . فالقوة المادية التى يملكها الباطل قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وتزيغ الفطر . وللصبر حد وللاحتمال أمد ، وللطاقة البشرية مدى تنتهى إليه . والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم . ومن ثم لم يشأ أن يترك المؤمنين للفتنة ، إلا ريثما يستعدون للمقاومة ، ويتهيأون للدفاع ، ويتمكنون من وسائل الجهاد .. وعندئذ أذن لهم فى القتال لرد العدوان .

وقبل أن يأذن لهم بالانطلاق إلى المعركة آذنهم أنه هو سيتولى الدفاع عنهم فهم فى حمايته : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » ..

وأنه يكره أعداءهم لكفرهم وخيانتهم فهم مخذولون حتما : « إن الله لا يحب كل خوان كفور » ..

وأنه حكم لهم بأحقية دفاعهم وسلامة موقفهم من الناحية الأدبية فهم مظلومون غير معتدين ولا متبطرين : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » ..

وأن لهم أن يطمئنوا إلى حماية الله لهم ونصره إياهم : « وإن الله على نصرهم لقدير » ..

وأن لهم مايبرر خوضهم للمعركة فهم منتدبون لمهمة إنسانية كبيرة ، لا يعود خيرها عليهم وحدهم ، إنما يعود على الجبهة المؤمنة كلها ؛ وفيها ضمان لحرية العقيدة وحرية العبادة . وذلك فوق أنهم مظلومون أخرجوا من ديارهم بغير حق : « الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله » . . وهى أصدق كلمة أن تقال ، وأحق كلمة بأن تقال . ومن أجل هذه الكلمة وحدها كان إخراجهم . فهو البغى المطلق الذى لا يستند إلى شبهة من ناحية المعتدين . وهو التجرد من كل هدف شخصى من ناحية المعتدى عليهم . إنما هى العقيدة وحدها من أجلها يخرجون ، لا الصراع على عرض من أعراض هذه الأرض ، التى تشتجر فيها الأطماع ؛ وتتعارض فيها المصالح ، وتختلف فيها الاتجاهات وتتضارب فيها المنافع !

ووراء هذه كله تلك القاعدة العامة . . حاجة العقيدة إلى الدفع عنها : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » ..

والصوامع أماكن العبادة المنعزلة للرهبان ، والبيع للنصارى عامة وهى أوسع من الصوامع ، والصلوات أماكن العبادة لليهود . والمساجد أماكن العبادة للمسلمين .

وهى كلها معرضة للهدم ـ على قداستها وتخصيصها لعبادة الله ـ لا يشفع لها فى نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها ، ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض . أى دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها ، ويعتدون على أهلها . فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يدفع بمثل القوة التى يصول بها ويجول . ولا يكفى الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه ، بل لا بد من القوة تحميه وتدفع عنه . وهى قاعدة كلية لا تتبدل مادام الإنسان هو الإنسان !

ولا بد من وقفة أمام هذه النصوص القليلة الكلمات العميقة الدلالة ، وما وراءها من أسرار فى عالم النفس وعالم الحياة .

إن الله يبدأ الإذن بالقتال للذين قاتلهم المشركون ، واعتدى عليهم المبطلون ، بأن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وأنه يكره المعتدين عليهم من الكفار الخائنين :

« إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور » ..

Marfat.com

فقد ضمن للمؤمنين إذن أنه هو تعالى يدافع عنهم . ومن يدافع الله عنه فهو ممنوع حتما من عدوه ، ظاهر حتما على عدوه . . ففيم إذن يأذن لهم بالقتال ؟ وفيم إذن يكتب عليهم الجهاد ؟ وفيم إذن يقاتلون فيصيبهم القتل والجرح ، والجهد والمشقة ، والتضحية والآلام . . . والعاقبة معروفة ، والله قادر على تحقيق العاقبة لهم بلا جهد ولا مشقة ، ولا تضحية ولا ألم ، ولا قتل ولا قتال ؟

والجواب أن حكمة الله فى هـذا هى العليا ، وأن لله الحجة البالغة . . والذى ندركه نحن البشر من تلك الحكمة ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا أن الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماتها من « التنابلة » الكسالى ، الذين يجلسون فى استرخاء ، ثم يتنزل عليهم نصره سهلا هينا بلا عناء ، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ويرتلون القرآن ويتوجهون إلى الله بالدعاء ، كلما مسهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء !

نعم إنهم يجب أن يقيموا الصلاة ، وأن يرتلوا القرآن ، وأن يتوجهوا إلى الله بالدعاء فى السراء والضراء . ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحمايتها ؛ إنما هى الزاد الذى يتزودونه للمعركة . والذخيرة التى يدخرونها للموقعة ، والسلاح الذى يطمئنون إليه وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه ويزيدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله .

لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كى يتم نضجهم هم فى أثناء المعركة . فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهى تواجه الخطر ؛ وهى تدفع وتدافع ، وهى تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة . . عندئذ تتحفز كل خلية بكل ما أودع فيها من استعداد لتؤدى دورها ؛ ولتتساند مع الخلايا الأخرى فى العمليات المشتركة ؛ ولتؤتى أقصى ما تملكه ، وتبذل آخر ماتنطوى عليه ؛ وتصل إلى أكمل ماهو مقدور لها وما هى مهيأة له من الكمال .

والأمة التى تقوم على دعوة الله فى حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها ، واحتشاد كل قواها ، وتوفز كل استعدادها ، وتجمع كل طاقاتها ، كى يتم نموها ، ويكمل نضجها ، وتتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها .

والنصر السريع الذى لا يكلف عناء ، والذى يتنزل هينا لينا على القاعدين المستريحين ، يعطل تلك الطاقات عن الظهور ، لأنه لا يحفزها ولا يدعوها . .

Marfat.com

وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين سهل فقدانه وضياعه . أولا لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة . وثانيا لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه . فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه .

وهناك التربية الوجدانية والدربة العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة ، والكر والفر ، والقوة والضعف والتقدم والتقهقر . ومن المشاعر المصاحبة لها .. من الأمل والألم . ومن الفرح والغم ، ومن الاطمئنان والقلق . ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة .. ومعها التجمع والفناء في العقيدة والجماعة والتنسيق بين الاتجاهات في ثنايا المعركة وقبلها وبعدها وكشف نقط الضعف ونقط القوة ، وتدبير الأمور في جميع الحالات .. وكلها ضرورية للأمة التي تحمل الدعوة وتقوم عليها وعلى الناس .

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله .. جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم ؛ ولم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء[1] .

والنصر قد يبطىء على الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريدها الله .

قد يبطىء النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها ، ولم يتم بعد تمامها ، ولم تحشد بعد طاقاتها ، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات . فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكا لعدم قدرتها على حمايته طويلا !

وقد يبطىء النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة ، وآخر ما تملكه من رصيد ، فلا تستبقي عزيزا ولا غاليا ، لا تبذله هينا رخيصا في سبيل الله .

---

(١) والإسلام مع هذا لا يعد القتال غاية لذاته ، ولا يأذن به إلا لغاية أكبر من المهادنة والموادعة .. إن السلام هو غاية الإسلام . كما تقرر آيات أخرى كثيرة في القرآن . ولكنه السلام الذي لا اعتداء فيه ولا ظلم ولا بغي ولا عدوان . أما حيث يقع البغي والعدوان على أي مقوم من مقومات الإنسانية الفاضلة كحرية العقيدة وحرية العبادة ، والعدل في الحكم ، والعدل في الجزاء ، والعدل في توزيع المغانم والمغارم والحقوق والواجبات ، واستقامة السلوك الفردي والجماعي على حدود الله .. أما حيث يقع البغي على أي مقوم من هذه المقومات في أية صورة من الصور ، سواء وقع من فرد على فرد ، أو من فرد على جماعة ، أو من جماعة على فرد أو جماعة ، أو من دولة ، على دولة . فالإسلام لا يرضى حينئذ بسلام يقوم على هذا العدوان . فليس السلام في الإسلام هو المهادنة والموادعة إنما هو تحقق الخير والعدل على النهج الذي رسمه الله للعباد .. (يراجع بتوسع كتاب السلام العالمي والإسلام) .

Marfat.com

Marfat.com

وقد يبطيء النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها ، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر . إنما يتنزل النصر من عند الله عند ماتبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله .

وقد يبطيء النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وهى تعانى وتتألم وتبذل ؛ ولا تجد لها سندا إلا الله ، ولا متوجها إلا إليه وحده في الضراء . وهذه الصلة هى الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عند مايتأذن به الله . فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذى نصرها به الله .

وقد يبطيء النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهى تقاتل لمغنم تحققه ، أو تقاتل حمية لذاتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها . والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله ، بريئاً من المشاعر الأخرى التى تلابسه . وقد سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى . فأيها في سبيل الله . فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو في سبيل الله[1] » .

كما قد يبطيء النصر لأن في الشر الذى تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير ، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصاً ، ويذهب وحده هالكا ، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار !

وقد يبطيء النصر لأن الباطل الذى تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماما . فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصارا من المخدوعين فيه ، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله ؛ فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة . فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عاريا للناس ، ويذهب غير مأسوف عليه من ذى بقية !

وقد يبطيء النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذى تمثله الأمة المؤمنة . فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معها قرار . فيظل الصراع قائماً حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ، ولاستبقائه !

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، قد يبطيء النصر ، فتتضاعف التضحيات ، وتتضاعف الآلام . مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية .

---

(١) رواه الشيخان .

Marfat.com

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه ، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه :

« ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ؛ ولله عاقبة الأمور » . .

فوعد الله المؤكد الوثيق المتحقق الذى لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره . . فمن هم هؤلاء الذين ينصرون الله ، فيستحقون نصر الله ، القوى العزيز الذى لا يهزم من يتولاه ؟ إنهم هؤلاء :

« الذين إن مكناهم فى الأرض » . . فحققنا لهم النصر ، وثبتنا لهم الأمر . . « أقاموا الصلاة » . . فعبدوا الله ووثقوا صلتهم به ، واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين . . « وآتوا الزكاة » . . فأدوا حق المال ، وانتصروا على شح النفس ، وتطهروا من الحرص ، وغلبوا وسوسة الشيطان ، وسدوا خلة الجماعة ، وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج ، وحققوا لها صفة الجسم الحى ــ كما قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . . « وأمروا بالمعروف » . . فدعوا إلى الخير والصلاح ، ودفعوا إليه الناس . . « ونهوا عن المنكر » . . فقاوموا الشر والفساد ، وحققوا بهذا وذاك صفة الأمة المسلمة التى لا تبقى على منكر وهى قادرة على تغييره ، ولا تقعد عن معروف وهى قادرة على تحقيقه . .

هؤلاء هم الذين ينصرون الله ، إذ ينصرون نهجه الذى أراده للناس فى الحياة ، معتزين بالله وحده دون سواه . وهؤلاء هم الذين يعدهم الله بالنصر على وجه التحقيق واليقين .

فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته . المشروط بتكاليفه وأعبائه . . والأمر بعد ذلك لله ، يصرفه كيف يشاء ، فيبدل الهزيمة نصرا ، والنصر هزيمة ، عند ما تختل القوائم ، أو تهمل التكاليف : « ولله عاقبة الأمور » . .

إنه النصر الذى يؤدى إلى تحقيق المنهج الإلهى فى الحياة . من انتصار الحق والعدل والحرية المتجهة إلى الخير والصلاح . المنظور فيه إلى هذه الغاية التى يتوارى فى ظلها الأشخاص والذوات ، والمطامع والشهوات . .

وهو نصر له سببه . وله ثمنه . وله تكاليفه . وله شروطه . فلا يعطى لأحد جزافا أو محاباة ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه . .

Marfat.com

« وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ، وَكُذِّبَ مُوسَى ، فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ؟ * فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ؟ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ! فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ، وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ .

« قُلْ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ، فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

« وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ، أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ » ﴿٥٧﴾

Marfat.com

انتهى الدرس السابق عند الإذن بالقتال لحماية العقائد والشعائر ؛ ووعد الله بالنصر لمن ينهضون بتكاليف العقيدة ، ويحققون النهج الإلهى فى حياة الجماعة .

وإذ انتهى من بيان تكاليف الأمة المؤمنة أنشأ يطمئن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى تدخل يد القدرة الإلهية لنصره ؛ ولخذلان أعدائه ، كما تدخلت من قبل لنصرة إخوانه الرسل - عليهم السلام - وأخذ المكذبين على مدار الأجيال . وأخذ يوجه المشركين إلى تأمل مصارع الغابرين إن كانت لهم قلوب للتأمل والتدبر ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

ثم يطمئن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى أن الله يحمى رسله من كيد الشيطان كما يحميهم من كيد المكذبين . ويبطل ما يحاوله الشيطان ويحكم آياته ويجلوها للقلوب السليمة . فأما القلوب المريضة والقلوب الكافرة فتظل الريبة فيها حتى تنتهى بها إلى شر مصير . .

فالدرس كله بيان لآثار يد القدرة وهى تتدخل فى سير الدعوة ، بعد أن يؤدى أصحابها واجبهم ، وينهضوا بتكاليفهم التى سبق بها الدرس الماضى فى السياق .

* * *

« وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وكذب موسى ، فأمليت للكافرين ثم أخذتهم ، فكيف كان نكير ؟ » . .

فهى سنة مطردة فى الرسالات كلها ، قبل الرسالة الأخيرة ، أن يجىء الرسل بالآيات فيكذب بها المكذبون . فليس الرسول - صلى الله عليه وسلم - بدعا من الرسل حين يكذبه المشركون . والعاقبة معروفة ، والسنة مطردة « فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط » . . ويفرد موسى بفقرة خاصة : « وكذب موسى » أولا . لأنه لم يكذب من قومه كما كذب هؤلاء من قومهم ، إنما كذب من فرعون وملئه . وثانياً لوضوح الآيات التى جاء بها موسى وتعددها وضخامة الأحداث التى صاحبتها . . وفى جميع تلك الحالات أملى الله للكافرين حيناً من الزمان - كما يملى لقريش - ثم أخذهم أخذا شديدا . . وهنا سؤال للتهويل والتعجيب : « فكيف كان نكير ؟ » . . والنكير هو الإنكار العنيف المصحوب بالتغيير . والجواب معروف . فهو نكير مخيف ! نكير الطوفان والخسف والتدمير والهلاك والزلازل والعواصف والترويع . .

وبعد الاستعراض السريع لمصارع أولئك الأقوام يعمم فى عرض مصارع الغابرين :

Marfat.com

« فكأي من قرية أهلكناها وهي ظالمة ، فهي خاوية على عروشها ؛ وبئر معطلة ، وقصر مشيد » .

فهي كثيرة تلك القرى المهلكة بظلمها . والتعبير يعرض مصارعها في مشهد شاخص مؤثر : « فهي خاوية على عروشها » . . والعروش السقوف ، وتكون قائمة على الجدران عند قيام البناء . فإذا تهدم خرت العروش وسقطت فوقها البنيان ، وكان منظرها هكذا موحشا كئيبا مؤثرا . داعيا إلى التأمل في صورتها الخالية وصورتها البادية . والربوع الخربة أوحش شيء للنفس وأشدها استجاشة للذكرى والعبرة والخشوع .

وإلى جوار القرى الخاوية على عروشها . . الآبار المعطلة المهجورة تذكر بالورد والوراد ؛ وتزاحم حولها الأخيلة وهي مهجورة خواء .

ثم إلى جوارها القصور المشيدة وهي خالية من السكان موحشة من الأحياء ، تطوف بها الرؤى والأشباح ، والذكريات والأطياف !

يعرض السياق هذه المشاهد ثم يسأل في استنكار عن آثارها في نفوس المشركين الكفار :

« أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ؟ أو آذان يسمعون بها ؟ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » !

إن مصارع الغابرين حيالهم شاخصة موحية ، تتحدث بالعبر ، وتنطق بالعظات . . « أفلم يسيروا في الأرض » فيروها فتوحي لهم بالعبرة ؟ وتنطق لهم بلسانها البليغ ؟ وتحدثهم بما تنطوي عليه من عبر ؟ « فتكون لهم قلوب يعقلون بها » فتدرك ما وراء هذه الآثار الدوارس من سنة لا تتخلف ولا تتبدل . « أو آذان يسمعون بها » فتسمع أحاديث الأحياء عن تلك الدور المهدمة والآبار المعطلة والقصور الموحشة ؟ .

أفلم تكن لهم قلوب ؟ فإنهم يرون ولا يدركون ، ويسمعون ولا يعتبرون « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » !

ويمعن في تحديد مواضع القلوب : « التي في الصدور » زيادة في التوكيد ، وزيادة في إثبات العمى لتلك القلوب على وجه التحديد !

ولو كانت هذه القلوب مبصرة لجاشت بالذكرى ، وجاشت بالعبرة ، وجنحت إلى الإيمان خشية العاقبة الماثلة في مصارع الغابرين ، وهي حولهم كثير .

ولكنهم بدلا من التأمل فى تلك المصارع ، والجنوح إلى الإيمان ، والتقوى من العذاب .. راحوا يستعجلون بالعذاب الذى أخره الله عنهم إلى أجل معلوم :

« ويستعجلونك بالعذاب . ولن يخلف الله وعده . وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » ..

وذلك دأب الظالمين فى كل حين . يرون مصارع الظالمين ، ويقرأون أخبارهم ويعلمون مصائرهم . ثم إذا هم يسلكون طريقهم غير ناظرين إلى نهاية الطريق ! فإذا ذكروا بما نال أسلافهم استبعدوا أن يصيبهم ما أصابهم .. ثم يطغى بهم الغرور والاستهتار إذا أملى لهم الله على سبيل الاختبار . فإذا هم يسخرون ممن يخوفهم ذلك المصير . وإذا هم – من السخرية – يستعجلون ما يوعدون ! « ولن يخلف الله وعده » فهو آت فى موعده الذى أراده الله وقدره وفق حكمته . واستعجال الناس به لا يعجله كى لا تبطل الحكمة المقصودة من تأجيله . وتقدير الزمن فى حساب الله غيره فى حساب البشر : « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون »..

ولقد أملى الله للكثير من تلك القرى الهالكة ؛ فلم يكن هذا الإملاء منجيا لها من المصير المحتوم والسنة المطردة فى هلاك الظالمين :

« وكأى من قرية أمليت لها وهى ظالمة ، ثم أخذتها ، وإلى المصير » ..

فما بال هؤلاء المشركين يستعجلون بالعذاب ، ويهزأون بالوعيد ، بسبب إملاء الله لهم حينا من الزمان إلى أجل معلوم ؟ .

* * *

وعند هذا الحد من عرض مصارع الغابرين ، وبيان سنة الله فى المكذبين .. يلتفت السياق بالخطاب إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لينذر الناس ويبين لهم ما ينتظرهم من مصير :

« قل : يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ، والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم » ..

ويحصر السياق وظيفة الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى هذا المقام للإنذار : « إنى لكم نذير مبين » .. لما يقتضيه التكذيب والاستهزاء واستعجال العذاب من إبراز الإنذار .. ثم يأخذ فى تفصيل المصير :

Marfat.com

فأما الذين آمنوا وأتبعوا إيمانهم بثمرته التى تدل على تحققه : « وعملوا الصالحات » فجزاؤهم « مغفرة من ربهم » لما سلف من ذنوبهم أو تقصيرهم : « ورزق كريم » غير مَهين ولا مبين !

وأما الذين بذلوا غاية جهدهم فى تعطيل آيات الله عن أن تبلغ القلوب ، وتتحقق فى حياة الناس ـ وآيات الله هى دلائله على الحق وهى شريعته كذلك للخلق ـ فأما هؤلاء فقد جعلهم مالكين للجحيم ـ ويا لسوئها من ملكية ـ فى مقابل ذلك الرزق الكريم !

* * *

والله الذى يحفظ دعوته من تكذيب المكذبين ، وتعطيل المعوقين ، ومعاجزة المعاجزين.. يحفظها كذلك من كيد الشيطان ، ومن محاولته أن ينفذ إليها من خلال أمنيات الرسل النابعة من طبيعتهم البشرية . وهم معصومون من الشيطان ولكنهم بشر تمتد نفوسهم إلى أمانىّ تتعلق بسرعة نشر دعوتهم وانتصارها وإزالة العقبات من طريقها . فيحاول الشيطان أن ينفذ من خلال أمانيهم هذه فيحول الدعوة عن أصولها وعن موازينها . . فيبطل الله كيد الشيطان ، ويصون دعوته ، ويبين للرسل أصولها وموازينها ، فيحكم آياته ، ويزيل كل شبهة فى قيم الدعوة ووسائلها :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ؛ وإن الظالمين لفى شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم »..

لقد رويت فى سبب نزول هذه الآيات روايات كثيرة ذكرها كثير من المفسرين . قال ابن كثير فى تفسيره : « ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح . والله أعلم » .

وأكثر هذه الروايات تفصيلا رواية ابن أبى حاتم . قال : حدثنا موسى ابن أبى موسى الكوفى ، حدثنا محمد ابن إسحاق الشيبى ، حدثنا محمد ابن فليح ، عن موسى ابن عقبة ، عن ابن شهاب ، قال : أنزلت سورة النجم ، وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذى يذكر آلهتنا من الشتم والشر . وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد اشتد عليه ما ناله

Marfat.com

Marfat.com

وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم ، وأحزنه ضلالهم ؛ فكان يتمنى هداهم . فلما أنزل الله سورة النجم قال : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ؟ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ » ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت فقال : وإنهن لهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى . . وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته . . فوقعت هاتان الكلمتان فى قلب كل مشرك بمكة ، وذلت بها ألسنتهم ، وتباشروا بها ، وقالوا : إن محمدا قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه .. فلما بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - آخر النجم سجد ، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك . غير أن الوليد ابن المغيرة كان رجلا كبيرا فرفع ملء كفه ترابا فسجد عليه . فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم فى السجود لسجود رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين . ولم يكن المسلمون سمعوا الذى ألقى الشيطان فى مسامع المشركين ، فاطمأنت أنفسهم - أى المشركون - لما ألقى الشيطان فى أمنية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحدثهم به الشيطان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد قرأها فى السورة ، فسجدوا لتعظيم آلهتهم . ففشت تلك الكلمة فى الناس ؛ وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين : عثمان ابن مظعون وأصحابه ؛ وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم ، وصلوا مع رسول الله ؛ وبلغهم سجود الوليد ابن المغيرة على التراب على كفه ؛ وحدثوا أن المسلمين قد أمنوا بمكة ، فأقبلوا سراعا ، وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، وحفظه من الفرية ، وقال : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم . وإن الظالمين لفى شقاق بعيد » . فلما بين الله قضاءه ، وبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم على المسلمين ، واشتدوا عليهم » . .

قال ابن كثير : وقد ساق البغوى فى تفسيره روايات مجموعة من كلام ابن عباس ، ومحمد ابن كعب القرظى وغيرهما بنحو من ذلك ، ثم سأل ها هنا سؤالا : كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله - صلوات الله وسلامه عليه - ثم حكى أجوبة عن الناس ، من ألطفها أن الشيطان أوقع فى مسامع المشركين ذلك . فتوهموا أنه صدر عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وليس كذلك فى نفس الأمر ، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - والله أعلم .

Marfat.com

وقال البخارى : قال ابن عباس : « فى أمنيته » إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه . فيبطل الله مايلقى الشيطان « ثم يحكم الله آياته » .

وقال مجاهد : « إذا تمنى » يعنى إذا قال ؛ ويقال أمنيته : قراءته .

وقال البغوى : وأكثر المفسرين قالوا : معنى قوله : « تمنى » أى تلا وقرأ كتاب الله « ألقى الشيطان فى أمنيته » أى فى تلاوته .

وقال ابن جرير عن تفسير « تمنى » بمعنى تلا : هذا القول أشبه بتأويل الكلام !

هذه خلاصة تلك الروايات فى هذا الحديث الذى عرف بحديث الغرانيق . . وهو من ناحية السند واهى الأصل . قال علماء الحديث : إنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند سليم متصل ثقة . وقال أبو بكر البزار : هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - بإسناد متصل يجوز ذكره . وهو من ناحية موضوعه يصادم أصلا من أصول العقيدة وهو عصمة النبى - صلى الله عليه وسلم - من أن يدس عليه الشيطان شيئاً فى تبليغ رسالته .

وقد أولع المستشرقون والطاعنون فى هذا الدين بذلك الحديث ، وأذاعوا به ، وأثاروا حوله عجاجة من القول . والأمر فى هذا كله لا يثبت للمناقشة ، بل لا يصح أن يكون موضوعا للمناقشة .

وهناك من النص ذاته مايستبعد معه أن يكون سبب نزول الآية شيئا كهذا ، وأن يكون مدلوله حادثا مفردا وقع للرسول - صلى الله عليه وسلم - فالنص يقرر أن هذه قاعدة عامة فى الرسالات كلها مع الرسل كلهم : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله مايلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته » . . فلا بد أن يكون المقصود أمرا عاما يستند إلى صفة فى الفطرة مشتركة بين الرسل جميعا ، بوصفهم من البشر ، مما لا يخالف العصمة المقررة للرسل .

وهذا ما نحاول بيانه بعون الله . والله أعلم بمراده ، إنما نحن نفسر كلامه بقدر ادراكنا البشرى . .

إن الرسل عندما يكلفون حمل الرسالة إلى الناس ، يكون أحب شىء إلى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة ، وأن يدركوا الخير الذى جاءوهم به من عند الله فيتبعوه . . ولكن العقبات فى طريق الدعوات كثير . والرسل بشر محدودو الأجل . وهم يحسون هذا ويعلمونه . فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق . . يودون مثلا لو هادنوا الناس فيما

Marfat.com

سورة الحج

يعز على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات فيسكتوا عنها مؤقتا لعل الناس أن يفيئوا إلى الهدى ، فإذا دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة ! ويودون مثلا لو جاروهم فى شىء يسير من رغبات نفوسهم رجاء استدراجهم إلى العقيدة ، على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التى تطرد هذه الرغبات المألوفة !

ويودون . ويودون . من مثل هـذه الأمانى والرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة وانتصارها . . ذلك على حين يريد الله أن تمضى الدعوة على أصولها الكاملة ، وفق موازينها الدقيقة ، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . فالكسب الحقيقى للدعوة فى التقدير الإلهى الكامل غير المشوب بضعف البشر وتقديرهم . . هو أن تمضى على تلك الأصول وفق تلك الموازين ، ولو خسرت الأشخاص فى أول الطريق . فالاستقامة الدقيقة الصارمة على أصول الدعوة ومقاييسها كفيل أن يثنى هؤلاء الأشخاص أو من هم خير منهم إلى الدعوة فى نهاية المطاف ، وتبقى مثل الدعوة سليمة لا تخدش ، مستقيمة لا عوج فيها ولا انحناء . .

ويجد الشيطان فى تلك الرغبات البشرية ، وفى بعض مايترجم عنها من تصرفات أو كلمات . فرصة للكيد للدعوة ، وتحويلها عن قواعدها ، والقاء الشبهات حولها فى النفوس . . ولـكن الله يحول دون كيد الشيطان ، ويبين الحكم الفاصل فيما وقع من تصرفات أو كلمات ، ويكلف الرسل أن يكشفوا للناس عن الحكم الفاصل ، وعما يكون قد وقع منهم من خطأ فى اجتهادهم للدعوة . كما حدث فى بعض تصرفات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى بعض اتجاهاته ، مما بين الله فيه بيانا فى القرآن . .

بذلك يبطل الله كيد الشيطـان ، ويحكم الله آياته ، فـلا تبقى هنالك شبـهة فى الوجه الصواب :

« والله عليم حكيم » . . فأما الذين فى قلوبهم مرض من نفاق أو انحراف ، والقاسية قلوبهم من الكفار المعاندين ؛ فيجدون فى مثل هذه الأحوال مادة للجدل واللجاج والشقاق : « وإن الظالمين لفى شقاق بعيد » . وأما الذين أوتوا العلم والمعرفة فتطمئن قلوبهم إلى بيان الله وحكمه الفاصل : « وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » . .

وفى حياة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى تاريخ الدعوة الإسلامية نجد أمثلة من هـذا ، تغنينا عن تأويل الكلام ، الذى أشار إليه الإمام ابن جرير رحمه الله .

نجد من ذلك مثالا فى قصة ابن أم مكتوم ـ رضى الله عنه ـ الأعمى الفقير الذى جاء

إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : يارسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله ، ويكرر هذا القول والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مشغول بأمر الوليد ابن المغيرة يود لو يهديه إلى الإسلام ومعه صناديد قريش ، وابن أم مكتوم لا يعلم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مشغول بهذا الأمر . حتى كره ، رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلحاحه فعبس وأعرض عنه .. فأنزل الله فى هذا قرآنا يعاتب فيه الرسول عتابا شديدا :

« عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ! أما من استغنى ، فأنت له تصدى ؟ وما عليك ألا يزكى ؟ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ؟ كلا ! إنها تذكرة فمن شاء ذكره ... » .

وبهذا رد الله للدعوة موازينها الدقيقة وقيمها الصحيحة . وصحح تصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى دفعته إليه ، رغبته فى هداية صناديد قريش ، طمعا فى إسلام من وراءهم وهم كثيرون . فبين الله له : أن استقامة الدعوة على أصولها الدقيقة أهم من إسلام أولئك الصناديد . وأبطل كيد الشيطان من الدخول إلى العقيدة من هذه الثغرة ، وأحكم الله آياته . واطمأنت إلى هذا البيان قلوب المؤمنين .

ولقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك يكرم ابن أم مكتوم . ويقول إذا رآه : « مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى » ويقول له : « هل لك من حاجة » واستخلفه على المدينة مرتين .

كذلك وقع مارواه مسلم فى صحيحه قال : حدثنا أبو بكر ابن أبى شيبة ، حدثنا محمد ابن عبد الله الأسدى ، عن اسرائيل ، عن المقدام ابن شريح ، عن أبيه ، عن سعد ـ هو ابن أبى وقاص ـ قال : كنا مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ستة نفر . فقال المشركون للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أطرد هؤلاء لا يجترئون علينا . قال : وكنت أنا وابن مسعود ، ورجل من هذيل ، وبلال ، ورجلان نسيت اسمهما . فوقع فى نفس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماشاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل : «ولا تطرد الذين يدعون ربهم ؛ بالغداة والعشى يريدون وجهه » .

وهكذا رد الله للدعوة قيمها المجردة ، وموازينها الدقيقة . ورد كيد الشيطان فيما أراد أن يدخل من تلك . الثغرة . ثغرة الرغبة البشرية فى استمالة كبراء قريش بإجابة رغبتهم فى أن لا يحضر هؤلاء الفقراء مجلسهم مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقيم الدعوة أهم من أولئك الكبراء ، وما يتبع إسلامهم من إسلام الألوف معهم وتقوية الدعوة فى نشأتها بهم ـ

Marfat.com

Marfat.com

كما كان يتمنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والله أعلم بمصدر القوة الحقيقية ، وهو الاستقامة التى لا ترعى هوى شخصيا ولا عرفا جاريا !

ولعله مما يلحق بالمثلين المتقدمين ماحدث فى أمر زينب بنت جحش ابنة عمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد زوجها من زيد ابن حارثة ـ رضى الله عنه ـ وكان قد تبناه قبل النبوة ، فكان يقال له : زيد ابن محمد . فأراد الله أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة فقال تعالى : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » وقال : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم » . . وكان زيد ـ رضى الله عنه ـ أحب الناس إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فزوجه من ابنة عمته زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ فلم تستقم بينهما الحياة . . وكانوا فى الجاهلية يكرهون أن يتزوج المتبنى مطلقة متبناه . فأراد الله سبحانه إبطال هـذه العادة ، كما أبطل نسبة الولد إلى غير أبيه . فأخبر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سيزوجه من زينب بعد أن يطلقها زيد ـ لتكون هذه السنة مبطلة لتلك العادة ـ ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخفى فى نفسه ماأخبره به الله . وكان كلما شكا إليه زيد تعذر الحياة مع زينب قال له : « أمسك عليك زوجك » مراعيا فى هذا كراهية القوم لزواجه منها حين يطلقها زيد . وظل يخفى ماقدر الله إظهاره حتى طلقها زيد . . فأنزل الله فى هذا قرآنا ، يكشف عما جال فى خاطر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقرر القواعد التى أراد الله أن يقوم تشريعه فى هذه المسألة عليها :

« إذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله . وتخفى فى نفسك ماالله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه . فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا . وكان أمر الله مفعولا » .

ولقد صدقت عائشة ـ رضى الله عنها وهى تقول : لو كتم محمد ـ صلى عليه وسلم ـ شيئا مما أوحى إليه من كتاب الله تعالى لكتم : « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » .

وهكذا أنفذ الله شريعته وأحكمها ، وكشف ماخالج خاطر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من كراهية القوم لزواجه من مطلقة دعيه . ولم يمكن للشيطان أن يدخل من هذه الثغرة . وترك الذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم يتخذون من هذه الحادثة ، مادة للشقاق والجدال ماتزال !!!

* * *

هذا هو ما نطمئن إليه فى تفسير تلك الآيات . والله الهادى إلى الصواب .

ولقد تدفع الحماسة والحرارة أصحاب الدعوات - بعد الرسل - والرغبة الملحة فى انتشار الدعوات وانتصارها . . تدفعهم إلى استمالة بعض الأشخاص أو بعض العناصر بالإغضاء فى أول الأمر عن شىء من مقتضيات الدعوة يحسبونه هو ليس أصيلا فيها ، ومجاراتهم فى بعض أمرهم كى لا ينفروا من الدعوة ويخاصموها !

ولقد تدفعهم كذلك إلى اتخاذ وسائل وأساليب لا تستقيم مع موازين الدعوة الدقيقة ، ولا مع منهج الدعوة المستقيم . وذلك حرصا على سرعة انتصار الدعوة وانتشارها . واجتهادا فى تحقيق « مصلحة الدعوة » ومصلحة الدعوة الحقيقية فى استقامتها على النهج دون انحراف قليل أو كثير . أما النتائج فهى غيب لا يعلمه إلا الله . فلا يجوز أن يحسب حملة الدعوة حساب هذه النتائج ؛ إنما يجب أن يمضوا على نهج الدعوة الواضح الصريح الدقيق ، وأن يدعوا نتائج هذه الاستقامة لله . ولن تكون إلا خيراً فى نهاية المطاف .

وها هو ذا القرآن الكريم ينبههم إلى أن الشيطان يتربص بأمانيهم تلك لينفذ منها إلى صميم الدعوة . وإذا كان الله قد عصم أنبياءه ورسله فلم يمكن للشيطان أن ينفذ من خلال رغباتهم الفطرية إلى دعوتهم . فغير المعصومين فى حاجة إلى الحذر الشديد من هذه الناحية ، والتحرج البالغ ، خيفة أن يدخل عليهم الشيطان من ثغرة الرغبة فى نصرة الدعوة والحرص على ما يسمونه « مصلحة الدعوة » . . إن كلمة « مصلحة الدعوة » يجب أن ترتفع من قاموس أصحاب الدعوات ، لأنها مزلة ، ومدخل للشيطان يأتيهم منه ، حين يعز عليه أن يأتيهم من ناحية مصلحة الأشخاص ! ولقد تتحول « مصلحة الدعوة » إلى صنم يتعبده أصحاب الدعوة وينسون معه منهج الدعوة الأصيل ! . . إن على أصحاب الدعوة أن يستقيموا على نهجها ويتحروا هذا النهج دون التفات إلى ما يعقبه هذا التحرى من نتائج قد يلوح لهم أن فيها خطرا على الدعوة وأصحابها ! فالخطر الوحيد الذى يجب أن يتقوه هو خطر الانحراف عن النهج لسبب من الأسباب ، سواء كان هذا الانحراف كثيرا أو قليلا . والله أعرف منهم بالمصلحة وهم ليسوا بها مكلفين . إنما هم مكلفون بأمر واحد . ألا ينحرفوا عن المنهج ، وألا يحيدوا عن الطريق . .

* * *

ويعقب السياق على تلك الآيات وما فيها من صيانة لدعوة الله من كيد الشيطان بأن الذين يكفرون بها مدحورون ينتظرهم العذاب المهين :

Marfat.com

« ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم . الملك يومئذ لله يحكم بينهم . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين » .

ذلك شأن الذين كفروا مع القرآن كله ، يذكره السياق بعد بيان موقفهم مما يلقى الشيطان فى أمنيات الأنبياء والرسل ، لما بين الشأنين من تشابه واتصال . فهم لا يزالون فى ريبة من القرآن وشك . منشأ هذه الريبة أن قلوبهم لم تخالطها بشاشته فتدرك ما فيه من حقيقة وصدق . ويظل هذا حالهم « حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم » بعد قيام الساعة ، ووصف هذا اليوم بالعقيم وصف يلقى ظلا خاصا . فهو يوم لا يعقب . . إنه اليوم الأخير . .

فى هذا اليوم الملك لله وحده . فلا ملك لأحد ، حتى الملك الظاهرى الذى كان يظنه الناس فى الأرض ملكا . والحكم يومئذ لله وحده ، وهو يقضى لكل فريق بجزائه المقسوم : « فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم » .. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين » .. جزاء الكيد لدين الله ، وجزاء التكذيب بآياته البينات . وجزاء الاستكبار عن الطاعة لله والتسليم . .

« والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا ، وإن الله لهو خير الرازقين ۞٥٨ ليدخلنهم مدخلا يرضونه ، وإن الله لعليم حليم .

« ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ، ثم بغي عليه لينصرنه الله ، إن الله لعفو غفور * ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وأن الله سميع بصير * ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلي الكبير .

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ؟ إن الله لطيف خبير * له ما في السماوات وما في الأرض ، وإن الله لهو الغني الحميد .

Marfat.com

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ؟ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَهُوَ ٱلَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ .

« لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ ، وَٱدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ * وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلْ : ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ ؟ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ .

« وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمُنْكَرَ ، يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا . قُلْ : أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكُمْ ؟ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

« يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ ؛ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ . ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا ، وَٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ، فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ ، وَٱعْتَصِمُوا بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ » ٧٨

Marfat.com

Marfat.com

انتهى الدرس الماضى ببيان عاقبة المؤمنين والمكذبين يوم يكون الملك لله وحده . وذلك فى سياق نصرة الله لرسله ، وصيانته لدعوته ، وثوابه لمن يؤمن بها ، وعقابه لمن يكذبها ..

فالآن يبدأ هذا الدرس بالحديث عن المهاجرين ، بعد ما سبق الإذن لهم بالقتال ، دفاعا عن عقيدتهم ، وعن عبادتهم ، ودفعا للظلم عن أنفسهم ، وقد أخرجوا من ديارهم بغير حق ، ولم تكن جريرتهم إلا أن يقولوا : ربنا الله ، ويبين ما أعده لهم من عوض عما تركوا من ديار وأموال . .

ثم يتحدث بصفة عامة فى صورة حكم عام عمن يقع عليهم الاعتداء فيردون عليه بمثله ، ثم يقع عليهم البغى والعدوان ، فيعدهم نصر الله فى صيغة التوكيد .

ويعقب على هذا الوعد الوثيق باستعراض دلائل القدرة التى تضمن تحقيق ذلك الوعد الوثيق . . وهى دلائل كونية تتجلى فى صفحات الكون ونواميس الوجود ؛ وتوحى بأن نصر الله للمظلومين الذين يدفعون عن أنفسهم ، ويعاقبون بمثل ما وقع عليهم ، ثم يقع عليهم البغى . . سنة كونية ترتبط بنواميس الوجود الكبرى . .

وعندئذ يتوجه الخطاب إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بأن لكل أمة منهجا هى مأمورة به ومهيأة لنهجه ، كل يشغل نفسه بجدال المشركين ، ولا يدع لهم فرصة لينازعوه فى منهجه . فإن جادلوه فليكل أمرهم إلى الله ، الذى يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ، فهو أعلم بحقيقة ما هم عليه ، وهو الذى يعلم ما فى السماء والأرض .

ويعرّض بعبادتهم ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم ؛ وبقسوة قلوبهم ونفورهم من سماع كلمة الحق ، حتى ليكادون يبطشون بالذين يتلون عليهم آيات الله . ويهددهم إزاء همهم بالسطو على دعاة الحق بالنار التى جعلها الله مصيرهم ووعدهم بها وعدا لابد آت !

ثم يعلن فى صورة بيان عام شامل للخليقة عن ضعف من يدعونهم من دون الله . ويصور ضعفهم فى صورة زرية لا مبالغة فيها . ولكنها بطريقة عرضها تجسم الضعف المزرى . فهى صورة من لا يقدرون على منازلة الذباب ، ولا على استنقاذ ما يسلبهم إياه الذباب . . وهم آلهة كما يدعى لهم المشركون !

وينتهى الدرس وتنتهى السورة معه بتوجيه الخطاب إلى الأمة المؤمنة لتنهض بتكاليفها .

وهى تكاليف الوصاية على البشرية . مستعدة لها بالركوع والسجود والعبادة وفعل الخير ، مستعينة عليها بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله . .

* * *

« والذين هاجروا فى سبيل الله ، ثم قتلوا أو ماتوا ، ليرزقنهم الله رزقا حسنا . وإن الله لهو خير الرازقين . ليدخلنهم مدخلا يرضونه ، وإن الله لعليم حليم » . .

والهجرة فى سبيل الله تجرد من كل ما تهفو له النفس ، ومن كل ماتعتز به وتحرص عليه : الأهل والديار والوطن والذكريات ، والمال وسائر أعراض الحياة . وإيثار العقيدة على هذا كله ابتغاء رضوان الله ، وتطلعا إلى ما عنده وهو خير مما فى الأرض جميعا .

والهجرة كانت قبل فتح مكة وقيام الدولة الإسلامية . أما بعد الفتح فلم تعد هجرة . ولكن جهاد وعمل ــ كما قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فمن جاهد فى سبيل الله وعمل كان له حكم الهجرة ، وكان له ثوابها . .

« والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا » . . سواء لاقوا الله شهداء بالقتل ، أو لاقوه على فراشهم بالموت . فلقد خرجوا من ديارهم وأموالهم فى سبيله مستعدين لكل مصير ، واستروحوا الشهادة فى هجرتهم عن أى طريق ، وضحوا بكل عرض الحياة وتجردوا بهذا لله . فتكفل الله لهم بالعوض الكريم عما فقدوه : « ليرزقنهم الله رزقا حسنا ، وإن الله لهو خير الرازقين » . . وهو رزق أكرم وأجزل من كل ما تركوا : « ليدخلنهم مدخلا يرضونه » فقد خرجوا مخرجا يرضى الله ، فتعهد لهم الله بأن يدخلهم مدخلا يرضونه . وإنه لمظهر لتكريم الله لهم بأن يتوخى ما يرضونه فيحققه لهم ، وهم عباده ، وهو خالقهم سبحانه . « وإن الله لعليم حليم » . . عليم بما وقع عليهم من ظلم وأذى ، وبما يرضى نفوسهم ويعوضها . حليم يمهل . ثم يوفى الظالم والمظلوم الجزاء الأوفى . .

فأما الذين يقع عليهم العدوان من البشر فقد لا يحلمون ولا يصبرون ، فيردون العدوان ، ويعاقبون بمثل ما وقع عليهم من الأذى . فإن لم يكف المعتدون ، وعاودوا البغى على المظلومين تكفل الله عندئذ بنصر المظلومين على المعتدين :

« ذلك . ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله . إن الله لعفو غفور »
وشرط هذا النصر أن يكون العقاب قصاصا على اعتداء لا عدوانا ولا تبطرا ؛ وألا يتجاوز العقاب مثل ما وقع من العدوان دون مغالاة .

Marfat.com

Marfat.com

ويعقب على رد الاعتداء بمثله بأن الله عفو غفور . فهو الذى يملك العفو والمغفرة. أما البشر فقد لا يعفون ولا يغفرون ، وقد يؤثرون القصاص ورد العدوان ، وهذا لهم بحكم بشريتهم ولهم النصر من الله .

بعد ذلك يربط السياق بين وعد الله بالنصر لمن يعاقب بمثل ما عوقب به ثم يقع عليه البغى.. يربط بين هذا الوعد وسنن الله الكونية الكبرى ، التى تشهد بقدرة الله على تحقيق وعده ، كما تشهد بدقة السنن الكونية المطردة مما يوحى بأن ذلك النصر هو إحدى هذه السنن التى لا تتخلف .

« ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، وأن الله سميع بصير » . .

وهى ظاهرة طبيعية تمر بالبشر صباحا ومساء ، وصيفا وشتاء . الليل يدخل فى النهار عند المغيب ، والنهار يدخل فى الليل عند الشروق . والليل يدخل فى النهار وهو يطول فى مدخل الشتاء ، والنهار يدخل فى الليل وهو يمتد عند مطلع الصيف . . ويرى البشر هذه الظاهرة وتلك من إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل فينسيهم طول رؤيتها وطول ألفتها ما وراءها من دقة النواميس واطرادها . فلا تختل مرة ، ولا تتوقف مرة . وهى تشهد بالقدرة الحكيمة التى تصرف هذا الكون وفق تلك النواميس .

والسياق يوجه النظر إلى تلك الظاهرة الكونية المكرورة التى يمر عليها الناس غافلين ، ليفتح بصائرهم ومشاعرهم على يد القدرة ، وهى تطوى النهار من جانب وتسدل الليل من جانب . وهى تطوى الليل من جانب وتنشر النهار من جانب . فى دقة عجيبة لا تختل ، وفى اطراد عجيب لا يتخلف . . وكذلك نصر الله لمن يقع عليه البغى وهو يدفع عن نفسه العدوان.. إنه سنة مطردة كسنة إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل . فكذلك يزوى الليل سلطان المتجبرين وينشر سلطان العادلين . فهى سنة كونية كتلك السنة ، يمر عليها الناس غافلين ، كما يمرون على دلائل القدرة فى صفحة الكون وهم لا يشعرون !

ذلك مرتبط بأن الله هو الحق . فالحق هو المسيطر على نظام هذا الكون . وكل مادون الله باطل يختل ويتخلف ولا يطرد أو يستقيم .

« ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير » . .

وذلك تعليل كاف وضمان كاف لانتصار الحق والعدل ، وهزيمة الباطل والبغى . وهو

Marfat.com

كذلك ضمان لاطراد سنن الكون وثباتها ، وعدم تخلخلها أو تخلفها . ومن هذه السنن انتصار الحق وهزيمة البغى .

والله أعلى من الطغاة ، وأكبر من الجبارين : « وأن الله هو العلى الكبير » . . فلن يدع البغى يستعلى والظلم يستطيل .

* * *

ويستطرد السياق فى استعراض دلائل القدرة فى مشاهد الكون المعروضة للناس فى كل حين :

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فتصبح الأرض مخضرة ؟ إن الله لطيف خبير » .

ونزول الماء من السماء ، ورؤية الأرض بعده مخضرة بين عشية وصباح . . ظاهرة واقعة مكرورة . قد تذهب الألفة بجدتها فى النفوس . فأما حين يتفتح الحس الشاعر ، فإن هذا المشهد فى الأرض يستجيش فى القلب شتى المشاعر والأحاسيس . وإن القلب ليحس أحيانا أن هذا النبت الصغير الطالع من سواد الطين ، بخضرته وغضارته ، أطفال صغار تبسم فى غرارة لهذا الوجود الشائق البهيج ، وتكاد من فرحتها بالنور تطير !

والذى يحس على هذا النحو يستطيع أن يدرك ما فى التعقيب بقوله : « إن الله لطيف خبير » . . من لطف وعمق ومشاكلة للون هذا الإحساس ، ولحقيقة ذلك المشهد وطبيعته . فمن اللطف الإلهى ذلك الدبيب اللطيف . دبيب النبتة الصغيرة من جوف الثرى ، وهى نحيلة ضئيلة ، ويد القدرة تمدها فى الهواء ، وتمدها بالشوق إلى الارتفاع على جاذبية الأرض وثقلة الطين .. وبالخبرة الإلهية يتم تدبير الأمر فى إنزال الماء بقدر فى الوقت المناسب وبالقدر المطلوب ويتم امتزاج الماء بالتربة ، وخلايا النبات الحية المتطلعة إلى الانطلاق والنور !

والماء ينزل من سماء الله إلى أرضه ، فينشىء فيها الحياة ، ويوفر فيها الغذاء والثراء . . والله المالك لما فى السماء والأرض ، غنى عما فى السماء والأرض . وهو يرزق الأحياء بالماء والنبات ، وهو الغنى عنهم وعما يرزقون :

« وإن الله لهو الغنى الحميد »

Marfat.com

فما به سبحانه من حاجة إلى من فى السماء والأرض ، أو ما فى السماء والأرض فهو الغنى عن الجميع . . وهو المحمود على آلائه ، المشكور على نعمائه ، المستحق للحمد من الجميع .

***

ويستطرد السياق مرة أخرى إلى استعراض دلائل القدرة المعروضة للناس فى كل حين :

« ألم تر أن الله سخر لكم مافى الأرض ، والفلك تجرى فى البحر بأمره . ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه . إن الله بالناس لرؤوف رحيم » . .

وفى هذه الأرض كم من قوة وكم من ثروة سخرها الله لهذا الإنسان ؛ وهو غافل عن يد الله ونعمته التى يتقلب فيها بالليل والنهار !

لقد سخر الله مافى الأرض لهذا الإنسان ، فجعل نواميسها موافقة لفطرته وطاقاته . ولو اختلفت فطرة الإنسان وتركيبه عن نواميس هذه الأرض ما استطاع الحياة عليها ، فضلا على الانتفاع بها وبما فيها . . لو اختلف تركيبه الجسدى عن الدرجة التى يحتمل فيها جو هذه الأرض ، واستنشاق هوائها ، والتغذى بطعامها والارتواء بمائها لما عاش لحظة . ولو اختلفت كثافة بدنه أو كثافة الأرض عما هى عليه مااستقرت قدماه على الأرض ، ولطار فى الهواء أو غاص فى الثرى . . ولو خلا وجه هذه الأرض من الهواء أو كان هذا الهواء أكثف مما هو أو أخف لاختنق هذا الإنسان أو لعجز عن استنشاق الهواء مادة الحياة ! فتوافق نواميس هذه الأرض وفطرة هذا الإنسان هو الذى سخر الأرض وما فيها لهذا الإنسان . وهو من أمر الله .

ولقد سخر الله له مافى الأرض مما وهبه من طاقات وإدراكات صالحة لاستغلال ثروات هذه الأرض ، وما أودعه الله إياها من ثروات وطاقات ظاهرة وكامنة ؛ يكشف منها الإنسان واحدة بعد واحدة ـ وكلما احتاج إلى ثروة جديدة فض كنوزا جديدة . وكلما خشى أن ينفد رصيده من تلك الكنوز تكشف له منها رصيد جديد . . وهاهو ذا اليوم لم يستنفد بعد ثروة البترول وسائر الفلزات ثم فتح له كنز الطاقة الذرية والطاقة الايدروجينية . وإن يكن بعد كالطفل يعبث بالنار فيحرق نفسه بها ويحرق سواه ، إلا حين يهتدى بمنهج الله فى الحياة ، فيوجه طاقاتها وثرواتها إلى العمران والبناء ، ويقوم بالخلافة فى الأرض كما أرادها الله !

« والفلك تجرى فى البحر بأمره » . . فهو الذى خلق النواميس التى تسمح بجريان الفلك فى البحر . وعلم الإنسان كيف يهتدى إلى هذه النواميس ، فيسخرها لمصلحته وينتفع

بها هـذا الانتفاع . ولو اختلفت طبيعة البحر أو طبيعة الفلك . أو لو اختلفت مدارك هـذا الإنسان .. ما كان شيء من هذا الذى كان !

« ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه » .. وهو الذى خلق الـكون وفق هـذا النظام الذى اختاره له ؛ وحكم فيه تلك النواميس التى تظل بها النجوم والـكواكب مرفوعة متباعدة ، لا تسقط ولا يصدم بعضها بعضا ..

وكل تفسير فلـكى للنظام الـكونى مايزيد على أنه محاولة لتفسير الناموس المنظم للوضع القائم الذى أنشأه خالق هذا النظام . وإن كان بعضهم ينسى هـذه الحقيقة الواضحة ، فيخيل إليه أنه حين يفسر النظام الـكونى ينفى يد القدرة عن هذا الـكون ويستبعد آثارها ! وهذا وهم عجيب وانحراف فى التفكير غريب . فإن الاهتداء إلى تفسير القانون ـ على فرض صحته والنظريات الفلـكية ليست سوى فروض مدروسة لتفسير الظواهر الـكونية تصح أو لا تصح ، وتثبت اليوم وتبطل غدا بفرض جديد ـ لا ينفى وجود واضع القانون . وأثره فى إعمال هذا القانون ..

والله سبحانه « يمسك السماء أن تقع على الأرض » بفعل ذلك الناموس الذى يعمل فيها وهو من صنعه . « إلا بإذنه » وذلك يوم يعطل الناموس الذى يُعمله لحـكمة ويعطله كذلك لحـكمة .

* * *

وينتهى السياق فى استعراض دلائل القدرة ودقة الناموس بالانتقال من الـكون إلى النفس ؛ وعرض سنن الحياة والموت فى عالم الإنسان :

« وهو الذى أحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، إن الإنسان لـكفور » .

والحياة الأولى معجزة ، تتجدد فى كل حياة تنشأ آناء الليل وأطراف النهار . وسرها اللطيف مايزال غيبا يحار العقل البشرى فى تصور كنهه .. وفيه مجال فسيح للتأمل والتدبر ..

والموت سر آخر يعجز العقل البشرى عن تصور كنهه ، وهو يتم فى لحظة خاطفة ، والمسافة بين طبيعة الموت وطبيعة الحيـاة مسـافة عريضة ضخمة . . وفيه مجـال فسيح للتأمل والتدبر . .

والحياة بعد الموت ـ وهى غيب من الغيب ، ولـكن دليله حاضر من النشأة الأولى . . وفيه مجال كذلك للتأمل والتدبر ..

Marfat.com

Marfat.com

ولكن هذا الإنسان لا يتأمل ولا يتدبر هذه الدلائل والأسرار : « إن الإنسان لكفور » . .

والسياق يستعرض هذه الدلائل كلها ، ويوجه القلوب إليها فى معرض التوكيد لنصرة الله لمن يقع عليه البغى وهو يرد عن نفسه العدوان . وذلك على طريقة القرآن فى استخدام المشاهد الكونية لاستجاشة القلوب ، وفى ربط سنن الحق والعدل فى الخلق بسنن الكون ونواميس الوجود . .

* * *

وحين يصل السياق إلى هذا المقطع الفاصل من عرض دلائل القدرة فى مشاهد الكون الكبرى يتوجه بالخطاب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليمضى فى طريقه ، غير ملتفت إلى المشركين وجدالهم له ؛ فلا يمكنهم من نزاعه فى منهجه الذى اختاره الله له ، وكلفه تبليغه وسلوكه .

« لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ، فلا ينازعنك فى الأمر ، وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم وإن جادلوك فقل : الله أعلم بما تعملون . الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون . ألم تعلم أن الله يعلم مافى السماء والأرض ؟ إن ذلك فى كتاب . إن ذلك على الله يسير » . .

إن لكل أمة منهجا وطريقة فى الحياة والتفكير والسلوك والاعتقاد . هذا المنهج خاضع لسنن الله فى تصريف الطبائع والقلوب وفق المؤثرات والاستجابات . وهى سنن ثابتة مطردة دقيقة . فالأمة التى تفتح قلوبها لدواعى الهدى ودلائله فى الكون والنفس هى أمة مهتدية إلى الله بالاهتداء إلى نواميسه المؤدية إلى معرفته وطاعته . والأمة التى تغلق قلوبها دون تلك الدواعى والدلائل أمة ضالة تزداد ضلالا كلما زادت اعراضا عن الهدى ودواعيه . .

وهكذا جعل الله لكل أمة منسكا هم ناسكوه ، ومنهجا هم سالكوه . . فلا داعى إذن لأن يشغل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه بمجادلة المشركين ، وهم يصدون أنفسهم عن منسك الهدى ، ويعمدون فى منسك الضلال . والله يأمره ألا يدع لهم فرصة لينازعوه أمره ، ويجادلوه فى منهجه . كما يأمره أن يمضى على منهجه لا يتلفت ولا ينشغل بجدل المجادلين . فهو منهج مستقيم : « وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم » .

فليطمئن إذن على استقامة منهجه. واستقامته هو على الهدى فى الطريق.. فإن تعرض القوم لجداله فليختصر القول. فلا ضرورة لإضاعة الوقت والجهد:

«وإن جادلوك فقل: الله أعلم بما تعملون»..

فإنما يجدى الجدل مع القلوب المستعدة للهدى التى تطلب المعرفة وتبحث حقيقة عن الدليل. لا مع القلوب المصرة على الضلال المكابرة التى لا تحفل كل هـذا الحشد من الدواعى والدلائل فى الأنفس والآفاق وهى كثيرة معروضة للأنظار والقلوب.. فليكلهم إلى الله. فهو الذى يحكم بين المناسك والمناهج وأتباعها الحكم الفاصل الأخير:

«والله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون».

وهو الحكم الذى لا يجادل فيه أحـد، لأنه لا جدال فى ذلك اليوم، ولا نزاع فى الحكم الأخير!

والله يحكم بعلم كامل، لا يند عنه سبب ولا دليل، ولا تخفى عليه خافية فى العمل والشعور. وهو الذى يعلم مافى السماء والأرض كله؛ ومن ضمنه عملهم ونياتهم وهو بها محيط:

«ألم تعلم أن الله يعلم مافى السماء والأرض. إن ذلك فى كتاب. إن ذلك على الله يسير». وعلم الله الكامل الدقيق لا يخفى عليه شىء فى السماء ولا فى الأرض، ولا يتأثر بالمؤثرات التى تندى وتمحو. فهو كتاب يضم علم كل شىء ويحتويه.

وإن العقل البشرى ليصيبه الكلال، وهو يتأمل ـ مجرد تأمل ـ بعض مافى السماء والأرض، ويتصور إحاطة علم الله بكل هذا الحشد من الأشياء والأشخاص، والأعمال والنيات والخواطر والحركات، فى عالم المنظور وعالم الضمير. ولكن هذا كله، بالقياس إلى قدرة الله وعلمه شىء يسير: «إن ذلك على الله يسير».. وبعد أن يأمر الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا يدع للمشركين فرصة لمنازعته فى منهجه المستقيم، يكشف عما فى منهج المشركين من عوج، وعما فيه من ضعف، وعما فيه من جهل وظلم للحق؛ ويقرر أنهم محرومون من عونه تعالى ونصرته. وهم بذلك محرومون من النصير:

«ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا، وما ليس لهم به علم. وما للظالمين من نصير».

وما لوضع ولا لشرع من قوة إلا أن يستمد قوته من الله. فما لم ينزل به الله من عنده قوة، هو ضعيف هزيل، خلو من عنصر القوة الأصيل.

وهؤلاء إنما يعبدون آلهة من الأصنام والأوثان، أو من الناس أو الشيطان.. وهذه كلها

Marfat.com

لم ينزل الله بها قوة من عنده ، فهى محرومة من القوة . وهم لا يعبدونها عن علم ولا دليل يقتنعون به ، إنما هو الوهم والخرافة . ومالهم من نصير يلجأون إليه وقد حرموا من نصرة الله العزيز القدير .

وأعجب شىء أنهم وهم يعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا ، ومالیس لهم به علم . لا يستمعون لدعوة الحق ، ولا يتلقون الحديث عنها بالقبول . إنما تأخذهم العزة بالإثم ، ويكادون يبطشون بمن يتلون عليهم كلام الله : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر ، يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا » ..

إنهم لا يناهضون الحجة بالحجة ، ولا يقرعون الدليل بالدليل . إنما هم يلجأون إلى العنف والبطش عند ماتعوزهم الحجة ويخذلهم الدليل . وذلك شأن الطغاة دائما يشتجر فى نفوسهم العتو ، وتهيج فيهم روح البطش ، ولا يستمعون إلى كلمة الحق لأنهم يدركون أن ليس لهم مايدفعون به هذه الكلمة إلا العنف الغليظ !

ومن ثم يواجههم القرآن الكريم بالتهديد والوعيد : « قل : أفأنبئكم بشر من ذلكم؟» بشر من ذلكم المنكر الذى تنطوون عليه ، ومن ذلك البطش الذى تهمون به . . « النار» .. وهى الرد المناسب للبطش والمنكر «وبئس المصير » ..

* * *

ثم يعلن فى الآفاق ، على الناس جميعا ، إعلانا مدويا عاما . . يعلن عن ضعف الآلهة المدعاة ؛ الآلهة كلها التى يتخذها الناس من دون الله . ومن بينها تلك الآلهة التى يستنصر بها أولئك الظالمون ، ويركن إليها أولئك الغاشمون . يعلن عن هذا الضعف فى صورة مثل معروض للأسماع والأبصار ، مصور فى مشهد شاخص متحرك ، تتملاه العيون والقلوب . . مشهد يرسم الضعف المزرى ويمثله أبرع تمثيل :

« ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » ..

نه النداء العام ، والنفير البعيد الصدى : « ياأيها الناس » .. فإذا تجمع الناس على النداء أعلنوا أنهم أمام مثل عام يضرب ، لاحالة خاصة ولا مناسبة حاضرة : « ضرب مثل فاستمعوا له » . . هذا المثل يضع قاعدة ، ويقرر حقيقة . « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » . . كل من تدعون من دون الله من آلهة مدعاة . من أصنام وأوثان ،

Marfat.com

ومن أشخاص وقيم وأوضاع ، تستنصرون بها من دون الله ، وتستعينون بقوتها وتطلبون منها النصر والجاه . . كلهم « لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » . . والذباب صغير حقير ؛ ولكن هؤلاء الذين يدعونهم آلهة لا يقدرون ـ ولو اجتمعوا وتساندوا ـ على خلق هذا الذباب الصغير الحقير ! .

وخلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل . لأن الذباب يحتوى على ذلك السر المعجز سر الحياة . فيستوى فى استحالة خلقه مع الجمل والفيل . . ولكن الأسلوب القرآنى المعجز يختار الذباب الصغير الحقير لأن العجز عن خلقه يلقى فى الحس ظل الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل ! دون أن يخل هذا بالحقيقة فى التعبير . وهذا من بدائع الأسلوب القرآنى العجيب !

ثم يخطو خطوة أوسع فى إبراز الضعف المزرى : « وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه » . . والآلهة المدعاة لا تملك استنقاذ شىء من الذباب حين يسلبها إياه ، سواء كانت أصناما أو أوثانا أو أشخاصا ! وكم من عزيز يسلبه الذباب من الناس فلا يملكون رده . وقد اختير الذباب بالذات وهو ضعيف حقير . وهو فى الوقت ذاته يحمل أخطر الأمراض ويسلب أغلى النفائس : يسلب العيون والجوارح ، وقد يسلب الحياة والأرواح . . إنه يحمل ميكروب السل والتيفود والدوسنتاريا والرمد . . . ويسلب ما لا سبيل إلى استنقاذه وهو الضعيف الحقير ! .

وهذه حقيقة أخرى كذلك يستخدمها الأسلوب القرآنى المعجز . . ولو قال . وإن تسلبهم السباع شيئا لا يستنقذوه منها . . . لأوحى ذلك بالقوة بدل الضعف . والسباع لا تسلب شيئا أعظم مما يسلبه الذباب ! ولكنه الأسلوب القرآنى العجيب !

ويختم ذلك المثل المصور الموحى بهذا التعقيب : « ضعف الطالب والمطلوب » . ليقرر ما ألقاه المثل من ظلال ، وما أوحى به إلى المشاعر والقلوب !

وفى أنسب الظروف . . والمشاعر تفيض بالزراية والاحتقار لضعف الآلهة المدعاة يندد بسوء تقديرهم لله ، ويعرض قوة الله الحق الحقيق بأنه إله :

« ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز » . .

ما قدروا الله حق قدره ، وهم يشركون به تلك الآلهة الكليلة العاجزة التى لا تخلق ذبابا ولو تجمعت له . بل لا تستنقذ ما يسلبها الذباب إياه !

Marfat.com

Marfat.com

ما قدروا الله حق قدره ، وهم يرون آثار قدرته ، وبدائع مخلوقاته ، ثم يشركون به من لا يستطيعون خلق الذباب الحقير !

ما قدروا الله حق قدره ، وهم يستعينون بتلك الآلهة العاجزة الكليلة عن استنقاذ ما يسلبها إياه الذباب ، ويدعون الله القوى العزيز . .

إنه تقرير وتقريع فى أشد المواقف مناسبة للخشوع والخضوع !

وهنا يذكر أن الله القوى العزيز يختار رسله من الملائكة إلى الأنبياء . ويختار رسله من البشر إلى الناس . وذلك عن علم وخبرة وقدرة :

« الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس . إن الله سميع بصير . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . وإلى الله ترجع الأمور » .

فعن صاحب القوة العزيز الجناب يصدر الاختيار للملائكة والرسل . ومن لدن القوى العزيز جاء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء بسلطان من عند القوى العزيز الذى اختاره واصطفاه . فأنى يقف له من يركنون إلى تلك الآلهة العاجزة الضعيفة المزدراة ؟ !

« إن الله سميع بصير » . . فهو يسمع ويرى فيعلم « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » علما شاملا كاملا ، لا يند عنه حاضر ولا غائب ، ولا قريب ولا بعيد .

« وإليه ترجع الأمور » . . فهو الحكم الأخير ، وله السيطرة والتدبير .

* * *

والآن وقد كشف عما فى منسك المشركين من سخف وضعف ؛ وعما فى عبادتهم من قصور وجهل . . الآن يتوجه بالخطاب إلى الأمة المسلمة ، لتنهض بتكاليف دعوتها ، وتستقيم على نهجها العريق القويم :

« يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ، واعبدوا ربكم ، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم ؛ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم . هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس . فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير » . .

Marfat.com

وفى هاتين الآيتين يجمع المنهاج الذى رسمه الله لهذه الأمة ، ويلخص تكاليفها التى ناطها بها ، ويقرر مكانها الذى قدره لها ، ويثبت جذورها فى الماضى والحاضر والمستقبل ، متى استقامت على النهج الذى أراده لها الله .

إنه يبدأ بأمر الذين آمنوا بالركوع والسجود . وهما ركنا الصلاة البارزان . ويكنى عن الصلاة بالركوع والسجود ليمنحها صورة بارزة ، وحركة ظاهرة فى التعبير ، ترسمها مشهدا شاخصا ، وهيئة منظورة . لأن التعبير على هذا النحو أوقع أثرا وأقوى استجاشة للشعور[1] .

ويثنى بالأمر العام بالعبادة . وهى أشمل من الصلاة . فعبادة الله تشمل الفرائض كلها وتزيد عليها كذلك كل عمل وكل حركة وكل خالجة يتوجه بها الفرد إلى الله . فكل نشاط الإنسان فى الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادة متى توجه القلب به إلى الله . حتى لذائذه التى ينالها من طيبات الحياة بلفتة صغيرة تصبح عبادات تكتب له بها حسنات . وما عليه إلا أن يذكر الله الذى أنعم بها ، وينوى بها أن يتقوى على طاعته وعبادته فإذا هى عبادات وحسنات ، ولم يتحول فى طبيعتها شىء ، ولكن تحول القصد منها والاتجاه !

ويختم بفعل الخير عامة ، فى التعامل مع الناس بعد التعامل مع الله بالصلاة والعبادة . .

يأمر الأمة المسلمة بهذا رجاء أن تفلح . فهذه هى أسباب الفلاح . . العبادة تصلها بالله فتقوم حياتها على قاعدة ثابتة وطريق واصل . وفعل الخير يؤدى إلى استقامة الحياة ، الجماعية على قاعدة من الإيمان وأصالة الاتجاه .

فإذا استعدت الأمة المسلمة بهذه العدة من الصلة بالله واستقامة الحياة . فاستقام ضميرها واستقامت حياتها . . نهضت بالتبعة الشاقة :

« وجاهـدوا فى الله حق جهاده » . . وهو تعبير شامل جامع دقيق ، يصور تكليفا ضخما ، يحتاج إلى تلك التعبئة وهذه الذخيرة وذلك الإعداد . .

« وجاهدوا فى الله حق جهاده » . . والجهاد فى سبيل الله يشمل جهاد الأعداء ، وجهاد النفس ، وجهاد الشر والفساد . . . كلها سواء .

« وجاهدوا فى الله حق جهاده » .. فقد انتدبكم لهذه الأمانة الضخمة ، واختاركم لها من

---

(١) يراجع فصل : « طريقة القرآن » فى كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

بين عباده : « هو اجتباكم » . . وإن هذا الاختيار ليضخم التبعة ، ولا يجعل هنالك مجالا للتخلى عنها أو الفرار ! وإنه لإكرام من الله لهذه الأمة ينبغى أن يقابل منها بالشكر وحسن الأداء ! .

وهو تكليف محفوف برحمة الله : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » .. وهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته . ملحوظ فيه تلبيته تلك الفطرة . وإطلاق هذه الطاقة ، والاتجاه بها إلى البناء والاستعلاء . فلا تبقى حبيسة كالبخار المكتوم . ولا تنطلق انطلاق الحيوان الغشيم !

وهو منهج عريق أصيل فى ماضى البشرية ، موصول الماضى بالحاضر : « ملة أبيكم إبراهيم » وهو منبع التوحيد الذى اتصلت حلقاته منذ عهد إبراهيم ــ عليه السلام ــ فلم تنقطع من الأرض ، ولم تفصل بينها فجوات مضيعة لمعالم العقيدة كالفجوات التى كانت بين الرسالات قبل إبراهيم عليه السلام .

وقد سمى الله هذه الأمة الموحدة بالمسلمين . سماها كذلك من قبل وسماها كذلك فى القرآن : « هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا » . .

والإسلام إسلام الوجه والقلب لله وحده بلا شريك . فكانت الأمة المسلمة ذات منهج واحد على تتابع الأجيال والرسل والرسالات . حتى انتهى بها المطاف إلى أمة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وحتى سلمت إليها الأمانة ، وعهد إليها بالوصاية على البشرية . فاتصل ماضيها بحاضرها بمستقبلها كما أرادها الله : « ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس » . . فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يشهد على هذه الأمة ، ويحدد نهجها واتجاهها ، ويقرر صوابها وخطأها . وهى تشهد على الناس بمثل هذا ، فهى القوامة على البشرية بعد نبيها ؛ وهى الوصية على الناس بموازين شريعتها ، وتربيتها وفكرتها عن الكون والحياة . ولن تكون كذلك إلا وهى أمينة على منهجها العريق المتصل الوشائج ، المختار من الله .

ولقد ظلت هذه الأمة وصية على البشرية طالما استمسكت بذلك المنهج الإلهى وطبقته فى حياتها الواقعية . حتى إذا انحرفت عنه ، وتخلت عن تكاليفه ، ردها الله عن مكان القيادة إلى مكان التابع فى ذيل القافلة . وما تزال . ولن تزال حتى تعود إلى هذا الأمر الذى اجتباها له الله .

Marfat.com

هذا الأمر يقتضى الاحتشاد له والاستعداد .. ومن ثم يأمرها القرآن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله :

« فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله . هو مولاكم . فنعم المولى ونعم النصير » ..

فالصلاة صلة الفرد الضعيف الفانى بمصدر القوة والزاد . والزكاة صلة الجماعة بعضها ببعض والتأمين من الحاجة والفساد . والاعتصام بالله العروة الوثقى التى لا تنفصم بين المعبود والعباد .

بهذه العدة تملك الأمة المسلمة أن تنهض بتكاليف الوصاية على البشرية التى اجتباها لها الله . وتملك الانتفاع بالموارد والطاقات المادية التى تعارف الناس على أنها مصادر القوة فى الأرض . والقرآن الكريم لا يغفل من شأنها ، بل يدعو إلى إعدادها . ولكن مع حشد القوى والطاقات والزاد الذى لا ينفد ، والذى لا يملكه إلا المؤمنون بالله . فيوجهون به الحياة إلى الخير والصلاح والاستعلاء .

إن قيمة المنهج الإلهى للبشرية أنه يمضى بها قدما إلى الكمال المقدر لها فى هذه الأرض ؛ ولا يكتفى بأن يقودها اللذائذ والمتاع وحدهما كما تقاد الأنعام .

وإن القيم الإنسانية العليا لتعتمد على كفاية الحياة المادية ، ولكنها لا تقف عن هذه المدارج الأولى . وكذلك يريدها الإسلام فى كنف الوصاية الرشيدة ، المستقيمة على منهج الله فى ظل الله ..

تم الجزء السابع عشر ، ويليه الجزء الثامن عشر مبدوءا بسورة المؤمنون .

فهرس المجلد الخامس

في ظلال القرآن

السورة	مطالع الآيات	الصفحة	الجزء
سورة يوسف		٧ – ٦٠	الثالث عشر
تفسير الآيات : ٥٣ – ٧٩	وما أُبَرِّىءُ نفسيَ. إنَّ النَّفْسَ . . .	٧ – ٣٨	
» » : ٨٠ – ١٠١	فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصوا نجيًّا. . .	٣٩	
» » : ١٠٢ – ١١١	ذلِكَ من أنباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ	٤٩ – ٦٠	
سورة الرعد مكية وآياتها ٤٣		٦١ – ١٢٠	
تفسير الآيات : ١ – ١٨	الٓمٓر تِلْكَ آيٰتُ الكتٰبِ	٦٦	
» » : ١٩ – ٤٣	أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ	٨٥ – ١٢٠	
سورة ابراهيم مكية وآياتها ٥٢		١٢١ – ١٨٢	
تفسير الآيات : ١ – ٢٧	الٓر. كتابٌ أَنزَلْنٰهُ إليْك	١٣٠	
» » : ٢٨ – ٥٢	أَلَمْ تَرَ إلى الَّذين بدَّلُوا	١٦١ – ١٨٢	
سورة الحجر مكية وآياتها ٩٩		١٨٧ – ٢٢٢	الرابع عشر
تفسير الآيات : ١ – ٤٨	الٓر، تِلْكَ آياتُ الكِتابِ وقرآنٍ . .	١٨٧	
» » : ٤٩ – ٨٤	نبىء عبادي أنّي أنا الْغَفور . . .	٢٠٨	
» » : ٨٥ – ٩٩	وما خَلَقْنا السَّماوات والأرْض وما بينهما	٢١٧ – ٢٢٢	
سورة النحل مكية وآياتها ١٢٨		٢٢٣ – ٢٩٤	
تفسير الآيات : ١ – ٢١	أتىٰ أمرُ اللهِ فلا تَسْتَعجِلُوهُ	٢٢٣	
» » : ٢٢ – ٥٠	إلٰهُكُمْ إلٰهٌ واحد فالَّذين لا يؤمنون. .	٢٣٤ – ٢٤٨	
» » : ٥١ – ٧٦	وقال الله لا تتَّخذوا إلٰهين اثنينِ . .	٢٤٩	
» » : ٧٧ – ٨٩	ولِلهِ غيبُ السَّمٰواتِ والأرْضِ. . .	٢٦٤	
» » : ٩٠ – ١١١	إن الله يأمر بالعدل والاحسان. . .	٢٧١ – ٢٨٥	
» » : ١١٢ – ١٢٨	وضَرَبَ اللهُ مثلاً قرْية كانت. . . .	٢٨٦ – ٢٩٤	
سورة الاسراء مكية وآياتها ١١١		٢٩٧ – ٣٦٥	الخامس عشر
تفسير الآيات : ١ – ٢١	سُبْحانَ الَّذي أسرى بِعبْدِهِ. . . .	٢٩٧ – ٣١٤	
» » : ٢٢ – ٣٩	لا تجْعَلْ مَعَ اللهِ إلٰها آخرَ	٣١٥ – ٣٢٨	
» » : ٤٠ – ٥٧	أفأصفاكم ربُّكُمْ بالبنين واتخذ منَ.	٣٢٩	

Marfat.com

Marfat.com

السورة		مطالع الآيات	الصفحة	الجزء
« :	٥٨ – ٧٢	وإنْ من قَرْيةٍ إلاّ نحنُ مُهْلِكُوها . .	٣٣٨	الخامس عشر
« :	٧٣ – ١١١	وإن كادُوا ليفْتِنونَكَ عن الّذي أوْحَيْنا	٣٤٧ – ٣٦٥	
سورة الكهف مكية وآياتها ١١٠			٣٦٦ – ٤١٩	
تفسير الآيات :	١ – ٢٧	الحمدُ للهِ الّذي أنْزَل على عبْدِهِ الكتاب	٣٦٦ – ٣٨٠	
« :	٢٨ – ٤٦	واصبر نفسك مع الّذين يدعون ربَّهم .	٣٨١	
« :	٤٧ – ٥٩	ويوْمَ نُسيِّر الجبالُ وترى الأرض . . .	٣٨٨	
« :	٦٠ – ٨٢	وإذْ قالَ موسى لِفَتاهُ لا أبرَحُ حتى ابلُغَ .	٣٩٢ – ٤٠٠	
« :	٨٣ – ١١٠	ويسألونك عن ذي القرنين قل . . .	٤٠٣ – ٤١٩	السادس عشر
سورة مريم مكية وآياتها ٩٨			٤٢٠ – ٤٥٥	
تفسير الآيات :	١ – ٤٠	كهيعص . ذِكْرُ رَحْمة رَبّك	٤٢٠	
« :	٤١ – ٦٥	واذكرْ في الكتاب ابراهيم إنّه كان . .	٤٣٧ – ٤٤٥	
« :	٦٦ – ٩٨	ويقولُ الانسان أئذا ما مِت لَسَوْف	٤٤٦ – ٤٥٥	
سورة طه مكية وآياتها ١٣٥			٤٥٦ – ٥٠٧	
تفسير الآيات :	١ – ٩٨	طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . .	٤٥٦	
« :	٩٩ – ١٣٥	كذلك نَقُصُّ عليك من أنباء ما قدسبق	٤٩٤ – ٥٠٧	
سورة الأنبياء مكية وآياتها ١١٢			٥١١ – ٥٧٣	السابع عشر
تفسير الآيات :	١ – ٣٥	اقْترب للنّاس حِسَابُهُمْ وهم	٥١١ – ٥٣٤	
« :	٣٦ – ٤٧	وإذا رآك الّذين كفروا إن يتخذونك . .	٥٣٥	
« :	٤٨ – ٩٢	ولقد آتيْنا مُوسى وَهارون الفرقان . . .	٥٤٠ – ٥٦١	
« :	٩٣ – ١١٢	وتقطّعوا أمرَهُمْ بينهم كل إلينا	٥٦٢ – ٥٧٣	
سورة الحج مدنية وآياتها ٧٨			٥٧٤ – ٦٣٤	
تفسير الآيات :	١ – ٢٤	يا أيُّها النّاسُ اتّقوا ربّكُمْ إن	٥٧٤	
« :	٢٥ – ٤١	إنّ الّذين كفروا ويصُدُّونَ عن سبيل . .	٥٩٠ – ٦٠٧	
« :	٤٢ – ٥٧	وإن يكَذّبوكَ فقدْ كذَّبتْ قبلهم قوم . .	٦٠٨	
« :	٥٨ – ٧٨	والّذينَ هاجَرُوا في سبيل الله ثم قتلوا . .	٦١٩ – ٦٣٤	

Marfat.com